

مَجْمُوعَةُ الْفَتَاوَى

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

تَقِيَّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ تَيْمِيَّةَ الْحَرَامِيِّ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر

مكتبة العبيد

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

مَجْمُوعَةُ الْفَنَائِي

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيِّ

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

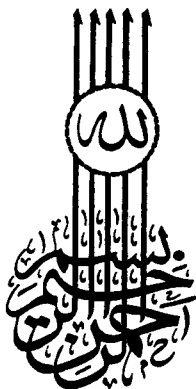
اعْتَنَى بِهَا وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهَا

عَامِرُ الْجَزَارِ أَنْوَرُ الْبَزَارِ

المجلد السادس

النَّصُوفُ وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ

مكتبة العبيكان



كتاب
التصوف

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

سُئِلَ شيخ الإسلام - قدسَ الله روحه - عن «الصوفية» وأنهم أقسام و«الفقراء» أقسام، فما صفة كل قسم؟ وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه؟

فأجاب :

الحمد لله . أما لفظ «الصوفية» : فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ؛ كالإمام أحمد ابن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعوا في المعنى الذي / أضيف إليه الصوفي، ٦/١١ فإنه من أسماء النسب؛ كالقرشي، والمدني، وأمثال ذلك .

ف قيل : إنه نسبة إلى «أهل الصفة» وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك ل قيل : صَفِيّ . وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، وهو أيضاً غلط؛ فإنه لو كان كذلك ل قيل : صَفِيّ . وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك ل قيل : صفوي . وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام .

وقيل - وهو المعروف - : إنه نسبة إلى ليس الصوف؛ فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بني دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد^(١) وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك،

(١) عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري شيخ الصوفية وواعظهم، لحق الحسن البصري وغيره . قال البخاري : تركوه . وقال النسائي : متروك الحديث . وقال الجوزجاني : سئى المذهب، ليس من معادن الصدق . توفي بعد الحسين ومائة من الهجرة . [سير أعلام النبلاء ١٧٨/٧ - ١٨٠ ، ميزان الاعتدال ٦٧٢/٢ ، ٦٧٣] .

٧/١١ | ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية. وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قومًا يتخيرون الصوف، يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا.

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن، ونحوه؛ كقصة زرارة بن أوفى^(١) قاضي البصرة، فإنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْجُورِ﴾ [المدثر: ٨] فخرّ مَيِّتًا، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري^(٢) فمات، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله؛ فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين: كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن سيرين، ونحوهم.

والمتكرون لهم مأخذان:

منهم من ظن ذلك تكلفًا وتصنعًا. يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين ٨/١١ هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق.

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدي الصحابة، كما نقل عن أسماء، وابنها عبد الله.

والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبًا عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه؛ ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا، فقال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى ابن سعيد، فما رأيت أعقل منه، ونحو هذا. وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك،

(١) أبو حاجب العامري البصري قاضي البصرة زرارة بن أوفى، وثقه النسائي وابن حبان وقال: كان من العباد، وقال أبو حبان القصاب: «صلى بنا زرارة الفجر ولما بلغ ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْجُورِ﴾. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ سَيْرٌ» [المدثر: ٨، ٩] شهِقَ شَهْقَةً فَمَاتَ. قال ابن سعد: «مات فجأة سنة ٩٣ وكان ثقة وله أحاديث». [تهذيب التهذيب ٣/٣٢٢، ٣٢٣، سير أعلام النبلاء ٤/٥١٥، ٥١٦].

(٢) صالح بن بشير بن وادع بن أبي الأقرع، أبو بشر البصري القاص المعروف بالمري. ضعفه ابن معين والدارقطني والبخاري وغيرهم. توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة، وقيل: ست وسبعين. [تهذيب التهذيب ٤/٣٨٢، ٣٨٣، سير أعلام النبلاء ٨/٤٦، ٤٧، ميزان الاعتدال ٢/٢٨٩، ٢٩٠].

وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه.

لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي وجل القلوب، ودموع العين، واقتسار الجلود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لِئَصْغُرَ مِنْهُ أَلَمٌ مِّنَ الْأَلَمِ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها، والجفاء عن الدين، ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

أحدها: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب، لا يلين للسمع والذكر، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنَّا تَصَلُّونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والثانية: حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذي يصعق صعق موت، أو صعق غشى، فإن ذلك/إنما يكون لقوة الوارد، وضعف القلب عن ١٠/١١ حملة، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله. ومن عبادة الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جنته، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك.

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه

للريية. كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفتا، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها؛ فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً، بل معذوراً فإن السكران بلا تمييز، وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر، وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل:

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

١١/١١ | وهذا مذموم؛ لأن سببه محظور، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر، وهذا أيضاً مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم، ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان مجرمًا، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية، ولو بأمر فيها نوع من الإيمان، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، ولم يأذن لنا الله أن نمتنع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا؛ بخلاف من زال عقله بسبب مشروع، أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه.

وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه، ويحرك ساكنه، ونحو ذلك. وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالغمى عليه والمجنون ونحوهما.

ومن زال عقله بالخمر. فهل هو مكلف حال زوال عقله؟ فيه قولان مشهوران، وفي طلاق من هذه حاله نزاع مشهور، ومن زال عقله بالبنج يلحق به، كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد، وقيل: يفرق بينه وبين الخمر؛ لأن هذا يشتهي، وهذا لا يشتهي؛ ولهذا/أوجب الحد في هذا دون هذا، وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة.

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، إما بسبب خلط يغلب عليه، وإما بغير ذلك، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك، وقد يسمون المولهي^(١). قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً؛ فسلب عقولهم، وأسقط ما فرض بما سلب.

(١) المولهي: الوكّ: الحزن، وقيل: هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن. انظر: لسان العرب، مادة «وله».

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لتقص إيمانهم وقسوة قلوبهم، ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله.

ولكن من لم يزل عقله، مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه، فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة - رضي الله عنهم - وهو حال نبينا ﷺ فإنه أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من/حال موسى ﷺ الذي خر صعقاً لما تجلّى ربه للجبل، وحال موسى حال جليلة ١٣/١١ عليه فاضلة، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل.

والمقصود أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف، فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام^(١) وعطاء السليمي^(٢) وأمثالهما أمر عظيم. ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم. ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة، فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء، وهو حال الصحابة - رضي الله عنهم - وقد روي: أن عطاء السليمي - رضي الله عنه - روي بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي: يا عطاء، أما استحييت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أنني غفور رحيم؟!

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك، قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة - رضي الله عنهم - وعلى ما سنه الرسول أمور توجب أن يصير الناس طرفين:

قوم يذمون هؤلاء ويتقصونهم، وربما أسرفوا في ذلك.

١٤/١١ /وقوم يغفلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها.

والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون، كما كان جيرانهم من أهل

(١) عتبة الغلام هو عتبة بن أبان البصري الزاهد الخاشع، من نساك أهل البصرة. استشهد في حرب الروم. [سير أعلام النبلاء ٦/٦٢].

(٢) عطاء السليمي البصري العابد، أدرك أنساً، سمع من الحسن البصري وجعفر بن زيد. قيل: إنه مات بعد الأربعين ومائة. [سير أعلام النبلاء ٦/٨٦-٨٨].

الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك. وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس.

وخيار الناس من «أهل الفقه والرأي» في أولئك الكوفيين على طرفين:

قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم.

وقوم يغفلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم، وربما فضلواهم على الصحابة. كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة، وهذا باب يفترق فيه الناس.

والصواب: للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم، كما ١١/٥ قال الله تعالى: ﴿فَأَقْوَا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١)، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأن كثيراً من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة، فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده، فلا بد أن يصدر منه خطأ: إما في علومه وأقواله، وإما في أعماله وأحواله، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم؛ فإن الله تعالى قال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦] قال الله تعالى: قد فعلت^(٢).

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء، أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ، ضال مبتدع، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيياً ممقوتاً، فهو مخطئ ضال مبتدع.

ثم الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون، يصيبون تارة، ويخطئون تارة، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه، أحب الرجل مطلقاً، وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً، وأعرض عن حسناته، محاط^(٣) وحال ١٦/١١ من يقول بالتحافظ^(٤) وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة.

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم فى الفضائل (٢٣٣٧ / ١٣٠).

(٢) مسلم فى الإيمان (٢٠٠ / ١٢٦).

(٣) هكذا بالأصل .

وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه، وما يحمد عليه وما يذم عليه، وما يحب منه وما يبغض منه، فهذا هذا.

وإذا عرف أن منشأ «التصوف» كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد، مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف. فقليل في أحدهم : «صوفي» وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم «التصوف» عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: «الصوفي» من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوى، وأشباه ذلك. وهم يسرون بالصوفي إلى/معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون. كما قال الله تعالى: ١٧/١١ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقو العلماء، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين : إنهم صديقون، فهو كما يقول عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع؛ ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات، حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت «الصوفية والتصوف». وقالوا: إنهم/مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل ١٨/١١

(١) في المطبوعة: «أولئك الذين» والصواب ما أثبتناه.

عن طائفة الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل
الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه
الأمر ذميم .

و الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ،
ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل
من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ؛ ولكن عند المحققين من أهل
التصوف ليسوا منهم : كالحلاج مثلا ؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن
الطريق ؛ مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره . كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن
السلمي^(١) في «طبقات الصوفية» وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد .

١٩/١١ فهذا أصل التصوف . ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت /الصوفية «ثلاثة
أصناف» : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق : فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وقفت عليهم الوقوف . كالخوانك ، فلا يشترط في
هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق . فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم
الخوانك ؛ ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

والثاني : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات ، وأما
الآداب البدعية والوضعية فلا يلتفت إليها .

و الثالث : ألا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعًا للمال ، أو
كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقًا فإنه لا

(١) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم بن زاوية بن سعيد بن قبيصة بن
سراق ، الأزدي ، السلمي الأم . شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم . ولد في عاشر
جمادي الآخرة سنة ثلاثين وثلاثمائة ، تكلم فيه ، وليس بعمدة ولا ثقة ، وكان يضع للصوفية الأحاديث .
توفي في شعبان سنة اثنتي عشرة وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء ١٧/٢٤٧-٢٥٥ ، ميزان الاعتدال ٣/٥٢٣ ،
٥٢٤].

يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على/زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ٢٠/١١ ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم .

وأما اسم «الفقير»: فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لكن المراد به في الكتاب والسنة الفقير المضاد للغني . كما قال النبي ﷺ (١) و«الفقراء والفقراء» أنواع: فمنه المسوَّغ لأخذ الزكاة . وضده الغني المانع لأخذ الزكاة، كما قال النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لقوي مكتسب» (٢) والغني الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء؛ كمالك والشافعي وأحمد، وهو ملك النصاب . وعندهم قد تجب على الرجل الزكاة، ويباح له أخذ الزكاة خلافاً لأبي حنيفة .

والله - سبحانه - قد ذكر الفقراء في مواضع، لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للفيء في آية . فقال في الأولى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧١-٢٧٣] . وقال في الثانية: ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الآية إلى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ [الحشر: ٦-٨] .

وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم .

وقد تنازع الناس أيما أفضل: الفقير الصابر، أو الغني الشاكر؟ والصحيح: أن أفضلهما أتقاهما؛ فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة كما قد بيناه في غير هذا الموضع، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لأنه لا حساب عليهم . ثم الأغنياء يحاسبون، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير، كانت درجته في الجنة أعلى، وإن تأخر عنه في الدخول . ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه، لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد، وهو من

(١) هكذا بالأصل .

(٢) النسائي في الزكاة (٢٥٩٧) والترمذي في الزكاة (٦٥٢) وقال: « حديث حسن » .

جنس التصوف.

فإذا قيل: هذا فيه فقر أو ما فيه فقر لم يرد به عدم المال، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب ونحو ذلك.

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيما أفضل: الفقير، أو الصوفي؟ فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفي، كأبي جعفر السهروردي ونحوه، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير، ٢٢/١١ كطوائف كثيرين، وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك، وأكثر الناس قد رجحوا الفقير.

والتحقيق أن أفضلهما أتقاهما، فإن كان الصوفي أتقى لله كان أفضل منه، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله، وأترك لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه، فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة.

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي، ولئن سألتني ل أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه» (١). وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين، أصحاب اليمين والمقرين السابقين.

فالصنف الأول: الذين تقربوا إلى الله بالفرائض. والصنف الثاني الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم، كما قال تعالى.

(١) البخاري في الرقاق (٢٠٦٠) من غير ذكر «في يسمع وببي يبصر وببي يبطش وببي يمشي».

وهذان الصنفان قد ذكرهم الله في غير موضع من كتابه كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرْوَاحِ يُنْظَرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ . يَخْتَلِمُ مِسْكَ . وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . وَمِرَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨]، قال ابن عباس: يشرب بها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً. وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلًا . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ^(١) الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . وَأَصْحَابُ الشِّمْعَةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمْعَةِ . وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨ - ١١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩١].

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع . والله أعلم .

(١) في المطبوعة: «وأصحاب » ، والصواب ما أثبتناه .

٢٤/١١ / وسائل :

ما تقول الفقهاء - رضي الله عنهم - في رجل يقول: إن الفقر لم نتعبد به، ولم نؤمر به، ولا جسم له، ولا معنى، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به والعمل به، والتقوى والورع عن المحارم، و«الفقر» المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا يفيد العلم الشرعي فيكون الزهد في الدنيا العمل بالعلم، وهذا هو الفقر، فإذا الفقر فرع من فروع العلم، والأمر على هذا. وما ثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم، على ما صح وثبت عن النبي ﷺ.

ويقول: إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزي المشروع في هذه الأعصار من الزي والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضي لله ولا لرسوله، فهل الأمر كما قال، أو غير ذلك؟ أفتونا مأجورين.

٢٥/١١ / فأجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية - رضي الله عنه - :

الحمد لله، أصل هذه «المسألة» أن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه، مثل لفظ الإيمان، والبر، والتقوى، والصدق، والعدل، والإحسان، والصبر، والشكر، والتوكل، والخوف، والرجاء، والحب لله، والطاعة لله وللرسول، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد، ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن. فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله؛ كالكفر، والنفاق والكذب، والإثم والعدوان، والظلم والجور والهلع، والشرك والبخل والجبن، وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك. فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه. هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم. صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل : علم شرعي، وعمل شرعي، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغير علم كان ضالاً، وقد أمرنا الله - سبحانه - أن نقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ» [الفاتحة: ٦ - ٧]. قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(١)، وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به، والنصارى عبدوا الله بغير علم. ٢٦/١١

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. وكانوا يقولون: من فسد من العلماء فقيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من العباد فقيه شبه من النصارى، فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً، ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلاً، وأضل منهما من سلك في العلم طريق أهل البدع؛ فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوماً وهي جهالات. وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع، فيعمل أعمالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات. فهذا وهذا كثير في المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقه. يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل، والعمل دون العلم، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة، وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل، يكون كلاهما موافقاً الشريعة.

فالسالك طريق «الفقر والتصوف والزهد والعبادة» إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه. والسالك من «الفقه والعلم والنظر والكلام» إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق. فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم. ٢٧/١١

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَّبِعْ هُدًى مِنْ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ولا ريب أن لفظ «الفقر» في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله، وفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك، بل الفقر عندهم ضد الغنى. و الفقراء هم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وفي قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]. والغني هو الذي لا يحل له أخذ الزكاة، أو الذي تجب عليه الزكاة، أو ما يشبه ذلك؛ لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً أو كرهاً؛ إذ من العصمة ألا تقدر، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد، والزهد قد يكون مع الغنى، وقد يكون مع الفقر. ففي الأنبياء والسابقين الأولين من هو زاهد مع غناه كثير..

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال: «حسن غريب»، وأحمد ٣٧٨/٤، وابن حبان في الموارد (١٧١٥).

و «الزهد» المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله ٢٨/١١ فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع. وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ الصوفي، ٢٩/١١ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد، ومن قال: إن الصوفي نسبة إلى الصفة، أو الصفا/أو الصف الأول، أو صوفة بن بشر بن أد بن طابخة، أو صوفة القفا؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى، لكن من الناس من قد لمحو الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه.

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر، وكان من القدرية كالمعتزلة ونحوهم، الذين هم مجوس هذه الأمة. فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس، ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب - سبحانه - وخاصة، كما نقل ذلك عنه. فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

وكذلك هم في «الأحوال، والأفعال» فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل ٣٠/١١ المأمور، ويترك المحذور، ويصبر على ما يصيبه/من المقدور، فهو عند الأمر والدين والشرعية، ويستعين بالله على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى المخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه سيد: الاستغفار أن يقول العبد: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (١) فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات. ويعلم أنه هو هداه ويسره ليسرى. ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها. كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك، والمنة لك. وعصيتك بعلمك، والحجة لك. فأسألك بوجوب حجتك على، وانقطاع حجتى إلا غفرت لي.

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢) وهذا له

(١) البخارى فى الدعوات (٦٣٢٣).

(٢) مسلم فى البر والصلة (٢٥٧٧/٥٥).

تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون «الأمر» فقط ، فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر. ٣١/١١ وآخرون يشهدون «القدر» فقط، فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك ، لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله ، واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين . فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه . والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه ، والمؤمن يعبد ويستعينه .

والقسم الرابع: شر الأقسام وهو من لا يعبد ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ، ولا مع القدر الكوني ، وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل المقدور من توكل واستعانة ، ونحو ذلك . وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك ، فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام: أحدها: أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو ماله أو ٣٢/١١ في عرضه ، أو ابتلى بعدو يخيفه ، عظم جزعه ، وظهر لهله .

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى : مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص ، والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب ، وأخذ الحرام ، والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها ، وكذلك طلاب الرياسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها كثير من الناس .

وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم ، يصبرون في مثل ما يهونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام ، وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرياسة ، والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك ، يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب : كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

٣٣/١١ / وأما القسم الرابع: فهو شر الأقسام، لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا، إن قهرتهم ذلوا لك، وناقوك، وحبوك واسترحموك، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل، وتعظيم المسؤول، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس، وأقساهم قلباً، وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً. كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد: مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون، ومن يشبههم في كثير من أمورهم، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق. فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم، كان شبيهاً لهم من هذا الوجه، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهره منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار. وفي الصحيح عن النبي ﷺ ٣٤/١١ أنه كان يقول في خطبه: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» (١).

وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب، وهو به أشبه، كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق، والكمال هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه، كان أكمل وأفضل. وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه، وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

(١) مسلم في الجمعة (٤٣/٨٦٧، ٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٤٥)، كلاهما عن جابر بن عبد الله.

أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَآئِنْتُمْ أَوْلَاءُ ۚ ۝٣٥/١١ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَايِلٌ مِنَ الْيَمِينِ قُلْ مُوتُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠]، وقال أخوة يوسف له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]. وفي اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها: تصديقاً لخبر الله، وطاعة لأمره، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلِيلٍ إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ . وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ۖ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

/ وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ ٣٦/١١ [البلد: ١٧] وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها، فإن القسمة أيضاً رباعية. إذ من الناس من يصبر ولا يرحم: كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر: كأهل الضعف واللين، مثل كثير من النساء ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم؛ كما قال الفقهاء في صفة المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عتف، ليناً من غير ضعف، فبصبره يقوى، وبليته يرحم، وبالصبر ينصر العبد، فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى. كما قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١)، وقال: «من لم يرحم لا يرحم»^(٢)، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٣). والله أعلم. انتهى.

(١) البخارى فى الجنائز (١٢٨٤) ومسلم فى الجنائز (١١/٩٢٣).

(٢) البخارى فى الادب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٦٥/٢٣١٨).

(٣) أبو داود فى الادب (٤٩٤١، ٤٩٤٢) والترمذى فى البر (١٩٢٣، ١٩٢٤).

٣٧/١١ /سئل شيخ الإسلام وقدوة الأنام ومفتي الفرق وناصر السنة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية - رضي الله عنه - عن «أهل الصفة» كم كانوا؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة؟ وأين موضعهم الذي كانوا يقيمون فيه؟ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلا خروج حاجة؟ أو كان منهم من يقعد بالصفة؟ ومنهم من يتسبب في القوت؟ وما كان تسبيهم؟ هل يعملون بأبدانهم ، أم يشحذون بالزنبيل^(١)؟ وفي من يعتقد أن «أهل الصفة» قاتلوا المؤمنين مع المشركين؟ وفيمن يعتقد أن «أهل الصفة» أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - ؟ ومن الستة الباقين من العشرة؟ ومن جميع الصحابة؟ وهل كان فيهم أحد من العشرة؟ وهل كان في ذلك الزمان أحد ينذر لأهل الصفة؟ وهل تواجدوا على دف أو شبابة^(٢)؟ أو كان لهم حاد ينشد الأشعار ويتحركون عليها بالتصديّة ويتواجدون ؟

وعن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْشِ﴾ ٣٨/١١ [الكهف: ٢٨] هل هي مخصوصة بأهل الصفة؟ أم هي/عامة ؟ وهل الحديث الذي يرويه كثير من العامة ويقولون: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله: لا الناس يعرفونه ولا الولي يعرف أنه ولي»^(٣) صحيح؟ وهل تخفى حالة الأولياء أو طريقتهم على أهل العلم أو غيرهم؟ ولماذا سمى الولي ولياً؛ وما المراد بالولي؟ وما الفقراء الذين يسبقون الأغنياء إلى الجنة؟ وما الفقراء الذين أوصى بهم في كلامه. وذكرهم سيد خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ في سنته. هل هم الذين لا يملكون كفايتهم أهل الفاقة والحاجة أم لا ؟

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية - رضي الله

(١) الزنبيل : خطأ لغة، والصواب: الزَّبِيل : وهي القفة أو الجراب ، وهو الوعاء الذي يحمل فيه زُبُل وزُبُلان . انظر : معجم متن اللغة ١٤/٣ .

(٢) الشبابة : آلة طرب متخذة من القصب المجوف . يقال لها : البراع ويعبر عنها بالزمار العراقي وهي معروفة إلى اليوم . انظر : معجم متن اللغة ٣/٢٦٤ .

(٣) كشف الخفا ٢/١٩٤ (٢٢٤٩) ، والأسرار المرفوعة للشيخ على القاري (٤٢٠) وقال : «لا أصل له وهو كلام باطل؛ فإن الجماعة قد يكونون فجارا يموتون على الكفر أو الفجور» . كذا ذكره بعضهم ولو حدد سنده فباب التأويل واسع عندهم .

عنه - بقلمه ما صورته:

الحمد لله رب العالمين.

أما «الصفة» التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي ﷺ فكانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوى إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوى إليه؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ والمؤمنين أن ٣٩/١١ يهاجروا إلى المدينة النبوية، حين آمن من آمن من أكابر أهل المدينة من الأوس والخزرج، وبايعهم بيعة العقبة عند منى، وصار للمؤمنين دار عز ومنعة، جعل المؤمنون من أهل مكة وغيرهم يهاجرون إلى المدينة، وكان المؤمنون السابقون بها صنفين: المهاجرين الذين هاجروا إليها من بلادهم، والأنصار الذين هم أهل المدينة، وكان من لم يهاجر من الأعراب وغيرهم من المسلمين لهم حكم آخر. وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابرهم لهم بالقيد والحبس، وآخرون كانوا مقيمين بين ظهرائي الكفار المستظهرين عليهم.

فكل هذه الأصناف مذكورة في القرآن، وحكمهم باق إلى يوم القيامة في أشباههم ونظرائهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ مِمَّنْ شَقِيَ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٢ - ٧٤] فهذا في السابقين.

ثم ذكر من اتبعهم إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ٤٠/١١ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، [الأنفال: ٧٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ أُولَئِكَ الْمُتَأَخِّرُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠].

وذكر في السورة الأعراب المؤمنين، وذكر المنافقين من أهل المدينة ومن حولها، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَاُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم من ينزل على الأنصار بأهله ، أو بغير أهله ؛ لأن المبايعة كانت على أن يؤوؤهم ، ويواسوهم ، وكان في بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على من ينزل عنده منهم ، وكان النبي ﷺ قد حالف بين المهاجرين والأنصار ، وأخى بينهم ، ثم صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء ؛ فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه .

٤١/١١ والنبي ﷺ يغزو الكفار تارة بنفسه ، وتارة بسراياه / فيسلم خلق تارة ظاهراً وباطناً ، وتارة ظاهراً فقط ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء ، والأهلين والعزباء ، فكان من لم يتيسر له مكان يأوى إليه ، يأوى إلى تلك الصفة التي في المسجد ، ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد ، بل منهم من يتأهل ، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له . ويجيء ناس بعد ناس ، فكانوا تارة يقلون ، وتارة يكثرون ، فتارة يكونون عشرة أو أقل ، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر ، وتارة يكونون ستين وسبعين .

وأما جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم ، فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقد قيل : كانوا أكثر من ذلك ولم يعرف كل واحد منهم . وقد جمع أسماءهم « الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي » في كتاب « تاريخ أهل الصفة » جمع ذكر من بلغه أنه كان من « أهل الصفة » وكان معتنياً بذكر أخبار النساك ، والصوفية ؛ والآثار التي يستندون إليها ، والكلمات الماثورة عنهم ، وجمع أخبار زهاد السلف ، وأخبار جميع من بلغه أنه كان من أهل الصفة ، وكم بلغوا ، وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة . وجمع أيضاً في الأبواب : مثل حقائق التفسير . ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه ، ومثل كلامهم في التوحيد والمعرفة والمحبة ، ومسألة السماع وغير ذلك من الأحوال ، وغير ذلك من الأبواب . وفيما جمعه فوائد كثيرة ، ومنافع جليلة .

٤٢/١١ / وهو في نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل . وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شيء كثير . ويروى أحياناً أخباراً ضعيفة بل موضوعة ، يعلم العلماء أنها كذب .

وقد تكلم بعض حفاظ الحديث في سماعه .

وكان البيهقي إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه . وما يظن به وبأمثاله إن شاء الله تعمد الكذب ، لكن لعدم الحفظ والإتقان يدخل عليهم الخطأ في

الرواية؛ فإن النساك والعباد منهم من هو متقن في الحديث، مثل ثابت البناني^(١)، والفضيل بن عياض، وأمثالهما، ومنهم من قد يقع في بعض حديثه غلط، وضعف، مثل مالك بن دينار وفرقد السبخي^(٢) ونحوهما.

وكذلك ما يآثره أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين في الطريق أو ينتصر له من الأقوال والأفعال والأحوال. فيه من الهدى والعلم شيء كثير. وفيه - أحياناً - من الخطأ أشياء؛ وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ. وبعضه باطل قطعاً. مثل ما ذكر في حقائق التفسير قطعة كبيرة عن جعفر الصادق وغيره من الآثار الموضوعة. وذكر عن بعض طائفة أنواعاً من الإشارات التي بعضها أمثال حسنة، واستدلالات مناسبة. وبعضها من نوع الباطل واللغو.

/فالذي جمعه (الشيخ أبو عبد الرحمن) ونحوه في تاريخ أهل الصفة وأخبار زهاد ٤٣/١١ السلف، وطبقات الصوفية، يستفاد منه فوائد جلية، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة.

وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين، وغيرهم. يوجد فيما يآثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرونه معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى، ودين الحق، الذي بعث الله به رسوله. ويوجد - أحياناً - عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير.

ومن له في الأمة لسان صدق عام، بحيث يثنى عليه، ويحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم، وعامته من موارد الاجتهاد التي يعذرون فيها، وهم الذين يتبعون العلم والعدل، فهم بعداء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن، وما تهوى الأنفس.

(١) أبو محمد ثابت بن أسلم البناني البصري، كان من أئمة أهل العلم والعمل، ولد في خلافة معاوية، وثقه العجلي والنسائي وابن حبان، وغيرهم، توفي سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقيل: سبع وعشرين. [تهذيب التهذيب ٢/٢، وسير أعلام النبلاء ٥/٢٢٠ - ٢٢٣].

(٢) هو فرقد بن يعقوب السبخي أبو يعقوب البصري من سبخة البصرة، وقيل: من سبخة الكوفة، روى عن أنس وسعيد بن جبيرة. قال البخاري: في حديثه مناكير، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال يعقوب بن شيبة: رجل صالح ضعيف الحديث جداً، وقال ابن حبان: كانت فيه غفلة ورداء حفظ فكان يرفع المراسيل وهو لا يعلم. وقال ابن سعد: مات بالطاعون سنة ١٣١ هـ. [تهذيب التهذيب ٨/٢٦٢، ٢٦٣].

فصل /

وأما حال «أهل الصفة» هم وغيرهم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا في الصفة، أو كانوا يكونون بها بعض الأوقات، فكما وصفهم الله تعالى في كتابه، حيث بين مستحقي الصدقة منهم، ومستحقي الفبيء منهم. فقال: ﴿إِنْ بُدِّدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧١، ٢٧٢]. وقال في أهل الفبيء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُحْجَرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يصددهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله ورسوله من الكسب، وأما إذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب، فكانوا يقدمون ما هو أقرب إلى الله ورسوله، وكان أهل الصفة ضيوف الإسلام، يبعث إليهم النبي ﷺ بما يكون عنده، فإن الغالب كان عليهم الحاجة لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق.

وأما «المسألة» فكانوا فيها كما أدبهم النبي ﷺ حيث حرّمها على المستغني عنها، وأباح منها أن يسأل الرجل حقه، مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله، أو يسأل إذا كان لابد سائلاً الصالحين الموسرين إذا احتاج إلى ذلك، ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقاً، حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد: ناولني إياه.

وهذا الباب فيه أحاديث وتفصيل. وكلام العلماء لا يسعه هذا المكان. مثل قوله ﷺ لعمر بن الخطاب: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذ، وما لا فلا تتبعه نفسك» (١) ومثل قوله: «من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» (٢) ومثل قوله: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته خدوشاً» (٣)، أو خموشاً (٤)، أو كدوشاً (٥) في

(١) البخاري في الأحكام (٧١٦٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٥/١١، ١١١)، كلاهما عن عبد الله بن عمر.
(٢) البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، وفي الرقاق (٦٤٧٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣/١٢٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) والدارمي في الزكاة ٣٨٧/١، ومالك في الموطأ ٩٩٧/٢ (٧)، وأحمد ١٢/٣، ٤٧، ٩٣، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، كلهم عن أبي سعيد الخدري.
(٣) خدوشا: خدش الجلد: قشره يعود أو نحوه. خدشه، يخدشه خدشاً والجمع خدوش. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٤/٢.

(٤) خموشا: هو بمعنى الخدوش. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٨٠.

(٥) كدوشا: الكدش: الجرح. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/١٥٥.

وجهه»^(١) ومثل قوله: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»^(٢) إلى غير ذلك من الأحاديث.

/وأما الجائز منها فمثل ما أخبر الله تعالى عن موسى والخضر: أنهما أتيا أهل قرية ٦/١١ فاستطعما أهلها. ومثل قوله: «لا تحل المسألة إلا لذي دم موجد، أو غرم مقطع، أو فقر مدقع»^(٣) ^(٤) ومثل قوله لقبیصة بن مخارق الهلالي: «يا قبیصة، لا تحل المسألة إلا لثلاثة: رجل أصابته جائحة»^(٥) اجتاحت ماله، فسأل حتى يجد سداداً»^(٦) من عيش، أو قواماً»^(٧) من عيش، ثم يمسك. ورجل أصابته فاقة»^(٨)، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا»^(٩) من قومه فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة، فسأل حتى يجد سداداً من عيش أو قواماً من عيش ثم يمسك. ورجل تحمل حمالة فسأل حتى يجد حمالته، ثم يمسك. وما سوى ذلك من المسألة فإنما هي سحت يأكله صاحبه سحتاً»^(١٠) ^(١١).

ولم يكن في الصحابة لا أهل الصفة ولا غيرهم من يتخذ مسألة الناس، ولا الإلحاف في المسألة بالكدية، والشحاذة لا بالزنبيل ولا غيره صناعة وحرقة، بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك، كما لم يكن في الصحابة أيضاً أهل فضول من الأموال يتركون، لا يؤدون الزكاة ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يعطون في النوائب. بل هذان الصنفان الظالمان المصران على الظلم الظاهر، من مانعي الزكاة، والحقوق الواجبة، والمتعدين حدود الله تعالى في أخذ أموال الناس كانا معدومين في الصحابة المثني عليهم.

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٢٦)، والترمذي في الزكاة (٦٥٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٠)، وأحمد ١/٣٨٨، ٤٤١، والحاكم ١/٤٠٧، كلهم عن عبد الله بن مسعود.

(٢) البخاري في الزكاة (١٤٧١) وفي البيوع (٢٠٧٥) وفي المساقاة (٢٣٧٣) عن الزبير بن العوام، والترمذي في الزكاة (٦٨٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٩) وأحمد ٢/٢٤٣، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٩٥، ٤١٨، ٤٧٥، كلهم عن أبي هريرة.

(٣) مدقع: أي: شديد يفضي بصاحبه إلى الدقعاء. وقيل: هو سوء احتمال الفقر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/١٢٧.

(٤) الترمذي في الزكاة (٦٥٣) وقال: «غريب من هذا الوجه».

(٥) جائحة: الجائحة هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها. انظر: اللسان، مادة «جوح»

(٦) السداد: هو ما يفي من الشيء وما تسد بها الحاجة. انظر: النهاية ٢/٣٥٣.

(٧) قواماً من عيش: أي يجد ما تقوم به حاجته من معيشة. انظر: النهاية ٤/١٢٤.

(٨) فاقة: فقر وحاجة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/٤٨٠.

(٩) الحجا: العقل. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/٣٤٨.

(١٠) السحت: الحرام. الذي لا يحل كسبه لأنه يسحت البركة أي يذهبها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٣٤٥.

(١١) مسلم في الزكاة (١٠٤٤/١٠٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٠، ٢٥٩١)، والدارمي في الزكاة ١/٣٩٦، كلهم عن قبیصة.

وأما من قال: إن أحدا من الصحابة، أهل الصفة أو غيرهم أو التابعين أو تابعي التابعين، قاتل مع الكفار، أو قاتلوا النبي ﷺ، أو أصحابه، أو أنهم كانوا يستحلون ذلك، أو أنه يجوز ذلك. فهذا ضال غاو، بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك، فإن تاب وإلا قتل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، بل كان أهل الصفة وغيرهم كالقراء الذين قنت النبي ﷺ يدعو على من قتلهم من أعظم الصحابة إيمانا وجهادا مع رسول الله ﷺ ونصرا لله ورسوله، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَظَلَّ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذَلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفُ عَلَى الْكُفَرِيِّنَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد غزا النبي ﷺ غزوات متعددة، وكان القتال منها في تسع مغاز: مثل بدر ، وأحد. والخندق، وخيبر، وحنين، وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا ، ثم عادوا يوم حنين، ونصرهم الله ببدر وهم أذلة، وحصلوا في الخندق حتى دفع الله عنهم أولئك الأعداء، وفي جميع المواطن كان يكون المؤمنون من أهل الصفة وغيرهم مع النبي ﷺ ، لم يقاتلوا مع الكفار قط، وإنما يظن هذا ويقولوه من الضلال والمنافقين قسما:

قسم منافقون. وإن أظهروا الإسلام، وكان في بعضهم زهادة وعبادة، يظنون أن إلى الله طريقا غير الإيمان بالرسول ومتابعته، وأن من أولياء الله من يستغنى عن متابعة الرسول، كاستغناء الخضر عن متابعة موسى، وفي هؤلاء من يفضل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبي ﷺ: إما تفضيلاً مطلقاً، أو في بعض صفات الكمال. وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحجة عليهم.

فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم وزهادهم ٤٩/١١ وملوكهم. وموسى - عليه السلام - إنما بعث إلى قومه لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباعه، بل قال له: إني على علم من علم الله تعالى علمنيه الله لا تعلمه. وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. وقد قال النبي ﷺ: «وكان

النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١)، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولًا ۗ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۗ الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

والقسم الثاني : من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا، ويظن أن دين الله الموافقة للقدر، سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله، أو الإعراض عنهم والكفر بهم، وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان، وأهل الجنة كأهل النار، وأولياء الله كأعداء الله، وربما جعلوا هذا من (باب الرضا بالقضاء) وربما جعلوه «التوحيد والحقيقة» بناء على أنه توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون ، وأنه «الحقيقة الكونية».

/وهؤلاء يعبدون الله على حرف: فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وأن أصابتهم فتنة ٥٠/١١ انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة، وغالبهم يتوسعون في ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالاً لله، ويجعلون أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته، ويقولون: ما في الوجود غيره، ولا سواه، بمعنى أن المخلوق هو الخالق، والمصنوع هو الصانع، وقد يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ويقولون: ﴿أَتُنْفِئُكُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْتُمُ﴾ [يس: ٤٧]. إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التي هي شر من مقالات اليهود والنصارى، بل ومن مقالات المشركين والمجوس، وسائر الكفار، من جنس مقالة فرعون والدجال، ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارئ رب العالمين، أو يقولون: إنه هو ، أو أنه حل فيه .

وهؤلاء كفار بأصلي الإسلام وهما : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .

فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، ولا نجعل له ندا في إلهيته، لا شريكاً ولا شفعياً. فأما «توحيد الربوبية» وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء، فهذا قد أقر به المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال ابن عباس: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: /الله، وهم يعبدون غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ٥١/١١ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ

(١) البخارى فى التيمم (٣٣٥) .

تَعْمُوتُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] .

فالكفار المشركون مقرون أن الله خالق السموات والأرض، وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكاً مساوياً له في ذاته وصفاته وأفعاله، هذا لم يقله أحد قط، لا من المجوس الثنوية، ولا من أهل التلثية، ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة، ولا من عباد الأنبياء والصالحين، ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم؛ فإن جميع هؤلاء - وإن كانوا كفاراً مشركين متنوعين في الشرك - فهم مقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته، وجميع أفعاله؛ ولكنهم مع هذا مشركون به في ألوهيته، بأن يعبدوا معه آلهة أخرى، يتخذونها شفعاء أو شركاء. أو في ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب بعض الكائنات دونه، مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب، وخالق ذلك الخلق.

٥٢/١١ وقد أرسل الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد/الذي هو عبادة الله وحده، لا شريك له. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعتهم.

والإيمان بالرسول، هو «الأصل الثاني» من أصول الإسلام، فمن لم يؤمن بأن محمداً رسول الله إلى جميع العالمين، وأنه يجب على جميع الخلق متابعتة، وأن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه، فهو كافر؛ مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوز الخروج عن دينه وشرعته وطاعته؛ إما عموماً وإما خصوصاً، ويجوز إعانة الكفار والفجار على إفساد دينه وشرعته.

٥٣/١١ ويحتجون بما يفترونه: أن أهل الصفة قاتلوه. وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان الله معه كنا معه، يريدون بذلك القدر و «الحقيقة الكونية» دون الأمر و «الحقيقة الدينية» ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار، ويخفرهم بقلبه وهمته، وتوجهه من ذوي

الفقر، ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله، وأن الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم، وكل هذا ضلال وباطل. وإن كان لأصحابه زهد وعبادة، فهم في العباد؛ مثل أوليائهم من التار ونحوهم في الأجناد، فإن «المرء على دين خليله»^(١)، و«المرء مع من أحب»^(٢) هكذا قال النبي ﷺ، قد جعل الله المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكافرين بعضهم أولياء بعض.

وقد أمر النبي ﷺ بقتال المارقين من الإسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم. يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد»^(٣) وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله ﷺ وسنته، وفارقوا جماعة المسلمين، فكيف بمن يعتقد أن المؤمنين كانوا ٥٤/١١ يقاتلون النبي ﷺ؟!!

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين: أن أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج؛ وأن الله أمره ألا يعلم به أحداً. فلما أصبح وجدهم يتحدثون، فأنكر ذلك، فقال الله تعالى: «أنا أمرتك ألا تعلم به أحداً؛ لكن أنا الذي أعلمتهم به». إلى أمثال هذه الأكاذيب التي هي من أعظم الكفر. وهي كذب واضح؛ فإن «أهل الصفة» لم يكونوا إلا بالمدينة؛ لم يكن بمكة أهل صفة؛ والمعراج إنما كان من مكة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه: رواية بعضهم من عمر أنه قال: كان النبي ﷺ يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجي بينهما. وهذا من الإفك المخلوق. ثم إنهم مع هذا يجعلون عمر الذي سمع كلام النبي ﷺ وصديقه، وهو أفضل الخلق بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام، بل كان كالزنجي. ويدعون أنهم هم سمعوه وعرفوه ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفرية التي يزعم أنها «علم الأسرار والحقائق» ويريدون بذلك إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك. مثل ما تدعي النصيرية، والإسماعيلية، ٥٥/١١

(١) أبو داود في الأدب (٤٨٣٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) وقال: «حسن غريب» وأحمد ٣٠٣/٥.

(٢) البخاري في الأدب (٦١٦٨ - ٦١٧٠) ومسلم في البر والصلة (١٦٥/٢٦٤٠).

(٣) البخاري في المناقب (٣٦١٠) ومسلم في الزكاة (١٠٦٣/١٤٧، ١٤٨).

والقرامطة والباطنية الثنوية، والحاكمية وغيرهم ، من الضلالات المخالفة لدين الإسلام . وما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب ، أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن غضب، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة، وكل هذا باطل .

فإنه لما كان لآل رسول الله ﷺ به اتصال النسب والقرابة، وللأولياء الصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاتة والمتابعة، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يمويه باطله ويزخرفه بما يفتره على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته، وصار كثير من الناس يغلو إما في قوم من هؤلاء، أو من هؤلاء، حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبي ﷺ وسنته، وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاتة له والمتابعة ، وهذا كثير في أهل الضلال .

فصل /

٥٦/١١

وأما تفضيل « أهل الصفة » على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال، بل خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفاً ومرفوعاً، وكما دل على ذلك الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة، وبعدهما عثمان وعلي وكذلك سائر أهل الشورى: مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح - أمين هذه الأمة - ومع سعيد ابن زيد ، هم العشرة المشهود لهم بالجنة .

قال الله عز وجل في كتابه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] . ففضل الله السابقين قبل فتح الحديبية إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم على التابعين بعدهم، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فرضى الله - سبحانه - عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

٥٧/١١ / وقد ثبت في فضل البدرين ما تميزوا به على غيرهم، وهؤلاء الذين فضلهم الله ورسوله، فمنهم من هو من أهل الصفة، وأكثرهم لم يكونوا من أهل الصفة، والعشرة لم يكن فيهم من هو من أهل الصفة إلا سعد بن أبي وقاص . فقد قيل : إنه أقام بالصفة مرة، وأما أكابر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة، ومثل سعد بن معاذ، وأسيد بن

الحضير، وعباد بن بشر، وأبي أيوب الأنصاري، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ونحوهم، فلم يكونوا من « أهل الصفة » بل عامة أهل الصفة إنما كانوا من فقراء المهاجرين؛ لأن الأنصار كانوا في ديارهم . ولم يكن أحد ينذر لأهل الصفة ولا لغيرهم .

فصل

وأما سماع المكاء والتصدية: وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية، سواء كان بكف، أو بقضيب، أو بدف، أو كان مع ذلك شباة، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة، لا من أهل الصفة ولا من غيرهم، بل ولا من التابعين، بل القرون المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ: «خير القرون الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١) لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن، ولا ٥٨/١١ العراق ولا مصر، ولا خراسان ولا المغرب. وإنما كان السماع الذي يجتمعون عليه سماع القرآن، وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه، فكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ، والباقي يستمعون، وقد روى: أن النبي ﷺ خرج على أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم. وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. وكان وجدهم على ذلك، وكذلك إرادة قلوبهم وكل من نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب، أو أنهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك. أو أنهم مزقوا ثيابهم، أو أن قاتلاً أنشدهم:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي

إلا الطبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وتراقي

أو أن النبي ﷺ لما قال: «إن الفقراء يدخلون/الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»^(٢) أنشدوا ٥٩/١١ شعراً وتواجدوا عليه، فكل هذا وأمثاله إفك مفترى، وكذب مختلق باتفاق أهل الاتفاق من أهل العلم والإيمان، لا ينازع في ذلك إلا جاهل ضال، وإن كان قد ذكر في بعض الكتب شيء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والإيمان.

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٥١، ٢٦٥٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣/ ٢١٠ - ٢١٢).

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٥٣) وقال: «حسن صحيح»، (٢٣٥٤) وقال: «صحيح»، والنسائي في الكبرى

(١/١١٣٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٢)، وأحمد ٣٤٣/٢، وابن حبان في الإحسان ٣٣/٢، كلهم

عن أبي هريرة .

فصل

وأما قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] فهي عامة فيمن تناوله هذا الوصف؛ مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة، فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، سواء كانوا من «أهل الصفة» أو غيرهم، أمر الله نبيه بالصبر مع عباده الصالحين؛ الذين يريدون وجهه، وألا تعد عيناه عنهم، تريد زينة الحياة الدنيا. وهذه الآية في الكهف وهي سورة مكية. وكذلك الآية التي في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

٦٠/١١ / وقد روى أن هاتين الآيتين نزلتا في المؤمنين المستضعفين لما طلب المتكبرون أن يبعدهم النبي ﷺ عنه، فنهاه الله عن طرد من يريد وجه الله وإن كان مستضعفاً، ثم أمره بالصبر معهم، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة وقبل وجود الصفة، لكن هي متناولة لكل من كان بهذا الوصف من أهل الصفة وغيرهم.

والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم أولياء الله وإن كانوا فقراء ضعفاء، ولا يتقدم أحد عند الله بسلطانه وماله ولا بذله وفقره، وإنما يتقدم عنده بالإيمان والعمل الصالح، فنهى الله نبيه أن يطيع أهل الرياسة والمال الذين يريدون إبعاد من كان ضعيفاً أو فقيراً، وأمره ألا يطرد من كان منهم يريد وجهه، وأن يصبر نفسه معهم في الجماعة التي أمر فيها بالاجتماع بهم، كصلاة الفجر والعصر، ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر الله المتبعين لأهوائهم.

فصل

وأما الحديث المروي: «ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله»^(١) فمن الأكاذيب ليس في شيء من دواوين الإسلام، كيف والجماعة قد يكونون كفاراً أو فاسقاً يموتون على ذلك؟!

(١) سبق تخريجه ص ٢٤ .

فصل

وأولياء الله هم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] كما ذكر الله تعالى في كتابه. وهم «قسمان»: المقتصدون أصحاب اليمين. والمقربون السابقون.

فولي الله ضد عدو الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقد روى البخاري في صحيحه عن

أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع وببي يبصر وببي يبطش وببي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١).

«الولي» مشتق من الولاء وهو القرب كما أن العدو من العدو وهو البعد. فولي الله ٦٢/١١ من والاه بالموافقة له في محبوباته ومريضاته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعات. وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصنفين المقتصدين من أصحاب اليمين، وهم المتقربون إلى الله بالواجبات، والسابقين المقربين وهم المتقربون إليه بالنوافل بعد الواجبات.

وذكر الله الصنفين في «سورة فاطر» و«الواقعة» و«الإنسان» و«المطففين» وأخبر أن الشراب الذي يروى به المقربون يشربهم إياه صرفاً لاصحاب اليمين.

والولي المطلق هو من مات على ذلك. فأما إن قام به الإيمان والتقوى وكان في علم الله أنه يرتد عن ذلك، فهل يكون في حال إيمانه وتقواه ولياً لله أو يقال: لم يكن ولياً لله قط لعلم الله بعاقبته؟ هذا فيه قولان للعلماء. وكذلك عندهم الإيمان الذي يعقبه الكفر: هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة ما يحبط من الأعمال بعد كماله، أو هو إيمان باطل

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

بمنزلة من أفطر قبل غروب الشمس في صيامه ومن أحدث قبل السلام في صلاته؟ فيه أيضاً قولان للفقهاء والمتكلمين والصوفية.

٦٣/١١ والنزاع في ذلك بين أهل السنة والحديث من أصحاب الإمام أحمد/ وغيرهم ، وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعي وغيرهم . لكن أكثر أصحاب أبي حنيفة لا يشترطون سلامة العاقبة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يشترط سلامة العاقبة ، وهو قول كثير من متكلمي أهل الحديث : كالأشعري ، ومن متكلمي الشيعة وبينون على هذا النزاع : أن ولي الله هل يصير عدواً لله وبالعكس ؟ ومن أحبه الله ورضي عنه هل أبغضه وسخط عليه في وقت ما وبالعكس؟ ومن أبغضه الله وسخط عليه هل أحبه الله ورضي عنه في وقت ما على القولين؟ .

والتحقيق هو الجمع بين القولين . فإن علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه ، وبغضه وسخطه ، وولايته وعداوته لا يتغير . فمن علم الله منه أنه يوافي حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلق به محبة الله وولايته ورضاه عنه أولاً وأبداً ، وكذلك من علم الله منه أنه يوافي حين موته بالكفر فقد تعلق به بغض الله وعداوته ، وسخطه أولاً وأبداً ، لكن مع ذلك فإن الله تعالى يبغض ما قام بالأول من كفر وفسوق قبل موته . وقد يقال : إنه يبغضه ويمقتة على ذلك ، كما ينهاه عن ذلك وهو - سبحانه وتعالى - يأمر بما فعله الثاني من الإيمان والتقوى ، ويحب ما يأمر به ويرضاه ، وقد يقال : إنه يواليه حيثئذ على ذلك .

٦٤/١١ والدليل على ذلك : اتفاق الأئمة على أن من كان مؤمناً ثم ارتد/، فإنه لا يحكم بأن إيمانه الأول كان فاسداً ، بمنزلة من أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمال ؛ وإنما يقال كما قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة : ٥] ، وقال : ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وقال : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] ولو كان فاسداً في نفسه لوجب الحكم بفساد أنكحته المتقدمة ، وتحريم ذبائحه ، وبطلان إرثه المتقدم ، وبطلان عباداته جميعها ، حتى لو كان قد حج عن غيره كان حجه باطلاً ، ولو صلى مدة بقوم ثم ارتد كان عليهم أن يعيدوا صلاتهم خلفه ، ولو شهد أو حكم ثم ارتد لوجب أن تفسد شهادته وحكمه ونحو ذلك . وكذلك أيضاً الكافر إذا تاب من كفره ، لو كان محبوباً لله ولياً له في حال كفره ، لوجب أن يقضي بعدم أحكام ذلك الكفر ، وهذا كله خلاف ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

والكلام في هذه «المسألة» نظير الكلام في الأرزاق والآجال وهي أيضاً مبنية على قاعدة الصفات الفعلية وهي قاعدة كبيرة .

وعلى هذا يخرج جواب السائل، فمن قال: إن ولي الله لا يكون إلا من وافاه حين الموت بالإيمان والتقوى، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره. ومن قال: قد يكون ولياً لله من كان مؤمناً تقياً وإن لم تعلم عاقبته فالعلم به أسهل.

/ ومع هذا يمكن العلم بذلك للولي نفسه ولغيره، ولكنه قليل ولا يجوز لهم القطع على ٦٥/١١ ذلك، فمن ثبتت ولايته بالنص، وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم فعامه أهل السنة يشهدون له بما شهد له به النص. وأما من شاع له لسان صدق في الأمة بحيث اتفقت الأمة على الثناء عليه فهل يشهد له بذلك؟ هذا فيه نزاع بين أهل السنة، والأشبه أن يشهد له بذلك. هذا في الأمر العام.

وأما «خواص الناس» فقد يعلمون عواقب أقوام بما كشف الله لهم، لكن هذا ليس ممن يجب التصديق العام به، فإن كثيراً ممن يظن به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظاناً في ذلك ظناً لا يغني من الحق شيئاً، وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة؛ ويخطئون أخرى؛ كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد، ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يزنوا مواجيدهم^(١) ومشاهدتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا يكتفوا بمجرد ذلك؛ فإن سيد المحدثين والمخاطبين الملهمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب؛ وقد كانت تقع له وقائع فيردها عليه رسول الله ﷺ؛ أو صديقه التابع له الآخذ عنه الذي هو أكمل من المحدث الذي يحدثه قلبه عن ربه.

ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ وأطاعته في جميع أموره الباطنة ٦٦/١١ والظاهرة، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول ﷺ في بعض دينه. وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى، ومن قال هذا فهو كافر.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢] فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته، ولم يضمن ذلك للمحدث، ولهذا كان في الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره: «وما أرسلنا من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته».

ويحتمل والله أعلم ألا يكون هذا الحرف متلوّاً، حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان

(١) الوجّه: الهيام والحب.

في أمنية المحدث؛ فإن نسخ ما ألقى الشيطان ليس إلا للأنبياء والمرسلين، إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان، وغيرهم لا تجب عصمته من ذلك، وإن كان من أولياء الله المتقين، فليس من شرط أولياء الله المتقين ١١/٦٧ ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفوراً لهم؛ بل/ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥] فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون. و«المتقون» هم أولياء الله، ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان.

وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية في بعض المشائخ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء. فالرافضة تزعم أن «الاثني عشر» معصومون من الخطأ والذنب. ويرون هذا من أصول دينهم، والغالية في المشائخ قد يقولون: إن الولي محفوظ والنبي معصوم. وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه؛ فحاله حال من يرى أن الشيخ والولي لا يخطئ ولا يذنب، وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية. فإن في النصارى من الغلو في المسيح ١١/٦٨ والأخبار والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن، وجعل ذلك عبرة لنا؛ لئلا/نسلك سبيلهم؛ ولهذا قال سيد ولد آدم: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله، ورسوله»^(١).

فصل

وأما «الفقراء» الذين ذكرهم الله في كتابه فهم صنفان: مستحقو الصدقات، ومستحقو الفىء.

أما مستحقو الصدقات فقد ذكرهم الله في كتابه في قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ

(١) البخارى في الاثنياء (٣٤٤٥).

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ» [التوبة: ٦٠]. وإذا ذكر في القرآن اسم «الفقير» وحده، و«المسكين» وحده. كقوله: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ^(١) عَشْرَةِ مَسْكِينٍ» [المائدة: ٨٩]- فهما شيء واحد، وإذا ذكرا جميعاً فهما صنفان. والمقصود بهما أهل الحاجة . وهم الذين لا يجدون كفايتهم، لا من مسألة ولا من كسب يقدرون عليه، فمن كان كذلك من المسلمين استحق الأخذ من الصدقات المفروضة ، والموقوفة والمنذورة ، والموصى بها، وبين الفقهاء نزاع في بعض فروع المسألة معروف عند أهل العلم.

و ضد هؤلاء «الأغنياء» الذين تحرم عليهم الصدقة ، ثم هم/نوعان: نوع تجب عليهم ٦٩/١١ الزكاة، وإن كانت الزكاة تجب على من قد تباح له عند جمهور العلماء . ونوع لا تجب عليه الزكاة .

وكل منهما قد يكون له فضل عن نفقاته الواجبة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ أَعِفُّوا﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقد لا يكون له فضل، وهؤلاء الذين رزقهم قوت وكفاف هم أغنياء باعتبار غناهم عن الناس، وهم فقراء باعتبار أنه ليس لهم فضول يتصدقون بها .

وإنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم، لعدم فضول الأموال التي يحاسبون على مخارجها ومصارفها، فمن لم يكن له فضل كان من هؤلاء، وإن لم يكن من أهل الزكاة، ثم أرباب الفضول إن كانوا محسنين في فضول أموالهم ، فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم، كما تقدم أغنياء الأنبياء والصديقين من السابقين وغيرهم على الفقراء الذين دونهم. ومن هنا قال الفقراء: «ذهب أهل الدثور بالأجور» وقيل: لما ساواهم الأغنياء في العبادات البدنية، وامتازوا عنهم بالعبادات المالية: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذا هو «الفقير» في عرف الكتاب والسنة .

/وقد يكون الفقراء سابقين ، وقد يكونون مقتصدين، وقد يكونون ظالمين أنفسهم ٧٠/١١ كالأغنياء، وفي كلا الطائفتين : المؤمن الصديق والمنافق الزنديق .

وأما المستأخرون ف «الفقير» في عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى، كما هو «الصوفي» في عرفهم أيضاً ، ثم منهم من يرجح مسمى الصوفي على مسمى «الفقير» لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر، ومنهم من يرجح مسمى الفقير لأنه عنده الذي قطع العلائق، ولم يشغل في الظاهر، بغير الأمور الواجبة، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية .

والتحقيق أن المراد المحمود بهذين الاسمين، داخل في مسمى الصديق، والولي

(١) في المطبوعة : « أو إطعام » والصواب ما أثبتناه .

والصالح، ونحو ذلك من الأسماء التي جاء بها الكتاب والسنة، فمن حيث دخل في الأسماء النبوية، يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة، وأما ما تميز به مما يعده صاحبه فضلا وليس بفضل، أو مما يوالي عليه صاحبه غيره، ونحو ذلك من الأمور التي يترتب عليها زيادة الدرجة في الدين والدنيا، فهي أمور مهددة في الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات، فهذا لا بأس به، بشرط ألا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات. وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة في دين الله؛ من أنواع البدع والفجور، فيجب النهي عنه كما جاءت به الشريعة.

/وسئل عن قوم يقولون: إن النبي ﷺ جاء إلى باب «أهل الصفة» فاستأذن ، فقالوا: ٧١/١١
من أنت؟ قال: أنا محمد، قالوا: ماله عندنا موضع الذي يقول: أنا. فرجع ثم استأذن ثانية،
وقال: أنا محمد مسكين، فأذنوا له. فهل يجوز التكلم بهذا ، أم هو كفر؟
فأجاب:

هذا الكلام من أعظم الكذب على النبي ﷺ وعلى «أهل الصفة»، فإن «أهل الصفة»
لم يكن لهم مكان يستأذن عليهم فيه، إنما كانت الصفة في شمالي مسجد رسول الله
ﷺ، يأوى إليها من لا أهل له من المؤمنين، ولم يكن يقيم بها ناس معينون، بل يذهب
قوم ويجيء آخرون، ولم يكن «أهل الصفة» خيار الصحابة، بل كانوا من جملة
الصحابة، ولم يكن أحد من الصحابة يستخف بحرمة النبي ﷺ كما ذكر. ومن فعل ذلك
فهو كافر، ومن اعتقد هذا بالنبي ﷺ فهو كافر فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل. والله
أعلم.

٧٢/١١ /سئل - رحمه الله - عن قوم يروون عن رسول الله ﷺ أحاديث لا سند لهم بها. فيقولون: قال رسول الله ﷺ : « أنا من الله، والمؤمنون مني يتسمون بالأهوية منه » ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ ويقرؤون بينهم أحاديث، ويزعمون أن عمر - رضي الله عنه - قال : كان أبو بكر ورسول الله ﷺ يتحدثان بحديث أبقي بينهما كآني زنجي ، لا أفقه ، فهل يصح هذا أم لا؟

ويتحدثون عن أصحاب الصفة بأحاديث كثيرة: منها أنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ وجدهم على الإسلام من قبل أن يبعث فوجدهم على الطريق ، وأنهم لم يكونوا يغزون معه حقيقة، وأنه ألزمهم النبي ﷺ مرة ، فلما فر المسلمون منهزمين ضربوا بسيوفهم في عسكر النبي ﷺ . وقالوا : نحن حزب الله الغالبون، وزعموا أنهم لم يعتلوا إلا منافقين في تلك المرة، فهل يصح ذلك أم لا؟

٧٣/١١ والمسؤول تعيين « أصحاب الصفة » كم هم من رجل؟ ومن كانوا من/الصحابة - رضي الله عنهم - ويزعمون أن الله - سبحانه وتعالى - لما عرج بنبيه ﷺ أوحى إليه مائه ألف سر، وأمره ألا يظهرها على أحد من البشر. فلما نزل إلى الأرض وجد أصحاب الصفة يتحدثون بها. فقال: يارب، إنني لم أظهر على هذا السر أحداً، فأوحى الله إليه أنهم كانوا شهوداً ببني وبينك ، فهل لهذه الأشياء صحة أم لا؟
فأجاب:

الحمد لله رب العالمين ، جميع هذه الأحاديث أكاذيب مختلفة ، ليتبوا مفتريها مقعده من النار. لا خلاف بين جميع علماء المسلمين - أهل المعرفة وغيرهم - أنها مكذوبة مخلوقة ، ليس شيء منها أصل؛ بل من اعتقد صحة مجموع هذه الأحاديث فإنه كافر؛ يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وليس شيء من هذه الأحاديث أصل البتة. ولا توجد في كتاب، ولا رواها قط أحد ممن يعرف الله ورسوله.

فأما الحديث الأول - قوله: « أنا من الله والمؤمنون مني » - فلا يحفظ هذا اللفظ عن رسول الله ﷺ . لكن قال النبي ﷺ لعلي: « أنت مني وأنا منك »^(١) كما قال الله -

(١) الترمذی فی المناقب (٣٧١٦) وقال : « حسن صحيح » وأحمد ١٠٨/١ .

سبحانه-: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أى: أنتم نوع واحد، متفقون في القصد والهدى، كالروحين اللتين تتفقان في صفاتهما ؛ وهي الجنود المجندة التي قال النبي ﷺ ٧٤/١١ : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» (١).

وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى، فهذا كفر صريح يقوله أعداء الله النصارى، ومن غلا من الرافضة ؛ وجهال المتصوفة ومن اعتقده فهو كافر. نعم! للمؤمنين العارفين بالله المحبين له من مقامات القرب ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة ، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله، والرب رب ، والعبد عبد؛ ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته؛ وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به ، أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به.

وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ، فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية؛ الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية.

والذي يصح منه عن الشيوخ له معان صحيحة؛ ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حال عليه، ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول ، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول، ويكفر من يقوله، وما يخرج من القول في حال غيبة/عقل الإنسان لا يتخذة هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له ، بل القلم مرفوع عن ٧٥/١١ النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرم؛ مثل من يسقى الخمر وهو لا يعرفها أو أوجرها حتى سكر أو أطعم البنج وهو لا يعرفه، فكذلك.

وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله وعظمته وجماله أموراً عظيمة، تصادف قلوباً رقيقة، فتحدث غشياً وإغماءً. ومنها ما يوجب الموت. ومنها ما يخل العقل . وإن كان الكاملون منهم لا يعترهم هذا كما لا يعترى الناقصين عنهم؛ لكن يعترهم عند قوة الوارد على قلوبهم ، وضعف المحل المورد عليه، فمن اغتر بما يقولونه أو يفعلونه في تلك الحال كان ضالاً مضلاً.

وإنما «الأحوال الصحيحة» مثل ما دل عليه ما رواه البخاري في صحيحه من قول النبي ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٣٦) ومسلم فى البر والصلة (١٥٩/٢٦٣٨ ، ١٦٠) .

يمشي، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي
٧٦/١١ عن / قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه (١).

فانظر كيف قال في تمام الحديث: «فبي يسمع، وببي يصير، ولئن سألتني، ولئن استعاذني»
فميز بين الرب وبين العبد، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِيَسْكُنُوا فِيهِ مَبْنًى وَرَبِّيَ اللَّهُ رَبِّيَ اللَّهُ فَقَدْ
حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿وَمَا
مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
إلى قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كُنَّا
يُكَلِّمُ الْأَطْلَافَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ إلى
قوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ فَيَسْخَرُهُمْ إِلَىٰ جَمِيعَةٍ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

وكذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله
تعالى: يابن آدم، مرضت فلم تعدني فيقول: رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟!
فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده» (٢) وذكر في الجوع
٧٧/١١ والعري مثل ذلك. فانظر كيف عبر في أول الحديث بلفظ / مرضت ثم فسره في تمامه؛ بأن
عبدي فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده، فميز بين الرب والعبد، والعبد العارف بالله
تجد إرادته بإرادة الله، بحيث لا يريد إلا ما يريد الله أمراً به ورضاً، ولا يحب إلا ما
يحب الله، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله، ولا يلتفت إلى عدل العاذلين، ولوم اللائمين
كما قال سبحانه: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ يُبَيِّنُهُمْ وَيُخَيِّبُهُمْ أَدْنَاهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّوْا عَلَى الْكَافِرِينَ
يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

والكلام في مقامات العارفين طويل.

وإنما الغرض أن يتفطن المؤمن للفرق بين هؤلاء الزنادقة الذين ضاهوا النصارى،
وسلكوا سبيل أهل الحلول، والاتحاد وكذبوا على الله ورسوله. وكذبوا الله ورسوله،
وبين العالمين بالله والمحبين له أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإنه
قد يشتبه هؤلاء بهؤلاء، كما اشتبه على كثير من الضالين حال مسيلمة الكذاب المتنبي
بمحمد بن عبد الله رسول الله حقاً، حتى صدقوا الكاذب وكذبوا الصادق. والله قد جعل

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) مسلم في البر والصلة (٤٣/٢٥٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٨٢).

على الحق آيات وعلامات وبراهين . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما حديث عمر: أنه كان كالزنجي بين النبي ﷺ وبين أبي بكر، فكذب مختلق، ٧٨/١١
نعم! كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأولاهم
به، وأعلمهم بمراحه لما يسألونه عنه ، فكان النبي ﷺ يتكلم بالكلام العربي الذي يفهمه
الصحابه - رضي الله عنهم . ويزداد الصديق بفهم آخر يوافق ما فهموه، ويزيد عليهم ولا
يخالفه؛ مثل ما في الصحيحين عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: « إن
عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختر ذلك العبد ما عند الله » . فبكى أبو بكر . وقال:
بل نفديك بأنفسنا وأموالنا . فجعل بعض الناس يعجب ويقول : عجباً لهذا الشيخ يبكي،
أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة . قال: فكان رسول الله ﷺ هو
المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به^(١) .

فالنبي ﷺ ذكر عبداً مطلقاً ، وهذا كلام عربي لا لغز فيه، ففهم الصديق لقوة معرفته
بمقاصد النبي ﷺ أنه هو العبد المخير، ومعرفة أن المطلق هذا المعين خارج عن دلالة اللفظ،
لكن يوافقه ولا يخالفه؛ ولهذا قال أبو سعيد : كان أبو بكر أعلمنا به .

ومن هذا أن الصديق - رضي الله عنه - لما عزم على قتال/مانعي الزكاة قال له ٧٩/١١
عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا
بحقها وحسابهم على الله عز وجل »؟ . فقال أبو بكر: الزكاة من حقها، والله ، لا قاتلن
من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال؛ والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى
رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها^(٢) . فرجع عمر وغيره إلى قول أبي بكر . وكان هو أفهم
لمعنى كلام رسول الله ﷺ ؛ وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: « أمرت أن أقاتل الناس
حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؛
فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام »^(٣) . فهذا النص الصريح
موافق لفهم أبي بكر .

وكذلك قوله في صلح الحديبية لعمر مثل ما كان النبي ﷺ قال له، وأمثال ذلك
كثير . فاما أن النبي ﷺ كان يتكلم بكلام لا يفهمه عمر وأمثاله ، بل يكون عندهم ككلام
الزنجي . فمن اعتقد هذا فهو جاهل ضال، عليه من الله ما يستحقه .

وأما كون أهل الصفة كانوا قبل المبعث مهتدين . فعلى من قال/هذا : لعنة الله ٨٠/١١
والملائكة والناس أجمعين؛ بل لا خلاف بين المسلمين أنهم كانوا جاهلين؛ بل لا خلاف بين

(١) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٥٤) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢/٢٣٨٢) .

(٢) البخارى فى الزكاة (١٣٩٩، ١٤٠٠) ومسلم فى الإيمان (٣٢/٢٠) .

(٣) البخارى فى الإيمان (٢٥) ومسلم فى الإيمان (٣٦/٢٠) .

المسلمين أنهم كانوا كافرين جاهلين بالله وبدينه، وإنما هداهم الله بكتابه، وبرسوله محمد ﷺ، ولم يكن بين أهل الصفة وسائر الصحابة فرق في الكفر والضلالة قبل إيمانهم برسول الله ﷺ. ولقد كان بعد الإسلام كثير ممن لم يكن من «أهل الصفة» كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - أعلم بالله، وأعظم يقيناً من عامة أهل الصفة.

وأما ما ذكر من تخلفهم عنه في الجهاد فقول جاهل ضال؛ بل هم الذين كانوا أعظم الناس قتالاً وجهاداً؛ كما وصفهم القرآن في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] وقال في صفتهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقاً﴾

[البقرة: ٢٧٣]، ولقد قتل منهم في يوم واحد - يوم بئر معونة - سبعون؛ حتى وجد عليهم النبي ﷺ موجدة، وقتت شهراً يدعو على الذين قتلوهم؛ وأخبر عنهم: «أنهم بهم تنقي المكاره؛ وتسد بهم الثغور؛ وأنهم أول الناس وروداً على الخوض؛ وأنهم الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً؛ الذين لا ينكحون المتنعمات؛ ولا تفتح لهم أبواب الملوك» (١).

٨١/١١ / وأما «عدد» فقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي تاريخهم: وهم نحو من ستمائة، أو سبعمائة، أو نحو ذلك. ولم يكونوا مجتمعين في وقت واحد. بل كان في شمال المسجد صفة يأوي إليها فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم، أو سافر، أو خرج غازياً خرج منها، وقد كان يكون في الوقت الواحد فيها السبعون، أو أقل، أو أكثر ومنهم: سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة، وأبو هريرة، وخبيب، وسلمان وغيرهم.

وأما ما ذكر من أنهم عرفوا ما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج فكذب، ملعون قائله. وكيف يكون ذلك والمعراج كان بمكة قبل الهجرة؟! وأهل الصفة إنما كانوا بالمدينة بعد الهجرة، وبناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة الطيبة. وهذا كله واضح عند من عرف الله ورسوله، وكان مسلماً حقيقاً، أو كان عالماً بسيرة رسول الله ﷺ، وسيرة أصحابه معه.

وإنما يقع في هذه الجهالات أقوام نقص إيمانهم وقل علمهم، واستكبرت أنفسهم، حتى صاروا بمنزلة فرعون، وصاروا أسوأ حالا من النصارى.

والله يتوب علينا وعليهم، وعلى سائر إخواننا المسلمين، ويهدينا وإياهم صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. والله تعالى أعلم.

(١) ابن ماجه في الزهد (٤٣٠٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٤) وقال: «غريب من هذا الوجه»، وأحمد ٢٧٦/٥، كلهم عن ثوبان.

/وسئل عن «الفتوة» المصطلح عليها ... إلخ.

٨٢/١١

فأجاب - رضي الله عنه - قائلاً :

أما ما ذكره من «الفتوة» التي يلبس فيها الرجل لغيره سراويل ، ويسقيه ماء وملحاً ؛ فهذا لا أصل له . ولم يفعلها أحد من السلف لا علي ولا غيره . والإسناد الذي يذكرونه في «الفتوة» إلى أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب ، من طريقة الخليفة الناصر وغيره ، إسناد مظلم ، عامة رجاله مجاهيل لا يعرفون وليس لهم ذكر عند أهل العلم .

وقد ذكر أن أصل ذلك : أنه وضع سراويل عند قبر علي فأصبح مسدوداً ، وهذا يجري عند غير علي ، كما يجري أمثال ذلك من الأمور التي يظن أنها كرامة ، في الكنائس وغيرها ، مثل دخول مصروع إليها فيبرأ بنذر يجعل للكنيسة ، ونحو ذلك . وهذا إذا لم يكن كذباً فإنه من فعل الشياطين . كما يفعل مثل ذلك عند الأوثان ، وأنا أعرف من ذلك وقائع متعددة .

/والمقصود هنا أن سراويل الفتوة لا أصل له عن علي ولا غيره من السلف ، وما ٨٣/١١ يشترطه بعضهم من الشروط ، إن كان مما أمر الله به ورسوله ، فإنه يفعل ؛ لأن الله أمر به ورسوله ، وما نهى عنه مثل التعصب لشخص على شخص ، والإعانة على الإثم والعدوان ، فهو مما ينهي عنه ، ولو شرطوه .

ولفظ «الفتى» في اللغة هو الشاب ، كما ذكر ذلك أهل اللغة . وممنه قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ اللَّيْلَ فَتَيَّانٌ ﴾ [يوسف : ٣٦] ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ [الكهف : ١٣] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ﴾ [الكهف : ٦٠] . وقد فتى يفتي فهو فتى ، أي بين الفتا ، والأفتا من الدواب خلاف المسان ، وقد يعبر بالفتى عن المملوك مطلقاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَاصِيَةٍ كُفٍّ مِّنَ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] .

ولما كان الشاب ألين عريكة من الشيخ صار في طبعه من السخاء والكرم ما لا يوجد في الشيوخ . فصاروا يعبرون بلفظ الفتى عن السخي الكريم . يقال : هو فتى بين الفتوة وقد يفتى ، ويفاتى ، والجمع فتيان وفتية .

واستعمال لفظ الفتى بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق موجود في كلام كثير من المشايخ ، وقد يظن أن لفظ القرآن يدل على هذا . ومنه قول بعض الشيوخ : طريقنا فتى وليس

٨٤/١١ تنصر، يعني هو استعمال مكارم/الأخلاق ؛ ليس هو النسك اليابس. ومنه قول أبي إسماعيل الأنصاري^(١): الفتوة أن تقرب من يقصيك، وتكرم من يؤذك، وتحسن إلى من يسيء إليك، سماحة لا كظماً، ومودة لا مصابرة.

ونقل عن أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - أنه قال: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فمن دعا إلى ما دعا إليه الله ورسوله من مكارم الأخلاق كان محسناً، سواء سمي ذلك فتوة أو لم يسمه، ومن أحدث في دين الله ما ليس منه فهو رد.

والغالب أنهم يدخلون في الفتوة أموراً ينهى عنها فينهون عن ذلك، ويؤمرون بما أمر الله به ورسوله، كما ينهون عن الألباس، والأسقاء. وإسناد ذلك إلى علي - رضي الله عنه - وأمثال ذلك.

(١) أبو إسماعيل الأنصاري: هو عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن متّ الأنصاري الهروي، مصنف كتاب «ذم الكلام»، وشيخ خراسان، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري. ولد سنة ست وتسعين وثلاثمائة. توفي في ذي الحجة سنة ٤٨١هـ. [سير أعلام النبلاء: ٥٠٣/١٨ - ٥١٨].

اسئل الشيخ الإمام العالم العلامة إمام الوقت، فريد الدهر، جوهر ٨٥/١١ العلم، لب الإيمان، قطب الزمان مفتي الفرق، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام شهاب الدين عبد الحلیم ابن الشيخ الإمام العلامة مؤيد السنة مجد الدين عبد السلام بن تيمية الحراني - رضي الله عنه ونفع به أمين - في جماعة يجتمعون في مجلس، ويلبسون لشخص منهم لباس «الفتوة» ويديرون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء يشربونها، ويزعمون أن هذا من الدين، ويذكرون في مجلسهم ألفاظاً لا تليق بالعقل والدين.

فمنها أنهم يقولون : إن رسول الله ﷺ ألبس علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - لباس الفتوة، ثم أمره أن يلبس من شاء، ويقولون : إن اللباس أنزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صندوق، ويستدلون عليه بقوله تعالى : ﴿يَبْنِيْٓءَآدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَءَ تَكْمُ﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]، فهل هو كما زعموا؟ أم كذب ٨٦/١١ مختلق؟ وهل هو من الدين أم لا؟ وإذا لم يكن من الدين فما يجب على من يفعل ذلك أو يعين عليه؟ ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله، إلى عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين؛ فهل لذلك أصل أم لا؟

وهل الأسماء التي يسمون بها بعضهم بعضاً من اسم الفتوة، ورؤوس الأحزاب والزعماء فهل لهذا أصل أم لا؟ ويسمون المجلس الذي يجتمعون فيه «دسكرة» ويقوم للقوم نقيب إلى الشخص الذي يلبسونه فينزع اللباس الذي عليه بيده، ويلبسه اللباس الذي يزعمون أنه لباس الفتوة بيده، فهل هذا جائز، أم لا؟ وإذا قيل: لا يجوز فعل ذلك ولا الإعانة عليه، فهل يجب على ولي الأمر منعهم من ذلك؟

وهل للفتوة أصل في الشريعة أم لا؟ وإذا قيل: لا أصل لها في الشريعة فهل يجب على غير ولي الأمر أن ينكر عليهم، ويمنعهم من ذلك أم لا؟ مع تمكنه من الإنكار، وهل أحد من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - أو التابعين، أو من بعدهم من أهل العلم فعل هذه الفتوة المذكورة أو أمر بها أم لا؟

وهل خلق النبي ﷺ من النور؟ أم خلق من الأربع عناصر؟ أم من غير ذلك؟ وهل

الحديث الذي يذكره بعض الناس: «لولاك ما خلق الله عرشاً، ولا كرسيّاً، ولا أرضاً، ولا
٨٧/١١ سماء، ولا شمساً، ولا قمرّاً ولا غير ذلك» (١) صحيح هو أم لا؟

وهل «الأخوة» التي يواخيها المشائخ بين الفقراء في السماع وغيره يجوز فعلها في
السماع ونحوه أم لا؟ وهل أخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين
والأنصار؟ أم بين كل مهاجري وأنصاري؟ وهل أخى رسول الله صلى الله تعالى عليه
وسلم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أم لا؟ بينوا لنا ذلك بالتعليل والحجة المبينة،
وابسطوا لنا الجواب في ذلك بسطاً شافياً مأجورين. أثابكم الله تعالى .

فأجاب :

الحمد لله ، أما ما ذكر من إلباس لباس «الفتوة» السراويل أو غيره، وإسقاء الملح والماء
فهذا باطل ، لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله ﷺ ، ولا أحد من أصحابه ؛ لا علي
ابن أبي طالب ولا غيره ، ولا من التابعين لهم بإحسان .

والإسناد الذي يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة ، فهو إسناد
لا تقوم به حجة ، وفيه من لا يعرف ، ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى النبي ﷺ بمثل هذا
١٨٨/١١ الإسناد المجهول الرجال أمراً من الأمور التي لا تعرف عنه ، فكيف إذا نسب إليه ما يعلم
أنه كذب وافتراء عليه ؟! فإن العالمين بسنته وأحواله متفقون على أن هذا من الكذب
المختلق عليه وعلى علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - وما ذكروه من نزول هذا
اللباس في صندوق هو من أظهر الكذب ، باتفاق العارفين بسنته .

و«اللباس الذي يوارى السوء» هو كل ما ستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح .
أنزل الله تعالى هذه الآية لما كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون : ثياب عصينا
الله فيها لا نطوف فيها فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل قوله : ﴿حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ
مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف : ٣١] .

(١) كشف الخفا للعجلوني ١٦٤/٢ وقال: «قال الصنعاني: موضوع وأقول: لكن معناه صحيح وإن لم يكن
حديثاً». والأسرار المرفوعة ٣٨٥ وذكر قول الصنعاني وقال: «فقد روى الديلمي عن ابن عباس رضي الله
عنهما مرفوعاً: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، لولاك ما خلقت الجنة ولولاك ما خلقت النار». وفي رواية
ابن عساكر: «لولاك ما خلقت الدنيا». وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٢٨٢) وقال:
«وأما قول الشيخ القاري: «لكن معناه صحيح...» فأقول: الجزم بصحة معناه لا يليق إلا بعد ثبوت ما نقله
عن الديلمي. وهذا مما لم أر أحداً تعرض لبيانه وأنا إن كنت لم أقف على سند فإني لا أتردد في ضعفه
وحسبنا في التدليل على ذلك تفرد الديلمي به.

والكذب في هذا أظهر من الكذب فيما ذكر من لباس الخرقه، وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن رداءه، وأنه فرق الخرق على أصحابه، وأن جبريل أتاه وقال له : إن ربك يطلب نصيبه من زيق الفقر، أنه علق ذلك بالعرش. فهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة؛ فإن النبي ﷺ لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف، ولا سماع دفوف وشبابات، ولا رقص ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك، ولا قسمه على أصحابه، وكل ما يروى من ذلك فهو كذب مختلق باتفاق أهل المعرفة بسنته.

٨٩/١١

/ فصل

والشروط التي تشترطها شيوخ «الفتوة» ما كان منها مما أمر الله به ورسوله كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم ونصر المظلوم، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد. أو كانت مستحبة: كالعفو عن الظالم واحتمال الأذى، وبذل المعروف الذي يحبه الله ورسوله وأن يجتمعوا على السنة، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة، ونحو ذلك. فهذه يؤمن بها كل مسلم سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشرطوها، وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله: مثل التحالف الذي يكون بين أهل الجاهلية، أن كلا منهما يصادق صديق الآخر في الحق والباطل، ويعادي عدوه في الحق والباطل، وينصره على كل من يعاديه سواء كان الحق معه أو كان مع خصمه، فهذه شروط تحلل الحرام وتحرم الحلال، وهي شروط ليست في كتاب الله.

وفي السنن عنه أنه قال: «المسلمون عند شروطهم: إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً»^(١) وكل ما كان من الشروط التي بين القبائل والملوك والشيوخ والأحلاف وغير ذلك فإنها على هذا الحكم باتفاق علماء المسلمين، ما كان من الأمر المشروط الذي قد أمر الله به ورسوله فإنه يؤمر به كما أمر الله به ورسوله. وإن كان مما نهى الله عنه ورسوله^{٩٠/١١} فإنه ينهى عنه، كما نهى الله عنه ورسوله، وليس لبني آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتحالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله، بل على كل منهم أن يوفوا بالعقود والعهود التي عهدتها الله إلى بني آدم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

(١) البخاري في الإجارة «معلقاً»: الفتح ٤/٤٥١، والترمذي في الأحكام (١٣٥٢) وقال: «حسن صحيح»، وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٣)، والحاكم ٤٩/٢، كلهم من طريق كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده.

وكذلك ما يعقده المرء على نفسه كعقد النذر أو يعقده الاثنان: كعقد البيع والإجارة ،
والهبة وغيرهما ، أو ما يكون تارة من واحد وتارة من اثنين : كعقد الوقف والوصية ، فإنه
في جميع هذه العقود متى اشترط العاقد شيئاً مما نهى الله عنه ورسوله كان شرطه باطلاً .
وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال : «من نذر أن يطيع الله
فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(١) . والعقود المخالفة لما أمر الله به ورسوله هي
من جنس دين الجاهلية ، وهي شعبة من دين المشركين وأهل الكتاب الذين عقدوا عقوداً
أمروا فيها بما نهى الله عنه ورسوله ، ونهوا فيها عما أمر الله به ورسوله .
فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يتجنبه .

فصل

٩١/١١

وأما لفظ «الفتى» فمعناه في اللغة الحدث كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾
[الكهف : ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء : ٦٠] ،
ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ [الكهف : ٦٠] ؛ لكن لما كانت أخلاق الأحداث
الذين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ «الفتوة» عن مكارم الأخلاق . كقول بعضهم :
طريقنا فتى وليس تنصر . وقول بعضهم : «الفتوة» أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من
يؤذيك ، وتحسن إلى من يسيء إليك ، سماحة لا كظماً ، ومودة لا مضارة . وقول
بعضهم : «الفتوة» ترك ما تهوى لما تخشى ، وأمثال هذه الكلمات التي توصف فيها الفتوة
بصفات محمودة محبوبة ، سواء سميت فتوة أو لم تسم ، وهي لم تستحق المدح في
الكتاب والسنة إلا لدخولها فيما حمده الله ورسوله من الأسماء . كلفظ الإحسان
والرحمة ، والعفو ، والصفح ، والحلم ، وكظم الغيظ ، والبر والصدقة ، والزكاة والخير .
ونحو ذلك من الأسماء الحسنة التي تتضمن هذه المعاني ، فكل اسم علق الله به المدح
والثواب في الكتاب والسنة كان أهله ممدوحين ، وكل اسم علق به الذم والعقاب في
٩٢/١١ الكتاب والسنة كان أهله مذمومين ، كلفظ الكذب ، والخيانة / ، والفجور ، والظلم والفاحشة
ونحو ذلك .

وأما لفظ «الزعيم» فإنه مثل لفظ الكفيل والضمين ، قال تعالى : ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ
جَحْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٢] فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال : هو زعيم ؛ فإن
كان قد تكفل بخير كان محموداً على ذلك ، وإن كان شراً كان مذموماً على ذلك .

(١) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٩٦) ، وأبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٨٩) ، والترمذي في النذور والإيمان
(١٥٢٦) والنسائي في الإيمان والنذور (٣٨٠٧) ، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٥) ، كلهم عن عائشة .

وأما «رأس الحزب» فإنه رأس الطائفة التي تنحزب، أى: تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وإن كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل فى حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عن من لم يدخل فى حزبهم، سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرقة الذى ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والاتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(١). وفى الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين/أصابه^(٢). وفى الصحيح عنه أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا ٩٣/١١ يأخذله»^(٣). وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله، أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟! قال: «تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه»^(٤). وفى الصحيح عنه أنه قال: «خمس تجب للمسلم على المسلم: يسلم عليه إذا لقيه، ويعوده إذا مرض، ويشمته إذا عطس، ويجيبه إذا دعاه، ويشيعه إذا مات»^(٥). وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»^(٦) .

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بما أمر به من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض . وفى الصحيحين عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً»^(٧). وفى الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»^(٨) .

وفى السنن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟» قالوا : بلى يا رسول الله ،

(١) البخارى فى الأدب (٦٠١١) ومسلم فى البر والصلة (٦٦/٢٥٨٦) .

(٢) البخارى فى الصلاة (٤٨١) ومسلم فى البر والصلة (٦٥/٢٥٨٥) .

(٣) البخارى فى المظالم (٢٤٤٢) ومسلم فى البر والصلة (٥٨/٢٥٨٠) . (٤) البخارى فى المظالم (٢٤٤٤) .

(٥) البخارى فى الجنائز (١٢٤٠)، ومسلم فى السلام (٤/٢١٦٢) .

(٦) البخارى فى الإيمان (١٣) ومسلم فى الإيمان (٧١/٤٥) .

(٧) البخارى فى الأدب (٦٠٦٤) ومسلم فى البر والصلة (٣٠/٢٥٦٣) .

(٨) مسلم فى الأفضية (١٧١٥/١٠)، ومالك فى الموطأ فى الكلام ٩٩٠/٢ (٢٠)، وأحمد ٣٦٠/٢، ٣٦٧ .

٩٤/١١ قال: «صلاح ذات البين، فإن/فساد ذات البين هي الخالقة، لا أقول تحلق الشعر. ولكن تحلق الدين»^(١) فهذه الأمور مما نهى الله ورسوله عنها.

وأما لفظ «الفساد» فليست من الألفاظ التي لها أصل في الشريعة فيتعلق بها حمد أو ذم، ولكن هي في عرف الناس يعبر بها عن المجمع. كما في حديث هرقل: أنه جمع الروم في فسادة؛ ويقال للمجتمعين على شرب الخمر: إنهم في فسادة؛ فلا يتعلق بهذا اللفظ حمد ولا ذم، وهو إلى الذم أقرب؛ لأن الغالب في عرف الناس أنهم يسمون بذلك الاجتماع على الفواحش والخمر والغناء.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم، لكنه من فروض الكفايات، فإن قام بهما من يسقط به الفرض من ولاية الأمر، أو غيرهم. وإلا وجب على غيرهم أن يقوم من ذلك بما يقدر عليه.

فصل

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر؛ ولم يخلق أحد من البشر من نور، بل قد ثبت في الصحيح عن النبي/صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الملائكة من نور؛ وخلق إبليس من مارج من نار؛ وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢) وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر، والكافر من مؤمن، كابن نوح منه وإبراهيم من آزر، وآدم خلقه الله من طين، فلما سواه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه، وبغير ذلك. فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور.

وهذه «مسألة كبيرة» مبسطة في غير هذا الموضع، فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا. وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] والآدمي خلق من نطفة، ثم من مضغة، ثم من علقه، ثم انتقل من صغر إلى كبر، ثم من دار إلى دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله، وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله، بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره. ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء. وهم في أثناء الأحوال، قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة

(١) أبو داود في الأدب (٤٩١٩) والترمذي في القيامة (٢٥٠٩).

(٢) مسلم في الزهد (٢٦٩٦ / ٦٠).

من نهايات الكمال.

وقد ظهر فضل نبينا على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى يسمع فيه صريف ٩٦/١١
الأفلام، وعلا على مقامات الملائكة، والله تعالى أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته
من صالحى الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهر مثله من الملائكة، حيث جمع فيهم
ما تفرق في المخلوقات. فخلق بدنه من الأرض، وروحه من الملائكة الأعلى، ولهذا يقال:
هو العالم الصغير، وهو نسخة العالم الكبير.

ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الخلق، وأكرمهم عليه. ومن هنا قال من قال: إن الله
خلق من أجله العالم، أو أنه لولا هو لما خلق عرشاً، ولا كرسيّاً، ولا سماء ولا أرضاً
ولا شمساً ولا قمرًا. لكن ليس هذا حديثاً عن النبي ﷺ لا صحيحاً ولا ضعيفاً، ولم
ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ، بل ولا يعرف عن الصحابة، بل هو
كلام لا يدري قائله. ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِي وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤] وأمثال ذلك من الآيات
التي يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم. ومعلوم أن لله فيها حكماً عظيمة غير ذلك،
وأعظم من ذلك. ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة، وما أسبغ عليهم من النعمة. ٩٧/١١

فيذا قيل: فعل كذا لكذا لم يقتض ألا يكون فيه حكمة أخرى. وكذلك قول القائل:
لولا كذا ما خلق كذا. لا يقتضي ألا يكون فيه حكم أخرى عظيمة، بل يقتضي إذا كان
أفضل صالحى بني آدم محمد، وكانت خلقته غاية مطلوبة، وحكمة بالغة مقصودة أعظم
من غيره، صار تمام الخلق، ونهاية الكمال، حصل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

والله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وكان آخر الخلق يوم الجمعة،
وفيه خلق آدم وهو آخر ما خلق، خلق يوم الجمعة بعد العصر في آخر يوم الجمعة. وسيد
ولد آدم هو محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم - آدم فمن دونه تحت لوائه - قال صلى
الله تعالى عليه وسلم: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل^(١) في طيئته»^(٢)
أي كتبت نبوتي وأظهرت لما خلق آدم قبل نفخ الروح فيه، كما يكتب الله رزق العبد
وأجله وعمله وشقي أو سعيد إذا خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه. فإذا كان الإنسان هو

(١) منجدل: أي ملقى على الجدالة وهي الأرض. انظر: غريب الحديث والآثر لابن الأثير ٢٤٨/١.

(٢) أحمد ١٢٧/٤، ١٢٨، والحاكم ٤١٨/٢ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان
في الموارد (٢٠٩٣) والطبراني في الكبير ٢٥٣/١٨.

٩٨/١١ خاتم المخلوقات وآخرها/وهو الجامع لما فيها، وفاضله هو فاضل المخلوقات مطلقاً، ومحمد إنسان هذا العين، وقطب هذه الرحي، وأقسام هذا الجمع كان كأنها غاية الغايات في المخلوقات، فما ينكر أن يقال: إنه لأجله خلقت جميعها، وأنه لولاه لما خلقت، فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة قبل ذلك.

وأما إذا حصل في ذلك غلو من جنس غلو النصارى بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية، كان ذلك مردوداً غير مقبول، فقد صح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١) وقد قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له، ولا الدعاء إلا له، ولا التوكل إلا عليه، ولا الرغبة إلا إليه، ولا الرهبة إلا منه، ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب السيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا بالله ٩٩/١١ به ﴿وَلَا تَفْعَلْ شَفْعَةً عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وكذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فالإيتاء لله والرسول. وأما التوكل فعلى الله وحده، والرغبة إلى الله وحده.

فصل

وأما «المواخاة» فإن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، لما قدم المدينة، كما آخى بين سلمان الفارسي وبين أبي الدرداء، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وكانوا يتوارثون بتلك المواخاة، حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فصاروا يتوارثون بالقرابة. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] وهذا هو المحالفة. واختلف العلماء

(١) سبق تخريجه ص ٤٠ .

هل التوارث بمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ؟ على قولين:

أحدهما: أن ذلك منسوخ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين ١١/١٠٠ عنه، ولما ثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال: «لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة» (١).

والثاني: أن ذلك محكم، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى عنه.

وأما المؤاخاة بين المهاجرين كما يقال: إنه آخى بين أبي بكر وعمر، وأنه آخى علياً ونحو ذلك، فهذا كله باطل، وإن كان بعض الناس ذكر أنه فعل بمكة، وبعضهم ذكر أنه فعل بالمدينة، وذلك نقل ضعيف: إما منقطع، وإما بإسناد ضعيف. والذي في الصحيح هو ما تقدم، ومن تدبر الأحاديث الصحيحة، والسيرة النبوية الثابتة، تيقن أن ذلك كذب.

وأما عقد الأخوة بين الناس في زماننا، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يسلّمه ولا يظلمه» (٢)، وقوله: «لا يبيع أحدكم على بيع أخيه، ولا يستام على سوم أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه» (٣). وقوله: «والذي/نفسى ١١/١٠١ بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه» (٤) ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن. فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله. وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة، وإن كان المقصود منها إثبات حكم خاص كما كان بين المهاجرين والأنصار، فهذه فيها للعلماء قولان، بناء على أن ذلك منسوخ أم لا؟ فمن قال: إنه منسوخ - كما لك والشافعي وأحمد في المشهور عنه - قال: إن ذلك غير مشروع. ومن قال: إنه لم ينسخ - كما قال: أبو حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى - قال: إنه مشروع.

(١) مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٠/٢٠٦)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٢٥)، كلاهما عن جبير بن مطعم، والترمذي في السير (١٥٨٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقال: «حسن صحيح»، والدارمي في السير ٢/٢٤٣، وأحمد ١/١٩٠، كلاهما عن ابن عباس.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥.

(٣) البخاري في البيوع (٢١٣٩)، وأحمد ٢/٣٩٤، ٤٢٧، كلاهما عن أبي هريرة، ومسلم في النكاح (٣٨/١٤٠٨)، والترمذي في البيوع (١٢٩٢) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في التجارات (٢١٧١)، كلهم عن ابن عمير.

(٤) سبق تخريجه ص ٥٥.

وأما «الشروط» التي يلتزمها كثير من الناس في «السماع» وغيره. مثل أن يقول: على المشاركة في الحسنات، وأينا خلص يوم القيامة خلص صاحبه، ونحو ذلك. فهذه كلها شروط باطلة؛ فإن الأمر يومئذ لله، هو ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩] وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

١٠٢/١١ وكذلك يشترطون شروطًا من الأمور الدنيوية ولا يوفون بها،/وما أعلم أحدًا ممن دخل في هذه الشروط الزائدة على ما شرطه الله ورسوله وفي بها، بل هو كلام يقولونه عند غلبة الحال؛ لا حقيقة له في المآل، وأسعد الناس من قام بما أوجبه الله ورسوله، فضلًا عن أن يوجب على نفسه زيادات على ذلك.

وهذه المسائل قد بسطت في غير هذا الموضع. والله أعلم.

فصل

والشيخ « عدي بن مسافر بن صخر »^(١) كان رجلاً صالحاً، وله أتباع صالحون، ومن أصحابه من فيه غلو عظيم، يبلغ بهم غليظ الكفر، وقد رأيت جزءاً أتى بيد أتباعه فيه نسبه وسلسلة طريقه، فرأيت كليهما مضطرباً.

أما « النسب » فقالوا : عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن أحمد بن مروان بن الحكم بن مروان الأموي. وهذا كذب قطعاً فإنه يمتنع أن يكون بينه وبين مروان ابن الحكم خمسة أنفس.

وأما « الخرقه » فقالوا: دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقه بيده، والشيخ عقيل لبس الخرقه من يد الشيخ مسلمة المردجي، والشيخ مسلمة لبس الخرقه من يد الشيخ أبي سعيد الخراز.

/قلت: هذا كذب واضح، فإن مسلمة لم يدرك أبا سعيد، بل بينهما أكثر من مائة/١١/١٠٤ سنة، بل قريباً من مائتي سنة.

ثم قالوا: والشيخ أبو سعيد الخراز لبس الخرقه من يد الشيخ أبي محمد العنسي والعنسي لبسها من يد الشيخ علي بن عليل الرملي، والشيخ علي بن عليل لبسها من يد والده الشيخ عليل الرملي، والشيخ عليل لبس الخرقه من يد الشيخ عمار السعدي، والشيخ عمار السعدي لبس الخرقه من يد الشيخ يوسف الغساني، والشيخ يوسف الغساني لبس الخرقه من يد والده الشيخ يعقوب الغساني، والشيخ يعقوب الغساني لبس الخرقه من يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوم خطب الناس بالجابية، وعمر بن الخطاب لبس الخرقه من يد رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لبس الخرقه من يد جبرائيل، وجبرائيل

(١) عدي بن مسافر بن صخر: هو عدي بن صخر الشامي، وقيل: عدي بن مسافر - وهذا أشهر - ابن إسماعيل بن موسى الشامي، ثم الهكاري مسكناً. قال الحافظ عبد القادر: ساح سنين كثيرة، وصحب المشايخ، سكن جبال الموصل في موضع ليس به أنيس، ثم أنس الله تلك المواضع به وعمرها ببركته، كان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، كانت له غليلة يزرعها في الجبل ويحصدها ويتقوت، ولا يأكل من مال أحد شيئاً. صحب الشيخ عقيل المنبجي، والشيخ حماد الدباس وغيرهما، وتوفى سنة ٥٥٧ وعاش تسعين سنة. [سير أعلام النبلاء: ٢٠/٣٤٢-٣٤٤].

من الله تعالى .

قلت : لبس عمر للخرقه وإلباسه ولبس رسول الله ﷺ للخرقه وإلباسه يعرف كل من له أدنى معرفة أنه كذب . وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد إلى عمر فمجهول ، وما أعرف لهؤلاء ذكراً لا في كتب الزهد والرفائق ، ولا في كتب الحديث والعلم ، ومن الممكن أن يكون بعض هؤلاء كانوا شيوخاً ، وقد ركب هذا الإسناد عليهم من لم يعرف أزمانهم والله أعلم بحقيقة أمرهم .

١١/١٠٥ | ثم ذكروا بعد هذا « عقيدته » وقالوا : هذه عقيدة السنة من إملأ الشيخ عدي . و« العقيدة » من كتاب (التبصرة) للشيخ أبي الفرج المقدسي ، بالفاظه ، نقل المسطرة ، لكن حذفوا منها تسمية المخالفين وأقوالهم ، وذكروا ما ذكره من الأدلة ، وزادوا فيها من ذكر يزيد وغيره أشياء لم يقلها الشيخ أبو الفرج وفيها أحاديث موضوعة ، وقال في آخرها : فهذا اعتقادنا ، وما نقلناه عن مشائخنا نقله جبرائيل عن الله ، ونقله النبي ﷺ عن جبرائيل ، ونقله الصحابة عن النبي ﷺ ، وبسمى من سماه اللالكائي في أول كتاب (شرح أصول السنة) كما ذكروا أن هذا أملاه الشيخ عدي من حفظه ، وأمر بكتابته ، ورووا ذلك بالسمع عن الشيخ حسن بن عدي بن أبي البركات بسماعه من والده عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر وهو عدي .

١١/١٠٦ | وسئل :

هل تخلل أبو بكر بالعباءة؟ وتخللت الملائكة لأجله بالعباءة أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، لم يتخلل أبو بكر بالعباءة ، ولا الملائكة تخللوا بالعباءة ، وذلك كذب . والله أعلم .

/ وسئل عن معنى قول من يقول: « حب الدنيا رأس كل خطيئة »^(١) فهل هي من ١٠٧/١١
جهة المعاصي؟ أو من جهة جمع المال؟.

فأجاب :

ليس هذا محفوظًا عن النبي ﷺ؛ ولكن هو معروف عن جندب بن عبد الله البجلي
من الصحابة، ويذكر عن المسيح ابن مريم عليه السلام، وأكثر ما يغلو في هذا اللفظ
المتفلسفة، ومن هذا حذوهم من الصوفية على أصلهم، في تعلق النفس إلى أمور ليس
هذا موضع بسطها.

وأما حكم الإسلام في ذلك: فالذي يعاقب الرجل عليه الحب الذي يستلزم المعاصي:
فإنه يستلزم الظلم والكذب والفواحش، ولا ريب أن الحرص على المال والرئاسة يوجب
هذا، كما في الصحيحين أنه قال: «إياكم والشح»، فإن الشح أهلك من كان قبلكم،
أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(٢)، وعن كعب
عن النبي ﷺ أنه قال: « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم/بأفسد لها من حرص المرء على ١٠٨/١١
المال والشرف لدينه »^(٣). قال الترمذي: حديث حسن.

فحرص الرجل على المال والشرف يوجب فساد الدين، فأما مجرد الحب الذي في
القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمره به، ويترك ما نهى الله عنه، ويخاف مقام ربه، وينهى
النفس عن الهوى، فإن الله لا يعقابه على مثل هذا إذا لم يكن معه عمل، وجمع المال،
إذا قام بالواجبات فيه ولم يكتسبه من الحرام، لا يعاقب عليه، لكن إخراج فضول المال،
والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم، وأفقر للقلب، وأجمع لله، وأنفع في الدنيا
والآخرة. وقال النبي ﷺ: « من أصبح والدنيا أكبر همه شئت الله عليه شمله، وجعل
فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل

(١) البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٠١)، وكتر العمال (٦١١٤)، وكشف الخفا (٣٤٤/١)، والاسرار المرفوعة
١٦٣.

(٢) مسلم في البر والصلة (٥٦/٢٥٧٨) بنحوه، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨) ولم أقف عليه عند البخاري.
(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٧٦) وقال: « حسن صحيح »، والدارمي في الرقاق ٣٠٤/٢، وأحمد ٤٥٦/٣، ٤٦٠،
كلهم من طريق كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه.

الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة»(١).

(١) ابن ماجه في الزهد (٤١٠٥) وأحمد ١٨٣/٥، كلاهما عن زيد بن ثابت، والديلمي (٥٦١٠/٣)،
والمنذري في الترغيب والترهيب ٥٣٨/٢، كلاهما عن أنس، وعزاه المنذري للبزار والطبراني وابن حبان في
صحيحه.

/ وسئل - رحمه الله - عما يذكر من قولهم : اتخذوا مع الفقير أبادي فإن لهم ١١/١٠٩ دولة وأبي دولة^(١)؟! وقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : إن النبي ﷺ كان يتحدث مع أبي بكر - رضي الله عنه - وكنت بينهما كالزنجي، ما معنى ذلك؟ وقول بعض الناس لبعض : نحن في بركتك، أو من وقت حلت عندنا حلت علينا البركة. ونحن في بركة هذا الشيخ المدفون عندنا، هل هو قول مشروع أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب :

الحمد لله ، أما الحديثان الأولان فكلاهما كذب، وما قال عمر بن الخطاب ما ذكر عنه قط، ولا روي هذا أحد بإسناد صحيح ولا ضعيف، وهو كلام باطل؛ فإن من كان دون عمر كان يسمع كلام النبي ﷺ ويفهم ما ينفعه الله به، فكيف بعمر؟! وعمر أفضل الخلق بعد أبي بكر، فكيف يكون كلام النبي ﷺ وأبي بكر بمنزلة كلام الزنجي.

/ ثم الذين يذكرون هذا الحديث من ملاحدة الباطنية؛ يدعون أنهم علموا ذلك السر ١١/١١٠ الذي لم يفهمه عمر. وحمله كل قوم على رأيهم الفاسد، والنجادية يدعون أنه قولهم، وأهل الحقيقة الكونية الذين ينفون الأمر والنهي والوعيد يدعون أنه قولهم.

وأهل الحلول الخاص أشباه النصارى يدعون أنه قولهم؛ إلى أصناف آخر يطول تعدادها.

فهل يقول عاقل: إن عمر وهو شاهد لم يفهم ما قالوا ، وإن هؤلاء الجهال الضلال أهل الزندقة والإلحاد والمحال علموا معنى ذلك الخطاب، ولم ينقل أحد لفظه، وإنما وضع مثل هذا الكذب ملاحدة الباطنية، حتى يقول الناس: إن ما أظهره الرسل من القرآن والإيمان والشرعية له باطن يخالف ظاهره؛ وكان أبو بكر يعلم ذلك الباطل دون عمر ، ويجعلون هذا ذريعة عند الجهال إلى أن يسلبوهم من دين الإسلام.

ونظير هذا ما يروونه أن عمر تزوج امرأة أبي بكر ليعرف حاله في الباطن، فقالت: كنت أشم رائحة الكبد المشوية، فهذا أيضاً كذب، وعمر لم يتزوج امرأة أبي بكر، بل تزوجها علي بن أبي طالب وكانت قبل أبي بكر عند جعفر، وهي أسماء بنت عميس

(١) كشف الخفا للعجلوني ٣٧/١، وقال: «رواه أبو نعيم عن الحسين بن علي بسند ضعيف ، والعراقي في الإحياء ٢٠٩/٤».

١١/١١ وكانت من/عقلاء النساء، وعمر كان أعلم بأبي بكر من نسائه وغيرهم.

وأما الحديث الآخر وهو قوله: «اتخذوا مع الفقراء أيادي فإن لهم دولة وأي دولة!» فهذا - أيضاً - كذب ، ما رواه أحد من الناس، والإحسان إلى الفقراء الذين ذكرهم الله في القرآن، قال الله فيهم: ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلَصَدَقْتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتُوهَا أَلْفَقْرَةً فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧١ - ٢٧٣]، وأهل الفيء وهم الفقراء المجاهدون الذين قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُكَرَّجِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨]. والمحسن إليهم وإلى غيرهم عليه أن يتغني بذلك وجه الله، ولا يطلب من مخلوق لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَلْفُ . الَّذِي يُوَقَى مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا أَثِمَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ . مُسْكِينَ وَنِيَامًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ الآية [الإنسان: ٨ ، ٩].

ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية؛ فإن في الحديث الذي في سنن أبي داود «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه»^(١)؛ ولهذا كانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للرسول: اسمع ما دعوا به لنا؛ حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا، ويبقى أجرنا على الله .

١١٢/١١ / وقال بعض السلف : إذا أعطيت المسكين، فقال: بارك الله عليك . فقل: بارك الله عليك . أراد أنه إذا أثابك بالدعاء فادع له بمثل ذلك الدعاء، حتى لا تكون اعتضت منه شيئاً . هذا والعطاء لم يطلب منهم . وقد قال النبي ﷺ: « ما نفعني مال كمال أبي بكر»^(٢) أنفقه يتغني به وجه الله، كما أخبر الله عنه، لا يطلب الجزاء من مخلوق لا نبي ولا غيره، لا بدعاء ولا شفاعة .

وقول القائل : لهم في الآخرة دولة وأي دولة! ، فهذا كذب ، بل الدولة لمن كان مؤمناً تقياً فقيراً كان أو غنياً، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْقَرُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآيتين [الروم: ١٤ ، ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ، ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ونظير هذا في القرآن كثير .

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي في الزكاة (٧٢/٥) ، وأحمد ٢/٦٨ ، ٩٦ ، ٩٩ ، (١٢٧) ، كلهم

عن ابن عمر .

(٢) ابن ماجه في المقدمة (٩٤) ، وأحمد ٢/٢٥٣ ، ٣٦٦ ، كلاهما عن أبي هريرة .

ومع هذا فالمؤمنون - الأنبياء وسائر الأولياء - لا يشفعون لأحد إلا بإذن الله ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَوْمِرِزُّوهُمْ﴾ [الأنبياء : ١٩] فمن أحسن إلى مخلوق يرجو أن ذلك المخلوق يجزيه يوم القيامة كان من الأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، بل إنما يجزى على الأعمال يومئذ الواحد القهار ، الذي إليه الإياب والحساب ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تكن ١١٣/١١ حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . ولا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه .

فصل

وأما قول القائل : نحن في بركة فلان ، أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة . فهذا الكلام صحيح باعتبار ، باطل باعتبار . فأما الصحيح : فإن يراد به أنه هدايا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ، ونهانا عن المنكر ، فبركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل ، فهذا كلام صحيح . كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي ﷺ في بركته لما آمنوا به ، وأطاعوه ، فبركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

وأيضاً ، إذا أريد بذلك أنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق ، كما قال النبي ﷺ : «وَهَلْ تَنْصُرُونَ وَتَرْزُقُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ بِدَعَائِهِمْ ، وَصَلَاتِهِمْ ، وَإِخْلَاصِهِمْ؟»^(١) . وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لثلاث أسباب من المؤمنين ممن لا يستحق العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ إلى قوله : ١١٤/١١ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح : ٢٥] .

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهرائي الكفار عذب الله الكفار ، وكذلك قال النبي ﷺ : «لَوْ لَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ لَأَمَرْتُ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حِزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ»^(٢) وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها ، وقد قال المسيح عليه السلام : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم : ٣١] فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٦) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٤) .

(٢) أبو داود فى الصلاة (٥٤٨) ، والترمذى فى جامع أبواب الصلاة (٢١٧) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه فى المساجد (٧٩١) ، والدارمى فى الصلاة ١/ ٢٩٢ ، وأحمد ٢/ ٣١٤ ، ٣٧٦ ، ٤٧٢ .

للخلق بدعائهم إلى طاعة الله، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة، ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود، فمن أراد بالبركة هذا، وكان صادقاً، فقله حق.

وأما «المعنى الباطل» فمثل أن يريد الإشراك بالخلق: مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهاهم لأجله، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله، فهذا جهل. فقد كان الرسول ﷺ سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف مالا يعلمه إلا الله، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدعونهم إلى ذلك/ وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين، وبركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم. وكذلك الخليل ﷺ مدفون بالشام، وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة، وكان أهلها في شر. فمن ظن أن الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملاً بمعصية الله فهو غالط.

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره، وتقبيل الأرض عنده، ونحو ذلك يحصل له السعادة، وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله. وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له، ويدخله الجنة بمجرد محبته، وانتسابه إليه، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة، فهو من أحوال المشركين، وأهل البدع، باطل لا يجوز اعتقاده، ولا اعتماده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

/وسئل عن رجل «متصوف» قال لإنسان - في كلام جرى بينهم -: فقراء الأسواق، ١١٦/١١ فقال له الرجل: اليهودي والنصراني والمسلم في السوق، قال تعالى: ﴿وَرَبُّنَا بِالْفِسْطَيْنِ أَلَسْتَقِيمَ﴾ [الإسراء: ٣٥]، فقال الصوفي: قال رسول الله ﷺ: «الفقر إلى الله، والأولياء مفتقرون للخاتمة والأشقياء تحت القضاء»، قال الصوفي للرجل: تعرف الفقر؟ فقال له: لا، قال الصوفي: الفقر هو الله. فأنكروا عليه هذا اللفظ. ثم في ثاني يوم قال رجل: أنت قلت: الفقر هو الله، فقال الصوفي: أنا قرأت في كتاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رآني آمن بي»^(١) وأنا رأيت الفقر فأمنت به، والفقر هو الله.

فأجاب:

الحمد لله، أما الحديث كذب على رسول الله ﷺ، وهو مع كونه كذباً مناقض للعقل والدين، فإنه ليس كل من رآه آمن به، بل قد رآه كثير مثل الكفار والمنافقين. وقول القائل: آمنت بالفقر أو كفرت بالفقر هو من الكلام الباطل، بل هو/كفر يجب أن يستتاب ١١٧/١١ صاحبه فإن تاب وإلا قتل. والله سبحانه هو الغني، والخلق هم الفقراء إليه.

وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فإذا كان الذين قالوا: إنه فقير قد توعدهم بهذا، فكيف بمن يقول له الفقر؟! و«المصدر» أبلغ من الصفة وإذا كان منزهاً على أن يوصف بذلك فكيف يجعل المصدر اسماً له؟!

ولو قال القائل: أردت بذلك الفقر هو إرادة الله ولم يكن في السياق ما يقتضي تصديقه لم يقبل ذلك منه، وإن كان في السياق ما يقبل تصديقه، نهى عن العبارة الموهومة وأمر بالعبارة الحسنة.

وأما قوله: الحديث المذكور وهو قوله: «الفقر فخري، وبه أفتخر» فهو كذب موضوع لم يروه أحد من أهل المعرفة بالحديث عن النبي ﷺ ومعناه باطل؛ فإن النبي ﷺ لم يفتخر بشيء بل قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢) وقال في الحديث: «إنه أوحى إلي أن

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي (٧٤٥) وقال: قال شيخنا: «هو باطل موضوع»، وكشف الخفا للعجلوني ٨٧/٢، والأسرار المرفوعة ٣٢٠.

(٢) الحاكم ٦٠٥/٢ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعبه الذهبي وقال: «قلت: لا والله، القاسم متروك تالف وعبيد ضعفه غير واحد ومشاه أبو حاتم» وكنز العمال (٣٢٠٤٠).

تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»^(١) ولو افتخر بشيء
لافتخر بما فضله الله به على سائر الخلق.

١١/١١٨ / و «الفقر» وصف مشترك بينه وبين سائر الفقراء، سواء أريد به الشرعي وهو عدم
المال، أو الفقر الاصطلاحي وهو مكارم الأخلاق والزهد، مع أن لفظه في كلامه وكلام
أصحابه لا يراد به إلا الفقر الشرعي دون الاصطلاحي، والله أعلم.

(١) مسلم في صفة الجنة (٢٨٦٥/٦٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٥)، كلاهما عن عياض بن حمار، وابن
ماجه في الزهد (١٢١٤)، عن أنس بن مالك.

/وسئل عن قال: إن «الفقير، والغني» لا يفضل أحدهما صاحبه إلا بالتقوى. فمن ١١٩/١١
كان أتقى لله كان أفضل وأحب إلى الله تعالى. وإن الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ :
«يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(١) هذا في حق ضعفاء المسلمين،
وصعاليكهم القائمين بفرائض الله تعالى، وليس مختصاً بمجرد ما عرف واشتهر في هذه
الأعصار المتأخرة، من السجاد والمرقة والعكاز، والألفاظ المنمقة، بل هذه الهيئات المعتادة
في هذه الأزمنة مخترعة مبتدعة، فهل الأمر على ما ذكر أم لا ؟
فأجاب - رضي الله عنه - :

الحمد لله رب العالمين، قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في «الغني الشاكر، والفقير
الصابر» أيهما أفضل؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد، ورجح هذا طائفة من العلماء
والعباد، وقد حكى في ذلك عن الإمام أحمد روايتان. وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل
عنهم تفضيل أحد الصنفين/على الآخر. وقال طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر ١٢٠/١١
فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، وإن استويا في ذلك استويا
في الفضيلة، وهذا أصح الأقوال؛ لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى. وقد
قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء،
وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين،
فيقومون بالشكر والصبر على التمام. كحال نبينا ﷺ، وحال أبي بكر وعمر - رضي الله
عنهما - ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى، والغنى أنفع لآخرين، كما
تكون الصحة لبعضهم أنفع، كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره: «إن من عبادي من
لا يصلحه إلا الغنى. ولو أفقرته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر.
ولو أغنيته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم. ولو أصححته لأفسده
ذلك، إني أدبر عبادي إني بهم خبير بصير»^(٢).

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف

(١) سبق تخريجه ص ٣٥ .

(٢) ابن عساکر ٢/٢٤٨ ، ولم نجد عند البغوي .

يوم»^(١) وفي الحديث الآخر لما علم الفقراء الذكر عقب الصلوات سمع بذلك الأغنياء ١٢١/١١ فقالوا مثل/ ما قالو . فذكر ذلك الفقراء للنبي ﷺ ، فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٢) فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لحفة الحساب عليهم ، والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه ، وإن تأخر في الدخول ، كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ومنهم عكاشة بن محصن ، وقد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم . وصلى الله وسلم على محمد .

(١) سبق تخريجه ص ٣٥ .

(٢) البخارى فى الأذان (٨٤٣) ، عن أبى هريرة ، والترمذى فى جامع أبواب الصلاة (٤١٠) ، والنسائى فى السهو (١٣٥٣) ، كلاهما عن ابن عباس .

اوقال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى :-

فصل

قد كثر تنازع الناس : أيهما أفضل «الفقير الصابر ، أو الغني الشاكر» ؟ وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى ، أو بنوع من قلة المعرفة ، والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية ، والعامّة والرؤساء وغيرهم . وقد ذكر القاضي أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى في كتاب «التمام لكتاب الروايتين والوجهين» لأبيه فيها عن أحمد روايتين :

إحدهما : أن الفقير الصابر أفضل . وذكر أنه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا ، والوالد القاضي أبو يعلى ، ونصرها هو .

والثانية : أن الغني الشاكر أفضل ، اختاره جماعة منهم ابن قتيبة . و«القول الأول» يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه/والصلاح ، من الصوفية والفقهاء ، ويحكي هذا القول ١٢٣/١١ عن الجنيد وغيره و «القول الثاني» يرجحه طائفة منهم ، كأبي العباس بن عطاء^(١) وغيره وربما حكى بعض الناس في ذلك إجماعاً ، وهو غلط .

وفي المسألة «قول ثالث» وهو الصواب أنه ليس هذا أفضل من هذا مطلقاً ، ولا هذا أفضل من هذا مطلقاً بل أفضلهما أتقاهما . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال عمر بن الخطاب : الغنى والفقر مطيتان ، لا أبالي أيتهما ركبت ، وقد قال تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء : ١٣٥] وهذا القول اختيار طائفة منهم الشيخ ابن حفص السهروردي ، وقد يكون هذا أفضل لقوم ، وفي بعض الأحوال . وهذا أفضل لقوم وفي بعض الأحوال ، فإن استويا في سبب الكرامة استويا في الدرجة ، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح عليه ، هذا هو الحكم العام .

والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره أخرى كالمقام والسفر ،

(١) أبو العباس بن عطاء : هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي البغدادي ، الزاهد العابد المتأله ، حدث عن : يوسف بن موسى القطان ، وعنه محمد بن علي بن حُبَيْش ، وقال : كان له في كل يوم ختمة ، وكان ينام في اليوم والليلة ساعتين ، وقبل عنه : أنه فقد عقله ثمانية عشر عاماً ، ثم تاب إليه عقله ، وتوفى سنة تسع وثلاثمائة من ذي القعدة ، [سير أعلام النبلاء ٢٥٥/١٤ ، ٢٥٦] .

والصحة والمرض، والإمارة والاثمار، والإمامة والائتمام. وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر، بل قد يكون هذا أفضل في حال، وهذا في حال، وقد يستويان في حال كما في الحديث المرفوع في (شرح السنة) للبغوي عن أنس ١٢٤/١١ عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر عبادي، إني بهم خبير بصير» (١).

وفي هذا المعنى ما يروى: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا؛ كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب» (٢)، ويروي في مناجاة موسى نحو هذا. ذكره أحمد في الزهد. فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه الفقر، كما في الحديث الآخر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (٣).

وكما أن الأقوال في المسألة «ثلاثة» فالناس «ثلاثة أصناف»: غني، وهو من ملك ما يفضل عن حاجته. وفقير، وهو من لا يقدر على تمام كفايته، وقسم ثالث: وهو من يملك وفق كفايته، ولهذا كان في أكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الأولين من كان غنياً: كإبراهيم الخليل وأيوب، وداود وسليمان، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة والزبير، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وأسعد بن زرارة وأبي أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصدّيقين.

١٢٥/١١ وفيهم من كان فقيراً: كالمسيح عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا وعلى بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، ومصعب بن عمير، وسلمان الفارسي ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق، من النبيين والصدّيقين، وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران: الغنى تارة والفقر أخرى؛ وأتى بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء: كنبينا ﷺ، وأبي بكر وعمر.

والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط؛ فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر، ولا غنى، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض، ولا إقامة ولا سفر، ولا إمارة ولا ائتمام، ولا إمامة ولا ائتمام، بل قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾

(١) سبق تخريجه ص ٧١.

(٢) أحمد ٤٢٨/٥، وكتر العمال (٦١٠٤)، وابن عساكر ١٠٣/٤.

(٣) أحمد ١٩٧/٤، ٢٠٢، عن عمرو بن العاص، وفتح الباري ٧٥/٨، وكشف الخفا ٣٢٠/٢.

[الحجرات: ١٣] وفضلهم بالأعمال الصالحة: من الإيمان ودعائمه، وشعبه كاليقين والمعرفة، ومحبة الله والإنابة إليه، والتوكل عليه ورجائه، وخشيته وشكره والصبر له. وقال في آية العدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

ولذلك كان النبي ﷺ وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين. غنيهم وفقيرهم في أمورهم. ولما طلب بعض الأغنياء من النبي ﷺ إبعاد الفقراء نهاء الله عن ذلك. وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ ١٢٦/١١ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]. ولما طلب بعض الفقراء من النبي ﷺ ما لا يصلح له نهاء عن ذلك، وقال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا. وإنني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تأمرن على اثنين. ولا تولين مال يتيم»^(١).

وكانوا يستون في مقاعدهم عنده، وفي الاصطفاف خلفه، وغير ذلك. و من اختص منهم بفضل عرف النبي ﷺ له ذلك الفضل، كما قنت للقرء السبعين، وكان يجلس مع أهل الصفة، وكان أيضًا لعثمان وطلحة والزبير، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد ابن بشر ونحوهم، من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء، وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة في الأغنياء والفقراء. وهذا هو العدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل، وغيرهم، في معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء.

وفي الأئمة كالثوري ونحوه من كان يميل إلى الفقراء، ويميل على الأغنياء مجتهدًا في ذلك طنبًا به رضا الله، حتى عتب عليه ذلك في آخر عمره، ورجع عنه.

/ وفيهم من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء: كالزهري، ورجاء بن حيوة، وأبي الزناد، ١٢٧/١١ وأبي يوسف ومحمد وأناس آخرين، وتكلم فيهم من تكلم بسبب ذلك. ولهم في ذلك تأويل واجتهاد، والأول هو العدل والقسط، الذي دل عليه الكتاب والسنة.

ونصوص النبي ﷺ معتدلة فإنه قد روى: أن الفقراء قالوا له: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصَلُّونَ كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا نتصدق فقال: «ألا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم، ولم يلحقكم

(١) مسلم في الإمارة (١٧/١٨٢٦)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٨)، والنسائي في الوصايا (٣٦٦٧)، كلهم عن أبي ذر.

من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم ؟ » فعلمهم التسييح المائة فى دبر كل صلاة . فجاؤوا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه ، فقال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١) وهذه الزيادة فى صحيح مسلم من مراسيل أبى صالح ، فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن ، وزادوا عليهم بالإتفاق فى سبيل الله ونحوه من العبادات المالية .

وثبت عنه أيضاً فى الصحيح أنه قال : « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم - خمسمائة عام - وفى رواية : بأربعين خريفاً » (٢) فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين ، وكلاهما حق ، فإن الفقير ليس معه مال كثير ١٢٨/١١ يحاسب على قبضه وصرفه ، فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب ، فيسبق فى الدخول ، وهو أحوج إلى سرعة الثواب ، لما فاته فى الدنيا من الطيبات . والغنى يحاسب ، فإن كان مثله ساواه ، وإن كان دونه نزل عنه . وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير .

ونظير هذا قوله ﷺ فى « حوضه » - الذى طوله شهر وعرضه شهر - : « ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، أول الناس على وردا فقراء المهاجرين : الدنسين ثيابا ، الشعث رؤوساً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب الملوك ، يموت أحدهم وحاجته تختلج فى صدره لا يجد لها قضاء » (٣) فكانوا أسبق إلى الذى يزيل ما حصل لهم فى الدنيا من اللأواء والشدة ، وهذا موضع ضيافة عامة فإنه يقدم الأشد جوعاً فى الطعام ، وإن كان لبعض المستأخرين نوع إطعام ليس لبعض المتقدمين لاستحقاقه ذلك ببذله عنده أو غير ذلك ، وليس فى المسألة عن النبى ﷺ أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل : إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل ، وهذا قد يرجع تارة ، وهذا كالسبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومع كل ألف سبعين ألفاً ، وقد يحاسب بعدهم من إذا دخل رفعت درجته عليهم .

١٢٩/١١ وما روى : « إن ابن عوف يدخل الجنة حبوا » (٤) كلام موضوع/لا أصل له ، فإنه قد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن أفضل الأمة أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ، والعشرة مفضلون على غيرهم والخلفاء الأربعة أفضل الأمة . وقد ثبت فى الصحيح أنه قال : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها

(١) سبق تخريجه ص ٧٢ . (٢) سبق تخريجه ص ٣٥ . (٣) سبق تخريجه ص ٤٨ .

(٤) كثر العمال (١٦١٤١) ، وعزاه لابن سعد ، (٣٦٦٩٢) ، وعزاه لابن عساکر .

النساء» (١). وثبت في الصحيح أيضاً أنه قال : « احتجت الجنة والنار فقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، وقالت النار : ما لى لا يدخلنى إلا الجبارون والتكبرون » (٢). وقوله : « وقفت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدد محبوسون ، إلا أهل النار فقد أمر بهم إلى النار » (٣) ، هذا مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » (٤) .

فهذه الأحاديث فيها معنيان : أحدهما : أن الجنة دار المتواضعين الخاشعين ، لا دار التكبرين الجبارين سواء كانوا أغنياء أو فقراء ، فإنه قد ثبت في الصحيح : أنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقيل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٥) فأخبر ﷺ ، أن الله يحب التجمل في اللباس/الذى لا يحصل إلا بالغنى ، وأن ذلك ليس ١٣٠/١١ من الكبر ، وفي الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : فقير مختال ، وشيخ زان ، وملك كذاب » (٦)، وكذلك الحديث المروى : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، حتى يكتب عند الله جباراً . وما يملك إلا أهله » (٧) .

فعلم بهذين الحديثين : أن من الفقراء من يكون مختالاً ؛ لا يدخل الجنة . وأن من الأغنياء من يكون متجملًا غير متكبر ؛ يحب الله جماله ، مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٨) .

ومن هذا الباب : قول هرقل لأبي سفيان : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : وهم أتباع الأنبياء . وقد قالوا لنوح : « أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَلَذَّالُونَ » [الشعراء : ١١١] فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك ، بخلاف المستضعفين . وفي هذا المعنى الحديث

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤١) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٠) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٦ / ٣٤ - ٣٦) .

(٣) البخارى فى النكاح (٥١٩٦) ، وفى الرقاق (٦٥٤٧) ، وأحمد ٢٠٥ / ٥ ، ٢١٠ ، كلهم عن أسامة بن زيد .

(٤) مسلم فى القدر (٢٦٦٤ / ٣٤) . (٥) مسلم فى الإيمان (٩١ / ١٤٧) .

(٦) مسلم فى الإيمان (١٠٧ / ١٧٢) ، وأبو داود فى اللباس (٤٠٨٧) .

(٧) الترمذى فى البر والصلة (٢٠٠٠) ، وزاد فى صحيحه ما أصابهم وقال : « حسن غريب » .

(٨) مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٤ / ٣٤) .

المأثور - إن كان محفوظاً - : «اللهم أحييني مسكيناً، وأميتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين»^(١) فالمساكين ضد المتكبرين . وهم الخاشعون لله . المتواضعون لعظمته، الذين لا يريدون علواً في الأرض . سواء كانوا أغنياء أو فقراء .

١٣١/١١ / ومن هذا الباب : أن الله خيره : بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده ؛ لا لأجل حظه، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه، وإن كان مباحاً . كما قيل لسليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩] ففي هذه الأحاديث : أنه اختار العبودية والتواضع . وإن كان هو الأعلى هو ومن اتبعه . كما قال : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ولم يرد العلو وإن كان قد حصل له . وقد أعطى مع هذا من العطاء مالم يعطيه غيره، وإنما يفضل الغني لأجل الإحسان إلى الخلق، والإنفاق في سبيل الله، والاستعانة به على طاعة الله وعبادته، وإلا فذات ملك المال لا ينفع، بل قد يضر وقد صبر مع هذا من اللأواء والشدة على مالم يصبر عليه غيره، فنال أعلى درجات الشاكرين وأفضل مقامات الصابرين، وكان سابقاً في حالي الفقر والغنى، لم يكن ممن لا يصلحه إلا أحدهما، كبعض أصحابه وأمه .

المعنى الثاني : أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء . كما أنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء، فهذا في هؤلاء أكثر وفي هؤلاء أكثر، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر، فالسالم منها أقل . ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط ؛ ولهذا^{١٣٢/١١} صار الناس يطلبون الصلاح في الفقراء، لأن المظنة فيهم أكثر . فهذا هذا والله أعلم .

فلهذا السبب صارت المسكنة نسبته، وكذلك لما رأوا المسكنة والتواضع في الفقراء أكثر، اعتقدوا أن التواضع والمسكنة هو الفقر وليس كذلك، بل الفقر هنا عدم المال، والمسكنة خضوع القلب، وكان النبي ﷺ : يستعيز من فتنة الفقر، وشر فتنة الغنى، وقال : بعض الصحابة : ابتلينا بالضرء فصبّرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وقد قال ﷺ : «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها»^(٢) ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقراء، والغالب على الأنصار الغنى، والمهاجرون أفضل من الأنصار، وكان في المهاجرين أغنياء، هم من أفضل المهاجرين، مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم ماصاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه .

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣٥٢) وقال : « حديث غريب » وابن ماجه فى الزهد (٤١٢٦) .

(٢) البخارى فى الرقاق (٦٤٢٥) ، ومسلم فى الزهد (٢٩٦١ / ٦) ، والترمذى فى القيامة (٢٤٦٢) ،

وابن ماجه فى الفتن (٣٩٩٧) ، وأحمد ٤ / ١٣٧ .

/ وسئل عن «الحمد والشكر» ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد، أو معنيان؟ وعلى ١٣٣/١١
أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين، الحمد : يتضمن المدح، والثناء على المحمود بذكر محاسنه،
سواء كان الإحسان إلى الحامد، أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور
إلى الشاكر، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان،
فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنی، والمثل الأعلى، وما خلقه في
الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا
أُولَئِكَ أَجْنَحُ مَنَاقِبٍ وَتِلْكَ رُبُّنَا بَرُّنَا مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

/ وأما «الشكر» فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه؛ ١٣٤/١١
لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي، ولساني، والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه،
والحمد أعم من جهة أسبابه، ومن هذا الحديث «الحمد لله رأس الشكر، فمن لم يحمد
الله لم يشكره» وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل
الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»^(١) والله أعلم.

(١) مسلم في الذكر (٢٧٣٤/٨٩)، والترمذي في الاطعمة (١٨١٦)، وأحمد (٣/١٠٠، ١١٧)، كلهم عن
أنس بن مالك.

تلخيص مناظرة في «الحمد والشكر»

بحث جرى بين شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله - وبين ابن المرحل
كان الكلام في الحمد والشكر، وإن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، والحمد
لا يكون إلا باللسان.

فقال ابن المرحل: قد نقل بعض المصنفين - وسماه - : إن مذهب أهل السنة
والجماعة: إن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد . ومذهب الخوارج : أنه يكون بالاعتقاد ،
والقول والعمل، وبنوا على هذا: إن من ترك الأعمال يكون كافراً؛ لأن الكفر نقيض
الشكر، فإذا لم يكن شاكراً كان كافراً.

قال الشيخ تقي الدين: هذا المذهب المحكى عن أهل السنة خطأ والنقل عن أهل السنة
خطأ. فإن مذهب أهل السنة: أن الشكر يكون بالاعتقاد، والقول والعمل. قال الله
١٣٦/١١ تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. وقام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل
له : أتفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً
شكورا» (١).

قال ابن المرحل: أنا لا أتكلم في الدليل، وأسلم ضعف هذا القول، لكن أنا أنقل أنه
مذهب أهل السنة.

قال الشيخ تقي الدين: نسبة هذا إلى أهل السنة خطأ، فإن القول إذا ثبت ضعفه،
كيف ينسب إلى أهل الحق؟

ثم قد صرح من شاء الله من العلماء المعروفين بالسنة أن الشكر يكون بالاعتقاد ،
والقول والعمل، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

قلت: وباب سجود الشكر في الفقه أشهر من أن يذكر، وقد قال النبي ﷺ عن
سجدة سورة ﴿ص﴾ «سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكراً» (٢). ثم من الذي قال من
أئمة السنة : إن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد؟

قال ابن المرحل: هذا قد نقل ، والنقل لا يمنع، لكن يستشكل . ويقال: هذا مذهب
مشكل.

١٣٧/١١ / قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: النقل نوعان. أحدهما: أن ينقل ما سمع أو رأى.

(١) البخارى فى التهجد (١١٣٠) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٩ / ٧٩ - ٨١) .

(٢) النسائى فى سجود القرآن (٩٥٧) عن ابن عباس ، والبيهقى فى الكبرى ٢ / ٣١٩ عن أبى ذر .

والثاني: ما ينقل باجتهاد واستنباط. وقول القائل: مذهب فلان كذا، أو مذهب أهل السنة كذا، قد يكون نسبه إليه لاعتقاده أن هذا مقتضى أصوله، وإن لم يكن فلان قال ذلك. ومثل هذا يدخله الخطأ كثيراً. ألا ترى أن كثيراً من المصنفين يقولون: مذهب الشافعي أو غيره كذا، ويكون منصوبه بخلافه؟ وعذرهم في ذلك: أنهم رأوا أن أصوله تقتضي ذلك القول، فنسبوه إلى مذهبه من جهة الاستنباط، لا من جهة النص؟. وكذلك هذا. لما كان أهل السنة لا يكفرون بالمعاصي، والخوارج يكفرون بالمعاصي، ثم رأى المصنف الكفر ضد الشكر، أعتقد أنا إذا جعلنا الأعمال شكراً لزم انتفاء الشكر بانتفائها، ومتى انتفى الشكر خلفه الكفر، ولهذا قال: إنهم بنوا على ذلك: التكفير بالذنوب. فلهذا عزى إلى أهل السنة إخراج الأعمال عن الشكر.

قلت: كما أن كثيراً من المتكلمين أخرج الأعمال عن الإيمان لهذه العلة.

قال: وهذا خطأ، لأن التكفير نوعان: أحدهما: كفر النعمة. والثاني: الكفر بالله. والكفر الذي هو ضد الشكر: إنما هو/كفر النعمة لا الكفر بالله. فإذا زال الشكر خلفه ١٣٨/١١ كفر النعمة، لا الكفر بالله.

قلت: على أنه لو كان ضد الكفر بالله، فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله. والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية. كما قال أهل السنة: إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً، حتى يترك أصل الإيمان. وهو الاعتقاد. ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة - التي هي ذات شعب وأجزاء - زوال اسمها، كالإنسان، إذا قطعت يده، أو الشجرة، إذا قطع بعض فروعها.

قال الصدر بن المرحل: فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري في تسمية الفاسق كافر النعمة، كما خالفوا الخوارج في جعله كافراً بالله.

قال الشيخ تقي الدين: أصحابي لم يخالفوا الحسن في هذا، فعمن تنقل من أصحابي هذا؟ بل يجوز عندهم أن يسمى الفاسق كافر النعمة، حيث أطلقته الشريعة.

قال ابن المرحل: إني أنا ظننت أن أصحابك قد قالوا هذا، لكن أصحابي قد خالفوا الحسن في هذا.

قال الشيخ تقي الدين: ولا أصحابك خالفوه. فإن أصحابك/قد تأولوا أحاديث النبي ١٣٩/١١ ﷺ التي أطلق فيها الكفر على بعض الفسوق - مثل ترك الصلاة، وقتال المسلمين - على أن المراد به كفر النعمة. فعلم أنهم يطلقون على المعاصي في الجملة أنها كفر النعمة. فعلم أنهم موافقو الحسن، لا مخالفوه.

ثم عاد ابن المرحل، فقال: أنا أنقل هذا عن المصنف . والنقل ما يمنع ، لكن يستشكل .
قال الشيخ تقي الدين : إذا دار الأمر بين أن ينسب إلى أهل السنة مذهب باطل ، أو
ينسب الناقل عنهم إلى تصرفه في النقل كان نسبة الناقل إلى التصرف أولى من نسبة الباطل
إلى طائفة أهل الحق ، مع أنهم صرحوا في غير موضع : أن الشكر يكون بالقول والعمل
والاعتقاد . وهذا أظهر من أن ينقل عن واحد بعينه .

ثم إنا نعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول أهل الحق إخراج الأعمال أن تكون شكرًا
لله . بل قد نص الفقهاء على أن الزكاة شكر نعمة المال . وشواهد هذا أكثر من أن تحتاج
إلى نقل .

وتفسير الشكر بأنه يكون بالقول والعمل في الكتب التي يتكلم فيها على لفظ « الحمد »
١٤٠/١١ « والشكر » مثل كتب التفسير واللغة/، وشروح الحديث ، يعرفه آحاد الناس ، والكتاب
والسنة قد دلا على ذلك .

فخرج ابن المرحل إلى شيء غير هذا ، فقال : الحسن البصري يسمى الفاسق منافقًا ،
وأصحابك لا يسمونه منافقًا .

قال الشيخ تقي الدين له : بل يسمى منافقًا النفاق الأصغر ، لا النفاق الأكبر .
والنفاق يطلق على النفاق الأكبر ، الذي هو إضممار الكفر . وعلى النفاق الأصغر ، الذي
هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات .

قال له ابن المرحل : ومن أين قلت : إن الاسم يطلق على هذا وعلى هذا ؟

قال الشيخ تقي الدين : هذا مشهور عند العلماء . وبذلك فسروا قول النبي ﷺ : « آية
المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » (١) وقد ذكر ذلك
الترمذي وغيره . وحكوه عن العلماء .

وقال غير واحد من السلف : « كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق ، وشرك دون شرك » .

١٤١/١١ / وإذا كان النفاق جنسًا تحته نوعان ، فالفاسق داخل في أحد نوعيه .

قال ابن المرحل : كيف تجعل النفاق اسم جنس ، وقد جعلته لفظًا مشتركًا ، وإذا كان
اسم جنس كان متواطئًا ، والأسماء المتواطئة غير المشتركة ، فكيف تجعله مشتركًا متواطئًا .

قال الشيخ تقي الدين : أنا لم أذكر أنه مشترك . وإنما قلت : يطلق على هذا وعلى
هذا ، والإطلاق أعم .

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) ومسلم في الإيمان (٥٩ / ١٠٧ ، ١٠٨) .

ثم لو قلت: إنه مشترك لكان الكلام صحيحاً. فإن اللفظ الواحد قد يطلق على شيئين بطريق التواطؤ، وبطريق الاشتراك. فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر، وإبطان المعصية، تارة بطريق الاشتراك وتارة بطريق التواطؤ، كما أن لفظ الوجود يطلق على الواجب والممكن، عند قوم باعتبار الاشتراك، وعند قوم باعتبار التواطؤ. ولهذا سمى مشككا.

قال ابن المرحل: كيف يكون هذا؟ وأخذ في كلام لا يحسن ذكره.

قال له الشيخ تقي الدين: المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر. وذلك أن الماهيتين إذا كان بينهما قدر مشترك وقدر مميز، واللفظ يطلق على كل منهما، فقد يطلق عليهما باعتبار ما به/تتماز كل ماهية عن الأخرى. فيكون مشتركا كالاشتراك اللفظي. وقد ١٤٢/١١ يكون مطلقاً باعتبار القدر المشترك بين الماهيتين، فيكون لفظاً متواطئاً.

قلت: ثم إنه في اللغة يكون موضوعاً للقدر المشترك، ثم يغلب عرف الاستعمال على استعماله: في هذا تارة، وفي هذا تارة. فيبقى دالا بعرف الاستعمال على ما به الاشتراك والامتياز. وقد يكون قرينة، مثل لام التعريف، أو الإضافة، تكون هي الدالة على ما به الامتياز.

مثال ذلك: «اسم الجنس» إذا غلب في العرف على بعض أنواعه كلفظ الدابة، إذا غلب على الفرس، قد نطقه على الفرس باعتبار القدر المشترك بينهما وبين سائر الدواب. فيكون متواطئاً. وقد نطقه باعتبار خصوصية الفرس، فيكون مشتركا بين خصوص الفرس وعموم سائر الدواب، ويصير استعماله في الفرس: تارة بطريق التواطؤ، وتارة بطريق الاشتراك. وهكذا اسم الجنس إذا غلب على بعض الأشخاص وصار علماً بالغلبة: مثل ابن عمرو، والنجم، فقد نطقه عليه باعتبار القدر المشترك بينه وبين سائر النجوم وسائر بني عمرو. فيكون إطلاقه عليه بطريق التواطؤ. وقد نطقه عليه باعتبار ما به يمتاز عن غيره من النجوم، ومن بني عمرو، فيكون بطريق الاشتراك بين هذا المعنى الشخصي وبين المعنى النوعي. وهكذا كل اسم عام غلب على بعض أفرادها، يصح/استعماله في ذلك ١٤٣/١١ الفرد بالوضع الأول العام، فيكون بطريق التواطؤ، بالوضع الثاني، فيصير بطريق الاشتراك.

ولفظ «النفاق» من هذا الباب. فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه. وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة، فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين.

ثم إبطان ما يخالف الدين، إما أن يكون كفراً أو فسقاً. فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن

التكذيب ، فهذا هو النفاق الأكبر الذى أوعد صاحبه بأنه فى الدرك الأسفل من النار . وإن أظهر أنه صادق أو موف ، أو أمين ، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك . فهذا هو النفاق الأصغر الذى يكون صاحبه فاسقاً .

فإطلاق النفاق عليهما فى الأصل بطريق التواطؤ .

وعلى هذا ، فالنفاق اسم جنس تحت نوعان . ثم إنه قد يراد به النفاق فى أصل الدين ، مثل قوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ ﴾ [النساء : ١٤٥] و ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] والمنافق هنا : الكافر .

١٤٤/١١ وقد يراد به النفاق فى فروعِهِ . مثل قوله ﷺ : « آية المنافق ثلاث » (١) ، وقوله : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً » (٢) ، وقول ابن عمر فيمن يتحدث عند الأمراء بحديث ، ثم يخرج فيقول بخلافه : كنا نعد هذا على عهد النبي ﷺ نفاقاً .

فإذا أردت به أحد النوعين ، فإما أن يكون تخصيصه لقريئة لفظية مثل لام العهد ، والإضافة . فهذا لا يخرج عن أن يكون متواطئاً ، كما إذا قال الرجل : جاء القاضي . وعنى به قاضي بلده ، لكون اللام للعهد . كما قال سبحانه : ﴿ فَصَحَّىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ ﴾ [المزمل : ١٦] أن اللام هى أوجبت قصر الرسول على موسى ، لا نفس لفظ « رسول » . وإما أن يكون لغلبة الاستعمال عليه ، فيصير مشتركاً بين اللفظ العام والمعنى الخاص . فكذلك قوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فإن تخصيص هذا اللفظ بالكافر إما أن يكون لدخول اللام التى تفيد العهد ، والمنافق المعهود : هو الكافر . أو تكون لغلبة هذا الاسم فى الشرع على نفاق الكفر . وقوله ﷺ : « ثلاث من كن فيه كان منافقاً » يعنى به منافقاً بالمعنى العام ، وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن .

فإطلاق لفظ « النفاق » على الكافر وعلى الفاسق إن أطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق ، كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك . وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة . ويكون متواطئاً إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ « منافق » بل لام التعريف .

١٤٥/١١ وهذا البحث الشريف جار فى كل لفظ عام استعمل فى بعض أنواعه ، إما لغلبة الاستعمال ، أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع ، مثل تعريف الإضافة ، أو تعريف اللام . فإن كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال : إن اللفظ مشترك . وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقياً على موطناته .

(١) سبق تخريجه ص ٨٢ .

(٢) البخارى فى الإيمان (٣٤) ومسلم فى الإيمان (٥٨ / ١٠٦) .

فلهذا صح أن يقال: «النفاق» اسم جنس تحته نوعان. لكون اللفظ في الأصل عاما متواطئاً.

وصح أن يقال: هو مشترك بين النفاق في أصل الدين، وبين مطلق النفاق في الدين. لكونه في عرف الاستعمال الشرعي غلب على نفاق الكفر.

١٤٦/١١

بحث ثان

وهو: أن الحمد والشكر بينهما عموم وخصوص.

فالحمد أعم من جهة أسبابه التي يقع عليها؛ فإنه يكون على جميع الصفات، والشكر لا يكون إلا على الإحسان. والشكر أعم من جهة ما به يقع، فإنه يكون بالاعتقاد، والقول، والفعل. والحمد يكون بالفعل أو بالقول، أو بالاعتقاد.

أورد الشيخ الإمام زين الدين ابن المنجا الحنبلي^(١): إن هذا الفرق إنما هو من جهة متعلق الحمد والشكر؛ لأن كونه يقع على كذا ويقع بكذا خارج عن ذاته، فلا يكون فرقاً في الحقيقة، والحدود إنما يتعرض فيها لصفات الذات، لا لما خرج عنها.

فقال شيخ الإسلام - تقي الدين ابن تيمية - :

المعاني على قسمين: مفردة، ومضافة. فالمعاني المفردة: حدودها لا توجد فيها بتعلقاتها. وأما المعاني الإضافية فلا بد أن يوجد في/حدودها تلك الإضافات. فإنها داخلة ١٤٧/١١ في حقيقتها. ولا يمكن تصورهما إلا بتصور تلك المتعلقات، فتكون المتعلقات جزءاً من حقيقتها فتعين ذكرها في الحدود.

والحمد والشكر معلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه. فلا يتم ذكر حقيقتهما إلا بذكر متعلقهما. فيكون متعلقهما داخلاً في حقيقتهما.

فاعترض الصدر بن المرحل: بأنه ليس للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية. فلا يكون الحمد والشكر من متعلقهما صفة ثبوتية. فإن المتعلق صفة نسبية. والنسب أمور عدمية. وإذا لم تكن صفة ثبوتية لم تكن داخلة في الحقيقة. لأن العدم لا يكون جزءاً من الوجود.

(١) زين الدين ابن المنجا الحنبلي : هو أسعد بن المنجى بن أبي المنجي بركات بن المؤمل التنوخي المعري الدمشقي الحنبلي، الشيخ الإمام العلامة شيخ الحنابلة وجيه الدين أبو المعالي. ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة. ارتحل إلى بغداد بعد أن تفقه على شرف الإسلام عبد الوهاب بن الحنبلي سمع من أبي الفضل الأرموي وغيره وروى عنه الشيخ موفق الدين ابن قدامة وغيره، ولى قضاء حران في دولة الملك نور الدين، ألف كتاب «النهاية في شرح الهداية». في عدة مجلدات، توفي في جمادى الآخرة سنة ست وستمائة، وله سبع وثمانون سنة. [سير أعلام النبلاء ٤٣٦/٢١، ٤٣٧ - شذرات الذهب ١٨/٥، ١٩].

فقال الشيخ تقي الدين: قولك : ليس للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية، ليس على العموم. بل قد يكون للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية، وقد لا يكون. وإنما الذي يقونه أكثر المتكلمين: ليس لمتعلق القول من القول صفة ثبوتية.

ثم الصفات المتعلقة نوعان: أحدهما: إضافة محضة. مثل الأبوة والبنوة، والفوقية والتحتية ونحوها. فهذه الصفة هي التي يقال فيها: هي مجرد نسبة وإضافة. والنسب ١٤٨/١١ أمور عدمية. والثاني: صفة ثبوتية مضافة/إلى غيرها، كالحب والبغض. والإرادة والكرهية، والقدرة، وغير ذلك من الصفات، فإن الحب صفة ثبوتية متعلقة بالمحجوب. فالحب معروض للإضافة، بمعنى أن إضافة صفة عرضت له؛ لا أن نفس الحب هو الإضافة. ففرق بين ما هو إضافة وبين ما هو صفة مضافة. فالإضافة يقال فيها: إنها عدمية. قال: وأما الصفة المضافة فقد تكون ثبوتية، كالحب.

قال ابن المرحل: الحب أمر عديم؛ لأن الحب نسبة، والنسب عدمية.

قال الشيخ تقي الدين: كون الحب، والبغض والإرادة، والكرهية أمراً عديمًا باطل بالضرورة. وهو خلاف إجماع العقلاء.

ثم هو مذهب بعض المعتزلة في إرادة الله. فإنه زعم أنها صفة سلبية. بمعنى أنه غير مغلوب ولا مستكره. وأطبق الناس على بطلان هذا القول. وأما إرادة المخلوق وحبه وبغضه فلم نعلم أحداً من العقلاء قال: إنه عديم.

فأصر ابن المرحل على أن الحب - الذي هو ميل القلب إلى المحجوب - أمر عديم. وقال: المحبة: أمر وجودي.

١٤٩/١١ قال الشيخ تقي الدين: المحبة هي الحب، فإنه يقال: أحبه، وحبه حباً ومحبة. ولا فرق. وكلاهما مصدر.

قال ابن المرحل: وأنا أقول: إنهما إذا كانا مصدرين فإنهما أمر عديمي.

قال له الشيخ تقي الدين: الكلام إذا انتهى إلى المقدمات الضرورية فقد انتهى وتم. وكون الحب والبغض أمراً وجودياً معلوم بالاضطرار؛ فإن كل أحد يعلم أن الحي إن كان خالياً عن الحب كان هذا الخلو صفة عدمية. فإذا صار محباً، فقد تغير الموصوف وصار له صفة ثبوتية زائدة على ما كان قبل أن يقوم به الحب. ومن يحس ذلك من نفسه يجده، كما يجد شهوته ونفرته ورضاه وغضبه ولذته وألمه.

ودليل ذلك: أنك تقول: أحب يحب محبة، ونقيض أحب: لم يحب. ولم يحب صفة عدمية، ونقيض العدم الإثبات.

قال ابن المرحل : هذا ينتقض بقولهم : امتنع بمتنع ، فإن نقيض الامتناع : لا امتناع .
وامتناع صفة عدمية .

قال الشيخ تقي الدين : الامتناع أمر اعتباري عقلي ؛ فإن الممتنع ليس له وجود خارجي ، حتى تقوم به صفة . وإنما هو معلوم بالعقل ، وباعتبار كونه معلوماً له ثبوت ١٥٠/١١ علمي ، وسلب هذا الثبوت العلمي : عدم هذا الثبوت ؛ فلم ينقض هذا قولنا : نقيض العدم ثبوت . وأما الحب فإنه صفة قائمة بالحب . فإنك تشير إلى عين خارجة ، وتقول : هذا الحي صار محباً بعد أن لم يكن محباً . فتخبر عن الوجود الخارجي . فإذا كان نقيضها عدماً خارجياً ، كانت وجوداً خارجياً .

وفي الجملة ، فكون الحب والبغض صفة ثبوتية وجودية معلوم بالضرورة . فلا يقبل فيها نزاع ولا يناظر صاحبه إلا مناظرة السوفسطائية .

قلت : وإذا كان الحب والبغض ونحوهما من الصفات المضافة المتعلقة بالغير : صفات وجودية ، ظهر الفرق بين الصفات التي هي إضافة ونسبة ، وبين الصفات التي هي مضافة منسوبة . فالحمد والشكر من القسم الثاني ؛ فإن الحمد أمر وجودي متعلق بالمحمود عليه . وكذلك الشكر أمر وجودي متعلق بالشكور عليه . فلا يتم فهم حقيقتهما إلا بفهم الصفة الثبوتية لهما التي هي متعلقة بالغير . وتلك الصفة داخلة في حقيقتهما . فإذا كان متعلق أحدهما أكبر من متعلق الآخر ، وذلك التعلق إنما هو عارض لصفة ثبوتية لهما ، وجب ذكر تلك الصفة الثبوتية في ذكر حقيقتهما .

والدليل على هذا : أن من لم يفهم الإحسان امتنع أن يفهم الشكر / فعلم أن تصور ١٥١/١١ متعلق الشكر داخل في تصور الشكر .

قلت : ولو قيل : إنه ليس هذا إلا أمراً عدمياً . فالحقيقة إن كانت مركبة من وجود وعدم ، وجب ذكرهما في تعريف الحقيقة . كما أن من عرف الأب - من حيث هو أب - فإن تصوره موقوف على تصور الأبوة ، التي هي نسبة وإضافة . وإن كان الأب أمراً وجودياً .

فالحمد والشكر متعلقان بالمحمود عليه والشكور عليه . وإن لم يكن هذا المتعلق عارضاً لصفة ثبوتية . فلا يفهم الحمد والشكر إلا بفهم هذا المتعلق . كما لا يفهم معنى الأب إلا بفهم معنى الأبوة ، الذي هو التعلق . وكذلك الحمد والشكر أمران متعلقان بالمحمود عليه والشكور عليه .

وهذا التعلق جزء من هذا المسمى . بدليل أن من لم يفهم الصفات الجميلة لم يفهم

الحمد. ومن لم يفهم الإحسان لم يفهم الشكر.

فإذا كان فهمها موقوفًا على فهم متعلقهما، فوقوفه على فهم التعلق أولى. فإن التعلق فرع على المتعلق، وتبع له. فإذا توقف فهمهما على فهم المتعلق الذي هو أبعد عنهما من التعلق، فتوقفه على فهم التعلق أولى. وإن كان التعلق أمرًا عديمًا. والله أعلم.

١٥٢/١١ / قال له الشيخ تقي الدين ابن تيمية: قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قد اتبع بقوله: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وعامة أنواع الربا يسمى بيعًا. والربا - وإن كان اسمًا مجملًا - فهو مجهول. واستثناء المجهول من المعلوم يوجب جهالة المستثنى فيبقى المراد إحلل البيع الذي ليس بربا. فما لم يثبت أن الفرد المعين ليس بربا لم يصح إدخاله في البيع الحلال. وهذا يمنع دعوى العموم. وإن كان الربا اسمًا عامًا فهو مستثنى من البيع أيضًا. فيبقى البيع لفظًا مخصوصًا. فلا يصح ادعاء العموم على الإطلاق.

قال ابن المرحل: هذا من باب التخصيص. وهنا عمومان تعارضان، وليس من باب الاستثناء. فإن صيغ الاستثناء معلومة. وإذا كان هذا تخصيصًا لم يمنع ادعاء العموم فيه.

قال الشيخ تقي الدين: هذا كلام متصل بعضه ببعض، وهو من باب التخصيص المتصل. وتسمية الفقهاء استثناءً، كقوله: له هذه الدار ولي منها هذا البيت. فإن هذا بمنزلة قوله: إلا هذا البيت. وكذلك لو قال: أكرم هؤلاء القوم ولا تكرم فلانًا وهو منهم. كان بمنزلة قوله: إلا فلانًا. وإذا كان كذلك صار بمنزلة قوله: أحل الله البيع إلا ما كان منه ربا.

١٥٣/١١ / فمن ادعى بعد هذا أنه عام في كل ما يسمى بيعًا فهو مخطئ.

قال ابن المرحل: أنا أسلم أنه إنما هو عام في كل بيع لا يسمى ربا.

قال له الشيخ تقي الدين: وهذا كان المقصود. ولكن بطل بهذا دعوى عمومه على الإطلاق؛ فإن دعوى العموم على الإطلاق ينافي دعوى العموم في بعض الأنواع دون بعض. وهذا كلام بين.

وادعى مدع أن فيه قولين: أحدهما: أنه عام مخصوص. والثاني: أنه عموم مراد.

فقال الشيخ تقي الدين: فإن دعوى أنه عموم مراد، باطل قطعًا، فإننا نعلم أن كثيرًا من أفراد البيع حرام.

فاعترض ابن المرحل بأن تلك الأفراد حرمت بعد ما أحلت فيكون نسخًا.

قال الشيخ تقي الدين: فيلزم من هذا ألا نحرم شيئًا من البيوع بخبر واحد، ولا

بقياس، فإن نسخ القرآن لا يجوز بذلك، وإنما يجوز تخصيصه به. وقد اتفق الفقهاء على التحريم بهذه الطريقة.

| قال ابن المرحل: رجعت عن هذا السؤال؛ لكن أقول: هو عموم مراد في كل ما ١٥٤/١١ يسمى بيعاً في الشرع. فإن البيع من الأسماء المنقولة إلى كل بيع صحيح شرعي.

قال الشيخ تقي الدين: البيع ليس من الأسماء المنقولة؛ فإن مسماه في الشرع والعرف هو المسمى اللغوي، لكن الشارع اشترط لحله وصحته شروطاً. كما قد كان أهل الجاهلية لهم شروط أيضاً بحسب اصطلاحهم. وهكذا سائر أسماء العقود، مثل الإجارة والرهن، والهبة والقرض والنكاح، إذا أريد به العقد وغير ذلك، هي باقية على مسمياتها. والنقل إنما يحتاج إليه إذا أحدث الشارع معاني لم تكن العرب تعرفها، مثل الصلاة والزكاة، والتيمم. فحيث يحتاج إلى النقل. ومعاني هذه العقود ما زالت معروفة.

قال ابن المرحل: أصحابي قد قالوا: إنها منقولة.

قال الشيخ تقي الدين: لو كان لفظ البيع في الآية المراد به البيع الصحيح الشرعي لكان التقدير: أحل الله البيع الصحيح الشرعي. أو أحل الله البيع الذي هو عنده حلال. وهذا - مع أنه مكرر - فإنه يمنع الاستدلال بالآية. فإننا لا نعلم دخول بيع من البيوع في الآية حتى نعلم أنه بيع صحيح شرعي. ومتى علمنا ذلك استغنينا عن الاستدلال بالآية.

| قال ابن المرحل: متى ثبت أن هذا الفرد يسمى بيعاً في اللغة قلت: هو بيع في ١٥٥/١١ الشرع؛ لأن الأصل عدم النقل، وإذا كان بيعاً في الشرع دخل في الآية.

قال الشيخ تقي الدين: هذا إنما يصح لو لم يثبت أن الاسم منقول أما إذا ثبت أنه منقول لم يصح إدخال فرد فيه. حتى يثبت أن الاسم المنقول واقع عليه. وإلا فيلزم من هذا أن كل ما سمي في اللغة صلاة وزكاة، وتيمماً، وصوماً وبيعاً، وإجارة، ورهنًا: أنه يجوز إدخاله في المسمى الشرعي بهذا الاعتبار. وعلى هذا التقدير فلا يبقى فرق بين الأسماء المنقولة وغيرها. وإنما يقال: الأصل عدم النقل، إذا لم يثبت، بل متى ثبت النقل فالأصل عدم دخول هذا الفرد في الاسم المنقول، حتى يثبت أنه داخل فيه بعد النقل.

١١/١٥٦ وقال شيخ الإسلام - قدس الله روحه :-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغى، والمؤمنين/الكفار، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار، وبين أولياء الله وأعداء الله، فمن شهد له محمد ﷺ بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان.

وقد بين - سبحانه وتعالى - في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٌ وَمَن يَتَوَلَّمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَمَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا . وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّآئِمَةً ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُعِيمُونَ أَصْلَافَهُ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٦]، وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

وذكر «أولياء الشيطان» فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .
 إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ
 يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُونَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ
 ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
 الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾
 [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ
 خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
 فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ
 يَمْسَسُهُمْ سُوَّىٰ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ
 وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا
 الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ إلى قوله:
 ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَنَحْسَبُ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧ -
 ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ لَكَاؤُحٌ إِلَّا أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّلُوهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]
 وقال الخليل عليه السلام: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ
 وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
 إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ الْآيَات، إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المتحنة: ١ - ٥].

فصل

وإذا عرف أن الناس فيهم «أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فيجب أن يفرق بين هؤلاء
 وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ
 أَوْلِيَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن
 النبي ﷺ قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب -
 وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش

بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي. ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»^(١) وهذا أصح حديث يروي في الأولياء، فبين النبي ﷺ أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة.

وفي حديث آخر: «وإني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب»^(٢) أي آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع، كما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله»^(٣) وفي حديث آخر رواه أبو داود قال: «ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٤).

١٦١/١١ و «الولاية» ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد. وقد قيل: إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها، والأول أصح. والولي القريب، فيقال: هذا يلي هذا، أي يقرب منه. ومنه قوله ﷺ: «ألقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلاؤلى رجل ذكر»^(٥) أي لأقرب رجل إلى الميت. وأكد بلفظ «الذكر» ليبين أنه حكم يختص بالذكور، ولا يشترك فيها الذكور والإناث كما قال في الزكاة «فابن لبون ذكر»^(٦).

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهي عنه كان المعادي لوليه معادياً له كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال: «ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة».

وأفضل أولياء الله هم أنبيأؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) أبو نعيم في الحلية ٣١٨/٨، ٣١٩، وكنز العمال (١١٦٠) وعزاه لابن أبي الدنيا .

(٣) أحمد ٢٨٦/٤ وابن أبي شيبة ٤١/١١ (١٠٤٦٩) والبيهقي في الشعب ٤٥/١ (٣٥) .

(٤) أبو داود في السنة (٤٦٨١) والترمذي في القيامة (٢٥٢١) وقال: «حديث حسن» .

(٥) البخاري في الفرائض (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧) ، ومسلم في الفرائض (١٦١٥/٢، ٣) .

(٦) البخاري في الزكاة (١٤٥٤) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٦٧)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٧) .

مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الذِّينَ وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . لَنَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ ١٦٢/١١ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا [الأحزاب: ٧، ٨].

وأفضل أولى العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين ، و سيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرين، وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقًا، وأول الأمم بعثًا، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم؛ فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه - يعني يوم الجمعة - فهدانا الله له : الناس لنا تبع فيه، غداً لليهود وبعد غد للنصارى»^(١).

وقال ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»^(٢) وقال ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت ؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»^(٣).

/وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه ١٦٣/١١ وبين أعدائه، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطنًا وظاهرًا. ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ، قال الحسن البصري - رحمه الله -: ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزله الله هذه الآية محنة لهم، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله، فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ

(١) البخاري في الانبياء (٣٤٨٦)، ومسلم في الجمعة (١٩/٨٥٥، ٢٠، ٢١) والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، وأحمد ٢٣٦/٢، ٢٧٤، ٢٤٩، كلهم عن أبي هريرة. واللفظ لمسلم.

(٢) البخاري في الخصومات (٢٤١٢)، والترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، كلهم عن أبي سعيد الخدري، وأحمد ٢٨١/١، ٢٩٥، عن ابن عباس .

(٣) مسلم في الإيمان (٣٣٣/١٩٧)، وأحمد ١٣٦/٣، كلاهما عن أنس بن مالك.

خَلَقَ ﴿ الْآيَةُ [المائدة: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة، ومجاورتهم البيت، وكانوا يستكبرون به على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَتِي تُنْذِرُ عَلَيْكُمْ فِكْرَتِي عَلَى أَغْفِيكُمْ نَنْكَبُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَصْذُوبُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَنُونَ﴾ [الأنفال: ٣٠ - ٣٤] فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه. ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه المتقون.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: «إن آل فلان ليسوا لى بأولياء - يعنى طائفة من أقاربه - إنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(١) وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التحريم: ١٤]. وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله. ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»^(٢)، ومثل هذا الحديث الآخر: «إن أوليائي المتقون أيا كانوا وحيث كانوا»^(٣).

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس ولياً لله، بل عدو له، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه مرسل إلى جميع الإنس، بل إلى الثقلين الإنس والجن، ويعتقدون في ١٦٥/١١ الباطن/ما يناقض ذلك، مثل أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول الله، وإنما كان ملكاً مطاعاً ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقولون: إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ويتنفعون به

(١) البخارى فى الأدب (٥٩٩٠)، ومسلم فى الإيمان (٣٦٦/٢١٥)، كلاهما عن عمرو بن العاص .

(٢) أبو داود فى السنة (٤٦٥٣)، والترمذى فى المناقب (٣٨٦٠) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد ٣/ ٣٥٠، كلهم عن جابر .

(٣) أبو داود فى الفتن (٤٢٤٢)، عن عبد الله بن عمر من حديث طويل بلفظ: «إنما أوليائي المتقون» .

من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته .

وقد يقول بعض هؤلاء: إن «أهل الصفة» كانوا مستغنين عنه، ولم يرسل إليهم ، ومنهم من يقول : إن الله أوحى إلى أهل الصفة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج ، فصار أهل الصفة بمنزلة، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وأن الصفة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صفة في شمالي مسجده ﷺ ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم؛ فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ/ إلى المدينة، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به، ومن ١١/١٦٦ تعذر ذلك عليه نزل في المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه .

ولم يكن «أهل الصفة» ناساً بأعيانهم يلازمون الصفة، بل كانوا يقلون تارة ويكثرون أخرى، ويقيم الرجل بها زماناً ثم ينتقل منها. والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين؛ ليس لهم مزية في علم ولا دين، بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة - أي استوخموها - فأمر لهم النبي ﷺ بـ «بلقاح» - أي إبل لها لبن - وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا قتلوا الراعي ، واستاقوا الذود فأرسل النبي ﷺ في طلبهم ، فأتى بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم وتركهم في الحرة يستسقون فلا يسقون . وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصفة ، فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو أفضل من نزل بالصفة ، ثم انتقل عنها ونزلها أبو هريرة وغيره .

وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي^(١) تاريخ من نزل الصفة .

وأما «الأنصار» فلم يكونوا من أهل الصفة ، وكذلك أكابر المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن/بن عوف وأبي عبيدة وغيرهم ، لم يكونوا من ١١/١٦٧ أهل الصفة .

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم بن زاوية بن سعيد بن قبيصة بن سراق الأزدي السلمي الحافظ المحدث ، شيخ خراسان وكبير الصوفية أبو عبد الرحمن النيسابوري الصوفي صاحب التصانيف ، ولد سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، صنف في علوم القوم سبعمئة جزء وفي أحاديث النبي ﷺ من جميع الأبواب والمشايخ ، وكانت تصانيفه مقبولة ، قال عنه الخطيب: غير ثقة ، وكان يضع للصوفية الأحاديث . مات في شهر شعبان سنة اثنتى عشرة وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء: ١٧/٢٤٧-٢٥٥] .

وقد روى أنه بها غلام للمغيرة بن شعبة، وأن النبي ﷺ قال: « هذا واحد من السبعة » وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية، وكذا كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة « الأولياء » و« الأبدال » و« النقباء » و« النجباء » و« الأوتاد » و« الأقطاب » مثل أربعة أو سبعة أو اثني عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ « الأبدال ». وروى فيهم حديث: أنهم أربعون رجلاً وأنهم بالشام، وهو في المسند من حديث على رضي الله عنه. وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر على، وقد أخرجنا في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: « تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق »^(١) وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحزبية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة على، فقتلهم على بن أبي طالب ١٦٨/١١ وأصحابه، فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي/بن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه، وكيف يكون الأبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما؟

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي ﷺ أنه أنشد منشد:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقي

وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه، فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وأكذب منه ما يرويه بعضهم: « أنه مزق ثوبه، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله ﷺ أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه ﷺ .

وكذلك ما يروونه عن عمر- رضي الله عنه - أنه قال: كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي . وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالة العامة في الظاهر من يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك، فيكون منافقاً وهو يدعي في نفسه وأمثاله/أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عناداً وإما جهلاً، كما أن كثيراً من النصاري واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله، وأن محمداً رسول الله، ولكن يقولون: إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب،

(١) البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٣٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٥/١٠٢) كلاهما عن أبي سعيد الخدري.

وأنه لا يجب علينا اتباعه، لانه أرسل إلينا رسلاً قبله، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله، وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا مِن رَّبِّنَا وَلِئِن سَأَلْتُمُوهُنَّ لَيَنصِبْنَ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ أَلِيمًا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّنَا إِلَّا فِي ذِكْرٍ لِّمَنِ اتَّبَعَ وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُنَّ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ مَا يُدْعَىٰ إِلَيْنَا مِن قَبْلُ وَآءَامَنُا بِهِ فَمَن آءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَهُوَ عَلَىٰ أَلَمٍ مَّا نَسَىٰ حَرِيصٌ ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ مَا مَنَا بِهِ لَئِن لَّمْ يَأتِ الْفَتْكُ مِنِّي فَلَيَحْبِسُنَّ لِيَوْمَ يَكْفُرُ لِي كُفْرًا ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧] وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخر السورة. وقال في أول السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِّلْمَنِّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ۚ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن؛ فضلا عن أن يكون من أولياء الله المتقين؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢] ومن الإيمان به الإيمان بأنه الوساطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعدته ووعدته، وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان.

/وأما خلق الله تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم، ١٧١/١١ ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل.

ثم لو بلغ الرجل في «الزهد والعبادة والعلم» ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى، كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم، وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك وله علم أو زهد وعبادة في دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً.

وكذلك حكماء «اليونان» مثل أرسطو وأمثاله كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب، وكان أرسطو قبل المسيح - عليه السلام - بثلاثمائة سنة، وكان وزيراً للإسكندر بن فيليبس المقدوني، وهو الذي تؤرخ به تواريخ الروم واليونان، وتؤرخ به اليهود والنصارى، وليس هذا هو ذو القرنين الذي ذكره الله في كتابه، كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذي القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الإسكندر، وهذا قد يسمى ١٧٢/١١ بالإسكندر، ظنوا أن هذا ذاك كما يظنه ابن سينا وطائفة معه وليس الأمر كذلك، بل هذا الإسكندر المشرك الذي قد كان أرسطو وزيره متأخر عن ذاك، ولم يبن هذا السد، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهذا الإسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف.

وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس بمتبع للرسول ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله، وهؤلاء تقترب بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبٌ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

وهؤلاء جميعهم الذين يتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسول فلا بد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم. ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة؛ ولهذا تنزل عليهم الشياطين واقتربت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن. قال الله ١٧٣/١١ تعالى: ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِّمَ سَيِّطَانًا فَهُوَ لِمَ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن، فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره، فقد أعرض عنه فيقضي له الشيطان فيقترب به، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ

مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ ﴿[الأنبياء: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها، لهذا لو ذكر الرجل الله - سبحانه وتعالى - دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبدته مجتهداً في عبادته ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله - وهو القرآن - كان من أولياء الشيطان ولو طار في الهواء أو مشي على الماء؛ فإن الشيطان يحمله في الهواء. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فصل

ومن الناس من يكون فيه إيمان، وفيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر»^(١) وفي الصحيحين ١٧٤/١١ أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»^(٢) فبين النبي ﷺ أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها، وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر - وهو من خيار المؤمنين -: «إنك امرؤ فيك جاهلية» فقال: يا رسول الله، أعلى كبر سني؟! قال: «نعم»^(٣)

وثبت في الصحيح عنه أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»^(٤) وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(٥) وفي صحيح مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وذكر البخاري عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

(١) سبق تخريجه ص ٨٤ .

(٢) البخاري في الإيمان (٩) ومسلم في الإيمان (٥٨/٣٥) .

(٣) البخاري في الإيمان (٣٠) ومسلم في الإيمان (٣٨/١٦٦١) ، كلاهما عن أبي ذر .

(٤) مسلم في الجنائز (٢٩/٩٣٤) ، وأحمد ٥/٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، كلاهما عن أبي مالك الأشعري .

(٥) سبق تخريجه ص ٨٢ .

١٧٥/١١ لَا تَتَّبِعْتُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴿﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] فقد جعل هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، فعلم أنهم مخطئون وكفرهم أقوى؛ وغيرهم يكون مخطئاً وإيمانه أقوى.

وإذا كان «أولياء الله» هم المؤمنون المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله. فالتاس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا فَآمَنَ الَّذِينَ أَلْزِمُوا فَرَادَتَهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ زَادُوا فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتُهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. فبين - سبحانه وتعالى - أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه، وقال تعالى: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فصل

١٧٦/١١

وأولياء الله على «طبقتين» سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون. ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة الواقعة وآخرها وفي سورة الإنسان، والمطففين وفي سورة فاطر، فإنه - سبحانه وتعالى - ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها، وذكر القيامة الصغرى في آخرها، فقال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِقَوْعِنَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَسُتِ الْجِبَالُ سُتًا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا . وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ . أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ . فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ . ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١ - ١٤].

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين، كما وصف الله - سبحانه - ذلك في كتابه في غير موضع.

ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْمَطْعَمَ﴾ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ . فَارْجِعْهُنَّ وَرِيحًا وَحَنَّتِ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ۱۷۷/۱۱ الْيَمِينِ . فَسَلِّمْ لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزِّلْ مِنْ هَبِيمٍ . وَنُصَلِّهِمْ هَبِيمٍ . إِنَّ هَذَا لَهُمْ حَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ [الواقعة: ۸۳ - ۹۶] .

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ . إِنَّا عْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا . إِنْ الْأَبْرَارُ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالْآثَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِمْ شَيْئًا وَمِثْمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ لَا تُزِيدُكُمْ شُكْرًا وَلَا تَنْقُصُكُمْ نَفَاثًا مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا . فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَهُ وَسُورًا . وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ الآيات [الإنسان: ۳ - ۱۲] . وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يُشْهَدُ الْمَقْرُونُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَمُهُمْ مِنْ مَسْكٍ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿ [المطففين: ۷ - ۲۸] .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره من السلف قالوا: يمزج/ لأصحاب اليمين ۱۷۸/۱۱ مزجاً، ويشرب بها المقربون صرفاً، وهو كما قالوا. فإنه تعالى قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ولم يقل: يشرب منها؛ لأنه ضمن ذلك قوله يشرب، يعني: يروي بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروي، فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها؛ فلهذا يشربون منها صرفاً، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿ [الإنسان: ۵، ۶] .

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة، وهذا لأن الجزء من جنس العمل في الخير والشر، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَىٰ مَعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ

في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع في الأرض يرحمكم من في السماء» (٢) قال الترمذي : حديث صحيح.

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي في السنن: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»، وقال: «ومن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله» (٣) ومثل هذا كثير.

وأولياء الله تعالى على نوعين: مقربون وأصحاب يمين كما تقدم . وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء فقال: «يقول الله تعالى: من عادي لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» (٤).

فالأبرار أصحاب اليمين هم المقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

١٨٠/١١ وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً، كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» يعني الحب المطلق، كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] أي أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم، فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفاً، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.

ونظير هذا انقسام الأنبياء - عليهم السلام - إلى عبد رسول، ونبي ملك، وقد خير الله -

(١) مسلم في الذكر (٣٤/٢٦٩٩).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣.

(٣) أبو داود في الزكاة (١٦٩٤) والترمذي في البر (١٩٠٧) وقال : « صحيح » . (٤) سبق تخريجه ص ١٦.

سبحانه محمداً ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً، وبين أن يكون نبياً ملكاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكَّاءَ حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرَ . وَآخَرِينَ ۱۱/ ۱۸۱ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ۳۵ - ۳۹] أي اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يعطى أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطى من يشاء ويحرم من يشاء، بل روى عنه أنه قال: «إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»^(١)، ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من السلف، ويذكر هذا رواية عن أحمد، وقد قيل في الخمس أنه يقسم على خمسة، كقول الشافعي وأحمد في المعروف عنه، وقيل: على ثلاثة، كقول أبي حنيفة - رحمه الله.

/والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك، كما أن إبراهيم وموسى ۱۱/ ۱۸۲ وعيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين. فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك.

فصل

وقد ذكر الله تعالى «أولياءه» المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

(١) البخاري في فرض الخمس (٣١١٧) بنحوه، وأحمد ٢/ ٤٨٢ .

الَّذِي أَحْلَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ قَضَائِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿ [فاطر: ٣٢ - ٣٥] ،
 ١٨٣/١١ لكن هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد ﷺ خاصة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ
 أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ
 بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ .

وأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة ، وليس ذلك مختصاً
 بحفاظ القرآن ، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء ، وقسمهم إلى ظالم لنفسه ،
 ومقتصد ، وسابق ؛ بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار ، فإنه دخل فيها
 جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم ، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ ف «الظالم لنفسه»
 أصحاب الذنوب المصرون عليها ، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج
 بذلك عن السابقين ، و«المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم ، والسابق للخيرات هو
 المؤدي للفرائض والنوافل ، كما في تلك الآيات ، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة
 صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى
 مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
 وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْقَلْبِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ . ١٨٤/١١ أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَنْ وَفَّعَ أَجْرُ
 الْعَمَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦] و«المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم ،
 و«السابق بالخيرات» هو المؤدي للفرائض والنوافل كما في تلك الآيات .

وقوله: ﴿جَنَّتْ عَذْرَىٰ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] مما يستدل به أهل السنة على أنه لا يخلد
 في النار أحد من أهل التوحيد .

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ ، كما
 تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر وإخراج من يخرج
 من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره . فمن قال: إن أهل الكبائر مخلصون في النار
 وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها ،
 كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل
 الكبائر النار . ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب ، وكلاهما
 مخالف للسنة المتواترة عن النبي ﷺ ولإجماع سلف الأمة وأئمتها .

وقد دل على فساد قول «الطائفتين» قول الله تعالى في آيتين من كتابه وهو قوله

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة؛ لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله ١٨٥/١١ أيضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فهناك عمم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له، ففي آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذهب، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز ألا يعذب بذنب، فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ دليل على أنه يغفر البعض دون البعض، فبطل النفي والوقف العام.

١٨٦/١١

فصل

وإذا كان « أولياء الله عز وجل » هم المؤمنون المتقون. والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك. كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك.

وأصل الإيمان والتقوى: الإيمان برسل الله، وجماع ذلك: الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل، وبما جاءوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة؛ فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ ١٨٧/١١

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿[النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩] فأخبر أنه كلما ألقى في النار فوج أقرأوا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقي فيها فوج إلا من كذب النذير. وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه؛ فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم. فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له فإنه ممن لا يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسول.

فصل

ومن الناس من يؤمن بالرسول، إيماناً مجملاً، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل، وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به؛ ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيماناً مجملاً، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وما لم تقم عليه الحجة فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته والإيمان المفصل به، فلا يعذبه على تركه، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاتته من ذلك، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيماناً مفصلاً وعمل به فهو أكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ولم يعمل به؛ وكلاهما ولي لله تعالى.

والجنة درجات متفاوتة تفاضلاً عظيماً، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كُلًّا نُمِيزُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

فبين الله - سبحانه وتعالى - أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وإن عطائه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. فبين الله - سبحانه - أن أهل الآخرة يتفاضلون

فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين ١٨٩/١١
تفاضل أنبيائه - عليهم السلام - كتفاضل سائر عباداه المؤمنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرُسُلٌ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ يُرْسِلُ الْفُلُودَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ
عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن
القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك
واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا
ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١) وفي الصحيحين عن
أبي هريرة وعمر بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهد
الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿لَا
يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أُولَئِكَ أَكْثَرُ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا
وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ
أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى
الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ
بَيْنَهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، وقال تعالى: ﴿أَجْمَلْتُمْ ١٩٠/١١
سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ
وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
[التوبة: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتَلْتُمْ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقِيَامًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
[الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) سبق تخريجه ص ٧٧ .

(٢) البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ، ومسلم في الأفضية (١٥/١٧١٦) ، كلاهما عن عمرو بن العاص .

فصل

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢، ٦٣] وفي صحيح البخاري الحديث المشهور - وقد تقدم - يقول الله تبارك وتعالى فيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون ١٩١/١١ من الأبرار/أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين، فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله.

وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة - وإن قيل: إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول - فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله. وكذلك المجانين والأطفال؛ فإن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ»^(١). وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة - رضي الله عنهما - واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمر الدنيا كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ولا تصح عقودهم باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل/أقواله كلها لغو ولا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع. وفي مواضع فيها نزاع.

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين - من المشركين وأهل الكتاب - لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض

(١) البخاري في الطلاق «معلقاً» فتح ٣٨٨/٩، وأبو داود في الحدود (٣٤٠٣)، عن علي، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١)، والدارمي في الحدود ١١٧/٢، كلهم عن عائشة.

ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما ينقض ولاية الله؟! مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة. أو يعتقد أن لأولياء الله طريقًا إلى الله غير طريق الأنبياء - عليهم السلام - أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما ينقض الإيمان. فضلًا عن ولاية الله عز وجل. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

/وكذلك المجنون؛ فإن كونه مجنونًا ينقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي ١٩٣/١١ شرط في ولاية الله، ومن كان يجن أحيانًا ويفيق أحيانًا. إذا كان في حال إفاقته مؤمنًا بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم، فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعًا من أن يشبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك. وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه، فإن الله يشبهه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه.

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتي بما ينقض ذلك. لم يكن لأحد أن يقول: هذا ولي لله، فإن هذا إن لم يكن مجنونًا، بل كان متولهاً من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر، وإن كان مجنونًا باطنًا وظاهرًا قد ارتفع عنه القلم، فهذا وإن لم يكن معاقبًا عقوبة الكافرين فليس هو مستحقًا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمنًا بالله متقيًا كان له من ولاية الله بحسب ذلك/. وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرًا ١٩٤/١١ أو منافقًا ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

فصل

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحًا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحًا، كما قيل: كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء، بل يوجدون في

جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع والزراع . وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَيْكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَيَصِفُّهُمْ وَأُولَٰئِكَ وَمَا يَنْسَرُ مِنْ الْفَرَاءَانِ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَمَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾ [المزمل : ٢٠].

١٩٥/١١ | وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فدخل فيهم العلماء والنسك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية والفقراء » . واسم « الصوفية » هو نسبة إلى لباس الصوف؛ هذا هو الصحيح . وقد قيل : إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء . وقيل : إلى صوفة ابن أذ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك . وقيل : إلى أهل الصفة . وقيل : إلى الصفا . وقيل : إلى الصفوة . وقيل : إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة؛ فإنه لو كان كذلك ل قيل : صفى أو صفائى أو صفوى أو صفى ، ولم يقل : صوفى .

وصار - أيضا - اسم « الفقراء » يعنى به : أهل السلوك . وهذا عرف حادث . وقد تنازع الناس : أيما أفضل : مسمى « الصوفى » أو مسمى « الفقير »؟ ويتنازعون - أيضا - : أيما أفضل : الغنى الشاكر أو الفقير الصابر ؟

وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين أبى العباس بن عطاء . وقد روى عن أحمد ابن حنبل فيها روايتان ، والصواب فى هذا كله ما قاله الله - تبارك وتعالى - حيث قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣].

١٩٦/١١ وفى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه سئل : أى الناس أفضل؟ قال : «أتقاهم» . قيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : «يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله» . فقيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : « عن معادن العرب تسألونى؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) .

فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

(١) البخارى فى الانبياء (٧٣٥٣) .

وفى السنن عن النبي ﷺ أنه قال: « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لاسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلکم لآدم وادم من تراب » (١).

وعنه - أيضا - ﷺ أنه قال: « إن الله تعالى أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس رجالان: مؤمن تقى، وفاجر شقى » (٢).

فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله فهو أكرم عند الله ، وإذا استويا فى التقوى استويا فى الدرجة .

ولفظ « الفقر » فى الشرع يراد به الفقر من المال ، ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا ١٩٧/١١ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [فاطر: ١٥]. وقد مدح الله - تعالى - فى القرآن صنفين من الفقراء: أهل الصدقات، وأهل الفىء، فقال فى الصنف الأول: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال فى الصنف الثانى - وهم أفضل الصنفين -: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً . كما قال النبي ﷺ: « المؤمن من آمنه الناس على دماهم وأموالهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » (٣).

أما الحديث الذى يرويه بعضهم أنه قال فى غزوة تبوك: « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » (٤) فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله ، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى ١٩٨/١١

(١) أحمد ٤١١/٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٦٨/٣ : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ».

(٢) أبو داود فى الأدب (٥١١٦) والترمذى فى التفسير (٣٢٧٠) وقال: « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) أحمد ٢٢، ٢١/٦ والحاكم فى المستدرک ١١/١.

(٤) قال العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: « أخرجه البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف ».

الْفَعِيدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ٩٥، ٩٦] وقال تعالى: ﴿أَجْمَلْتُمْ سَبَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [التوبة: ١٩ - ٢٢].

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: كنت عند النبي ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال علي بن أبي طالب: الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما، فقال عمر: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ولكن إذا قضيت الصلاة سألته، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية (١).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله، أى الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ١٩٩/١١ | ولو استزدته لزادني (٢)، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه سئل: أى الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد فى سبيله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» (٣).

وفي الصحيحين أن رجلاً قال له ﷺ: يا رسول الله، أخبرني بعمل يعدل الجهاد فى سبيل الله. قال: «لا تستطيعه أو لا تطيقه» قال: فأخبرني به. قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفر؟» (٤).

وفي السنن عن معاذ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال: «يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، وقال: «يا معاذ، إنى لأحبك، فلا تدع أن تقول فى دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، وقال له - وهو رديفه - : «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم» (٥).

(١) مسلم فى الإمارة (١٨٧٩/١١١)، وأحمد ٢٦٩/٤، كلاهما عن النعمان بن بشير.

(٢) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم فى الإيمان (١٣٩/٨٥)، كلاهما عن عبد الله بن مسعود.

(٣) البخارى فى الإيمان (٢٦)، ومسلم فى الإيمان (١٣٥/٨٣).

(٤) البخارى فى الجهاد (٢٧٨٥)، والنسائى فى الجهاد (٣١٢٨).

(٥) البخارى فى اللباس (٥٩٩٧) ومسلم فى الإيمان (٤٩، ٤٨/٣٠).

وقال - أيضا - لمعاذ: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة/سنامه الجهاد في ٢٠٠/١١
 سبيل الله، وقال: « يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ
 الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وقيام الرجل في جوف الليل» ثم قرأ ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ
 الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، ثم قال: «يا معاذ، ألا أخبرك بملاك
 ذلك كله؟» قلت: بلى! فقال: « أمسك عليك لسانك هذا» فأخذ بلسانه، قال: يا رسول
 الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: « ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في
 النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» (١) .

وتفسير هذا ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: « من كان يؤمن بالله واليوم
 الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» (٢) فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن
 الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها، وكذلك الامتناع عن أكل
 الخبز واللحم وشرب الماء، فذلك من البدع المذمومة أيضا، كما ثبت في صحيح البخاري
 عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي ﷺ رأى رجلا قائما في الشمس فقال: « ما
 هذا؟» فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال
 النبي ﷺ: « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه» (٣) .

/وثبت في الصحيحين عن أنس: أن رجلا سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فكانهم ٢٠١/١١
 تَقَالُوهَا فقالوا: وأينا مثل رسول الله ﷺ؟! ثم قال أحدهم: أما أنا فاصوم ولا أفطر.
 وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام. وقال الآخر: أما أنا فلا أكل اللحم. وقال الآخر: أما
 أنا فلا أتزوج النساء، فقال رسول الله ﷺ: « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟!
 ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن ستي
 فليس مني» (٤) أى: سلك غيرها؛ ظاناً أن غيرها خير منها، فمن كان كذلك فهو برىء
 من الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:
 ١٣٠] . بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى
 محمد ﷺ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يخاطب بذلك كل يوم جمعة (٥) .

(١) الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وقال: « حسن صحيح » وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) .

(٢) البخاري في الأدب (٦٠١٨، ٦٠١٩) ومسلم في الإيمان (٧٤/٤٧) .

(٣) البخاري في الإيمان (٦٧٠٤) .

(٤) البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥/١٤٠١) .

(٥) سبق تخريجه ص ٢٢ .

فصل

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض، علم الشريعة، ويجوز أن يشبهه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض ١٢٠٢/١١ الأمور مما أمر الله به وما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وقد ثبت في الصحيحين أن الله - سبحانه - استجاب هذا الدعاء وقال: قد فعلت، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْ تَبْذُوهَا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْشَوْهُ يُعَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ والله على كل شيء قدير ﴿[البقرة: ٢٨٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال: فألقى الله ١٢٠٣/١١ الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: قد فعلت. وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] ^(١).

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمر بن العاص - رضي الله عنهما - مرفوعاً أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر» ^(٢) فلم يؤثر المجتهد المخطئ، بل جعل له أجراً على اجتجاهه، وجعل خطأه مغفوراً

(١) سبق تخريجه ص ١٢.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٧.

له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه، ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله لثلاثين نبيًا، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقًا للشرع وعلى ما يقع له مما يراه إلهامًا ومحادثة وخطابًا من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه.

والناس في هذا الباب «ثلاثة أصناف» طرفان ووسط. فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث/به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله، ٢٠٤/١١ ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدًا مخطئًا، وخيار الأمور أوسطها وهو ألا يجعل معصومًا ولا ماثومًا إذا كان مجتهدًا مخطئًا، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء، ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول: هذا خالف الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم»^(١) وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر»^(٢) وفي حديث آخر أن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه^(٣)، وفيه: لو كان نبي بعدي لكان عمر^(٤)، وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر. ثبت هذا عنه من رواية الشعبي. وقال ابن عمر: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا، إلا كان كما يقول. وعن قيس بن طارق قال: كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك. وكان عمر يقول: اقربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة. ٢٠٥/١١

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات؛ فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣/٢٣٩٨).

(٢) ابن عدي في الكامل ٤/١٩٤، والموضوعات لابن الجوزي ١/٣٢٠، والفوائد المجموعة للشوكاني ص ٣٣٦، كلهم عن عقبة بن عامر.

(٣) الترمذي في المناقب (٣٦٨٢)، وقال: «حسن غريب»، عن ابن عمر.

(٤) الترمذي في المناقب (٣٦٨٦)، وقال: «حسن غريب»، عن عقبة بن عامر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدث في هذه الأمة، فأبي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد ﷺ فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر - رضي الله عنه - يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقة غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين، والحديث معروف في البخاري وغيره، فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطاً فيها نوع ٢٠٦/١١ غضاضة على المسلمين في الظاهر، فشق ذلك على كثير من المسلمين، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي ﷺ: يارسول الله، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: أفليس قتلتنا في الجنة وقتلهم في النار؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله وهو ناصري، ولست أعصيه» ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى». قال: «أقلت لك: إنك تأتيه العام؟» قال: لا، قال: «إنك آتية ومطوف به»^(١) فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال النبي ﷺ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر - رضي الله عنه - أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر - رضي الله عنه - رجع عن ذلك، وقال: فعملت لذلك أعمالاً.

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولاً، فلما قال أبو بكر: إنه مات رجع عمر عن ذلك.

وكذلك في «قتال مانعي الزكاة» قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، و أني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(٢) فقال له أبو بكر - رضي الله عنه - : ألم يقل: «إلا بحقها»؟! فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر - رضي الله عنه - محدث، فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما

(١) البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢) ومسلم في الجهاد (٩٤/١٧٨٥). (٢) سبق تخريجه ص ٤٧.

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ١ - ٥﴾ ، وقال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ .

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة وهو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ، من خالف في هذا فليس من أولياء الله - سبحانه - الذين ٢١٠/١١ أمر الله باتباعهم ، بل إما أن يكون كافراً ، وإما أن يكون مفرطاً في الجهل .

وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني : إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا ، أو قال : لا يقتدى به . وقال أبو عثمان النيسابوري : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَأَن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، وجعله الفارق بين أوليائه ٢١١/١١ وأعدائه ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشقياء/فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين ، وجنده المفلحين ، وعباده الصالحين ، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين ، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال ، وآخر إلى الكفر والنفاق ، ويكون له نصيب من قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ فُلُكًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] ، وقوله

وهؤلاء مشاهيرون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ إِنَّا إِلَهُهُمْ أُفٍّ لَآلِهَتِهِمْ سَبَّحْنَهُ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي/المسند وصححه الترمذي عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل النبي ﷺ عنها فقال: ما عبدوهم؛ فقال النبي ﷺ: «أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، وكانت هذه عباداتهم إياهم»^(١)، ولهذا قيل في مثل هؤلاء: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ فلا بد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بأن محمداً رسول ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا باتباعه باطنًا وظاهرًا، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيلًا لِمَا أَنْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَصْرًا قَالُوا أَتَقْرَأُونَ قَالُوا نَشْهَدُ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

(۱) الترمذی فی التفسیر (۳۰۹۵) وقال: « حدیث غریب » .

ثُمَّ جَاءَهُمْ أَنْ يَخْلُفُوا اللَّهَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٠ - ٦٥] .

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي الله، وإن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟! وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى ٢١٤/١١ شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها/ أو يمشي على الماء أحياناً، أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعتة لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه .

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة .

مثال ذلك: أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم ٢١٥/١١ لا يتوضأ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون/ملاصاً للنجاسات معاشرراً للكلاب، يأوى إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابيل، رائحته خبيثة، ولا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا ينتظف، وقد قال النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب»^(١) وقال عن

(١) أبو داود في الطهارة (٢٢٧)، والنسائي في الطهارة (٢٦١)، والدارمي في الاستئذان ٢/٢٨٤، وأحمد ١/٨٠، كلهم عن علي .

هذه الاخلية: «إن هذه الحشوش محتضرة»^(١) أي يحضرها الشيطان وقال: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»^(٢).

وقال: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(٣) وقال: «إن الله نظيف يحب النظافة»^(٤) وقال: «خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور» وفي رواية: «الحية والعقرب»^(٥). وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال: «من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من عمله كل يوم قيراط»^(٦) وقال: «لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب»^(٧) وقال: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب»^(٨).

وقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُمَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَنْفَعُونَ الرُّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ۚ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات و الخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوى إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير، وإذا أن^(٩) الكلاب التي هي خبائث وفواسق أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخة، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلبس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابيل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن.

(١) أبو داود في الطهارة (٦)، وابن ماجه في الطهارة (٢٩٦)، وأحمد ٣٦٩/٤، كلهم عن زيد بن أرقم .

(٢) البخارى فى الأذان (٨٥٣ - ٨٥٦) ومسلم فى المساجد (٧٣، ٧٢/٥٦٤) .

(٣) مسلم فى الزكاة (٦٥/١٠١٥) . (٤) الترمذى فى الأدب (٢٧٩٩) وقال: «حديث غريب» .

(٥) البخارى فى جزاء الصيد (١٨٢٧، ١٨٢٨) ومسلم فى الحج (٦٦/١١٩٨ - ٧١) بنحوه .

(٦) البخارى فى الحرث (٢٣٢٣)، والنسائى فى الصيد (٤٢٨٥، ٤٢٩١)، وابن ماجه فى الصيد (٣٢٠٦) .

(٧) مسلم فى اللباس (١٠٣/٢١١٣)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٥٥)، والترمذى فى الجهاد (١٧٠٣) .

(٨) البخارى فى الوضوء معلقاً، الفتح ٢٧٢/١، ومسلم فى الطهارة (٨٩/٢٧٩ - ٩٢) .

(٩) هكذا بالأصل .

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله، وقال عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - : لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله عز وجل ، وقال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

٢١٧/١١ / وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة فارقاً بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا ءَلِيمُنْ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، قال الترمذي حديث حسن^(١). وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألتني لآعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»^(٢).

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب، يفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباء الرومي، وغيرهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين.

(١) الترمذي في التفسير (٣١٢٧).

(٢) سبق تخريجه ص ١٦.

فصل

و «الحقيقة»، حقيقة الدين - دين رب العالمين - هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج. ف «الشرعة» هي الشريعة، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

و «المنهاج» هو الطريق، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَغْنَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنُغْنِيَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

/ فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه والغاية المقصودة هي ٢١٩/١١ حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لاشريك له، وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا يستسلم لغيره، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، والله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] عام في كل زمان ومكان.

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم لإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى عن نوح: ﴿يَقُولُوا إِن كَانَ كَرْبٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِنَّمَا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى وَهَارُونَ وَكَانَ كَرْبٌ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَآءِنُكُمْ بِاللَّهِ فَقَالُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ٢٢٠/١١ [يونس: ٨٤] وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّاهُ مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَقَّاهُ مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى:

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]،
وقال الحواريون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال:
«إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»^(١) قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

فصل /

٢٢١/١١

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من
الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم «أربع مراتب» فقال
تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي الحديث: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل
من أبي بكر»^(٢) وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
[فاطر: ٣٢]، وقال النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند: «أنتم توفون سبعين أمة،
أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(٣).
وأفضل أمة محمد ﷺ القرن الأول.

٢٢٢/١١ وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم
الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه^(٤).

وفي الصحيحين أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو
أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٥).

(١) البخارى فى الانبياء (٣٤٤٣) ومسلم فى الفضائل (١٤٥/٢٣٦٥).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٤٦/٩، ٤٧: «رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إسماعيل بن يحيى التيمى، وهو
كذاب».

(٣) أحمد ٥/٣٠٥، عن معاوية بن حيدة القشيري.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٥) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠/٢٢١).

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْطَاهُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِهِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة، وفيه أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِغَفْرِ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكُمْ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، فقالوا: يا رسول الله، أو فتح هو؟! قال: «نعم».

وأفضل السابقين الأولين «الخلفاء الأربعة» وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها، وقد دلت على ذلك دلائل بسطانها في «منهاج/أهل السنة النبوية، في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية». ٢٢٣/١١

وبالجملة، اتفقت طوائف السنة والشيعَة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء، ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ﷺ واتباعاً له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ، وأفضلهم أبو بكر - رضى الله عنه.

وقد ظن طائفة غالبة أن «خاتم الأولياء» أفضل الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي، فإنه صنف مصنفًا غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب «كتاب الفتوحات المكية» و«كتاب الفصوص» فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه، كما يقال لمن قال: [فخر عليهم السقف من تحتهم] لا عقل ولا قرآن.

ذلك أن الأنبياء أفضل في الزمان من أولياء هذه الأمة، والأنبياء - عليهم أفضل الصلاة/ ٢٢٤/١١ والسلام - أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الأولياء؟! وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ، فإن فضل محمد ﷺ ثبت بالنصوص الدالة على ذلك. كقوله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »^(١)، وقوله : « أتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول:

(١) الترمذى فى المناقب (٣٦١٥) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٨) .

«محمد»، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»^(١).

و«ليلة المعراج» رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَرُسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، إلى غير ذلك من الدلائل، كل منهم يأتيه الوحي من الله، لا سيما محمد ﷺ لم يكن في نبوته محتاجاً إلى غيره، فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق، بخلاف المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة، وجاء المسيح فأكملها، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح؛ كالتوراة والزبور، وتامم الأربع وعشرين نبوة، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين، بخلاف أمة محمد ﷺ، فإن الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى ٢٢٥/١١ نبي ولا إلى محدث، بل جمع له من الفضائل والمعارف/والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء، فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر.

وهذا بخلاف «الأولياء» فإن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد ﷺ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه.

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمداً رسول إلى الأمين دون أهل الكتاب، فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفاراً بذلك، وكذلك هذا الذي يقول: إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر، وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

٢٢٦/١١ / فإذا ادعى المدعي أن محمداً ﷺ إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة، فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شر ممن يقول: أومن ببعض، وأكفر ببعض، ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين.

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن «الولاية» أفضل من «النبوة» ويلبسون على الناس فيقولون: ولايته أفضل من نبوته وينشدون:

(١) مسلم في الإيمان (٣٣٣/١٩٧) وأحمد ١٣٦/٣.

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي

ويقولون: نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته، وهذا من أعظم ضلالهم، فإن ولاية محمد لم يمثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى، فضلا عن أن يمثله هؤلاء الملحدون.

وكل رسول نبي ولي، فالرسول نبي ولي. ورسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته، وإذا قدروا مجرد إنشاء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا ولياً لله، ولا تكون مجردة عن ولايته، ولو قدرت مجرد لم يكن أحد ممثلاً للرسول في ولايته.

/وهؤلاء قد يقولون - كما يقول صاحب «الفصوص» ابن عربي - :إنهم يأخذون من ٢٢٧/١١ المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول؛ وذلك أنهم اعتقدوا « عقيدة المتفلسفة» ثم أخرجوها في قالب «المكاشفة»، وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا: إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تشبه بها، كما يقوله أرسطو وأتباعه؛ أو لها موجب بذاته كما يقوله متأخروهم: كابن سينا وأمثاله، ولا يقولون: إنها لرب خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ؛ بل إما أن ينكروا علمه مطلقاً ، كقول أرسطو، أو يقولوا: إنما يعلم في الأمور المتغيرة كلياتها كما يقول ابن سينا، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها ، فإن كل موجود في الخارج فهو معين جزئي : الأفلاك كل معين منها جزئي ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات، والكليات إنما توجد كليات في الأذهان لا في الأعيان.

والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر في « درء تعارض العقل والنقل» وغيره.

فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى، بل ومشركي العرب، فإن جميع هؤلاء يقولون: إن الله خلق السموات والأرض، وأنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته، وأرسطو ونحوه من المتفلسفة/واليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وهم لا يعرفون ٢٢٨/١١ الملائكة والأنبياء، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية، وأما الأمور الإلهية فكل منهم فيها قليل الصواب، كثير الخطأ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير، ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل، فأخذوا أشياء من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهباً قد يعتزى إليه متفلسفة أهل الملل؛ وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد ﷺ قد بهر العالم، واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد ﷺ أعظم ناموس طرق العالم، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن. أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها «المجردات» و«المفارقات». وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن، وسموا تلك «المفارقات» لمفارقتها المادة وتجردها عنها، وأثبتوا الأفلاك لكل فلك نفساً، وأكثرهم جعلوها إعراضاً، وبعضهم جعلها جواهر.

٢٢٩/١١ وهذه «المجردات» التي أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور/ موجودة في الأذهان لا في الأعيان، كما أثبت أصحاب أفلاطون «الأمثال الأفلاطونية المجردة» أثبتوا هيولي مجردة عن الصورة، ومدة وخلاء مجردين. وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان، فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة، وزعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي:

الأول: أن تكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها من العلم بلا تعلم.

الثاني: أن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقل في نفسه بحيث يرى في نفسه صوراً أو يسمع في نفسه أصواتاً كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى.

الثالث: أن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولي العالم وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة، هي قوى النفس، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية، دون انشقاق القمر ونحو ذلك، فإنهم ينكرون وجود هذا.

٢٣٠/١١ / وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع، وبيننا أن كلامهم هذا أفسد الكلام، وإن هذا الذي جعلوه من الخصائص يحصل ما هو أعظم منه لأحاد العامة ولأتباع الأنبياء، وإن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وليسوا عشرة، وليسوا أعراضاً، لا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو «العقل الأول»، وعنه صدر كل ما دونه، و«العقل الفعال العاشر» رب كل ما تحت فلك القمر.

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل، فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله. وهؤلاء يزعمون أنه العقل المذكور في حديث يروى: «أن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، فقال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم

علي منك، فبك آخذ وبك أعطي، ولك الثواب وعليك العقاب»^(١). ويسمونه أيضاً «القلم» لما روى: «إن أول ما خلق الله القلم» الحديث رواه الترمذي^(٢).

والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي والدارقطني وابن الجوزي وغيرهم، وليس في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها، ومع/هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم، فإن لفظه: «أول ما ٢٣١/١١ خلق الله تعالى العقل قال له» ويروي: «لما خلق الله العقل قال له» فمعنى الحديث: أنه خاطبه في أول أوقات خلقه، ليس معناه أنه أول المخلوقات و «أول» منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر (لما) وتام الحديث: «ما خلقت خلقاً أكرم علي منك» فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره، ثم قال: «فبك آخذ، وبك أعطي، ولك الثواب، وعليك العقاب» فذكر أربعة أنواع من الأعراض، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل. فأين هذا من هذا؟!

وسبب غلطهم أن لفظ «العقل» في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان، فإن «العقل» في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً، كما في القرآن: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] ويراد «بالعقل» الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها.

وأما أولئك فـ «العقل» عندهم جوهر قائم بنفسه كالعقل، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن. وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام العقل والنفوس فيسميها عالم الامر، وقد يسمى «العقل» عالم الجبروت و«النفوس» عالم الملكوت؛ و«الأجسام» /عالم الملك، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنة ٢٣٢/١١ أن ما في الكتاب والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا، وليس الأمر كذلك.

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبساً كثيراً، كإطلاقهم أن «الفلك» محدث: أي معلول مع أنه قديم عندهم، والمحدث لا يكون إلا مسبوقاً بالعدم، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي محدثاً، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء، وكل مخلوق فهو محدث، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبرت به الرسل، ولا أحكموا فيها قضايا العقول، فلا للإسلام نصروا، ولا للأعداء كسروا، وشاركوا أولئك في بعض

(١) ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٧٤).

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٠) والترمذي في القدر (٢١٥٥) وقال: «حديث غريب».

قضاياهم الفاسدة، ونازعهم في بعض المعقولات الصحيحة، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون « جبريل » هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ ، والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم « أولياء الله » ، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ٢٣٣/١١ كابن عربي صاحب « الفتوحات » و« الفصوص » ، فقال : / إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ، و « المعدن » عنده هو العقل و « الملك » هو الخيال ، و « الخيال » تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصة النبي ما ذكره لم يكن هو من جنسه ، فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكره يحصل لآحاد المؤمنين؟! والنبوة أمر وراء ذلك ، فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة : كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ، والجنيدي بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهم - رضوان الله عليهم أجمعين .

والله - سبحانه وتعالى - قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَرَّمْنَا مَلَكًا فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ ﴾ [سبا : ٢٢ ، ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَنْفَعِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقد أخبر أن الملائكة جاءت لإبراهيم عليه السلام في صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشرًا سويًا ، وكان جبريل - عليه السلام - يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي ،

وفي صورة أعرابي، ويراهم الناس كذلك.

وقد وصف الله تعالى جبريل - عليه السلام - بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وأن محمداً ﷺ رآه بالأفق المبين، ووصفه بأنه ﴿سَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرْقٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَضُرُّونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ٥ - ١٨].

/وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ «أنه لم ير ٢٣٥/١١ جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين»^(١) يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى، والنزلة الأخرى عند سدره المنتهى، ووصف جبريل - عليه السلام - في موضع آخر بأنه الروح الأمين، وأنه روح القدس، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء، وأنه جوهر قائم بنفسه، ليس خيالا في نفس النبي كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، والمدعون ولاية الله، وأنهم أعلم من الأنبياء.

وغاية حقيقة هؤلاء إنكار «أصول الإيمان» بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحقيقة أمرهم جحد الخالق، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق، وقالوا: الوجود واحد، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود، كما تشترك الأناسي في مسمى الإنسان، و الحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلّي لا يكون مشتركا كليّا إلا في الذهن، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس، ووجود السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته.

وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع، فإنه لم يكن/منكرًا هذا الوجود ٢٣٦/١١ المشهود، لكن زعم أنه موجود بنفسه، لا صانع له، وهؤلاء وافقوه في ذلك ، لكن زعموا بأنه هو الله، فكانوا أضل منه وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم، و لهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، وقالوا: «لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف وإن جار في العرف الناموسي ، كذلك قال: أنا ربكم الأعلى - أي وإن كان الكل أربابا بنسبة ما، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم».

(١) البخاري في التفسير (٤٨٥٥)، ومسلم في الإيمان (١٧٧/٢٨٧ - ٢٨٩).

قالوا: «ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقرؤا له بذلك وقالوا: ﴿فَأَقْصِبْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، قالوا: فصاح قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي﴾ [النازعات: ٢٤] وكان فرعون عين الحق» ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله، وأنهم أفضل من الأنبياء، وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم.

وليس هذا موضع بسط إلهاد هؤلاء؛ ولكن لما كان الكلام في «أولياء الله» والفرق بين «أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاءً لولاية الله، وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان، نبهنا على ذلك. ولهذا عامة كلامهم إنما هو في الحالات الشيطانية، ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات: «باب أرض الحقيقة» ويقولون: هي أرض الخيال. فتعرف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال، ومحل تصرف الشيطان، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقْضِ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ. حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَ. وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

٢٣٨/١١ وقد روى عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح/ «أنه رأى جبريل يزع الملائكة»^(١) والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته. قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) الموطأ في الحج ١/ ٤٢٢ (٢٤٥) مرسلًا، وقد وصله الحاكم في المستدرک عن أبي الدرداء.

[الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنا قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ سَكَنَ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتمثل لهم، وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام، وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال «سيكون في ثقيف كذاب ومبير»^(١) وكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد، والمبير: الحجاج بن يوسف. فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ. نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ۚ لِيُجْدِلُواكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب «الفتوحات» أنه ألقى إليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتي بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس، أو بعتاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك.

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسول - صلوات الله تعالى وسلامه عليهم - كما يوجد في كلام صاحب «الفتوحات المكية» و«الفصوص» وأشباه ذلك يمدح الكفار، مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتنقص الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمد، وسهل بن

(١) الترمذي في الفتن (٢٢٢١)، والمناقب (٣٩٤٤)، وقال: «حسن غريب»، ولم أجده في مسلم كما في تحفة الأشراف، و معنى المبير: المهلك والفسد، وحمله بعض العلماء على الحجاج بن يوسف الثقفي.

عبد الله التستري، و يمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلاج ونحوه كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية، فإن الجنيد - قدس الله روحه - كان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد ٢٤٠/١١ فقال: «التوحيد» أفراد الحدوث عن القدم. فبين أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث، وبين الخالق والمخلوق. وصاحب «الفصوص» أنكر هذا، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد، هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟ فخطأ الجنيد في قوله: «أفراد الحدوث عن القدم»، لأن قوله هو: إن وجود المحدث هو عين وجود القديم، كما قال في فصوصه: «ومن أسمائه الحسنى «العلي» على من؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو» إلى أن قال:

«هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من ينطق عنه سواء، وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك من الأسماء المحدثات».

فيقال لهذا الملحد: ليس من شرط المميز بين الشيتين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره، وليس هو ثالث، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته، ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع، والاستشهاد بالقرآن ٢٤١/١١ عند المؤمنين الذين يقرون به باطنًا وظاهرًا، وأما هؤلاء/الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منه - وهو أحدهم في اتحادهم - لما قرئ عليه «الفصوص» فقبل له: القرآن يخالف فصوصكم، فقال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، فقبل له: فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالا والأخت حراماً؟ فقال: الكل عندنا حلال، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم.

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر، فإن الوجود إذا كان وحداً فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب، فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟ وقالوا لآخر: هذه مظاهر، فقال لهم: المظاهر غير الظاهر أم هي؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة وإن كانت إياها فلا فرق.

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر، وبيننا حقيقة قول كل واحد منهم، وإن صاحب «الفصوص» يقول: المعدم شيء، ووجود الحق فاض عليه، فيفرق بين الوجود والثبوت. والمعتزلة الذين قالوا: المعدم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه، فإن أولئك قالوا: إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة في العدم وجوداً ٢٤٢/١١ ليس هو وجود الرب. وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليه/فليس عنده وجود

مخلوق مباين لوجود الخالق، وصاحبه الصدر القانوني يفرق بين المطلق والمعين، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة، فلم يقر بأن المعدوم شيء، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق، وصنف «مفتاح غيب الجمع والوجود».

وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه، فإن المطلق بشرط الإطلاق - وهو الكلي العقلي لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان والمطلق لا بشرط وهو الكلي الطبيعي - وإن قيل: إنه موجود في الخارج فلا يوجد في الخارج إلا معيّنًا، وهو جزء من المعين عند من يقول بشيئته في الخارج، فيلزم أن يكون وجود الرب إما متنفيا في الخارج وإما أن يكون جزءًا من وجود المخلوقات، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات. وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه؟ أم العدم يخلق الوجود؟ أو يكون بعض الشيء خالقًا لجميعه؟!

وهؤلاء يفرون من لفظ «الحلول» لأنه يقتضي حالًا ومحلًا، ومن لفظ «الاتحاد» لأنه يقتضي شيئين اتحداً أحدهما بالآخر، وعندهم الوجود واحد. ويقولون: النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله، ولو عمموا لما كفروا.

وكذلك يقولون في عباد الأصنام: إنما أخطأوا لما عبدوا بعض/المظاهر دون بعض فلوا ٢٤٣/١١ عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم. والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام.

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم فيه ما يلزمهم دائماً من التناقض؛ لأنه يقال لهم: فمن المخطئ؟ لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق. و يقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق، ويقولون ما قاله صاحب «الفصوص»: «فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النوعات الوجودية، والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً أو عقلاً أو شرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة».

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض، فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك، وهؤلاء يقولون ما كان يقول التلمساني: إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. ويقولون: من أراد التحقيق - يعني تحقيقهم - فليترك العقل والشرع.

وقد قلت لمن خاطبته منهم: ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم، و الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته. لا بما/يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمحارات ٢٤٤/١١ العقول لا بمحالات العقول، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ما يناقض صريح العقول، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان، سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقلياً

والآخر سمعيًا، فكيف بمن ادعى كسفا يناقض صريح الشرع والعقل؟.

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين، وتكون من تليسات الشياطين.

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قد يقدمون الأولياء على الأنبياء، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره، ويجعلون المراتب «ثلاثة» يقولون: العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية، ثم طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية، و«الشهود الأول» هو الشهود الصحيح وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي، وأما «الشهود الثاني» فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يعصى، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة التي هي المشيئة. والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ويقول شاعرهم:

أصبحت منفعلاً لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

٢٤٥/١١

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه؛ فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب بخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤] وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية والأمر الكوني والديني.

وكانت هذه «المسألة» قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبينها الجنيد - رحمه الله - لهم، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد، ومن خالفه ضل؛ لأنهم تكلموا في أن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته، وفي شهود هذا التوحيد، وهذا يسمونه الجمع الأول، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله وقدرته، وخلقها يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه، وبين ما ينهي عنه ويكرهه ويسخطه، ويفرق بين أوليائه وأعدائه كما قال تعالى: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنائي: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ. وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه ما شاء كان،

وما لم يشأ لم يكن، لا رب غيره، وهو مع ذلك أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية، وهو لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها، بل ييغضها ويذم أهلها ويعاقبهم.

وأما «المرتبة الثالثة» ألا يشهد طاعة ولا معصية، فإنه يرى أن الوجود واحد، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله، وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته، وغاية العداوة لله، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات تعالى وسلامه عليه، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال الخليل عليه ٢٤٧/١١ السلام لقومه المشركين: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَإِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بـ«نظم السلوك» يقول فيها:

لها صلاتي بالمقام أقيمها	وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصلٍّ واحد ساجد إلى	حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سوائي ولم تكن	صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

إلى أن قال:

وما زلت إياها وإياي لم تزل	ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت
إلى رسولاً كنت مني مرسلاً	وذاتي بآياتي على استدللت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن	منادي أجابت من دعائي ولبت

إلى أمثال هذا الكلام، ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد ويقول:

٢٤٨/١١ / إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام

فإنه كان يظن أنه هو الله، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ما كان يظنه، وقال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]

فجميع ما في السموات والأرض يسبح لله، ليس هو الله، ثم قال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢، ٣].

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر»^(١). ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] ٢٤٩/١١ فذكر أن السموات والأرض - وفي موضع آخر - ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مخلوق مسبح له، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشئين مختلطاً بالآخر كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا لِرَسُولٍ إِلَهٍُّ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة، ف «العامة» في هذه الآية وفي آية المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنِيشُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه.

وأما «المعية الخاصة» ففي قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ ۚ إِنَّا بِكَ أَلَدُّ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، يعني النبي ﷺ وأبا بكر - رضي الله عنه - فهو مع موسى وهارون ودون فرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ومع الذين اتقوا

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣/٦١)، عن أبي هريرة.

والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين .

فلو كان معنى: «المعية» أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأنيده دون أولئك . وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي: هو إله من في السموات وإله من في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره: أنه المعبود في السموات والأرض .

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص، ويعلم أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾ [سورة الإخلاص]. قال ابن عباس: ﴿الصَّمَدُ﴾: العليم الذي كمل في علمه، العظيم الذي كمل في عظمته، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته، السيد الكامل في سؤده .

وقال ابن مسعود وغيره: هو الذي لا جوف له . و«الأحد» الذي لا نظير له، فاسمه ٢٥١/١١
﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه «الأحد» يتضمن اتصافه أنه لا مثل له، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن .

فصل

وكثير من الناس تشبه عليهم الحقائق الامرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - له الخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهو - سبحانه - خالق كل شيء وربّه ومليكه، لا خالق غيره، ولا رب سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيتته وقدرته وخلقه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله، أمر بالتوحيد والإخلاص، ونهى عن الإشراك بالله، فأعظم الحسنات

٢٥٢/١١ التوحيد، وأعظم السيئات الشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك»^(١)، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَدْ فِيهِ مُهْكًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وأمر - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وأخبر أنه يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المقيمين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وهو يكره ما نهى عنه كما قال في سورة سبحان: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الاسراء: ٣٨] وقد نهى ٢٥٣/١١ عن الشرك وعقوق الوالدين، وأمر بإيتاء ذي القربى الحقوق ونهى عن التبذير، وعن التقدير، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، وأن ييسطها كل البسط، ونهى عن قتل النفس بغير الحق، وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢). وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٣) وفي السنن عن ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» أو قال: «كثر من مائة مرة»^(٤).

وقد أمر الله - سبحانه - عباده أن يختتموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي ﷺ

(١) البخاري في التفسير (٤٤٧٧) ومسلم في الإيمان (١٤١/٨٦، ١٤٢).

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٠٧).

(٣) مسلم في الذكر والدعاء (٤١/٢٧٠٢).

(٤) أبو داود في الصلاة (١٥١٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤) وابن ماجه في الاستغفار (٣٨١٤).

إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول: « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »/كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه^(١)، وقد قال تعالى: ٢٥٤/١١

﴿وَالسُّتُورِ بِالْأَسْعَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار . وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] وكذلك قال في الحج: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩] بل أنزل سبحانه وتعالى في آخر الأمر لما غزا النبي ﷺ غزوة تبوك وهي آخر غزواته: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] وهي آخر ما نزل من القرآن .

التوبة: ١١٧، ١١٨ وهي آخر ما نزل من القرآن .

وقد قيل: إن آخر سورة نزلت قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر]، فأمره

تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار . وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي» ٢٥٥/١١ يتأول القرآن^(٢) . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، لا إله إلا أنت»^(٣) .

وفي الصحيحين: أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٤) . وفي السنن عن

(١) مسلم في المساجد (١٣٦/٥٩٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥١٢)، والترمذي في أبواب الصلاة (٢٩٨) .

(٢) البخاري في الأذان (٨١٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧/٤٨٤) .

(٣) البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠ / ٢٧١٩) .

(٤) البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨/٢٧٠٥) .

أبي بكر - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال: «قل: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم. قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك» (١).

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم.

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» (٢) وهذا لا ينافي قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فإن الرسول نفى بقاء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت بقاء السبب.

وقول من قال: إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب، معناه: أنه إذا أحب عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وإنما عباده الممدوحين هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُطَيْبِ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥].

ومن ظن أن «القدر» حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ

(١) أبو داود في الأدب (٥٠٦٧) والترمذي في الدعوات (٣٥٢٩) وقال: «حسن غريب من هذا الوجه».

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٦٣) ومسلم في صفات المنافقين (٧١/٢٨١٦ - ٧٦).

عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَاطِلَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[الأنعام: ١٤٧ - ١٤٩].

ولو كان «القدر» حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وشمود والمؤتفكات، وقوم فرعون، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه، بل يستوى عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم، فلا يفرق بين من يفعل معه خيراً وبين من يفعل معه شراً، وهذا ممتنع طبعاً وعقلاً وشرعاً، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِبَالِغِي الْأَجَلِ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «احتج آدم وموسى، قال موسى: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده، فبكم وجدت مكتوباً عليّ قبل أن أخلق ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، قال: بأربعين سنة، قال: فلم تلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ قال: فحج آدم موسى»^(١) أي: غلبه بالحجة.

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان:

«طائفة» كذبت به لما ظنوا أنه يقتضى رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر.

و«طائفة» شر من هؤلاء جعلوه حجة، وقد يقولون: القدر/حجة لأهل الحقيقة الذين ٢٥٩/١١ شهدوه، أو الذين لا يرون أن لهم فعلاً. ومن الناس من قال: إنما حج آدم موسى لأنه أبوه، أو لأنه كان قد تاب، أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم في أخرى، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الأخرى، وكل هذا باطل.

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلّم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم

(١) البخارى فى القدر (٦٦١٤) ومسلم فى القدر (١٥/٢٦٥٢).

من أجل أكله من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه ، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام ، وهو قد تاب منه أيضاً ، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَرَّ تَقَفَّرَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] . والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] فأمر بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعائب .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فالْمُؤْمِنُونَ إذا أصابتهم مصيبة ، مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم ، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا/لما أصابهم ، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر .

و«الصبر» واجب باتفاق العلماء ، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله ، و«الرضا» قد قيل : إنه واجب ، وقيل : هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها ، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياهم ، ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه ، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين ، وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم ، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها ، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين ، وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى ، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها ، ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي/ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة» (١) .

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه

(١) سبق تخريجه ص ٢٠ .

تبارك وتعالى أنه قال: « يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وكانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط غمسة واحدة، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١).

/ فأمراً - سبحانه - بحمد الله على ما يجده العبد من خير ، وأنه إذا وجد شرّاً فلا ٢٦٢/١١ يلومن إلا نفسه .

وكثير من الناس يتكلم بلسان «الحقيقة» ، ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيتته، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبه . ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقاً لما أمر الله به على ألسن رسله، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر بذلك بالكتاب والسنة، كما أن لفظ «الشرعية» يتكلم به كثير من الناس، ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله؛ فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر. وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطئ . هذا إذا كان عالماً عادلاً وإلا ففي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: « القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو في النار» (٢).

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد ﷺ فقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى

(١) سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٢) أبو داود في الاقضية (٣٥٧٣) ، وابن ماجه في الاحكام (٢٣١٥) ، كلاهما عن بريدة عن الحصيب الاسلمي .

٢٦٣/١١ بنحو مما أسمع، فمن/قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^(١) فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن بخلاف ذلك، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له، وأنه إنما يقطع له به قطعة من النار.

وهذا متفق عليه بين العلماء في الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار، وكان الباطن بخلاف الظاهر، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له بالاتفاق. وإن حكم في العقود والفسوخ بمثل ذلك، فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وفرق أبو حنيفة - رضي الله عنه - بين النوعين.

فلفظ «الشرع، والشرعة» إذا أريد به الكتاب و السنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله، غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا. فلم يتابعه باطنًا وظاهرًا فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غلطاً من وجهين: أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو/أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً، ولهذا قال الخضر لموسى: «أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه»^(٢) وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشرعة موسى عليه السلام، وموسي لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله. قال: ابن عباس - رضي الله عنهما - لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان - قال له - : إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم. وإلا فلا تقتلهم. رواه البخاري^(٣)، وأما الإحسان إلى اليتيم بلاعوض والصبر على الجوع، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفاً شرع الله.

(١) البخاري في الأحكام (٧١٦٩)، ومسلم في الأفضية (١٧١٣/٤)، كلاهما عن أم سلمة.

(٢) البخاري في العلم (١٢٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠/١٧٠)، كلاهما عن سعيد بن جبيرة.

(٣) مسلم في الجهاد والسير (١٨١٢/١٣٧)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٢٧)، والنسائي في السير (١٥٥٦)،

وقال: «حسن صحيح»، وأحمد ٢٢٤/١، ٣٠٨، ولم أجده في البخاري.

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عادلاً ، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه : كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم ، فهؤلاء أقوالهم ٢٦٥/١١ يحتج لها بالكتاب والسنة ، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً أي ليس اتباع أحدهم واجبا على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة ، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك ، فهذا من نوع التبديل ، فيجب الفرق بين الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل ، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية ، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة ، وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجدته .

فصل

وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين «الإرادة» و«الأمر» و«القضاء» و«الإذن» و«التحريم» و«البعث» و«الإرسال» و«الكلام» و«الجعل» : بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه ؛ وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم ، وجعلهم من أوليائه المتقين / وحزبه ٢٦٦/١١ المفلحين وجنده الغالبيين ؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه ، فمن استعمله الرب - سبحانه وتعالى - فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه .

ف «الإرادة الكونية» هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله في مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبه ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً . وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح ، قال الله تعالى : ﴿مَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشُرْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿وَلَا تَقْعُزُوا عَنْهُ نَصَحْتُ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١] ، وقال تعالى في الثانية : ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال في آية الطهارة : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿المائدة: ٦﴾ ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبْسِلُوا مِثْلًا عَظِيمًا . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨] وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهم عنه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه.

وأما «الأمر» فقال في الأمر الكوني: ﴿إِنَّمَا [قَوْلُنَا] ^(١) لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَتَنهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِالْأَمْثِلِ﴾ [يونس: ٢٤]، وأما الأمر الديني، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وأما «الإذن» فقال في الكوني لما ذكر السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَّالِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي بمشيئته وقدرته، وإلا فالسحر لم يبيحه الله عز وجل، وقال في الإذن الديني: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَحْتُمَهَا فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا يُطَاعَ﴾ [الحشر: ٥].

وأما «القضاء» فقال في الكوني: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي أمر، وليس المراد به قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَأَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ

(١) في المطبوعة: «أمرنا» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۖ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَفِرَّكَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿[المتحنة: ٤]﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]، وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيقُونَ وَمِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] ومن ظن من الملاحظة أن هذا رضا منه بدين ٢٦٩/١١ الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ﴾ بمعنى قدر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب.

وأما لفظ «البعث» فقال تعالى في البعث الكوني: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥] وقال في البعث الديني: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا أَطْلَافَ النَّاسِ﴾ [النحل: ٣٦].

وأما لفظ «الإرسال» فقال في الإرسال الكوني: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال في الديني: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنِ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وأما لفظ «الجعل» فقال في الكوني: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ ٢٧٠/١١ [القصص: ٤١]، وقال في الديني: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].
وأما لفظ «التحريم» فقال في الكوني: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَكْفِئُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال في الديني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيسَةُ وَالْدُمُومُ وَالْحَنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال

تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ الآية [النساء: ٢٣].

وأما لفظ «الكلمات» فقال في الكلمات الكونية: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ [التحریم: ١٢] ، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق، ومن غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»^(١) وقال ﷺ: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(٢) وكان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»^(٣).

٢٧١/١١ / «وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر» هي التي كون بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيتته وقدرته. وأما «كلماته الدينية» وهي كتبه المنزل: وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار، وعصاها الفجار.

وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الديني وإذنه الديني وإرادته الدينية.

وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيتة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب. وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور، وتركوا المحذور ، وصبروا على المقدور، فأحبهم وأحبوه، ورضى عنهم ورضوا عنه. وأعداؤه أولياء الشياطين، وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم، ويغضب عليهم، ويلعنهم ويعاديهم.

وبسط هذه الجمل له موضع آخر، وإنما كتبت هنا تنبيها على مجامع «الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وجمع الفرق بينهما باعتبارهم بموافقة رسول الله ﷺ ، فإنه هو الذي فرق الله تعالى به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد، وبين أعدائه أهل الغي والضلال

(١) أبو داود في الطب (٣٨٩٣)، والترمذي في الدعوات (٣٥٢٨) وقال: «حديث حسن غريب»، ومالك في الموطأ في الشعر (٩٥٠/٢)، وأحمد (١٨١/٢)، ٥٧/٤.

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٥٤/٢٧٠٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٧)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وابن ماجه في الطب (٣٥٤٧)، كلهم عن خولة بنت حكيم.

(٣) أحمد (٤١٩/٣) ، عن عبد الرحمن بن خنبل.

والفساد وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . قال تعالى : ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَاتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢] .

وقال في أعدائه : ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوهُمْ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، وقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَٰيَطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال : ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيْطَانُ . تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَقُولُونَ لَسَنَعُ وَكَفَّيْنَاهُمْ كَذِبُونَ . وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ وَأَتَّقُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٧] ، وقال تعالى : ﴿فَلَا أَقِيمَ بِنَا يُصِرُونَ . وَمَا لَا يُبْصِرُونَ . إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ . نَزِيرٌ مِنْ رَبِّ أَلْعَلَّيْنِ . وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا ٢٧٣/١١ بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ . وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة : ٣٨ - ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا تَجْنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور : ٢٩ - ٣٤] .

فنزّه - سبحانه وتعالى - نبينا محمدا ﷺ عن تقترن به الشياطين ، من الكهان والشعراء والمجانين ؛ وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه . قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [الحج : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ مِنْ رَبِّ أَلْعَلَّيْنِ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة : ٩٧] ، وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إلى قوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل : ٩٨ - ١٠٢] فسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس .

وقال تعالى : ﴿فَلَا أَقِيمَ بِالْخَنَازِيرِ الْكُتُبِ﴾ [التكوير : ١٥ ، ١٦] يعني : الكواكب التي تكون في السماء خائسة أي : محتفية قبل طلوعها ، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء ، فإذا غربت ذهب إلى كناسها الذي يحجبها ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير : ١٧] أي : إذا أدبر ، وأقبل الصبح ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير : ١٨] أي : أقبل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ ٢٧٤/١١

﴿التكوير: ١٩﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾
 ﴿التكوير: ٢٠، ٢١﴾، أي: مطاع في السماء أمين، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾
 ﴿التكوير: ٢٢﴾ أي: صاحبكم الذي من الله عليكم به؛ إذ بعثه إليكم رسولا من
 جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ
 عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية
 [الأنعام: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُنْفُسِ الثَّلَاثِينَ﴾ [التكوير: ٢٣] أي: رأى
 جبريل عليه السلام ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] أي: بمتهم، وفي القراءة
 الأخرى: ﴿بِضْنِينَ﴾ أي: ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل، كما يفعل من يكتم
 العلم إلا بالعوض، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ [التكوير: ٢٥] فتره جبريل عليه السلام
 عن أن يكون شيطانا، كما نزه محمدا ﷺ عن أن يكون شاعرا أو كاهنا.

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به ويتهون عما عنه زجر،
 ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في
 قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين. وخيار أولياء الله
 كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك.

٢٧٥/١١ / وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في
 معجزات الرسول ﷺ: مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، وإتيان الشجر إليه،
 وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وما يكون،
 وإتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر
 من قدر طعام وهو لم ينقص في حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر في غزوة خيبر
 من مزادة ماء ولم تنقص، وملا أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم
 نحو ثلاثين ألفا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا
 معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين أبي قتادة
 حين سألت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن
 الأشرف فوق وانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كلا
 منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا جميعهم ثم فضل فضلة، ودين عبد
 الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون سقا. قال جابر: فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر
 جميعه بالذي كان له فلم يقبل فمشى فيها رسول الله ﷺ ثم قال لجابر جد له فوفاه
 الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا. ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة.

٢٧٦/١١ / وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا، مثل ما كان «أسيد بن

حضير» يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته^(١). وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين^(٢). وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها^(٣). وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما، رواه البخاري وغيره^(٤).

وقصة «الصادق» في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربي من أسفلها أكثر منها فشبعوا، وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبوبكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا^(٥).

و«خبيب بن عدي» كان أسيراً عند المشركين بمكة - شرفها الله تعالى - وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبه^(٦).

و«عامر بن فهيرة» قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع فراؤه ٢٧٧/١١ عامر بن الطفيل وقد رفع، وقال: عروة: فيرون الملائكة رفعته^(٧).

وخرجت «أم أيمن» مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها^(٨).

و«سفينة» مولي رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده^(٩).

و«البراء بن مالك» كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء، أقسم على ربك، فيقول: يارب، أقسمت عليك لما

(١) البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٢/٧٩٦).

(٢) الحاكم ٤٧٢/٣. (٣) أبو نعيم في الدلائل ٢٢٤/١.

(٤) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٥)، والنسائي في الكبرى في المناقب (٨٢٤٥)، كلاهما عن أنس.

(٥) البخاري في الأدب (٦١٤١)، ومسلم في الأشربة (١٧٦/٢٠٥٧)، (١٧٧).

(٦) البخاري في المغازي (٣٩٨٩)، وأحمد ٢٩٤/٢، كلاهما عن أبي هريرة.

(٧) البخاري في المغازي (٤٠٩٣)، عن عائشة.

(٨) ابن سعد ٢٢٤/٨، والإصابة ٤٣٢/٤.

(٩) الحاكم ٦٠٦/٣ وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الدلائل ٣٦٩/١.

وقال الهيثمي في المجمع ٣٦٩/٩: «رواه البزار والطبراني بنحوه، ورجالهما وثقوا».

منحتنا أكتافهم فيهزم العدو ، فلما كان يوم «القادسية» قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فمَنَحُوا أكتافهم ، وقتل البراء شهيداً (١).

٢٧٨/١١ و«خالد بن الوليد» حاصر حصناً منيعاً فقالوا: لا نسلم حتى تشرب/السم، فشربه فلم يضره (٢).

و«سعد بن أبي وقاص» كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق.

و«عمر بن الخطاب» لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً يسمى «سارية» فينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش فسأل فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله (٣).

ولما عذبت «الزئيرة» على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها ، قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى، قالت: كلا والله، فرد الله عليها بصرها (٤).

ودعا «سعيد بن زيد» على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت (٥).

و«العلاء بن الحضرمي» كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: ٢٧٩/١١ يا عليم، يا حليم، يا علي، يا عظيم، فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضؤوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجده في اللحد (٦).

(١) انظر: الترمذي في المناقب (٣٨٥٤)، وقال: «حديث صحيح حسن»، عن أنس بن مالك.

(٢) أبو نعيم في الدلائل ص ٣٨١، ٣٨٢. وقال الهيثمي في المجمع ٥٥٣/٩: «رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو مرسل ورجاله ثقات؛ إلا أن أبا السَّفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد والله أعلم».

(٣) أبو نعيم في الدلائل ص ٥٠٨، عن عمرو بن الحارث.

(٤) الإصابة ٣١٢/٤.

(٥) مسلم في المساقاة (١٣٧/١٦١٠، ١٣٨، ١٣٩).

(٦) أبو نعيم في الدلائل ص ٥٠١، ٥٠٢، وقال الهيثمي في المجمع ٣٧٩/٩: «رواه الطبراني في الثلاثة وفيه إبراهيم بن معمر الهروي ولد إسماعيل ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات».

وجرى مثل ذلك «لأبي مسلم الخولاني» الذي ألقى في النار، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالحشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعني فتبعه فوجدوها قد تعلقت بشيء فأخذها، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أنشهد أنني رسول الله، قال: ما أسمع، قال: أنشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فآلقت فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل إبراهيم خليل الله». ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره، وخبيت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها.

وكان «عامر بن عبد قيس» يأخذ عطاء ألفي درهم في كفه وما يلقاه سائل في طريقه ٢٨٠/١١ إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها، ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بشيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإنني أستحي أن أخاف شيئاً غيره، ومرت القافلة ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتي بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه.

وتغيب «الحسن البصري» عن الحجاج، فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً.

و«صلة بن أشيم»^(١) مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق على منة، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس، وجاع مرة بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه، فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زماناً. وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع، فولى الأسد وله زئير.

وكان «سعيد بن المسيب» في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر/رسول الله ﷺ أوقات ٢٨١/١١ الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره.

(١) صلة بن أشيم هو: أبو الصهباء العدوي البصري، زوج الصالحة معاذة العدوية لم يرو سوى حديث واحد عن ابن عباس، حدث عنه أهله معاذ والحسن وغيرهم، كان أبو الصهباء يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً، قتل سنة اثنتين وستين رحمه الله. [سير أعلام النبلاء: ٤٩٧/٣ - ٥٠٠].

ورجل من «النخع» كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه: هلم نتوزع متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهلوني هنيهة، ثم توضع فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه.

ولما مات «أويس القرني»^(١) وجدوا في ثيابه أكفأاً لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب.

وكان «عمرو بن عقبة بن فرقد» يصلي يوماً في شدة الحر فأظلمت غمامة، وكان السبع يحميه وهو يركب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

وكان «مطرف بن عبد الله بن الشخير» إذا دخل بيته سبحت معه أنيته، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط.

٢٨٢/١١ ولما مات «الأحنف بن قيس» وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى/لبأخذها فوجد القبر قد فسخ فيه مد البصر.

وكان «إبراهيم التيمي» يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه فمر بسهولة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبله من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً.

وكان «عتبة الغلام»^(٢) سأل ربه ثلاث خصال: صوتاً حسناً، ودمعاً غزيراً، وطعاماً من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوى إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه.

وكان «عبد الواحد بن زيد» أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاء وقت الوضوء فكانت وقت الوضوء تطلق له أعضاءه ثم تعود بعده.

(١) أويس القرني هو: أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك المرادي اليماني القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه، قالوا عنه: إنه ما روى شيئاً مسنداً ولا تهيأ أن يحكم عليه بليّن، وقد كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلصين، ذكر الصيرفي أن مسلماً خرج حديثه، قيل: إنه قتل يوم صفين، وقيل: مات على جبل بمكة: وقيل: إنه مات بدمشق، ولم تذكر الكتب لا سنة مولده ولا سنة وفاته. [سير أعلام النبلاء: ٣٣-١٩/٤، لسان الميزان: ٥٢٧-٥٣١، تهذيب التهذيب ١/٣٨٦].

(٢) عتبة الغلام هو: عتبة بن أبان البصري الزاهد، الخاشع الخائف. قال مسلمة الفراء: كان عتبة الغلام من نساك أهل البصرة، يصوم الدهر، ويأوى السواحل والجبانة. قال أبو عمر البصري: كان رأس مال عتبة فلساً، يشتري به خواصاً، يعمله ويبيعه بثلاثة فلوس فيتصدق بفلس، ويتعشى بفلس، وقلس رأس ماله. [سير أعلام النبلاء: ٦٢/٧].

وهذا باب واسع قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع .

وأما ما نعرفه عن أعيان ونعرفه في هذا الزمان فكثير .

/وما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها ٢٨٣/١١
الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل
ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص
ولايته ؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ، بخلاف من يجري
على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة .

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال « عبد الله بن صياد » الذي ظهر في زمن
النبي ﷺ وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال ، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين
له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ، لكنه كان من جنس الكهان قال له النبي ﷺ : « قد
خبأت لك خبأ » قال : الدخ الدخ . وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي ﷺ :
« اخسأ فلن تعدو قدرك »^(١) يعني : إنما أنت من إخوان الكهان ، والكهان كان يكون
لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا
يخلطون الصدق بالكذب ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي
ﷺ قال : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء
فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند
أنفسهم »^(٢) .

/وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : بينما النبي ٢٨٤/١١
ﷺ في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال النبي ﷺ : « ما كنتم تقولون لمثل
هذا في الجاهلية إذا رأيتموه ؟ » قالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال رسول الله
ﷺ : « فإنه لا يرمي بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح
حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل
هذه السماء ، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش : ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ، ثم
يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ، وتخطف الشياطين السمع
فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون » .

وفي رواية : قال معمر : قلت للزهري : أكان يرمي بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ولكنها

(١) البخاري في الجهاد (٣٠٥٥) ، ومسلم في الفتن (٢٩٣٠) ، كلاهما عن ابن عمر .

(٢) البخاري في بدء الخلق (٣٢١٠) ، عن ابن عمر .

غلظت حين بعث النبي ﷺ (١).

و«الأسود العنسي» الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.

٢٨٥/١١ / وكذلك «مسيلم الكذاب» كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل «الحارث الدمشقي» الذي خرج بالشام زمن عبد الملك ابن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجله من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يرى الناس رجالاً وركباً على خيل في الهواء ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنًا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل «الأحوال الشيطانية» تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة» فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: «كذب وإنه سيعود» فلما كان في المرة الثالثة. قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى ٢٨٦/١١ تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: «صدقك/وهو كذوب» (٢) وأخبره أنه شيطان.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها، مثل من يدخل النار بحال شيطاني أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بالسنة مختلفة كما يتكلم الجنى على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجنى الذي لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك

(١) الترمذي في التفسير (٣٢٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح» وأما الحديث الذي في مسلم في الصلاة (١٤٩/٤٤٩) فهو بلفظ مغاير.

(٢) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٧٥) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٠).

الموضع، و منهم من يطير بهم الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجاجاً شرعياً، بل يذهب بشيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات. ولا يلبي، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بشيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، ولهذا رأى بعض هؤلاء الملائكة تكتب الحجاج فقال: ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحجاج، يعني حجاجاً شرعياً.

٢٨٧/١١

/ وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها: أن «كرامات الأولياء» سببها الإيمان والتقوى، و«الأحوال الشيطانية» سببها ما نهى الله عنه ورسوله. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأموال التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت، سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث/به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغاث، فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني فأنا

أجىء وأغسل نفسي فلما مات رأى خادمه شخصاً في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخِل غسّله - أي غسل الميت - غاب وكان ذلك شيطاناً ، وكان قد أضل الميت ، وقال : إنك بعد الموت تحيى فتغسل نفسك ، فلما مات جاء أيضاً في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك .

٢٨٩/١١ / ومنهم من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ويقول : أنا ربك ، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول . ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدعي أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين ، وقد جرى هذا لغير واحد ، ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر : إما الصديق - رضى الله عنه - أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبس طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره مخلوق أو مقصر ، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات ، والجن الذين يقترون بهم من جنسهم وهم على مذهبيهم ، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونوه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر ، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم ، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن ويكتبهن بالنجاسة فيغورون له الماء ، وينقلونه بسبب مايرضيهن به من الكفر ، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي إما في الهواء وإما مدفوعاً ملجأً إليه .

٢٩٠/١١ إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها ، والإيمان بها إيمان/بالجبت والطاغوت ، والجبت السحر ، والطاغوت الشياطين والأصنام . وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسأله .

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية ، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية ، فإنه ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (١) .

وثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن من أمن الناس على في صحبتته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ومسلم فى المساجد (١٩/٥٢٩) .

بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله، لا يبقين في المسجد خَوْخَةً إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» (١).

وفي الصحيحين عنه أنه ذكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة، وذكروا من حسناتها وتصاوير فيها فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ٢٩١/١١ وصوروا فيها تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» (٢).

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه عليه السلام قال: «إن من شرار الخلق من تدرّكهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا القبور مساجد» (٣).

وفي الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» (٤) وفي الموطأ عنه أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٥).

وفي السنن عنه أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني» (٦).

وقال عليه السلام: «ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام» (٧) وقال عليه السلام: «إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام» (٨) وقال عليه السلام: «أكثرُوا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة؛ فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - أي بليت؟ فقال: «إن الله ٢٩٢/١١ حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء» (٩).

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

(١) البخارى فى الصلاة (٤٦٦، ٤٦٧) ومسلم فى المساجد (٢٣/٥٣٢) وفى فضائل الصحابة (٣/٢٣٨٣) هما حديثان .

(٢) البخارى فى الصلاة (٤٢٧) ومسلم فى المساجد (١٦/٥٢٨) .

(٣) أحمد ١/٤٠٥ ومجمع الزوائد (٣٠/٢) وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن» .

(٤) مسلم فى الجنازات (٩٧/٩٧٢، ٩٨) عن أبي مرثد الغنوي.

(٥) الموطأ فى قصر الصلاة فى السفر ١/١٧٢ (٨٥) قال ابن عبد البر: «لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث» .

(٦) أحمد ٢/٣٦٧ وأبو داود فى المناسك (٢٠٤٢) .

(٧) أبو داود فى المناسك (٢٠٤١)، عن أبي هريرة .

(٨) قال الهيثمى فى المجمع (١/١٦٥): «رواه البزار وفيه ابن الحميري واسمه عمران وعليه كلام، ونعيم بن

ضمضم ضعفه بعضهم، وبقيّة رجاله رجال الصحيح» .

(٩) أبو داود فى الصلاة (١٠٤٧)، والنسائي فى الجمعة (١٣٧٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠٨٥) .

﴿الْهَكَرُ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًا وَلَا سَوْعَا وَلَا يَمُوتُ وَيَعُوقُ وَشَرًّا﴾ [نوح: ٢٣] قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم، فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان. فنهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقرنها وقت الطلوع ووقت الغروب. فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين، فسد هذا الباب.

والشيطان يفضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها - كما يفعل أهل دعوة الكواكب - فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه، ٢٩٣/١١ وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد، ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور» وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك.

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين: مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه. يفعل الشيطان هذا ليضلهم، وإذا قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا، فإن التوحيد يطرد الشيطان، ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله فسقط، ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان.

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع.

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوى إلى المغارات والجبال: مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون، وجبل لبنان الذي بساحل الشام، وجبل الفتح بأسوان بمصر، وجبال بالروم وخراسان ٢٩٤/١١ وجبال بالجزيرة، وغير ذلك، وجبل اللكام، وجبل الأحيش، وجبل سولان قرب أردبيل، وجبل شهنك عند تبريز وجبل ماشكو عند أفشوان، وجبل نهاوند، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب، وإنما هناك رجال من الجن، فالجن رجال كما أن الإنس رجال، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَتْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جنّي، ويقال: بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال، كما يعرف ذلك بطرق متعددة.

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك، فإننا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر، الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك.

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به/مجملاً وكذب ما يذكر له عن ٢٩٥/١١ كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان ولياً لله وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله. وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، والصواب القول الثالث، وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ فَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً. ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقتربة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين. قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَنتُمْ عَلَىٰ مَن تَزَلُّ الشَّيَاطِينُ. تَزَلُّ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ أَثِيرٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] والأفلاك: الكذاب، والأثيم الفاجر.

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، قال ابن ٢٩٦/١١ عباس وابن عمر - رضي الله عنهم - وغيرهما من السلف: «التصدية» التصفيق باليد، و«المكاء» مثل الصفر، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف، ولا تواجد ولا سقطت برده، بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه.

وكان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ، والباقيون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. ومرو النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً^(١). أي: لحسنه لك تحسناً، كما قال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٢). وقال ﷺ: «لله أشهد أذنًا - أي: استماعًا - إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٣). وقال ﷺ لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن» فقال: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء، حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك»، فإذا عيناه تذرفان من البكاء^(٤).

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم، كما ذكره الله في القرآن فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقترار الجلد ودمع العين فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَذَكَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وأما السماع المحدث، سماع الكف والدف والقصبة، فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدونه من القرب والطاعات، بل يعدونه من البدع المذمومة، حتى قال الشافعي: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير يصدون به الناس عن القرآن، وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم.

(١) الخطيب في تاريخ بغداد ٢٩٨/٨ ، وقال الهيثمي في المجمع ٣٦٢/٩ ، ٣٦٣ : « رواه الطبراني ورجاله على شرط الصحيح غير خالد بن نافع الأشعري ووثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة » .

(٢) أبو داود في الوتر (١٤٦٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٢) وأحمد ٢٨٣/٤ .

(٣) ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٠) وأحمد ١٩/٦ ، ٢٠ .

(٤) البخاري في التفسير (٤٥٨٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٧/٨٠٠ ، ٢٤٨) .

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على السنة بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل عداوة بينهم، كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه، ويظن الجاهل أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين، فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أوليائه؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته.

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات، ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما ٢٩٩/١١ يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله، وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين، ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها، كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه، وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية، فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام، وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطي عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً بها ولا منهياً عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد/الرسول أعلى من النبي الملك.

٣٠٠/١١

ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب: كالزنا والسرقه، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها، وكلهم يأمر المريد السالك ألا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها، مع ظنهم أنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل

فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول : هنيئاً لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله .

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ، ويعده بأنه المهدي الذي بشر ٣١/١١ به النبي ﷺ ويظهر له الخوارق،/مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحي ويقول له: علامة أنك أنت المهدي أنك تنبت في جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان .

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ [الفجر : ١٥ ، ١٦] قال الله تبارك وتعالى : ﴿كَلَّا﴾ [الفجر : ١٧]، ولفظ ﴿كَلَّا﴾ فيها زجر وتنبيه: زجر عن مثل هذا القول ، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرماً له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك، بل هو سبحانه يبتلى عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه، ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منها .

٣٠٢/١١ / وأيضاً «كرامات الأولياء» لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك: مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات : كالحيات والزنايب والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص، لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان

فيرقص ليلاً طويلاً، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو ييغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد. فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَسِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ أَأَيَّدْنَا فَتَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] يعني تركت العمل بها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ ثم قرأ هذه الآية.

٣٠٣/١١

فصل

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الإنس والجن، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه، فعليه أن يصدق به فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر، سواء كان إنسياً أو جنياً.

ومحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين لما كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه بيطن نخلة لما رجع من الطائف، وأخبره الله بذلك في القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآئِمُّوا بِهِ بِعَفْوٍ لَكُمْ مِنْ دُونِهِمْ وَيُجْزَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وأُنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَنْجَةً وَلَا وَلَدًا. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا. وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَقُولُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ١ - ٦] أي السفهاء منا في أظهر قول العلماء.

وقال غير واحد من السلف: كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال: أعود بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَكُمْ يَجَالُ مِنْ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنْهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ [الجن: ٦-٨] وكانت الشياطين ترمي بالشهب قبل أن ينزل القرآن، لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم، فلما بعث محمد ﷺ ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا، كما قالوا: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَحْدُ لَمْ يَشْهَبَا رَصْدًا﴾ [الجن: ٩]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، قالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١٠، ١١]، أي على مذاهب شتى، كما قال العلماء: منهم المسلم والمشرک والنصراني والسني والبدعي ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، أخبروا أنهم لا يعجزونه: لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَةَ الْمَدْيَةَ بَيْنَهُ وَفَمَنْ يُمْرِنُ رَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٣، ١٤] أي الظالمون، يقال: أقسط إذا عدل، وقسط إذا جار وظلم، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . وَالْوُ أَسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنُقِنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا . وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ١٤-٢٢]، أي ملجأ ومعاذاً، ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَقِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا . حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٣، ٢٤].

٣٠٦/١١ / ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي ﷺ وآمنوا به وهم جن نصيبين، كما ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود، وروى أنه قرأ عليهم سورة الرحمن، وكان إذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد^(١).

ولما اجتمعوا بالنبي ﷺ سألوه الزاد لهم ولدوا بهم فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله

(١) الترمذي في التفسير (٣٢٩١) وقال: «حديث غريب».

عليه تجددونه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بكرة علفًا لدوابكم» قال النبي ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد لإخوانكم من الجن»^(١) وهذا النهي ثابت عنه من وجوه متعددة، وبذلك احتج العلماء على النهي عن الاستنجاء بذلك، وقالوا: فإذا منع من الاستنجاء بما للجن ولدوابهم فما أعد للإنس ولدوابهم من الطعام والعلف أولى وأحرى.

ومحمد ﷺ أرسل إلى جميع الإنس والجن، وهذا أعظم قدرًا عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام، فإنهم سخروا له يتصرف فيهم بحكم الملك، ومحمد ﷺ أرسل إليهم يأمرهم بما أمر الله به ورسوله، لأنه عبد الله ورسوله، ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك.

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع، وأما مؤمنوهم فجمهور العلماء على أنهم ٣٠٧/١١ يدخلون الجنة، وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس ولم يبعث من الجن رسول. لكن منهم النذر، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر.

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال:

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ونوابه.

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كان يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم، ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك، وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى فغاياته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول: كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل، كتمريضه/ وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم، وإما ٣٠٨/١١ في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص: إما فاسق وإما مذنّب غير فاسق، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات: مثل أن يستعين بهم على الحج، أو أن يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن

(١) مسلم في الصلاة (٤٥٠/ ١٥٠) والترمذي في التفسير (٣٢٥٨).

يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به .

وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن ، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعداات ، وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية ، وبين التليسات الشيطانية فيمكرون به بحسب اعتقاده ، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان أوهموه أنه يتتفع بتلك العبادة ، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل ممن صور ذلك الصنم على صورته من ملك أو نبي أو شيخ صالح ، فيظن أنه صالح ، وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان ، قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُرَّ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا : ٤٠ ، ٤١] .

٣٠٩/١١ /ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له ، ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون . فإن كان نصرانياً واستغاث بجرجس أو غيره ، جاء الشيطان في صورة جرجس أو من يستغيث به ، وإن كان منتسباً إلى الإسلام واستغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ المسلمين جاء في صورة ذلك الشيخ ، وإن كان من مشركي الهند جاء في صورة من يعظمه ذلك المشرك .

ثم إن الشيخ المستغاث به إن كان ممن له خبرة بالشرعية لم يعرفه الشيطان أنه تمثّل لأصحابه المستغيثين به ، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له بأقوالهم نقل أقوالهم له فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم ، وإنما هو بتوسط الشيطان .

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة ، فقال : يروني الجن شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به ، قال : فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه فيوصلون جوابي إليه .

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق إذا كذب بها من لم يعرفها وقال : إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة ، كما يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارج ، ودهن الضفادع ، وغير ذلك من الحيل الطبيعية فيعجب هؤلاء المشايخ ويقولون : نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل ، فلما ذكر لهم الخبير إنكم لصادقون في ذلك ، ولكن هذه الأحوال شيطانية أقروا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق ،

وتبين لهم من وجوه أنها من الشيطان، ورأوا أنها من الشياطين لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله، فلا تحصل عند ما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية، فعلموا أنها حيثئذ من مخارق الشيطان لأوليائه؛ لا من كرامات الرحمن لأوليائه.

والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله وسلم على محمد سيد رسله وأنبيائه وعلى آله وصحبه وأنصاره وأشياعه وخلفائه صلاة وسلامًا نستوجب بهما شفاعته « آمين ».

٣١١/١١ / وقال الشيخ الإمام العالم العلامة، العارف الرباني، المقذوف في قلبه النور القرآني، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية - رضي الله عنه وأرضاه :-

الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا إله سواه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتبه وهداه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات

٣١٢/١١ واللفظ بينهما ، فيجعل «المعجزة»/للنبي ، و«الكرامة» للولي ، وجماعهما الأمر الخارق للعادة .

فنقول : صفات الكمال ترجع إلى «ثلاثة» : العلم ، والقدرة ، والغنى ، وإن شئت أن تقول : العلم ، والقدرة . والقدرة إما على الفعل وهو التأثير ، وإما على الترك وهو الغنى ، والأول أجود . وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده ، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وكذلك قال نوح عليه السلام . فهذا أول أولي العزم ، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم كلاهما يتبرأ من ذلك . وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ تارة بعلم الغيب كقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يس : ٤٨] ، و﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وتارة بالتأثير ، كقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ فَيَمْلَأُ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] وتارة يعيرون عليه الحاجة البشرية ، كقوله : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ

وَيَسِّرْ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَزْيِيرًا . أَوْ يُنْفِقَ إِلَيْنَا كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿ [الفرقان : ٧ ، ٨] .

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الله ، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحى إليه، واتباع ما أوحى إليه هو الدين، وهو طاعة الله، وعبادته علما وعملا بالباطن والظاهر، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغنى عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس .

فما كان من الخوارق من « باب العلم » فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره . وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومنامًا ، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيا وإلهامًا ، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة، ويسمى كشفًا ومشاهدات، ومكاشفات ومخاطبات : فالسمع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله « كشفًا » ، و« مكاشفة » أي كشف له عنه .

/وما كان من « باب القدرة » فهو التأثير ، وقد يكون همة وصدقًا ودعوة مجابة، وقد ٣١٤/١١ يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه، كقوله : « من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة - وإنني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب » (١) . ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك .

وكذلك ما كان من « باب العلم والكشف » . قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور، كما قال النبي ﷺ في المبشرات : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » (٢) وكما قال النبي ﷺ : « أنتم شهداء الله في الأرض » (٣) .

وكل واحد « من الكشف والتأثير » قد يكون قائمًا به، وقد لا يكون قائمًا به، بل يكشف الله حاله ويصنع له من حيث لا يحتسب، كما قال يوسف بن أسباط : ما صدق الله عبد إلا صنع له . وقال أحمد بن حنبل : لو وضع الصدق على جرح لبرأ . لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضًا، وإن كان خرق عادة في ذلك الغير، فمعجزات الأنبياء وأعلامهم ودلائل نبوتهم تدخل في ذلك .

(١) أبو نعيم في الحلية ٣١٨/٨ ، ٣١٩ ، وكنز العمال (١١٦٠) ، وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أنس .

(٢) مسلم في الرؤيا (٨/٢٢٦٣) .

(٣) البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٦٠/٩٤٩) ، كلاهما عن أنس .

٣١٥/١١ / وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع « المعجزات والحوار » : أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل إخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم راحواله معهم، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء، تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه .

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من « باب العلم الخارق » وكذلك أخباره عن الأمور المستقبلية مثل مملكة أمته، وزوال مملكة فارس والروم، وقاتال الترك، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في « كتب دلائل النبوة »، و « سيرة الرسول » و « فضائله » و « كتب التفسير »، و « الحديث » و « المغازي » مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي، وسيرة ابن إسحاق، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد، ٣١٦/١١ والمدونة كصحيح البخاري، وغير ذلك مما هو مذكور أيضاً في « كتب أهل الكلام والجدل » : كإعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي، والرد على النصارى للقرطبي، ومصنفات كثيرة جداً، وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وكتاب شعياً، وحقوق، ودانيال، وأرميا وكذلك أخبار غير الأنبياء من الأخبار والرهبان وكذلك أخبار الجن والهواتف المطلقة، وأخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما، وكذلك المناومات وتعبيرها : كمنام كسرى وتعبير الموبدان، وكذا أخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم .

وأما « القدرة والتأثير » فإما أن يكون في العالم العلوي أو مادونه، وما دونه إما بسيط أو مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن، والحيوان إما ناطق وإما بهيم، فالعلوي كانشقاق القمر، ورد الشمس ليوشع بن نون، وكذلك ردها لما فاتت علياً الصلاة والنبى ﷺ نائم في حجره - إن صح الحديث - فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض . ومنهم من جعله موقوفاً كأبي الفرج بن الجوزي وهذا أصح . وكذلك معراجة إلى السموات .

٣١٧/١١ / وأما « الجو » فاستسقاؤه، واستصحاؤه غير مرة : كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى

المسجد الأقصى .

وأما «الأرض والماء» فكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء في عين تبوك وعين الحديدية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومزادة المرأة .

وأما «المركبات» فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبي طلحة، و في أسفاره، وجراب أبي هريرة ، ونخل جابر بن عبد الله ، وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه، وسقيه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة .

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل .

وكذلك من باب «القدرة» عصا موسى ﷺ وفلق البحر والقمل والضفادع والدم، وناقصة صالح، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ليعسى ، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون/وما يدخرون في بيوتهم .

٣١٨/١١

وفي الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها، وإنما الغرض التمثيل بها .

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من « باب الكشف والعلم» فمثل قول عمر في قصة سارية، و إخبار أبي بكر بأن يبطن زوجته أنثى ، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً ، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام .

و « القدرة» مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد ، و سفينة مولى رسول الله ﷺ وأبي مسلم الخولاني، وأشياء يطول شرحها فإن تعداد هذا مثل المطر، وإنما الغرض التمثيل بالشئ الذي سمعه أكثر الناس . وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه .

٣١٩/١١

فصل

الخارق كشفًا كان أو تأثيرًا إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعًا، إما واجب وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه كان سببًا للعذاب أو البغض ، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلك منها :

بلعام بن باعوراء^(١)، لكن قد يكون صاحبها معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة، فيكون من جنس برح العابد.

و «النهى» قد يعود إلى سبب الخارق وقد يعود إلى مقصوده، فالأول مثل أن يدعو الله دعاءً منهياً عنه اعتداءً عليه. وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفاً أو تأثيراً. والثاني أن يدعو على غيره بما لا يستحقه أو يدعو للظالم بالإعانة، ويعينه بهمة كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال؛ فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين غلبة أو يحدون، والناقصين نقصاً لا يلامون عليه كانوا برحمة. وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه. وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية، فإن من أتى بخارق على وجه منهى عنه أو لمقصود منهى عنه، فإما أن يكون معذوراً معفواً عنه كبرح، أو يكون متعمداً للكذب كبلعام.

فتخلص أن الخارق «ثلاثة أقسام»: محمود في الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين؛ فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة. فإن نفسك منجبة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة. قال الشيخ السهروردي في عوارفه: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدأ نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويعجبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن ٣٢١/١١ الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفنناً، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أغنى بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً. فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً

(١) انظر تفسير الطبري ٨٥/٩ مفصلاً.

وأهلية من الأول. فسيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع فما يبالي ولا ينقص بذلك . وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة .

فتعلم هذا، لأنه أصل كبير للطالين، والعلماء الزاهدين ، ومشايخ الصوفية .

٣٢٢/١١

فصل /

كلمات الله تعالى « نوعان » : كلمات كونية، وكلمات دينية . فكلماته الكونية هي : التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر »^(١) وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق الكشفية التأثرية .

و « النوع الثاني » الكلمات الدينية وهي : القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي : أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل بالأمر بما أمر الله به، كما أن حظ العبد عمومًا وخصوصًا من الأول العلم بالكونيات، والتأثير فيها، أي بموجبها .

فالأولى قدرية كونية والثانية شرعية دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرة الأولى التأثير في الكونيات، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات، وكما/ أن الأولى تنقسم إلى تأثير في نفسه، كمشييه على الماء ٣٢٣/١١ وطيرانه في الهواء وجلوسه على النار ، وإلى تأثير في غيره بإسقام وإصحاح، وإهلاك وإغناء وإفقار، فكذاك الثانية تنقسم إلى تأثير في نفسه بطاعته لله ورسوله ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنًا وظاهرًا، وإلى تأثير في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله؛ فيطاع في ذلك طاعة شرعية، بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة في الكلمات الدينيات . كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علمًا وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأمورًا به أمر إيجاب ولا استحباب، وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصًا مذمومًا إما أن يجعله مستحقًا للعقاب، وإما أن يجعله محرومًا من الثواب، وذلك لأن

(١) سبق تخريجه ص ١٥٠ .

العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه، وإما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلا في الدين، بل قد يجب عليه شكره، وقد يناله به إثم.

٣٢٤/١١ إذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة: إما أن يتعلق بالعلم والقدرة أو بالدين/فقط، أو بالكون فقط.

فالأول: كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّي أَدْخَلَنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجَنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية، والقدرة، والكونية عند الله بكلماته الكونيات، ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين، فإنها حجة على النبوة من الله وهي قدرية. وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ على نبوته، ومجيئه من الخوارق للعادات، فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة.

وأما القسم الثاني: فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبراً وأمرًا ويعمل به ويأمر به الناس، ويعلم بوقت نزول المطر وتغير السعر، وشفاء المريض، وقدم الغائب، ولقاء العدو، وله تأثير إما في الأناسي، وإما في غيرهم بإصحاح وإسقام وإهلاك، أو ولادة أو ولاية أو عزل. وجماع التأثير إما جلب منفعة كالمال والرياسة؛ وإما دفع مضرة كالعدو والمرض، أو لا واحد منهما مثل ركوب أسد بلا فائدة، أو إطفاء نار ونحو ذلك.

٣٢٥/١١ وأما الثالث: فمن يجتمع له الأمران؛ بأن يؤتي من الكشف/والتأثير الكوني ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي، وهو علم الدين والعمل به، والأمر به، ويؤتي من علم الدين والعمل به، ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني، بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية، أو أن تخرق له العادة في الأمور الدينية، بحيث ينال من العلوم الدينية، ومن العمل بها، ومن الأمر بها، ومن طاعة الخلق فيها، ما لم ينله غيره في مطرد العادة، فهذه أعظم الكرامات والمعجزات وهو حال نبينا محمد ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر وكل المسلمين.

فهذا القسم الثالث هو مقتضى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إذ الأول هو العبادة، والثاني هو الاستعانة، وهو حال نبينا محمد ﷺ والخواص من أمته المتمسكين بشرعته ومنهاجه باطنًا وظاهرًا، فإن كراماتهم كمعجزاته لم يخرجها إلا الحجة أو حاجة، فالحجة ليظهر بها دين الله ليؤمن الكافر ويخلص المنافق ويزداد الذين آمنوا إيمانًا، فكانت

فائدتها اتباع دين الله علماً وعملاً، كالمقصود بالجهاد، والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليها كالطعام والشراب وقت الحاجة إليه، أو دفع مضرة عنهم ككسر العدو بالخصي الذي رماهم به ف قيل له : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧] ، وكل من هذين يعود إلى منفعة الدين كالأكل والشرب وقتال العدو والصدقة على المسلمين ، فإن هذا من ٣٢٦/١١ جملة الدين والأعمال الصالحة .

وأما القسم الأول : وهو المتعلق بالدين فقط فيكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني ولا له فيه منفعة ، كحال كثير من الصحابة ، والتابعين وصالحى المسلمين، وعلمائهم وعبادهم ، مع أنه لابد أن يكون لهم حاجة أو انتفاعاً بشيء من الخوارق، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات ولا عمل بها، فانتفاء الخارق الكوني في حقه إما لانتفاء سببه وإما لانتفاء فائدته، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصاً، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصاً وقد لا يكون نقصاً، فإن كان لإخلاله بفعل واجب وترك محرم كان عدم الخارق نقصاً وهو سبب الضرر، وإن كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقرين السابقين وليس هو نقصاً عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين، وإن لم يكن كذلك بل لعدم اشتغاله بسبب بالكونيات التي لا يكون عدها ناقصاً لثواب لم يكن ذلك نقصاً، مثل من يمرض ولده ويذهب ماله فلا يدعو ليعافى أو يجىء ماله، أو يظلمه ظالم فلا يتوجه عليه لينتصر عليه .

وأما القسم الثاني : وهو صاحب الكشف والتأثير الكوني فقد تقدم أنه تارة يكون زيادة في دينه، وتارة يكون نقصاً، وتارة لا له ولا عليه وهذا غالب حال أهل الاستعانة ، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة،/ وهذا الثاني بمنزلة الملك والسلطان الذي قد يكون ٣٢٧/١١ صاحبه خليفة نبياً، فيكون خير أهل الأرض، وقد يكون ظالماً من شر الناس، وقد يكون ملكاً عادلاً فيكون من أوساط الناس، فإن العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب كالعلم بأحوالها والتأثير فيها بالملك وأسبابه، فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية، وأسباب هذا ظاهرة جسمانية . وبهذا تبين لك أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم، وخير عند الله وعند رسوله وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء .

وذلك من وجوه :

أحدها: أن علم الدين طلباً وخبراً لا ينال إلا من جهة الرسول ﷺ ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس، فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم، ولا يعلمه إلا هم وأتباعهم .

الثاني : أن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصالحون الذين هم أهل الجنة وأحباب الله، وصفوته وأحباؤه وأولياؤه، ولا يأمر به إلا هم.

٣٢٨/١١ / وأما التأثير الكوني : فقد يقع من كافر ومنافق وفاجر تأثيره في نفسه وفي غيره، كالأحوال الفاسدة والعين والسحر ، وكالملوك والجبابة المسلمين والسلطين الجبابرة، وما كان من العلم مختصاً بالصالحين أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون.

الثالث: أن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه في الآخرة ولا يضره. وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع في الآخرة بل قد يضره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِآثَاقِهَا وَآثَقُوا لَمَثُوبَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

الرابع : أن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة أو لا يكون، فإن لم يكن فيه فائدة؛ كالاطلاع على سيئات العباد وركوب السباع لغير حاجة، والاجتماع بالجن لغير فائدة، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر، فهذا لا منفعة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو بمنزلة العبث واللعب وإنما يستعظم هذا من لم ينله. وهو تحت القدرة والسلطان في الكون، مثل من يستعظم الملك أو طاعة الملوك لشخص وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة، فهو يستعظمه من جهة سببه لا من جهة منفعته كالمال والرياسة، ودفع مضرة كالعدو والمرض، فهذه المنفعة تنال بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق، ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى، وأما الآخر أيضاً فلا يحصل بالخوارق إلا مع الدين. والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق، بل الخوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة كحال نبينا محمد ﷺ. وكذلك المال والرياسة التي تحصل لأهل الدين بالخوارق إنما هو مع الدين. وإلا فالخوارق وحدها لا تؤثر في الدنيا إلا أثراً ضعيفاً.

فإن قيل : مجرد الخوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لا في الدين ولا في الدنيا فهي علامة طاعة النفوس له، فهو موجب الرياسة والسلطان، ثم يتوسط ذلك فتجتلب المنافع الدينية والدنيوية، وتدفع المضار الدينية والدنيوية.

قلت : نحن لم نتكلم إلا في منفعة الدين أو الخارق في نفسه من غير فعل الناس، وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول أولاً: الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع، فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره، إذ طاعة الأول أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلاً ودينياً، وأما الثانية فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس، كأصحاب

مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم وأهل البوادي والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين .

/ ثم نقول ثانيا: لو كان الخارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين لكان ٣٣٠/١١ غايته أن يكون ملكًا من الملوك، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون وكمقدمي الإسماعيلية ونحوهم، وقد قدمنا أن رياسة الدنيا التي ينالها الملوك بسياستهم و شجاعتهم وإعطائهم أعظم من الرياسة بالخارق المجرد، فإن هذه أكثر ما يكون مدة قربية .

الخامس : أن الدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير .

وأما الكشف أو التأثير فإن لم يقرن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال، فإنه إن سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه، وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالارواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها، - كما يفعله مولهو الأحمدية - فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشته، وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة لما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات، وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الأقسام والعزائم فقد عرض نفسه لعقوبتهم/ومحاربتهم، بل لو لم ٣٣١/١١ يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله أو شفاء المريض أو دفع العدو من السلطان والمحاربين - فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس ولم يكن عمله دينًا يتقرب به إلى الله كان كأنه قهرمان للناس يحفظ أموالهم، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه، إذ عمله من جنس عمل أولئك سواء .

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الديني فإنه يحابي بذلك أقوامًا ولا يعدل بينهم ، وربما أعان الظلمة بذلك كفعل بلعام وطوائف من هذه الأمة وغيرهم. وهذا يوجب له عداوة الناس التي هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله؛ لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة فمفئدة غالبية على مضرته والعاقبة للتقوى .

السادس : أن للدين علما وعملا إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[الطلاق : ٢ ، ٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنْ تَنْقُزُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا . وَإِذَا لَا تَجِدُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء : ٦٦ - ٦٨] ، وقال تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] .

وقال رسول الله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَنفِرَ لِمُتَوَسِّعِينَ﴾ [الحجر : ٧٥] رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد^(١) .

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله ﷺ : «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبني يبصر ، وبني يبطش ، وبني يمشي ، ولئن سألتني ل أعطيته ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه»^(٢) فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه ، وفيه أن محبوبه به يعلم سمعاً وبصراً ، وبه يعمل بطشاً وسعيًا ، وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع ، ويصرف عنه ما يستعيز به من المضار ، وهذا باب واسع .

وأما الخوارق فقد تكون ، مع الدين ، وقد تكون مع عدمه أو فساداه أو نقصه .

٣٣٣/١١ | السابع : أن الدين هو إقامة حق العبودية وهو فعل ما عليك وما أمرت به ، وأما الخوارق فهي من حق الربوبية إذا لم يؤمر العبد بها ، وإن كانت بسعى من العبد فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب ، والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه وما أمر به ، وأما اهتمامه بما يفعله الله إذا لم يؤمر بالاهتمام به فهو إما فضول فتكون لما فيها من المنافع كالمنافع السلطانية المالية التي يستعان بها على الدين ، كتكثير الطعام والشراب وطاعة الناس إذا رأوها ، ولما فيها من دفع المضار عن الدين بمنزلة الجهاد فيه دفع العدو وغلبته .

ثم هل الدين محتاج إليها في الأصل ، ولأن الإيمان بالنبوة لا يتم إلا بالخارق أو ليس بمحتاج في الخاصة بل في حق العامة . هذا نتكلم عليه .

وأنفع الخوارق الخارق الديني وهو حال نبينا محمد ﷺ . قال ﷺ : « ما من نبي إلا

(١) الترمذي في التفسير (٣١٢٧) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٦ .

وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين (١) . وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء ، ولهذا نجد كثيراً من المنحرفين منا إلى العيسوية يفرون من القرآن ، والقال إلى الحال ، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلى/القال ، ونبينا ﷺ صاحب القال والحال ، وصاحب القرآن والإيمان . ٣٣٤/١١

ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له ، لأن الخارق في مرتبة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، والدين في مرتبة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، فأما الخارق الذي لم يعن الدين فإما متاع دنيا ، أو مبعد صاحبه عن الله تعالى .

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع ، كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فمن جعلها هي المقصوده وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة فإن ذلك مأمور به ، وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة .

والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفاً من النار أو طلباً للجنة ، يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا ، ولعله يجتهد اجتهداً عظيماً في مثله وهذا خطأ ، ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه ، فهو يطلب الآية علامة وبرهاناً على صحة دينه ، كما /تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم ، فهذا أعذر لهم في ذلك . ٣٣٥/١١

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم ، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله .

فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات من الخوارق مالا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة .

(١) البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ، ومسلم في الإيمان (٢٣٩/١٥٢) ، كلاهما عن أبي هريرة .

فصل

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة: حسية وعقلية وكشفية وسمعية، ضرورية ونظرية وغير ذلك، وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك، وستكلم إن شاء الله تعالى على ما يتبع منها وما لا يتبع في الأحكام الشرعية، أعني الأحكام الشرعية على العلم بالكائنات من طريق الكشف يقظة ومناماً كما كتبه في الجهاد.

٣٣٦/١١ أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية وأمر/طلبية عملية.

فالأول: كالعلم بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، ويدخل في ذلك إخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك.

وقد يسمى هذا النوع أصول دين، ويسمى العقد الأكبر، ويسمى الجدل فيه بالعقل كلاماً، ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية، ويسمى علم المكاشفة.

والثاني: الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد، فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهياً عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب، وبعدمها يصير كافراً يحل دمه وماله، فهي من القسم الثاني.

٣٣٧/١١ وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة، وقد يتنازعون في بعض الطرق كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقيح والوجوب والحظر هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع، أم لا تعلم إلا بالسمع؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها؟ وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول مثل مسائل الصفات والقدر وغيرهما مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما عندهم على أن السمع لا تثبت به

تلك المسائل، فإثباتها بالعقل^(١) حتى يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء، وترزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستور على العرش .

ويزعم قوم من غالبية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً؛ بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا.

ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين.

/ ويزعم قوم من غالبية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء ، ومنهم من يقول لا ٣٣٨/١١ يصح الاستدلال به على الأمور العلمية لأنه ظني، وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها.

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل أو مشاهدة، باطنة أو ظاهرة ، عام أو خاص، فقد تنازع فيه بنو آدم تنازعاً كثيراً.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق التي يعرفها، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك. وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها، وخيار الأمور أوساطها.

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً، فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه . فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض ، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً.

/ وطائفة ممن تدعى السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة ٣٣٩/١١ يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوى، وكثير من المتصوفة والفقهاء يبنون على منامات وأذواق وخيالات يعتقدونها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة. وأوهام غير صادقة ﴿إِنْ يَنْتَهِوْنَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم : ٢٨] فنقول :

أما طرق الأحكام الشرعية التي نتكلم عليها في أصول الفقه فهي - بإجماع المسلمين -

(١) بالأصل سقط، ولعل ما أثبت هنا هو المقصود.

« الكتاب » لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

والثاني: «السنة المتواترة» التي لا تخالف ظاهر القرآن، بل تفسره، مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، ونصب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة، وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة.

وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال: تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضاً إلا الخوارج، فإن من قولهم - أو قول بعضهم - مخالفة السنة، حيث قال أولهم للنبي ﷺ في وجهه: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله^(١). ويحكى عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ ٣٤٠/١١ إلا فيما بلغه عن الله/من القرآن والسنة المفسرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. وقال النبي ﷺ لأولهم: «لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»^(٢) فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه، فقد اتبع ظالماً كاذباً، وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال من هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيامني من في السماء ولا تأمنوني؟»^(٣) أو كما قال. يقول ﷺ: إن أداء الأمانة في الوحي أعظم والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسمه.

وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعنًا في النقل لا ردًا للمنقول، كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك.

الطريق الثالث: «السنن المتواترة» عن رسول الله ﷺ؛ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها، أو برواية الثقات لها. وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم، وقد أنكرها بعض أهل الكلام. وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم، فلم يفرقوا بين المتلقي بالقبول وغيره، وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيراً منها بشروط اشتراطها، ومعارضات دفعها بها ووضعها، كما يرد بعضهم بعضاً، لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم، أو لأنه خلاف الأصول، أو قياس الأصول، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه، أو غير ذلك من المسائل

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤/١٠٤٣-١٤٨)، وأحمد ٦٨/٣، ٧٣، كلهم عن

أبي سعيد الخدري.

(٢، ٣) نفس السابق.

المعروفة في كتب الفقه والحديث وأصول الفقه.

الطريق الرابع: الإجماع، وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً، ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم، والإجماع السكوتي وغير ذلك.

الطريق الخامس: القياس على النص والإجماع، وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء، لكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص، وحتى رد به النصوص، وحتى استعمل منه الفاسد، ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأساً، وهي مسألة كبيرة والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقص.

/الطريق السادس: «الاستصحاب»، وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه ٣٤٢/١١ بالشرع، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق، وهل هو حجة في اعتقاد عدم؟ فيه خلاف، وما يشبهه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي، مثل أن يقال: لو كانت الأضحية أو الوتر واجباً لنصب الشرع عليه دليلاً شرعياً، إذ وجوب هذا لا يعلم بدون الشرع، ولا دليل، فلا وجوب.

فالأول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له، وهذا استدلال بعدم الدليل السمعي المثبت على عدم الحكم، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي، كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وما توجب الشريعة نقله، وما يعلم من دين أهلها وعاداتهم أنهم ينقلونه على أنه لم يكن، كالاستدلال بذلك على عدم زيادة في القرآن وفي الشرائع الظاهرة، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرهما، ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار وسيرة النبي ﷺ وخلفائه انتفاء أمور من هذا، لا يعلم انتفاءها غيرهم ولعلمهم بما ينفيها من أمور منقولة يعلمونها هم، ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها، فإن وجود أحد الضدين ينفي الآخر، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

الطريق السابع: «المصالح المرسلة»، وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة ٣٤٣/١١ راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه؛ فهذه الطريق فيها خلاف مشهور. فالفقهاء يسمونها «المصالح المرسلة». ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدتهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل

مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة ، لكن بعض الناس يخص المصالح المرسله بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان. وليس كذلك، بل المصالح المرسله في جلب المنافع وفي دفع المضار، وما ذكره من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين.

وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهاديات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي. فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر.

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد ٣٤٤/١١ يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه، وربما قدم على المصالح المرسله كلاماً بخلاف النصوص، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

وحجة الأول : أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها، وحجة الثاني: أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصاً ولا قياساً.

والقول بالمصالح المرسله يشرع من الدين ما لم يأذن به الله غالباً. وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك. فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن كالاستخراج ، وهو رؤية الشيء حسناً كما أن الاستقباح رؤيته قبيحاً، والحسن هو المصلحة ، فالاستحسان والاستصلاح متقاربان، والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن، لكن بين هذه فروق .

والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن ٣٤٥/١١ كان/الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له، إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر أو أنه ليس بمصلحة ، وإن اعتقده مصلحة، لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ

وَأَتَمُّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴿ [البقرة: ٢١٩].

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبه منفعة أو مصلحة نافعا وحقا وصوابا ولم يكن كذلك، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا، ومنفعة لهم، فقد ﴿صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد زين لهم سوء عملهم فأروه حسنا، فإذا كان الإنسان يرى حسنا ما هو سيئ كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب. وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا. فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا، وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان. فإن الناس كما أنهم في باب الفتوى والحديث/يخطئون تارة ويتعمدون الكذب ٣٤٦/١١ أخرى، فكذلك هم في أحوال الديانات، وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم وقد يعتقدون أنه ليس بظلم هو ظلم، فإن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فتارة يجهل وتارة يظلم: ذلك في قوة علمه وهذا في قوة عمله.

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول وبين أهل الإرادة والعمل، فذلك يقول: هذا جائز أو حسن بناء على ما رآه وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريره أو اعتقاد أنه خير له كما يجد نفعا في مثل السماع المحدث: سماع المكاء والتصدية والبراع التي يقال لها: الشبابة والصفارة والأوتار وغير ذلك، وهذا يفعله لما يجده من لذته وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن.

وهذا يقول: هذا جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة، وهو نظير المقالات المبتدعة. وهذا يقول: هو حق لدلالة القياس العقلي عليه. وهذا يقول: يجوز ويجب اعتقادها وإدخالها في الدين إذا كانت كذلك، وكذلك سياسات ولادة الأمور من الولاة والقضاة وغير ذلك.

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وبين النافع والضار،/والمصلحة والمفسدة، ولا يمكن المؤمن أن يدفع ٣٤٧/١١ عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للإنسان والمنافي له واللذيذ والاليم - فإنه قد يعلم

بالعقل ، هذا في الأفعال .

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن منه قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، وقوله : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده ، وأن العالم أكمل من الجاهل ، وأن الصادق أكمل من الكاذب - فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل . وإنما اختلفوا في أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة . وأنه هل « باب التحسين » واحد في الخالق والمخلوق .

فأما الوجهان الأولان فثابتان في أنفسهما ، ومنهما ما يعلم بالعقل : الأول في الحق المقصود ، والثاني في الحق الموجود . (الأول) متعلق بحب القلب وبغضه وإرادته وكرهاته وخطابه بالأمر والنهي . (الثاني) متعلق بتصديقه وتكذيبه وإثباته ونفيه وخطابه الخبري المشتمل على النفي والإثبات ، والحق والباطل يتناول النوعين ، فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت ، والباطل بمعنى المعلوم المنتفي ، والحق بإزاء ما ينبغي قصده وطلبه وعمله ، وهو النافع . والباطل بإزاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه ولا عمله ، وهو / غير النافع . والمنفعة تعود إلى حصول النعمة واللذة والسعادة التي هي حصول اللذة ، ودفع الألم هو حصول المطلوب ، وزوال المهرب . حصول النعيم وزوال العذاب . وحصول الخير وزوال الشر . ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتاً دائماً ، وقد يكون منقطعاً لا سيما إذا كان زمناً يسيراً فيستعمل الباطل كثيراً بإزاء ما لا يبقى من المنفعة ، وبإزاء ما لا يدوم من الوجود . كما يقال : الموت حق والحياة باطل ، وحقيقته أنه يستعمل بإزاء ما ليس من المنافع خالصاً أو راجحاً ، كما تقدم القول فيه فيما يزهد فيه ، وهو ما لبس بنافع ، والمنفعة المطلقة هي الخالصة أو الراجحة ، وأما ما يفوت أرجح منها أو يعقب ضرراً ليس هو دونها فإنها باطل في الاعتبار ، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة . وأما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة فهذا لا منفعة فيه بحال . فهذه الأمور التي يشرع الزهد فيها وتركها وهي باطل ؛ ولذلك ما نهى الله عنه ورسوله باطل ممتنع أن يكون مشتملاً على منفعة خالصة أو راجحة . ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة لقوله : ﴿لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتُكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسُ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٤] . وأخبر أن صدقة المرائي والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له . وكذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالُكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وكذلك الإحباط في / مثل قوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] ولهذا تسميه الفقهاء العقود .

والعبادات بعضها صحيح ، وبعضها باطل ، وهو ما لم يحصل به مقصوده ولم يترتب

عليه أثره، فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه. ومن هذا قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَتَّخِذُهَا ظَنَمَانٌ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمَلَكَنَّهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة ليست مطابقة ولا حقًا، كما أن الأعمال ليست نافعة.

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة إن لم يكن فيها منفعة، كقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»^(١) فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال، قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَإِذْهُبْ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ - ٣].

/ وإذا كان كذلك وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه ٣٥٠/١١
وقت الحاجة إليه، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لأن ما لم يرد به وجهه إما أن لا ينفع بحال، وإما أن ينفع في الدنيا أو في الآخرة. فالأول ظاهر، وكذلك منفعة في الآخرة بعد الموت، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله. وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور، وقد يجزى بأعماله في الدنيا. لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضرراً أعظم منها وتنفوت أنفع منها وأبقى فهي باطلة أيضاً، فثبت أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وإن كان فيه لذة مآ.

وأما الكائنات فقد كانت معدومة منتفية، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكما قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر قول ليبد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢) وأنها تجمع الحق الموجود والحق المقصود، وكل موجود بدون الله باطل، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل، وعلى هذين فقد فسر قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]: إلا ما أريد به وجهه، وكل شيء معدوم إلا من جهته. هذا على قول، وأما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف وبه فسر الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - في رده على الجهمية والزنادقة قال أحمد: ٣٥١/١١
وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وذلك أن الله أنزل

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٧٣/٢٧٢٢) وأبو داود في الوتر (١٥٤٨).

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤٠) ومسلم في الشعر (٣/٢٢٥٦ - ٦).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون فقال: كل شيء من الحيوان هالك - يعني ميتاً - إلا وجهه، فإنه حي لا يموت، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت، ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم أن الجنة والنار تفنيان.

وقد تبين مما ذكرناه أن الحسن هو الحق والصدق والنافع والمصلحة والحكمة والصواب. وأن الشيء القبيح هو الباطل والكذب والضار والمفسدة والسفه والخطأ.

وأما مواضع الاشتباه والتزاع واختلاف الخلائق فموضع واحد، وذلك أن فعل الله كله حسن جميل، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَنْفَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١) وهو حكم عدل، قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ شَيْئًا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام: ٧٣]. وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملاً غير مفسر فإذا فسر تنازعوا فيه.

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان، وأنه لا يخلو عن أن يكون عملاً من الأعمال، أو أن يكون ألماً من الآلام الواقعة بالحيوان، وذلك العمل القبيح والألم شره من ضرره، وهذا العمل والتألم: المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء، وإن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق، أو تعوض بنفع لاحق، وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون: بل الجميع خلقه، وهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع، والخير والشر بالنسبة إليه. ويقول هؤلاء: إنه لا يتصور أن يفعل ظلماً ولا سفهاً أصلاً، بل لو فرض أنه فعل أي شيء كان فعله حكمة وعدلاً وحسناً، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه وهو لم ينهه أحد، ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم، وعقوبة المحسن، ورفع درجات الكفار والمنافقين.

٣٥٣/١١ والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد ولا يتضرر بمعصيتهم، لكن الأولون يقولون: الإحسان إلى الغير حسن لذاته وإن لم يعد إلى المحسن منه فائدة.

(١) مسلم في الإيمان (١٤٧/٩١)، عن عبد الله بن مسعود، وأحمد ٣/١٣٣، ١٣٤، عن أبي ریحانة.

والآخرون يقولون: ما حسن منا حسن منه، وما قبح منا قبح منه، والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون، والأولون يقولون: إذا أمر بالشئ فقد أَرَادَهُ منا. لا يعقل الحسن والقبح إلا ما ينفع أو يضر، كنعو ما يأمر الواحد منا غيره بشئ فإنه لا بد أن يريده منه ويعينه عليه، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختياراً، وإنما كفرهم وفسقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره. وآخرون يقولون: الأمر ليس بمستلزم للإرادة أصلاً، وقد بينت التوسط بين هذين في غير هذا الموضع، وكذلك أمره. والأولون يقولون: لا يأمر إلا بما فيه مصلحة العباد، والآخرون يقولون: أمره لا يتوقف على المصلحة.

وهنا مقدمات، تكشف هذه المشكلات .

إحداها : أنه ليس ما حسن منه حسن منا وليس ما قبح منه يقبح منا ، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة، ويقبح لجلبه المضرة، ويحسن لأننا أمرنا به، ويقبح لأننا نهينا عنه ، وهذان الوجهان متفتيان في حق الله تعالى قطعاً، ولو كان/الفعل يحسن باعتبار آخر كما قال بعض الشيوخ :

٣٥٤/١١

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك إذاكا

المقدمة الثانية: إن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا ، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل، وإن فسر ذلك بالنافع والضار والمكمل والمنقّص فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه تارة تكون كاشفة للصفات الفعلية ومؤكدة لها وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك، وإن الفعل تارة يكون حسنة من جهة نفسه، وتارة من جهة الأمر به وتارة من الجهتين جميعاً. ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتية لم يحسن إلا لتعلق الأمر به وإن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط ، فقد أنكر ما جاءت به الشرائع من المصالح والمفاسد، والمعروف والمنكر، وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها، وأنكر خاصة الفقه في الدين الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها.

المقدمة الثالثة: أن الله خلق كل شئ وهو على كل شئ قدير. ومن جعل شيئاً من الأعمال خارجاً عن قدرته ومشيئته فقد أُلْحِدَ في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدريّة.

المقدمة الرابعة: أن الله إذا أمر العبد بشئ فقد أَرَادَهُ منه/إرادة شرعية دينية، وإن لم/٣٥٥/١١ يرده منه إرادة قدرية كونية، فإثبات إرادته في الأمر مطلقاً خطأ، ونفيها عن الأمر مطلقاً خطأ، وإنما الصواب التفصيل كما جاء في التنزيل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ

الْمُسَرِّ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ [أَنْ يُخَوِّفَ] ^(١) عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأمثال ذلك كثير.

المقدمة الخامسة: أن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية والأمر الديني، وكذلك بغضه وغضبه وسخطه مستلزم لعدم الإرادة الدينية فالمحبة والرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة . هذا قول جمهور أهل السنة . ومن قال: إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدريّة وكثير من أهل الإثبات، فإنه يستلزم أحد الأمرين : إما أن الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها ديناً فقد كره كونها وأنها واقعة بدون مشيئته وإرادته، وهذا قول القدريّة، أو يقول: إنه لما كان مريداً لها شاءها فهو محب لها راض بها كما تقوله طائفة من أهل الإثبات . وكلا القولين فيه ما فيه، فإن الله تعالى يحب المتقين ويحب المقسطين وقد رضي عن المؤمنين ، ويحب ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، وليس هذا المعنى ثابتاً في الكفار والفجار والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب كل مختال فخور، ومع هذا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأحسن ما يتعذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات: إن المحبة بمعنى الإرادة أنه أحبها كما أرادها كوناً . فكذاك أحبها ورضيها كوناً . وهذا فيه نظر مذكور في غير هذا الموضع .

فإن قيل: تقسيم الإرادة لا يعرف في حقنا، بل إن الأمر منه بالشئ إما يريد أو لا يريد، وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف في حقنا فيقال: وهذا هو الواجب فإن الله تعالى ليس كمثله شئ، وليس أمره لنا كأمر الواحد منا لعبده وخدمه، وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده فإما أن يأمره لحاجته إليه أو إلى المأمور به أو لحاجته إلى الأمر فقط، فالأول كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له، فإن هداية الخلق وإرشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم، والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] .

٣٥٧/١١ والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى/أمرهم وإنما أمرهم

(١) في المطبوعة: «ليخفف»، والصواب ما أثبتناه .

إحساناً منه ونعمة أنعم بها عليهم، فأمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم. وإرسال الرسل، وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨] فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامثال فقد تمت النعمة في حقه كما قال: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، وهؤلاء هم المؤمنون. ومن لم ينعم عليه بالامثال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقى لما بادل نعمة الله كفرًا كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] والأمر والنهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفار، كإنزال المطر وإنبات الرزق هو نعمة عامة وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى كذلك مشيئته لما شاء من المخلوقات وأعيانها وأفعالها لا يوجب أن يحب كل شيء منها فإذا أمر العبد بأمر فذاك إرشاد ودلالة، فإن فعل المأمور به صار محبوبًا لله، وإلا لم يكن محبوبًا له وإن كان مرادًا له، وإرادته له تكوينًا لمعنى آخر. فالتكوين غير التشريع.

فإن قيل: المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب/والمحبوب ويوجب ٣٥٨/١١ للمحب بدرك محبوبه فرحًا ولذة وسرورًا، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغض والمبغض، وذلك يقتضي للمبغض بدرك المبغض أذى وبغضًا ونحو ذلك، والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه، وما لا يضره كيف يبغضه؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه وهو غني عن العالمين، وقد قال تعالى - أي في الحديث القدسي -: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»^(١) فلهذا فسرت المحبة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضرر. فيقال الجواب من وجهين:

أحدهما: الإلزام، وهو أن نقول: الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المرید والمراد، وملائمته في ذلك تقتضي الحاجة، وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلا لا يكرهه ولا يدفعه، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة، فإن الواحد منا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة، وإنما يضر غيره

(١) سبق تخريجه ص ٢٠.

الجلب منفعة أو دفع مضرة، فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبتته نظير ما يلزمه فيما نفاه لم يكن إثبات أحدهما ونفي الأخرى أولى من العكس، ولو عكس ٣٥٩/١١ عاكس فنفي ما أثبتته من الإرادة/وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق، وحيثنذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وإن ذلك يستلزم الإرادة، وأما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص، وحيثنذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم، إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور.

الجواب الثاني: إن الذي يعلم قطعاً هو أن الله قديم واجب الوجود كامل، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر، فإن الله غني واجب بنفسه، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته. وأن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى ذاته، و معلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه، وأنه موجود بنفسه، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه، إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه، وهو غني بنفسه.

وأما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه فهو باطل فإنه محتاج إلى نفسه، وفي إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد، ولا خالق إلا الله تعالى، فإذا كان سبحانه عليماً يحب العلم، عفواً ٣٦٠/١١ عفواً يحب العفو، جميلاً يحب الجمال، نظيفاً يحب النظافة، طيباً يحب الطيب، وهو يحب المحسنين والمتقين والمقسطين، وهو سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة، والأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو يحب نفسه ويثنى بنفسه على نفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه، فالعبد المؤمن يحب نفسه، ويحب في الله من أحب الله وأحبه الله، فالله سبحانه أولى بأن يحب نفسه، ويحب في نفسه عباده المؤمنين، ويبغض الكافرين، ويرضى عن هؤلاء ويفرح بهم، ويفرح بتوبة عبده التائب من أولئك، ويمقت الكفار ويبغضهم، ويحب حمد نفسه والثناء عليه، كما قال النبي ﷺ للأسود بن سريع لما قال: «إني حمدت ربي بمحامد فقال: «إن ربك يحب الحمد» (١) وقال ﷺ: «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل، ولا أحد أصبر على أذى من الله، يجعلون له ولداً وشريكاً وهو يعافهم

(١) أحمد ٤٣٥/٣، ٢٤/٤.

ويرزقهم^(١) فهو يفرح بما يحبه، ويؤذيه ما يبغضه، ويصبر على ما يؤذيه، وحبه، ورضاه وفرحه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله وكل ذلك من صفاته وأفعاله، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، وإذا فرح ورضي بما فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكنتهم وصبر على أذاهم بحكمته/ فلم يفتقر إلى غيره، ولم يخرج شيء عن مشيئته ولم يفعل أحد ما لا ٣٦١/١١ يريد، وهذا قول عامة القدرية ونهاية الكمال والعزة.

وأما الإمكان لو افتقر وجوده إلى فرح غيره، وأما الحدوث فيبني على قيام الصفات فيلزم منه حدوثه، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن ما سلكه الجهمية في نفي الصفات فمبناه على القياس الفاسد المحض وله شرح مذكور في غير هذا الموضع.

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها في غاية الإحكام والإتقان وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص، والإثبات لكل كمال، وأنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً؛ بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله، وأنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وأفعاله لم يكن كاملاً بغيره ولا مفتقراً إلى سواه، بل هو الغني ونحن الفقراء، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقتته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد، وله الثناء الحسن الذي لا تحصىه العباد، وإنما هو كما أثنى على نفسه، له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [٩٣-٩٥].

/فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره وما يتصل به من صفاته وأفعاله من محبته ٣٦٢/١١ ورضاه وفرحه بالمحبوب وببغضه وصبره على ما يؤذيه هي متعلقة بمسائل القدر ومسائل الشريعة، والمتهاج الذي هو المسؤول عنه ومسائل الصفات ومسائل الثواب والعقاب والوعد والوعيد، وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة وهي متعلقة به وبخلقه.

وهي في عمومها وشمولها وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية والفعالية،

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٠٣)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٠ / ٣٢ - ٣٥)، كلاهما عن عبد الله بن مسعود بلفظ قريب.

ومسألة الذات والحقيقة والحد وما يتصل بذلك من مسائل الصفات والكلام في حلول الحوادث ونفي الجسم وما في ذلك من تفصيل وتحقيق.

فإن المعطلة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة.

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار، ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه، الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وفطرت عليه الخلائق، ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية، والله أعلم.

اقال شيخ الإسلام - قدس الله روحه - :

٣٦٣/١١

فصل

تكلم طائفة من الصوفية في «خاتم الأولياء» ، وعظموا أمره كالحكيم الترمذي - وهو من غلطاته ، فإن الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربي ، فإنه كثير التخليط ، لاسيما في الاتحاد - وابن عربي وغيرهم ، وادعى جماعة كل واحد أنه هو ، كابن عربي ، وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية ، أو الكاملة ، أو نحو ذلك ؛ لئلا يلزمه ألا يخلق بعده لله ولي ، وربما غلوا فيه ، كما فعل ابن عربي في فصوصه فجعلوه مُمدًّا في الباطن لخاتم الأنبياء ، تبعًا لغلوهم الباطل ، حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة ، موافقة لغلاة المتفلسفة الذين قد يجعلون الفيلسوف الكامل فوق النبي .

وكذلك جهال القدريّة ، والأحمدية ، واليونسية ، قد يفضلون شيخهم / على النبي ، أو ٣٦٤/١١ غيره من الأنبياء ، وربما ادعوا في شيخهم نوعًا من الإلهية .

وكذلك طائفة من السعدية : يفضلون الولي على النبي . وقال بعضهم : يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر ، وكذلك غالبية الرافضة ، الذين قد يجعلون الإمام كان ممدًّا للنبي في الباطن ، كما قد يجعلونه إلهًا ، فأما الغلو في ولي غير النبي حتى يفضل على النبي ، سواء سُمي وليًا أو إمامًا ، أو فيلسوفًا ، وانتظارهم للمتظر الذي هو : محمد بن الحسن ، أو إسماعيل بن جعفر ، نظير ارتباط الصوفية على الغوث ، وعلى خاتم الأولياء ، فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة ، وما عليه إجماع الأمة ، فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين . فغاية من بعد النبي أن يكون صديقًا ، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقًا ؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

وبهذا استدلت على ما ذكره طائفة : كالقاضي أبي يعلى ، وغيره من أصحابنا ، وأبي المعالي ، وأظن الباقلاني ، من الإجماع على أنها لم تكن نبيه ليقرروا كرامات الأولياء ، بما جرى على يديها ، فإن بعض الناس زعم أنها كانت نبيه ، فاستدلت بهذه الآية ، وفرح مخاطبي بهذه الحجة ، فإن الله ذكر ذلك في بيان غاية فضلها ، دفعًا لغلو النصارى فيها ،

كما يقال لمن ادعى في رجل أنه ملك من الملوك ، أو غني من الأغنياء ونحو ذلك ، فيقال : ٣٦٥/١١

ما هو إلا رئيس قرية، أو صاحب بستان، فيذكر غاية ما له من الرثاسة والمال، فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة أولها مرتبة فوق الصديقية لذكرت.

ولهذا كان أصل الغلو في النصارى، ويشابههم في بعضه غالبية المتصوفة والشيعة، ومن انضم إليهم من الصابئة المتفلسفة، فالرد عليهم من جهة واحدة، وقال النبي ﷺ في أبي بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين»^(١) فهذه المسألة لشرحها موضع غير هذا وهي أن كل من سوى الأنبياء دونهم.

وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء، فنقول: هذه تسمية باطلة، لا أصل لها في كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولاً عاماً، لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقى من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء الله.

ونقول ثانياً: إن آخر الأولياء، أو خاتمهم، سواء كان المحقق، أو فرض مقدر، ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء، فضلاً عن أن يكون أفضلهم، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء، لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم. توهّموا من ذلك ٣٦٦/١١ قياساً بمجرد الاشتراك في لفظ خاتم. فقالوا: خاتم الأولياء أفضلهم. وهذا خطأ في الاستدلال، فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتماً، بل لأدلة أخرى دلت على ذلك.

ثم نقول: بل أول الأولياء في هذه الأمة، وسابقتهم هو أفضلهم، فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء. وأفضل الأولياء سابقتهم إلى خاتم الأنبياء، وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له، فكلما قرب من النبي كان أفضل وكلما بعد عنه كان بالعكس، بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي من الله. فليس في تأخره زمان ما يوجب تأخر مرتبته، بل قد يجمع الله له ما فرقه في غيره من الأنبياء، فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم. هو الذي دل عليه الكتاب والسنن المتواترة وإجماع السلف، ويتصل بهذا ظن طوائف أن من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة. ويوجد هذا في المنتسبين إلى العلم، وإلى العبادة، وإلى الجهاد، والإمارة، والملك. حتى في المتفهمة من قال: أبو حنيفة أفقه من علي. وقال بعضهم: يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر.

وَيَتَمَسَّكُونَ تَارَةً بِشَبْهَةِ عَقْلِيَّةٍ، أَوْ ذَوْقِيَّةٍ، مِنْ جِهَةٍ أَنْ مَتَأَخَّرِي كُلِّ فَنٍ يَحْكُمُونَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ. فَإِنَّهُمْ يَسْتَفِيدُونَ عُلُومَ الْأَوَّلِينَ مَعَ الْعُلُومِ الَّتِي اخْتَصَّصُوا بِهَا، كَمَا هُوَ مُوجُودٌ

(١) ابن ماجه في المقدمة (١٠٠) والترمذى فى المناقب (٣٦٦٤ - ٣٦٦٦) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه».

في أهل الحساب، والطبايعين والمنجمين وغيرهم.

/ومن جهة الذوق ، وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين ، من المشاهدات العرفانية، ٣٦٧/١١ والكرامات الخارقة ، ما لم ينقل مثله عن السلف، وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله: «للعامل منهم أجر خمسين منكم»^(١) وقوله: «أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره»^(٢) ، وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود، وعمران ابن حصين^(٣) وما هو في الصحيحين ، أو أحدهما، من قوله: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»^(٤) وقوله: «والذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٥) وغير ذلك من الأحاديث.

وخلاف إجماع السلف : كقول ابن مسعود : إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد. وقول حذيفة: يا معشر القراء، استقيموا، وخذوا سبيل من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم مينا وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً. وقول ابن مسعود: من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله ٣٦٨/١١ لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب في غير هذا الموضع، بل خلاف نصوص القرآن في مثل قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ﴾ الآية [الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وغير ذلك، فإنه لم يكن الغرض بهذا الموضع هذه المسألة، وإنما الغرض: الكلام على خاتم الأولياء.

ومما يشبه هذا ظن طائفة كابن هود، وابن سبعين، والنفري والتلمساني: إن الشيء المتأخر ينبغي أن يكون أفضل من المتقدم، لاعتقادهم أن العالم متنقل من الابتداء إلى الانتهاء، كالصبي الذي يكبر بعد صغره، والنبات الذي ينمو بعد ضعفه، وبينون على ذلك أن المسيح أفضل من موسى، ويبعدون ذلك إلى أن يجعلوا بعد محمد واحداً من

(١) أبو داود في الملاحم (٤٣٤١) ، والترمذي في التفسير (٣٠٥٨) ، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤) ، كلهم عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) السيوطي في الجامع الصغير (١٦٢٠) وعزاه لابن عساكر وأشار إليه بالحسن .

(٣) بياض بالأصل .

(٤) سبق تخريجه ص ٣٥ .

(٥) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠ / ٢٢١) .

البشر أكمل منه، كما تقوله الإسماعيلية، والقرامطة، والباطنية، فليس على هذا دليل أصلاً. إن كل من تأخر زمانه من نوع، يكون أفضل ذلك النوع، فلا هو مطرد ولا منعكس. بل إبراهيم الخليل قد ثبت بقول النبي ﷺ: «أنه خير البرية»^(١) أي بعد النبي. وكذلك قال الزبيد بن خيثم: لا أفضل على نبينا أحداً، ولا أفضل على إبراهيم بعد نبينا أحداً، وبعده جميع الأنبياء المتبعين لمثله مثل موسى وعيسى وغيرهما، وكذلك أنبياء بني إسرائيل كلهم بعد موسى، وقد أجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى: على أن موسى أفضل من غيره من أنبياء بني إسرائيل، إلا ما يتنازعون فيه من المسيح.

والقرآن قد شهد في آيتين لأولي العزم فقال في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣] فهؤلاء الخمسة أولو العزم، وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح: أنهم يترادون الشفاعة في أهل الموقف بعد آدم. فيجب تفضيلهم على بنيتهم، وفيه تفضيل لمتقدم على متأخر، ولتأخر على متقدم.

وأصل الغلط في هذا الباب: أن تفضيل الأنبياء، أو الأولياء أو العلماء أو الأمراء بالتقدم في الزمان، أو التأخر أصل باطل، فتارة يكون الفضل في متقدم النوع، وتارة في متأخر النوع، ولهذا يوجد في أهل النحو، والطب والحساب ما يفضل فيه المتقدم كبطليموس، وسيبويه، وبقرات وتارة بالعكس.

٣٧٠/١١ / وأما توهمهم أن متأخري كل فن أحق من متقدميه، لأنهم كملوه، فهذا منتقض أولاً، ليس بمطرد، فإن كتاب سيبويه في العربية لم يصنف بعده مثله، بل وكتاب بطليموس، بل نصوص بقراط لم يصنف بعدها أكمل منها.

ثم نقول: هذا قد يسلم في الفنون التي تنال: بالقياس، والرأي والحيلة. أما الفضائل المتعلقة باتباع الأنبياء فكل من كان إلى الأنبياء أقرب مع كمال فطرته: كان تلقيه عنهم أعظم، وما يحسن فيه هو من الفضائل الدينية، المأخوذة عن الأنبياء، ولهذا كان من يخالف ذلك هو من المبتدعة، الخارج عن سنن الأنبياء، المعتقد أن له نصيباً من العلوم والأحوال خارجاً عن طور الأنبياء، فكل من كان بالنبوة وقدرها أعظم، كان رسوخه في هذه المسألة أشد.

وأما الأذواق والكرامات فممنها ما هو باطل، والحق منه كان للسلف أكمل، وأفضل

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٦٩ / ١٥٠).

بلا شك ، وخرق العادة تارة يكون لحاجة العبد إلى ذلك ، وقد يكون أفضل منه لا تخرق له تلك العادة ، فإن خرقها له سبب ، وله غاية ، فالكامل قد يرتقى عن ذلك السبب ، وقد لا يحتاج إلى تلك الغاية المقصودة بها ، ومع هذا فما للمتأخرين كرامة إلا وللسلف من نوعها ما هو أكمل منها .

/وأما قوله: «لهم أجر خمسين منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على ٣٧١/١١ الخير أعواناً»^(١) فهذا صحيح ، إذا عمل الواحد من المتأخرين ، مثل عمل عمله بعض المتقدمين كان له أجر خمسين ، لكن لا يتصور أن بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكابر السابقين ، كأبي بكر وعمر ، فإنه ما بقى يبعث نبي مثل محمد ، يعمل معه مثلما عملوا مع محمد ﷺ .

وأما قوله: «أمتي كالغيث لا يدري أوله خير أم آخره»^(٢) ، مع أن فيه لنا فمعناه: في المتأخرين ما يشبه المتقدمين ، ويقاربهم حتى يبقى لقوة المشابهة والمقارنة ، لا يدري الذي ينظر إليه ، أهذا خير أم هذا؟ وإن كان أحدهما في نفس الأمر خيراً . فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأن فيهم من يقارب السابقين ، كما جاء في الحديث الآخر: «خير أمتي أولها وآخرها . وبين ذلك ثبج أو عوج . وددت أني رأيت إخواني » قالوا: أو لسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي»^(٣) هو تفضيل للصحابة ، فإن لهم خصوصية الصحبة التي هي أكمل من مجرد الأخوة .

وكذلك قوله: «أي الناس أعجب إيماناً» إلى قوله: «قوم يأتون بعدي يؤمنون بالورق المعلق»^(٤) هو يدل على أن إيمانهم عجب ، أعجب من إيمان غيرهم ، ولا يدل على أنهم أفضل ، فإن في الحديث أنهم/ذكروا الملائكة والأنبياء ، ومعلوم أن الأنبياء أفضل من هؤلاء ٣٧٢/١١ الذين يؤمنون بالورق المعلق .

ونظيره كون الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، فإنه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون أرفع مرتبة من جميع الأغنياء ، وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب . وهذا - باب التفضيل بين الأنواع في الأعيان ، والأعمال والصفات أو بين أشخاص النوع - باب عظيم ، يغلط فيه خلق كثير ، والله يهدينا سواء الصراط .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٠١ .

(٣) كثر العمال (٣٢٤٥٦) بلفظ قريب ، وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن عروة بن رويم مرسل .

(٤) أبو يعلى ١٤٧/١ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦٨/١٠: «رواه أبو يعلى ، ورواه البزار فقال: عن عمرو عن النبي ﷺ ... وقال: الصواب أنه مرسل عن زيد بن أسلم ، وأحد إسنادي البزار المرفوع حسن ، المنهال ابن بحر وثقه أبو حاتم وفيه خلاف ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح» .

٣٧٣/١١ / وقال شيخ الإسلام - قدس الله روحه :-

فصل

تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب « ختم الولاية » بكلام مردود ، مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ، حيث غلا في ذكر الولاية ، وما ذكره من خاتم الأولياء ، وعصمة الأولياء ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربي ، وأمثاله ، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل والعدوان ، منها قوله :

فيقال لهذا المسكين : صف لنا منازل الأولياء - إذا استفرغوا مجهود الصدق - كم عدد منازلهم؟ وأين منازل أهل الفرية؟ وأين الذين جازوا العساكر؟ . بأي شيء جازوا؟ وإلى ٣٧٤/١١ أين منتهاهم؟ وأين مقام أهل المجالس والحديث؟ وكم عددهم؟ وبأي شيء استوجبوا هذا على ربهم؟ وما حديثهم ونجواهم؟ وبأي شيء يفتتحون المناجاة؟ وبأي شيء يختمونها؟ وماذا يخافون؟ وكيف يكون صفة سيرهم؟ ومن ذا الذي يستحق خاتم الولاية كما استحق محمد ﷺ خاتم النبوة؟ وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك؟ وما سبب؟ (١) وكم مجالس هذه الأبدان حتى ترد إلى مالك الملك؟ إلى مسائل أخر كثيرة ذكرها من هذا النمط .

ومنها فيه : قال له قائل : فهل يجوز أن يكون في هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ قال : إن كنت تعني في العمل فلا ، وإن كنت تعني في الدرجات فغير مدفوع ، وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب ، وتسمية ما في الدرجات بالأعمال فمن الذي حول رحمة الله عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ولا مجتبي ، ولا مصطفى ، أو ليس المهدي كائناً في آخر الزمان؟ فهو في الفتنة يقوم بالعدل ، فلا يعجز عنها . أو ليس كائناً في آخر الزمان من له ختم الولاية؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف؟ فكما أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء ، فأعطى ختم النبوة وهو حجة الله على جميع الأنبياء . ، فكذلك هذا الولي آخر الأولياء في آخر الزمان .

٣٧٥/١١ / قال له قائل : فأين حديث النبي ﷺ : «خرجت من باب الجنة ، فأيتيت بالميزان فوضعت في كفة ، وأمتي في كفة فرجحت بالأمة . ثم وضع أبو بكر مكاني فرجح

(١) بالأصل كلمتان لم تتضحا .

بالامة. ثم وضع عمر مكان أبي بكر فرجح بالامة^(١). فقال : هذا وزن الأعمال، لا وزن ما في القلوب، أين يذهب بكم يا عجم؟ ما هذا إلا من غباوة أفهامكم. ألا ترى أنه يقول: خرجت من باب الجنة، والجنة للأعمال، والدرجات للقلوب؛ والوزن للأعمال، لا لما في القلوب، إن الميزان لا يتسع لما في القلوب.

وقال فيه : ثم لما قبض الله نبيه صير فيهم أربعين صديقاً؛ بهم تقوم الأرض فهم أهل بيته، وهم آله، فكلما مات منهم رجل خلفه من يقوم مقامه؛ حتى إذا انقرض عددهم، وأتى وقت زوال الدنيا؛ بعث الله ولياً اصطفاه واجتباه وقربه وأدناه وأعطاه ما أعطى الأولياء وخصه بخاتم الولاية، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء. فيوجد عنده ذلك الختم صدق الولاية، على سبيل ما وجد عند محمد ﷺ صدق النبوة؛ لم ينله القدر، ولا وجدت النفس سبيلاً إلى الأخذ بحظها من الولاية، فإذا برز الأولياء يوم القيامة، وأقبضوا صدق الولاية والعبودية، وجد ألوفاً عند هذا الذي ختم الولاية تماماً؛ فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم،/ وكان شفيعهم يوم القيامة، فهو ٣٧٦/١١ سيدهم. ساد الأولياء كما ساد محمد ﷺ الأنبياء، فينصب له مقام الشفاعة، ويشئ على الله ثناء، ويحمده بمحامد يقر الأولياء بفضلهم في العلم بالله، فلم يزل هذا الولي المذكوراً أولاً في البدء أولاً في الذكر، وأولاً في العلم، ثم الأول في المسألة، ثم الأول في الموازنة، ثم الأول في اللوح المحفوظ، ثم الأول في الميثاق، ثم الأول في الحشر، ثم الأول في الخطاب، ثم الأول في الوفاة، ثم الأول في الشفاعة، ثم الأول في الجواز وفي دخول الدار، ثم الأول في الزيارة، فهو في كل مكان أول الأولياء، كما كان محمد ﷺ أول الأنبياء، فهو من محمد ﷺ عند الأذن، والأولياء عند القفا.

فهذا عند مقامه بين يديه في ملك الله ونجواه، مثال في المجالس الاعظم، فهو في منصبه، والأولياء من خلفه درجة درجة، ومنازل الأنبياء مثال بين عينيه، فهؤلاء الأربعون في كل وقت هم أهل بيته. ولست أعنى من النسب، وإنما أهل بيت الذكر.

(١) أبو داود في السنة (٤٦٣٤) والترمذي في الرؤيا (٢٢٨٧)، وقال : « حديث حسن صحيح » .

٣٧٧/١١ / وقال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

فصل

قال القاضي أبو يعلى في عيون المسائل : مسألة : ومثبتو النبوات حصل لهم المعرفة بالله تعالى بثبوت النبوة من غير نظر واستدلال في دلائل العقول، خلافاً للأشعرية في قولهم: لا تحصل حتى تنظر وتستدل بدلائل العقول.

وقال : نحن لا نمنع صحة النظر ، ولا نمنع حصول المعرفة به وإنما خلافتنا هل تحصل بغيره، واستدل بأن النبوة إذا ثبتت بقيام المعجزة علمنا أن هناك مرسلأ أرسله، إذ لا يكون هناك نبي إلا وهناك مرسل، وإذا ثبت أن هناك مرسلأ أغنى ذلك عن النظر والاستدلال في دلائل العقول على إثباته.

٣٧٨/١١ وقال البيهقي في كتاب الاعتقاد ما ذكره الخطابي أيضاً في «الغنية» عن الكلام وأهله «وقد سلك بعض من بحث في إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة؛ لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلما ثبتت النبوة صارت أصلاً في وجوب قبول ما دعا إليه النبي، وعلى هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسول، وذكر قصة جعفر وأصحابه مع النجاشي، وقصة الأعرابي الذي قال: من خلق السماء وغير ذلك؟

قلت: كثير من المتكلمين يقولون: لا بد أن تتقدم المعرفة أولاً بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو، ويظهر المعجزة، وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول، فضلاً عن وجود الرب.

وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حررت، وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان منكراً للرب. قال تعالى: ﴿فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ . قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا ۚ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَالْأَرْضُ وَالْأَسْمَانُ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لِمَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ . قَالَ أُولُو حِشْيَتِكَ يَشْعُرُونَ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ

يَدُّ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿الشعراء: ١٦ - ٣٣﴾.

فهنا: قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين. وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه. وكذلك قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَسْجِدُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤] فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة - التي هي فعل خارق للعادة - تدل بنفسها على ثبوت الصانع، كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك، لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله، فتقرر بها الربوبية والرسالة، لاسيما عند من يقول: دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية، كما هو قول طائفة من متكلمي المعتزلة: كالجاحظ، وطوائف من غيرهم، كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون: يحصل الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة بالضرورة.

/ ومن يقول: إن شهادة المعجزة على صدق النبي معلوم بالضرورة، وهم كثير من ٣٨٠/١١ الأشعرية والحنبلية، وكثير من هؤلاء يقول: لأن عدم دلالتها على الصدق مستلزم عجز الباري، إذ لا طريق سواها.

وأما المعتزلة: فلأن عندهم أن ذلك قبيح، لا يجوز من الباري فعله. والأولون يقولون: ليس... (١) كأمور كثيرة جداً، وقد بينت في غير هذا الموضع أن العلم موجود ضروري، وهو الذي عليه جمهور... (٢).

(١، ٢) بياض بالأصل.

أيما أولى : معالجة ما يكره الله من قلبك مثل : الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب، وغير ذلك، مما يختص بالقلب من درنه، وخبثه؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة: من الصلاة والصيام وأنواع القربات: من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور في قلبه؟ أفنونا مأجورين.

فأجاب - رحمه الله -:

الحمد لله . من ذلك ما هو عليه واجب : وأن للأوجب فضل وزيادة . كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ : «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه» . ثم قال : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»^(١) والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك، والأعضاء جنوده . فإذا خبث الملك خبث جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»^(٢) وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد. وإذا كان المقدم هو الأوجب، سواء سمي/باطناً أو ظاهراً ، فقد يكون ما يسمى بباطناً أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام، وقد يكون ما سمي ظاهراً أفضل : مثل قيام الليل، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر، والصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وتورث الخشوع، ونحو ذلك من الآثار العظيمة : هي أفضل الأعمال والصدقة . والله أعلم.

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) البخارى فى الإيمان (٥٢) ومسلم فى المساقاة (١٠٧ / ١٥٩٩) .

وسئل :

٣٨٣/١١

هل قال النبي ﷺ : «زدني فيك تحيراً؟»، وقال بعض العارفين: أول المعرفة الحيرة، وآخرها الحيرة . قيل : من أين تقع الحيرة؟ قيل : من معنيين :

أحدهما : كثرة اختلاف الأحوال عليه . والآخر: شدة الشر، وحذر الإيأس . وقال الواسطي: نازلة تنزل بقلوب العارفين بين الإيأس والطمع لا تطمعهم في الوصل فيستريحون، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون، وقال بعضهم: متى أصل إلى طريق الراجين، وأنا مقيم في حيرة المتحيرين؟ وقال محمد بن الفضل العارف: كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة. وقال : أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً. وقال الجنيد : انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة. وقال ذو النون ^(١): غاية العارفين التحير. وأنشد بعضهم :

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليلاً لمن تحير فـــــــيه

فبينوا لنا القول في ذلك بياناً شافياً؟.

فأجاب:

٣٨٤/١١

الحمد لله ، هذا الكلام المذكور: «زدني فيك تحيراً» من الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ، ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث وإنما يرويه جاهل أو ملحد ، فإن هذا الكلام يقتضي أنه كان حائراً، وأنه سأل الزيادة في الحيرة، وكلاهما باطل، فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم، وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله : ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه : ١١٤] وهذا يقتضي أنه كان عالماً، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦]، وقد قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢]، فمن يهدي الخلق كيف

(١) ذو النون المصري هو : ثوبان بن إبراهيم ، وقيل : فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الأخميمي، يكنى أبا الفيض، ولد في أواخر أيام المنصور. روى عن مالك ، والليث ، وابن لهيعة وغيرهم، وروى عنه أحمد بن صحيح الفيومي ، وربيع بن محمد الطائي وغيرهم، وقل ما روى من الحديث ، ولا كان يتقنه. وقال الدارقطني : روى عن مالك أحاديث فيها نظر. وكان واعظاً . قال ابن يونس : كان عالماً فصيحاً حكيماً. توفي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومئتين. [سير أعلام النبلاء : ٥٣٢-٥٣٦].

يكون حائراً؟ واللّه قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي الجملة، فالحيرة من جنس الجهل والضلال، ومحمد ﷺ أكمل الخلق علماً بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداءً في نفسه، وهدياً لغيره، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال. قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٣]، ٣٨٥/١١ وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِصَحِّحُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] فالله قد هدى المؤمنين به، وقال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] فقد كفل الله لمن آمن به أن يجعل له نوراً يمشي به. كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ومثل هذا كثير في القرآن والحديث.

ولم يمدح الحيرة أحد من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة: كصاحب «الفصوص» ابن عربي وأمثاله من الملاحدة، الذين هم حيارى، فمدحوا الحيرة وجعلوها أفضل من الاستقامة، وادعوا أنهم أكمل الخلق، وأن خاتم الأولياء منهم يكون أفضل في العلم بالله من خاتم الأنبياء، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله منهم، وكانوا ٣٨٦/١١ في ذلك. كما يقال فيمن قال: «فخر عليهم السقف من تحتهم» لا عقل ولا قرآن، فإن الأنبياء أقدم، فكيف يستفيد المتقدم من المتأخر، وهم عند المسلمين واليهود والنصارى ليسوا أفضل من الأنبياء، فخرج هؤلاء عن العقل والدين: دين المسلمين واليهود والنصارى. وهؤلاء قد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع.

ولهم في «وحدة الوجود والحلول والاتحاد» كلام من شر كلام أهل الإلحاد، وأما غير هؤلاء من الشيوخ الذين يذكرون الحيرة: فإن كان الرجل منهم يخبر عن حيرته، فهذا لا يقتضي مدح الحيرة، بل الحائر مأمور بطلب الهدى، كما نقل عن الإمام أحمد أنه علم رجلاً أن يدعو يقول: يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك

فأما الذي قال : أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحيرة ، فقد يريد بذلك معنى صحيحاً مثل أن يريد : أن الطالب السالك يكون حائراً قبل حصول المعرفة والهدى ، فإن كل طالب للعلم والهدى هو قبل حصول مطلوبه في نوع من الحيرة ، وقوله : آخرها الحيرة ، قد يراد به أنه لا يزال طالب الهدى والعلم ، فهو بالنسبة إلى ما لم يصل إليه حائر ، وليس في ذلك مدح الحيرة ، ولكن يراد به أنه لا بد أن يعترى الإنسان نوع من الحيرة التي يحتاج معها إلى العلم والهدى .

/ وقوله : والحيرة من معنيين :

٣٨٧/١١

أحدهما : كثرة اختلاف الأحوال . والآخر : شدة الشر ، وحذر الإياس - إخبار عن سلوك معين ؛ فإنه ليس كل سالك يعتريه هذا ، ولكن من السالكين من تختلف عليه الأحوال ، حتى لا يدري ما يقبل وما يرد وما يفعل وما يترك ، والواجب على من كان كذلك دوام الدعاء لله سبحانه وتعالى ، والتضرع إليه والاستهداء بالكتاب والسنة .

وكذلك بشدة الشر وحذر الإياس ، فإن في السالكين من يبتلى بأمور من المخالفات يخاف معها أن يصير إلى اليأس من رحمة الله ، لقوة خوفه وكثرة المخالفة عند نفسه ، ومثل هذا ينبغي أن يعلم سعة رحمة الله ، وقبول التوبة من عباده وفرحه بذلك .

وقول الآخر : نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع ، فلا تطمعهم في الوصول فيستريحوا ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا ، فيقال : هذا أيضاً حال عارض لبعض السالكين ، ليس هذا أمراً لازماً لكل من سلك طريق الله ، ولا هو أيضاً غاية محمودة ولكن بعض السالكين يعرض له هذا . كما يذكر عن الشبلي^(١) أنه كان ينشد في هذا المعنى :

٣٨٨/١١

/ أظلت علينا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها

فلا غيمها يجلو فيأس طامع ولا غيثها يأتي فيروي عطاشها

وصاحب هذا الكلام إلى أن يعفو الله عنه ويغفر له مثل هذا الكلام أحوج منه إلى أن

(١) الشبلي : قيل : اسمه دلف بن جحدر ، وقيل : جعفر بن يونس ، شيخ الطائفة ، أبو بكر ، الشبلي البغدادي . أصله من الشبلية قرية . ومولده بسامراء . كان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك ، وكتب الحديث عن طائفة . وقال الشعر ، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن ، لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر . فيقول أشياء يعتذر عنه . توفي ببغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . عن نيف وثمانين سنة . [سير أعلام النبلاء : ٣٦٧-٣٦٩] .

يمدح عليه أو يقتدى به فيه، ومثل هذا كثير قد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع، لما تكلمنا على ما يعرض لطائفة من كلام فيه معاتبة لجانب الربوبية، وإقامة حجة عليه بالمجنون المتحير، وإقامة عذر المحب، وأمور تشبه هذا، قد تحيز من قال بموجبها إلى الكفر والإلحاد، إذ الواجب الإقرار لله بفضلته وجوده وإحسانه، وللنفس بالتقصير والذنوب. كما في الحديث الصحيح: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ما قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة» (١).

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يقول الله تعالى: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢). وفي الحديث الصحيح: «يقول الله: من تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» (٣) وفي الحديث الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني» (٤) وقد ثبت: أن الله تعالى كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وقد ثبت من حكمته ورحمته وعدله ما يبهر العقول؛ لأن هذه المسألة تتعلق بأصول كبار من مسائل «القدر» و«الأمر» و«الوعيد» و«الوعيد» و«الأسماء والصفات» قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: الكلام على ما ذكر عن هؤلاء الشيوخ، فقول القائل: لا تطمعهم في الوصول فيستريحوا، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا. هي حال عارض لشخص قد تعلقت همته بمطلوب معين وهو يتردد فيه بين اليأس والطمع، وهذا حال مذموم، لأن العبد لا ينبغي له أن يقترح على الله شيئاً معيناً، بل تكون همته فعل المأمور، وترك المحذور، والصبر على المقدور. فمتى أعين على هذه الثلاثة جاء بعد ذلك من المطالب: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولو تعلقت همته بمطلوب فدعا الله به فإن الله يعطيه إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها.

٣٩٠/١١ ولفظ «الوصول» لفظ مجمل؛ فإنه ما من سالك إلا وله غاية/يصل إليها. وإذا قيل: وصل إلى الله، أو إلى توحيده أو معرفته أو نحو ذلك، ففي ذلك من الأنواع المتنوعة

(٢، ١) سبق تخريجهما ص ٢٠.

(٣) البخاري في التوحيد (٧٥٣٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٢١، ٢٠ / ٢٦٨٦).

(٤) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢ / ٢٦٧٥).

والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله تعالى .

ويأس الإنسان أن يصل إلى ما يحبه الله ويرضاه من معرفته وتوحيده كبيرة من الكبائر، بل عليه أن يرجو ذلك ويطمع فيه . لكن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال، وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان ، فإن الله يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] وعليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً، ولزوم الصراط المستقيم مستعيناً بالله، متبرئاً من الحول والقوة إلا به .

ففي الجملة ليس لأحد أن ييأس، بل عليه أن يرجو رحمة الله كما أنه ليس له أن لا ييأس، بل عليه أن يخاف عذابه . قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء : ٥٧] . قال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو /حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو ٣٩١/١١ مؤمن موحد .

وأما قول القائل : متى أصل إلى طريق الراجين؟ وأنا مقيم في حيرة المتحيرين؛ فهذا إخبار منه عن حال مذموم هو فيها ، كما يخبر الرجل عن نقص إيمانه، وضعف عرفانه، وريب في يقينه، وليس مثل هذا مما يطلب، بل هو مما يستعاذ بالله منه .

وأما قول محمد بن الفضل : أنه قال : العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة . فهذا قد يراد به أنه كلما انتقل إلى مقام من المعرفة واليقين حصل له تشوق إلى مقام لم يصل إليه من المعرفة، فهو حائر بالنسبة إلى ما لم يصل إليه دوغماً وصل إليه .

وقوله : أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً، أي أطلبهم لزيادة العلم والمعرفة؛ فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد، بل هو حائر فيها طالب لمعرفتها والعلم بها، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد قال : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١) والخلق ما أتوا من العلم إلا قليلاً .

وما نقل عن «الجنيذ» أنه قال : انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة؛ فهذا ما أعرفه من كلام ٣٩٢/١١ الجنيذ، وفيه نظر، هل قاله؟! ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن كان قد قال

(١) مسلم في الصلاة (٤٨٦ / ٢٢٢) .

هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه، لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدي وعلم، فإن الجنيد أجل من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله. لكن إذا قيل: إن أهل المعرفة مهما حصلوا من المعرفة واليقين والهدى فهناك أمور لم يصلوا إليها فهذا صحيح. كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو حاتم في صحيحه: «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي» قال: «من قال هذا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً»^(١) فقد أخبر أن لله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده وهذه لا يعلمها ملك ولا بشر.

فإذا أراد المرید أن عقول العقلاء لم تصل إلى معرفة مثل هذه الأمور فهذا صحيح، وأما إذا أراد أن العقلاء ليس عندهم علم ولا يقين بل حيرة وريب، فهذا باطل قطعاً.

وما ذكر عن «ذي النون» في هذا الباب، مع أن ذا النون قد وقع منه كلام أنكر عليه، وعزره الحارث بن مسكين، وطلبه/المتوكل إلى بغداد واتهم بالزندقة، وجعله الناس من الفلاسفة، فما أدري هل قال هذا أم لا؟ بخلاف الجنيد فإن الاستقامة والمتابعة غالبية عليه، وإن كان كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما ثم معصوم من الخطأ غير الرسول، لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين. وهذا قدر ما احتملته هذه الورقة، والله أعلم.

(١) أحمد ٣٩١/١، ٤٥٢، وابن حبان (٩٦٨)، كلاهما عن عبد الله بن مسعود وقال أحمد شاكر (٤٣١٨): «إسناده صحيح».

/ سئل عن رجل يحب رجلا عالماً. فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشى ٣٩٤/١١
من أجل الافتراق. وإذا كان الرجل العالم مشغولاً بحيث لا يلتفت إليه لم يحصل له هذا
الحال. فهل هذا من الرجل المحب؟ أم هو تأثير الرجل العالم؟

فأجاب :

الحمد لله، سببه من هذا ومن هذا، مثل الماء إذا شربه العطشان حصل له لذة وطيب،
وسببها عطشه وبرد الماء، وكذلك النار إذا وقعت في القطن سببه منها، ومن القطن.
والعالم المقبل على الطالب يحصل له لذة وطيب وسرور بسبب إقبال هذا وتوجهه، وهذا
حال المحب مع المحبوب . والله أعلم.

ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال - مع قلة علمهم ، وجهل بعضهم - ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه؟ والبحث عنه ؟ حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك ، حتى إن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة. ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن. مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد، لا سيما إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشغول به عن العبادة.

ففي الحديث: «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»^(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة، فيقول العلماء: لفضل علمنا عبدوا وجاهدوا، فيقول الله عز وجل/ لهم : أنتم عندي كملائكتي ، اشفعوا فيشفعون. ثم يدخلون الجنة»^(٢) وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم، مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته، كنواقض الوضوء، أو مبطلات الصلاة والصوم. وربما يحكي بعضهم حكاية في هذا المعنى: بأن «رابعة العدوية» - رحمها الله - أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح، فلما أصبحت رابعة قالت له: يا هذا ، وصل الواصلون إلى ربهم، وأنت مشغول بحيض النساء، أو نحوها. فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه؟.

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين، لا ريب أن الذي أوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين

(١) أبو داود في العلم (٣٦٤١)، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) وقال: «ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجا بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل...»، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وأحمد ١٩٦/٥، كلهم عن أبي الدرداء.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٢١/١: «أخرجه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف».

أوتوا الإيمان فقط، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، والعلم المدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء. كما قال النبي ﷺ : «إن العلماء ورثة الأنبياء؛ إن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١).

وهذا العلم ثلاثة أقسام:

/ علم بالله وأسمائه وصفاته : وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص، ٣٩٧/١١ وآية الكرسي، ونحوهما.

والقسم الثاني : العلم بما أخبر الله به، مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلية، وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص، والوعد، والوعيد وصفة الجنة والنار، ونحو ذلك.

والقسم الثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها وأقوال الجوارح وأعمالها، وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة، فإن ذلك جزء من جزء من علم الدين، كما أن المكاشفات التي تكون لأهل الصفا جزء من جزء من علم الأمور الكونية.

والناس إنما يغلطون في هذه المسائل، لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة في الكتاب والسنة، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة، فرب رجل يحفظ حروف العلم التي أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم، بل ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتي القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق ٣٩٨/١١ عليه: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»^(٢).

فقد يكون الرجل حافظًا لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمنًا بل يكون منافقًا. فالؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه. وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان. وأما الذي أوتي العلم والإيمان فهو مؤمن عليم، فهو أفضل من المؤمن

(١) سبق تخريجه ص ٢١٦ .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٥٦٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٧ / ٢٤٣) .

الذي ليس مثله في العلم مثل اشتراكهما في الإيمان، فهذا أصل تجب معرفته .

وههنا «أصل آخر» : وهو أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا. وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب، وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة، وأولئك أصحاب النار.

٣٩٩/١١ / ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا، وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة، ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسة ومال، فأكرم الخلق عند الله أنقاهم، ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح، وإن حصل له كشف وتصرف، وإن اقتدى به خلق كثير من العامة، وقد بسطنا الكلام في هذا الباب في مواضعه، فهذا «أصل ثان» .

و «أصل ثالث» أن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه، وقد يكون مقيداً. فقد يكون أحد العاملين في حق زيد أفضل من الآخر، والآخر في حق عمرو أفضل، وقد يكونان متماثلين في حق الشخص، وقد يكون المفضل في وقت أفضل من الفاضل ، وقد يكون المفضل في حق من يقدر عليه ويتنفع به أفضل من الفاضل في حق من ليس كذلك .

مثال ذلك: أن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع الأمة - ولا اعتبار بمن يخالف ذلك من جهال العباد - ثم الركوع والسجود ينهي فيه عن قراءة القرآن، ويؤمر فيه بالذكر، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف وعرفة ونحوهما، أفضل من قراءة القرآن، وكذلك الأذكار المشروعة: مثل ما يقال عند سماع النداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منهما، وعند سماع الديكة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن في هذا الموطن، وأيضاً فأكثر السالكين إذا قرؤوا القرآن لا يفهمونه . وهم بعد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيماناً، فإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان ما يجدون حلاوته ولذته، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لا يفهمونها، ولا معهم من الإيمان ما يزداد بقراءة القرآن، أما إذا أوتي الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمان ما لا يحصل بمجرد الذكر، فهذا «أصل ثالث» .

و «أصل رابع» : وهو أن الرجل قد يأتي بالعمل الفاضل من غير قيام بشروطه، ولا إخلاص فيه، فيكون بتفويت شرائطه دون من أتى بالمفضل المكمل .

فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هذا السائل، وإن كان تفصيل ذلك لا تتسع له الورقة، والله أعلم.

٤١/١١ / سئل الشيخ - رحمه الله - عن قوم داوموا على «الرياضة» مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام، فندخل في حجر التكليف، لأننا قد تجوهرنا، وعرفنا الحكمة فهل هذا القول كفر من قائله؟ أم يبدع من غير تكفير؟ وهل يصير ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي ﷺ؟

فأجاب :

لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر وأغلظه . وهو شر من قول اليهود والنصارى ، فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض، وأولئك هم الكافرون حقا كما ذكر أنهم يقولون بأن لله أمراً ونهياً، ووعداً ووعداً، وأن ذلك متناول لهم إلى حين الموت. هذا إن كانوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة.

٤٢/١١ وأما إن كانوا من منافقي أهل ملتهم - كما هو الغالب على متكلميهم/ومتفلسفهم - كانوا شرّاً من منافقي هذه الأمة، حيث كانوا مظهرين للكفر ومبطنين للنفاق ، فهم شر من يظهر إيماناً ويبطن نفاقاً.

والمقصود أن المتمسكين بجملة منسوخة فيها تبديل خير من هؤلاء الذين يزعمون سقوط الأمر والنهي عنهم بالكلية، فإن هؤلاء خارجون في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والملل، لا يلتزمون لله أمراً ولا نهياً بحال، بل هؤلاء شر من المشركين المستمسكين ببقايا من الملل: كمشركي العرب الذين كانوا مستمسكين ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام، فإن أولئك معهم نوع من الحق يلتزمون به، وإن كانوا مع ذلك مشركين، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق ، بحيث يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهى.

فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر ونهي، بحيث لا يجب عليها شيء، ولا يحرم عليها شيء ، فهؤلاء أكفر أهل الأرض ، وهم من جنس فرعون وذويه، وهم مع هذا لا بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به، إذ لا يمكن النوع الإنساني أن يعيش إلا بنوع أمر ونهي ، فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة الشيطان

وعبادته، ففرعون هو الذي قال لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ثم كانت له آلهة يعبدها. كما قال له قومه: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

/ولكن كثير من هؤلاء لا يطلقون السلب العام، ويخرجون عن ربقة العبودية مطلقاً. ٤٠٣/١١
بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم، أو حل بعض المحرمات لهم، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور، ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه، لأن الكعبة تطوف به، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية، ومنهم من يستحل الفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعمًا منه استغناؤه عن الصيام، ومنهم من يستحل الخمر زعمًا منه أنها إنما تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء، ويزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة، فتباح لهم دون العامة.

وهذه «الشبهة» كانت قد وقعت لبعض الأولين، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك، فإن قدامة بن عبد الله شربها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، فلما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا.

وقال عمر/لقدامة: أخطأت استك الحفرة. أما أنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم ٤٠٤/١١
تشرب الخمر، وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب: أن الله سبحانه لما حرم الخمر - وكان تحريمها بعد وقعة أحد - قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله هذه الآية (١) يبين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم تحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين.

وهذا كما أنه لما صرف القبله وأمرهم باستقبال الكعبة بعد أن كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس. فبين سبحانه أن من عمل بطاعة الله أثابه الله على ذلك، وإن نهى عن ذلك في وقت آخر، ومن استحل ما لم يحرمه لم يكن عليه جناح، إذا كان من المؤمنين

(١) انظر: الترمذي في التفسير (٣٠٥٠، ٣٠٥١، ٣٠٥٢) وقال في جميعهم: «حديث حسن صحيح»، اثنين عن البراء، والثالث عن ابن عباس.

المتقين وإن حرم الله ذلك في وقت آخر، فأما بعد أن حرم الخمر فاستحلالها بمنزلة الصلاة إلى الصخرة بعد تحريم ذلك، وبمنزلة التعبد بالسبت واستحلال الزنا، وغير ذلك مما استقرت الشريعة على خلاف ما كان، وإلا فليس لأحد أن يستمسك من شرع منسوخ بأمر. ومن فعل ذلك كان بمنزلة المستمسك بما نسخ من الشرائع؛ فلهذا اتفق الصحابة على أن من استحل الخمر قتلوه، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا، وعلموا أنهم أخطأوا ٤٠٥/١١، وآيسوا من التوبة. فكتب/عمر إلى قدامة يقول له: ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ١ - ٣]، ما أدري أي ذنبك أعظم استحلالك المحرم أولاً؟ أم يأسك من رحمة الله ثانياً؟.

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة، هو متفق عليه بين أئمة الإسلام لا يتنازعون في ذلك، ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة: كالصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة: كالفواحش، والظلم والخمر والميسر والزنا وغير ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة: كالخبز واللحم والنكاح - فهو كافر مرتد، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وإن أضمر ذلك كان زنديقاً منافقاً، لا يستتاب عند أكثر العلماء، بل يقتل بلا استتابة، إذا ظهر ذلك منه.

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش: كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلو بهن، زعمًا منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن وإن كان محرماً في الشريعة. وكذلك من يستحل ذلك من المردان ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق إلى محبة الخالق ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى، كما يستحلها من يقول: إن التلوط مباح بملك ١٠٦/١١، اليمين. فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين، وهم/بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق، ويسبي حريمهم ويغنم أموالهم، وغير ذلك من المحرمات، التي يعلم أنها من المحرمات تحريماً ظاهراً متواتراً.

لكن من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا، بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية، بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة

ثم علم. هل يجب عليه قضاء ما تركه في حال الجهل؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره:

أحدهما: لا يجب عليه القضاء، وهو مذهب أبي حنيفة.

والثاني: يجب عليه القضاء، وهو المشهور عند أصحاب الشافعي بل النزاع بين العلماء في كل من ترك واجباً قبل بلوغ الحجة: مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب أن الصلاة لا تصح بتيمم، أو من أكل حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويحسب أن ذلك هو المراد بالآية، كما جرى ذلك/لبعض الصحابة، أو مس ذكره، أو أكل لحم الإبل ٤٧/١١ ولم يتوضأ، ثم تبين له وجوب ذلك، وأمثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره. وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه؟ على «ثلاثة أقوال» في مذهب أحمد وغيره.

قيل: يثبت مطلقاً، وقيل: لا يثبت مطلقاً، وقيل: يفرق بين الخطاب الناسخ، والخطاب المبتدأ، كأهل القبلة. والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية: أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه، فإن القضاء لا يجب عليه في الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على انتفاء الإثم، لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، فإذا كان هذا في التأثيم فكيف في التكفير.

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمته الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، ولهذا جاء في الحديث «يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا/صوماً ولا حجاً إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا آباءنا ٤٨/١١ وهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجاً، فقال: ولا صوم ينجيهم من النار»^(١).

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجه في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل - لم يعجل حسنة قط - لأهله إذا مات فحرقوه، ثم أذروا نصفه في

(١) ابن ماجه في الفتن (٤٠٤٩) وفي الزوائد: «إسناده صحيح. رجاله ثقات»، وصححها الحاكم ٤٥٤/٤ وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما عن حذيفة.

البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يارب، وأنت أعلم؛ فغفر الله له. وفي لفظ آخر: «أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في البحر. فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدّ ما أخذت، فإذا هو قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت. قال: خشيتك يارب. أو قال: مخافتك، فغفر له بذلك» وفي طريق آخر: «قال الله لكل شيء أخذ منه شيئاً: أد ما أخذت منه» (١).

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن عمرو أيضاً عن حذيفة ٤٠٩/١١ عن النبي ﷺ قال: «كان/رجل فيمن كان قبلكم كان يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا، فجمعه الله. ثم قال: ما حملك على الذي فعلت؟ فقال: ما حملني إلا مخافتك، فغفر له» (٢).

وفي طريق آخر: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يش من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطباً كثيراً، وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي، ووصلت إلى عظمي، فامتحشت، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً فذروني في اليم. فجمعه الله فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له» قال عقبة بن عمرو: أنا سمعته - يعني النبي ﷺ - يقول ذلك. «وكان نباشاً» (٣).

فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر. لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك، ضالاً في هذا الظن مخطئاً. فغفر الله له ذلك، والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكاً في المعاد، وذلك كفر - إذا قامت حجة النبوة على منكره ٤١٠/١١ بحكم بكفره - هو بين في عدم إيمانه بالله تعالى ومن تأول قوله: لئن قدر الله على بمعنى قضى، أو بمعنى ضيق، فقد أبعد النجعة، وحرف الكلم عن مواضعه، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد. وقال: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٠٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٦/٢٤، ٢٥).

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤٧٩).

(٣) البخاري في الأنبياء (٣٤٥٢)، وأحمد ٣٩٥/٥.

في الريح في البحر، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً.

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها، وإنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك، فلو كان مقرأً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له، ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب، وهو قد جعل تفريقه مغايراً، لأن يقدر الرب. قال : فوالله ، لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، فلا يكون الشرط هو الجزاء، ولأنه لو كان مراده ذلك لقال: فوالله لئن جازاني ربي أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذاباً، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك، ولأن لفظ « قدر » بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة.

ومن استشهد على ذلك بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾ [سبأ: ١١]، وقوله: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] قد استشهد بما لا يشهد له. فإن اللفظ كان بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾، أي أجعل ذلك بقدر، ولا تزد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، أي جعل رزقه قدر ما يغنيه/من غير فضل، إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعيش. ١١/١١

وأما « قدر » بمعنى قَدَّرَ أي أراد تقدير الخير والشر، فهو لم يقل: إن قدر علي ربي العذاب، بل قال: لئن قدر علي ربي، والتقدير يتناول النوعين، فلا يصح أن يقال: لئن قضى الله علي، لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره، ولأنه لو كان المراد التقدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعاً من ذلك في ظنه، ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها، فغاية ما في هذا أنه كان رجلاً لم يكن عالماً بجميع ما يستحقه الله من الصفات، وبفصيل أنه القادر ، وكثير من المؤمنين قد بجهل مثل ذلك، فلا يكون كافراً.

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ قلنا: بلى ، قالت: لما كانت ليلتي التي النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعها عند رجله، وبسط طرف إزاره على فراشه، واضطجع فلم يثبت إلا ريثما ظن أنني رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتقل رويداً ، وفتح الباب رويداً، فخرج ، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزارتي ثم انطلقت على أثره حتى جاء البقيع ، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه/ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت ١١/١٢ وأسرع فأسرعت فهورول وهورول وأحضر وأحضرت، فسبقت فدخلت ، فليس إلا أن اضطجعت فقال: «ما لك يا عائشة حشياء رابية؟» قالت: لاشيء. قال: لتخبريني، أو ليخبرني اللطيف الخبير. قالت: قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته. قال: «فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟» قلت: نعم، فلهزني في صدري لهذه أوجعتني. ثم

قال: «أظننت أن يحيى الله عليك ورسوله؟!» قالت: قلت: مهما يكرم الناس يعلمه الله، قال: «نعم». قال: «إن جبريل - عليه السلام - أتاني حين رأيت فناداني، فأخفاه منك فأجبت وأخفيتك منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أنك رقدت، وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي - فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم» قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: «السلام على أهل الديار من المؤمنين، والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»^(١).

فهذه عائشة أم المؤمنين، سألت النبي ﷺ: هل يعلم الله كل ما يكرم الناس؟ فقال لها النبي ﷺ: «نعم»، وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها ١١/١٣ بأن الله عالم بكل شيء يكرم الناس كافر، وإن كان الإقرار بذلك/بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب، ولهذا لهزها النبي ﷺ وقال: «أتخافين أن يحيى الله عليك ورسوله؟!» وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع.

فقد تبين أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها، ودلائل فساد هذا القول كثيرة في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشائخها، لا يحتاج إلى بسطها، بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن الأمر والنهي ثابت في حق العباد إلى الموت.

وأما قول القائل: هل يصدر ذلك عن من في قلبه خضوع للنبي ﷺ؟

فيقال: هذا لا يصدر عن من هو مقر بالنبوة مطلقاً، بل قائل ذلك كافر بجميع الأنبياء والمرسلين، لأنهم جميعاً أتوا بالأمر والنهي للعباد إلى حين الموت بل لا يصدر هذا القول من من في قلبه خضوع لله وإقرار بأنه إله العالم، فإن هذا الإقرار يستلزم أن يكون الإنسان عبداً لله خاضعاً له، ومن سوغ لإنسان أن يفعل ما يشاء من غير تعبد بعبادة الله، فقد أنكر أن يكون الله إلهه.

١١/١٤ / وأما قولهم: إنهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا؟

فيقال لهم: ماذا تعنون بقولكم؟ فإن أرادوا أن النفس بقيت صافية طاهرة، لا تنزع إلى الشهوات والأهواء المردية، فهذا لو كان حقاً لكان معناه: أن النفس قد صارت مطيعة

(١) مسلم في الجنائز (١٠٣/٩٧٤). «حشياء رابية»: أى وقع عليها الحشا وهو الرئو والنهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه. انظر: النهاية ١/٣٩٢.

ليس فيها دواعي المعصية فتكون منقادة إلى فعل المأمور، ولا تميل إلى المحذور، وهذا غايته أن تكون معصومة لا تطلب فعل القبيح، وهذا ما يخرجها أن تكون مأمورة منهيّة كالملائكة.

وإذا قال مثل هؤلاء: لا يتأفى ما عملنا، قيل لهم: الذي تعملونه إن كان من جنس الأهواء المردية فقد تناقضتم في زعمكم أن نفوسكم لم يبق لها هوى، وإن كان من جنس الأعمال الصالحة فهذا جنس لا ينكر، فعلم أنهم متناقضون في هذا الكلام إذا أرادوا بتجوهر النفس صفاءها وطهارتها عن الأكدار البشرية، مع أن هذا الكمال ممتنع في حق البشر ما دامت الأرواح في الأجسام، ولهذا أنكر المشائخ ذلك على من ادعاه، كالأثار المعروفة في ذلك عن الشيخ أبي علي الروذباري^(١) وغيرهم وأعظم الناس درجة الأنبياء عليهم السلام، وقد أمرهم الله بالتوبة والاستغفار، حتى خاتم الرسل أمره الله في أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

/ولهذا كان الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار ٤١٥/١١ على الذنوب، وإن الله يستدرهم بالتوبة التي يحبها الله - ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ - وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين. وإن ما صدر منهم من ذلك إنما كان لكمال النهاية بالتوبة لا لنقص البداية بالذنوب. و أما غيرهم فلا تجب له العصمة، وإنما يدعي العصمة المطلقة لغير الأنبياء الجهال من الرافضة وغالية النساك، وهذا مبسوط في موضعه.

وأما قولهم: حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، فلا ريب أن الله يبعث الأنبياء لما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ولا ريب أن الله أمر العباد بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم، ولا ريب أن الحكمة هي العلم والعمل بها، كما فسرها بذلك مالك بن أنس وغيره من الأئمة، لكن أي شيء في هذا مما يوجب سقوطها عن بعض العباد؟ وإنما يخرج عن الحكمة والمصلحة من يكون سفيها مفسدا ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةٍ نَفْسَةٍ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وأما قولهم: المراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام.

(١) أبو علي الروذباري هو: أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، وقيل: اسمه حسن بن هارون شيخ الصوفية، سكن مصر، وصحب الجنيد، وأبا الحسين النووي حدث عن مسعود الرملي وغيره وقال: أستاذي في الفقه ابن شريح، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي. قال أبو علي الكاتب: ما رأيت أحدا أجمع لعلم الشريعة والحقيقة من أبي علي. توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. [سير أعلام النبلاء ٥٣٦، ٥٣٥/١٤].

فالكلمة الأولى : زندقة ونفاق، والثانية كذب واختلاق ، فإنه ليس المراد من الشرائع ١١/١٦ مجرد ضبط العوام، بل المراد منها الصلاح باطنًا وظاهرًا، للخاصة والعامة في المعاش والمعاد، ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة في الدنيا ضبط العوام. كما قال عثمان ابن عفان - رضي الله عنه : « إن الله لينزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات، وينضبط عن انتهاك المحرمات، فهذا بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة.

وأما فوائد الأمر والنهي : فأعظم من أن يحصيها خطاب أو كتاب، بل هي الجامعة لكل خير يطلب ويراد ، وفي الخروج عنها كل شر وفساد.

ودعوى هؤلاء أنهم من الخواص ، يوجب أنهم من حثالة منافقي العامة ، وهم داخلون فيما نعت الله به المنافقين في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ . وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا نَفْسٌ دُوْنِ الْاَرْضِ قَالُوْا اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ . اِلَّا اِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوْا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوْا اَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ اِلَّا اِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمْ بِكُمْ عَنِيۢ فَهُمْ لَا يَرْجِعُوْنَ ﴾ [البقرة : ٨ ، ١٨] ، وفي مثل قوله : ﴿ اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ يَرْعُمُوْنَ اَنْفُسَهُمْ ءَامِنُوْا بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُوْنَ اَنْ يَتَحٰكَمُوْا اِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ اُمِرُوْا اَنْ يَكْفُرُوْا بِهٖۤ وَبِیْرِدِ الشَّيْطٰنُ اَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلٰلًا بَعِيْدًا . وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمٰلَوْا اِلٰی مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ وَاِلٰی الرَّسُوْلِ رَاٰیْتَ الْمُتَنَفِّقِيْنَ یُصَدُّوْنَ عَنْكَ صُدُوْدًا . فَكَيْفَ اِذَا اَصَابَتْهُمْ مُّصِیْبَةٌۭ یَمٰا قَدَّمَتْ اَیْدِيَهُمْ ثُمَّ جَآءُوْكَ یَحْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ اِنْ اَرَدْنَا اِلَّا اِحْسٰنًا وَتَوْفِیْقًا . اُولٰٓئِكَ الَّذِیْنَ یَعْلَمُ اللّٰهُ مَا فِی قُلُوْبِهِمْ فَاَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِیْ اَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِیْغًا . وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا لِيُطَاعَ بِاِذْنِ اللّٰهِ وَلَوْ اَنَّهُمْ اِذْ ظَلَمُوْا اَنْفُسَهُمْ جَآءُوْكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّٰهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُوْلُ لَوَجَدُوا اللّٰهَ تَوَّابًا رَّحِیْمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا یُؤْمِنُوْنَ حَتّٰی یُحْكَمُوْكَ فِیْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا یَجِدُوْا فِیْ اَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضٰیْتَ وَیُسَلِّمُوْا سَلٰمًا ﴾ [النساء : ٦٠ - ٦٥] . ولبسط الكلام على أمثال هؤلاء موضع غير هذا.

ومن هؤلاء من يحتج بقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰی يٰٓاْنِيْكَ الْاٰیٰتُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، ويقول معناها : اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة ، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة . وربما قال بعضهم : اعمل حتى يحصل لك حال ، فإذا حصل لك حال تصوفي سقطت عنك العبادة ، وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض ، وارتكاب المحارم ، وهذا كفر ، كما تقدم .

ومنهم من يظن استغناءه عن النوافل حينئذ، وهذا مغبون منقوص جاهل ضال خاسر باعتقاد الاستغناء عن النوافل واستخفافه بها حينئذ، بخلاف من تركها معتقداً كمال من ١١/٤١٨ فعلها حينئذ معظمًا لحاله، فإن هذا ليس مذمومًا، وإن كان الفاعل لها مع ذلك أفضل منه، أو يكون هذا من المقربين السابقين، وهذا من المقتصدين، أصحاب اليمين.

ومن هؤلاء من يظن أن الاستمسك بالشرعية - أمرًا ونهيًا - إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال، فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذ الاستمسك بالشرعية النبوية، بل له حينئذ أن يعيش مع الحقيقة الكونية القدرية، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجدته وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصًا عاجزًا محرومًا، ومنهم من يعاقب بسلب الطاعة حتى يصير فاسقًا، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمان حتى يصير مرتدًا منافقًا، أو كافرًا ملعنًا. وهؤلاء كثيرون جدًا، وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر.

فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فهي عليهم لا لهم، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعلم المؤمنين أجلا دون الموت، وقرأ قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وذلك أن اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علماء المسلمين وهؤلاء من المستيقنين. وذلك مثل قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ. حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ ١١/٤١٩ [المذثر: ٤٢-٤٧]. فهذا قالوه وهم في جهنم. وأخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة، والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين. ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا، ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون، وهو اليقين. ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح - لما توفي عثمان بن مظعون - وشهدت له بعض النسوة بالجنة. فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريك؟ إني والله وأنا رسول الله ما أدري ما يفعل بي» وقال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»^(١) أي أتاه وعده وهو اليقين.

و «يقين» على وزن فعيل، وسواء كان فعيل بمعنى مفعول، أي الموت. كالحيب والنصيح والذبيح، أو كان مصدرا وضع موضع المفعول: كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقوله: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] وقوله: ضرب الأمير، وغفر الله لك. قيل: وقولهم قدرة عظيمة. وأمثال ذلك، فإنه كثير. فعلى التقديرين المعنى لا يختلف،

(١) البخاري في الجنائز (١٢٤٣)، وأحمد ٦/٤٣٦، كلاهما عن أم العلاء.

بل اليقين هو ما وعد به العباد من أمر الآخرة، وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] كقولك: يأتيتك ما توعد.

٢٠/١١ فلما أن يظن أن المراد: اعبده حتى يحصل لك إيقان، ثم لا عبادة/عليك . فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين ، ولهذا لما ذكر للجنيد بن محمد أن قومًا يزعمون أنهم يصلون من طريق البر إلى ترك العبادات. فقال: الزنا والسرقه وشرب الخمر خير من قول هؤلاء، وما زال أئمة الدين ومشايعه يعظمون النكير على هؤلاء المنافقين ، وإن كانوا من الزهاد العابدين وأهل الكشف والتصرف في الكون وأرباب الكلام والنظر في العلوم، فإن هذه الأمور قد يكون بعضها في أهل الكفر والنفاق ومن المشركين وأهل الكتاب. وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار، الإيمان والتقوى. الذي هو نعت أولياء الله. كما قال: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر فيحتجون بها على وجهين:

أحدهما: أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهدا لإرادة الربانية الشاملة، والمشيئة الإلهية العامة، وهي « الحقيقة الكونية». فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال، بل من عظيم النفاق والكفر، فإن مضمون هذا الكلام: أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء، لم يكن عليه أمر ولا نهى، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله، وما جاؤوا به من الأمر والنهي، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْ إِنْ تَسْمِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ونظير هذا في ورة النحل، وفي سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وكذلك في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وهؤلاء هم «القدرية المشركية» الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي هم شر من القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة، الذين روى فيهم: «إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(١)؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهي والثواب والعقاب، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، وربما أنكروا سابق العلم.

وأما «القدرية المشركية» فإنهم ينكرون الأمر والنهي والثواب والعقاب، لكن وإن لم

(١) أحمد ٤٠٧/٥ وأبو داود في السنة (٤٦٩١) وابن ماجه في المقدمة (٩٢).

ينكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، فإنهم ينكرون الأمر والنهي والوعد والوعيد، ويكفرون بجميع الرسل والكتب، فإن الله إنما أرسل الرسل مبشرين، من أطاعهم بالثواب. ومنذرين من عصاهم بالعقاب. وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا.

/ وأيضاً، فإن موسى عليه السلام كان مؤمناً بالقدر، وعالمًا به، بل أتباعه من بني ٤٢٢/١١ إسرائيل كانوا أيضاً مؤمنين بالقدر. فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر، وإن ذلك يدفع الملام، مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك.

وأيضاً، فلو كان هذا هو السر في قصة الخضر بين ذلك لموسى. وقال: إني كنت شاهداً للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك، بل بين له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل. كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما «الوجه الثاني»: فإن من هؤلاء من يظن: إن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغنى به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها، وكثير منهم يفضل الولي في زعمه، إما مطلقاً، وإما من بعض الوجوه على النبي، زاعمين أن في قصة الخضر حجة لهم، وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر.

فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع ٤٢٣/١١ الناس: عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم، وإنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، بل عامة الثقلين الجن والإنس، وإنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمرته من الدين. وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاعته.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه.

وفي سنن النسائي عن جابر أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة

فقال: «أمتهوكون»^(١) يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» - هذا أو نحوه - ورواه أحمد في المسند ولفظه: «ولو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(٢). وفي مراسيل أبي داود قال: «كفى بقوم ضلالة أن ٢٤/١١ يبتغوا كتاباً غير كتابهم. أنزل على نبي غير نبيهم» وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] ^(٣).

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة «أن المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء فإنه يكون متبعاً لشرعية محمد بن عبد الله ﷺ»^(٤) فإذا كان ﷺ يجب اتباعه ونصره على من يدرکه من الأنبياء. فكيف بمن دونهم؟

بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتبع شرعية رسول غيره، كموسى وعيسى. فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شرعية رسول، فكيف بالخروج عنه والرسول؟ كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ سَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٢٥/١١ | ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل، كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمناً به، وما علمنا أنه كذب رددناه، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم. فإذا أن يحدثوكم بباطل فتصدقوهم، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم. وقولوا: آمناً بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»^(٥).

ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر

(١) التهوك: كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية. النهاية ٢٨٢/٥.

(٢) أحمد ٣/٣٨٧، عن جابر.

(٣) مراسيل أبي داود (٤٥٤)، عن يحيى بن جعدة.

(٤) البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥/٢٤٦).

(٥) أبو داود في العلم (٣٦٤٤) وأحمد ٤/١٣٦.

متابعته وطاعته، بل قد ثبت في الصحيحين : أن الخضر قال له : يا موسى ، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله، علمكه الله لا أعلمه (١). وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة.

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال - فيما فضله الله به على الأنبياء - قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة» (٢) فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته، ولا استغناء عن رسالته، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته/مستغنياً عنه بما علمه الله. ٤٢٦/١١ وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحداً من الخلق - الزهاد والعباد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته، فهو كافر باتفاق المسلمين. ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا.

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة؛ ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضل من الأول. مثل شخصين: دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله، إما بإذن لفظي أو غيره، فيتصرف. وذلك مباح في الشريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف، وخرق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة، إذا علموا ذلك؛ لئلا يأخذها... (٣) خير من انتزاعها منهم.

/ ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها، فسألوا ٤٢٧/١١ النبي ﷺ عنها فأذن لهم في أكلها ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبيح (٤)؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً، والأذن العرفي كالإذن اللفظي؛ ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظاً، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته، قام بجميع أهل المسجد، لما علم من طيب نفس أبي طلحة، وذلك لما يجعله الله من البركة.

(١) سبق تخريجه ص ١٤٦ .

(٢) البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣/٥٢١) .

(٤) البخاري في الذبائح (٥٢٠١، ٥٢٠٢)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٨٢) .

وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحاماً دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما^(١)، وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما؛ وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال لهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم^(٢).

وكذلك في الصحيحين: أن عمر لما استأذن النبي ﷺ في قتل ابن صياد، وكان مرافقاً، لما ظنه الدجال، فقال: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»^(٣) فلم يقل: إن يكنه فلا خير لك في قتله، بل قال: «فلن تسلط عليه».

٤٢٨/١١ / وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذوراً، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً، فإن الأعم إذا كان مستقلاً بالحكم كان الأخص عديم التأثير، كما قال في الهرة: «إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات»^(٤).

وأما بناء الجدار فإنما فيه ترك أخذ الجعل مع جوعهم، وقد بين الخضر: أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع، وإن كان جائعاً.

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهراً، فيشترك فيها الناس، ومنه ما يكون خفياً عن بعضهم ظاهراً لبعضهم على الوجه المعتاد، ومنه ما يكون خفياً يعرف بطريق الكشف، وقصة الخضر من هذا الباب. وذلك يقع كثيراً في أمتنا. مثل أن يقدم لبعضهم طعام فيكشف له أنه مغصوب فيحرم عليه أكله، وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك. أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه إذن له فيه فيحل له أكله، فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن. وأمثال ذلك.

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع ١٤٢٩/١١ الاجتهاد، الذي يصيب فيه تارة ويخطئ أخرى، فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها، والرأي، والرواية، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول، ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ولهذا كان الصديق المتلقى عن الرسول كل شيء، مثل أبي بكر أفضل من المحدث مثل عمر، وكان

(١) البخاري في الأطعمة (٥٤٦١) عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٦.

(٣) سبق تخريجه ص ١٥٧.

(٤) أبو داود في الطهارة (٧٦)، وابن ماجه في الطهارة (٣٦٧).

الصدیق یبین للمحدث المواضع التي اشتبهت علیه، حتی یرده إلى الصواب، كما فعل أبو بکر بعمر يوم الحديبية، ويوم موت النبي ﷺ، وفي قتال مانعی الزكاة، وغير ذلك. وهذا الباب قد بسطناه في غير هذا الموضع.

والمقصود أنه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق. نعم لفظ «الشرع» قد صار فيه اشتراك في عرف العامة، منهم من يجعله عبارة عن حكم الحکام، ولا ريب أن حكم الحاكم قد يطابق الحق في الباطن، وقد يخالفه، ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق علیه عن أم سلمة: «إنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»^(١).

وقد اتفق المسلمون على أن حكم الحاكم بالحقوق المرسلة لا يغير الشيء عن صفته في الباطن، فلو حكم بمال زيد لعمر، لإقرار أو بينة/كان ذلك باطلاً في الباطن، ولم يبح ٤٣٠/١١ ذلك له في الباطن، ولا يجوز له أخذه مع العلم بالحال باتفاق المسلمين، وكذلك عند جماهير الأمة لو حكم بعقد أو فسخ نكاح أو طلاق وبيع فإن حكمه لا يغير الباطن عندهم. وإن كان منهم من يقول: حكمه يغير ذلك في هذا الموضع، لأن له ولاية العقود والفسوخ. فالصحيح قول الجمهور، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وسائر فقهاء أهل الحجاز والحديث، وكثير من فقهاء العراق.

وأيضاً فلفظ «الشرع» في هذا الزمان، يطلق على ثلاثة معان:

شرع منزل، وشرع متأول، وشرع مبدل.

«فالمنزّل»: الكتاب والسنّة، فهذا الذي يجب اتباعه على كل واحد، ومن اعتقد أنه لا يجب اتباعه على بعض الناس فهو كافر.

و «المتأول» موارد الاجتهاد التي تنازع فيها العلماء، فاتباع أحد المجتهدين جائز لمن اعتقد أن حجته هي القوية، أو لمن ساغ له تقليده ولا يجب على عموم المسلمين اتباع أحد بعينه إلا رسول الله ﷺ. فكثير من المتفقهة إذا رأى بعض الناس من المشائخ الصالحين، يرى أنه يكون الصواب مع ذلك، وغيره قد خالف/الشرع، وإنما خالف ما يظنه ٤٣١/١١ هو الشرع، وقد يكون ظنه خطأ فيثاب على اجتهاده، وخطؤه مغفور له وقد يكون الآخر مجتهداً مخطئاً.

وأما «الشرع المبدل»: فمثل الأحاديث الموضوعية، والتأويلات الفاسدة والأقيسة الباطلة

(١) البخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، ومسلم في الأفضية (٤/١٧١٣).

والتقليد المحرم، فهذا يحرم أيضاً، وهذا من مثار النزاع ، فإن كثيراً من المتفقهة والمتكلمة قد يوجب على كثير من المتصوفة والمتفجرة اتباع مذهبه المعين، وتقليد متبوعه، والتزام حكم حاكمه باطنًا وظاهرًا، ويرى خروجه عن ذلك خروجًا عن الشريعة المحمدية، وهذا جهل منه وظلم، بل دعوى ذلك على الإطلاق كفر ونفاق.

كما أن كثيراً من المتصوفة والمتفجرة يرى مثل ذلك في شيخه ومتبوعه، وهو في هذا نظير ذلك. وكل من هؤلاء قد يسوغ الخروج عما جاء به الكتاب والسنة، لما يظنه معارضاً لهما، إما لما يسميه هذا ذوقاً ووجداً، ومكاشفات ومخاطبات، وإما لما يسميه هذا قياساً ورأيًا وعقليات وقواطع، وكل ذلك من شعب النفاق، بل يجب على كل أحد تصديق الرسول ﷺ في جميع ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به ، وليس لأحد أن يعارضه بضرب الأمثال، ولا بآراء الرجال ، وكل ما عارضه فهو خطأ وضلال.

وقد ذكرنا من تفصيل ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له هذا المجال. / ٤٣٢/١١

والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه، من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة، وفي جميع الأحوال. والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله وحده، وصلواته وسلامه على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

اسئل شيخ الإسلام عن الحديث المروي في الأبدال: هل هو صحيح أم مقطوع؟ ٤٣٣/١١
وهل «الأبدال» مخصوصون بالشام؟ أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة
يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعدًا في
جماعة ويغيب جسده؟

وما قول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوين إلى الدين
والفضيلة ، ويقولون: هذا غوث الأغواث، وهذا قطب الأقطاب، وهذا قطب العالم، وهذا
القطب الكبير، وهذا خاتم الأولياء؟

فأجاب :

أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامّة مثل «الغوث» الذي بمكة،
و«الأوتاد الأربعة» و «الأقطاب السبعة» و«الأبدال الأربعين» و«النجباء الثلاثمائة» : فهذه
أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى؛ ولا هي أيضًا مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد
صحيح ، ولا ضعيف يحمل عليه ألفاظ الأبدال .

فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ٤٣٤/١١
مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال أربعين رجلاً، كلما
مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً»، ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف، كما
هي على هذا الترتيب. ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند
الأمة قبولاً عاماً ، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ ، وقد
قالها إما أثرًا لها عن غيره أو ذاكرًا.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار
فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده، وصار كثير من الناس على
طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل .

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب
بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها
حذو القذة بالقذة .

٤٣٥/١١ فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل/والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى، وهذا الدين لا ينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون.

فالكتب المنزلة من السماء، والأثار من العلم الماثورة عن خاتم الأنبياء، يميز الله بها الحق من الباطل، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد، والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان، بل يجب القطع بأن هذا على عمومته وإطلاقه باطل، فإن المؤمنين يقولون تارة ويكثرون أخرى، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة، ويكثرون أخرى، وينتقلون في الأمكنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد.

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة، ثم أقل من ٤٣٦/١١ أربعين، ثم أقل من سبعين، ثم أقل من/ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعداد، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار. ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة، ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها، ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضل منهم.

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين، بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لا يحصى عدده إلا رب العالمين، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف، ولما انقضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين، بل من السابقين المقربين من لا يعرف عدده، وليسوا بمحصورين بعدد ولا محدودين بآمد، وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ، فنسأله من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة، في زمن آدم ونوح وإبراهيم، وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الناس كفرة؟! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] أي كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً، وفي صحيح البخاري أنه قال لسارة: ليس على الأرض اليوم

مؤمن غيري وغيرك^(١)، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأية آية؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقد؟ لأن العقائد لا تعقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة، ومن البرهان العقلي ﴿قُلْ هَاسِئًا بِؤْمَنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلا ريب، فلا نعتقد أكاذيبهم.

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة، كروح الله، وناقة الله، تدبر ولا تتحير، واحفظ القاعدة حفظاً.

«فأما لفظ الغوث والغياث» فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها/كشف الضر عنهم، ٤٣٨/١١ ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا يُبَدِّلُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

ككيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادِي غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧ - ٣٩].

وقال النبي عليه السلام لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر: «أيها الناس، اربعوا على

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٥٨)، عن أبي هريرة.

٤٣٩/١١ أنففسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإنما تدعون/سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١) وهذا باب واسع .

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ، لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب، فتعالى الله عن تشبيهه بال مخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به، ثم مع هذا يقولون: إنه كان صبيّاً دخل السرداب من أكثر من أربع مائة وأربعين سنة، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يدرك له حس ولا خبر .

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية، والنصيرية، ونحوه في السابق والتالي والناطق، والأساس والجسد وغير ذلك من الترتيب ، الذي ما نزل الله به ٤٤٠/١١ من سلطان.

وأما الأوتاد : فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد، يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان، والدين في قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة، والجبال الكبيرة، ومن كان بدونه كان بحسبه، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض .

وأما القطب: فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب، أو فلان قطب، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا، باطناً أو ظاهراً فهو قطب ذلك الأمر ومداره، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه، أو قريته أو مدينته، أمر دينها أو دنياها، باطناً أو ظاهراً، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر، لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا، فهذا هو القطب في عرفهم ، فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء، ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً .

٤٤١/١١ / وكذلك لفظ «البدل» جاء في كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) .

من كلام النبي عليه السلام، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام، وكانت الشام والعراق دار كفر، ثم لما كان في خلافة علي - رضي الله عنه - قد ثبت عنه - عليه السلام - أنه قال: «تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(١) فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام، ومعلوم أن الذين كانوا مع علي - رضي الله عنه - من الصحابة مثل عمار بن ياسر، وسهل بن حنيف ونحوهما، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية، وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام؟! هذا باطل قطعاً، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الاسراء: ٣٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قُرْءَانٍ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الانعام: ١٥٢]، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والذين تكلموا باسم البذل فسروه بمعان: منها أنهم أبدال الأنبياء/ومنها أنه كلما مات ١١/٤٢ منهم رجل أبدال الله تعالى مكانه رجلاً، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات، وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر، ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض، وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم «النجباء».

فالمغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم «الغوث» هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والاثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعائة وأربعين سنة.

وكذلك من فسر «الأربعين الأبدال» بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل، بل النصر والرزق يحصل بأسباب من أكدها دعاء المؤمنين، وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر، كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله، الرجل يكون حامياً القوم، يسهم له مثل ما يسهم

(١) سبق تخريجه ص ٩٦ .

لأضعفهم؟ فقال: «ياسعد ، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفاثكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»^(١).

٤٣/١١ وقد يكون للرزق والنصر أسباب آخر؛ فإن الفجار والكفار/أيضا يرزقون وينصرون، وقد يجذب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينبئوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكرب، وقد يلي للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً، ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون . إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر، وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة، فليس كل إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ . كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

وليس في أولياء الله المتقين ، ولا عباد الله المخلصين الصالحين، ولا أنبيائه المرسلين، من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس، بل هذا من جنس قول القائلين: إن علياً في السحاب، وإن محمد بن الحنفية في جبال رضوى، وإن محمد بن الحسن بسرداب سامري، وإن الحاكم بجبل مصر ، وإن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان، فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان، نعم قد تخرق العادة في حق الشخص، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه، وإما لغير ذلك، وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل، نعم يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره، ٤٤/١١ ومعرفته غيباً عن أعين الناس، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن/أكثر الناس ، فهذا هو الواقع ، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، وأكثر الناس لا يعلمون، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً، واندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع.

وكذلك لفظ «خاتم الأولياء» لفظ باطل لا أصل له، وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي ، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رئاسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رئاسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه ، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٩٦)، وأحمد ١/١٧٣، واللفظ له ، كلاهما عن سعد بن مالك .

الحقيقة آخر مؤمن تقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم عمر: اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما.

٤٤٥/١١ / قال شيخ الإسلام - قدس الله روحه - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم في أمر «البطائحية» يوم السبت تاسع جمادي الأولى سنة خمس^(١) ، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه ، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة ، ومن شهدا فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة ، ولما حصل بها من عز الدين ، وظهور كلمته العليا ، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة ، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة ، والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين .

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء «البطائحية» ، وطريقهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفاعي) وحاله ، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم ، ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام ، فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع ، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم .

وذلك أنني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع - وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم التعب والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد - فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ، والاستخفاف بشريعة الإسلام ، والكذب والتلبيس ، وإظهار المخارق الباطلة وأكل أموال

(١) هكذا بالأصل .

الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد .

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات، وتاب منهم جماعة، وأدب منهم جماعة من شيوخهم، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق: مثل ملابس النار والحيات، وإظهار الدم، واللاذن^(١) والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك، وإن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم، ودخلوا على أن أسترحم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوباً، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك.

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق، وكان له صنم يعبد، قال : فقال لي : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل في الطعام بينا يرى فيه !! فأنكرت ذلك، فقال لي: إن كان يأكل أنت تموت؟ فقلت: نعم، قال: فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر! فاستعظم ذلك/التري وأقسم ٤٨/١١ بأيمان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك، فقلت لهذا الشيخ : أنا أبين لك سبب ذلك. ذلك التري كافر مشرك، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالنتري بالنسبة إلى أمثالك، فالنتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثل من كان حاضراً!

وقلت لهم في مجلس آخر، لما قالوا: تريد أن تظهر هذه الإشارات؟ قلت: إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن: من الأعراب والفلاحين، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفهمة والمتفكرة والمتصوفة - لم يحسب لكم ذلك. فمن معه ذهب فليات به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر، لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك. فقالوا لي: لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا، فقلت: همتي ليست معكم، بل أنا معارض لكم مانع لكم، لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله ﷺ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا. فانقلبوا صاغرين.

(١) من لذن، وهو من العلوك، وقيل: هو دواء بالفارسية، وقيل: هو ندى يسقط على الغنم في بعض جزائر البحر. انظر: اللسان، مادة «لذن».

٤٤٩/١١ | فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر، مطوقين بأغلال الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتي هي أحسن، فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا لله سر من أسرارهم، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع، وقلت: هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبد بذلك، ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال: «مالي أرى عليك حلية أهل النار»^(١). وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال، فالتشبه بأهل النار من المنكرات، وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا، قال في آخره: «أحب القيد وأكره الغل. القيد ثبات في الدين»^(٢) فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة؟!.

٤٥٠/١١ | فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع/زيادة ، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة ، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعلة، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به، وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تحب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر

(١) أبو داود في الخاتم (٤٢٢٣)، والترمذي في اللباس (١٧٨٥)، وقال: «حديث غريب»، والنسائي في الزينة

(٥١٩٥)، كلهم عن بريدة، وأحمد ١٦٣/٢، ١٧٩، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) البخاري في التعبير (٧٠١٧)، ومسلم في الرؤيا (٦/٢٢٦٣).

الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله، كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة (طاعة وعبادة). ٤٥١/١١

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل «الفتوة» و«رمة البندق» ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله، لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك، ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالالتزام بطريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة، إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قرابة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ، وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك. وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قرابة لم يجز أن يعتقد أو يقال: إنه قرابة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد، يرون الشيء/إذا لم يكن ٤٥٢/١١ محرماً لا ينهى عنه، بل يقال: إنه جائز، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضه، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات.

فصل

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع. وكان قد كتب إلى كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إما أحاديث موضوعة، أو إسرائيلييات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال

الناس بالباطل .

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك ٥٣/١١ وحضر عندنا منهم شخص ففزعنا الغل من عنقه، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَتَأْهَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِيْعِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع: أهل الأهواء .

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحرب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب. فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونتفق على اتباع سبيله . فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو- على ما ذكر لي - وهم من الصياح والاضطراب، على أمر من أعجب العجائب، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة، وطلباً للبيان والتبصرة، ورجاء المنفعة والتذكرة ، فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد، واضطراب ٥٤/١١ الرؤوس والأعضاء، والتقلب في نهر بردي، وإظهار التوله/الذي يخيّلوا به على الردى، وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال .

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر، وسأل عنهم فقليل له: هم مشتكون، فقال: ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم، وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه، لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا: بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ، قال: فأى شيء يقال له ؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا، قال: فنسمع كلامه، فمن كان الحق معه نصرناه، قالوا: نريد أن تشد منا، قال: لا، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه، قالوا: ولا بد من حضوره؟ قال: نعم، فكررنا ذلك فأمر بإخراجهم، فأرسل إلى بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

فلما علمت ذلك ألقى في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين، وكشف

حال أهل النفاق المتبدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحبيت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة/الحال، وإنني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، ٤٥٥/١١ وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان، فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة. وقال شيخهم الذي يسبح بأقطار الأرض؛ كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله. وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع، فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته، واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى ألقى في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون بردًا وسلامًا على من اتبع ملة الخليل، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل، وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الخنفاء بنوحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء.

وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، نسب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية/كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مشابهة ٤٥٦/١١ الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلو في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق، كالملاحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العباد.

فلما أصبحنا ذهبنا للميعاد، وما أحبيت أن أستصحب أحدًا للإسعاد، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب، والله هو المسبب لجميع الأسباب. وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعًا مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زعمهم أن لهم أحوالًا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وإن لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء، وإن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وإنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة، وأن المنكر عليهم هو أخذ بالشرع الظاهر، غير واصل إلى الحقائق والسرائر، وأن لهم طريقًا وله طريق، وهم الواصلون إلى كنه التحقيق، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق.

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لحفاء
٤٥٧/١١ نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام/، وطموس آثار الرسول في أكثر
الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار ، لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم
فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل .

قال المخبر : فغدا أولئك الأمراء الأكابر، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم
الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر
ظهور الحق عند التحقيق، فأعاد الرسول إلى مرة ثانية، فبلغه أنني في الطريق، وكان كثير
من أهل البدع الأضداد، كطوائف من المتفهمة والمتفكرة وأتباع أهل الاتحاد، مجدين في
نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم. فلما حضرت وجدت
النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالين للاطلاع،
فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض مآذروهم من الأقوال المشتملة على
الافتراء. وقال: إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان، وأن يحموا الأطواق ناراً
ويلبسوها فقلت : هذا من البهتان.

وها أنا ذا أصف ما كان ، قلت للأمير: نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً،
ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار. وفي ذلك الحديث الصحيح^(١)، وهؤلاء يكذبون
في ذلك ، وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين وديارهم ما الله به
٤٥٨/١١ عليم. وذكرت/تلييسهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبسوا على الأمير المعروف
بالأيدمري^(٢)، وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما، وقد لبسوا أيضاً على الملك
العادل كتفا في ملكه، وفي حالة ولاية حماة، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر،
وضاق المجلس عن حكاية جميع تلييسهم. فذكرت تلييسهم على الأيدمري، وأنهم كانوا
يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق
المكاشفة، ووعدوه بالملك، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب، فصنعوا خشباً طوالاً
وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة
وذاك يرى من بعيد قومًا يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالا
كثيراً ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو ممن حدثني بهذه
القصة، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به

(١) مسلم في الإمامة (٣٩/١٨٤٠)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٥)، كلاهما عن علي .

(٢) هو أيدمر بن عبد الله التركي، المكنى بعلم الدين المحيوي، شاعر، له قصائد وموشحات جيدة السبك ،

تركي الأصل ، له اشتغال بالحديث ، توفي سنة ٦٧٤هـ. [الأعلام للزركلي ٣/٣٤] .

في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملة من المال، فقال قفجق: الشيخ يكشف وهو يعلم أن خزانتي ليس فيها هذا كله، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز، /فذكرت للأمير هذا، ولهذا قيل ٤٥٩/١١ لي: إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتابا وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى .

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها، وإنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة، فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه، فذكرت حديث العرباض بن سارية، وحديث جابر بن عبد الله، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره .

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء ، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرّون على ذلك، ويقولون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يسلم إلينا ما نحن عليه - سواء وافق الشرع أو خالفه - وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلك بعد أن غسل جُسُومنا بالخل والماء الحار .

فقال الأمير: ولم ذاك ؟ قلت : لأنهم يطلّون جُسُومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع ، وباطن قشر النارج، وحجر الطلق وغير ذلك/من الحيل المعروفة لهم، و أنا لا ٤٦٠/١١ أطلّي جلدي بشيء، فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق، فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟ فقلت له : نعم ! قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطنًا وظاهرًا لحجة أو حاجة ، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن نصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجُسُومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات .

وليُعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة؛ لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط

بذلك، وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده، وسمعتة يخاطب الأمير الكبير، الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السماط، بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قال: اليوم ترى حرباً عظيماً، ولعل ذلك كان ٤٦١/١١ جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخهم الأكابر، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق، وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر فسمعتة يذكر له أيوب الحمال بمصر والموليين ونحو ذلك، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وإن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال، فإنه ذكر لي ذلك.

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وأكرمه، فأمر ببساط يسط في الميدان، وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء، الطفر والحبو والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْرِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامّة ٤٦٢/١١ وغيرهم، وحضر شيخهم الأول المشتكى، وشيخ آخر/يسمى نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمونه: عبد الله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته ولم أنفطن لكذبه حتى فارقني، فبقى في نفسي أن هذا خفي على تلبسه إلى أن غاب، وما يكاد يخفى علي تلبس أحد، بل أدركه في أول الأمر فبقى ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبسه بيني وبينه.

فلما حضروا، تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وإنا مجيئون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتبعون للشرعة. فقلت: أما التوبة فمقبولة. قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ الدَّنِئِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿نِعْمَ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فأخذ شيخهم المشتكى ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في

بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً، في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

/فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا، قد ٤٦٣/١١
روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: « أمتهوكون يابن الخطاب ؟ لقد جثتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم »^(١)، وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال: « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل إلى نبي غير نبيهم »، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] ^(٢).

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا، كما قال تعالى: ﴿وَأَن أٰحْكُمُ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، هات ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح؛ كالبخاري ومسلم، وذكرنا هذا وشبهه بكيفية قوية.

/فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ٤٦٤/١١ ونحن قوم شافعية.

فقلت له: هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين، بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعدده بدعة، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملاكاني ^(٣) مفتى الشافعية ودعوته وقلت: ياكمال الدين ما تقول في هذا؟ فقال: هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة، أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٣٢.

(٣) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، المعروف بابن الزملاكاني فقيه، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره، ولد وتعلم بدمشق وتوفي في بلبس ودفن بالقاهرة، له رسالة في الرد على ابن تيمية في مسألتها «الطلاق والزيادة» وله كتاب في التاريخ، وكتب أخرى، وكان شكله حسناً ومنظراً رائعاً، وعقيدته صحيحة متمكنة أشعرية. [فوات الوفيات ٧/٤-١١ (٤٨٨)].

وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنتك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر، فإني تكلمت بكلام بعد عهدي به.

فانتدب ذلك الشيخ « عبد الله » ورفع صوته. وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه: مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر، ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وإن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا.

٤٦٥/١١ / فقلت له - ورفعت صوتي وغضبت - : الباطن والظاهر والجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ. وذكرت هذا ونحوه.

فقال - ورفع صوته - : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا، وادعى الأحوال الخارقة؛ كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

فقلت - ورفعت صوتي وغضبت - : أنا أخطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت: فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار، فسألني الأمراء والناس عن ذلك؟ فقلت: لأن لهم حيلة في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء: من دهن الضفادع، وقشر النارنج، وحجر الطلق. فضج الناس بذلك، فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال: أنا وأنت تلف في بارية بعد أن تطلّي جسومنا بالكبريت. فقلت: فقم، وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده يظهر خلع القميص فقلت: لا! حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر اليهم على عادتهم، فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال: حزمة حطب. فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يوقد وأدخل أصبعي وأصبعك فيه بعد الغسيل، ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله، أو قلت: فهو مغلوب. فلما قلت ذلك تغير وذل. وذكر لي أن وجهه أصفر.

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك مايدل على صحة ما

تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: انبتى فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تبعه، ويقتل رجلا ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له: قم فيقوم، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون، لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أندري/ ما قال صاحبنا، يعني الليث بن سعد؟ قال: لو رأيته رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيته صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به، وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بعد عهدي به. ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولاهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩]، وذكروا أيضا أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب، وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهما، فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقتني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة. وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم.

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلييسهم، وتبين للأمرء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا، وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال، وعرفوا حقيقة المحال، وقمنا إلى/ داخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عما مضى، وسألني ٤٦٨/١١ الأمير عما تطلب منهم فقلت: متابعة الكتاب والسنة مثل أن لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر، وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة أنكر علينا غير الأطواق؟ نحن نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئا معينا، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين

تحت طاعة الله ورسوله ﷺ . فقال الأمير: فأبي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، ومن خرج عنه ضربت عنقه - وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان - وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس، فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة، وأهل الديوان، والعلماء والعباد، وهؤلاء وولاة الأمور - أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

٤٦٩/١١ | قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله، فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا على في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد، شيء لله. وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب، ولم يأمره بإعادة الصلاة. وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس.

فقلت: العطاس من الله، والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان، وهو باختيارهم وتكلفهم، ويقدرّون على دفعه، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى: مثل قول أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام، وقول الآخر كذا وكذا من الإمام، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة ٤٧٠/١١ يصلون بالنوبة، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا/مغلوبين على ذلك، كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم قلت له: أهذا موافق للكتاب والسنة؟ فقال: هذا من الله حال يرد عليهم، فقلت: هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أحبه الله ولا رسوله، فقال: مافي السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته، فقلت له: هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل مافي العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله، بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن.

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال. فقلت: بهذه السياط الشرعية. فأعجب الأمير

وضحك ، وقال : أي والله ، بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية ، وأمسكت سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وعلامه وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله ، وأعاد الأمير/ هذا الكلام ، وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يقرون ولا نفر نحن؟ فقلت : ٤٧١/١١ اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم ، والمبتدع لا يقر على بدعته . فأفحموا لذلك .

و«حقيقة الأمر» أن من أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يقر على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر ، ولا يقر من أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ، ومن سواهم فإن كان مسلمًا أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته ، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذميًا فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

وذكرت ذم «المبتدعة» فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : «إن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة»^(١) . وفي السنن عن العرياض بن سارية ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلّت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال : «أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيروا اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين/ من بعدي ، تمسكوا بها ، ٤٧٢/١١ وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» وفي رواية : «وكل ضلالة في النار»^(٢) .

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً في ذم الزنا ، فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شر من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ، وكان قد قال بعضهم : نحن نتوب الناس ، فقلت : مماذا تتوبونهم؟ قال : من قطع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ، فإنهم كانوا فاسقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينوون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما

(١) سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٢) أبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال : « حسن صحيح » .

يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله ، وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين : أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعي حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان يضحك النبي ﷺ ، وكان كلما أتى به النبي ﷺ جلده الحد فلعنه رجل مرة . وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتي به إلى النبي ﷺ !؟ فقال النبي ﷺ : « لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله » (١) . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي ﷺ بذلك ونهى عن لعنه .

وأما المبتدع فمثل ما أخرجنا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي ﷺ كان يقسم ، فجاءه رجل ناتئ الجبين كث اللحية ، مخلوق الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال . فقال النبي ﷺ : « يخرج من صئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتم لأقتلنهم قتل عاد » (٢) وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » (٣) وفي رواية « شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه » (٤) .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي ﷺ بقتلهم ، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي ﷺ ، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته ، وأظن أنني ذكرت قول الشافعي : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قبح البدع في الإسلام ، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدعاً منكراً فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والشارق وشارب الخمر . أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا لا تتعرض لهذا الجنب العزيز - يعني اتباع أحمد بن الرفاعي - فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ، أي شيء هو الجنب العزيز ، وجناب من خالفه أولى بالعز يا ذو الزرجة (٥) ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ، فقال : يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم ، فقلت : مثل ما أحرقتي الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم ، ويقول أصحابهم إن لهم سرّاً مع الله ، فنصر الله وأعان

(١) البخاري في الحدود (٦٧٨٠) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٣) أبو داود في السنة (٤٧٦٨) بنحوه .

(٤) أحمد ٢٥٦/٥ .

(٥) كذا بالأصل . والزرجون : الخمر . انظر : اللسان ، مادة « زرجن » .

عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجليل .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة يا بيت الكذب - فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم/ أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل ٤٧٥/١١ فيهم : لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون .

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهدتوا بها فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك، والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

٤٧٦/١١ / سئل شيخ الإسلام ، وناصر السنة، فريد الوقت، وبحر العلوم، بقية المجتهدين، وحجة المتأخرين، تاج العارفين، وقدوة المحققين، رحلة الطالبين، ونخبة الراسخين ، إمام الزاهدين ومنال المجتهدين، الإمام الحجة النوراني، والعالم المجتهد الرباني، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - أدام الله علو قدره في الدارين، وجعله يتسنى ذروة الكمال مسرور القلب قرير العين - عن «المرشدة» كيف كان أصلها وتأليفها؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فأجاب - رحمه الله تعالى - قائلا :

الحمد لله رب العالمين، أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن التومرت، الذي تلقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

٤٧٧/١١ ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر. / وغيرهم جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام، واستجاز أن يظهر لهم أنواعاً من المخاريق، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ، الذي يواطئ اسمه اسمهم، واسم أبيه اسم أبيه. وأنه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره.

ثم إن أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه، وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً. وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه.

ومن الحكايات التي يأترونها عنه أنه واطأ رجلاً على إظهار الجنون وكان ذلك علماً

يحفظ القرآن والحديث والفقه، فظهر بصورة الجنون والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً. ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ القرآن والحديث والفقه، وزعم أنه علم ذلك في المنام، وعوفي مما كان به، وربما قيل: إنه ذكر لهم أن النبي ﷺ علمه ذلك فصاروا يحسنون ٤٧٨/١١ الظن بذلك الشخص، وأنه كان لهم يوم يسمونه يوم الفرقان، فرق فيه بين أهل الجنة وأهل النار بزعمه، فصار كل من علموا أنه من أوليائهم جعلوه من أهل الجنة، وعصموا دمه، ومن علموا أنه من أعدائهم جعلوه من أهل النار، فاستحلوا دمه، واستحل دماء أئوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة، يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك، والفقه على مذهب أهل المدينة، فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً أموالهم، وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه، من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة، وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة، لما امتحنوا الناس في «خلافة المأمون» وأظهروا القول بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، ونفوا أن يكون لله علم، أو قدرة أو كلام أو مشيئة، أو شيء من الصفات القائمة بذاته.

وصار كل من وافقهم على هذا التعطيل عصموا دمه وماله، وولوه الولايات وأعطوه الرزق من بيت المال، وقبلوا شهادته وافتدوه من الأسر، ومن لم يوافقهم على أن القرآن ٤٧٩/١١ مخلوق وما يتبع ذلك من بدعهم قتلوه، أو حبسوه أو ضربوه أو منعهوا العطاء من بيت المال، ولم يولوه ولاية، ولم يقبلوا له شهادة، ولم يفدوه من الكفار. يقولون: هذا مشبه، هذا مجسم، لقوله: إن الله يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله استوى على العرش، ونحو ذلك. فدامت هذه المحنة على المسلمين بضع عشرة سنة، في أواخر خلافة المأمون، وخلافة أخيه المعتصم، والواثق بن المعتصم، ثم إن الله تعالى كشف الغمة عن الأمة، في ولاية المتوكل على الله، الذي جعل الله عامة خلفاء بني العباس من ذريته دون ذرية الذين أقاموا المحنة لأهل السنة.

فأمر المتوكل برفع المحنة وإظهار الكتاب والسنة، وأن يروى ما ثبت عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، من الإثبات النافي للتعطيل. وكان أولئك الجهمية المعطلة قد بلغ من تبديلهم للدين أنهم كانوا يكتبون على ستور الكعبة: «ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم» ولا يقولون: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»، وأنهم كانوا يمتحنون الناس بقوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، فإذا قالوا: وهو السميع البصير أنكروا عليهم، ومذهب سلف الأمة وأئمتها

٨٠/١١ غير / تكييف ولا تمثيل ، فلا ينفون عن الله ما أثبتته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفي مجمل. وأعداء الرسل - الجهمية الفلاسفة ونحوهم - وصفوه بنفي مفصل، وإثبات مجمل. فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه : بكل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وإنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وأنه كلم موسى تكليماً، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ. كما قال : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى : ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ﴾. على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى : ﴿وَجِئُوا بِرُوحٍ نَاضِرَةٍ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

٨١/١١ / وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجزنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»^(١) وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»^(٢)، وإن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضامون في رؤية الشمس صحوا ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر صحوا ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم، كما ترون الشمس والقمر»^(٣) فشبه ﷺ الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي، فإن العباد لا يحيطون بالله علماً، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء : إن «الإدراك» هو الإحاطة ؛ فالعباد يرون

(١) مسلم فى الإيمان (١٨١ / ٢٩٧) .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦ ، ٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩) ومسلم فى المساجد (٦٣٣ / ٢١١) .

(٣) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٨٣ / ٣٠٢) .

الله تعالى عياناً ولا يحيطون به ، فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله .

وقال تعالى في النفي : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سُمِّيَا﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الاخلاص : ٤] ، ٤٨٢/١١ ،
فبين في هذه الآيات أن الله لا كفو له ، ولا ند له ، ولا مثل له ولا سمي له ، فمن قال :
إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي ، أو إرادته ومحبته ورضاه
وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي ، أو استواءه على العرش كاستوائي ، أو
نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتياني ، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه ، تعالى الله
عما يقولون ، وهو ضال خبيث مبطل ، بل كافر .

ومن قال : إن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا مشيئة ، ولا سمع ولا
بصر ، ولا محبة ولا رضى ، ولا غضب ، ولا استواء ، ولا إتيان ولا نزول فقد عطل
أسماء الله الحسنی وصفاته العلی ، و ألحد في أسماء الله وآياته ، وهو ضال خبيث مبطل
بل كافر ، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات ، إثبات بلا
تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري : من شبه الله
بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به
نفسه ولا رسوله تشبيهاً .

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماء ولبناً وخمراً وعسلاً ولحماً
وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة ، وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في
الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء . فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا ٤٨٣/١١
في الأسماء ، والحقائق ليست مثل الحقائق ، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه
في الاسم ؟ ! .

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير ، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير ، وليس هذا
مثل هذا ، وأخبر أنه حي ، وعن بعض عباده أنه حي ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه
رؤوف رحيم ، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه عليم
حليم وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم ، وليس هذا مثل هذا ، وسمى نفسه الملك ،
وسمى بعض عباده الملك ، وليس هذا مثل هذا . وهذا كثير في الكتاب والسنة ، فكان
سلف الأمة وأئمتها كائما المذاهب ؛ مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ،
على هذا ، إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، لا يقولون بقول أهل التعطيل ، نفاة
الصفات ، ولا يقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات ، فهذه طريقة الرسل ، ومن
آمن بهم .

وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم، فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكره مطابقاً ٤٨٤/١١ للمعدوم، فلا يبقى/فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم، وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيتناقضون، يثبتونه من وجه، ويجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمراً مطلقاً، وإن كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق - سبحانه وتعالى - موجوداً مبانئاً لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون: هو وجود المخلوقات.

ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، ولم يدخلها فيه، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم، بقى هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية ٤٨٥/١١ وتارة يوافقونهم/على أنه وجود مطلق، ولايزيدون على ذلك.

وصاحب «المرشدة» كانت هذه عقيدته كما قد صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك، ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة؛ أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام: من الكلاية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث، فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرته كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]

وقال تعالى: ﴿وَالسَّلَامَةُ بَيْنَهُمَا بِإِذْنِي﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن. يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ٤٨٦/١١ ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأصرفه عني وأصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان. ثم رضني به»^(١).

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية، والشيعية، ونحوهم ممن اتفقت ٤٨٧/١ طوائف أهل السنة والجماعة، أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله، وتضليله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله، فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة، فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها، فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وبطلاً، فالحق يجب اتباعه، والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير. وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون؛ إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون، ولا يخلد في النار من

(١) البخاري في التهجد (١١٦٢) وأبو داود في الاستخارة (١٥٣٨).

٤٨٨/١١ / و«التوحيد» هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ . كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، وهذه السورة تعدل ثلث القرآن . وقوله: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً . فمن قال: أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق . أو قال: إن الله يرى في الآخرة أو قال: «أستخبرك بعلمك . وأستقدرك بقدرتك» لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين، اتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن .

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى: إنه قادر على ما يشاء، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلى الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لا يقدر على غير ما فعل، ٤٨٩/١١ ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير، سواء شاءه أو لم يشأه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَيُلِيْقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال: «هاتان أهون»^(١) قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجاز الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة . وقد قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ سُوِيَ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤] فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] فالله تعالى قادر على ذلك . فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه .

(١) البخاري في التفسير (٤٦٢٨)، عن جابر .

وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبيننا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها، ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك، ٤٩٠/١١ فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد من المسلمين إلى تعلمها وقراءتها، ولا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا، وقال له: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلا، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا^(١) عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ٤٩١/١١ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

والله أعلم، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) في المطبوعة : « وأنزلنا » والصواب ما أثبتناه.

٤٩٢/١١ /سئل عن رجل تخاطب هو وإنسان على من قرأ «المرشدة» .

قال الأول :قال بعض العلماء: المرشدة لا يجوز أن نقرأها، قال الآخر : من لا يقرأها فهو كافر؟

الجواب :

الحمد لله ، أما هذا القائل الثاني الذي قال :من لا يقرأها فهو كافر ، فإنه كاذب ضال مخطئ جاهل يجب أن يستتاب عن مثل هذا القول ، فإن تاب وإلا عوقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن مثل هذا .

بل إذا فهم مضمون قوله : من لم يقرأها فهو كافر ، وأصر عليه بعد العلم ، كان هو الكافر المستحق لأن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . والله أعلم .

/سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن قوم متسبين إلى المشائخ: ٤٩٣/١١
يتوبونهم عن قطع الطريق، وقتل النفس والسرقة، والزموهم بالصلاة؛ لكنهم يصلون
صلاة عادة البادية، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا؟ ومع هذا شعارهم الرفض،
وكشف الرؤوس، وتفتيل الشعر، وحمل الحيات. ثم غلب على قلوبهم حب الشيوخ.
حتى كلما عثر أحدهم أو هممه أمر استغاث بشيخه، ويسجدون لهم مرة في غيبتهم، ومرة
في حضورهم. فتارة يصادف السجود إلى القبلة، وتارة إلى غيرها - حيث كان شيخه -
ويزعمون هذا لله. ومنهم من يأخذ أولاد الناس حوارات برضى الوالدين، وبغير رضاهم،
وربما كان ولد الرجل معيناً لوالديه على السعي في الحلال فيأخذه ويعلمه الدروزة. وينذر
للموتى، ومنهم من يواخي النسوان فإذا نهوا عن ذلك قال: لو حصل لي أمك وأختك،
وأختيهما فإذا قيل: لا تنظر أجنبية. قال: انظر عشرين نظرة، ويحلفون/بالمشائخ. وإذا نهوا ٤٩٤/١١
عن شيء من ذلك. قال: أنت شرعي. فهل المنكر عليهم مأجور أم لا؟

وهل اتخاذ الخرقه على المشائخ له أصل في الشرع أم لا؟ وهل انتساب كل طائفة إلى
شيخ معين يثاب عليه أم لا؟ وهل التارك لها آثم أم لا؟ ويقولون: إن الله يرضى لرضا
المشائخ، ويغضب بغضبهم ويستندون إلى قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(١) و«أوثق
عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله»^(٢) فهل ذلك دليل لهم، أم هو شيء آخر؟
ومن هذه حاله هل يجوز دفع الزكاة إليه؟

فأجاب - قدس الله روحه - :

وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات، فليس هذا من شعار أحد من
الصالحين لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا
الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره، وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة،
ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين وخرجوا عن حقائق الدين، وفارقوا
طريق عباد الله الصالحين وهم نوعان:

أهل حال إبليسي، وأهل محال تليسي، فأما أهل «الأحوال»/منهم: فهم قوم اقترنت ٤٩٥/١١

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٢ .

بهم الشياطين، كما يقترونون بإخوانهم. فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال ، فيزيدون ويرغون . كما يفعله المصروع، ويتكلمون بكلام لا يفهمونه هم ولا الحاضرون، وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع، ولهم مشابيهون في الهند من عباد الأصنام. ومشابيهون بالمغرب يسمى أحدهم المصلي، وهؤلاء الذين في المغرب من جنس الزط الذين لا خلاق لهم، فإذا كان لبعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئاً فيجيئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون ويوقدون ناراً عظيمة مؤججة ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجمر وينصبون رماحاً فيها أسنة، ثم يصعد أحدهم يقعد فوق أسنة الرماح قدام الناس، ويأخذ ذلك الحديد المحمي ويمره على يديه ، وأنواع ذلك .

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمى بها، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح، وهم الذين يباشرون النار وأولئك قد لا يشعرون بذلك، كالمصروع الذي يضرب ضرباً وجيعاً وهو لا يحس بذلك، لأن الضرب يقع على الجنى، فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى، ولا يأتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآنه، فمؤذنه المزمار، وقرآنه الغناء.

٤٩٦/١١ / ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة ، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين، ولا في الدنيا، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين، وأولياء الله المتقين، لكانت تحصل عند ما أمر الله به من العبادات الدينية، ولكان فيها فائدة في الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات، واستئزال المطر عند الحاجات، والنصر على الأعداء عند المخافات، وهؤلاء أهل الأحوال الشيطانية في التلبس يحقون البركات، ويقوون المخافات، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم، وإن كان تتريا ، بل يرجحون التتر على المسلمين ، ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين، وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله.

وأما أهل «المحال» منهم : فهم يصنعون أدوية كحجر الطلق، ودهن الضفادع، وقشور النارج ونحو ذلك، يمشون بها على النار ويمسكون نوعاً من الحيات ويأخذونها بضعة ، ويقدمون على أكلها بفجور وما يصنعونه من السكر واللادن، وماء الورد، وماء الزعفران والدم، فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور.

ومنهم من تأتيه الشياطين، وذلك هم أهل المحال الشيطاني.

وأما ما ذكروا من غلوهم في الشيوخ: فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ومن له في الأمة لسان صدق - وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله، وإلى طاعته وطاعة رسوله، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ .

والمقصود أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

والرسل أمروا الخلق أن لا يعبدوا إلا الله، وأن يخلصوا له الدين، فلا يخافون غيره، ولا يرجون سواه، ولا يدعون إلا إياه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ يَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وقال تعالى: ٤٩٨/١١ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فالإيتاء لله والرسول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، والحلال ما حلله رسول الله والحرام ما حرمه. والدين ما شرعه، ليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعته وشريعته، ومن لم يقر به باطنًا وظاهرًا فهو كافر مخلد في النار.

وخير الشيوخ الصالحين، وأولياء الله المتقين: أتبعهم له وأقربهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر التابعين بإحسان، وأما الحسب فله وحده ولهذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولم يقولوا: ورسوله. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: إن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. فهو وحده يكفيهم فإنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو كاف عبده، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٤٩٩/١١ / وروى أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله، هل ربنا قريب فنتأجيه؟ أم بعيد فنناديه؟
فأنزل الله تعالى هذه الآية (١)، فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم، وهو أرحم بعباده
من الوالدة بولدها، وهو يعلم من أحوال العباد ما لا يعلمه غيره، ويقدر على قضاء
حوادثهم التي لا يقدر عليها غيره، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره.

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه، ويرشدون إليه، بمنزلة الأئمة في الصلاة،
يصلون ويصلي الناس خلفهم، وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت، وهو
وهم جميعاً يحجون إليه، ليس لهم من الإلهية نصيب، بل من جعل لهم شيئاً من ذلك
فهو من جنس النصارى المشركين، الذين قال الله في حقهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ الْإِسْلَامِ
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد قال نوح عليه السلام: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول.

فليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً، بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً: لا من الأنبياء
ولا غيرهم، فلا يقول لأحدهم: يا سيدي فلان! أنا في حسبك أو في جوارك، ولا
يقول: بك أستغيث، وبك أستجير، ولا يقول: إذا عثر: يا فلان! ولا يقول: محمداً!
٥٠٠/١١ وعلي! ولا الست نفيسة/ ولا سيدي الشيخ أحمد، ولا الشيخ عدي، ولا الشيخ عبد
القادر، ولا غير ذلك، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب، ومسألته، والاستغاثة
به، والاستنصار به، بل ذلك من أفعال المشركين، وعبادات الضالين.

ومن المعلوم أن سيد الخلق محمد ﷺ، قد ثبت في صحيح البخاري: أن الناس لما
أجذبوا استسقى عمر بالعباس. وقال اللهم: إنا إذا أجذبنا توصلنا إليك بنبينا، فتسقينا،
وإنا نتوكل بعم نبينا فاسقنا فيسقون (٢). فكانوا في حياة النبي ﷺ يتوسلون بدعائه،
وشفاعته لهم، كما يتوكل به الناس يوم القيامة، ويستشفعون به إلى ربهم، فيأذن الله له
في الشفاعة فيشفع لهم. ألا ترى الله يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾
[البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ
عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فبين - سبحانه - أن المخلوقات كلها ليس
لأحد منها شيء في الملك، ولا له شريك فيه، ولا له ظهير، أي: معين لله تعالى كما
تعاون الملوك، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له.

(١) الطبري في التفسير ٩٢ / ٢ .

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠١٠)، عن أنس .

وإذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيطلبون الشفاعة منهم، فلا يشفع لهم أحد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق، حتى يأتوا محمداً ﷺ / فيأتي ربه فيحمده بمحامد ويسجد له، فإذا أذن له في الشفاعة ٥١/١١ شفع لهم. فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق، فكيف غيرهم؟

فلما مات النبي ﷺ لم يكونوا يدعونه، ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره، بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره، لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين، فإنه ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١)، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»^(٢)، وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني»^(٣). وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٤) يحذر ما فعلوا وقال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده»^(٥)، وقال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(٦).

وفي المسند أن معاذ بن جبل سجد له. فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: يا رسول الله، رأيتهم في الشام يسجدون لأسافقتهم ويذكرون ذلك عن أنبيائهم فقال: «يا معاذ، لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»، وقال: «يا معاذ، رأيت لو مررت بقبري أكنت ساجداً لقبري» قال: لا. قال: «فإنه لا يصلح» ٥٢/١١ السجود إلا لله»^(٧) أو كما قال.

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً، ولا لقبره، فكيف يجوز السجود لغيره؟ بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(٨) فقد نهى عن الصلاة إليها، كما نهى عن اتخاذها مساجد ولهذا لما أدخلوا حجرتة في المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنماً منحرفاً عن سمت القبلة لئلا يصلي أحد إلى الحجرة النبوية، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره. كائناً من كان؟!

وأما قول القائل: هذا السجود لله تعالى فإن كان كاذباً في ذلك فكفى بالكذب خزيًا، وإن كان صادقاً في ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإن السجود لا يكون إلا على الوجه المشروع وهو السجود في الصلاة، وسجود السهو وسجود التلاوة، وسجود الشكر

(١) سبق تخريجه ص ٤٠. (٢، ٣) سبق تخريجهما ص ١٦١. (٤) سبق تخريجه ص ١٦٠.

(٥) أحمد ١ / ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣ وقال الشيخ شاكر ٢ / ٤٢٣: «إسناده صحيح».

(٦) أحمد ٥ / ٣٩٣ وابن ماجه في الكفارات (٢١١٨) والدارمي ٢ / ٢٩٥.

(٧) أبو داود في النكاح (٢١٤٠) وابن ماجه في النكاح (١٨٥٣).

(٨) مسلم في الجنائز (٩٧٣/٩٧، ٩٨)، عن أبي مرثد الغنوي.

على أحد قولي العلماء . وأما السجود عقيب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء وكذلك ما يفعله بعض المشايخ من سجدين بعد الوتر لم يفعله أحد من السلف ولا استحبه أحد من الأئمة، ولكن هؤلاء بلغهم حديث رواه أبو موسى الذي في (الوظائف) أن النبي ﷺ كان يصلي سجدين بعد الوتر ففعلوا^(١) الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس ولم يداوم على ذلك»^(٢) فسميت الركعتان سجدين. كما في أحاديث أخر. فهذا هو أصل ذلك. والكلام في هاتين الركعتين المذكور في غير هذا الموضع.

وأما السجدة فلا أصل لهما ولا للسجود المجرد بلا سبب وقالوا: هو بدعة فكيف بالسجود إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة، وهذا يشابه من يسجد للشرق في الكنيسة مع النصارى ويقول: لله، أو يسجد مع اليهود إلى الصخرة ويقول: لله؛ بل سجود النصارى واليهود لله وإن كان إلى غير قبلة المسلمين خير من السجود لغير الله. بل هذا بمنزلة من يسجد للشمس عند طلوعها وغروبها ويسجد لبعض الكواكب والأصنام ويقولون: لله.

فصل

وأما فساد الأولاد: بحيث يعلمه الشحاذة، ويمتنع من الكسب الحلال، أو يخرجهم ٥٠٤/١١ بيلاده مكشوف الشعر^(٣) في الناس، فهذا يستحق/صاحبه العقوبة البليغة، التي تزجره عن هذا الإفساد، لاسيما إن أدخلوهم في الفواحش، وغير ذلك من المنكرات، و يجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله، كما قال النبي ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»^(٤).

(١) بياض بالأصل .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (١٢٦/٧٣٨)، عن عائشة.

(٣) بياض بالأصل .

(٤) أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وأحمد ١٨٠/٢، كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

فصل

وأما «النذر للموتى» من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى. سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس، والرهبان وبيوت الأصنام. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١)، وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله، وإما إذا كان النذر لغير الله، فهو كمن يحلف بغير الله، وهذا شرك. فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاء ولا كفارة. ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين، فأجره على رب العالمين.

/ وأصل عقد النذر منهي عنه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر ٥٠٥/١١ وقال: «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»^(٢)، وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج، دون ما لم يكن طاعة لله تعالى.

فصل

فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب، وخلوهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن، فهذا حرام باتفاق المسلمين، ومن جعل ذلك من الدين، فهو من إخوان الشياطين. قال الله تعالى: «وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقال النبي ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»^(٣)، وقال: «إياكم والدخول على النساء». قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمى؟ قال: «الحمى الموت»^(٤) ومن لم ينته عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره، وأمثاله من أهل الفساد والعناد.

(١) سبق تخريجه ص ٥٤ .

(٢) البخارى فى الإيمان والنذور (٦٦٩٢) ومسلم فى النذر (١٦٤٠ / ٥ ، ٦) .

(٣) الترمذى فى الرضاع (١١٧١) .

(٤) البخاري فى النكاح (٥٢٣٢)، ومسلم فى السلام (٢١٧٢ / ٢٠)، كلاهما عن عقبة بن عامر .

فصل

وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه، غير منعقد باتفاق الأئمة، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول الله ﷺ خاصة. والجمهور على أنه لا تنعقد اليمين لا به ولا بغيره، وقد قال النبي ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٢)، فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقه على الله، أو بالملوك أو بنعمة السلطان أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيه أو نحو ذلك كان منهيًا عن ذلك، ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين.

فصل

وأما قول القائل لمن أنكر عليه: أنت شرعي، فكلام صحيح، فإن أراد بذلك أن الشرع لا يتبعه، أو لا يجب عليه اتباعه، وأنا خارج عن اتباعه، فلفظ الشرع قد صار له في عرف الناس «ثلاث معان»: الشرع المنزل، والشرع المؤول، والشرع المبدل.

٥٠٧/١١ | فأما الشرع المنزل: فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة، وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه، وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعًا له، ومن لم يلتزم هذا الشرع، أو طعن فيه أو جاوز لأحد الخروج عنه، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وأما المؤول فهو ما اجتهد فيه العلماء من الأحكام، فهذا من قلد فيه إمامًا من الأئمة ساغ ذلك له، ولا يجب على الناس التزام قول إمام معين.

وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكذوبة، والتفاسير المقلوبة، والبدع المضلة التي أدخلت في الشرع وليست منه، والحكم بغير ما أنزل الله. فهذا ونحوه لا يحل لأحد اتباعه.

وإنما حكم الحاكم بالظاهر. والله تعالى يتولى السرائر، وحكم الحاكم لا يحيل الأشياء عن حقائقها. فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بنحو ما أسمع فمن قضيت له من أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٣) فهذا قول إمام الحكماء، وسيد ولد آدم.

٥٠٨/١١ | وقال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم: فإن أصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٤).

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم فى الإيمان (٣/١٦٤٦).

(٢) أحمد ٢ / ٣٤ والترمذى فى النذور (١٥٣٥) وقال: «حديث حسن».

(٣) سبق تخريجه ص ١٤٦. (٤) سبق تخريجه ص ١٠٧.

وقال: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس بجهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار» (١).

ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً ﷺ ظاناً أنه متبع للحقيقة. فإنه مضاه للمشركين المكذبين للرسل، ولفظ «الحقيقة» يقال: على «حقيقة كونية» و «حقيقة بدعية» و «حقيقة شرعية».

ف «الحقيقة الكونية» مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه. وهذا مما يجب أن يؤمن به، ولا يجوز أن يحتج به، بل لله علينا الحجة البالغة. فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر عن المعاصي فعذره غير مقبول.

وأما «الحقيقة البدعية» فهي سلوك طريق الله سبحانه وتعالى، مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد، والمحبة والهوى، من غير اتباع الكتاب والسنة، كطريق النصارى، فهم تارة يعبدون غير الله، وتارة يعبدون بغير أمر الله. كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أبحارهم/ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله ٥٠٩/١١ مالم ينزل به سلطاناً، وشرعوا من الدين مالم يأذن به الله. وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لَبَلَّوْكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وأما «الحقيقة الدينية» وهي بتحقيق ما شرعه الله ورسوله، مثل الإخلاص لله، والتوكل على الله، والخوف من الله، والشكر لله، والصبر لحكم الله، والحب لله ورسوله، والبغض في الله ورسوله، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله، فهذا حقائق أهل الإيمان، وطريق أهل العرفان.

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ .

فصل /

والأمر بالمعروف، وهو الحق الذي بعث الله به رسوله. والنهي عن المنكر، وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور، بل هو من أعظم الواجبات، وأفضل الطاعات، بل هو طريق أئمة الدين. مشايخ الدين، نفتدي بهم فيه. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهذه الآية بها استدلال المستدلون على أن شيوخ الدين، يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين، ولا ممن يقتدى به.

فصل

وأما لباس الخرقه التي يلبسها بعض المشايخ المريدين، فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين ٥١١/١١ يلبسونها المريدين. ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه، وقد استدلل بعضهم بأن النبي ﷺ ألبس أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ثوباً، وقال لها: سنا، والسنا بلسان الحبشة الحسن^(١). وكانت قد ولدت بأرض الحبشة، فلهذا خاطبها بذلك اللسان، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ. فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال: «أردت أن تكون كفنًا لي»^(٢).

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه، فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوب من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والافتداء، ولكن يشبه من بعض الوجوه خلع الملوك التي يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة ولهذا يسمونها تشريقاً، وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك.

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين: فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن. كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون؛ وبذلك

(١) انظر: البخاري في اللباس (٥٨٢٣ ، ٥٨٤٥) ، عن أم خالد بنت العاص.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٣٦) ، عن سهل بن سعد.

يحصل اتباع السابقين/الأولين بإحسان ، فكما أن المرأ له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك ٥١٢/١١
 له من يعلمه الدين الباطن والظاهر، ولا يتعين ذلك في شخص معين، ولا يحتاج الإنسان
 في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها، وكل
 ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه
 الجهة، فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن، وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي
 على متابعتة، ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان، ومن
 عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحداً بمزيد موالاة، إلا إذا ظهر
 له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله
 ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
 لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ : « لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود
 على أبيض ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (١).

فصل /

٥١٣/١١

وأما قول القائل : أنت للشيخ فلان، وهو شيخك في الدنيا والآخرة.

فهذه بدعة منكرة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله، ومن جهة أن قوله: شيخك في
 الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له، فإنه إن أراد أنه يكون معه في الجنة، فهذا إلى الله لا
 إليه، وإن أراد أنه يشفع فيه فلا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله تعالى ، إن أذن له أن يشفع
 فيه وإلا لم يشفع، وليس بقوله : أنت شيخني في الآخرة يكون شافعاً له - هذا إن كان
 الشيخ ممن له شفاععة - فقد تقدم أن سيد المرسلين والخلق لا يشفع حتى يأذن الله له في
 الشفاععة بعد امتناع غيره منها. وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا
 يعلمه إلا الله تعالى .

وقول القائل : لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به هو من كلام أهل الشرك
 والبهتان، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم، كما
 قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ٥١٤/١١
 [الأنبياء: ٩٨]. لكن قال النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه
 إذا ذكرني ، فإن ذكرني ، في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ

(١) أحمد ٥ / ٤١١ والهيثمى فى مجمع الزوائد (٣ / ٢٦٩) وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً . وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١) ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك ، ولا يستحب له ذلك ، بل يكره له .

وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك ، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين ، يعلمونه ويؤدّبونه لا يبدلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه ، فإنه يفعل الأصلح لدينه ، وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه ، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده .

فأما الانتساب الذي يفرق بين المسلمين ، وفيه خروج عن الجماعة والاتلاف إلى الفرقة ، وسلوك طريق الابتداع ، ومفارقة السنة والاتباع ، فهذا مما ينهي عنه ، ويأثم فاعله ، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ .

فصل /

٥١٥/١١

وأما قول القائل : إن الله يرضى لرضا المشائخ ، ويغضب لغضبهم .

فهذا الحكم ليس هو لجميع المشائخ ، ولا مختص بالمشائخ ، بل كل من كان موافقاً لله يرضى ما يرضاه الله ، ويسخط ما يسخط الله كان الله ، يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ، من المشائخ وغيرهم ، ومن لم يكن كذلك من المشائخ ، لم يكن من أهل هذه الصفة ، ومنه قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان قد جرى بينه وبين صهيب وخباب وبلال وغيرهم كلام في أبي سفيان بن حرب ؛ فإنه مر بهم فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها . فقال : أتقولون هذا لكبير قريش ؟ ودخل على النبي ﷺ فأخبره ، فقال : «لعلك أغضبتهم يا أبا بكر ، لئن كنت أغضبتهم ، لقد أغضبت ربك» أو كما قال . قال : فخرج عليهم أبو بكر فقال لهم : يا إخواني ، أغضبتكم؟ قالوا : لا يغفر الله لك يا أبا بكر^(٢) ، فهؤلاء كان غضبهم لله .

٥١٦/١١ وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبني يسمع ، وبني يبصر ، وبني يبطش ، وبني

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥ / ٢) .

(٢) مسلم في فضائل الصحابة (١٧٠ / ٢٥٠٤) ، وأحمد ٦٤ / ٥ ، كلاهما عن عائذ بن عمرو .

يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١) .

فهذا المؤمن الذي تقرب إلى الله بالتواضع بعد الفرائض أحبه الله لأنه فعل ما أحبه الله، والجزاء من جنس العمل. قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وفي الحقيقة فالعبد الذي يرضى الله لرضاه، ويغضب لغضبه، هو يرضى لرضا الله، ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان: فمن أحب ما أحب الله، وأبغض ما أبغض الله، ورضى ما رضى الله لما يرضى الله، ويغضب لما يغضب، لكن هذا لا يكون للبشر على سبيل الدوام، بل لابد لاكمل الخلق أن يغضب أحياناً غضب البشر، ويرضى رضا البشر.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيا مسلم سببته أو لعنته وليس لذلك بأهل فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة» (٢)، وقول النبي ﷺ لأبي بكر: «لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ٥١٧/١١ ربك» في قضية معينة، لكون غضبه لأجل أبي سفيان وهم كانوا يغضبون لله، وإلا فأبو بكر أفضل من ذلك، وبالجملية فالشيوخ والملوك وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا، وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وليس أحد معصوماً إلا رسول الله ﷺ، وهذا في الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به.

وأما من كان مبتدعاً بدعة ظاهرة، أو فاجراً فجوراً ظاهراً. فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره، أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به، لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله، وجبت طاعة الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، في كل حال، ولو كان الأمر بها كائناً من كان.

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٦١)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠١/٩٠-٩٣)، وأحمد ٣١٧/٢، ٤٩٣، كلهم عن أبي هريرة.

فصل

وأما قوله ﷺ : «المرء مع من أحب» (١) فهو من أصح الأحاديث. وقال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث ، فأنا أحب رسول الله وأبا بكر ٥١٨/١١ وعمر ، وأرجو أن أحشر/معهم ، وإن لم أعمل مثل أعمالهم ، وكذلك «أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله» (٢) لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله ومن يحب الله ، فيحب أنبياء الله كلهم ، لأن الله يحبهم ويحب كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى ، فإن هؤلاء أولياء الله ، والله يحبهم كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وغيرهم من أهل بدر وأهل بيعة الرضوان .

فمن شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بالجنة ، وأما من لم يشهد له بالجنة ، فقد قال طائفة من أهل العلم : لا نشهد له بالجنة ولا نشهد أن الله يحبه ، وقال طائفة : بل من استغشى من بين الناس إيمانه وتقواه ، واتفق المسلمون على الثناء عليه ، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي (٣) وعبد الله بن المبارك - رضي الله عنهم - وغيرهم ، شهدنا لهم بالجنة ؛ لأن في الصحيح : أن النبي ﷺ مر عليه بجنائز فأنشأ عليها خيراً فقال : «وجبت ، وجبت» ، ومر عليه بجنائز ، فأنشأ عليها شراً ، فقال : «وجبت ، وجبت» . قالوا : يا رسول الله ، ما قولك : وجبت ، وجبت ؟ قال : «هذه الجنائز أنشئتم عليها خيراً فقلت : وجبت لها الجنة ، وهذه الجنائز أنشئتم عليها شراً فقلت : وجبت لها الجنة» (٤) ، قيل : ب/م يا رسول الله ؟ قال : «بالثناء الحسن ، والثناء السيئ» (٤) .

وإذا علم هذا فكثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان ، قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك ، بل قد يكون فيهم المنافق والفاسق ، كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين ، وعباد الله الصالحين ، وحزب الله المفلحين ، كما أن غير المشائخ فيهم هؤلاء . وهؤلاء في الجنة ، والتجار والفلاحون وغيرهم من هذه الأصناف .

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ . (٢) سبق تخريجه ص ٩٢ .

(٣) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز ، وقيل : الفيروزان ، وقيل : علي الكرخي الصالح المشهور ، وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤديهم ، وهو صبي ، فكان المؤدب يقول له : قل : ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد ، فضربه المعلم على ذلك ضرباً مبرحاً فهرب منه . وكان أبواه يقولان : ليت يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه . فرجع فدخل الباب فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقيل له : على أي دين ؟ فقال : على الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة ، توفي سنة مائتين ، وقيل : إحدى ومائتين ، وقيل غير ذلك . [وفيات الأعيان ٥/ ٢٣١-٢٣٣] .

(٤) البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ومسلم في الجنائز (٩٤٩ / ٦٠) .

إذا كان كذلك فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً، بل عليه أن يأخذ بما يعلم، فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم : ٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] ، وعلى هذا فمن أحب شيخاً مخالفاً للشريعة كان معه، فإذا دخل الشيخ النار كان معه، ومعلوم أن الشيوخ المخالفين للكتاب والسنة أهل الضلال والجهالة، فمن كان معهم كان مصيره مصير أهل الضلال والجهالة، وأما من كان من أولياء الله المتقين: كأبي بكر وعمر وعثمان/وعلي وغيرهم، فمحنة هؤلاء من أوثق عرى الإيمان، وأعظم حسنات المتقين. ٥٢٠/١١

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله، أثابه الله على محبة ما يحبه الله ورسوله، وإن لم يعلم حقيقة باطنه، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله. وكثير من الناس يدعى المحبة من غير تحقيق قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال بعض السلف: ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية ، فمحنة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته، وترك مكروهاته، والناس يتفاضلون في هذا تفاضلاً عظيماً، فمن كان أعظم نصيباً من ذلك، كان أعظم درجة عند الله.

وأما من أحب شخصاً لهواه، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتأكله به، أو بعصية فيه، ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله، بل هذه محبة لهوى النفس، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان، وما أكثر من يدعي حب مشائخ لله، و لو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي أحبهم لأجله: ٥٢١/١١ فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير.

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول الله ﷺ وسبيل الله . وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب الله.

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر ، فأهل الشرك يتخذون أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، وأهل الإيمان يحبون ذلك، لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله، ومن أحب الله أحب من يحبه، ومن أحبه الله، فمحبوب المحبوب محبوب ، ومحبوب الله يحب الله، فمن أحب الله فيحبه من أحب الله.

وأما أهل الشرك فيتخذون أندادا أو شفعاء يدعونهم من دون الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؕ أَنَا خَشِدٌ ذُو نِفْسٍ ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ بَيْنَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلشِّرْكِ أَن يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْعِصْمَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب، ليكون الدين كله لله، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»^(١) فالدين واحد وإن تفرقت الشريعة والمنهاج، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُّعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن حين بعث الله محمدا ﷺ ما يقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به فإن دعوته عامة لجميع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨].
 ٥٢٣/١١ وقال ﷺ: «لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي الْأَمْرُ الَّذِي يَخْذُونَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَلِكُمْ يَعِزُّوهُمْ وَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ الْوَحْيُ ۚ هُمْ الْمُهْتَدُونَ . قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا

(١) سبق تخريجه ص ١٢٤ .

(٢) مسلم في الإيمان (١٥٣ / ٢٤٠) ، عن أبي هريرة .

الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ إِلَّا هُوَ يُعْجِبُ وَيُسْهِرُ فَأَتَمُّوا بِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوَفِّي بَالَهُ وَكَلِمَتِهِ، وَأَتَمُّوا لِمَلَكِهِمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٦-١٥٨].

فعلى الخلق كلهم اتباع محمد ﷺ، فلا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بشريعة محمد ﷺ، لا غيرها، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، ويجتمعون على ذلك ولا يتفرقون، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»^(١) وعبادة الله تتضمن كمال محبة الله، وكمال الذل لله، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو ٥٢٤/١١ المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه، وإلا له ما تالاه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك.

والله - سبحانه - أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلوا القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به، ولهذا كان وسط الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، نصفين، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حمدي عبدي، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حمدي عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذه الآية بيني وبين عبدي ونصفين ولعبي ما سألت: وإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»، قال: هؤلاء لعبدي ولعبي ما سألت»^(٢).

فوسط السورة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالدين ألا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا بإياه، والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكِبْ فِي سَمْعِهِمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣] فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح، وحب اليهود لموسى وحب الرافضة

(١) سبق تخريجه ص ٥٥ .

(٢) مسلم في الصلاة (٣٩٥ / ٣٨) .

لعلي، وحب الغلاة لشيوعهم وأئمتهم : مثل من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان في الرتبة، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم، وحال أهل العصية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون بعض الشيوخ والأئمة دون البعض، وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠]، وقال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١) وشبك بين أصابعه، وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٢)، وقال عليه السلام: «لا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٣).

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله : أن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: ٥٢٦/١١ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَنَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل : ١٧ - ٢١]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار، لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله. وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ولا من غيره، بل آمن به وأحبه وكلاه وأعانه بنفسه، وماله متقرباً بذلك إلى الله وطالبا الأجر من الله ورسوله، يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعدته ووعدته، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

والله هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل، وهو سبحانه مسبب الأسباب، ورب كل شيء ومليكه.

والأسباب التي يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك، وأما ما ينهي عنه نهياً خالصاً، أو كان من البدع التي لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا إِلَٰهَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُم مِّنْهُم مِّنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣]، بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم الميين، أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ثم بين أنه لا شركة لهم، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير، لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق. كما يقول بعضهم : إذا كانت/ لك حاجة استوصى الشيخ فلان، فإنك تجده، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده، يا شيخ، يقضي حاجتك، وهذا غلط، لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير

(١) سبق تخريجهما ص ٥٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٥ .

الله من يرى صورة المدعو أحياناً فذلك شيطان تمثل له . كما وقع مثل هذا لعدد كثير .

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدي وغيره : كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده ، والعجب من ذي عقل سليم يستوصى من هو ميت ، يستغيث به ، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت ، ويقوى الوهم عنده أنه لولا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته ، فهذا حرام فعله .

ويقول أحدهم : إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه ، فهكذا يتوصل إليه بالشيخ . وهذا كلام أهل الشرك والضلال ، فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته ، ولا يقدر على قضائها وحده ، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك ، والله أعلم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، وهو على كل شيء قدير ، فالأسباب منه وإليه ، وما من سبب من الأسباب ، إلا دائر موقوف على أسباب أخرى ، وله معارضات ، فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق السمندر ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام .

/وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها ، بل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ ٥٢٨/١١ لم يكن . وهو - سبحانه - أرحم من الوالدة بولدها : يحسن إليهم ويرحمهم ، ويكشف ضرهم ، مع غناه عنهم ، وافترارهم إليه ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة ، فقال : ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] ، وقال : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، فهو الذي يأذن في الشفاعة ، وهو الذي يقبلها ، فالجميع منه وحده ، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً ، كانت شفاعة الرسول أقرب إليه . قال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » (١) .

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ، ويتعلقون بفلان ، فهؤلاء من جنس المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة : ٤] ، وقال : ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ٥٢٩/١١﴾

(١) البخارى فى العلم (٩٩) .

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال طائفة من السلف: كان قوم يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباد، كما أن هؤلاء عباد، وهؤلاء يتقربون إلى الله، وهؤلاء يرجون رحمة الله، وهؤلاء يخافون عذاب الله. فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله، واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به، والمؤمنون أشد حباً لله؛ فلا يعبدون إلا الله وحده، ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه كمحبتة لا أنبيائه ولا غيرهم، بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله، وأخلصوا دينهم لله، وعلموا أن أحداً لا يشفع لهم إلا بإذن الله، فأحبوا عبد الله ورسوله محمداً ﷺ لحب الله، وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، ولم يرجوا إلا الله، ولم يخافوا إلا الله، ولم يسألوا إلا الله، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع، ولا مخافتنا له، وإنما ينفع توحيدنا، وإخلاصنا لله، وتوكلنا عليه، فهو الذي يأذن للشفيع.

٥٣٠/١١ فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى/المشركين ودينهم، ويتبع أهل التوحيد والإيمان، ويخرج عن مشابهة المشركين، وعبدية الصلبان.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا باب واسع، ودين الإسلام مبني على هذا الأصل، والقرآن يدور عليه.

(١) البخارى فى الإيمان (١٦) ومسلم فى الإيمان (٤٣ / ٦٧) .

/سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن جماعة اجتمعوا على أمور ٥٣١/١١ متنوعة في الفساد، وتعلق كل منهم بسبب، واستند إلى قول قيل: فمنهم من هو مكب على حضور السماع المحرمة التي تعمل بالدفوف، التي بالجلال، والشبابات المعروفة في هذا الزمان. ويحضرها المردان والنسوان، ويستند في ذلك إلى دعوى جواز حضور السماع عند الشافعي وغيره من الأئمة.

فأجاب:

أما السماع المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف المصلصات ، فقد اتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك ، كالغناء والتصفيق باليد ، والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك ، فهذا وإن كان فيه ما هو مباح ، وفيه ما هو مكروه ، وفيه ما هو محظور ، أو مباح للنساء دون الرجال - فلا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القرب والطاعات والعبادات ، ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين/يحضرون مثل هذا السماع ، لا ٥٣٢/١١ بالحجاز، ولا مصر، ولا الشام ، ولا خراسان ، ولا في زمن الصحابة ، والتابعين ، ولا تابعيهم .

لكن حدث بعد ذلك . فكان طائفة يجتمعون على ذلك ، ويسمون الضرب بالقضيب على جلال ونحوه «التغيير» .

قال الحسن بن عبد العزيز الحاراني: سمعت الشافعي يقول: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغيير ، يصدون به الناس عن القرآن، وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين ، فإن القلب إذا تعود سماع القصائد والأبيات والتذ بها، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات ، فيستغنى بسماع الشيطان عن سماع الرحمن .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »^(١) وقد فسرهُ الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما بأنه من الصوت فيحسنه بصوته ، ويترنم به ، بدون التلحين المكروه، وفسره ابن عيينة وأبو عبيد وغيرهما بأنه الاستغناء به، وهذا وإن كان له معنى صحيح فالأول هو الذي دل عليه الحديث، فإنه قال: « ليس منا من لم يتغن بالقرآن

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) .

يجهر به»^(١) وفي الأثر: «إن العبد إذا ركب الدابة أتاه الشيطان وقال له : تغن ، فإن لم تغن ، قال له : تغن» فإن النفس لابد لها من شيء في الغالب تترنم به . فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر .

وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين . قال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم : ٥٨] ، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية : [المائدة : ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الاسراء : ١٠٧] ، وقال : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر : ٢٣] ، وقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال : ٢] .

وهذا «السماع» هو الذي شرعه الله للمؤمنين في الصلاة وخارج الصلاة ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ : إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والناس يستمعون .

ومر النبي ﷺ بأبي موسى وهو يقرأ . فجعل يستمع لقراءته . وقال : «مررت بك البارحة وأنت تقرأ . فجعلت أستمع لقرائتك» فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً ، أي : لحسنه تحسناً^(٢) ، وكان عمر يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون لقراءته . وقال النبي ﷺ لابن مسعود : «اقرأ على القرآن» . فقال : أقرأ عليك ٣٤/١١ وعليك أنزل؟! قال : / «إني أحب أن أسمعه من غيري» . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء : ٤١] ، فقال : «حسبك» فنظرت فإذا عيناه تذرفان بالدمع^(٣) . فهذا هو السماع الذي يسمعه سلف الأمة ، وقرونها المفضلة . وخيار الشيوخ إنما يقولون بهذا السماع .

وأما الاستماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها . فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم . وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسري السقطي وأمثالهم من المتأخرين : الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي بن مسافر ، والشيخ أبي مدين ، والشيخ أبي البيان ، وأمثال هؤلاء المشائخ ؛ فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع ، وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه . وكان الجنيد - رحمه الله تعالى - لا يحضره في آخر عمره . ويقول : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به ، أي من قصد السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع بيتاً يناسب حاله بلا اقتصاد فهذا يستريح به .

والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من أحداث الزنادقة ، لم يكونوا

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٩ .

(٢) سبق تخريجهما ص ١٦٤ .

يجتمعون مع مردان ونسوان، ولا مع مصلصلات وشبابات وكانت أشعارهم مزهدات مرققات.

/فأما «السماع» المشتمل على منكرات الدين، فمن عده من القربات استتيب، فإن تاب/ ٥٣٥/١١
وإلا قتل. وإن كان متأولاً جاهلاً بين له خطأ تأويله، وبين له العلم الذي يزيل الجهل.
هذا من كونه طريقاً إلى الله.

وأما كونه محرماً على من يفعله على وجه الله واللعب لا على وجه القرية إلى الله،
فهذا فيه تفصيل، فأما المشتمل على الشبابات والدخوف المصلصلة، فمذهب الأئمة
الأربعة تحريمه، وذكر أبو عمرو بن الصلاح^(١) أن هذا ليس فيه خلاف في مذهب
الشافعي، فإن الخلاف إنما حكي في البراع المجرد، مع أن العراقيين من أصحاب الشافعي
لم يذكروا في ذلك نزاعاً، ولا مقدمة الخراسانيين، وإنما ذكره متأخرو الخراسانيين.

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ ذكر الذين يستحلون الحر والحرير
والخمر والمعاذ على وجه الذم لهم وإن الله معاقبهم^(٢). فدل هذا الحديث على تحريم
المعاذ. والمعاذ هي آلات اللهو عند أهل اللغة، وهذا اسم يتناول هذه الآلات كلها.

ولهذا قال الفقهاء: إن من أتلفها فلا ضمان عليه إذا أزال التالف/المحرم، وإن أتلف/ ٥٣٦/١١
المالية ففيه نزاع، ومذهب أحمد المشهور عنه. ومالك أنه لا ضمان في هذه الصور أيضاً،
وكذلك إذا أتلف دنان الخمر، وشق ظروفه وأتلف الأضنام المتخذة من الذهب، كما أتلف
موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب وأمثال ذلك.

(١) أبو عمر بن الصلاح هو: تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلية الشافعية، ولد سنة سبع وسبعين وخمسائة، تفقه على والده بشهرزور، سمع من كثير، منهم عبد الله بن السمين، ونصر بن سلامة وغيرهم، قالوا عنه إنه إمام ورع وافر العقل، حسن السمعة، متبحر في الأصول والورع، توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة. [سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ١٤٠ - ١٤٤].

(٢) البخاري في الأشربة (٥٥٩٠)، عن أبي عامر وأبي مالك الأشعري.

٥٣٧/١١ | وسئل عمن يؤاخي النسوان ، ويظهر شيئاً من جنس الشعبذة، كنقش شيء من القطن أو الخرقه بالأذن ، أو بغير ذلك ، أو يمسك النار مباشرة بكفه أو بأصابعه بلا حائل بينه وبينها. إلخ.

فأجاب:

وأما مؤاخاة النساء ، وإظهار الإشارات المذكورة، فهي من أحوال إخوان الشياطين، وأصحاب هذه الإشارات ليس فيهم ولي لله، بل هم بين حال شيطاني، ومحال بهتاني، من حال إبليس ومحال تلبيس.

وهؤلاء أصل حالهم أن الشياطين تنزل على من يعمل ما يحبه الشيطان من الكذب والفجور، فإذا خرج أحدهم عن العقل والدين وصار من المتهوكين - الذين يطيعون الشيطان، ويعصون الرحمن، وله شخير ونخير كأصوات الحمير، يحضر أحدهم السماع، ويؤاخون النسوان، ويتخذون الجيران ويرقصون كالقروود ، وينقرون في صلاتهم الركوع والسجود، يبغضون سماع القرآن واتباع شريعة الرحمن - تنزل عليهم الشياطين التي تنزل ٥٣٨/١١ على كل أفاك أثيم. فمنهم من ترفعه/في الهواء، ومنهم من تدخله النار، ومنهم من يمشي ومعه ضوء يريه أن ذلك كرامات، ومنهم من يستغيث بالشيخ ويخاطب من يستغيث بالشيخ حتى يرى أن ذلك كرامة للشيخ، ومنهم من يحضر طعاماً وفاكهة وحلوى، إلى أمور أخرى قد عرفناها وعرفنا من وقعت له هذه الأمور، وأضعافها.

فإذا تاب الرجل، والتزم دين الإسلام، وصلى صلاة المسلمين، وتاب عما حرمه رب العالمين، واعتاض بسماع القرآن عن سماع الشيطان، ذهبت تلك الأحوال الشيطانية، فإن قوى إيمانه حصلت له مقامات الصالحين وإلا كفاه أن يكون من أهل جنة النعيم، وهذا بين يعرف المسلم أن هذه الأحوال شيطانية لا كرامات إيمانية.

/ وسئل عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة من الفساد، ومنهم من يقول : إن غاية ٥٣٩/١١ التحقيق، وكمال سلوك الطريق، ترك التكليف . بحيث إنه إذا ألزم بالصلاة يقوم، ويقول: خرجنا من الحضرة ووقفنا بالباب.

فأجاب :

أما من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف، فهذا مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنية، ومن شابههم من الملاحدة المنتسبين إلى علم أو زهد أو تصوف أو تزهد،

يقول: أحدهم إن العبد يعمل حتى تحصل له المعرفة ، فإذا حصلت زال عنه التكليف، ومن قال هذا فإنه كافر مرتد باتفاق أئمة الإسلام ، فإنهم متفقون على أن الأمر والنهي جار على كل بالغ عاقل إلى أن يموت قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. قال الحسن البصري: لم يجعل الله لعمل المؤمن غاية دون الموت؛ وقرأ هذه الآية . و«اليقين» هنا ما بعد الموت. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ

يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦ ، ٤٧]، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث ٥٤٠/١١ الصحيح لما مات عثمان بن مظعون : «أما عثمان فإنه أتاه اليقين من ربه» (١)، وقد سئل الجنيد بن محمد - رحمه الله تعالى - عمن يقول: إنه وصل من طريق البر إلى أن تسقط عنه الأعمال.

فقال: الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء، ولقد صدق الجنيد - رحمه الله - فإن هذه كبائر ، وهذا كفر ونفاق ، والكبائر خير من الكفر ، والنفاق .

وقول الواحد من هؤلاء: خرجنا من الحضرة إلى الباب، كلمة حق أريد بها باطل، فإنهم خرجوا من حضرة الشيطان، إلى باب الرحمن، كما يحكي عن بعض شيوخ هؤلاء: أنهم كانوا في سماع، فأذن المؤذن فقام إلى الصلاة. فقال: كنا في الحضرة، فصرنا إلى الباب، ولا ريب أنه كان في حضرة الشيطان، فصار على باب الرحمن، أما كونه أنه كان في حضرة الله، فصار على بابه، فهذا ممتنع عند من يؤمن بالله ورسوله، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ: «بأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد» (٢) وقد قال

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٩ .

(٢) مسلم في الصلاة (٤٨٢ / ٢١٥) .

النبي ﷺ : «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» (١).

٥٤١/١١ وفي الصحيح عن ابن مسعود. عن النبي ﷺ أنه سئل : أي الأعمال أفضل؟ قال : «الصلاة على مواقيتها» (٢)، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته» (٣)، وآخر شيء وصى به النبي ﷺ أمته الصلاة، وكان يقول: «جعلت قرّة عيني في الصلاة» (٤)، وكان يقول: «أرحنا يا بلال بالصلاة» (٥)، ولم يقل أرحنا منها، فمن لم يجد قرّة عينه وراحة قلبه في الصلاة، فهو منقوص الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال النبي ﷺ : « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» (٦).

وهذا باب واسع، لا ينكره من آمن بالله ورسوله.

(١) أحمد ٥ / ٢٧٧ وابن ماجه فى الطهارة (٢٢٧) .

(٢) سبق تخريجه ص ١١٢ .

(٣) أبو داود فى الصلاة (٨٦٤) والترمذى فى الصلاة (٤١٣) وقال: « حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

(٤) أحمد ٣ / ١٢٨ والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٣٩ ، ٣٩٤٠) .

(٥) أبو داود فى الأدب (٤٩٨٦) ، وأحمد ٥ / ٣٦٤ .

(٦) سبق تخريجه ص ١١٣ .

/سئل شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية - رحمه ٥٤٢/١١
الله - عما أحدثه الفقراء المجردون، والمطوعون من صحة الشباب، ومؤاخاة النسوان
والماجريات، وخط رؤوسهم بين يدي بعضهم بعضاً، وأكلهم مال بعضهم بعضاً بغير حق،
ومن جنى يشال تحت رجله، ويضرب بغير حق، ووقوفهم مكشوفو الرؤوس، منحنين
كالراكمين، ووضع النعال على رؤوسهم، ولباسهم الصوف، والرقع، والسجادة،
والسبحة، وأكل الحشيشة. وإذا جاءهم أمرد فرضوا عليه أن يصحبه واحد منهم، ويطلبوا
منه الصحبة، هل يجوز ذلك؟ أو نقل عن الصحابة؟

فأجاب :

الحمد لله، أما صحة المردان، على وجه الاختصاص بأحدهم - كما يفعلونه - مع ما
ينضم إلى ذلك من الخلوة بالأمرد الحسن، ومبيته مع الرجل، ونحو ذلك، فهذا من
أفحش المنكرات عند المسلمين، وعند اليهود، والنصارى، وغيرهم، فإنه قد علم
بالاضطرار من دين الإسلام ودين سائر الأمم، بعد قوم لوط : تحريم الفاحشة اللوطية،
ولهذا بين الله في كتابه أنه لم يفعلها قبل قوم لوط أحد من العالمين، وقد عذب الله
المستحلين لها بعذاب ما عذبه أحدًا من الأمم، حيث طمس أبصارهم وقلب مدائنهم ٥٤٣/١١،
فجعل عاليها سافلها، وأتبعهم بالحجارة من السماء.

ولهذا جاءت الشريعة بأن الفاحشة التي فيها القتل : يقتل صاحبها بالرجم بالحجارة،
كما رجم النبي ﷺ اليهوديين وماعز بن مالك الأسلمي والغامدية وغيرهم، ورجم بعده
خلفاؤه الراشدون.

والرجم شرعه الله لأهل التوراة والقرآن، وفي السنن عن النبي ﷺ : « من وجدتموه
يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (١). ولهذا اتفق الصحابة على قتلها
جميعاً، لكن تنوعوا في صفة القتل : فبعضهم قال : يرمونها، وبعضهم قال : يرمى من
أعلى جدار في القرية ويتبع بالحجارة، وبعضهم قال : يحرق بالنار، ولهذا كان مذهب
جمهور السلف والفقهاء أنهما يجرمان بكرين كانا أو ثيبين، حرين كانا أو مملوكين، أو

(١) أبو داود في الحدود (٤٤٦٢) والترمذي في الحدود (١٤٥٦) .

كان أحدهما مملوكاً للآخر، وقد اتفق المسلمون على أن من استحلها بمملوك أو غير مملوك فهو كافر مرتد.

وكذلك مقدمات الفاحشة عند التلذذ بقبلة الأمد، ولمسه، والنظر إليه، هو حرام باتفاق المسلمين. كما هو كذلك في المرأة الأجنبية. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ١١/٥٤٤ أنه قال: «العينان/تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» (١).

فإذا كان المستحل لما حرم الله كافراً، فكيف بمن يجعله قرابة وطريقاً إلى الله تعالى؟! قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وسبب نزول الآية أن غير الخمس من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، فجعل الله كشف عوراتهم فاحشة، وبين أن الله لا يأمر بالفحشاء، ولهذا لما حج أبو بكر الصديق قبل حجة الوداع، نادى - بأمر النبي ﷺ، وكان يحج المسلم والمشرک - : لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (٢). فكيف بمن يستحل إتيان الفاحشة الكبرى؟ أو ما دونها؟ ويجعل ذلك عبادة وطريقاً.

وإن كان طائفة من المتفلسفة ومن وافقهم من ضلال المتنكسة جعلوا عشق الصور الجميلة من جملة الطريق التي تزكى بها النفوس، فليس هذا من دين المسلمين، ولا اليهود ولا النصرى، وإنما هو دين أهل الشرك الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

١١/٥٤٥ / وإن كان أتباع هؤلاء زادوا على ما شرعه سادتهم وكبرائهم، زيادات من الفواحش التي لا ترضاها القروء، فإنه قد ثبت في صحيح البخارى «أن أبا عمران رأى في الجاهلية قرداً زنا بقردة، فاجتمعت عليه القروء فرجمته» (٣). ومثل ذلك قد شاهده الناس في زماننا في غير القروء، حتى الطيور.

فلو كانت صحبة «المردان» المذكورة خالية عن الفعل المحرم، فهي مظنة لذلك، وسبب له، ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله يحذرون من ذلك. كما قال فتح الموصلي: أدركت ثلاثين من الأبدال كل ينهاني عند مفارقتي إياه عن صحبة الأحداث، وقال معروف الكرخي: كانوا ينهون عن ذلك. وقال بعض التابعين: ما أنا على الشاب

(١) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣) .

(٢) البخارى فى الحج (١٦٢٢) ومسلم فى الحج (١٣٤٧ / ٤٣٥) .

(٣) البخارى فى مناقب الانصار (٣٨٤٩) .

الناسك من سبع يجلس إليه، بأخوف مني عليه من حدث يجلس إليه. وقال سفيان الثوري، وبشر الحافي: أن مع المرأة شيطاناً، ومع الحدث شيطانين، وقال بعضهم: ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه الله بصحبة هؤلاء الأحداث. وقد دخل من فتنة الصور والأصوات على الناسك ما لا يعلمه إلا الله، حتى اعترف أكابر الشيوخ بذلك. وتاب منهم من تداركه الله برحمته.

ومعلوم أن هذا من باب اتباع الهوى بغير هدى من الله. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. ومن استحل ذلك، أو اتخذ ديناً، كان ضالاً مضاهياً ٥٤٦/١١ للمشركين والنصارى، ومن فعله مع اعترافه بأنه ذنب أو معصية كان عاصياً أو فاسقاً.

وكذلك مؤاخاة «المرأة الأجنبية» بحيث يخلو بها، وينظر منها ما ليس للأجنبي أن ينظره حرام باتفاق المسلمين، واتخاذ ذلك ديناً وطريقاً كفر وضلال. والمال الذي يؤخذ لأجل إقرارهم، ومعونة على محادثة الرجل الأمرد، هي من جنس جعل القوادة، ومطالبتهم له بالصحبة من جنس العرس على البغي. والله سبحانه أباح النكاح غير مسافحين، ولا متخذي أخدان، فالمرأة المسافحة تزني بمن اتفق لها. وكذلك الرجل المسافح؛ الذي يزني مع من اتفق له، وأما المتخذ الخدن فهو الرجل يكون له صديقة، والمرأة يكون لها صديق، فالأمرد المخادن للواحد من هؤلاء من جنس المرأة المتخذة خدنًا، وكذلك الجعل والمال الذي يؤخذ على هذا من جنس مهر البغي، وجعل القوادة ونحو ذلك.

وأما «الماجريات» فإذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب أن يقام في أمرهما بالقسط. قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱفْتَنَتَا فَاَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغَىٰ حَتَّىٰ تَفِئَءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وقد روى: أن اقتتلهما كان بالجريد والنعال. ٥٤٧/١١

وقد قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [النساء: ١١٤]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال: ﴿وَجَزَاؤُ سِنَتِهِ سِنَةٌ وَمِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

فإن كان الشخصان قد اختصما، نظر أمرهما، فإن تبين ظلم أحدهما، كان المظلم

بالخيار بين الاستيفاء والعفو، والعفو أفضل ، فإن كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه، أو يلطمه، كما فعل به عند جماهير السلف، وكثير من الأئمة ، وبذلك جاءت السنة، وقد قيل : إنه يؤدب. ولا قصاص في ذلك.

وإن كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه، إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله، أو على غير الظالم. فإذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه، فله أن يقول له مثل ذلك، فإذا لعن أباه لم يكن له أن يلعن أباه، لأنه لم يظلمه، وإن افترى عليه كذباً لم يكن له أن يفترى عليه كذباً، لأن الكذب حرام، لحق الله ، كما قال كثير من العلماء في القصاص في البدن: إنه إذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل. فهذا أصح قولي العلماء، إلا أن يكون الفعل محرماً لحق الله، كفعل الفاحشة، أو تجريعه الخمر، فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم، وإن كان بعضهم سوغه بنظير ذلك.

وإذا اعترف الظالم بظلمه، وطلب من المظلوم أن يعفو عنه، ويستغفر الله له، فهذا حسن مشروع. كما ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء: أنه كان بين أبي بكر وعمر كلام، وإن أبا بكر طلب من عمر أن يستغفر له فأبى عمر، ثم ندم. فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبي ﷺ ، وذكر له ذلك. فقال النبي ﷺ : « يغفر الله لك يا أبا بكر »، ثم قال: «أيها الناس، إني قد جئت إليكم فقلت: إني رسول الله، فقلت: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟» (١).

وإذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب، كان من المحسنين الذين أجرهم على الله، وإن أبى إلا طلب حقه لم يكن ظالماً. لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن، فليس لأحد أن يخرجهم عن أهل الطريق بمجرد ذلك، كما قد يفعله كثير من الناس. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١]، [٤٢] فإنه لو كان من ترك الإحسان الذي لا يجب عليه يحسب خارجاً عن الطريق خرج عنه جمهور أهله.

و «أولياء الله» على صنفين: مقربين سابقين، وأصحاب يمين مقتصدين. كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة. وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره

(١) البخاري في التفسير (٤٦٤٠).

الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع ، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١).

ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونهم لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه، أو قرينه ونحو ذلك.

والله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح، كما أوجبه في الحكم. فقال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقيد الإصلاح الذي يشب عليه بالإخلاص، فقال/تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَبْتَعَاءَ مَرَضَاتِ ٥٥٠/١١ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. إذ كثير من الناس يقصدون الإصلاح، إما لسمعة وإما لرياء.

ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم في العفو، ويصلحه الظالم، وترغيبه في ذلك. فإن الله تعالى إذا ذكر في القرآن حقوق العباد التي فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو، كقوله سبحانه: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وعن أنس قال: « ما رفع إلى رسول الله ﷺ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو» (٢) وليس من شرط طلب العفو من المظلوم أن الظالم يقوم على قدميه، ولا يضع نعليه على رأسه، ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس. وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق. فإذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه. ثم المستحق بالخيار إن شاء عفى، وإن شاء استوفى.

وللمظلوم أن يهجره ثلاثاً، وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه، لقوله ﷺ: « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا، ٥٥١/١١ وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» (٣).

وأما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب، والفواحش ، والبعد المخالفة للكتاب والسنة،

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) أبو داود في الديات (٤٤٩٧) ، والنسائي في القسامة (٤٧٨٣ ، ٤٧٨٤) .

(٣) البخارى في الأدب (٦٠٧٧) ومسلم في البر والصلة (٢٥٠٦ / ٢٥) .

أو إضاعة الصلاة بالتفريط، وواجباتها، ونحو ذلك، فهذا لا بد فيه من التوبة، وهل يشترط مع التوبة إظهار الإصلاح في العمل؟ على قولين للعلماء، وإذا كان لهم شيخ مطاع فإن له أن يعزر العاصي بحسب ذنبه تعزيراً يليق بمثله أن يفعله بمثله، مثل هجره مدة. كما هجر النبي ﷺ الثلاثة المخلفين.

وقد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس في دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك تفرقت الأمور، فصار أمراء الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم في العلم والدين.

وهؤلاء أولو أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التي هم أولو أمرها. وهو كذلك فسر أولي الأمر في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بأمراء الحرب: من الملوك ونوابهم، وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم، ويأمرونهم بطاعة الله، فإن قوام الدين بالكتاب والحديد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وإذا كان ولاية الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق، كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيرهم وتأديبهم ما يتمكنون منه، إذا لم يقيم به غيرهم. كما قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان» (١).

وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة، كما كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينفي من شرب الخمر. وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة، لخوف فتنة النساء به، وقد مضت سنة رسول الله ﷺ بالنفي في الزنا، ونفي المخنث، وأمر بعض المشائخ للمسيء بالسفر هذا أصله. وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل طويل ببيان الذنوب، والتوبة منها، وشروط التوبة، وهو حال مستصحب للعبد من أول أمره إلى آخر عمره، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ الآية [النصر: ١، ٢].

وإذا تاب العبد، وأخرج من ماله صدقة للتطهر من ذنبه، كان ذلك حسناً مشروعاً. ٥٥٣/١١ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال النبي ﷺ: «الصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما

(١) مسلم في الإيمان (٤٩ / ٧٨).

تأكل النار الحطب»^(١)، وقال النبي ﷺ : «فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٢) وقال كعب بن مالك: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة. فقال النبي ﷺ : «أمسك عليك بعض مالك. فهو خير لك»^(٣).

لكن لا يجوز إلزامه بصدقة، ولا تحب عليه لا بإخراج ثيابه، ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يقصد مطالبته بالتوبة أن يؤكل ماله، لا سيما إذا أعنت فجعل له ذنب من غير ذنب، فإن هذا يبقى كذبا وظلماً، وأكلاً للمال بالباطل، ولا يجب أن يكون ما يخرج به صدقة مصروفًا في طعام يأكلونه، بل الخيرة إليه بوضعه حيث يكون أصلح وأطوع لله ولرسوله.

والذي ينبغي أن ينظر أحق الناس بتلك الصدقة فتدفع إليه، وأما أن يجعل من جملة التوبة صنعة طعام، و دعوة، فهذا بدعة. فما زال الناس يتوبون على عهد النبي ﷺ وأصحابه من غير هذه البدعة.

/وأما الشكر الذي فيه إخراج شيء من ماله: كملبوس، أو غيره شكرًا لله على ما ٥٥٤/١١ أنعم به، إما من توبة، وإما إصلاح، ونحو ذلك، فهو حسن مشروع، فإن كعب بن مالك لما جاءه المبشر بتوبة الله عليه، أعطاه ثوبه الذي كان عليه، واستعار ثوبًا ذهب فيه إلى النبي ﷺ. لكن تعيين اللباس وغيره في الشكر بدعة أيضًا. فإن فعل ذلك أحيانًا فهو حسن، فلا يجعل واجبًا أو مستحبًا، إلا ما جعله الله ورسوله واجبًا أو مستحبًا، ولا ينكر إلا ما كرهه الله ورسوله. فلا دين إلا ما شرع الله، ولا حرام إلا ما حرم الله.

وضرب الرجل تحت رجله هو من التعزير، فإن كان له ذنب يستحق به مثل ذلك من دين الله، والمؤدب له ممن له أهلية ذلك، فهو حق. وأما كشف الرؤوس، والانحناء فليس من السنة، وإنما هو مأخوذ عن عادات بعض الملوك، والجاهلية، والمخلوق لا يسأل كشف رأس، ولا ركوع له. وإنما يركع لله في الصلاة، وكشف الرؤوس لله في الإحرام.

وأما «لباس الصوف» فقد لبس رسول الله ﷺ جبة الصوف في السفر، ولهذا قال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة.

/ومعنى هذا أن المداومة عليه في الحضر بدعة. كما روينا عن محمد بن سيرين: أنه ٥٥٥/١١ بلغه أن أقوامًا يتحرون لباس الصوف. قال: أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف، فلبسوه لذلك، وهدي نبينا أحب إلينا من هدي غيره. وفي السنن: أن أصحاب

(١) ابن ماجه فى الزهد (٤٢١٠) وضعفه الألباني .

(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٣٥) ومسلم فى الإيمان (١٤٤ / ٢٣١) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٧٦) .

رسول الله ﷺ كانوا يشهدون الجمعة، ولباسهم الصوف^(١). وفي الحديث الآخر: قدم على النبي ﷺ قوم مجتابي النمار^(٢). والنمار من الصوف، وقد لبس النبي ﷺ القطن، وغيره.

ومعنى هذا أن اتخاذ لبس الصوف عبادة وطريقاً إلى الله بدعة. وأما لبسه للحاجة والانتفاع به للفقير لعدم غيره، أو لعدم لبس غيره، ونحو ذلك فهو حسن مشروع. والامتناع من لبسه مطلقاً مذموم، لاسيما من يدع لبسه كبراً وخيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: «من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»^(٣)، وقال: «بينما رجل يجري إزاره خيلاء إذ خسفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٤) وقد كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: المرتفع، والمنخفض.

وليس لأحد أن يجعل من الدين، ومن طريق الله إلا ما شرعه الله ورسوله، لاسيما ٥٥٦/١١ إذا كان التقييد فيه فساد الدين والدنيا، فإن لبس الصوف، وترقيع الثوب عند الحاجة حسن، من أفعال السلف. والامتناع من ذلك مطلقاً مذموم.

فأما من عمد إلى ثوب صحيح فمزقه ثم يرقعه بفضلات، ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى من القطن، والكتان، فهذا جمع فسادين:

أما من جهة الدين فإنه يظن التقييد بلبس المرقع والصوف من الدين، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته، فيكون ما يتفقه على ذلك أعظم مما يتفق على القطن الصحيح، وهذا مخالف للزهد.

وفساد المال بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع لا في الدين، ولا في الدنيا.

(١) أبو داود في الطهارة (٣٥٣)، وأحمد ٢٦٨/١، كلاهما عن ابن عباس.

(٢) مسلم في الزكاة (١٠١٧/٧٠)، وأحمد ٣٥٨/٤، ٣٦١.

(٣) البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٢٠٨٥ / ٤٢ - ٤٤).

(٤) البخاري في اللباس (٥٧٨٩) ومسلم في اللباس (٢٠٨٨ / ٤٩، ٥٠).

/ ما تقول السادة الأعلام ، أئمة الإسلام ، ورثة الأنبياء عليهم ٥٥٧/١١ السلام - رضي الله عنهم ، وأرضاهم - في صفة «سماع الصالحين» ما هو ؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات. أم لا ؟ وهل هو مباح، أم لا؟

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية - رضي الله عنه :-

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

أصل هذه «المسألة» أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين، وبين ما يرخص فيه رفعاً للحرص ، بين سماع المتقربين ، وبين سماع المتلعبين .

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم ، وزكاة/نفوسهم - فهو سماع آيات الله تعالى . ٥٥٨/١١ وهو سماع النبيين والمؤمنين ، وأهل العلم ، وأهل المعرفة .

قال الله تعالى ، لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم : ٥٨] ، وقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة : ٨٣] .

وهذا السماع أمر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وعلى أهله أثنى كما في قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ^(١) . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ^(٢)﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] . وقال في الآية الأخرى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، فالقول الذي أمروا بتدبره

(١) في المطبوعة : «عبادي» وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

هو القول الذي أمروا باستماعه. وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ ۝١١/٥٥٩ أَفْغَالًا﴾ [محمد: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مِزْرًا لِّتُبَيِّنَ لِّبَنِيهِ﴾ [ص: ٢٩].

وكما أثنى على هذا السماع، ذم المعرضين عن هذا السماع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلُبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا. وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَمَّمْ عَنِ التَّذَكُّرِ مَعْزُومِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنَفِرَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرَبِّنَا عِلْبًا﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر، والعشائين، وغير ذلك.

وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقيون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى/ ٥٦٠/١١: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. وهذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يشهد مع أصحابه، ويستدعيه منهم، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «اقرأ علي القرآن»، قلت: أقرأه عليك وعليك أنزل؟! فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك»، فنظرت فإذا عيناه تذرفان^(١). وهذا هو الذي كان النبي ﷺ يسمعه هو وأصحابه. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، و«الحكمة» هي السنة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ^(٢) أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]. وكذلك غيره من الرسل، قال تعالى: ﴿يَبْنَـيْ مَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَّا بَيْنَ يَدَيْ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

(۱) سبق تخریجہ ص ۱۶۴ .

(٢) في المطبوعة: «قل إنما أمرت»، والصواب ما أثبتناه.

وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَضُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرِّونَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُذَرِّونَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح، والمعرض عنه ضال شقي. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

و«ذكر الله» يراد به تارة: ذكر العبد ربه، ويراد به الذكر الذي أنزله الله. كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال نوح: ﴿أَوْ عَجِثُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُكَ لَوْ قَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَعِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧، ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٥٦٢/١١ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وهذا «السماع» له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية، يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقتسار الجلد، هذا مذكور في القرآن. وهذه الصفات موجودة في الصحابة، ووجدت بعدهم آثار ثلاثة: الاضطراب، والصراخ، والإغماء. والموت في التابعين.

وبالجملة، فهذا السماع هو أصل الإيمان؛ فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربه، فمن سمع ما بلغه الرسول فأمن به واتبعه اهتدى، وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى.

وأما «سماع المكاء والتصدي» وهو التصفيق بالأيدي، والمكاء مثل الصفير ونحوه، فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا

مُكَاءٌ وَنَصِيدَةٌ [الأنفال: ٣٥]، فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد، والتصويت بالغم قرية ودينًا. ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا ٥٦٣/١١ السماع، ولا حضوره قط، ومن قال: إن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب/عليه، باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته. والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي^(١) في «مسألة السماع» و «في صفة التصوف» ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي^(٢) صاحب عوارف المعارف أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قد لسعت حية الهوي كبدي فلا طيب لها ولا راقبي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقي

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية: ما أحسن لهوكم! فقال له: «مهلاً يا معاوية، ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب»^(٣) فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن.

وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه: أنه لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا، وخرقوا ثيابهم، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال: يا محمد، إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق، فأخذ منها خرقاً فعلقها بالعرش، وإن ذلك هو زيق الفقراء. وهذا وأمثاله إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ﷺ، وأصحابه ومن بعدهم، ومعرفة الإسلام والإيمان.

٥٦٤/١١ وهو يشبه رواية من روى: أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين، أو غير يوم حنين، وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان الله معه كنا معه، ومن روى: أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتمه، فقال

(١) هو أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد الإمام الحافظ الجوال الرحال، ذو التصانيف، ولد ببيت المقدس في شوال سنة ثمان وأربعمائة، وسمع بالقدس ومصر، والحرمين والشام، والجزيرة والعراق وأصبهان والجبال، وفارس وخراسان. مات عند قدومه من الحج في يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة. [سير أعلام النبلاء ١٩/٣٦١-٣٧١].

(٢) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسمه عبد الله البكري، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة، وكان شيخ شيوخ بغداد وكان له مجلس وعظ سنين، كان فقيهاً شافعيًا، صالحاً ورعاً، تخرج عليه خلق كثير، ولد بسهرورد في أواخر رجب، أو أوائل شعبان، والشك منه في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وتوفي في مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ببغداد. [وفيات الأعيان ٣/٤٤٦-٤٤٨].

(٣) السلسلة الضعيفة والموضوعة للألباني (٥٥٨) وقال: موضوع.

لهم : من أين لكم هذا؟ قالوا : الله علمنا إياه ، فقال : يا رب ، ألم تأمرني ألا أفشيهِ ؟ فقال : أمرتك أنت ألا تفشيهِ ، ولكني أنا أخبرتهم به ، ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين ، مع فرط جهلهم بدين الإسلام ، فينون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها . تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقاً . فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى ؛ فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً .

وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم ، كان هذا أغلظ من كفر أولئك ، لكنهم يقولون : لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة ، لا عن العامة ، فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقاً عنهم ، في بعض الأحوال ، وأهل الكتاب أكفر من جهة إسقاط سفارة محمد مطلقاً ، بل أهل الكتاب الذين يقولون : إنه رسول إلى الأمين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء . فإن أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب ، وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات/ووساوس وظنون ألقاها إليه الشيطان، ٥٦٥/١١ مع ظنه أنه من خواص أولياء الله ، وهو من أشد أعداء الله ، وتارة يجعلون هذه الآثار المختلقة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام ، ويدعون أنها من أسرار الخواص ، كما يفعل الملاحدة والقرامطة والباطنية ، وتارة يجعلونها حجة في الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً ولعباً .

وبالجملة ، قد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي ﷺ لم يشرع لصاحبي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الآيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعتة ، واتباع ماجاء به من الكتاب والحكمة ، لا في باطن الأمر ، ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح ، وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ، ولا يصفق بكف ، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسبيح للرجال »^(١) ، و« لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »^(٢) .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مختئاً ، ويسمون الرجال/المغنيين مخانيثاً ، وهذا مشهور في كلامهم . ٥٦٦/١١ ومن هذا الباب حديث عائشة - رضي الله عنها - لما دخل عليها أبوها رضي الله عنه

(١) البخارى فى العمل فى الصلاة (١٢٠٣) ومسلم فى الصلاة (٤٢٢ / ١٠٦) .

(٢) البخارى فى اللباس (٥٨٨٥) .

في أيام العيد، وعندها جارتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : أبزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وكان رسول الله ﷺ معرضاً بوجهه عنهما، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا أهل الإسلام»^(١)، ففي هذا الحديث بيان: أن هذا لم يكن من عادة النبي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهذا سماه الصديق زمارة الشيطان، والنبي ﷺ أقر الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد، والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد، كما جاء في الحديث: «ليعلم المشركون أن في ديننا فسحة»^(٢) وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويجئن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها، وليس في حديث الجاريتين أن النبي ﷺ استمع إلى ذلك، والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع، لا بمجرد السماع. كما في الرؤية فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية، لا بما يحصل منها بغير الاختيار.

وكذلك في اشتمام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم، فأما إذا شم ما لم يقصده ٥٦٧/١١ فإنه لا شيء عليه. وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواش/الخمس: من السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، إنما يتعلق الأمر والنهي من ذلك بما للعب فيه قصد وعمل، وإما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهي.

وهذا مما وجه به الحديث الذي في السنن عن ابن عمر: أنه كان مع النبي ﷺ فسمع صوت زمارة راع، فعدل عن الطريق، وقال: «هل تسمع؟ هل تسمع؟» حتى انقطع الصوت^(٣).

فإن من الناس من يقول: بتقدير صحة هذا الحديث، لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه، فيجاب بأنه كان صغيراً، أو يجاب بأنه لم يكن يستمع، وإنما كان يسمع، وهذا لا إثم فيه. وإنما النبي ﷺ فعل ذلك طلباً للأفضل والأكمل، كمن اجتاز بطريق فسمع قومًا يتكلمون بكلام محرم فسد أذنيه كي لا يسمعه، فهذا حسن، ولو لم يسد أذنيه لم يَأثم بذلك. اللهم إلا أن يكون في سماعه ضرر ديني لا يندفع إلا بالسد.

و بالجملة ، فهذه - مسألة السماع - تكلم كثير من المتأخرين في السماع: هل هو محظور؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب، والتشويق إلى ٥٦٨/١١ المحبوب،/والتخويف من المرهوب، والتحزين على فوات المطلوب، فتستزل به الرحمة،

(١) مسلم في صلاة العيدين (١٦/٨٩٢، ١٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٨).

(٢) أحمد ١١٦/٦، ٢٣٣، عن عائشة وصححه إسناده أحمد شاكر.

(٣) أبو داود في الأدب (٤٩٢٤-٤٩٢٦).

وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلي به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه، حتى يجعلونه قوتًا للقلوب، وغذاءً للأرواح، وحاديًا للنفوس، يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه.

ولهذا يوجد من اعتاده، واغتنى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب.

فمن تكلم في هذا: هل هو مكروه، أو مباح؟ وشبهه بما كان النساء يغنين به في الأعياد والأفراح، لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل الخسارة، والفلاح، ومن تكلم في هذا: هل هو من الدين؟ ومن سماع المتقين؟ ومن أحوال المقرين؟ والمقتصدين؟ ومن أعمال أهل اليقين؟ ومن طريق المحبين المحبوبين؟ ومن أفعال السالكين، إلى رب العالمين؟ كان كلامه فيه من وراء وراء بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه: هل هو محمود؟ أو مذموم؟ فأخذ/يتكلم في جنس الكلام وانقسامه: إلى الاسم، والفعل، ٥٦٩/١١ والحرف، أو يتكلم في مدح الصمت، أو في أن الله أباح الكلام والنطق، وأمثال ذلك مما لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه.

فإذا عرف هذا، فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية، لا بدف، ولا بكف، ولا بقضيب، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال: الشافعي - رضي الله عنه -: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة، يسمونه «التغيير» يصدون به الناس عن القرآن، وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا الفاسق، ومتى كان التغيير؟!.

وسئل عنه الإمام أحمد، فقال: أكرهه، هو محدث. قيل: أنجلس معهم؟ قال: لا، وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، والسري السقطي، وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم. وأعيان المشائخ عابوا أهلهم، كما فعل ذلك ٥٧٠/١١

عبد القادر ، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشائخ.

وما ذكره الشافعي - رضي الله عنه - من أنه من أحداث الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة: كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا، وأمثالهم: كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي - في مسألة السماع - عن ابن الراوندي^(١)، قال: إنه اختلف الفقهاء في السماع: فأباحه قوم، وكرهه قوم. وأنا أوجه - أو قال - وأنا أمر به. فخالف إجماع العلماء في الأمر به. و«الفارابي» كان بارعاً في الغناء الذي يسمونه «الموسيقا» وله فيه طريقة عند أهل صناعة الغناء، وحكايته مع ابن حمدان مشهورة، لما ضرب فأبكاهم، ثم أضحكهم، ثم نومهم ثم خرج.

و«ابن سينا» ذكر في إشاراته، في «مقامات العارفين» في الترغيب فيه، وفي عشق الصور، ما يناسب طريقة أسلافه الفلاسفة، والصابئين المشركين، الذين كانوا يعبدون الكواكب، والأصنام، كأرسطو وشيعته من اليونان - ومن اتبعه كبرقلس، وثامسطيوس، ٥٧١/١١ والأسكندر الأفروديسي، وكان أرسطو وزير الأسكندر بن فيليب المقدوني، والذي تؤرخ له اليهود والنصارى، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة.

وأما «ذو القرنين» المذكور في القرآن الذي بنى «السد» فكان قبل هؤلاء بزمان طويل، وأما الأسكندر الذي وزر له أرسطو: فإنه إنما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس، لم يصل إلى السد وهذه الأمور مبسوبة في غير هذا الموضع.

و«ابن سينا» أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان، ومما أخذه من أهل الكلام المتبدعين الجهمية، ونحوهم. وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية، ومزجه بشيء من كلام الصوفية، وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية: أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا في زمنه، ودينهم دين أصحاب «رسائل إخوان الصفا»، وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين، ولا يهود ولا نصارى.

وكان الفارابي قد حذق في حروف اليونان التي هي تعاليم أرسطو، وأتباعه من

(١) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين الراوندي أو ابن الراوندي فيلسوف مجاهر بالإلحاد، من سكان بغداد، قال ابن كثير: أحد مشاهير الزنادقة، طلبه السلطان فهرب، ومن فرق المعتزلة (الراوندية) نسبة إليه. مات برحلة مالك بن طوق، (بين الرقة وبغداد)، وقيل: صلبه أحد السلاطين ببغداد. [وفيات الأعيان ٩٤/١ (٣٥)، والأعلام ٢٦٧/١، ٢٦٨].

الفلاسفة المشائين، وفي أصواتهم صناعة الغناء، ففي هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس، وترتاض به، وتهذب به الأخلاق.

/وأما «الحنفاء» أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله الله إماما، وأهل دين الإسلام ٥٧٢/١١* الذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، والمتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ فهؤلاء ليس فيهم من يرغب في ذلك، ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن، والإيمان، والهدى، والسعد، والرشاد، والنور، والفلاح، وأهل المعرفة والعلم، واليقين والإخلاص، والمحبة له، والتوكل عليه، والخشية له، والإنابة إليه.

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة، ومن له نصيب من المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظنًا منهم أنه حق موافق ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علمًا وحالًا وقولًا وعملاً ومعرفة وذوقًا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس. ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا.

وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال عبد الله بن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وخط خطوطًا، عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله. وهذه سبل الله على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فقد رضي الله عن السابقين رضي مطلقًا، ورضى عمن اتبعهم بإحسان. قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد، فاصطفاه لرسالته. ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه قبيحًا فهو عند الله قبيح. وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد

(١) أحمد ٤٣٥/١ وابن ماجه في المقدمة (١١) والدارمي ١ / ٦٧ ، ٦٨ .

مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ومعارفها ، وأذواقها ، ومواجيدها . ٥٧٤/١١ عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب/للقلوب منفعة ، ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل في النفوس فعل حميا الكؤوس .

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر ، فيجدون لذة بلا تمييز . كما يجد شارب الخمر ، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر ، ويصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة ، أعظم مما يصددهم الخمر ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أعظم من الخمر ، حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مس بيد ، بل بما يقترن بهم من الشياطين ، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية ، بحيث تنزل عليهم الشياطين في تلك الحال . ويتكلمون على ألسنتهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع : إما بكلام من جنس كلام الأعاجم ، الذين لا يفقه كلامهم ، كلسان الترك ، أو الفرس ، أو غيرهم ، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عريبًا لا يحسن أن يتكلم بذلك ، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم . وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى . وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهودًا وعيانًا .

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة ، هم من هذا النمط . فإن الشياطين تلبس أحدهم ، بحيث يسقط إحساس بدنه ، حتى إن المصروع يضرب ضربًا عظيمًا ، وهو لا يحس بذلك ، ولا/يؤثر في جلده ، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين ، وتدخل بهم النار وقد تطير بهم في الهواء ، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله ، كما يلبس الشيطان المصروع .

وبأرض الهند ، والمغرب ، ضرب من الزط يقال لأحدهم : المصلي ، فإنه يصلي النار كما يصلي هؤلاء ، وتلبسه ويدخلها ويطير في الهواء ، ويقف على رأس الزج ، ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء ، وهم من الزط الذين لا خلاق لهم ، والجن تخطف كثيرًا من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس ، وتطير بهم في الهواء ، وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه ، وكذلك يفعل هذا هؤلاء المتولهون والمتسبون إلى بعض المشائخ إذا حصل له وجد سماعي ، وعند سماع المكاء والتصدية ، منهم من يصعد في الهواء ، ويقف على زج الرمح ، ويدخل النار ، ويأخذ الحديد المحمي بالنار ثم يضعه على بدنه ، وأنواع من

هذا الجنس، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة، ولا عند الذكر، ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا/ غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) وقد ثبت في الحديث الصحيح: أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف، تنزلت الملائكة لسماعها، كالظلة فيها السرج^(٢).

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر، والسلف يسمونه تغييراً؛ لأن التغيير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الإنسان، إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى، وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف أو طبل، كناقوس النصارى، والنفخ في صفارة؛ كبوق اليهود. فمن فعل هذه الملاحى على وجه الديانة والتقرب فلا ريب في ضلالتة وجهالته.

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعة: أن آلات اللهو كلها حرام، فقد ثبت في صحيح البخارى وغيره: أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير، والخمر والمعازف، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير^(٣).

و«المعازف» هي الملاحى كما ذكر ذلك أهل اللغة، جمع معزفة وهي الآلة التي يعزف بها: أي يصوت بها. ولم يذكر أحد من أتباع الأئمة في آلات اللهو نزاعاً، إلا أن بعض^{٥٧٧/١١} المتأخرين من أصحاب الشافعي ذكر في البراع وجهين، بخلاف الأوتار ونحوها، فإنهم لم يذكروا فيها نزاعاً، وأما العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له، فلم يذكروا نزاعاً لا في هذا، ولا في هذا، بل صنف أفضلهم في وقته أبو الطيب الطبري^(٤) شيخ أبي

(١) سبق تخريجه ص ١٠٢ .

(٢) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٦ / ٢٤٢) .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٩١ .

(٤) هو طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري الشافعي الإمام العلامة، شيخ الإسلام، القاضي أبو الطيب، فقيه بغداد. ولد سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة بآمل. سمع من مفقه أبي الحسن الماسرجسي، وببغداد من الدارقطني، وغيرهم، استوطن بغداد، ودرس وأفتى وأفاد، وولى قضاء ربيع الكرخ. قال الخطيب: كان شيخنا أبو الطيب ورعاً عاقلاً، عارفاً بالاصول والفروع، محققاً، حسن الخلق، صحيح المذهب، صحيح العقل، ثابت الفهم، توفي في ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة، وله مائة وستان رحمه الله. [سير أعلام النبلاء: ١٧/٦٦٨-٦٧١].

إسحق الشيرازي في ذلك مصنفًا معروفًا، ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو: هل هو حرام؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وذكر أصحاب أحمد لهم في ذلك ثلاثة أقوال، وذكروا عن الشافعي قولين، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذلك نزاعاً.

وذكر زكريا بن يحيى الساجي - وهو أحد الأئمة المتقدمين المائلين إلى مذهب الشافعي أنه لم يخالف في ذلك من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل البصرة، وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم القشيري، وغيرهما، عن مالك، وأهل المدينة، في ذلك فغلط، وإنما وقعت الشبهة فيه، لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع، إلا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم، بل قال إسحاق بن عيسى الطباع^(١): سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق، وهذا معروف في ٥٧٨/١١ كتاب أصحاب مالك، وهم أعلم بمذهبه، ومذهب أهل المدينة من طائفة في المشرق لا علم لها بمذهب الفقهاء، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افترى عليه، وإنما نبهت على هذا، لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي، ومحمد بن طاهر المقدسي، في ذلك حكايات وآثار، يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق.

وكان « الشيخ أبو عبد الرحمن » - رحمه الله - فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده، فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة، والكلام المنقول، ما ينتفع به في الدين، ويوجد فيها من الآثار السقيمة، والكلام المردود، ما يضر من لا خبرة له. وبعض الناس توقف في روايته. حتى إن البيهقي كان إذا روى عنه يقول: حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه، وأكثر الحكايات التي يرويها أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة عنه، فإنه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية.

و « محمد بن طاهر » له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ورجاله، وهو من حفاظ وقته، لكن كثير من المتأخرين: أهل الحديث، وأهل الزهد، وأهل الفقه، وغيرهم، إذا صنفوا في باب ذكروا ما روى فيه من غث وسمين، ولم يميزوا ذلك، كما يوجد ممن يصنف في ١٥٧٩/١١ الأبواب مثل المصنفين في فضائل الشهور، والأوقات، وفضائل الأعمال والعبادات،

(١) هو إسحاق بن عيسى بن نجيج البغدادي أبو يعقوب بن الطباع، روى عن مالك والحماد بن شريك وابن لهيعة وغيرهم، وعنه: أحمد وأبو خيثمة والدارمي وغيرهم، قال البخاري: مشهور الحديث، وقال صالح بن محمد: لأبأس به صدوق، وقال أبو حاتم: أخوه محمد أحب إليّ منه وهو صدوق، ولد سنة ١٤٠ وتوفي سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦. [التهذيب ١/٢٤٥].

وفضائل الأشخاص، وغير ذلك من الأبواب، مثل ما صنف بعضهم في فضائل رجب، وغيرهم في فضائل صلوات الأيام والليالي، وصلاة يوم الأحد، وصلاة يوم الإثنين، وصلاة يوم الثلاثاء، وصلاة أول جمعة في رجب. وألفية رجب، وأول رجب، وألفية نصف شعبان، وإحياء ليلتي العيدين، وصلاة يوم عاشوراء.

وأجود ما يروى من هذه الصلوات حديث صلاة التيسير^(١)، وقد رواه أبو داود، والترمذي. ومع هذا فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة، بل أحمد ضعف الحديث، ولم يستحب هذه الصلوات. وأما ابن المبارك فالمنقول عنه ليس مثل الصلاة المرفوعة إلى النبي ﷺ. فإن الصلاة المرفوعة إلى النبي ﷺ ليس فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية. وهذا يخالف الأصول فلا يجوز أن تثبت بمثل هذا الحديث.

ومن تدبر الأصول علم أنه موضوع. وأمثال ذلك، فإنها كلها أحاديث موضوعة، مكذوبة، باتفاق أهل المعرفة، مع أنها توجد في مثل كتاب أبي طالب، وكتاب أبي حامد، وكتاب الشيخ عبد القادر؛ وتوجد في مثل أمالي أبي القاسم بن عساكر. وفيما صنفه عبد العزيز الكتاني، وأبو علي بن البناء، وأبو الفضل بن ناصر، وغيرهم. وكذلك أبو الفرج بن الجوزي: يذكر مثل هذا في فضائل الشهور، ويذكر في الموضوعات أنه ٥٨٠/١١ كذب موضوع.

والذين جمعوا الأحاديث في «الزهد والرقائق» يذكرون ما روى في هذا الباب، ومن أجل ما صنف في ذلك. وأندره «كتاب الزهد» لعبد الله بن المبارك. وفيه أحاديث واهية، وكذلك «كتاب الزهد» لهناد بن السري، ولأسد بن موسى، وغيرهما، وأجود ما صنف في ذلك: «الزهد» للإمام أحمد، لكنه مكتوب على الأسماء، وزهد ابن المبارك على الأبواب. وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء، والصحابة، والتابعين.

ثم إن المتأخرين على صنفين: منهم من ذكر زهد المتقدمين، والمتأخرين، كأبي نعيم في الحلية، وأبي الفرج بن الجوزي في «صفة الصفوة».

ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين، من حين حدث اسم الصوفية، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» وصاحبه أبو القاسم القشيري في الرسالة، ثم الحكايات التي يذكرها هؤلاء بمجرد، مثل ابن خميس، وأمثاله، فيذكرون حكايات مرسلة، بعضها صحيح، وبعضها باطل.

(١) أبو داود في الصلاة (١٢٩٧)، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٨١، ٤٨٢) وقال: «حديث غريب من حديث أبي رافع».

٥٨١/١١ / مثل ذكرهم : أن الحسن صحب عليا . وقد اتفق أهل المعرفة على أن الحسن البصري لم يلق علياً ، ولا أخذ عنه شيئاً ، وإنما أخذ عن أصحابه : كالأحنف بن قيس ، وقيس ابن معاذ ، وغيرهما . وكذلك حكاياتهم : أن الشافعي وأحمد اجتماعا لشييان الرعين ، وسألاه عن سجود السهو ، وكذلك اتفق أهل المعرفة على أن الشافعي وأحمد لم يلقيا شييان الرعين ، بل ولا أدركاه .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن في « حقائق التفسير » عن جعفر بن محمد ، وأمثاله من الأقوال المأثورة ما يعلم أهل المعرفة أنه كذب على جعفر بن محمد ، فإن جعفرًا كذب عليه ما لم يكذب على أحد ؛ لأنه كان فيه من العلم والدين ، ما ميزه الله به ، وكان هو وأبوه - أبو جعفر - وجده - علي بن الحسين - من أعيان الأئمة علما ودينا ، ولم يجئ بعد جعفر مثله في أهل البيت . فصار كثير من أهل الزندقة والبدع ينسب مقالته إليه حتى أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ينسبون لها إليه ، وهذه الرسائل صنف بعد موته بأكثر من مائتي سنة ، صنف عند ظهور مذهب الإسماعيلية العبيديين ، الذين بنوا القاهرة ، وصنفت على مذهبهم الذي ركبه من قول الفلاسفة اليونان ، ومجوس الفرس ، والشيعية من أهل القبلة ، ولهذا قال العلماء : إن ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

٥٨٢/١١ / ونسبوا إلى جعفر أنه تكلم في تقدم المعرفة عن حوادث الكون : مثل اختلاج الأعضاء ، والرعود ، والبروق ، والهفت ، وغير ذلك مما نزه الله جعفرا وأئمة أهل بيته عن الكلام فيه . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

و المقصود هنا أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ، ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي مثل ذلك في المقولات ، والنظريات ، وكذلك في الأذواق ، والمواجيد ، والمكاشفات ، والمخاطبات ، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة ، فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا .

وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وما كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالف ذلك فهو باطل . فإن الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد تكلمنا على كلام المشائخ في السماع، وما ذكره القشيري في رسالته هو وغيره عنهم، وشرحنا ذلك كلمة كلمة، لكن هذا الموضع لا يتسع لذلك.

وجماع الأمر في ذلك أنه إذا كان الكلام في السماع وغيره، هل هو طاعة وقربة؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك، وإذا كان الكلام: هل هو محرم؟ أو غير محرم؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك. إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على أنهم ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله لهم، وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى. فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وكثير من الناس يفعل في السماع وغيره، ما هو من جنس الفواحش المحرمة، وما يدعوا إليها، وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب. فهو مما أمر الله به، فهؤلاء لهم نصيب من معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلْبَنَاءَ لِلْقَوْمِ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

وقد كان المشركون يجرمون من الطعام واللباس أشياء، ويتخذون ذلك ديناً، وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهيب، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الآية [المائدة: ٨٧، ٨٨].

/ وجماع الدين ألا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرع، ولا نعبد بالبدع، كما قال ٥٨٥/١١
تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه،

(١) سبق تخريجه ص ١٤٢ .

وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟

قال : إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص : أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشائخ، كما قال أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النكته من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين: الكتاب ، والسنة، وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع بأثر كان نوراً على نور .

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا، وقال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، وقال: كل عمل على ابتداع فإنه عذاب على النفس، وكل عمل بلا اقتداء فهو غش النفس .

٥٨٦/١١ / وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لأن الله يقول: ﴿وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] . ومثل هذا كثير في كلامهم .

وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأمته، فهو الداعي إلى الله بإذنه ، الهادي إلى صراطه، الذي من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغى . آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وصحبه وسلم .

فأجاب :

«السماع» الذي أمر الله به ورسوله، واتفق عليه سلف الأمة ومشائخ الطريق : هو سماع القرآن، فإنه سماع النبيين، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسماع المؤمنين، قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ لِيَسْمِعُوا الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشُورٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(١) [الزمر: ١٨]، وهذا كثير في القرآن.

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع، فقد ذم المعرضين عنه، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ

(١) في المطبوعة: «وقالوا لا تسمعوا» والصواب ما أثبتناه.

عَنِ التَّذَكُّرِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنَفِرَةٌ ﴿٥٩﴾ [المذثر: ٤٩، ٥٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ ءَابُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وهذا كثير في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وإجماع المسلمين بمدحون من يقبل على هذا السماع، ويحببه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه، ويغضه، ولهذا شرع الله للمسلمين في صلاتهم ولطسمهم، شرع سماع المغرب، والعشاء الآخر.

وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقال عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - يمدح النبي ﷺ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقـع

وهو مستحب لهم خارج الصلوات، وروى عن النبي ﷺ: أنه خرج على أهل الصفة. ٥٩٠/١١ وفيهم واحد يقرأ وهم/يستمعون، فجلس معهم، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقيون يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومرو النبي ﷺ بأبي موسى وهو يقرأ: فجعل يسمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير داود» (١)، وقال: «يا أبا موسى، لقد مرت بك الباردة وأنت تقرأ فجعلت أسمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تسمع لقراءتي لحبرت لك تحبيراً (٢). أي: حسنته لك تحسناً.

وقال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٣)، «زينوا القرآن بأصواتكم» (٤) وقال: «لله أشد أذناً للرجل حسن الصوت، من صاحب القينة إلى قينته» (٥) وقوله: «ما أذن الله أذنًا» (٦) أي سمع سمعاً، ومنه قوله: «وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ» [الانشقاق: ٢] أي سمعت، والآثار في هذه كثيرة.

(١) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٣/٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٤. (٣) البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧).

(٤) سبق تخريجها ص ١٦٤.

(٦) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٣، ٥٠٢٤) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٢/٢٣٢ - ٢٣٤).

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية يطول شرحها، ووصفها. وله في الجسد آثار محمودة. من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن. وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنى عليهم في القرآن، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة: الاضطراب، ٥٩١/١١ والاختلاج، والإغماء أو الموت، والهيام؛ فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم، وإما لحبهم.

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك، فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً. لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين، كما ذم الله الذين قال فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، ولو أثر فيهم آثاراً محمودة لم يجذبهم عن حد العقل. لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين.

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك: إما نشيد مجرد، نظير الغبار، وإما بالتصفيق، نحو ذلك. فهو السماع المحدث في الإسلام، فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي ﷺ حيث قال: «خير القرون: القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١) وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ.

/وقال الشافعي - رحمه الله - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير ٥٩٢/١١ يصدون به الناس عن القرآن.

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال: هو محدث أكرهه، قيل له: إنه يرق عليه القلب، فقال: لا تجلسوا معهم. قيل له: أيهجرون؟ فقال: لا يبلغ بهم هذا كله، فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة، لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في مصر، ولا في العراق، ولا خراسان، ولو كان للمسلمين به منفعة في دينهم لفعله السلف.

ولم يحضره مثل: إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا السري السقطي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا مثل الشيخ عبد القادر، والشيخ

(١) سبق تخريجه ص ٣٥ .

عدي، والشيخ أبي البيان، ولا الشيخ حياة، وغيرهم، بل في كلام طائفة من هؤلاء - كالشيخ عبد القادر وغيره - النهي عنه. وكذلك أعيان المشائخ.

وقد حضره من المشائخ طائفة، وشرطوا له المكان، والإمكان، والخلان، والشيخ الذي يحرس من الشيطان. وأكثر الذين حضروه من المشائخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم. كالجنيد فإنه حضره وهو شاب، وتركهم في آخر عمره، وكان يقول: من ٥٩٣/١١ تكلف السماع/فتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد. ولا اعتماد للجلوس له.

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل. فإن الآيات المتضمنة لذكر الحب، والوصل والهجر، والقطيعة، والشوق، والتميم، والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب النسوان، ومحب المردان. فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن، وأثار الساكن، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله. لكن فيه مضرة راجحة على منفعته: كما في الخمر والميسر، فإن فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما.

فلهذا لم تأت به الشريعة إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجعة.

وأما ما تكون مفسدته غالبية على مصلحته، فهو بمنزلة من يأخذ درهما بدينار، أو يسرق خمسة دراهم، ويتصدق منها بدرهمين.

وذلك أنه يهيج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها، ويغذي النفس ويفتنها، فتعاض به عن سماع القرآن، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا التذاذ ٥٩٤/١١ به، ولا استطابة له، بل/يبقى في النفس بغض لذلك، واشتغال عنه، كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل، وعلوم أهل الكتاب، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله، إلى أشياء أخرى تطول.

فلما كان هذا السماع لا يعطي بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف، بل قد يصد عن ذلك، ويعطي مالا يحبه الله ورسوله، أو ما يبغضه الله ورسوله، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشائخها.

ومن نكته أن الصوت يؤثر في النفس بحسنه: فتارة يفرح، وتارة يحزن، وتارة يغضب، وتارة يرضى، وإذا قوى أسكر الروح فتصير في لذة مطربة من غير تمييز. كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص، وللجسد أيضاً إذا سكر بالطعام والشراب، فإن السكر هو الطرب الذي يؤثر لذة بلا عقل، فلا تقوم منفعته بتلك اللذة بما يحصل من غيبة

العقل، التي صدت عن ذكر الله وعن الصلاة، وأوقعت العداوة والبغضاء.

و بالجملة فعلى المؤمن أن يعلم : أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به، ولا شيئاً يبعد عن النار إلا وقد حدث به، وإن هذا السماع لو كان مصلحة ٥٩٥/١١ لشريعة الله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وإذا وجد فيه منفعة لقلبه، ولم يجد شاهد ذلك، لا من الكتاب ولا من السنة، لم يلتفت إليه.

قال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتلم بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة، وقال أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يجد فيه أثراً. فإذا وجد فيه أثراً كان نوراً على نور.

وقال الجنيد بن محمد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ، ولم يكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا.

وأيضاً فإن الله يقول في الكتاب: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ آلِيَّتٍ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] ، قال السلف من الصحابة والتابعين : «المكاء» كالصفير ونحوه، من التصويت، مثل الغناء. و«التصدية» : التصفيق باليد. فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية/والغناء لهم صلاة ، وعبادة، وقربة، يعتاضون به عن الصلاة التي ٥٩٦/١١ شرعها الله ورسوله.

وأما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فصلاتهم وعبادتهم القرآن، واستماعه، والركوع والسجود، وذكر الله ودعاؤه، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين في ذلك، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين: المهاجرين والأنصار. فإن كان يفعله في بيوت الله فقد زاد في مشابهته أكبر وأكبر. واشتغل به عن الصلاة وذكر الله ودعائه، فقد عظمت مشابهته لهم. وصار له كفل عظيم من الذم الذي دل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ آلِيَّتٍ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾.

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده، أو لحسنات ماحية، أو غير ذلك. فيما يفرق فيه بين المسلم والكافر. لكن مفارقتة للمشركين في غير هذا لا يمنع أن يكون مذموماً خارجاً عن الشريعة، داخلاً في البدعة التي ضاهي بها المشركين، فينبغي للمؤمن أن يتفطن لهذا، ويفرق بين سماع المؤمنين الذي أمر الله به ورسوله، وسماع المشركين الذي نهى الله عنه

ورسوله .

٥٩٧/١١ / ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين ، وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين ، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم ، لما وقع من خطئهم ، فإن النبي ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد » (١) .

وهذا كما أن جماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين عليا بتأويل ، وعلي بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق منهم ، وقد قال فيهم : من قصد الله فله الجنة .

وجماعة من السلف والخلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل - وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه - وإن كان خطؤهم مغفوراً لهم .

والذين حضروا هذا السماع من المشائخ الصالحين شرطوا له شروطاً لا توجد إلا نادراً ، فعمامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشائخ ، ومع هذا فأخطؤوا - والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة - وإن كانوا معذورين .

٥٩٨/١١ والسبب الذي أخطؤوا فيه أوقع أمماً كثيرة في المنكر الذي نهوا عنه ، وليس للعالمين شرعة ولا منهاج ، ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ كما كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ » (٢) .

ومن غلط بعضهم توهمه أن النبي ﷺ والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع سماع المكاء والتصدية ، والغناء والتصفيق بالكف ، حتى روى بعض الكاذبين أن النبي ﷺ أنشدته أعرابي شعراً ، قوله :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي
سوى الحبيب الذي شغفت به فمعه دائي ومنه ترياقبي

وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، وقال : « ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب » (٣) . وهذا الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله ﷺ وسنته وأحواله .

٥٩٩/١١ كما كذب بعض الكذابين : أن أهل الصفة قاتلوا المؤمنين مع المشركين ، وأمثال هذه الأمور المكذوبة إنما يكذبها من خرج عن أمر الله ورسوله ، وأطبقت عليه طوائف من الجاهلين بأحوال الرسول وأصحابه ، بل بأصول الإسلام .

(١) سبق تخريجه ص ١٠٧ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٦ .

وأما «الرقص» فلم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة بل قد قال الله في كتابه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال في كتابه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: بسكينة، ووقار.

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود، بل الدف والرقص في الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من سلف الأمة، بل أمروا بالقرآن في الصلاة، والسكينة، ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذلك الحال بسبب مشروع، كسماع القرآن ونحوه، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم، فإذا إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به، مع علمه بأنه يوقعه فيما لا يصلح له: مثل شرب الخمر، مع علمه أنها تسكره، وإذا قال: ورد على الحال، وأنا سكران قيل له: إذا كان السبب محظوراً، لم يكن السكران معذوراً.

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقاً فهو مبتدع، ضال، من جنس خفراء العدو، وأعوان الظلمة، من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى، والمشركين، والصابئين في بعض ما لهم من الأحوال، ومن كان كاذباً فهو منافق ضال. ٦٠٠/١١

قال سيد المسلمين في وقته - الفضيل بن عياض - في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُوا إِلَهُكَ أَكْثَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المالك: ٢]، قال: أخلصه، وأصوبه، قيل له: يا أبا علي ما أخلصه؟ وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وكان يقول: من وفر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومن زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها، ومن انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً. وأكثر إشارته وإشارات غيره من المشائخ بالبدعة إنما هي إلى البدع في العبادات والأحوال، كما قال عن النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال ابن مسعود: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة، ذكر الله خالياً فاقشعر جلده من مخافة الله، إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإن اقتصادا في سبيل وسنة، خير من اجتهدا في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم - إن كانت اجتهداً أو اقتصاداً - على منهاج الأنبياء وستهم.

وأما قول القائل: هذه شبكة يصاد بها العوام، فقد صدق، فإن أكثرهم إنما يتخذون ٦٠١/١١

ذلك شبكة لأجل الطعام، والتوانس على الطعام، كما قال الله فيهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال، الذين قيل في رؤوسهم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا ءَاتِنهُمْ ضَعَفَيْن مِّنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما الصادقون منهم : فهم يتخذونه شبكة، لكن هي شبكة مخروقة يخرج منها الصيد إذا دخل فيها ، كما هو الواقع كثيراً، فإن الذين دخلوا في السماع المبتدع في الطريق، ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله ورسوله، أورثتهم أحوالا فاسدة (١).

والى عبادته ومحبته، وطاعته، والرغبة إليه، والتبذل له والتوكل عليه أحسن من (٢) الإسلامية، والشرعية القرآنية، والمنهاج (٣) الموصلة للحقيقة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة.

٦٠٢/١١ / وإذا كان غير مشروع، ولا مأمور به، فالتطهر، أو الإنصات له، واستفتاح باب الرحمة هو من جنس عادة الرهبان، ليس من عبادة أهل الإسلام، والإيمان، ولا عبادة أهل القرآن، ولا من أهل السنة والإحسان، والحمد لله وحده.

٦٠٣/١١ / سئل عمن قال: إن السماع على الناس حرام وعليّ حلال هل يفسق في ذلك أم لا ؟ فأجاب - رضي الله عنه -:

من ادعى أن المحرمات تحريمًا عامًا: كالفواحش ، والظلم والملاهي، حرام على الناس حلال له فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، ومن ادعى في الدفوف والشباب أنهما حرام على بعض الناس دون بعض فهذا مخالف للسنة، والإجماع، وأئمة الدين، وهو ضال من الضلال. ومن تم مصرًا على مثل ذلك كان فاسقًا. والله أعلم.

(١-٣) بياض بالأصل.

السؤال عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه ٦٠٤/١١
التواضع، هل هذا سنة؟ أو فعله الشيوخ الصالحون؟

الجواب :

لا يجوز السجود لغير الله، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع
التي لم يفعلها سلف الأمة، ولا أكابر شيوخها : كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن
أدهم، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي، والسري السقطي، وغير هؤلاء.

وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل : الشيخ عبد القادر . والشيخ عدي، والشيخ أبي
مدين، والشيخ أبي البيان، وغير هؤلاء، فإنهم لم يحضروا «السماع البدعي» بل كانوا
يحضرون «السماع الشرعي» سماع الأنبياء، وأتباعهم كسماع القرآن. والله أعلم.

٦٠٥/١١ /سئل شيخ الإسلام عن رجل يحب السماع والرقص، فأشار عليه رجل . فقال
هذه الآيات :

أنكروا رقصاً وقالوا حرام	فعليهم من أجل ذاك سلام
اعبد الله يا فقيه، وصل	والزم الشرع فالسماع حرام
بل حرام عليك، ثم حلال	عند قوم أحوالهم لا تسام
مثل قوم صفوا وبان لهم من	جانب الطور جذوة وكلام
فإذا قوبل السماع بلهو	فحرام على الجميع حرام

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، هذا الشعر يتضمن منكراً من القول وزوراً ؛ بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد، والمخالفة للحقيقة الإلهية الدينية النبوية. وذلك أن قول القائل .

مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام

٦٠٦/١١ /يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران، الذي نودي من جانب الطور. ولما رأى النار ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص : ٢٩].

وهذا قول طائفة من الناس، يسلكون طريق الرياضة والتصفية، ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله، كما خاطب موسى بن عمران ، وهؤلاء ثلاثة أصناف :

« صنف » يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خاطب به موسى بن عمران. كما يقول ذلك من يقول من أهل الوحدة والاتحاد. القائلين بأن الوجود واحد. كصاحب «الفصوص» وأمثاله.

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، و معلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى، الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء، ويكفرون ببعض.

والنوع الثاني : من يقول: إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة، الذين يقولون: إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه ٦٠٧/١١ من العقل الفعال، ويقولون: إن النبوة مكتسبة.

و النوع الثالث : الذين يقولون: إن موسى أفضل ، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى، ولكن موسى مقصوداً بالتكليم دون هذا، كما يوجد هذا في أخبار صاحب «مشكاة الأنوار»، وكذلك سلك مسلكه صاحب «خلع النعلين»، وأمثالهما. وأما قوله في أول الشعر لمن يخاطبه: «الزم الشرع يا فقيه وصل»، يشعر بأنك أنت تبع الشرع، وأما نحن فلنا إلى الله طريق غير الشرع، ومن ادعى أن له طريقاً إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التي بعث الله بها رسوله، فإنه أيضاً كافر، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، كطائفة أسقطوا التكليف، وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل.

و«طائفة» يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد ﷺ، كما استغنى الخضر عن متابعة موسى، وجهل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ومحمد ﷺ رسول إلى كل أحد ظاهراً وباطناً، مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى، بل وافقتها، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها، فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعة لا تخالفها.

/وسئل عن الذين يعملون النار والإشارات، مثل النبل والزعفران، وغير ذلك ؟ ٦٠٨/١١
فأجاب :

أما هؤلاء الذين يظهرون «الإشارات» كالنبل والزعفران والمسك، والنار، والجبّة، فليسوا من أولياء الله الصالحين؛ بل هم من أحزاب الشياطين، وأحوالهم شيطانية ليست من كرامات الصالحين، وهم يفسدون العقول، والأديان، والأعراض، والنساء، والصبيان. ولا يحسن الظن بهم إلا جاهل عظيم الجهالة، أو عدو لله ورسوله، فإنهم من جنس التتر المحاربين لله ورسوله. والله أعلم.

٦٠٩/١١ / سئل عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته ، وإن في بلده شيخاً أعطاه إجازة،
وبقى يأكل الثعابين والعقارب ، ونزل عن فلاحته ، ويطلب رزقه . فهل تجوز الصدقة
عليه أم لا ؟

فأجاب:

الحمد لله ، أكل الخبائث ، وأكل الحيات والعقارب حرام بإجماع المسلمين . فمن أكلها
مستحلاً لذلك فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . ومن اعتقد التحريم وأكلها فإنه فاسق
عاص لله ورسوله ، فكيف يكون رجلاً صالحاً؟! ولو ذكى الحية لكان أكلها بعد ذلك
حراماً عند جماهير العلماء ، لأن النبي ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم:
الحية ، والعقرب ، والحدأة ، والفأر ، والكلب العقور» (١) .

فأمر النبي ﷺ بقتل ذلك في الحل والحرم ، وسماهن فواسق؛ لأنهن يفسقن: أي
يخرجن على الناس ، ويعتدين عليهم ، فلا يمكن الاحتراز منهن ، كما لا يحترز من السباع
٦١٠/١١ العادية ، فيكون عدوان هذا أعظم من عدوان كل ذي ناب من السباع ، وهن أخبث وأحرم .

وأما الذين يأكلون ويجعلون ذلك من باب «كرامات الأولياء» فهم أشر حالا ممن
يأكلها من الفساق ، لأن كرامات الأولياء لا تكون بما نهى الله عنه ورسوله ، من أكل
الخبائث ، كما لا تكون بترك الواجبات ، وإنما هذه المخاريق التي يفعلها هؤلاء المبتدعون: من
الدخول في النار ، وأخذ الحيات ، وإخراج اللاذن ، والسكر ، والدم ، وماء الورد . هي نوعان:

أحدهما: أن يفعلوا ذلك بحيل طبيعية . مثل أدهان معروفة ، يذهبون ويمشون في النار ،
ومثل ما يشربه أحدهم مما يمنع سم الحية: مثل أن يمسكها بعنققتها حتى لا تضربه ، ومثل
أن يمسك الحية المائية ، ومثل أن يسلخ جلد الحية ويحشوه طعاماً ، وكم قتلت الحيات من
أتباع هؤلاء؟! ومثل أن يمسح جلده بدم أخوين؛ فإذا عرق في السماع ظهر منه ما يشبه
الدم ، ويصنع لهم أنواعاً من الحيل والمخادعات .

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٣١٤) ، ومسلم في الحج (٦٧/١١٩٨) ، والترمذي في الحج (٨٣٧) كلهم
عن عائشة ، واللفظ لمسلم .

النوع الثاني: وهم أعظم، عندهم أحوال شيطانية تعتر بهم عند السماع الشيطاني، فتتزل الشياطين عليهم ، كما تدخل في بدن المصروع ويزبد أحدهم كما يزبد المصروع، وحيث يباشر النار، والحيات/العقارب، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك، كما يفعل ٦١١/١١ ذلك من تقترب بهم الشياطين من إخوانهم، الذين هم شر الخلق عند الناس، من الطائفة التي تطلبهم الناس لعلاج المصروع، وهم من شر الخلق عند الناس، فإذا طلبوا تحلوا بحلية المقاتلة ، ويدخل فيهم الجن، فيحارب مثل الجن الداخل في المصروع، ويسمع الناس أصواتاً، ويرون حجارة يرمي بها، ولا يرون من يفعل ذلك، ويرى الإنسي واقفاً على رأس الرمح الطويل، وإنما الواقف هو الشيطان، ويرى الناس ناراً تحمي، ويضع فيها الفؤوس والمساحي، ثم إن الإنسي يلحسها بلسانه، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه، ويرى الناس هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي وغير ذلك، ويفعلون من الأمور ما هو أبلغ مما يفعله هؤلاء المبتدعون الضالون المكذبون الملبسون، الذين يدعون أنهم أولياء الله، وإنما هم من أعاديته، المضيعين لفرائضه، المتعدين لحدوده.

والجهال لأجل هذه الأحوال الشيطانية، والطبيعية، يظنونهم أولياء الله، وإنما هذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين، والفاسقين، ولا يجوز أن يعان من هؤلاء على ترك المأمور، ولا فعل المحذور، ولا إقامة مشيخة تخالف الكتاب والسنة ، ولا أن يعطى رزقه على مشيخة يخرج بها من طاعة الله ورسوله، وإنما يعان بالأرزاق من قام بطاعة الله ورسوله، ودعا إلى طاعة الله ورسوله، والله أعلم.

٦١٢/١١ / وسئل عن رجل منقطع في بيته لا يخرج ولا يدخل ، ويصلي في بيته ، ولا يشهد الجماعة، وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب ، وتجتمع عنده الرجال والنساء ، فهل يسلم له حاله ؟ أو يجب الإنكار عليه؟
فأجاب :

هذه الطريقة طريقة بدعية ، مخالفة للكتاب والسنة ، ولما أجمع عليه المسلمون . والله تعالى إنما يعبد بما شرع ، لا يعبد بالبدع ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ، فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة ، بحيث يرى أن تركهما أفضل من شهودهما مطلقاً كفر ، يجب أن يستتاب صاحبه منه ، فإن تاب وإلا قتل . فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لا يعبد بترك الجمعة والجماعة ، بل يعبد بفعل الجمعة والجماعة ، ومن جعل الانقطاع من ذلك ديناً لم يكن على دين المسلمين ، بل يكون من جنس الرهبان الذين يتخلون بالصوامع والديارات ، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة ، أو الشياطين - بتقريبه إليهم ، أو غير ذلك - نوع كشف ، وذلك لا يفيد ؛ بل هو كافر بالله ورسوله محمد ﷺ .

٦١٣/١١ والله تعالى أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ، ويعبدوه بما شرع ، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك . قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَبَلَّوْهُمْ أَكْثَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .
فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشرعية في الظاهر ، وقصد الرياء والسمعة ، وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا يقبله الله . كما ثبت في الصحيح أن الله يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك » (١) . وفي الصحيح عنه أنه قال : « مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ » (٢) .

وإن كان خالصاً في نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة : مثل الذي يصمت دائماً ، أو يقوم في الشمس ، أو على السطح دائماً ، أو يتعري من الثياب دائماً ، ويلزم لبس الصوف ، أو لبس الليف ، ونحوه أو يغطى وجهه ، أو يمتنع من أكل الخبز ، أو اللحم ، أو

(١) مسلم في الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٩٩) ومسلم في الزهد (٢٩٨٦ / ٤٧) .

شرب الماء، ونحو ذلك - كانت هذه العبادات باطلة، ومردودة. كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (١). وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (٢). وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر الصمت، والقيام والبروز/للشمس مع الصوم، فأمره النبي ﷺ بالصوم وحده (٣)؛ لأنه ٦١٤/١١ عبادة يحبها الله تعالى، وما عداه ليس بعبادة وإن ظنها الظان تقربه إلى الله تعالى. وثبت عنه ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» (٤).

وثبت عنه في الصحيح: أن قوماً من أصحابه قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا أكل اللحم، فقال النبي ﷺ: «ما بال رجال يقول أحدهم: كيت وكيت! لكني أصوم وأفطر، وأنام، وأتزوج النساء، وأكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٥)، فإذا كان هذا فيما هو جنسه عبادة، فإن الصوم والصلاة جنسها عبادة، وترك اللحم والتزويج جائز، لكن لما خرج في ذلك من السنة فالتزم القدر الزائد على المشروع، والتزم هذا ترك المباح، كما يفعل الرهبان، تبرأ النبي ﷺ ممن فعل ذلك، حيث رغب عن سنته إلى خلافها، وقال: «لا رهبانية في الإسلام» (٦) فكيف بمن يرغب عما هو من أعظم شعائر الإسلام، وهو الصلاة في الجمعة، والجماعات؟!!

وقد روى عن ابن عباس أنهم سألوه غير مرة عمن يصوم/النهار، ويقوم الليل، ولا ٦١٥/١١ يشهد الجمعة، ولا جماعة. فقال: هو في النار. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليطنعن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين» (٧) وقال: «من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه» (٨). وفي الصحيح والسنن: أن أعمى قال: يا رسول الله، إن لي قائداً لا يلائمني، فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي؟ قال: «هل تسمع النداء؟» قال: نعم، قال: «فأجب». وفي رواية قال: «لا أجد لك رخصة» (٩).

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧).

(٢) مسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧).

(٣) سبق تخريجه ص ١١٣. (٤) سبق تخريجه ص ٢٢.

(٥) سبق تخريجه ص ١١٣. (٦) أحمد ٢٢٦ / ٦.

(٧) مسلم في الجمعة (٨٦٥ / ٤٠) ولم نثر عليه في البخاري.

(٨) أحمد ٤٢٤ / ٣ والترمذي في أبواب الصلاة (٥٠٠) وقال: «حسن».

(٩) مسلم في المساجد (٢٥٥/٦٥٣)، وأبو داود في الصلاة (٥٥٢)، والنسائي في الإمامة (٨٥٠).

و «الجمعة» فريضة باتفاق الأئمة .

و «الجماعة» واجبة أيضاً ، عند كثير من العلماء ، بل عند أكثر السلف ، وهل هي شرط في صحة الصلاة على قولين :

أقواهما كما في سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » (١) .

وعند طائفة من العلماء : أنها واجبة على الكفاية .

و «أحد الأقوال» أنها سنة مؤكدة ، ولا نزاع بين العلماء أن صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته وحده خمساً وعشرين ضعفاً .

٦١٦/١١ / كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ . ولا نزاع بينهم أن من جعل صلاته وحده أفضل من صلاته في جماعة فإنه ضال مبتدع ، مخالف لدين المسلمين .

وهذه البدع يذم أصحابها ، ويعرف أن الله لا يتقبلها ، وإن كان قصدهم بها العبادة ، كما أنه لا يقبل عبادة الرهبان ، ونحوهم ممن يجتهدون في الزهد والعبادة لأنهم لم يعبدوه بما شرع ، بل ببدعة ابتدعوها ، كما قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] ، فإن المتعبد بهذه البدع قصده أن يعظم ويزار ، وهذا عمله ليس خالصاً لله ، ولا صواباً على السنة ، بل هو كما يقال : زغل ، وناقص ، بمنزلة لحم خنزير ميت ، حرام من وجهين .

والواجب على كل مسلم التزام عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ، والأمر بذلك لكل أحد ، والنهي عن ضد ذلك لكل أحد ، والإنكار على من يخرج عن ذلك ، ولو طار في الهواء ، ومشى على الماء وليس تحت أديم السماء أحد يقر على خلاف ما جاء به رسول الله ﷺ ، بل إن كان مقرأً بالإسلام ألزمه بطاعة الرسول ، واتباع سنته الواجبة ، وشريعته الهادية ، وإن كان غير مقر بالإسلام كان كافراً ، ولو كان له من الزهد والرهبان ماذا عسى أن يكون .

٦١٧/١١ / والكافر إن كان من أهل الذمة فله حكم أمثاله ، وإن كان من أهل الحرب فله حكم أمثاله ، ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد ، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله ، لا اتباع هوى ، ولا منافسة ولا غير ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَهُمْ حَقٌّ لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

فالمقصود أن يكون الدين كله لله ، ولا دين إلا ما شرعه الله تعالى على ألسن رسله ،

(١) أبوداود في الصلاة (٥٥١) ، عن ابن عباس .

وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قيل له : يا رسول الله، الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. فأبي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(١) فيكون المقصود علو كلمة الله، وظهور دين الله. وأن يعلم المسلمون كلهم إن ما عليه المبتدعون المراءون ليس من الدين، ولا من فعل عباد الله الصالحين، بل من فعل أهل الجهل والضلال والإشراك بالله تعالى، الذين يخرجون عن توحيده، وإخلاص الدين له، وعن طاعة رسوله.

و«أصل الإسلام»: أشهد أن لا إله إلا الله،/ وأن محمداً رسول الله. فمن طلب ٦١٨/١ بعبادته الرياء والسמعة، فلم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله، ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله.

وإنما يحقق هذين «الأصلين» من لم يعبد إلا الله، ولم يخرج عن شريعة رسول الله ﷺ التي بلغها عن الله، فإنه قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(٢)، وقال: «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد حدثتكم به، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»^(٣). وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ، وخط خطوطاً عن يمينه، وشماله ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]^(٤).

فالعبادات والزهادات والمقالات والتورعات الخارجة عن سبيل الله - وهو الصراط المستقيم: الذي أمرنا الله أن نسأله هدايته، هو ما دل عليه السنة - هي سبل الشيطان، ولو كان لأحدهم من الخوارق ما كان، فليس أحدهم بأعظم من مقدمهم الدجال الذي يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: انبتي فتنبت، وللخربة أظهرني كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة. وهو مع هذا عدو الله، كافر بالله، وأولياء الله هم المذكورون في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦١٩/١١] فهم المؤمنون المتقون، والتقوى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، فمن ترك ما أمر الله، واتخذ عبادة نهى الله عنها، كيف يكون من هؤلاء؟

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً» الحديث^(٥). فبين سبحانه أنه ما تقرب العبد إلى الله بمثل أداء ما افترض عليه.

(١) البخاري في العلم (١٢٣) ومسلم في الإمامة (١٩٠٤ / ١٤٩ - ١٥١).

(٢) أحمد ٤ / ١٢٦ وابن ماجه في المقدمة (٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢ / ١٥٦) والهيثمى في المجمع (٨ / ٢٦٦) وقال: «ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».

(٤) سبق تخريجه ص ٣١١. (٥) سبق تخريجه ص ١٦.

والتقرب بالواجبات فقط طريق المقتصدين أصحاب اليمين، ثم التقرب بعد ذلك بما أحبه الله من النوافل هو طريق السابقين المقربين، والمحوبات هي ما أمر الله به ورسوله: أمر إيجاب، أو أمر استحباب، دون ما استحبه الرجل برأيه وهواه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

/وسئل شيخ الإسلام علامة الزمان، تقي الدين أبو العباس أحمد ٦٢٠/١١ ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني - رضي الله عنه - عن «جماعة» يجتمعون على قصد الكبائر: من القتل، وقطع الطريق، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك. ثم إن شيخاً من المشائخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مباح بغير شجاعة، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات، ويؤدي الفروضات، ويجتنب المحرمات. فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه، لما يترتب عليه من المصالح، مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا؟

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين.

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهه: أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى، ٦٢١/١١ ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً. وأنه أكمل له ولأمته الدين. كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه، والشقاوة لمن عصاه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ٥٣.

وأخبر أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث. كما ٦٢٢/١١ قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَلَّلُوا بِهَا بَعْدَ وَهْمِهِمْ وَعَدَّرُوهُ وَنَجَّوهُ وَأَتَّبِعُوا آلَ تَوْرٍ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقد أمر الله الرسول ﷺ بكل معروف ونهى عن كل منكر. وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث. وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «ما بعث الله نبيا إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»^(١)، وثبت عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. قال: فقلنا: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل بدعة ضلالة»^(٢). وثبت عنه ﷺ أنه قال: «ما تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثكم به»^(٣). وقال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٤).

٦٢٣/١١ | وشواهد هذا «الأصل العظيم الجامع» من الكتاب والسنة كثيرة وترجم عليه أهل العلم في الكتب. «كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة» كما ترجم عليه البخاري والبخاري وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين. وكان السلف - كمالك وغيره - يقولون: السنة كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وقال الزهري: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة.

إذا عرف هذا فمعلوم أن ما يهدي الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العاصين، لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ﷺ لا يكفي في ذلك، لكان دين الرسول ناقصاً، محتاجاً تامة. وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب، والأعمال الفاسدة نهى الله عنها.

(١) مسلم في الإمامة (١٨٤٤ / ٤٦) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦).

(٢) سبق تخريجهما ص ٣٣٥ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٥٧ .

والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة، فإن الشارع حكيم. فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه، بل نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا ٦٢٤/١١ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله، ولم يشرعه الله ورسوله، فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع، فإنه ﷺ حكيم، لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

إذا تبين هذا فنقول للسائل: إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر. فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي، يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة، أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية.

فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية، التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي؛ بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان - ٦٢٥/١١ - وهم خير أولياء الله المتقين، من هذه الأمة - تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية. وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية.

فلا يمكن أن يقال: إن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية، بل قد يقال: إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية، عاجزاً عنها، ليس عنده علم بالكتاب والسنة، وما يخاطب به الناس، ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية، إما مع حسن القصد، إن كان له دين، وإما أن يكون غرضه التراس عليهم، وأخذ أموالهم بالباطل، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَمْنُونَ إَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُودُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل، أو عجز، أو

غرض فاسد، إلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين، والعارفين، والمؤمنين. قال تعالى في النبيين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَعَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

٦٢٦/١١ / وقال تعالى في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَجَعُوا آخِذِينَ بِأُفُودِهِمْ لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَخُبِّلُوا أَفَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُ إِذَا عُرِفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. ، قال تعالى في حق أهل العلم: ﴿لِأَنَّ الَّذِينَ أَوْثَقُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَتَابِي تَنفَعُ مِمَّنْ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وهذا السماع هدى الله العباد، وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد، وبه بعث الرسول ﷺ، وبه أمر المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وعليه كان يجتمع السلف، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إذ اجتمعوا أمروا رجلاً منهم أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لأبي موسى: ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته. وقال: «لقد أوتي هذا زمزماً من مزامير آل داود»^(١). وقال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك»، فقال: لو علمت أنك تسمعي خبرته لك تحبيراً^(٢). أي: لحسنه لك تحسيناً.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن»، فقال: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟! فقال: إني أحب أن أسمع من غيري». قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «حسبك»، فنظرت إليه فإذا عيناه تذرفان من البكاء^(٣). وعلى هذا السماع كان يجتمع القرون الذين أثنى عليهم النبي ﷺ، حيث قال: «خير القرون الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٤).

ولم يكن في السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هذا. لا بالحجاز، ولا

(١) (٣، ٢) سبق تخريجها ص ١٦٤ .

(١) سبق تخريجها ص ٣٢٠ .

(٤) سبق تخريجها ص ٣٥ .

باليمن، ولا بالشام، ولا بمصر، والعراق، وخراسان، والمغرب. وإنما حدث السماع
 المبتدع بعد ذلك، وقد مدح الله أهل هذا السماع، المقبلين عليه، وذم المعرضين عنه،
 وأخبر أنه سبب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
 عَلَيْهَا صُمًّا وَعَجَمَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ۖ
 لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ۚ الْحَدِيد: ١٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
 لَأَسْمَعَهُمْ ۚ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ
 التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ۚ كَانَهُمْ حُرُثٌ شَتَنَفِرَةٌ ۚ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالى:
 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال
 تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۚ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
 ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۚ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ
 كُنْتُ بَصِيرًا ۚ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، ومثل
 هذا في القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة،
 ويأمرهم بسماع ذلك.

وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين في المغرب، والعشاء، والفجر. قال تعالى:
 ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۚ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وبهذا مدح عبدالله بن
 رواحة النبي ﷺ حيث قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع

٦٢٩/١١

وأحوال أهل هذا السماع المذكورة في كتاب الله، من وجل القلوب، ودمع العيون،
 واقتسار الجلود، وإنما حدث سماع الأبيات بعد هذه القرون، فأنكره الأئمة، حتى
 قال: الشافعي - رحمه الله - خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغير،
 يزعمون أنه يرقق القلوب، يصدون به الناس عن القرآن، وسئل الإمام أحمد عنه فقال:
 محدث، فقليل له: أنجلس معهم فيه؟ فقال: لا يجلس معهم.

والتغير هو الضرب بالقضيب على جلودهم، من أمثل أنواع السماع. وقد كرهه الأئمة
 فكيف بغيره، والأئمة المشايخ الكبر لم يحضروا هذا السماع المحدث، مثل الفضيل ابن
 عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري

السقطي^(١)، وأمثالهم. ولا أكابر الشيوخ المتأخرين: مثل الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي، والشيخ أبي مدين، والشيخ أبي البيان، والشيخ أبي القاسم الحوفي، والشيخ علي ابن وهب، والشيخ حياة^(٢)، وأمثالهم. وطائفة من الشيوخ حضروه ثم رجعوا عنه. وسئل الجنيد عنه فقال: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فبين ١١/٦٣٠ الجنيد أن قاصد هذا السماع صار مفتوتاً، وأما من سمع ما يناسبه بغير قصد فلا بأس.

فإن النهي إنما يتوجه إلى الاستماع، دون السماع، ولهذا لو مر الرجل بقوم يتكلمون بكلام محرم لم يجب عليه سد أذنيه، لكن ليس له أن يستمع من غير حاجة، ولهذا لم يأمر النبي ﷺ ابن عمر بسد أذنيه لما سمع زمارة الراعي، لأنه لم يكن مستمعاً بل سامعاً^(٣).

وقول السائل وغيره: هل هو حلال؟ أو حرام؟ لفظ مجمل به تلييس، يشبهه الحكم فيه، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين:

أحدهما: أنه هل هو محرم؟ أو غير محرم؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس، وغيرها. مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله.

والنوع الثاني: أن يفعل على وجه الديانة، والعبادة، وصلاح القلوب، وتجريد حب ١١/٦٣١ العباد لربهم، وتركية نفوسهم، وتطهير قلوبهم/ وأن تحرك من القلوب الخشية، والإنابة، والحب، ورقة القلوب، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات، والطاعات، لا من جنس اللعب والملهيات.

فيجب الفرق بين سماع المتقربين، وسماع المتلعين، وبين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس، والأفراح، ونحو ذلك من العادات، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب، والتقرب إلى رب السموات، فإن هذا يسأل عنه: هل هو قرينة وطاعة؟ وهل هو

(١) هو سري بن مغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادى المولد والوفاة، قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري السقطي، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا في علة الموت، من كلامه: من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز. توفي سنة ٨٦٧م. [الوفيات ٢/٣٥٧، والأعلام ٣/٨٢].

(٢) هو حياة بن الوليد اليحصبي، أحد الأشراف الشجعان. كان في أيام استيلاء عبد الرحمن الأموي على الأندلس، وامتنع مع أمير طليطلة، فوجه إليهما عبد الرحمن جيشاً فأسر حياة، وصلب بقرطبة، مات سنة ٧٦٤م. [الأعلام ٢/٢٨٩].

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٨.

طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم، وتحريك وجدهم لمحبتهم، وتركية نفوسهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، ونحو ذلك من المقاصد التي تقصد بالسماع؟ كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة ، لا على وجه اللهو واللعب.

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال: هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي : إما محرمة، أو مكروهة، أو مباحة، قربة وعبادة وطاعة، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله، ويتوب العاصين، ويرشد به الغاوين، ويهدي به الضالين؟

ومن المعلوم أن الدين له «أصلان» فلا دين إلا ما شرع الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله. والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله.

ولو سئل العالم عن يعدو بين جبلين: هل يباح له ذلك؟ قال: نعم، فإذا قيل: إنه ٦٣٢/١١ على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة، قال: إن فعله على هذا الوجه حرام منكر، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل.

ولو سئل عن كشف الرأس ، ولبس الإزار، والرداء: أفتى بأن هذا جائز، فإذا قيل: إنه يفعله على وجه الإحرام، كما يحرم الحاج. قال: إن هذا حرام منكر.

ولو سئل عن يقوم في الشمس. قال: هذا جائز. فإذا قيل: إنه يفعله على وجه العبادة. قال: هذا منكر. كما روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس. فقال: «من هذا؟» قالوا: هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم في الشمس، ولا يقعد ، ولا يستظل، ولا يتكلم. فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليجلس ، وليستظل وليتم صومه»^(١) فهذا لو فعله لراحة ، أو غرض مباح لم ينه عنه ، لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه.

وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت، لم يحرم عليه ذلك، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة، كما كانوا يفعلون في الجاهلية: كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت ٦٣٣/١١ سقف، فنهوا عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فبين سبحانه أن هذا ليس ببر، وإن لم يكن حراماً، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصياً، مذموماً، مبتدعاً، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن العاصي يعلم أنه عاص فيتوب، والمبتدع

(١) البخارى فى الايمان (٦٧٠٤) وأبو داود فى الايمان والنذور (٣٣٠٠)

يحسب أن الذي يفعله طاعة فلا يتوب.

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو لا يعده من صالح عمله، ولا يرجو به الثواب، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذ دينًا، وإذا نهى عنه كان كمن نهى عن دينه، ورأى أنه قد انقطع عن الله، وحرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه، فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين: إن اتخاذ هذا دينًا وطريقًا إلى الله تعالى أمر مباح، بل من جعل هذا دينًا وطريقًا إلى الله تعالى فهو ضال، مفتر، مخالف لإجماع المسلمين. ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيتته كان جاهلًا متكلمًا في الدين بلا علم.

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال: هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا؟ وهل يثابون على ذلك أم لا؟ وإذا لم يكن هذا قربة وطاعة وعبادة لله، ففعلوه على أنه قربة/وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى. هل يحل لهم هذا الاعتقاد؟ وهذا العمل على هذا الوجه؟.

وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول ﷺ أن يقول: إن هذا من القرب والطاعات، وأنه من أنواع العبادات، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده: لا أمر إيجاب، ولا أمر استحباب، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محمودًا، ولا حسنة، ولا طاعة، ولا عبادة، باتفاق المسلمين.

فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب. لا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقًا يقدمونه على سماع القرآن وجدًا وذوقًا. وربما قدموه عليه اعتقادًا، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وحركات مضطربة. وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم، ولا ترتاح إليه نفوسهم، فإذا سمعوا «المكاء» و «التصدية» أصغت القلوب، واتصل المحبوب بالمحب، وخشعت الأصوات، وسكنت الحركات، فلا سعة، ولا عطاس، ولا لغط، ولا صياح، وإن قرؤوا شيئًا من القرآن، أو سمعوه كان ١١/٦٣٥ على وجه التكلف والسخرة، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به،/ولا فائدة له فيه، حتى إذا ما سمعوا مزمارة الشيطان أحبوا ذلك، وأقبلوا عليه، وعكفت أرواحهم عليه.

فهؤلاء جند الشيطان، وأعداء الرحمن، وهم يظنون أنهم من أولياء الله المتقين، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين، فإن المؤمن يحب ما أحبه الله تعالى، ويبغض ما أبغض الله تعالى، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله

ويغضون ما أحب الله، ويوالون أعداء الله، ويعادون أولياءه، ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامير الشيطان، وكلما بعدوا عن الله ورسوله وطريق المؤمنين قربوا من أعداء الله ورسوله، وجند الشيطان.

فيهم من يطير في الهواء والشيطان طائر به، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه تصرعهم. وفيهم من يحضر طعاماً، وإداماً، ويملاً الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك. فيحسب الجاهلون أن هذه من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة وأمثالهم من الشياطين، ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل.

وقد بسطنا الكلام على «مسألة السماع» وذكرنا كلام المشائخ فيه في غير هذا الموضع، وبالله التوفيق والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قد كتبت فيما تقدم : الكلام في «المكاشفات، والمجاهدات»، وأنها على «ثلاثة أقسام» في الظاهر، والباطن. وكذلك «السماع، والمخاطبات، والمحادثات» ثلاثة أقسام: في الباطن والظاهر .

فإن «السامع» إما أن يسمع نفس الصوت الذي هو كلام المتكلم الصوتي، أو غير كلامه. كما ترى عينه، وإما أن يسمع صدى الصوت ورجعه كما يرى تمثاله في ماء، أو مرآة. فهذه رؤية مقيدة، وسماع مقيد، كما يقال: رأيت في المرآة، لكن السمع يجمع بين الصورتين.

وإما أن يتمثل له : يعني كلامه في أصوات مسموعة، كما يتمثل له في صورة فيراها. مثل أن ينقر بيده نقرات، أو يضرب بيده أوتاراً، أو يظهر أصواتاً منفصلة عنه، يبين فيها مقصوده.

١١/٦٣٧ / وكذلك في الباطن: إما أن يسمع في المنام، أو في اليقظة نفس كلام المتكلم، مثل الملائكة مثلاً، كما يرى بقلبه عين ما يكشف له في المنام، واليقظة. وإما أن يسمع مثال كلامه في نفسه، كما يرى مثاله في نفسه بمنزلة الرؤيا التي يكون تعبيرها عين ما رؤى، وإما أن تتمثل له المعاني في صورة كلام مسموع يحتاج إلى تعبير. كما تتمثل له الأعيان في صورة أشخاص مرئية تحتاج إلى تعبير. وهذا غالب ما يرى، ويسمع في المنام، فإنه يحتاج إلى تأويل، وهو بمنزلة الاستعارة، والأمثال المضروبة، فهذا هذا. والله أعلم.

فصل

في الكون يقظة ومنامًا: لما كانت الرؤية بالعين للأشياء على وجهين:

أحدهما : رؤية العين الشيء بلا واسطة، وهي الرؤية المطلقة. مثل رؤية الشمس، والقمر، كما قال النبي ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»^(١)، وقد تنازع الناس هل الرؤية انطباع المرئي في العين، أو لانعكاس شعاع البصر، أو لواحد منهما. على أقوال معروفة.

/والثاني: رؤية المثال: وهي الرؤية في ماء، و مرآة، ونحوهما. وهي رؤية مقيدة، ٦٣٨/١١ ولهذا قال الفقهاء لو حلف: لا رأيت زيدًا، فرأى صورته في ماء، أو مرآة، لم يحنث، لأن ذلك ليس هو المفهوم من مطلق الرؤية، وهذا في الرؤية . كسماع الصدى في السمع، فإذا أراد الإنسان أن يرى ما يمر وراءه من الناس والدواب نظر في المرآة التي تواجهه، فتتجلي له فيها حقائق ما وراءه، فمن هذه الرؤيا قد يرى بيان الحقيقة، وقد تتمثل له الحقيقة بمثال يحتاج إلى تحقيق . كما تمثل جبريل في صورة البشر، وهكذا القلب من شأنه أن يبصر، فإن بصره هو البصر، وعماء هو العمى . كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فتارة يرى الشيء نفسه إذا كشف له عنه، وتارة يراه متمثلًا في قلبه الذي هو مرآته، والقلب هو الرائي أيضًا، وهذا يكون يقظة، ويكون منامًا، كالرجل يرى الشيء في المنام، ثم يكون إياه في اليقظة من غير تغير.

وللقلب «حال ثلاثة» كما للعين نظر في المنام: وهي التي تقع لغالب الخلق. أن يرى الرؤيا مثلاً مضروباً للحقيقة، لا يضبط رؤية الحقيقة بنفسها، ولا بواسطة مرآة قلبه. ولكن يرى ما له تعبير فيعتبر به، و«عبارة الرؤيا» هو العبور من الشيء إلى مثاله، ونظيره. وهو حقيقة المقايسة والاعتبار، فإن إدراك الشيء بالقياس والاعتبار الذي ألفه الإنسان واعتاده ٦٣٩/١١ أيسر من إدراك شيء على البديهة من غير مثال معروف.

ثم المرئي في هذا الوجه، في هذه الحال، وفي الحال التي قبلها هو موجود في قلب الإنسان ونفسه، وإن كان مثلاً للحقيقة وواسطة لها.

والمرئي في الوجه الأول: هو عين الموجود في الخارج لا مرئي في القلب، ومن العامة المتفلسفة من يزعم: أن ما يسمعه الأنبياء من الكلام، ورونه من الملائكة، إنما وجوده في قلوبهم، وذلك مبلغ هؤلاء من العلم، لأن ذلك هو غاية ما وجدوه ورأوه من أبناء

(١) سبق تخريجه ص ٢٦٢ .

جنسهم، فظنوا أن ليس وراء ذلك غاية .

وقد يعارضهم من يتوهم أن ما يسمع ويرى لا يكون في نفس الإنسان، بل جميعه من الخارج ، كلاهما خطأ، بل منه ما يكون في نفس الإنسان: مثل ما يراه ويسمعه في المنام، إما مثلاً لا تعبير له، أو له تعبير .

٦٤٠/١١ ومنه ما يكون في الخارج: مثل رؤية مريم للرسول، إذ تمثل لها/بشرًا سويًا، ورؤية الصحابة لجبريل في صورة الأعرابي .

فقد ظهر أن رؤية الحقائق بالعين تطابق لرؤياها بالقلب ، كل منهما « ثلاثة أقسام » إدراك الموجود في الخارج بعينه، وإدراكه بواسطة تمثله في مرآة باطنة أو ظاهرة، وإدراكه متمثلاً في غير صورته، إما باطنًا في القلب ، وإما ظاهرًا في العين . والله سبحانه أعلم .
فالقياص في الحسيات ، كالقياص في العقليات، وهذا الذي كتبه في المكاشفات يجيء مثله في المخاطبات، فإن البصر والسمع يظهران ما يتلوه .

اسئل شيخ الإسلام عن يقول: إن بعض المشائخ إذا أقام السماع يحضره رجال ٦٤١/١١
الغيب، وينشق السقف والحيطان، وتنزل الملائكة ترقص معهم، أو عليهم . وفيهم من
يعتقد أن النبي ﷺ يحضر معهم. فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد؟ وما هي صفة
رجال الغيب ؟ وهل يكون للتتار خفراء ولهم حال كحال خفراء أمة محمد ﷺ، أم لا؟
فأجاب :

وأما من زعم : أن الملائكة أو الأنبياء تحضر «سماع المكاء والتصدية» محبة ورغبة فيه
فهو كاذب مفتر، بل إنما تحضره الشياطين، وهي التي تنزل عليهم، وتنفخ فيهم . كما روي
الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « أن الشيطان قال: يا رب اجعل
لي بيتاً. قال : بيتك الحمام. قال: اجعل لي قرآنًا. قال: قرآنك الشعر. قال : يا رب
اجعل لي مؤذناً. قال: مؤذذك المزمارة»^(١)، وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان:
﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقد فسر ذلك طائفة من السلف ٦٤٢/١١
بصوت الغناء. وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله .
وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت لهو
ولعب، ومزامير الشيطان، وصوت لطم خدود، أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية»^(٢)
كقولهم: وا لهفاه! وا كبدها! وا نصيراه! .

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماع
الجاهلية: ذات المكاء، والتصدية، وكيف يكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد
الشرطي، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين، ورأى بعض المشائخ
المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به . فلما صرخ بشيطانه هرب، وسقط ذلك
الرجل .

(١) الطبراني في الكبير (١١١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع ١١٩/١ : «رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن
صالح الأيلي ضعفه العقيلي ، قلت: ويأتي حديث أبي أمامة في أواخر الأدب في الشعر مثل هذا أو أتم إن
شاء الله » وبلغظه عن أبي أمامة في الطبراني في الكبير (٧٨٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع ١٢٢/٨ :
«رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الألهماني وهو ضعيف».

(٢) الترمذي في الجنايز (١٠٠٥) وقال: «حديث حسن»، وشرح السنة للبيهقي ٤٣١/٥ (١٥٣٠) ، وقال
الهيثمي في المجمع ٢٠/٣ : «رواه أبو يعلى والبرار، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وفيه كلام» .

وهذه الأمور لها أسرار، وحقائق لا يشهدا إلا أهل البصائر الإيمانية، والمشاهد الإيقانية، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة، وأعرض عن سبيل المبتدعة، فقد حصل له الهدى، وخير الدنيا والآخرة، وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي، فإنه يصل إلى مقصوده، ويجد الزاد والماء في موطنه، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه. ومن سلك خلف غير الدليل الهادي، كان ضالا عن الطريق. فإما أن يهلك، وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق.

والدليل الهادي هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهادياً إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وآثار الشيطان تظهر في أهل السماع الجاهلي: مثل الإزباد، والإرغاء، والصرافات المنكرة، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان، ولذلك يجدون في نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت: إما وجد في الهوى المذموم، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية، التي تعتري أهل الاجتماع، على شرب الخمر إذا سكروا بها، فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالاشربة المطربة؛ فيصددهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن، وفهم معانيه، واتباعه، فيصيرون مضارعين للذين يشترن لهو الحديث ليعملوا عن سبيل الله. ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الشيطانية. كما يقتل العائن من أصابه بعينه.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن هؤلاء يجب عليهم القود والدية/والقصاص، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة، لأنهم ظالمون، وهم إنما يغتبطون بما يتفذونه من مراداتهم المحرمة، كما يغتبط الظلمة المسلطون.

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين، والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهممة، كما يكون للمشركين، وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة، كما يكون لهم ملكة ظاهرة، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون. وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب. وباب القدرة، والتمكن باطنًا وظاهرًا ليس مستلزمًا لولاية الله تعالى، بل قد يكون ولي الله متمكنًا ذا سلطان، وقد يكون مستضعفًا إلى أن ينصره الله، وقد يكون مسلطًا إلى أن ينتقم الله منه، فخبراء التتار في الباطن من جنس التتار في الظاهر، هؤلاء في العباد بمنزلة هؤلاء في الأجناد.

وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يدل الكافرين على المؤمنين تارة، كما يدل المؤمنين على الكافرين. كما كان يكون لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وإذا كان في المسلمين ضعف، وكان عدوهم مستظهرًا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

٦٤٦/١١ / وسئل عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار ، لا يرين الجنة، ولا يشمنن راثحتها. وقد روى في الحديث عن رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » (١).

فأجاب :

قد ثبت في صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، ورجال معهم سياط مثل أذنان البقر ، يضربون بها عباد الله » (٢) ، ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد ، فإنه جاهل ضال عن الشرع يستحق العقوبة التي تردعه ، وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

٦٤٧/١١ والأحاديث الصحيحة في «الوعيد» كثيرة، مثل قوله : «من قتل/نفساً معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة، وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفاً» (٣) ، ومثل قوله الذي في الصحيح : «لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر» ، قيل : يارسول الله ، الرجل يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، أفمن الكبر ذاك؟ فقال : «لا ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس» (٤) ، و « بطر الحق » جحده ، و « غمط الناس » احتقارهم ، وازدراؤهم . ومثل قوله في الحديث الصحيح : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وفقير مختال» (٥).

وفي القرآن من آيات الوعيد ما شاء الله ، كقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠] ، وكما في قوله : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ مِمْكِرَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء : ٢٩ ، ٣٠] ، وقوله في الفرائض : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

(١) أحمد ٤/ ٤١١ ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣١٤) .

(٢) مسلم في اللباس (٢١٢٨ / ١٢٥) وأحمد ٢ / ٣٥٦ .

(٣) البخارى فى الجزية (٣١٦٦) وأبو داود فى الجهاد (٢٧٦٠) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص ٧٧ .

حُدُودُهُ يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿[النساء: ١٣ ، ١٤] .

/ وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، أن «الوعيد» في الكتاب والسنة لأهل الكبائر ٦٤٨/١١ موجود. ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة، قد بين الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه لا يلحق التائب بقوله: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] أي لمن تاب. وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفر، وما دون الشرك إن شاء الله غفره. وإن شاء عاقب عليه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا غَمٍّ، ولا حزن ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١) ولهذا لما نزل قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، قد جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر، ألسنت تنصب؟ ألسنت تحزن؟ ألسنت تصيبك اللأوى؟ فذلك مما تجزون به»^(٢) فالمصائب في الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر، وكذلك الحسنات التي يفعلها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٣)، فالله تعالى لا يظلم عبده شيئاً. كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ ٦٤٩/١١ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨] .

فالوعيد : ينتفي عنه : إما بتوبة، وإما بحسنات يفعلها تكافئ سيئاته، وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياها، وإما بغير ذلك، وكما أن أحاديث الوعيد تُقدِّم وكذلك أحاديث الوعد. فقد يقول: لا إله إلا الله. ويجحد وجوب الصلاة، والزكاة، فهذا كافر يجب قتله، وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار.

وهذه - مسألة الوعد والوعيد - من أكبر مسائل العلم . وقد بسطناها في مواضع ، ولكن كتبنا هنا ما تسع الورقة .

(١) البخارى فى المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٧٣ / ٥٢) .

(٢) أحمد ١١/١ ، وقال الشيخ شاكر ١٨٢/١ (٦٩-٧١) : «أسانيدھا ضعاف لانقطاعھا» .

(٣) مسلم فى الطهارة (٢٣٣ / ١٦) والترمذى فى الصلاة (٢١٤) .

٦٥٠/١١ /وسئل عن الذنوب الكبائر المذكورة في القرآن، والحديث. هل لها حد تعرف به ؟ وهل قول من قال: إنها سبع، أو سبعة عشر، صحيحاً؟ أو قول من قال : إنها ما اتفقت فيها الشرائع - أعني على تحريمها؟ - أو أنها ما تسد باب المعرفة بالله؟ أو أنها ما تذهب الأموال والأبدان؟ أو أنها إنما سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها؟ أو أنها لا تعلم أصلاً. وأبهمت كليله القدر؟ أو ما يحكي بعضهم أنها إلى التسعين أقرب، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، أو أنها ما رتب عليها حد. أو ما توعدها عليها بالنار؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس، وذكره أبو عبيد ، وأحمد بن حنبل، وغيرهما وهو : أن الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا، وحد الآخرة. وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا . وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة، أو غضب ، أو نار، فهو من الكبائر .

٦٥١/١١ ومعنى قول القائل : وليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في/الآخرة، أي « وعيد خاص » كالوعيد بالنار، والغضب، واللعنة، وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة، كالعقوبة الخاصة في الدنيا، فكما أنه يفرق في العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع، والقتل، وجلد مائة ، أو ثمانين، وبين العقوبات التي ليست بمقدرة: وهي «التعزير» فكذلك يفرق في العقوبات التي يعزر الله بها العباد - في غير أمر العباد بها - بين العقوبات المقدرة: كالغضب ، واللعنة، والنار، وبين العقوبات المطلقة.

وهذا «الضابط» يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل كل ما ثبت في النص أنه كبيرة: كالشرك ، والقتل ، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة، وكالفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس، وشهادة الزور؛ فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص، كما قال في الفرار من الزحف : ﴿وَمَنْ يُؤْمِرْهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقال : ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا رَسَلْنَا بِهِ أَنْ يُؤْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]،

وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وكذلك كل ذنب توعده صاحبه بأنه لا يدخل الجنة، ولا يشم رائحة الجنة، وقيل فيه: من فعله فليس منا، وأن صاحبه آثم، فهذه كلها من الكبائر. كقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»^(١) وقوله: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢) وقوله: «من غشنا فليس منا»^(٣)، وقوله: «من حمل علينا السلاح فليس منا»^(٤)، وقوله: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(٥).

وذلك لأن نفي الإيمان، وكونه ليس من المؤمنين، ليس المراد به ما يقوله المرجئة: أنه ليس من خيارنا، فإنه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارهم، وليس المراد به ما يقوله الخوارج: إنه صار كافراً. ولا ما يقوله المعتزلة: من أنه لم يبق معه من الإيمان شيء، بل هو مستحق للخلود في النار لا يخرج منها، فهذه كلها أقوال باطلة، قد بسطنا الكلام ٦٥٣/١١ عليها في غير هذا الموضع.

ولكن المؤمن المطلق في باب الوعد والوعيد، وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب، هو المؤدي للفرائض، المجتنب المحارم، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق، فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين، إذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة. وهذا معنى قول من قال: أراد به نفي حقيقة الإيمان، أو نفي كمال الإيمان، فإنهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب، فإن ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد، والفقهاء يقولون: الغسل ينقسم إلى: كامل، ومجزئ. ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزئ لم يكن مذموماً.

فمن أراد بقوله: «نفي كمال الإيمان» أنه نفي الكمال المستحب، فقد غلط، وهو يشبه قول المرجئة، ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب. وهذا مطرد في سائر ما نفاه الله ورسوله؛ مثل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

(١) البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦ / ١٨)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٦)، وأحمد ٨٠ / ٤، كلهم عن جبير بن مطعم.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٧. (٣) مسلم في الإيمان (١٠١ / ١٦٤).

(٤) البخاري في الفتن (٧٠٧٠) ومسلم في الإيمان (١٠٠ / ١٦٣).

(٥) البخاري في المظالم (٢٤٧٥) ومسلم في الإيمان (٥٧ / ١٠٤).

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] ومثل الحديث المأثور: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(١)، ومثل قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بأمر لا انتفاء بعض مستحباته، فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به، وإن كان معه بعض الإيمان. فإن الإيمان يتبع بعض ويتفاضل. كما قال ﷺ: «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(٣).

و المقصود هنا أن نفي الإيمان والجنة، أو كونه من المؤمنين، لا يكون إلا عن كبيرة. أما الصغائر فلا تنفي هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجردهما، فيعرف أن هذا النفي لا يكون لترك مستحب، ولا لفعل صغيرة، بل لفعل كبيرة.

وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه:

أحدها: أنه المأثور عن السلف. بخلاف تلك الضوابط، فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة، وإنما قالها بعض من تكلم في شيء من الكلام، أو التصوف بغير دليل شرعي، وأما من قال من السلف: إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، فهذا لا يخالف ما ذكرناه. وستكلم عليها إن شاء الله واحداً واحداً.

٦٥٥/١١ / الثاني: أن الله قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات، واستحقاق الوعد الكريم، وكل من وعد بغضب الله أو لعنته، أو نار أو حرمان جنة، أو ما يقتضي ذلك، فإنه خارج عن هذا الوعد، فلا يكون من مجتنب الكبائر، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر؛ إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب، فهو حد يتلقى من خطاب الشارع، وماسوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله، بل هو قول رأي القائل وذوقه من غير دليل شرعي، والرأي والذوق بدون دليل شرعي لا يجوز.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر، لأن تلك الصفات لا دليل عليها، لأن الفرق بين ما اتفقت فيه الشرائع واختلفت لا يعلم إن لم يمكن وجود عالم بتلك الشرائع على وجهها، وهذا غير معلوم لنا.

(١) أحمد ٣ / ١٣٥ وقال الهيثمي في المجمع (١/١٠١): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، والطبراني في

الأوسط وفيه أبو هلال وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره».

(٢) البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٩٤ / ٣٥، ٣٦).

(٣) البخاري في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (١٨٤ / ٣٠٤).

وكذلك «ما يسد باب المعرفة» هو من الأمور النسبية والإضافية، فقد يسد باب المعرفة ٦٥٦/١١ عن زيد ما لا يسد عن عمرو، وليس لذلك حد محدود.

الخامس: أن تلك الأقوال فاسدة. فقول من قال: إنها ما اتفقت الشرائع على تحريمه، دون ما اختلفت فيه، يوجب أن تكون الحبة من مال اليتيم، ومن السرقة، والخيانة، والكذبة الواحدة، وبعض الإساءات الخفية، ونحو ذلك كبيرة. وأن يكون الفرار من الزحف ليس من الكبائر، إذ الجهاد لم يجب في كل شريعة، وكذلك يقتضي أن يكون الزوج بالمحرمات بالرضاعة والصهر وغيرهما ليس من الكبائر، لأنه مما لم تنفق عليه الشرائع، وكذلك إمساك المرأة بعد الطلاق الثلاث، ووطؤها بعد ذلك. مع اعتقاد التحريم.

وكذلك من قال: إنها ما تسد باب المعرفة، أو ذهاب النفوس والأموال، يوجب أن يكون القليل من الغضب والخيانة كبيرة، وأن يكون عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وشرب الخمر، وأكل الميتة، ولحم الخنزير، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك ليس من الكبائر.

ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، وأن ما عصى الله به فهو كبيرة، فإنه ٦٥٧/١١ يوجب أن لا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهذا خلاف القرآن. فإن الله قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَقْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣] والأحاديث كثيرة في الذنوب الكبائر.

ومن قال: هي سبعة عشر، فهو قول بلا دليل.

ومن قال: إنها مبهمة، أو غير معلومة، فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها.

ومن قال: إنه ما توعد عليه بالنار، قد يقال: إن فيه تقصيراً إذ الوعيد قد يكون بالنار، وقد يكون بغيرها، وقد يقال: إن كل وعيد فلا بد أن يستلزم الوعيد بالنار.

وأما من قال: إنها كل ذنب فيه وعيد، فهذا يندرج فيما ذكره السلف؛ فإن كل ذنب فيه حد في الدنيا ففيه وعيد من غير عكس، فإن الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف المحصنات، ونحو ذلك فيها وعيد. كمن قال: إن الكبيرة ما فيها وعيد، والله أعلم.

٦٥٨/١١ / سئل - رضي الله عنه - عن شرب الخمر وفعل الفاحشة، أيهما أعظم إثماً عند الله؟ أم هما مستويان؟ وما هي الكبائر التي قال عز وجل فيها: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١]، فما هي هذه الكبائر، وما هي السيئات؟

فأجاب - رضي الله عنه :-

الحمد لله، الكبائر: هي ما فيها حد في الدنيا، أو في الآخرة: كالزنا، والسرقة، والقذف، التي فيها حدود في الدنيا، وكالذنوب التي فيها حدود في الآخرة، وهو الوعيد الخاص، مثل الذنب الذي فيه غضب الله، ولعنته، أو جهنم، ومنع الجنة، كالسحر، واليمين الغموس، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر، ونحو ذلك. هكذا روى عن ابن عباس، وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من العلماء، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ مُدْخِلٌ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَالِ هَذَا الصَّكْتِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

وأكبر الكبائر: الإشرak بالله، ثم قتل النفس، ثم الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]، والزنا أعظم من شرب الخمر، إذا استويا في القدر، مثل من يزني مرة، ويشرب الخمر مرة، فأما إذا قدر أن رجلاً زنا مرة، وآخر مدمن على شرب الخمر، فهذا قد يكون أعظم من ذاك. كما أنه لو زنا مرة وتاب كان خيراً من المصّر على شرب الخمر، وكذلك شارب الخمر إذا دعا غيره فيكون عليه إثم شره وعليه قسط من إثم الذين دعاهم إلى الشرب، وكذلك إذا اقترن بالشرب سماع المزامير، والشرب على بعض الصور المحرمة، ونحو ذلك فهذا مما يتغلظ فيه الشرب.

والذنب يتغلظ بتكراره، و بالإصرار عليه، وبما يقترن به من سيئات أخرى، وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنا وهو خائف من الله، وجل من عذابه، والشارب يشرب لاهياً غافلاً لا

يراقب الله، كان ذنبه أعظم من هذا الوجه، فقد يقتن بالذنوب ما يخففها، وقد يقتن بها/ ما يغلظها. كما أن الحسنات قد يقتن بها ما يعظمها، وقد يقتن بها ما يصغرها، ٦٦٠/١١ فكما أن الحسنات أجناس متفاضلة، وقد يكون المفضول في كثير من المواضع أفضل مما جنسه فاضل. فكذلك السيئات.

فالصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء؛ مع أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر وبعد العصر أفضل من تحري صلاة التطوع في ذلك، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن فيه، وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة، فيكون أفضل في حقه، فهكذا السيئات، وإن كان القتل أعظم من الزنا، والزنا أعظم من الشرب، فقد يقتن بالشرب من المغلظات ما يصير به أغلظ من بعض ضرر الزنا.

وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها - تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا، وهذا أعظم من هذا، والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها. كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التي فيها : « لا إله إلا الله » بالسجلات التي فيها ذنوبه^(١)، وكما في حديث البغي التي سقت كلبًا بموقها، فغفر الله لها^(٢). وكذلك في السيئات. والله أعلم.

(١) أحمد ٢ / ٢١٣ وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠) والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) البخارى فى الانبياء (٣٤٦٧) وأحمد ٢ / ٥٠٧ .

٦٦١/١١ / سئل الشيخ - رحمه الله - عن رجل مدام على المحرمات، وهو مواظب على الصلوات الخمس، ويصلي على محمد مائة مرة كل يوم، ويقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، كل يوم مائة مرة، فهل يُكفَّر ذلك بالصلاة والاستغفار؟
فأجاب:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى، فإن الله لا يظلمه، بل يشبهه عليه.

وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة، ويرجى له من الله التوبة. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرِفُوا يُذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وإن مات ولم يتب فهذا أمره إلى الله. هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته. لا يشهد له بجنة ولا نار، بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يقولون: إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع حسناته، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الإحباط، بل أهل الكبار معهم حسنات وسيئات، وأمرهم إلى الله تعالى.

٦٦٢/١١ / وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٧] أي من اتقاه في ذلك العمل، بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله تعالى، وأن يكون مة افقاً للسنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً. وأهل الوعيد يقولون: لا يتقبل العمل إلا من اتقاه بترك جميع الكبائر. وهذا خلاف ما جاء به الكتاب والسنة في «قصة حمار» الذي كان يشرب الخمر، وقال النبي ﷺ: «إنه يحب الله ورسوله»^(١)، وكما في أحاديث الشفاعة، وإخراج أهل الكبائر من النار. حتى يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمَنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ﴾ الآية [فاطر: ٣٢].

(۱) سبق نخریجہ ص ۲۵۸ .

ومع هذا فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١). وقال: « من شرب الخمر في الدنيا، ولم يتب منها حرمها في الآخرة»^(٢)، وقال: «لعن الله الخمر، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها، ومشتريها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها، وساقبها، وأكل ثمنها»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٥ .

(٢) البخارى فى الأشربة (٥٥٧٥) ومسلم فى الأشربة (٢٠٠٣ / ٧٧ ، ٧٨) .

(٣) أبو داود فى الأشربة (٣٦٧٤) والترمذى فى البيوع (١٢٩٥) وقال: « حديث غريب من حديث أنس ».

٦٦٣/١١ / وقال - أيضاً - شيخ الإسلام - رحمه الله - :

فصل

وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ. وَأَنِيعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥] ، فقد أخبر الله في هذه الآية أنه يغفر الذنوب ، أي لمن تاب .

وقد قال في الأخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦] ، وهذا في حق من لم يتب ، فالشرك لا يغفره الله ، وما دون الشرك أمره إلى الله ، إن شاء عاقب عليه ، وإن شاء عفا عنه .

٦٦٤/١١ ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله ، كمن يستغيث في المخاوف والأمراض والفاقات بالأموات ، والغائبين . فيقول : يا سيدي الشيخ فلان ، لشيخ ميت أو غائب ، فيستغيث به ، ويستوصيه ، ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فإن هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين .

وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدهم صورة الشيخ الذي استغاث به ، فيظن أنه الشيخ ، أو ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان تمثل له ليضلّه ويغويه لما دعا غير الله ، كما كان نصيب المشركين الذين يعبدون الأصنام تخاطبهم الشياطين ، وتترأى لهم ، وتخبرهم ببعض الأمور الغائبة ، وإن كان فيما يخبرون به من الكذب ما يبين أنهم شياطين . قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُمُ عَلَىٰ مَن تَزُولُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١] ، [٢٢٢] ، وهؤلاء كثيرون في المشركين : من الهند ، والترك ، والحبشة ، وفي المتشبهين بهم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام ؛ كأهل الإشارات الذين يظهرون إشارات الدم ، والزعفران ، واللاذن ، ويدعون أنهم يغيرون التراب ، أو غيره . فيجعلونه كذلك ، ومنهم من يدخل النار ، ويأكل الحيات ، ومنهم من يصرخ في بعض الناس فيمرض ، أو يموت .

وهذه الأحوال تعرض لهم عند فعل ما يأمر به الشيطان، مثل السماع البدعي؛ سماع المكاء، والتصدية، وغير ذلك، فإن الذين/يتخذون ذلك قرينة ودينا تتحرك به قلوبهم، ٦٦٥/١١ ويحصل لهم عنده من الوجل والصياح ما تنزل معه الشياطين، كما يدخل الشيطان في بدن المصروع، ولهذا يزيد أحدهم كإزباد المصروع، ويصيح كصياحه وذلك صياح الشياطين على ألسنتهم، ولهذا لا يدري أحد ما جرى منه حتى يفيق، ويتكلم الشيطان على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه الإنسان، ويدخل أحدهم النار، وقد لبسه الشيطان ويحصل ذلك لقوم من النصارى بالمغرب، وغيرهم. تلبسهم الشياطين، فيحصل لهم مثل ذلك.

فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين، فإن كرامات الصالحين إنما تكون لأولياء الله المتقين، الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢، ٦٣]، وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض التي فرضها عليهم، ثم بالنوافل التي ندبهم إليها، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وببي يبصر، وببي يبطش، وببي يمشي، ولئن سألتني ل أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١). ٦٦٦/١١

ولهذا قال أهل العلم والدين - كأبي يزيد البسطامي وغيره - :

لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، وقال الشافعي: لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء، فلا تغتروا به.

فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله، وسنة رسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين، وأولياء الله المتقين، وحزب الله المفلحين.

وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال «مسيلمة الكذاب»، و«الأسود العنسي» اللذين ادعيا النبوة في آخر أيام النبي ﷺ، وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعيّنه.

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

وكان «العنسي» قد استولى على أرض اليمن في حياة النبي ﷺ ، ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين، وكان قد طلب من أبي مسلم الخولاني أن يتابعه فامتنع، فألقاه في النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، كما جرى لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه، وذلك مع صلاته وذكره ودعائه لله مع سكينه ووقار، وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية، لا تصير النار عليهم بردًا وسلامًا. بل قد يطفونها كما يطفئها الناس، وذلك في حال اختلاط عقولهم ، وهيج شياطينهم ، وارتفاع أصواتهم، هذا إن كان لأحدهم حال شيطاني.

وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك، بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق، أو دهن الضفادع، وأنواعًا من الأدوية كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبدون، إخفاء اللاذن، والسكر في يد أحدهم ، فإنهم نوعان: خاصتهم أهل حال شيطاني، وعامتهم أهل محال بهتاني.

وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ، ويلتزم ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الكتاب والسنة، ويكون مع ذلك من مستحقي الزكاة المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

فأما من كان غنيًا ليس من هذه الأصناف ، فلا يعطى من الزكاة، لا سيما إذا كان مع ٦٦٨/١١ غناه من شيوخ الضلال، مثل شيوخ المضلين الأغنياء/الذين ليسوا من الأصناف الثمانية، فإن هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة بإجماع المسلمين، وهؤلاء إذا قالوا للإنسان: تعطينا وإلا فأني أنلك في نفسك، فإنه قد تعينهم شياطين على إضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره، لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد ﷺ ، مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم.

وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس، وغيرها، ويخلصون دينهم لله، فلا يدعون إلا الله، ولا يعبدون غيره ولا يندرون إلا لله، ويحرمون ما حرم الله ورسوله، فهؤلاء جند الله الغالبون، وحزب الله المفلحون، فإنه يؤيدهم وينصرهم. وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين، فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء ، واستغاثتهم بالله، أن يفعلوا شيئًا من تلك الأحوال الشيطانية، بل تهرب منهم تلك الشياطين. وهؤلاء معترفون بذلك، يقولون: أحوالنا ماتنفذ قدام أهل الكتاب والسنة، وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعامة وغيرهم.

فهؤلاء من أهل الضلال والغي الذين يجب نهيهم، واستتابتهم، ومنعهم من طاعة
الشیطان والشرك، والبدع، والفجور، وأمرهم بما أمر الله به ورسوله، واتباع الكتاب ١١/٦٦٩
والسنة.

ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ
النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ
مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥]، وقال
تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمَا
نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَمَلَكُمُ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَادْكُرُوا أَنذَرْتُكُمْ وَأَشْكُرُوا
لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ [البقرة: ١٥٠ - ١٥٢].

٦٧٠/١١ / وقال - أيضا - شيخ الإسلام - رحمه الله - :

رب يسر وأعن يا كريم .

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

فصل

في أن التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات

والأول : يخفي على كثير من الناس . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَلَا إِلَّاهُ تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، وقال : ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْسِيُّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَيَّ أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [هود : ٣، ٢] ، ومثل هذا في القرآن كثير .

فنقول : التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ، ومن فعل محظور ، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب ، وترك «الإيمان» و«التوحيد» و«الفرائض» التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب ، عند كل أحد ، بل هي أعظم الصنفين . كما قد بسطناه فيما كتبناه من «القواعد» قبل ذهابي إلى مصر .

فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات ، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد ، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ، ولو فعل ما فعل . ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة : كالزهاد والعباد من المشركين ، وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند ، وعباد النصارى ، وغيرهم ، فإنهم لا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يظلمون الناس ، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه .

ولكن يقال : ترك الإيمان والتوحيد الواجب ، إنما يكون مع الاشتغال بضده ، وضده إذا

كان كفرًا فهم يعاقبون على الكفر ، وهو/ من باب المنهي عنه ، وإن كان ضده من جنس ١١/ ٦٧٢
المباحات كالاشتغال بأهواء النفس ولذاتها، من الأكل والشرب، والرئاسة وغير ذلك عن
الإيمان الواجب، فالعقوبة هنا لأجل ترك الإيمان، لا لأجل ترك هذا الجنس.

وقد يقال: كل من ترك الإيمان والتوحيد فلا يتركه إلا إلى كفر وشرك، فإن النفس
لا بد لها من إله تعبد، فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان، فيقال: عبادة الشيطان جنس
عام، وهذا إذا أمره أن يشتغل بما هو مانع له من الإيمان والتوحيد، يقال: عبده. كما أن
من أطاع الشيطان فقد عبده، ولكن عبادة دون عبادة.

والناس «نوعان» طلاب دين، وطلاب دنيا، فهو يأمر طلاب الدين بالشرك والبدعة،
كعباد المشركين، وأهل الكتاب، ويأمر طلاب الدنيا بالشهوات البدنية، وفي الحديث عن
النبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم، وفروجكم،
ومضلات الفتن» (١).

ولهذا قال الحسن البصري لما ذكر الحديث: لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فإن
صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه، فقالوا: أنت إذا مررت
في السوق أشار إليك/ الناس. فقال: إنه لم يعن هذا، وإنما أراد المبتدع في دينه، والفاجر ١١/ ٦٧٣
في دنياه.

وقد بسطت الكلام على «النوعين» في مواضع، كما ذكرنا في «اقتضاء الصراط المستقيم»
الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُصِّمْتَ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، وبسط هذا له موضع آخر.

فإن ترك الواجب وفعل المحرم متلازمان. ولهذا كان من فعل ما نهى عنه يقال: إنه
عصى الأمر. ولو قال لها: إن عصيتي أمري فأنت طالق. فنهاها فعصته، ففيه وجهان:
أصحهما أنها تطلق، وبعض الفقهاء يعلل ذلك بأن هذا يعد في العرف عاصيًا،
ويجعلون هذا في الأصل نوعين.

والتحقيق أن كل نهي ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي، فهو أمر، فالأمر
يتناول هذا وهذا. ومنه قول الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ
يُحِطْ بِهِ خُبْرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وقال له: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا
تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٧، ٧٠]. فقله: ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ ١١/ ٦٧٤
شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، قد تناوله قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. ومنه قول

(١) كنز العمال (٤٣٨٦٢)، وعزاه للطبراني في الصغير، عن أبي هريرة الأسلمي.

موسى لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]، وموسى قال له: ﴿اخْلُقْنِي فِي قُوَى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] نهى، وهو لأمه على أنه لم يتبعه، وقال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟ وعباد العجل كانوا مفسدين. وقد جعل هذا كله أمراً.

وكذلك قوله: ﴿مَلِكِكُمْ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، فهم لا يعصونه إذا نهاهم، وقوله عن الرسول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فمن ركب ما نهى عنه فقد خالف أمره، وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، وإنما كان فعلاً منهياً عنه. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، هو يتناول ما نهى عنه، أقوى مما يتناول ما أمر به، فإنه قال في الحديث الصحيح: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

وقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢]، فالمعصية مخالفة الأمر، ومخالف النهي عاص، فإنه مخالف الأمر، وفاعل المحذور قد يكون أظهر معصية من تارك المأمور.

٦٧٥/١١ / وبالجملة، فهما متلازمان. كل من أمر بشيء فقد نهى عن فعل ضده، ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده، كما بسط في موضعه، ولكن لفظ «الأمر» يعم النوعين، واللفظ العام قد يخص أحد نوعيه باسم، ويبقى الاسم العام للنوع الآخر، فلفظ الأمر عام لكن خصوا أحد النوعين بلفظ النهي، فإذا قرن النهي بالأمر كان المراد به أحد النوعين، لا العموم.

فصل

والمقصود أن الاستغفار والتوبة يكونان من كلا النوعين، وأيضاً فالاستغفار والتوبة مما فعله وتركه، في حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيح من السيئات، وقبل أن يرسل إليه رسول، وقبل أن تقوم عليه الحجة، فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأي: إن هذا في الواجبات الشرعية غير العقلية.

(١) سبق تخريجه ص ١٢.

كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم: من أصحاب أبي حنيفة، وغيرهم: مثل أبي الخطاب^(١) وغيره، على أن الآية عامة: لا يعذب الله أحداً إلا بعد رسول.

/ وفيهما دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب، خلافاً لما يقوله: «المجبرة» أتباع جهم: أنه ٢٧٦/١١
تعالى يعذب بلا ذنب، وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة: كالأشعري وغيره، وهو قول القاضي أبي يعلى وغيره، وقالوا: إن الله يجوز أن يعذب الأطفال في الآخرة عذاباً لا نهاية له من غير ذنب فعلوه، وهؤلاء يحتجون بالآية على إبطال قول من يقول: إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل، والآية حجة عليهم أيضاً حيث يجوزون العذاب بلا ذنب، فهي حجة على الطائفتين.

ولها نظائر في القرآن كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُنَا آآلَ يَأْتِيَكُم نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]. وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقيحاً وشرّاً، لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول. هذا قول الجمهور.

وقيل: إنه لا يكون قبيحاً إلا بالنهي، وهو قول من لا يثبت حسناً ولا قبيحاً إلا بالامر والنهي. كقول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة. وأصحاب مالك والشافعي وأحمد: كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من ٢٧٧/١١
الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً، وكان شرّاً. لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول، ولهذا كان للناس في الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك ثلاثة أقوال: قيل: إن قبحهما معلوم بالعقل، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك في الآخرة،

(١) هو محفوظ بن أحمد بن حسن بن حسن العراقي، الكلواذاني، ثم البغدادي الأرجي، الشيخ الإمام، العلامة الورع، شيخ الحنابلة. تلميذ القاضي أبي يعلى الفراء. ولد في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، قال السلفي: هو ثقة رضي، من أصحاب أحمد، وقال غيره: كان مفتياً صالحاً، عابداً ورعاً، حسن العشرة، له نظم رائق، وله كتاب «الهداية». قيل عنه: إنه كان من محاسن العلماء، خيراً صادقاً، حسن الخلق، حلوا النادرة من أذكياء الرجال، روى الكثير، وطلب الحديث وكتبه، ولابن كليب منه إجازة. درس الفقه على أبي يعلى، وقرأ الفرائض على الوفي، وصار إمام وقته، وشيخ عصره، وصنف في المذهب والأصول والخلاف والشعر الجيد. توفي أبو الخطاب في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة عشر وخمسمائة. [سير أعلام النبلاء: ٣٤٨/١٩-٣٥٠].

وإن لم يأتهم الرسول، كما يقوله المعتزلة ، وكثير من أصحاب أبي حنيفة . وحكوه عن أبي حنيفة نفسه، وهو قول أبي الخطاب، وغيره .

وقيل: لا قبح، ولا حسن، ولا شر فيهما قبل الخطاب، وإنما القبح ما قيل فيه لا تفعل، والحسن ما قيل فيه افعل، أو ما أذن في فعله، كما تقول الأشعرية، ومن وافقهم، من الطوائف الثلاثة .

وقيل: إن ذلك سيئ ، وشر، وقبيح، قبل مجيء الرسول؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول . وعلى هذا عامة السلف، وأكثر المسلمين، وعليه يدل الكتاب والسنة، فإن فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح، وسيئ قبل الرسل، وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول . وفي الصحيح أن حذيفة قال: يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»^(١) .

فصل

٦٧٨/١١

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتهم الرسول، كقوله لموسى: ﴿ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ بِكَ أَن تَزْكَى . وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات : ١٧ - ١٩] ، وقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص : ٤-٦] . فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى، وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة، انه كان طاغياً مفسداً .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ ﴾ [طه : ٣٧ - ٣٩] . وهو فرعون، فهو إذ ذاك عدو لله، ولم يكن جاءته الرسالة بعد .

(١) البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمامة (١٨٤٧/٥١) .

وأيضاً أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه، فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين، ما أمر بالاستغفار والتوبة، فعلم أنه كان من السيئات القبيحة، لكن الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة. وهذا كقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُعْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَشِيرٌ . وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيُفَضِّلْ فِي دَارِهِمْ مَنْ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح: ١-٤]. فدل على أنها كانت ذنباً قبل إنذاره إياهم.

وقال عن هود: ﴿وَالِإِيَّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ . يَقَوْمِ لَا أَشْتَكُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ . وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٥٠ - ٥٢]، فأخبر في أول خطابه أنهم مفترون بأكثر الذي كانوا عليه، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَجِدُلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّئَتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١].

وكذلك قال صالح: ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وكذلك قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَتَحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]. فدل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم، بخلاف قول من يقول: ما كانت فاحشة، ولا قبيحة، ولا سيئة حتى نهاهم عنها، ولهذا قال لهم: ﴿إِنِّيَنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما يفعلون، ولكن أنذرهم بالعذاب.

وكذلك قول شعيب: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُوبَاتِ ۚ أَلَمْ نَكُنْ بِأَلْقَاسِمْ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥]. بين أن ما فعلوه/كان بخساً لهم أشياءهم، وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم، بخلاف قول «المجبرة»: إن ظلمهم ما كان سيئة، إلا لما نهاهم، وأنه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب،

وغير ذلك. كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش.

وهكذا إبراهيم الخليل قال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِلَّهِ يُتَابَعْتُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢]، فهذا توبيخ على فعله قبل النهي، وقال أيضاً: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧]. فأخبر أنهم يخلقون إفكاً قبل النهي.

وكذلك قول الخليل لقومه أيضاً: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَإِنْفِكَاءَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٥، ٩٦] فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه، قبل النهي، وقبل إنكاره عليهم، ولهذا استفهم استفهام منكر، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: وخلق ما تنحتون. فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم؟ وتدعون رب العالمين.

٦٨٢/١١ / فلولا أن حسن التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر، معلوم بالعقل، لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم، وإنما كان قبيحاً بالنهي، ومعنى قبحه كونه منهياً عنه، لا لمعنى فيه، كما تقوله المجبرة.

و أيضاً، ففي القرآن في مواضع كثيرة يبين لهم قبح ما هم عليه من الشرك وغيره بالأدلة العقلية، ويضرب لهم الأمثال، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا لَنُفُوءٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَنزِلْنَا سُحُورًا﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. فهذا يقتضي أن اعترفهم بأن الله هو الخالق يوجب انتهاءهم عن عبادتها، وأن عبادتها من القبائح المذمومة، ولكن هؤلاء يظنون أن الشرك هو اعتقاد أن ثم خالق آخر، وهذا باطل، بل الشرك عبادة غير الله، وإن اعترف المشرك بأنه مخلوق.

وقوله: إنه كله لله، كذب مفترى^(١) وإن قال: إنه مخلوق. ومثل هذا كثير في القرآن. كقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ^(٢) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ^(٣). أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ اللَّهُ﴾، وهذا في

(١) كذا بالأصل.

(٢) في المطبوعة: «وأنزل» والصواب ما أثبتناه.

(٣) في المطبوعة: «بل أكثرهم لا يعلمون» والصواب ما أثبتناه.

جملة بعد جملة يقول: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١]، إنكار عليهم أن يعبدوا غير الله، ويتخذوه إلهاً مع اعترافهم بأن هذا لم يفعله إله غير الله، وإنما فعله هو وحده. وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ جواب الاستفهام، أي: إله مع الله موجود وهذا غلط، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك، لكن ما كانوا يقولون: إنهم فعلوا ذلك، والتقريب إنما يكون لما يقرون به، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا، لا يقرون بأنه لم يكن معه إله. قال تعالى: ﴿أَمْ تَكُنْ لَهُ شَهِدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا يَبَيِّنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْهُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]. وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

/فهذا وإن كان قال الصحابة والتابعون: إن كل عاص فهو جاهل - كما قد بسط في ٦٨٤/١١ موضع آخر- فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضاً.

فدل على أنه يكون عاملاً سوءاً، وإن كان لم يسمع الخطاب المبين المنهي عنه، وأنه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه، وإن كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب، وقيام الحجة.

وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات، وتكون مما لم يكن علم أنه ذنب، تبين كثرة ما يدخل في التوبة والاستغفار، فإن كثيراً من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها فعلم بالعلم العام أنها قبيحة: كالفاحشة، والظلم الظاهر، فأما ما قد يتخذ ديناً فلا يعلم أنه ذنب، إلا من علم أنه باطل؛ كدين المشركين، وأهل الكتاب المبدل، فإنه مما تحب التوبة والاستغفار منه، وأهله يحسبون أنهم على هدى. وكذلك البدع كلها.

ولهذا قال طائفة من السلف - منهم الثوري - : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا: إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة، بمعنى أنه لا يتوب منها، لأنه يحسب أنه على هدى، ولو تاب لتاب عليه، كما يتوب على الكافر. ومن قال: إنه لا يقبل/توبة مبتدع ٦٨٥/١١ مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً، ومن قال: ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة، فمعناه: ما دام

مبتدعاً يراها حسنة لا يتوب منها، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فإنه يتوب منها كما يرى الكافر أنه على ضلال ، وإلا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها، وتاب الله عليه منها. وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله .

و « الخوارج » لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ، رجع منهم نصفهم ، أو نحوه، وتابوا، وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره، منهم من سمع العلم فتاب، وهذا كثير، فهذا القسم الذي لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة، وهو في غيرهم عام، وكذلك ما يترك الإنسان من واجبات لا يعلم وجوبها كثيرة جداً، ثم إذا علم ماكان قد تركه من الحسنات من التوحيد والإيمان، وما كان مأموراً بالتوبة منه، والاستغفار مما كان سيئة، و التائب يتوب مما تركه ، وضيعه، وفرط فيه، من حقوق الله تعالى، كما يتوب مما فعله من السيئات، وإن كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة، فبالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا. وإلا فكونه كان فاعلاً للسيئات المذمومة، وتاركاً للحسنات التي يذم تاركها، كان تائباً قبل ذلك، كما تقدم، وذكرنا القولين: قول من نفى الذم والعقاب، وقول من أثبت الذم والعقاب.

٦٨٦/١١ / فإن قيل : إذا لم يكن معاقباً عليها، فلا معنى لقبحها، قيل: بل فيه معنيان:

أحدهما: أنه سبب للعقاب، لكن هو متوقف على الشرط، وهو الحجة ، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فلولا إنقاذه لسقطوا، ومن كان واقعاً على شفير فهلك، فهلاكه موقوف على سقوطه، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك، فقد بعد عن الهلاك . فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب.

الثاني: أنهم مذمومون ، منقوصون، معييون. فدرجتهم منخفضة بذلك، ولا بد . ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته أيضاً ، وثوابه. فهذه عقوبة بحرمان خير، وهي أحد نوعي العقوبة، وهذا وإن كان حاصلًا لكل من ترك مستحباً فإنه يفوته خيره، ففرق بين ما يفوته ما لم يحصل له، وبين ما ينقص ما عنده، وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب.

وأما من لم يرسل إليه رسول في الدنيا: فقد رويت آثار أنهم يرسل إليهم رسول في عرصات القيامة، كما قد بسط في مواضع.

٦٨٧/١١ وقد تنازع الناس في «الوجوب والتحريم» هل يتحقق بدون العقاب/على الترك؟ على قولين . قيل: لا يتحقق ، فإنه إذا لم يعاقب كان كالمباح، وقيل: يتحقق ، فإنه لا بد أن يذم وإن لم يعاقب.

وتحقيق الأمر أن العقاب «نوعان» نوع بالآلام، فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات، ونوع ينقص الدرجة، وحرمان ما كان يستحقه، فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول، والله تعالى يكفر سيئات المسيء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فيكفرها تارة بالمصائب، فتبقى درجة صاحبها كما كانت، وقد تصير درجته أعلى، ويكفرها بالطاعات، ومن لم يأت بتلك السيئات أعلى درجة. فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بإزائها من طاعته، وهذا مما يتوب منه من أراد ألا يخسر ومن فرط في مستحبات فإنه يتوب أيضًا، ليحصل له موجبها. فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم، وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه:

أحدهما: أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوب مما كان يظنه حسنات، ولم يكن كحال أهل البدع.

والثالث: يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت/بقوته، وينسى فضل الله ٦٨٨/١١ وإحسانه، وأنه هو المنعم بها، وهذه توبة من فعل مذموم، وترك مأمور.

ولهذا قيل: تخلص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائماً. ولهذا قيل: هي مقام يستصعبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره، ولا بد منه لجميع الخلق، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا، وأن يستديموا التوبة. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. فغاية كل مؤمن التوبة، وقد قال الله لأفضل الأنبياء، وأفضل الخلق بعد الأنبياء، وهم السابقون الأولون: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ومن أواخر ما أنزل الله قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

وقد ثبت في الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن^(١). وفي لفظ لمسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك». ٦٨٩/١١.

(١) سبق تخريجه ص ١٤١ .

قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قولك: سبحانك اللهم، وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك. فقال: «أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر]»^(١).

وأمره - سبحانه - له بالتسبيح بحمده والاستغفار في هذه الحال لا يقتضي أنه لا يشرع في غيرها، أو لا يؤمر به غيره، بل يقتضي أن هذا سبب لما أمر به، وإن كان مأموراً به في مواضع أخرى. كما يؤمر الإنسان بالحمد والشكر على نعمه، وإن كان مأموراً بالشكر عليها، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وإن كان مأموراً بالتوبة من غيره، لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا، فغيره أحوج إلى هذا منه، وقد يحتاج العبد إلى هذا في غير هذه الحال، كما يحتاج إلى التوبة، فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقاً، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثاً^(٢). قال تعالى: ﴿وَالسَّائِفِينَ بِالْأَسْجَادِ﴾ [آل عمران: ١٧] قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون.

٦٩٠/١١ وقد ختم الله «سورة المزمل» وفيها قيام الليل بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، كما ختم بذلك «سورة المدثر» بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فهو سبحانه أهل التقوى، ولم يقل سبحانه أهل للتقوى، بل قال: ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾، فهو وحده أهل أن يتقي، فيعبد دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقي، كما قال: ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وهو أهل المغفرة، ولا يغفر الذنوب غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي غير حديث يقول النبي ﷺ: «إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٣) فهو سبحانه أهل التقوى، وأهل المغفرة، وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع، كقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فالؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله، وعبادته، وإن كان ذلك

(١) مسلم في الصلاة (٤٨٤/٢٢٠).

(٢) مسلم في المساجد (١٣٥/٥٩١)، عن ثوبان.

(٣) سبق تخريجه في حديث سيد الاستغفار ص ٢٠.

لم يأتهم به رسول بعد ، كما تقدم ، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه : ﴿ مَا كُنْتُ نَذْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلِيمُنُ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب ، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك ، وتاب . وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم .

فصل

٦٩١/١١

وأيضاً فمما يستغفر ويتاب منه ما فى النفس من الأمور التى لو قالها أو فعلها عذب . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، فهو يغفر لمن يرجع عما فى نفسه ، فلم يتكلم به ، ولم يعمل : كالذي هم بالسيئة ولم يعملها ، وإن تركها لله كتبت له حسنة ، وهذا مما يستغفر منه ويتوب ، فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب ، وإن كان لم يحصل العقاب ، ولا الذم . فإنه يفضي إليه ، فيتوب من ذلك : أي يرجع عنه ، حتى لا يفضي إلى شر ، فيستغفر الله منه ، أي يطلب منه أن يغفر له ، فلا يشقيه به ، فإنه وإن لم يعاقب عليه فقد ينقص به ، فالذي يهم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليه سيئة ، لكنه اشتغل بها عما كان ينفعه ، فينقص بها عمن لم يفعلها ، واشتغل بما ينفعه عنها .

وقد بسطنا في غير هذا الموضع : أن فعل الإنسان وقوله - إما له و إما عليه - لا يخلو من هذا أو هذا . فهو يستغفر الله ويتوب مما / عليه . وقد يظن ظنون سوء باطلة ، وإن لم ٦٩٢/١١ يتكلم بها ، فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب .

وظلمه لنفسه يكون بترك واجب كما يكون بفعل محرم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ [النساء : ١١٠] ، من عطف العام على الخاص ، وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وقد قيل : في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، قيل : الفاحشة الزنا ، وقيل : كل كبيرة ، وظلم النفس المذكور معها . قيل : هو فاحشة أيضاً . وقيل : هي الصغائر . وهذا يوافق قول من قال : الفاحشة هي الكبيرة ، فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة ، ومن قال : الفاحشة الزنا ، يقول : ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات ، وقيل : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس ما دونه من اللمس والقبلة والمعانقة ، وقيل : هذا هو الفاحشة ، وظلم النفس المعاصي ، وقيل : الفاحشة فعل وظلم النفس قول .

والتحقيق أن « ظلم النفس » جنس عام يتناول كل ذنب، وفي الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله ، علمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال: « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني ٦٩٣/١١ إنك أنت الغفور الرحيم» (١)، وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ كان يقول في استفتاحه: « اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت» (٢).

وقد قال أبو البشر وزوجته: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّزَ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَّ الْخَاسِرِينَ» [الأعراف: ٢٣]، وقال موسى: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» [القصص: ١٦]، وقال ذو النون - يونس -: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنبياء: ٨٧]، وقالت بلقيس: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [النمل: ٤٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ (٣) وقد قال عن أهل القرى المعذبين: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» [هود: ١٠١]، وأما قوله: «أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا» [آل عمران: ١٤٧]، فقد قيل: إن الذنوب هي الصغائر، والإسراف هو الكبائر.

و«التحقيق» أن «الذنوب» اسم جنس، و«الإسراف» تعدي الحد، ومجازة القصد، كما في ٦٩٤/١١ في لفظ الإثم والعدوان فالذنوب كالإثم، والإسراف كالعدوان، كما في قوله: «غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ» [الإنعام: ١٤٥]، ومجازة قدر الحاجة، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله، فهذا كله ذنب، كالذي يرضى لنفسه، ويغضب لنفسه، فهو متبع لهواه، و«الإسراف» كالذي يغضب لله، فيعاقب بأكثر مما أمر الله. والآية في سياق قتال المشركين، وما أصابهم يوم أحد.

وقد أخبر عمن قبلهم بقوله: «وَكَايْنِ مِن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٦]، وقد قيل على الصحيح، المراد به النبي ﷺ وإن لم يقتل في معركة فقد قتل أنبياء كثيرون، «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ

(١) سبق تخريجه ص ١٤١ .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١ / ٢٠١) .

(٣) كذا بالأصل .

إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴿آل عمران: ١٤٦، ١٤٧﴾. فجمعوا بين الصبر والاستغفار . وهذا هو المأمور به في المصائب ، الصبر عليها ، والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها .

والقتال كثيراً ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله ، كالذي يقاتل شجاعة و يقاتل حمية ، و يقاتل رياء ، فهذا كله ذنوب ، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل ، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به . قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ۖ ٦٩٥ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] ، وقال : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] ، فالإسراف مجاوزة الحد .

هذا آخر ما كتبه هنا . والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

٦٩٦/١١ / وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله :-

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه، والأكمل، فإن العابد لله، والعارف بالله. في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة، يزداد علماً بالله، وبصيرة في دينه وعبوديته، بحيث يجد ذلك في طعامه، وشرابه، ونومه، ويقظته، وقوله، وفعله، ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية، وإعطائها حقها، فهو يحتاج إلى الاستغفار أثناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطر إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية.

وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد، واقتراها بشهادة أن لا إله إلا الله، من ٦٩٧/١١ أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم، وهم فيها درجات عند الله، ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله، دقه وجله، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

والاستغفار يحو ما بقى من عثراته، و يحو الذنب الذي هو من شعب الشرك، فإن الذنوب كلها من شعب الشرك، فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله، و أبلغ الدعاء قول: أستغفر الله. فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه، وإخوانه، من المؤمنين.

وقال : إياك والنظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة، كما يبهز ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار.

فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان، أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات، الفارقين بين الواردات الرحمانية والشیطانية، العالمين العاملين، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٦٩٨/١١ / وقال: التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها مشروط فيها بالإخلاص لله، وموافقة أمره باتباع رسوله، والاستغفار من أكبر الحسنات، وبابه واسع. فمن أحسن بتقصير في قوله، أو عمله، أو حاله، أو رزقه، أو تقلب قلب - فعليه بالتوحيد، والاستغفار، ففيهما

الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص .

وكذلك إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة، والأهل والأولاد، والجيران ،
والإخوان ، فعليه بالدعاء لهم ، والاستغفار ؛ قال حذيفة بن اليمان للنبي ﷺ : إن لي
لساناً ذرباً على أهلي . فقال له : « أين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم
أكثر من سبعين مرة »^(١) .

(١) أحمد ٥ / ٣٩٤ وابن ماجه فى الادب (٣٨١٧) وضعفه الألباني وأصله فى البخارى فى الدعوات (٦٣٠٧) .

٦٩٩/١١ /وسئل - رحمه الله - عن قوله: « ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم والليلة سبعين مرة » (١) . هل المراد ذكر الاستغفار باللفظ؟ أو أنه إذا استغفر ينوي بالقلب ألا يعود إلى الذنب؟ وهل إذا تاب من الذنب وعزم بالقلب ألا يعود إليه، وأقام مدة ثم وقع فيه: أفيكون ذلك الذنب القديم يضاف إلى الثاني؟ أو يكون مغفوراً بالتوبة المتقدمة وهل التائب من شرب الخمر، ولبس الحرير يشربه في الآخرة؟ ويلبس الحرير في الآخرة؟ والتوبة النصوح ما شرطها؟

فأجاب :

الحمد لله ، بل المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، كما في الحديث الآخر: « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » (٢) فإذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] .

٧٠٠/١١ /وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه ، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً . وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً .

وقد تنازع العلماء في التائب من الكفر ، إذا ارتد بعد إسلامه ، ثم تاب بعد الردة وأسلم ، هل يعود عمله الأول؟ على قولين ، مبناهما أن الردة هل تحبط العمل مطلقاً ، أو تحبطه بشرط الموت عليها .

فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقاً . ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها .

والردة ضد التوبة ، وليس من السيئات ما يححو جميع الحسنات إلا الردة ، وقد قال تعالى: ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: ٨] ، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ ، أن يتوب ثم لا يعود ، فهذه التوبة الواجبة التامة .

ومن تاب من شرب الخمر ، ولبس الحرير ، فإنه يلبس ذلك في الآخرة ، كما جاء في

(١) أبو داود في الصلاة (١٥١٤) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٩) وقال: « حديث غريب ، وليس إسناده بالقوى » ، كلاهما عن أبي بكر الصديق .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي (٩٩٢٠) ورمز له بالضعف ، ومسنَد الفردوس (٧٩٤٤) .

الحديث الصحيح: «من شرب الخمر ثم لم يتب منها حرمها»^(١) وقد ذهب بعض الناس
كـبعض أصحاب أحمد : إلى أنه لا يشربها مطلقاً، وقد أخطؤوا الصواب الذي عليه
جمهور المسلمين.

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٩ .

٧٠١/١١ / وسئل عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم. هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام؟

فأجاب :

إذا أسلم باطنًا وظاهرًا ، غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع ، وأما الذنوب التي لم يتب منها مثل أن يكن مصرًا على ذنب ، أو ظلم ، أو فاحشة ، ولم يتب منها بالإسلام ، فقد قال بعض الناس : إنه يغفر له بالإسلام ، والصحيح : أنه إنما يغفر له ما تاب منه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل : أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال : «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (١) .

و«حسن الإسلام» أن يلتزم فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وهذا معنى التوبة العامة ، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها .

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث / الصحيح لعمر بن العاص : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله» (٢) ، فإن اللام لتعريف العهد ، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن .

وقوله : «ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (٣) ، أي : إذا أصر على ما كان يعمل من الذنوب فإنه يؤاخذ بالأول والآخر ، وهذا موجب النصوص والعدل . فإن من تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب ، ولم يجب أن يغفر له غيره .

والمسلم تائب من الكفر ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] ، وقوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] أي إذا انتهوا عما نهو عنه غفر لهم ما قر سلف .

فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه . من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه . وأما من لم ينته عن ذنب فلا يجب أن يغفر له ما سلف لانتهائه عن ذنب آخر . والله أعلم .

(١) البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٢١) ، ومسلم في الإيمان (١٨٩/١٢٠) ، كلاهما عن عبد الله بن مسعود .

(٢) مسلم في الإيمان (١٢١ / ١٩٢) .

(٣) البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٢١) وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٢) .

كتاب
القرآن
كلام الله حقيقة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

قال الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية - رضي الله عنه - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴿[الفتح: ٨]﴾ صلى الله عليه وسلم تسليماً.

قاعدة في القرآن وكلام الله:

فإن الأمة اضطربت في هذا اضطراباً عظيماً، وتفرقوا واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضي القرون الثلاثة، لما حدثت فيهم الجهمية المشتقة من الصابئة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والاختلاف نوعان: اختلاف في تنزيله، واختلاف في تأويله.

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون في الحق؛ بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء، أو بالعكس؛ فإن الواجب الإيمان بجميع الحق المنزل، فأما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ٧/١٢ والاختلاف في تنزيله أعظم، وهو الذي قصدنا هنا، فنقول:

الاختلاف في تنزيله هو بين المؤمنين والكافرين؛ فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل، والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فسوف يعلمون، فالؤمنون بجنس

الكتاب والرسول من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك، والكافرون بجنس الكتاب والرسول من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك.

وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم، فمن آمن بالرسول آمن بما بلغوه عن الله، ومن كذب بالرسول كذب بذلك، فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده، والكفر بذلك هو الكفر بهذا، فتدبر هذا الأصل، فإنه فرقان هذا الاشتباه؛ ولهذا كان من يكفر بالرسول، تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر، كما أنه قد يكفر برب العالمين؛ مثل فرعون وقومه، قال الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية [يونس: ٢]، وقال تعالى - عن نوح وهود -: ﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكَ لِيُنْذِرَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخر الكلام، فإن في هذه الآيات تقرير قواعد، وقال عن الوحيد^(١): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥].

ولهذا كان أصل «الإيمان» الإيمان بما أنزله، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ رَيْبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١-٣] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] وفي وسط السورة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]، وفي آخرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيتين. وفي السورة التي تليها: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْيَوْمُ. نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلِ هَٰذَا هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤]. وذكر في أثناء السورة الإيمان بما أنزل، وكذلك في آخرها: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٣-١٩٩].

ولهذا عظم تقرير هذا الأصل في القرآن، فتارة يفتح به السورة إما إخباراً كقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ﴾ [يونس: ١] وقوله: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ الآية [هود: ١]. وكذلك ال «طس» وال «حم». فعامة ال «لم» وال «الر»، وال «طس»، وال «حم» كذلك.

(١) هو الوليد بن المغيرة. انظر: تفسير ابن كثير ١٥٧/٧.

/ وإما ثناء بإنزاله كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ ٩/١٢ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ الآية [الفرقان: ١].

وأما في أثناء السور فكثير جداً، وثنى قصة موسى مع فرعون؛ لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل؛ فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليماً لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار؛ فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن - أيضاً - للرسول من التكليم ما لموسى، فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليلة عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة، ولما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر قال: «هذا فرعون هذه الأمة» (١)، وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار؛ ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله، كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَهُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وإن كان عالماً بما جاء به موسى مستيقناً له، لكنه كان جاحداً مشوراً، كما أخبر الله بذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَحَدَّثُوا فِيهَا وَاسْتَفْتَيْنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٣، ١٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُتُ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ١٠/١٢ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

والكفار بالرسول من قوم نوح و عاد، و ثمود و قوم لوط، و شعيب و قوم إبراهيم، و موسى و مشركي العرب، و الهند و الروم و البربر، و الترك و اليونان و الكشديين، و سائر الأمم المتقدمين والمستأخرين، يتبعون ظنونهم وأهواءهم، ويعرضون عن ذكر الله، الذي آتاهم من عنده، كما قال لهم - لما أهبط آدم من الجنة - : ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩] وفي موضع آخر: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى. وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ الآية [طه: ١٢٣، ١٢٤]. وفي أخرى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ ءَايَاتِي﴾ [الأعراف: ٣٥].

(١) النسائي في الكبرى في القضاء (٤/٦٠٠)، والبيهقي في دلائل النبوة ٨٨/٣، كلاهما عن عبد الله بن مسعود.

ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة، ويدعون الجدل والكلام، والقوة والسلطان والمال، ويصفون أتباع المرسلين بأنهم سفهاء، وأراذل وضلّال، ويسخرون منهم، قال الله ١١/١٢ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣] وقال تعالى - عن قوم نوح -: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقالوا: ﴿وَمَا زَلْنَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُدَىٰ الرِّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] وقال: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢] وقال: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضلّال وغير ذلك، كما قالوا عن نوح: ﴿بَجُنُونٍ وَّازْدَجَرٍ﴾ [القمر: ٩] وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ولهود: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

فصل

والإيمان بالرسول يجب أن يكون جامعاً عاماً، مؤثلاً لا تفريق فيه، ولا تبعيض ولا اختلاف؛ بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل إليهم. فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر، وهذا حال من بدّل ١٢/١٢ وكفر من اليهود والنصارى والصابئين؛ فإن/هؤلاء في أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً، فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] ونحوه في المائدة.

ومنهم من فرق فأمن ببعض وكفر ببعض، ما قال تعالى - عن اليهود -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١] الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ يُرِيدُونَ أَن يَفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ

بَعْضٍ وَنَكْفَرُ بِبَعْضٍ وَنُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿ [النساء: ١٥٠، ١٥١] ، وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧] ، وقال - عن المؤمنين - : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] .

وذم الذين تفرقوا واختلفوا في الكتب، وهم الذين يؤمنون ببعض دون بعض، فيكون مع هؤلاء بعض ومع هؤلاء بعض، كقوله: ﴿وَلِإِنَّ الدِّينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي ١٣/١٢ شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] ، وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، وقوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ، وقال تعالى: ﴿لِإِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] .

فصل

التفريق والتبعيض قد يكون في القدر تارة، وقد يكون في الوصف ؛ إما في الكم وإما في الكيف، كما قد يكون في التنزيل تارة ، وفي التأويل أخرى ؛ فإن الموجود له حقيقة موصوفة، وله مقدار محدود، فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض في قدره، وقد يقع في وصفه .

فالأول مثل قول اليهود: نؤمن بما أنزل علي موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد، وهكذا النصارى في إيمانهم بالمسيح دون محمد، فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا؛ فإنه لم يؤمن بجميع المنزل، وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن/ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض ؛ فإن البدع مشتقة من الكفر . ١٤/١٢

وأما الوصف، فمثل اختلاف اليهود والنصارى في المسيح: هؤلاء قالوا: إنه عبد مخلوق، لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه، وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته، ولكن قالوا: هو الله، فاختلف الطائفتان في وصفه وصفته، كل طائفة بحق وباطل .

ومثل الصابئة الفلاسفة؛ الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف، بعضه حق

وبعضه باطل؛ مثل أن يقولوا : إن الرسل تحب طاعتهم، ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله، لكنه إنما أنزل علي قلوبهم من الروح- الذي هو العقل الفعال في السماء الدنيا- لا من عند الله، و هكذا ما ينزل على قلوب غيرهم هو أيضاً كذلك، وليس بكلام الله في الحقيقة، وإنما هذا في الحقيقة كلام النبي ﷺ، وأنه سمي كلام الله مجازاً. فهؤلاء - أيضاً- مبعضين مفرقين؛ حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض، وربما كان ما كفروا به من الصفات أكثر مما آمنوا به، كما أن ما كفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به، لكن هؤلاء أكفر من اليهود من وجه، وإن كان اليهود أكفر منهم من وجه آخر.

١٥/١٢ / فإن من كان من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً فهو كافر من الجهتين، ومن كان منهم لا يوجب اتباع خاتم الرسل، بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضاً كافر من الجهتين، فقد يكون أحدهم أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن، وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمداً ﷺ، لكنهم في الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى؛ فإن أولئك مقررون في الأصل بكمال الرسالة والنبوة، وهؤلاء ليسوا مقررين بكمال الرسالة والنبوة. كما أن من كان قديماً مؤمناً من اليهود والنصارى صالحاً فهو أفضل ممن كان منهم مؤمناً صالحاً، وكذلك من كان من المنتسبين إلى الإسلام مؤمناً ببعض صفات القرآن، وكلام الله وتنزيله على رسله، وصفات رسله دون بعض، فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى.

ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة، حيث هي من الإيمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض، وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض، وكلاهما إما في التنزيل وإما في التأويل.

/ فصل

١٦/١٢

والسبب الذي أوقع هؤلاء في الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين في الكفر بجميع ما أنزل الله في كثير من المواضع؛ فإن من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين في الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ هي من جنس شبه المشركين والمجوس، ومن معهم من الصابئين في الكفر بجنس الكتاب، وبما أنزل الله على رسله في كثير من المواضع؛ فإنهم يعترضون على آياته، وعلى الكتاب الذي أنزل معه،

وعلى الشريعة التي بعث بها ، وعلى سيرته ، بنحو مما اعترض به على سائر الرسل ؛
 مثل موسى وعيسى ، كما قال تعالى - في جميعهم - : ﴿ مَا يُجِدُّونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبَلَدِ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ
 كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٤، ٥] إلى قوله :
 ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ . الَّذِينَ يُجِدُّونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ
 أَنْتَهُمْ كِبَرُ مَقَامٍ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [غافر: ٣٤، ٣٥] وفي الآية الأخرى :
 ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِسَلْفِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [غافر: ٥٦] إلى قوله :
 ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجِدُّونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ أَنَّهُ يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِآ
 أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٦٩، ٧٠] .

/ هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات ، وأنواع القدر ١٧/١٢
 الباهرات ، أعظم مما أيد به غيره ، ونبوته هي التي طبق نورها مشارق الأرض ومغاريها ،
 وبه ثبتت نبوات من تقدّمه ، وتبين الحق من الباطل ، وإلا فلولا رسالته لكان الناس في
 ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمر مَرِيح^(١) ، يؤفك عنه من أفك ؛ الكتابيون منهم
 والاميون ؛ ولهذا لما كان ما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله ، أمره الله - سبحانه -
 باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به .

وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤] ، وقوله : ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا
 نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ^(٢) إِلَّا
 رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾
 الآية [الأنبياء: ٧، ٨] ، ومثل قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ
 مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ [الأحقاف: ١٠] .

وجماع شبه هؤلاء الكفار : أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه ، وكفروا
 بفضل الله الذي اختص به رسله ، فاتوا من جهة القياس الفاسد . ولا بد في القياس من ١٨/١٢

(١) أي : مختلط . انظر : المصباح المنير ، مادة « مرج » .

(٢) في المطبوعة : « من قبلك » ، والصواب ما أثبتناه .

قدر مشترك بين المشبه والمشبّه به؛ مثل جنس الوحي والتنزيل؛ فإن الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ﴾ [النعام: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَنتُم مِّنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَقُولُونَ لَسَمِعْنَا وَكَذَّبُوا كَذِبًا كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

وقال- تعالى- في الـ «طس» وقد افتتح كلا منهن بقصة موسى وتكليم الله إياه، وإرساله إلى فرعون، فإنها أعظم القصص كما قدمناه، فقال في سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد، وهي سبع؛ قصة موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ثم قال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم، وبين الشعراء؛ لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسحوع، والشاعر- أيضاً- يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس؛ فإن قرين الشيطان مادته من الشيطان، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره، والشاعر مادته من نفسه، وربما أعانته الشيطان.

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها، وهو الكاذب في قوله، الفاجر في ١٩/١٢ عمله، بخلاف الصادق البر، وأن الشعراء إنما يحركون/النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاؤون، وهم الذين يتبعون الأهواء، وشهوات الغي، فنفى كلا منهما بانتفاء لازمه، وبين ما يجتمع فيه شياطين الإنس والجن.

فصل

إذا تبين هذا الأصل، ظهر به اشتقاق البدع من الكفر، فنقول: كما أن الذين أثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين، لم يبدلوا ما أنزل الله، ولا كفروا بشيء مما أنزل الله، وكان اليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد، فكذلك الصابئة صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد، وإن كانوا منافقين كما قد يناق اليهودي والنصراني. وهؤلاء هم المستأخرون من اليهود والنصارى والصابئين.

وذلك أن متأخري الصابئين لم يؤمنوا أن لله كلاماً أو يتكلم، ويقول، أو أنه ينزل من عنده كلاماً وذكرنا على أحد من البشر، أو أنه يكلم أحداً من البشر، بل عندهم لا يوصف

الله بصفة ثبوتية، لا يقولون: إن له علماً، ولا محبة ولا رحمة، وينكرون أن يكون الله اتخذ إبراهيم خليلاً، أو كلم موسى تكليماً، وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي، ٢٠/١٢ مثل قولهم: ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا داخل العالم ولا خارجه، أو بإضافة، مثل كونه مبدأ للعالم أو العلة الأولى، أو بصفة مركبة من السلب والإضافة؛ مثل كونه عاقلاً ومعقولاً وعقلاً.

وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره، ولا يخص محمداً بإرسال دون غيره، فإنهم لا يثبتون له علماً مفصلاً للمعلومات، فضلاً عن إرادة تفصيلية، بل يثبتون — إذا أثبتوا — له علماً جملياً كلياً، وغاية جمالية كلية، ومن أثبت النبوة منهم قال: إنها فيض تفيض على نفس النبي من جنس ما يفيض على سائر النفوس، لكن استعداد النبي ﷺ أكمل، بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره، ويسمع ما لا يسمع غيره، ويبصر ما لا يبصر غيره، وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره.

والكلام الذي تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم، وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فإن الوحيد الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم؛ كان من المشركين الذين هم صابئون أيضاً؛ فإن الصابئين — كأهل الكتاب — تارة يجعلهم الله قسماً من المشركين، وتارة يجعلهم الله قسيماً لهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ﴾ [البينة: ١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦].

/وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية ٢١/١٢ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]، وهذا بعد قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى، وذلك بعد تبديلهم، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل، وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك، فالشرك مبتدع عندهم، فينبغي التفتن لهذه المعاني.

وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم.

ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله: ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

٢٢/١٢ / ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبياء حيارى متهوكون؛ فإنه بهرهم نور النبوة، ولم تقع على أصولهم الفاسدة، فصاروا على أنحاء، منهم من لا يؤمن بكثير مما تقوله الأنبياء والمرسلون، بل يعرض عنه أو يشك فيه أو يكذب به، ومنهم من يقول: يجوز الكذب لمصلحة راجحة، والأنبياء فعلوا ذلك، ومنهم من يقول: يجوز هذا لصالح العامة دون الخاصة، وأمثلهم من يقول: بل هذه تخيلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقائق إلى قلوب العامة، وهذه طريقة الفارابي، وابن سينا، لكن ابن سينا أقرب إلى الإيمان من بعض الوجوه، وإن لم يكن مؤمناً.

فمن أدركته رسالة محمد ﷺ وبهرته براهينها وأنوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة، والأعمال الصالحة - حتى قال ابن سينا: اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس - فلا بد أن يتأول نصوص الكتاب والسنة على عادة إخوانه في تحريف الكلم عن مواضعه، فيحرفون ما أخبرت به الرسل عن كلام الله، تحريفاً يصيرون به كفاراً ببعض تأويل الكتاب في بعض صفات تنزيله.

فلما رأوا أن الرسل سَمَّتْ هذا الكلام كلام الله، وأخبرت أنه نزلت به ملائكة الله، ٢٣/١٢ مثل الروح الأمين جبريل - أطلقت هذه العبارة في الظاهر، وكفرت بمعناها في الباطن، وردوها إلى أصلهم أصل الصابئين، وصاروا منافقين في المسلمين وفي غيرهم من أهل الملل.

فيقولون: هذا القرآن كلام الله، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله، ولكن المعنى: أنه فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعّال، وربما قالوا: إن العقل هو جبريل، الذي ليس على الغيب بضنين، أي بخيل؛ لأنه فياض. ويقولون: إن الله كلم موسى من سماء عقله، وإن أهل الرياضة والصفاء يصلون إلى أن يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى.

وقد ضل بكلامه كثير من المشهورين، مثل أبي حامد الغزالي، ذكر هذا المعنى في بعض كتبه، وصنفوا «رسائل إخوان الصفا» وغيرها، وجمعوا فيها على زعمهم بين

مقالات الصابئة المتأخرين التي هي الفلسفة المبتدعة، وبين ما جاءت به الرسل عن الله، فأتوا بما زعموا أنه معقول ولا دليل على كثير منه، وربما ذكروا أنه منقول . وفيه من الكذب والتحريف أمر عظيم، وإنما يضلون به كثيراً بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية، التي لا تعلق لها بأمر النبوت والرسالة لا بنفي ولا بإثبات، ولكن ينتفع بها في مصالح الدنيا؛ كالصناعات من الحراثة والحياكة، والبناء والخياطة ونحو ذلك.

/ فإذا عرف أن حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة، أن القرآن قول البشر كغيره، لكنه ٢٤/١٢ أفضل من غيره، كما أن بعض البشر أفضل من بعض، وأنه فاض على نفس النبي ﷺ من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها، فاعلم أن هذا القول كثر في كثير من المتأخرين المظهرين للإسلام، وهم منافقون وزنادقة، وإن ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة، والمتصوفة والمتفقهين، حتى يقول أحدهم - كالتلمساني -: كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة، وقد يقول بعضهم - كابن عربي - : إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي ﷺ . ويقول كثير منهم: إن القرآن للعامة، وكلامنا للخاصة.

فهؤلاء جعلوا القرآن عضين^(١)، وضربوا له الأمثال؛ مثل ما فعل المشركون قبلهم، كما فعلوا بالنبي ﷺ؛ فإن هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبي ﷺ، ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه، أو بعض الفلاسفة :- مثل نفسه أو شيخه أو متبوعه - على النبي ﷺ. وربما قالوا: هو أفضل من وجه، والنبي أفضل من وجه، فلهم من الإلحاد والافتراء في رسل الله نظير ما لهم من الإلحاد والافتراء في رسالات الله، فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم، ويقيسون رسل الله بأنفسهم.

وقد بين الله حال هؤلاء في مثل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٣] فذكر الله إنزال الكتابين، اللذين لم ينزل من عند الله كتاب أهدى منهما - التوراة والقرآن - كما جمع بينهما في قوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ

(١) أي: أجزاء متفرقة، بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة، ونحو ذلك. انظر: تفسير ابن كثير، تفسير الآية (٩١) من سورة الحجر.

مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩].

وكذلك الجن لما استمعت القرآن ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَيِّئُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ﴾ [الأحقاف: ١٠]؛ ولهذا قال النجاشي - لما سمع القرآن - : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم ذكر - تعالى - حال الكذاب والمتنبئ، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] فجمع في هذا بين من أضاف ما يفتره إلى الله، وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه ؛ فإن الذي يدعي الوحي لا يخرج عن هذين القسمين.

٢٦/١٢ ويدخل في «القسم الثاني» من يُري عينيه في المنام ما لا تريا،/ومن يقول : ألقى في قلبي وألهمت ونحو ذلك، إذا كان كاذبًا.

ويدخل في «القسم الأول» من يقول : قال الله لي، أو أمرني الله، أو وافقني، أو قال لي ونحو ذلك، بخيالات أو إلهامات يجدها في نفسه، ولا يعلم أنها من عند الله، بل قد يعلم أنها من الشيطان، مثل مُسَيَّلَمَةَ الكذاب ونحوه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فهذه حال من زعم أن البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله، أو أن هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه ، فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتي بمثله . وهذا يعم من قال: إنه يمكن معارضة القرآن، كابن أبي سرح في حال رده، وطائفة متفرقين من الناس، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين، ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله في دعوى الرسل؛ لأن القائل: سأنزل مثل ما أنزل الله، قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئًا، وقد يقوله معتقدًا أن الله أنزل شيئًا.

فصل

ولهذا كان أول من أظهر إنكار التكليم والمخاللة الجعد بن درهم، في أوائل المائة الثانية، وأمر علماء الإسلام - كالحسن البصري وغيره/ - بقتله؛ فضحّي به خالد بن ٢٧/١٢ عبد الله القسري أمير العراق بـ «واسط». فقال أيها الناس، ضحّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مّضحّ بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً! تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه. وأخذ ذلك عنه الجهم بن صفوان، فأنكر أن يكون الله يتكلم، ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الكلام، وقال: كلامه يخلق في محل كالهواء وورق الشجر.

ودخل بعض أهل الكلام والجدل من المنتسبين إلى الإسلام من المعتزلة ونحوهم إلى بعض مقالة الصابئة والمشرّكين، متابعة للجعد والجهم. وكان مبدأ ذلك أن الصابئة في «الخلق» على قولين: منهم من يقول: إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن، كما أخبرت بذلك الرسل، وكتب الله - تعالى - ومنهم من ابتدع فقال: بل هي قديمة أزلية، لم تزل موجودة بوجود الأول، واجب الوجود بنفسه، ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية، ولهم مقالات كثيرة الاضطراب في الخلق والبعث، والمبدأ والمعاد؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله - تعالى - فيجمعهم. والظنون لا تجمع الناس في مثل هذه الأمور التي تعجز الآراء عن إدراك حقائقها إلا بوحى من الله - تعالى.

وهم إنما يناظر بعضهم بعضاً بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية، وقوى الطبائع الموجودة في التراب والماء، والهواء/والحيوان، والمعدن والنبات، ويريدون ٢٨/١٢ بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله وعلم ما فوق السموات، وأول الأمر وآخره؛ وهذا غلط بين اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن، وأنهم لا سبيل لهم إلى إدراك اليقين، وأنهم إن يتبعون إلا الظن.

فلما كان هذا حال هذه الصابئة المبتدعة الضالة، ومن أضلوه من اليهود والنصارى، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهد بهدى الله، الذي بعث به رسله، من أهل الكلام والجدل، صاروا يريدون أن يأخذوا مأخذهم، كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع» قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟! قال: «ومن الناس إلا فارس والروم؟!»^(١) فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه

(١) البخارى فى الاعتصام (٧٣١٩) .

الصابئة، وهو الكلام في الأجسام والأعراض، بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها، ثم يقال: ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في إثبات حدوث العالم، فلما رأوا أن الأعراض — التي هي الصفات — تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه، وبطلان دليل حدوث العالم — الذي اعتقدوا ألا دليل سواه، بل ربما اعتقدوا أنه لا يصح إيمان أحد إلا به — معلوم بالاضطرار من دين الإسلام.

٢٩/١٢ / وهؤلاء يخالفون «الصابئة الفلاسفة» الذين يقولون بقدوم العالم، وبأن النبوة كمال تفيض على نفس النبي؛ لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقا، وأتبع للأدلة العقلية والسمعية لما تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن، وإن كانوا قد ضلوا في كثير مما جاءت به الرسل؛ لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها أهل السنة فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم، كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات، ورأوا أن إثباته متكلماً يقتضى أن يكون جسماً، والجسم حادث؛ لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف، بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره؛ بل الله يفتقر من الخارج إلى ما لا يفتقر إليه غيره؛ ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس في غيره؛ ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم والقرآن مملوء بإثبات ذلك صاروا تارة يقولون متكلم مجازاً لا حقيقة، وهذا قولهم الأول لما كانوا في بدعتهم على الفطرة، قبل أن يدخلوا في المعاندة والجحود.

ثم إنهم رأوا أن هذا شنيع، فقالوا بل هو متكلم حقيقة، وربما حكى بعض متكلميهم الإجماع وليس عندهم كذلك، بل حقيقة قولهم وأصله عند من عرفه وابتدعه أن الله ليس بمتكلم، وقالوا المتكلم من فعل الكلام ولو في محل منفصل عنه؛ ففسروا المتكلم في اللغة/بمعنى لا يعرف في لغة العرب ولا غيرهم؛ لا حقيقة ولا مجازاً، وهذا قول من يقول: إن القرآن مخلوق، وهو أحد قولي الصابئة يوافقون الرسل في حدوث العالم، وهو وإن كان كفراً بما جاءت به الرسل فليس هو في الكفر مثل القول الأول؛ لأن هؤلاء لا يقولون: إن الله أراد أن يبعث رسولا معيناً، وأن ينزل عليه هذا الكلام الذي خلقه، وأنكروا أن يكون متكلماً على الوجه الذي دلت عليه الكتب الإلهية، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة.

ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة، وبين المؤمنين أتباع الرسل الخلاف، فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم، واختلفوا في كتاب

الله، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض.

واتبع المؤمنون ما أنزل إليهم من ربهم، من أن الله تكلم بالقرآن، وأنه كلم موسى تكليماً، وأنه يتكلم، ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون، بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الإيمان، الذي علموا به مراد الرسل من إخبارهم برسالة الله وكلامه، واتبعوا هذا القرآن والحديث وإجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر أتباع الأنبياء، وعلموا أن قول هؤلاء أخبث من قول اليهود والنصارى، حتى كان ابن المبارك - إمام المسلمين - يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

/ وكان قد كثر ظهور هؤلاء، الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين، ٣١/١٢ ثم مبدلة اليهود والنصارى في أوائل المائة الثانية، وأوائل الثالثة في إمارة أبي العباس الملقب بالمأمون، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين، الذين كانوا قبل النصارى، ومن أشبههم من فارس والهند، وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم.

وقدم تقدم أن أهل الكلام المبتدع في الإسلام هم من فروع الصابئين، كما يقال: المعتزلة مخانيث الفلاسفة. فظهرت هذه المقالة في أهل العلم والكلام، وفي أهل السيف والإمارة، وصار في أهلها من الخلفاء والأمراء، والوزراء والقضاة، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الذين اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، ولم يبدلوا ولم يبتدعوا، وذلك لقصور وتفريط من أكثرهم في معرفة حقيقة ما جاء به الرسول واتباعه، وإلا فلو كان ذلك كثيراً فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الإسلام من التمكن منهم.

فصل

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية، الذين نصرروا أن الله له علم وقدرة وبصر وحياة، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية، وفرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضاً، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضاً، لأن العَرَضَ ما لا يدوم ولا يبقى، أو ما يقوم بمتحيز أو/جسم، فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض ٣٢/١٢ القائمة بالأجسام.

وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية، فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة في

كثير من أمورهم، وأثبتوا الصفات التي قد يستدل بالقياس العقلي عليها، كالصفات السبع، وهي : الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام . ولهم نزاع في السمع والبصر والكلام، هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية؟ ولهم اختلاف في البقاء والقدم، وفي الإدراك الذي هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات، ولهم-أيضاً-اختلاف في الصفات السمعية القرآنية الخبرية كالوجه واليد، فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها، وكثير من متأخريهم لا يثبتها، وأما ما لا يرد إلا في الحديث فأكثرهم لا يثبتها، ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ما عرضها من القياس العقلي عنده، ومنهم من يفرض معناها .

وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات، وإنما المقصود القول في « رسالة الله، وكلامه » الذي بلغته رسله، فكان هؤلاء بينهم وبين أهل الوراثة النبوية قدر مشترك بما سلكوه من الطرق الصابئة في أمر الخالق، وأسمائه وصفاته، فصار في مذهبهم في الرسالة تركيب من الوراثة، لبسوا حق ورثة الأنبياء بباطل ورثة أتباع الصابئة، كما كان في مذهب أهل الكلام المحض المبتدع - كالمعتزلة - تركيب، ٣٣/١٢ وليس بين الأثرية (١) النبوية وبين الأثرية الصابئة، لكن أولئك أشد اتباعاً للأثرية النبوية، وأقرب إلى مذهب أهل السنة من المعتزلة، ونحوهم من وجوه كثيرة. ولهذا وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه، والحديث والتصوف؛ لوجوه:

أحدها : كثرة الحق الذي يقولونه، وظهور الأثرية النبوية عندهم.

الثاني: لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة، وبعضها مما ابتدع في الإسلام، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم، وظنهم أنه لم يمكن التمسك بالأثرية النبوية من أهل العقل والعلم، إلا على هذا الوجه.

الثالث: ضعف الأثرية النبوية الدافعة لهذه الشبهات، والموضحة لسبيل الهدى عندهم.

الرابع: العجز والتفريط الواقع في المتسبين إلى السنة والحديث؛ تارة يروون ما لا يعلمون صحته، وتارة يكونون كالأمين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور.

(١) الأثرية: بقية الشيء، من علم أو خبر. انظر: القاموس، مادة «أثر».

فلما كان هذا منهاجهم ، وقالوا: إن القرآن غير مخلوق لما دل على ذلك من ٣٤/١٢ |
النصوص وإجماع السلف ، ولما رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرره في الصفات ،
ورأوا أن التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلي لا يستقيم إلا أن
يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى — كسائر الصفات ، كما جعله الأولون من
باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديماً كسائر الصفات — ورأوا أنه ليس إلا مخلوق أو
قديم ، فإن إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضى حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على
حدوث الموصوف ، ومبطل لدلالة حدوث العالم .

ثم رأوا أنه لا يجوز أن يكون معاني كثيرة ، بل إما معنى واحد عند طائفة ، أو
معاني أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس ،
وأن الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام ، بل دالة عليه فتسمى باسمه ؛ إما
مجاز عند طائفة ، أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة ، وإما مجاز في كلام الله حقيقة
في غيره عند طائفة .

وخالفهم الأولون وبعض من يتسنن أيضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف
والأصوات ، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه ، أو الإرادة ونوعها ، فصار النزاع
بين الطائفتين .

/ وأورد على هؤلاء: أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام إضافية ليست أنواعاً له ٣٥/١٢ |
وأقساماً ، وأن كلام الله معنى واحد؛ إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن ، وبالعبرية فهو
توراة ، وبالسريانية فهو إنجيل ، وقال لهم أكثر الناس: هذا معلوم الفساد بالضرورة ، كما
قال الأولون: إنه خلق الكلام في الهواء فصار متكلماً به ، وإن المتكلم من أحدث الكلام
ولو في ذات غير ذاته؛ وقال لهم أكثر الناس: إن هذا معلوم الفساد بالضرورة .

وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً ، كما أن
الإنسان المتكلم اسم للروح والجسم جميعاً ، وأنه إذا أطلق على أحدهما بقرينة ، وأن
معاني الكلام متنوعة ليست منحصرة في العلم والإرادة ، كتتنوع ألفاظه ، وإن كانت
المعاني أقرب إلى الاتحاد والاجتماع ، والألفاظ أقرب إلى التعدد والافتراق .

والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة ، وإن لم يكن عندهم الذي هو كلام الله
مخلوقاً ، وفرقوا بين كتاب الله وكلامه ، فقالوا : كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق ،
وكلام الله هو معناها غير مخلوق . وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذي قال
الأولون: إنه مخلوق ، واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف؟ هل خلقت في الهواء؟

أو في نفس جبرائيل؟ أو أن جبرائيل هو الذي أحدثها أو محمد؟

٣٦/١٢ / وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل ، وما جاء عنهم من الكتب والأثر من العلم، وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً، لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين، وهو أن القرآن كلام الله، لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، والقرآن هو القرآن - الذي يعلم المسلمون أنه القرآن - حروفه ومعانيه، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً.

ولهذا كان الفقهاء المصنفون في أصول الفقه من جميع الطوائف؛ الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية - إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة والفقهاء - إذا تكلموا في الأمر والنهي ذكروا ذلك، وخالفوا من قال: إن الأمر هو المعنى المجرد، ويعلم أهل الأثر النبوية - أهل السنة والحديث، عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة - أن قوله تعالى: ﴿الَّذِي كَتَبَ لَكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢] ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره، وكلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه في غيره، ولم يتكلم به.

/وسئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن رجلين تجادلا في « ٣٧/١٢ »
 الأحرف التي أنزلها الله على آدم فقال أحدهما: إنها قديمة ليس لها مبتدأ ، و شكلها
 ونقطها محدث . فقال الآخر: ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها، والقديم
 هو الله، وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، منزل غير مخلوق، ولكنه كُتِبَ بها. وسألا: أيهما
 أصوب قولاً وأصح اعتقاداً؟

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين ، أصل هذه المسألة هو معرفة «كلام الله تعالى» . ومذهب
 سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين - كالأئمة
 الأربعة وغيرهم - ما دل عليه الكتاب و السنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة
 أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة
 والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك/مخلوقاً منفصلاً عنه، وهو - سبحانه - ٣٨/١٢
 يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقاً بائناً عنه، وهو يتكلم بمشيئته
 وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة: إن كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد
 منهم: إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلاً وأبداً، وهو لا يقدر أن يتكلم
 بمشيئته وقدرته، ولا قالوا: إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل
 قالوا: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، فكلامه قديم، بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء .

وكلمات الله لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ
 أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، والله - سبحانه - تكلم بالقرآن
 العربي، وبالتوراة العبرية، فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ
 بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿لِسَانٌ عَكِرْتُ مِثْرًا﴾ [النحل: ٩٨-١٠٣] فقد بين -
 سبحانه - أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل - وهو الروح
 الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر - من الله بالحق، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال:
 ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ كما قال بعض المشركين: يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى:
 ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَذَا
 لِسَانٌ عَكِرْتُ مِثْرًا﴾ [النحل: ١٠٣] .

/ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين، نزلها روح القدس من ٣٩/١٢

الله بالحق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَنَسِيَ اللَّهُ أَتَنبِئُ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكَتِّبُ الْكُتُبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] ، والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: يقولون، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول، وذكر علمهم ذكر مستشهد به.

وقد فرق — سبحانه — بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥] فرق — سبحانه — بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره، ووكد تكليمه لموسى بالمصدر، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿بُرُوجٍ﴾^(١) أَلْفُذِينَ ﴿[البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] إلى آخر السورة. فقد بين — سبحانه — أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة؛ إما وحياً، وإما من وراء حجاب، وإما أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء، فجعل الوحي غير التكليم، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى.

٤٠/١٢ / وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ الآية [مريم: ٥٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [القصص: ٣٠]. و«النداء» باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم. وأهل الكتاب يقولون: إن موسى ناداه ربه نداء سمعه بأذنه، وناداه بصوت سمعه موسى، والصوت لا يكون إلا كلاماً، والكلام لا يكون إلا حروفاً منظومة، وقد قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]، وقال: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، وقال: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١، ٢] فقد بين في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل من الله.

وهذا معنى قول السلف: منه بدأ، قال أحمد بن حنبل — رحمه الله — : منه بدأ: أي هو المتكلم به؛ فإن الذين قالوا: إنه مخلوق، قالوا: خلقه في غيره، فبدأ من ذلك المخلوق، فقال السلف: منه بدأ، أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاماً لذلك المحل الذي خلقه فيه؛ فإن الله — تعالى — إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين؛ فإذا خلق طعماً أو لوناً في

(١) في المطبوعة: «روح» والصواب ما أثبتناه.

محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً في محل كان ذلك المحل هو المريد،/القادر، العالم، المتكلم بذلك الكلام، ٤١/١٢ ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين، وإنما يتصف الرب - تعالى - بما يقوم به من الصفات، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحيم، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به، لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني.

ومن جعل كلامه مخلوقاً لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وهذا ممتنع، لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقاً، بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين.

وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل: إن فلاناً يقول: «لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف، فقالت: لا أسجد حتى أؤمر»، فقال: هذا كفر. فأنكر على من قال: إن الحروف مخلوقة؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقاً لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقاً، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة، مخالف للأدلة العقلية والسمعية، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

/والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً، والطوائف الكبار نحو ست فرق، ٤٢/١٢ فأبعدها عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصابئة: إن كلام الله إنما هو ما يفيض على النفوس؛ إما من العقل الفعال، وإما من غيره، وهؤلاء يقولون: إنما كلم الله موسى من سماء عقله، أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج.

وأصل قول هؤلاء: أن الأفلاك قديمة أزلية، وأن الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما أخبر به الأنبياء، بل يقولون: إن الله لا يعلم الجزئيات، فلما جاءت الأنبياء بما جاؤوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه، ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة، فقالوا مثل ذلك. وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى، وهم كثيرون التناقض، كقولهم: إن الصفة هي الموصوف، وهذه الصفة هي الأخرى، فيقولون: هو عقل وعقل وعقل، ولذيذ وملئذ ولذة، وعاشق ومعشوق وعشقى. . وقد يعبرون عن ذلك بأنه حي عالم معلوم، محب محبوب. ويقولون: نفس العلم هو نفس المحبة، وهو نفس القدرة، ونفس العلم هو نفس العالم، ونفس المحبة هي نفس المحبوب.

٤٣/١٢ ويقولون: إنه علة تامة في الأزل؛ فيجب أن يقارنها معلولها في الأزل في الزمن، وإن كان متقدماً عليها بالعلة لا بالزمان. ويقولون: إن العلة التامة ومعلولها يقتزمان في الزمان ويتلازمان، فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها في الزمان. ثم يعترفون بأن حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة، بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا مُحَدِّث، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلها.

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام، ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح، والحوادث لها ابتداء، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث. ولم يهتد الفريقان للقول الوسط، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهو - سبحانه - يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه في الزمان، ولا متراخياً عن تكوينه، كما يكون الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع، ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخياً عنه، ولا مقارناً له في الزمان.

٤٤/١٢ والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تنتهى، فلزمهم أن/الرب لا يمكنه فعل ذلك، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته، فافترقوا بعد ذلك، منهم من قال: كلامه لا يكون إلا حادثاً؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مراداً. وما كان كذلك لا يكون إلا حادثاً، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه؛ لامتناع قيام الحوادث به، وتسلسلها في ظنهم.

ومنهم من قال: بل كلامه لا يكون إلا قائماً به، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته، بل لا يكون إلا قديم العين؛ لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً، فكانت الحوادث تقوم به، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها.

ومنهم من قال: بل هو متكلم بمشيئته وقدرته، لكنه يمتنع أن يكون متكلماً في الأزل، أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها، وذلك ممتنع.

قالت هذه الطوائف: ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم، فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلو من الحوادث ولا تسبقها، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث. ثم ٤٥/١٢ من هؤلاء من ظن أن هذه/قضية ضرورية ولم يتفطن لإجمالها. ومنهم من تفطن للفرق

بين مالم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء. أما الأول فهو حادث بالضرورة؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث.

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس، فقليل: إن ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل، كقول الجهم وأبي الهذيل. فقال الجهم بفناء الجنة والنار. وقال أبو الهذيل بفناء حركات أهلها. وقيل: بل هو جائز في المستقبل دون الماضي؛ لأن الماضي دخل في الوجود دون المستقبل. وهو قول كثير من طوائف النظائر. وقيل: بل هو جائز في الماضي والمستقبل، وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة - كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل، وغيرهما - ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن كلمات الله لا نهاية لها، وهي قائمة بذاته، وهو متكلم بمشيئته وقدرته. وهو - أيضاً - قول أئمة الفلاسفة.

لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك، ويقولون: إنه قديم أزلي، وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء. فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض، بل هو خالق كل شيء، وكل ما سوى الله مخلوق حادث، كائن بعد أن لم يكن. وإن القديم الأزلي هو الله - تعالى - بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه، بل من ٤٦/١٢ قال: عبدت الله ودعوت الله، فإنما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها.

ثم لما تكلم في «النبوت» من اتباع أرسطو - كابن سينا وأمثاله - ورأوا ما جاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم، وأنه كلم موسى تكليماً. وأنه خالق كل شيء، أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه، فيقولون: الحدوث نوعان، ذاتي وزماني، ونحن نقول: إن الفلك محدث الحدوث الزماني؛ بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله، وقالوا: إنه مخلوق بهذا الاعتبار، والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، والقديم الأزلي لا يكون في أيام.

وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل - من أن الله خلق كل شيء، وأنه خلق كذا - إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق، وأحدثه بعد أن لم يكن، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، والعقول الصريحة توافق ذلك، وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده، وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول.

٤٧/١٢ / وقالوا لهؤلاء قولكم: « إنه مؤثر تام في الأزل» لفظ مجمل يراد به التأثير العام في كل شيء، ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء، ويراد به التأثير في شيء معين دون غيره؛ فإن أردتم الأول لزم ألا يحدث في العالم حادث، وهذا خلاف المشاهدة . وإن أردتم الثاني لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقاً حادثاً كائناً بعد أن لم يكن، وكان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعالاً لما يشاء، وهذا يناقض قولكم، ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق، ويوافق ما أخبرت به الرسل، وعلى هذا يدل العقل الصريح، فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الأنبياء. وإن أردتم الثالث فسد قولكم؛ لأنه يستلزم أنه يشاء حدوثها بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الإحداث، وهذا يناقض قولكم؛ فإن صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء، وإن لم يصح هذا بطل، فقولكم باطل على التقديرين.

وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره، ولا يكون الأثر إلا مع المؤثر التام في الزمن، وحيث لا يلزمكم ألا يحدث شيء، ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر، وليس لكم أن تقولوا: بعض الآثار يقارن المؤثر التام، وبعضها يتراخى عنه.

٤٨/١٢ / وأيضاً، فكونه فاعلاً لمفعول معين مقارن له أزلاً وأبداً، باطل في صريح العقل. وأيضاً، فأنتم وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن الذي لا يكون إلا ممكناً يقبل الوجود والعدم، وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسمه الضروري الواجب، والضروري الممتنع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى، وأن القديم الأزلي لا يكون إلا ضرورياً واجباً يمتنع عدمه، وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا، وذكره في كتبه المشهورة كـ«الشفاء» وغيره. ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال، وزعم أن الواجب بغيره، القديم الأزلي الذي يمتنع عدمه يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم. وزعم أن له ماهية غير وجوده. وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه في غير هذا الموضع.

والقول الثاني للناس - في كلام الله تعالى - قول من يقول: إن الله لم يقم به صفة من الصفات، لا حياة ولا علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا إرادة ولا رحمة، ولا غضب ولا غير ذلك، بل خلق كلاماً في غيره فذلك المخلوق هو كلامه، وهذا قول الجهمية والمعتزلة. وهذا القول - أيضاً - مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم، وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم، بل لهم شبه ٤٩/١٢ عقلية فاسدة، قد بينا فسادها في غير هذا الموضع، وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل

على حدوث العالم بتلك الحجج، وهم لا للإسلام نصرُوا، ولا لأعدائه كسروا.

والقول الثالث: قول من يقول: إنه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وأبدًا، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم في أصل قولهم، لكن قالوا: الرب تقوم به الصفات، ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية .

وأول من اشتهر عنه أنه قال هذا القول في الإسلام عبد الله بن سعيد بن كُلاب ، ثم افترق موافقوه ، فمنهم من قال: ذلك الكلام معنى واحد هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل محظور، والخبر عن كل مخبر عنه، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا. وقالوا: معنى القرآن والتوراة والإنجيل واحد، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين. وقالوا: الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواع له، ومن محققهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر، والخبر يعود إلى العلم.

وجمهور العقلاء يقولون: قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة، وهؤلاء يقولون: تكليمه لموسى ليس إلا خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى. ف قيل لهم : أفهم كل الكلام أم بعضه؟ إن كان فهمه كله / فقد عَلِمَ عِلْمَ الله ، وإن كان فهم بعضه فقد ٥٠/١٢ تبعض، وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد.

وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره، وعلى أصلكم: لا فرق.

وقيل لهم: قد كَفَّرَ اللَّهُ من جعل القرآن العربي قول البشر، وقد جعله تارة قول رسول من البشر، وتارة قول رسول من الملائكة، فقال في موضع: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]، فهذا الرسول محمد ﷺ، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، فهذا جبريل، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري، والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس .

وكان بعض هؤلاء ادعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد، ف قيل لهم : لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر. وهو - سبحانه - أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي، فدل ذلك على أنه قول رسول بلغه عن مرسله، لا قول ملك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه، بل قد كفر من قال: إنه قول البشر.

/ والطائفة الأخرى - التي وافقت ابن كلاب على أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته - ٥١/١٢ قالت: بل الكلام القديم هو حروف، أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبدًا

لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته، ولا يتكلم بها شيئاً بعد شيء . ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام، وبين عين حروف قديمة أزلية، وهذا — أيضاً — مما يقول جمهور العقلاء أنه معلوم الفساد بالضرورة؛ فإن الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون كل منها قديماً أزلياً، وإن كان جنسها قديماً؛ لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها، وحروف متعاقبة لا نهاية لها، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً؛ فإن المسبوق بغيره لا يكون أزلياً.

وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها، فقال: الترتيب في ماهيتها لا في وجودها، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره، فإن ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شيء، والصوت لا يكون إلا شيئاً بعد شيء، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدماً عليها به، مع أن الفرق بينهما بين لو قدر الفرق بينهما، ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها — أيضاً — مترتباً ترتيباً متعاقباً.

ثم من هؤلاء من يزعم أن ذلك القديم هو ما يسمع من العباد من الأصوات بالقرآن ٥٢/١٢ والتوراة والإنجيل أو بعض ذلك، وكان أظهر/فساداً مما قبله، فإنه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد.

و طائفة خامسة قالت: بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره، لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الأزل؛ لامتناع حوادث لا أول لها، وهؤلاء جعلوا الرب في الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته، ولا على الفعل كما فعله أولئك، ثم جعلوا الفعل والكلام ممكناً مقدوراً من غير تجدد شيء أوجب القدرة والإمكان، كما قال أولئك في المفعولات المنفصلة.

وأما السلف فقالوا: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، وأن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة، والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباشرة له، ولا يكون الموصوف متكلماً عالماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة.

وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أكمل ممن حدث له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً، فكيف إذا كان ممتنعاً؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل ٥٣/١٢ متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك، وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن/العربي، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه، فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة؛ لأن الله تكلم بها.

فصل

ثم تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين . وسبب نزاعهم أمران :

أحدهما : أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه ، و بين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ ؛ فإن القرآن كلام الله ، تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ، فإذا قرأه القراء قرؤوه بأصوات أنفسهم ، فإذا قال القارئ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : ٢ ، ٣] كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ، فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارئ ، كما قال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »^(١) ، وكان يقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي »^(٢) ، وكلا الحديثين ثابت ، فيبين أن الكلام الذي يبلغه كلام ربه ، وبين أن القارئ يقرؤه بصوت ٥٤/١٢ نفسه ، وقال ﷺ : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن »^(٣) . قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت . قال أحمد بن حنبل : يحسنه بصوته ، فيبين أحمد أن القارئ يحسن القرآن بصوت نفسه .

والسبب الثاني : أن السلف قالوا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . وقالوا : لم يزل متكلماً إذا شاء . فبينوا أن كلام الله قديم ، أي جنسه قديم لم يزل . ولم يقل أحد منهم : إن نفس الكلام المعين قديم ، ولا قال أحد منهم : القرآن قديم ، بل قالوا : إنه كلام الله منزل غير مخلوق ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزلاً منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم الله ، وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف و فرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض .

فمن قال : إن حروف المعجم كلها مخلوقة ، وأن كلام الله تعالى مخلوق ، فقد قال قولاً مخالفاً للمعقول الصحيح ، والمنقول الصحيح . ومن قال : نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئاً من ذلك قديم ، فقد خالف — أيضاً — أقوال السلف ، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعاً قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ، ولا قالته طائفة كبيرة من

(١) البخاري في التوحيد مغلقاً (الفتح ٥١٨/١٣) وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨) والنسائي في الافتتاح (١٠١٦ ، ١٠١٥) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٤٢) والدارمي في فضائل القرآن ٢/٤٧٤ ، وأحمد ٤/٢٨٥ كلهم عن البراء بن عازب .

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٣٤) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١) ، والدارمي في فضائل القرآن (٢/٤٤٠) ، وأحمد ٣/٣٣٢ ، ٣٣٩ ، كلهم عن جابر بن عبد الله .

(٣) البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) وأبو داود في الوتر (١٤٦٩) .

٥٥/١٢ طوائف المسلمين، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريؤون من ذلك. ومن قال: إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين، فقد ابتدع قولاً باطلاً في الشرع والعقل.

ومن قال: إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة، وأن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقاً، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له، وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة - فقد أصاب.

وإذا قال: إن الله هَدَى عباده وعَلَّمَهم البيان، فأنطقهم بها باللغات المختلفة، وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مباني كتبه وكلامه وأسمائه - فهذا قد أصاب، فالإنسان - وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها - مخلوق كائن بعد أن لم يكن، والرب - تعالى - بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق، والعباد إذا قرؤوا كلامه فإن كلامه الذي يقرؤونه (١) هو كلامه لا كلام غيره، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقاً، وكان ما يقرؤون (٢) به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقاً، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف وكلامه غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق.

٥٦/١٢ / وقد فرق - سبحانه وتعالى - بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وكلمات الله غير مخلوقة، والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق، والقرآن المكتوب في المصاحف غير مخلوق، وكذلك المكتوب في اللوح المحفوظ وغيره، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذِكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَنلَوْنَ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٣، ٢] وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

(١) في المطبوعة «يقرؤنه» وهو خطأ.

(٢) في المطبوعة: «يقرؤون» وهو خطأ.

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا في الأحرف التي أنزلها الله على آدم، فقال أحدهما: إنها قديمة وليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث. وقال الآخر: إنها ليست بكلام الله، وأنها مخلوقة بشكلها ونقطها، وأن القديم هو الله، وكلامه منه بدأ وإليه يعود، منزل غير مخلوق، ولكنه كتب بها. وسؤالهما أن نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً، يقال لهما:

يحتاج بيان الصواب إلى بيان ما في السؤال من الكلام المجمل،/فإن كثيراً من نزاع ٥٧/١٢ العقلاء لكونهم لا يتصورون مورد النزاع تصوراً بيناً، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين اللذين (١) قالاهما، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع.

فأول ما في هذا السؤال قولهما: الأحرف التي أنزلها الله على آدم، فإنه قد ذكر بعضهم أن الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة، وهذا ذكره ابن قتيبة في «المعارف»، وهو ومثله يوجد في التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه، وهذا ونحوه منقول عن ينقل الأحاديث الإسرائيلية ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين، مثل وهب بن منبه وكعب الأحبار، ومالك بن دينار، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لا يجوز أن يجعل عمدة في دين المسلمين، إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر، أو أن يكون منقولاً عن خاتم المرسلين، وأيضاً فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو: «إن أول من خط وخاط إدريس» (٢). فهذا منقول عن بعض السلف وهو مثل ذلك وأقوى، فقد ذكروا فيه أن إدريس أول من خاط الثياب، وخط بالقلم، وعلى هذا فبنو آدم من قبل إدريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤون (٣) كتباً. والذي في حديث أبي ذر المعروف، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ: «إن آدم كان نبياً مكلِّماً كلمه الله قبلاً» (٤) وليس فيه أنه أنزل عليه ٥٨/١٢ شيئاً مكتوباً، فليس فيه أن الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتاباً، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب، فهذا يدل على أن هذا لا أصل له، ولو كان هذا معروفاً عند أهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو في القرآن، ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وإنما

(١) في المطبوعة: «الذين» والصواب ما أثبتناه.

(٢) ابن حبان في صحيحه في البر والإحسان (٣٦٢).

(٣) في المطبوعة: «يقرؤون» والصواب ما أثبتناه.

(٤) أحمد ٢٦٥/٥.

هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التي لا يجب الإيمان بها، بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ؛ فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه» (١).

والله - سبحانه - علم آدم الأسماء كلها، وأنطقه بالكلام المنظوم، وأما تعليم حروف مقطعة - لا سيما إذا كانت مكتوبة - فهو تعليم لا ينفع، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدئ بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء، ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض، فيعلم « أبجد هوز » ، وليس هذا وحده كلامًا.

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل. ولم يدل عليه عقل، بل الأظهر في كليهما نفيه، وهو من جنس ما يروونه عن النبي ﷺ من تفسير ١٢/٥٩، ب، ت، ث، وتفسير «أبجد، هوز، حطي»، ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب، وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة، ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه، وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب ، كالشريف المزيدي، والشيخ أبي الفرج، وابنه عبد الوهاب وغيرهم. وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه في شيء من الدين.

وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين، وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحراني وغيره، فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، وقد بين في تفسيره أن كل ما نقل في ذلك عن النبي ﷺ فهو باطل. فذكر في آخر تفسيره اختلاف الناس في تفسير «أبجد ، هوز، حطي»، وذكر حديثًا رواه من طريق محمد بن زياد الجزري، عن فرات بن أبي الفرات، عن معاوية ابن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا أباجاد وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد» قال: قالوا: يا رسول الله، وما تفسيرها؟ قال «أما الألف فالآء الله ١٢/٦٠ وحرف من أسمائه، وأما الباء فبهاء الله، وأما الجيم فجلال الله، وأما الدال فدين/الله، وأما الهاء فالهاوية، وأما الواو فويل لمن سها، وأما الزاي فالزاوية، وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار» (٢) وذكر تمام الحديث من هذا الجنس.

(١) البخارى فى التفسير (٤٤٨٥) وأبو داود فى العلم (٣٦٤٤) وأحمد ١٣٦/٤ .

(٢) الديلمي (٢٢٤٧) عن ابن عباس .

وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقد، حدثني الفرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس، قال: « ليس شيء إلا وله سبب، وليس كل أحد يظن له ولا بلغه ذلك، إن لأبي جاد حديثاً عجيباً، أما أبو جاد: فأبى آدم الطاعة وجد في أكل الشجرة، وأما هوز: فزل آدم فهو من السماء إلى الأرض، وأما حطي: فحطت عنه خطيئته. وأما كلمن: فأكله من الشجرة ومنَّ عليه بالتوبة » وساق تمام الحديث من هذا الجنس.

وذكر حديثاً ثالثاً من حديث إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مُليكة، عن حدثه عن ابن مسعود ومِسْعَر بن كُذَّام، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال له المعلم: اكتب بسم الله، فقال له عيسى: وما اسم الله؟ فقال له المعلم: وما أدري؟ فقال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم ملكه، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. أبو جاد: أَلَفَ آلاء الله، وباء بهاء الله، وجيم جمال الله، ودال الله الدائم، وهوز: هاء الهاوية » وذكر حديثاً من هذا الجنس، وذكره ٦١/١٢ عن الربيع بن أنس موقوفاً عليه. وروى أبو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثاً، عن عمر، عن النبي ﷺ في تفسير: أ، ب، ت، ث من هذا الجنس.

ثم قال ابن جرير: ولو كانت الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ في ذلك صحاح الأسانيد، لم يعدل عن القول بها إلى غيرها، ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها؛ وذلك أن محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قُرة عن قُرات عنه غير موثوق بنقله، وإن عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه في رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل، وإن إسماعيل بن يحيى الذي حدث عن ابن أبي مُليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره.

قلت: إسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي، كوفي معروف بالكذب، ورواية إسماعيل بن عياش في غير الشاميين لا يحتج بها، بل هو ضعيف فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق، بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين؛ فإنه حافظ لحديث أهل بلده، كثير الغلط في حديث أولئك، وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال. وعبد الرحمن بن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم وقرات بن السائب ضعيف أيضاً/ ٦٢/١٢/١٢. فهو قرات بن أبي الفرات، ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً.

وقد تنازع الناس في «أبجد ، هوز ، حطي» ، فقال طائفة : هي أسماء قوم ، قيل : أسماء ملوك مدين ، أو أسماء قوم كانوا ملوكًا جابرة . وقيل : هي أسماء الستة الأيام التي خلق الله فيها الدنيا . والأول اختيار الطبري . وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبي عاد . وهواز مثل رواد وجواب ، وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسميات ، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها : «أبجد ، هوز ، حطي» ، ليس لفظها أبو جاد ، هواز . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ، فيجعلون الألف واحدًا . والباء اثنين ، و الجيم ثلاثة ، إلى الياء ، ثم يقولون : الكاف عشرون . . . (١) وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظًا تدل على صورة الشكل ، والقياس لا يختص بمادة دون مادة .

٦٣/١٢ كما جعل أهل التصريف لفظ «فعل» تقابل الحروف الأصلية ، والزائدة ينطقون بها . ويقولون : وزن استخرج «استفعل» ، وأهل العروض يزنون بالفاظ مؤلفة من ذلك ؛ لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل ، والزائد ؛ ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن «نكتل» فقال : نفعل ، وضحك منه أهل التصريف . ووزنه عندهم : نفتل ، فإن أصله : نكتال ، وأصل نكتال : نكتيل . تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك في «نعتد» و «نقتد» من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده . ونحو ذلك في نقتيل ، فلما حذفوا الألف التي تسمى لام الكلمة صار وزنها . . . (٢) .

وجعلت «ثمانية» تكون متحركة ؛ وهي الهمزة ، وتكون ساكنة وهي حرفان على الاصطلاح الأول ، وحرف واحد على الثاني ، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ؛ ولهذا ذكرت في آخر حروف المعجم ، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء ، فجعلوا اللام قبلها فقالوا : «لا» والتي في الأول هي الهمزة المتحركة ، فإن الهمزة في أولها ، وبعض الناس ينطق بها «ألف» ، والصواب أن ينطق بها «لا» ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق ، وأما النقول الضعيفة لا سيما المكذوبة فلا يعتمد عليها ، وكذلك النظريات الفاسدة ، والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتاج بها .

(١ ، ٢) يياض بالأصل .

/الثاني: أن يقال : هذه الحروف الموجودة في القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء ٦٤/١٢ حروف، مثل قوله: (الم) وقوله: (المص) وقوله: (الم - طس - حم - كهيعص - حم - عسق - ن - ق) فهذا كله كلام الله غير مخلوق.

الثالث: أن هذه الحروف إذا وجدت في كلام العباد، وكذلك الأسماء الموجودة في القرآن إذا وجدت في كلام العباد مثل آدم، ونوح، ومحمد، وإبراهيم وغير ذلك، فيقال: هذه الأسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها، لكن لم يتكلم بها مفردة؛ فإن الاسم وحده ليس بكلام، ولكن تكلم بها في كلامه الذي أنزله في مثل قوله: ﴿تَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ونحو ذلك، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الأسماء، فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة، كما قال أحمد بن حنبل لرجل: ألسنت مخلوقًا؟ قال: بلى، قال: أليس كلامك منك؟ قال: بلى، قال: أليس كلامك مخلوقًا؟ قال: بلى، قال: فالله تعالى غير مخلوق، وكلامه منه ليس بمخلوق.

فقد نص أحمد وغيره على أن كلام العباد مخلوق، وهم إنما يتكلمون بالأسماء ٦٥/١٢ والحروف التي يوجد نظيرها في كلام الله - تعالى - لكن الله - تعالى - تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق، وصفات الله - تعالى - لا تماثل صفات العباد؛ فإن الله - تعالى - ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله، والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة، والصوت الذي سمعه منه موسى، ليس كأصوات شيء من المخلوقات، والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده؛ فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات، وهو - سبحانه - قد علم العباد من علمه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهم إذا علمهم الله ما علمهم من علمه، فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقًا، ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقًا، فلا يقال: إن ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به، وإن كان ما يتصف به العبد مخلوقًا.

وأصل هذا: أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد، يوصف الله به على ما يليق به، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك؛ مثل الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والكلام؛ فإن الله له حياة وعلم وقدرة، وسمع وبصر وكلام. فكلامه يشتمل على

حروف وهو يتكلم بصوت نفسه، والعبد له حياة وعلم وقدرة، وسمع وبصر وكلام، ١٦/١٢/وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه.

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات: تارة تعتبر مضافة إلى الرب، وتارة تعتبر مضافة إلى العبد، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد. فإذا قال العبد: حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك، فهذا كله غير مخلوق، ولا يماثل صفات المخلوقين، وإذا قال: علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد، فهذا كله مخلوق، ولا يماثل صفات الرب. وإذا قال: العلم والقدرة والكلام، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله: إنه مخلوق ولا أنه غير مخلوق، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق، فالصفة تتبع الموصوف، فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة.

ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله، فالقرآن في نفسه كلام الله غير مخلوق، وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة، ولو قال الجُبُّب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ينوي به القرآن منع من ذلك، وكان قرآنًا، ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئًا، وجاز له ذلك.

٦٧/١٢ ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه مسلم في صحيحه (١). فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن وقال: هي من القرآن. فهي من القرآن باعتبار، وليست من القرآن باعتبار، ولو قال القائل: ﴿يَبْيَخِرْ خُذِ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ١٢] ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء، وإن قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء، ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرتة كتاب: يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقًا؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص، وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مرادًا به ما أراده الله بقوله: ﴿يَبْيَخِرْ خُذِ الْكِتَابَ﴾، والكلام كلام المخلوق بلفظه ومعناه.

وقد تنازع الناس في «مسمى الكلام» في الأصل، فقيل: هو اسم اللفظ الدال على المعنى. وقيل: المعنى المدلول عليه باللفظ. وقيل: لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي. وقيل: بل هو اسم عام لهما جميعًا يتناولهما عند الإطلاق، وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة. هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يعرف في كثير

(١) مسلم في الآداب (١٢/٢١٣٧) وابن ماجه في الأدب (٣٨١١).

من الكتب .

وهذا كما تنازع الناس في مسمى « الإنسان » : هل هو الروح فقط أو الجسد فقط؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعاً، وإن كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا ٦٨/١٢ تارة، فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق . فمن سمي شخصاً محمداً وإبراهيم، وقال : جاء محمد وجاء إبراهيم، لم يكن هذا محمداً^(١) وإبراهيم المذكورين في القرآن . ولو قال : محمد رسول الله، وإبراهيم خليل الله، يعني به خاتم الرسل و خليل الرحمن، لكان قد تكلم بمحمد وإبراهيم الذي في القرآن، لكن قد تكلم بالاسم وألفه كلاماً، فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن العربي الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك أن الفقهاء قالوا في « آداب الخلاء » : إنه لا يستصحب ما فيه ذكر الله، واحتجوا بالحديث الذي في السنن : أن النبي ﷺ كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه^(٢) . وكان خاتمه مكتوباً عليه : « محمد رسول الله »^(٣) محمد سطر، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء أن يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب، ومثل الأوراق التي يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك .

وفي السيرة أن النبي ﷺ لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة، أتاه سعد فقال له : أهذا شيء أمر الله به فسمعاً وطاعة، أم شيء تفعله لمصلحتنا؟ فبين له النبي ﷺ أنه لم يفعل ذلك بوحى، بل فعله باجتهاده، فقال : لقد كنا في الجاهلية/وما كانوا يأكلون ٦٩/١٢ منها ثمرة إلا بقرى^(٤) أو بشراء، فلما أعزنا الله بالإسلام يريدون أن يأكلوا تمرنا! لا يأكلون ثمرة واحدة، ويصق سعد في الصحيفة وقطعها . فأقره النبي ﷺ على ذلك^(٥) ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز إهانتها والبصاق فيها، وأيضاً، فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين .

وأما قول القائل : إن الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة، فإن أراد جنسها فهذا صحيح، وإن أراد الحرف المعين فقد أخطأ ؛ فإن له مبدأ ومنتهى، وهو مسبوق بغيره، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً .

(١) في المطبوعة : « محمد » والصواب ما أثبتناه .

(٢) أبو داود في الطهارة (١٩) ، والترمذي في اللباس (١٧٤٦) والنسائي في الزينة (٥٢١٣) ، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٣) .

(٣) البخارى في اللباس (٥٨٧٢) ومسلم في اللباس (٥٦/٢٠٩٢ ، ٥٨) .

(٤) أي : بضيافة الضيف . انظر : القاموس ، مادة « قرى » .

(٥) ابن هشام في السيرة ١٧٤/٣ ، ١٧٥ ، وتاريخ الطبري ٦٠٣/٢ ، ٦٠٤ .

وأيضاً، فلفظ الحروف مجمل، يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التي هي مباني الكلام، ويراد بها الحروف المكتوبة، ويراد بها الحروف المتخيلة في النفس، والصوت لا يكون كلاماً إلا بالحروف باتفاق الناس، وأما الحروف فهل تكون كلاماً بدون الصوت؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع، وقد يراد به نهاية الصوت وحده، وقد يراد بالحروف المداد، وقد يراد بالحروف شكل المداد، فالحروف التي تكلم الله بها غير مخلوقة، وإذا كتبت في المصحف قيل كلام الله المكتوب في المحف غير مخلوق، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة، والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق، فالمداد ٧٠/١٢ مخلوق بمادته وصورته، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق. ومن كلام الله/الحروف التي تكلم الله بها. فإذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقاً، وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الأمم.

والخط العربي قد قيل: إن مبدأه كان من الأنبار، ومنها انتقل إلى مكة وغيرها، والخط العربي تختلف صورته؛ العربي القديم فيه تكوف، وقد اصطلاح المتأخرون على تغيير بعض صوره، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى في نقط الحروف وترتيبها، وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط -كالقرآن العربي- هو في نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التي يكتب بها.

فإن قيل: فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه في كلام الخالق أو كلام المخلوق؟ فإن قلتم: هو من حيث هو غير مخلوق، لزم أن يكون غير مخلوق في كلام العباد، وإن قلتم: مخلوق لزم أن يكون مخلوقاً في كلام الله؟ قيل: قول القائل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو، والعلم من حيث هو هو، والقدرة من حيث هي هي، والوجود من حيث هو هو، ونحو ذلك.

والجواب عن ذلك: أن هذه الأمور وغيرها إذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا ٧١/١٢ مشخصة لم يكن لها حقيقة في الخارج عن الأذهان/إلا شيء معين، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق، ووجود كل مخلوق مختص به وإن كان اسم الوجود عاماً يتناول ذلك كله، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك، وليس في الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به، واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف وليس في الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين. وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ، وليس في الخارج إلا الحروف التي تكلم الله بها الموجودة في كلام الخالق، والحروف الموجودة في كلام المخلوقين. فإذا قيل: إن علم الرب وقدرته وكلامه غير

مخلوق، وحروف كلامه غير مخلوقة، لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق، وحروف كلامه غير مخلوقة.

وأيضاً ، فلفظ «الحرف» يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب، وإذا قيل: إن الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله: ﴿الم - وح - وطسم - وطس - ويس - وق - ون﴾ ونحو ذلك، فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق، وإذا كتب في المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وإن كان المداد وشكله مخلوقاً.

وأيضاً، فإذا قرأ الناس كلام الله، فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون/كلام الله؛ فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً ٧٢/١٢ أمراً يأمر به، أو خبراً يخبره، ليس هو كلام المبلغ له عن غيره؛ إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين. وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله، فيقال: هذا كلام الله، مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم، وقد يشار إلى نفس صفة العبد كحركته وحياته، وقد يشار إليهما، فالمشار إليه الأول غير مخلوق، والمشار إليه الثاني مخلوق، والمشار إليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق، وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً.

وإذا قال القائل: القاف في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] كالقاف في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل

قيل: ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين، ولكن إذا بلغنا كلام الله، فإنما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة، والمخلوق يماثل المخلوق.

وفي هذا جواب للطائفتين؛ لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة، فإن الجهمية المعطلة أشباه اليهود، والحلولية الممثلة/أشباه النصارى، دخلوا في ٧٣/١٢ هذا وهذا، أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التي تختص بالمخلوق؛ كالفقر والبخل، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله، والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يشبتون له ما يستحقه من صفات الكمال، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات؛ فإن المعطل يعبد عَدَمًا، والممثل يعبد صَنَمًا، والله - تعالى - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومما ينبغي أن يعرف: أن كلام المتكلم في نفسه واحد، وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به، فإذا أنشد المنشد قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كان هذا الكلام كلام لبيد، لفظه ومعناه، مع أن أصوات المنشدين له تختلف، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد، وكذلك من روى حديث النبي ﷺ بلفظه، كقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) كان هذا الكلام كلام رسول الله ﷺ، لفظه ومعناه، ويقال لمن رواه: أدى الحديث بلفظه، وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله، لفظه ومعناه، وإذا قرأه القراء فإنما يقرؤونه بأصواتهم.

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون: من قال: اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق فهو مبتدع. وفي بعض الروايات عنه: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق- يعني به القرآن- فهو جهمي؛ لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللفظ، وذلك كلام الله لا كلام القارئ، فمن قال: إنه مخلوق فقد قال: إن الله لم يتكلم بهذا القرآن، وأن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله، ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول.

وأما صوت العبد فهو مخلوق، وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد، ولم يقل أحد قط: من قال: إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، وإنما قال: من قال: لفظي بالقرآن، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير، ونفس اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد، وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه، منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات، الذي يقتضى جعل صفات الله مخلوقة، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق.

وقال أحمد: نقول: القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف، أي حيث تلى وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله، فهو كلامه، وكلامه غير مخلوق، وما كان من

(١) البخاري في بدء الوحي (١) ومسلم في الإمامة (١٥٥/١٩٠٧).

صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤون (١) ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق، ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار؛ فإنه معلوم أن القرآن واحدٌ وبقروءه خلق كثير، والقرآن لا يكثُر في نفسه بكثرة قراءة القراء، وإنما يكثُر ما يقرؤون (٢) به القرآن، فما يكثُر ويحدث في العباد فهو مخلوق، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به، وسمعه جبريل من الله، وسمعه محمد من جبريل، وبلغه محمد إلى الناس، وأنذر به الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُذَرُّكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] قرآن واحد، وهو كلام الله ليس بمخلوق.

وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان، كالإنسانية الموجودة في زيد وعمرو، ولا من باب ما يقول الإنسان مثل قول غيره، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فإن القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله، كما ٧٦/١٢ قال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدرُوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع قدرة كل قارئ على أن يقرأه ويبلغه.

فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن، وأما الحروف الموجودة في القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره، فليس هذا هو ذاك بعينه، بل هو نظيره، وإذا تكلم الله باسم من الأسماء؛ كآدم ونوح وإبراهيم، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التي تكلم الله بها، فإذا قرئت في كلامه فقد بلغ كلامه، فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاماً لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال: إن هذه الأسماء والحروف الموجودة في كلام العباد غير مخلوقة؛ فإن بعض من قال: إن الحروف والأسماء غير مخلوقة في كلام العباد ادعى أن المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات، وقائل هذا يلزمه أن يكون -أيضاً- النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره في القرآن كقوله: ﴿يَخِيحُ خُذِ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ١٢] وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتاباً بحضرته.

فإن قيل: يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القرآن، وإن كان اللفظ نظير اللفظ. قيل: كذلك/سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها في ٧٧/١٢ كلام العباد لا في كلام الله، وقولنا: «يوجد نظيرها في كلام الله» تقريب، أي يوجد فيما نقرؤه ونتلو؛ فإن الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم في القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك في غير القرآن، وكلا الصوتين مخلوق.

(١، ٢) في المطبوعة: «يقرؤون» والصواب ما أثبتناه.

وأما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له يماثل صفات المخلوقين ، وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه ، وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين ، فإذا قلنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه ، لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم ، وأما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن نقصد قراءة كلام الله فإنما نقصد ذكرًا ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا ، وننطق بلفظه بالسنتنا ، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن ، وإن كان نظيره في القرآن .

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع ، وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »^(١) ، فجعل النبي ﷺ هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن . فجعل درجتها دون درجة القرآن ، وهذا يقتضى أنها ليست من القرآن . ثم قال : « هي من القرآن » ، وكلا قوليه حق وصواب ؛ ٧٨/١٢ ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق . وقال : لا إله إلا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يقال : إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ، ولا يقال في التوراة والإنجيل : إنهما مخلوقان ، ولا يقال في الأحاديث الإلهية التي يرويها عن ربه : إنها مخلوقة ، كقوله : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا »^(٢) ، فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لا يكون قرآناً ، والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن ، وكلام الله كله غير مخلوق .

فإذا فهم هذا في مثل هذا ، فليفهم في نظائره ، وأن ما يوجد من الحروف والأسماء في كلام الله ويوجد في غير كلام الله يجوز أن يقال : إنه من كلام الله باعتبار ، ويقال : ليس من كلام الله باعتبار ، كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق ، فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق ، وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو إثبات القدم بشيء من صفات العباد وأعمالهم – لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والإيمان به – شاركهم في هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته ، بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد . مثال ذلك : أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله ، ٧٩/١٢ قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم . فقال الجهمي : أصوات العباد ومدادهم مخلوقة ، وهذا هو المسمى بكلام الله ، أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله ، فيكون كلام الله مخلوقاً .

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٠ .

(٢) مسلم في البر والصلة (٥٥/٢٥٧٧) .

وقال الحلولي الاتحادي - الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق-الذي نسمعه من القراء هو كلام الله، وإنما نسمع أصوات العباد، فأصوات العباد بالقرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق فأصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة، ثم قالوا: الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه أو مثل هذه فتكون غير مخلوقة، وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة، كما زعم بعضهم أن الأعمال من الإيمان وهو غير مخلوق، والأعمال غير مخلوقة. وزاد بعضهم أعمال الخير والشر، وقال: هي القدر والشرع المشروع، وقال عمر: ما مرادنا بالأعمال الحركات، بل الثواب الذي يأتي يوم القيامة، كما ورد في الحديث الصحيح: «إنه تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف»^(١)، فيقال له: وهذا الثواب مخلوق. وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق، وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث، فقالوا له: الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لا نفس القرآن، وثواب القرآن مخلوق، إلى أمثال هذه الأقوال التي ابتدئها طوائف، والبدع تنشأ شيئاً فشيئاً، وقد بسط الكلام في هذا الباب في مواضع آخر.

/وقد بينا أن الصواب في هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السابقين ٨٠/١٢ الأولين والتابعين لهم بإحسان، وهو ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الإسلام ومن وافق هؤلاء، فإن قول الإمام أحمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول، ودل عليه الكتاب والسنة، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية، وطلب منهم تعطيل الصفات، وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة ونحو ذلك - ثبت الله الإمام أحمد في تلك المحنة؛ فدفع حجج المعارضين النفاة، وأظهر دلالة الكتاب والسنة، وأن السلف كانوا على الإثبات، فأناه الله من الصبر واليقين ما صار به إماماً للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا^(٢) مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ولهذا قيل فيه - رحمه الله - : عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأبأها، فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام في بيانها وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره، فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه.

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة في هذه الأبواب

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٢/٨٠٤) وأحمد ١٨٣/٤.

(٢) في المطبوعة: «وجعلناهم» والصواب ما أثبتناه.

في غير هذا الموضع، وبيننا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح ٨١/١٢ المعقول، وأن العقل الصريح لا يخالف/النقل الصحيح، ولكن كثيراً من الناس يغفلون، إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إليّ من حفظه، أي معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه. والفقه فيه: معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعية، أحب إليّ من أن يحفظ من غير معرفة وفقه. وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء، فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول أو بلفظ ثابت عن الرسول وحمله على ما لم يدل عليه، فإنما أتى من نفسه.

وكذلك العقلية الصريحة، إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً، لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده، وصفاته وصدق رسله، وبها يعرف إمكان المعاد. ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس، بل عامة ما يأتي به حذاق النظر من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها، وبما هو أحسن منها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

٨٢/١٢ / وأما الحجج الداحضة التي يحتج بها الملاحدة، وحجج الجهمية معطلة الصفات، وحجج الدهرية وأمثالها؛ كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنفون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات — ففيها من الجهل والتناقض والفساد، ما لا يحصى إلا رب العباد، وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع أخرى.

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين، أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول، وما كان عليه السلف، ومعرفة المعقول الصريح؛ فإن هذا هو الكتاب، وهذا هو الميزان: وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وهذه المسألة لا تحتل البسط على هذه الأمور؛ إذ كان المقصود هنا التنبيه على أن هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق، ثم قال هؤلاء: وصفة المخلوق مخلوقة، فصفة الرب

مخلوقة ، فقال هؤلاء : صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة . ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله ، فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد ؛ خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن ، ولا بشيء من الكتب الإلهية ، لا التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما ، وأنه لم يناد^{٨٣/١٢} موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ، ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وأن ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائماً بهم حالا فيهم ، بل يكون ظاهراً عنهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا في «حروف المعجم» صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين ، فقالت : الحرف حرفان ، هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم ، فأنكر ذلك عليهم الأكثرون وقالوا : هذا مخالفة للحس والعقل ؛ فإن حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا : الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزبيني^(١) مصنفًا خالف به شيخه القاضي أبا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي أن يعلم أن ما سطرته في هذه المسألة أن ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وإمامنا القاضي أبي يعلى بن الفراء ، وإن كان قد نصر خلاف ما ذكرته في هذا الباب ، فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه ، فإني ما رأيت أحسن سمناً منه ، ولا أكثر اجتهاداً منه ، ولا تشاغلاً بالعلم ، مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم ، والقناعة في الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الأخلاق شيئاً من نفر من الدنيا .

وذكر القاضي يعقوب في مصنفه : أن ما قاله قول أبي بكر أحمد بن المسيب^{٨٤/١٢} الطبري ، وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان ، وأنه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبه قاضي حرّان يقول : هو مذهب العلوي الحراني ، وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا ؛ كأبي محمد الكشغل وإسماعيل الكلّواذاني في خلق من أتباعهم يقولون : إنها قديمة ، قال القاضي أبو يعلى : وكذلك حكى لي عن طائفة بالشام أنها تذهب إلى ذلك منهم النابلسي وغيره ، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع في آخر عمره إلى هذا . وذكره عن الشريف أبي علي ابن أبي موسى ، وتبعهم في ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر أتباعه ، وأبو الحسن بن الزاغوني وأمثاله . وذكر القاضي يعقوب أن كلام أحمد يحتمل القولين .

(١) في المطبوعة : «البرزيني» وهو خطأ . انظر : اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١٣٧ . وهو يعقوب بن إبراهيم البرزبيني ، من فقهاء الخنابلة ، من أهل «برزين» من قرى بغداد ، تفقه ببغداد ، وولى بها قضاء باب الأراج ، له كتب في الأصول والفروع منها «التعليقة» في الفقه والخلاف ، ولد سنة ٤٠٩ هـ ، وتوفي سنة ٤٨٦ هـ . [اللباب ١/ ١٣٧ ، والأعلام ٨/ ١٩٤] .

وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له: إن سريا السقطي قال: لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت: لا أسجد حتى أومر. فقال أحمد: هذا كفر. وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله: كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق، ويقول: لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن، كما لا تتم بغيره من كلام الناس. ويقول ٨٥/١٢ أحمد/أحمد بن الحسن الترمذي: ألسنت مخلوقاً؟ قال: بلى، قال: أليس كل شيء منك مخلوقاً؟ قال: بلى، قال: فكلامك منك وهو مخلوق.

قلت: الذي قاله أحمد في هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضاً، وليس في كلامه تناقض، وهو أنكره على من قال: إن الله خلق الحروف؛ فإن من قال: إن الحروف مخلوقة كان مضمون قوله: إن الله لم يتكلم بقرآن عربي، وأن القرآن العربي مخلوق، ونص أحمد - أيضاً - على أن كلام الآدميين مخلوق، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق، وكل هذا صحيح، والسري - رحمه الله - إنما ذكر ذلك عن بكر بن حنيس العابد، فكان مقصودهما بذلك أن الذي لا يعبد الله إلا بأمره، هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله، واستشهدا على ذلك بما بلغهما: «أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقالت: لا أسجد حتى أومر»، وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجة في شيء، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة في الخط، ليست هي مضطجعة كالباء والتاء، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر.

وأحمد أنكر قول القائل: «إن الله لما خلق الحروف»، وروي عنه أنه قال: من قال: إن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي؛ لأنه سلك طريقاً إلى البدعة، ومن قال: إن ذلك مخلوق فقد قال: إن القرآن مخلوق. وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وصرح أن الله يتكلم بمشيئته، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الإسماع؛ لأنه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته.

وصرح أحمد وغيره من السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يقل أحد من السلف: إن الله تكلم بغير مشيئته وقدرته، ولا قال أحد منهم: إن نفس الكلام المعين كالقرآن أو نداءه لموسى أو غير ذلك - من كلامه المعين - أنه قديم أزلي لم يزل ولا يزال، وأن الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال، فإن هذا لم يقله ولا دل عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح في نقيض هذا، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء، مع قولهم: إن كلام الله غير مخلوق، وأنه منه بدأ، ليس بمخلوق ابتداءً.

من غيره، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة في الكتب الثابتة عنهم، مثل ما صنف أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» وغيره، وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه؛ كنبه صالح وعبد الله، وحنبل، وأبي داود السجستاني صاحب «السنن» والأثرم، والمروزي، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والبخاري صاحب الصحيح، وعثمان بن سعيد الدارمي، وإبراهيم الحربي، وعبد الوهاب الوراق،/وعباس بن عبد العظيم العنبري، وحرب بن إسماعيل الكرمانى، ومن ٨٧/١٢ لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخبره؛ كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر الخلال، وأبي الحسن البنانى الأصبهاني، وأمثال هؤلاء، ومن كان - أيضاً - يأتى به وبأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع، كأبي عيسى الترمذي - صاحب الجامع - وأبي عبد الرحمن النسائي وأمثالهما، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله، ويسط هذا له موضع آخر.

وقد ذكرنا في «المسائل الطبرستانية» و «الكيلانية» بسط مذاهب الناس، وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل.

والمقصود هنا أن كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة، فمنهم من يعظمهم ويقول: إنه متبع لهم، مع أنه مخالف لهم من حيث لا يشعر، ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية، وذلك لجهله بعلمهم، بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية، فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد، ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها، كما صرحوا في تكلم الله - تعالى - بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية، وما فيهما من حروف الهجاء مؤلفاً أو مفرداً، لما رأوا أن ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين، فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق، ٨٨/١٢ فقال هؤلاء: هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق.

وقال هؤلاء: هذا الذي من كلام الأدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق. كما ذكر ابن عقيل في «كتاب الإرشاد» عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق، فقال: شبهة اعترض بها على بعض أئمتهم. فقال: أقل ما في القرآن من أمارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا، والتقديم لا يشبه المحدث، ومعلوم أنه لا يمكن دفع ذلك؛ لأن قول القائل لغلامه يحيى: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، يضاهي قوله سبحانه، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه، وإذا اشتبه إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده،

مع أنه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهدًا للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والأخبار، ولا مانع من ذلك، فلما فرغنا نحن وأنتم إلى نفي التشبيه خوفًا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه، حتى إن بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما: إن الكلام واحد والحروف غير مخلوقة، فكيف يجوز أن يقال في الشيء الواحد: إنه قديم محدث.

٨٩/١٢ /قلت: وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الأصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزنجي^(١) ذكره في مصنفه فقال: (دليل عاشر) وهو أن هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التي في كتاب الله - تعالى - وفي أسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم؛ وكذلك هاهنا. قال: فإن قيل: لا نسلم أن تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها، قيل: لا نسلم، بل لها حرمة.

فإن قيل: لو كان لها حرمة لوجب أن تمتنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها، قيل: قد لا تمتنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لا تمتنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة، وإنما لم تمتنع من قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها، كما يقال في الصبي: يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه.

فإن قيل: فيجب إذا حلف بها حالف أن تنعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث، قيل له: كما في حروف القرآن مثله نقول هنا.

فإن قيل: أليس إذا وافقها في هذه المعاني دل على أنها هي، ألا ترى أنه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق صفتها صفة مافي كتاب الله - تعالى - مثل قوله: يا داود، يا نوح، يا يحيى، وغير ذلك؛ فإنه موافق لهذه الأسماء التي في كتاب ٩٠/١٢ الله، وإن كانت في كتاب الله قديمة وفي خطاب الآدمي محدثة؟

قيل: كل ما كان موافقًا لكتاب الله من الكلام في لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله، وإن قصد به خطاب آدمي.

فإن قيل: فيجب إذا أراد بهذه الأسماء آدميًا وهو في الصلاة ألا تبطل صلاته.

قيل له: كذلك نقول، وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره، إذ ناداه رجل من الخوارج: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَجْبُنَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] قال: فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

(١) في المطبوعة: «البرزنجي» وهو خطأ.

[الروم: ٦٠]. وعن ابن مسعود أنه استأذن عليه بعض أصحابه فقال: ﴿أَدْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

قال: فإن قيل: أليس إذا قال: ﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقاً؟ وإن نوى به القرآن يكون قديماً، قيل له: في كلا الحالين يكون قديماً؛ لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل، والمحدث عبارة عما حدث بعد أن لم يكن، والنية لا تجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً، قال: ومن قال هذا فقد بالغ في الجهل والخطأ.

/وقال — أيضاً —: كل شيء يشبه بشيء ما فإنما يشبهه في بعض الأشياء دون ٩١/١٢ بعض، ولا يشبهه من جميع أحواله؛ لأنه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها. اهـ.

قلت: هذا كلام القاضي يعقوب وأمثاله، مع أنه أجلّ من تكلم في هذه المسألة، ولما كان جوابه مشتملاً على ما يخالف النص والإجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به.

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا: هذا مثل هذا، بأن قال الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث، كما أن كونه عالماً هو تبيينه للشيء على أصلكم، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يبينه الواحد منا، وليس مماثلاً لنا في كوننا عالمين. وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه — سبحانه وتعالى — وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها، فليس الاشتراك في الحقيقة حاصلًا، والافتراق في القدم والحدوث حاصل.

قال: وجواب آخر: لا نقول: إن الله يتكلم بكلامه على/الوجه الذي يتكلم به زيد، ٩٢/١٢ بمعنى: أنه يقول: يا يحيى، فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله: خذ الكتاب بقوة، وترتب في الوجود كذلك، بل هو — سبحانه وتعالى — يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا، فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل: يا يحيى خذ الكتاب، يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث، فأما أنه يشابه الكلام القائم بذاته فلا.

قال ابن عقيل: قالوا: فهذا لا يجيء على مذهبكم؛ فإن عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء. قيل: ليس معنى قولنا: هي المتلو، أنها هذه الأصوات المقطعة، وإنما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة في الأصوات المحدثه، وظهورها في المحدث لا بد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الأنفاس، وإدارة اللهوات؛ لأن الآلة التي تظهر عليها لا تحمل الكلام إلا على وجه التقطيع، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع، والابتداء، والانتهاء، والتكرار، والبعدية، والقبلية.

ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم، وادعى قدم الأعراض وتقطع القديم ، وتقطع القديم عرض لا يقوم بقديم، ومن اعتقد أن كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالي من القطع والوصل، والتقريب والتباعد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه؛ ولهذا روى في الخبر «أن موسى سأله بنو إسرائيل: كيف سمعت كلام ربك؟ قال: كالرعد الذي لا يترجع»^(١) يعني: ينقطع، لعدم قطع الأنفاس وعدم الأنفاس، والآلات ٩٣/١٢ والشفاه/واللهوات، ومن قال غير ذلك وتوهم أن الله تكلم على لسان التالي، أو الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل، والتقريب والتباعد- فقد حكم به محدثاً؛ لأن الدلالة على حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق؛ ولأن هذه من صفات الأدوات. اهـ.

قلت: فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزبيني^(٢)، فإن ذلك مخالف للنص والإجماع والعقل مخالفة ظاهرة؛ فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أن من تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالماً بالتحريم بطلت صلاته بالإجماع، خلاف ما ذكره القاضي يعقوب، ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالإجماع، وإن قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع، وظاهر مذهب أحمد: لا تبطل، كمذهب الشافعي وغيره. وقيل: تبطل، كقول أبي حنيفة وغيره.

وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم، فإن قول علي بن أبي طالب: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] هو كلام الله، ولم يقصد علي أن يقول للخارجي: ولا يستخفنك الخوارج؛ وإنما قصد أن يسمعه الآية، وأنه عامل بها صابر، لا يتخفه الذين لا يوقنون، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، ومعلوم أن مصر - بلا تنوين - هي مصر المدينة، وهذه لم تكن بالكوفة. وابن مسعود إنما كان بالكوفة؛ فعلم أنه قصد تلاوة الآية، ٩٤/١٢ وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول: فإنهم سمعوا قوله: «ادخلوا». فعلموا أنه أذن لهم في الدخول، وإن كان هو تلا الآية فهذا هذا.

وأما جواب ابن عقيل فبناء على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما، وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري وغيره، وهو أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وأنه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته؛ لامتناع قيام

(١) ابن الجوزي في الموضوعات ١/١١٢، ١١٣.

(٢) في المطبوعة: «البرزني» والصواب ما أثبتناه.

الأمور الاختيارية به عندهم؛ لأنها حادثة، والله لا يقوم به حادث عندهم؛ ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] فإن هذا يقتضي أنه سيرى الأعمال في المستقبل، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقوله: ﴿أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، وكذلك قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فإن هذا يقتضي أنه قال لهم بعد خلق آدم، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١] يقتضي أنه نودي لما أتاه، لم يناد قبل ذلك، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ومثل هذا في القرآن كثير.

/ وهذا الأصل هو مما أنكره الإمام أحمد على ابن كلاب وأصحابه، حتى على الحارث ٩٥/١٢ المحاسبي مع جلالة قدر الحارث، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية، وقال: احذروا من حارث، الآفة كلها من حارث، فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الإمام أحمد عنه، ومع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل، وقد قيل: إن الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتكلم بصوت، كما حكى عنه ذلك صاحب «التعرف لمذهب التصوف» أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي.

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع آخر.

واختلف كلام ابن عقيل في هذا الأصل، فتارة يقول بقول ابن كلاب، وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث: أن الله تقوم به الأمور الاختيارية، ويقول: إنه قام به أبصار متجددة حين تجدد المراتب لم تكن قبل ذلك، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولاً أنه سيوجد، كما دل على ذلك عدة آيات في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] وغير ذلك، وكلامه في هذا الأصل وغيره يختلف، تارة يقول بهذا، وتارة يقول بهذا؛ فإن هذه المواضع /مشكلة كثر ٩٦/١٢ فيها غلط الناس؛ لما فيها من الاشتباه والالتباس.

والجواب الحق: أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين، كما لا يماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين، وقول القائل: إن الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك

في الحدوث لفظ مجمل، فإننا إذا قلنا: لله علم ولنا علم، أو له قدرة ولنا قدرة، أو له كلام ولنا كلام، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت، وقلنا: صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة- فإن أريد بذلك أن حقيقتيهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع، وإن أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه في الحقيقة، وإنما اختلفتا في الصفات العرضية، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام- وقد بين فساد ذلك في الكلام على «الأربعين» للرازي وغير ذلك فهذا أيضاً من أبطل الباطل، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري - عز وجل - مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين.

وإن أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح، كما أنه إذا قيل: إنه موجود أو أن له ذاتا فقد اشتركا في مسمى الوجود والذات، لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الأعيان، فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الأجزاء في الكل، ٩٧/١٢ فإنه يجب الفرق بين قسمة الكلى إلى جزئياته، كقسمة الحيوان إلى/ناطق وغير ناطق، وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر، وقسمة الاسم إلى معرب ومبني، وقسمة الكل إلى أجزائه؛ كقسمة العقار بين الشركاء، وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ففي الأول إنما اشتركت الأقسام في أمر كلي، فضلاً عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود في الخارج، وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق، بل كل ما يوصف به الرب - تعالى - فهو مخالف بالحد والحقيقة، لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق، وإذا كان المخلوق مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة، فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم، ولقدرته حقيقة القدرة، ولكلامه حقيقة الكلام، كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية، ولوجوده حقيقة الوجود، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه.

فهذا هو المراد بقولنا: علمه يشارك علم المخلوق في الحقيقة، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلاً لما سمعه موسى من صوته، إلا كما يشبه ويمثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين، فهذا في نفس تكلمه- سبحانه وتعالى - بالقرآن، والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من أصوات العباد.

٩٨/١٢ /ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغاً عنه لا مسموعاً منه، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا، الكلام

كلام الباري، والصوت صوت القارئ ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١)، وقال الإمام أحمد في قول النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»^(٢) قال: يزينه ويحسنه بصوته، كما قال: «زينوا القرآن بأصواتكم».

فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة أنا نقرأ القرآن بأصواتنا، والقرآن كلام الله كله، لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد ، وسمعه محمد منه، وبلغه محمد إلى الخلق، والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض، وسمعه بعضهم من بعض، ومعلوم أنهم إذا سمعوا كلام النبي ﷺ وغيره فبلغوه عنه، كما قال: «نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ حَدِيثًا فَلَبَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ»^(٣)، فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تكلم بها وبلغوا لفظه بأصوات أنفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفظ، واللفظ المبلغ هو لفظ الرسول وهو كلام الرسول؛ فإنه كان صوت/المبلغ ليس صوت الرسول، وليس ما قام بالرسول من الصفات والأعراض فارقته ٥٩/١٢ وما قامت بغيره، بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله، وإذا كان هذا معقولا في صفات المخلوقين فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال، وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قد بسطت في مواضع أخرى. هذا مع أن احتجاج الجهمية والمعتزلة بأن كلام المخلوق بقوله: ﴿يَبْخَيْ خُدَّ الْكِتَابِ يَقُوقُ﴾ [مريم: ١٢] مثل كلام الخالق، غلط باتفاق الناس حتى عندهم؛ فإن الذين يقولون: هو مخلوق يقولون: إنه خلقه في بعض الأجسام، إما الهواء أو غيره، كما يقولون : إنه خلق الكلام في نفس الشجرة فسمعه موسى .

ومعلوم أن تلك الحروف والأصوات التي خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد، وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم، كما أن أهل السنة يقولون : الذي تكلم هو الله بمشيئته، وليس ذلك مماثلا لصوت العبد.

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٤١٣ .

(٣) أبو داود في العلم (٣٦٦٠) عن زيد بن ثابت ، والترمذي في العلم (٢٦٥٧) وقال: «حسن صحيح» ، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠) وأحمد ٣٢٧/١ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود . وقوله: «نَصَرَ»: من التضارة ، وهي حسن الوجه والبريق وإنما أراد : حسن الله خَلْقَهُ وقدره . انظر: النهاية ٧١/٥ .

١٠٠/١٢ / وأما القائلون بقدوم الكلام المعين، سواء كان معنى أو حروفاً أو أصواتاً، فيقولون: خلق لموسى إدراكاً أدرك به ذلك القديم، وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه غير ما قام بنفس المتكلم المنشئ فكيف لا يكون ذلك في كلام الله تعالى؟

فيجب على الإنسان في «مسألة الكلام» أن يتحرى أصليين:

أحدهما: تكلم الله بالقرآن وغيره، هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه في غيره؟

والثاني: تبليغ ذلك الكلام عن الله، وأنه ليس مما يتصف به الثاني، وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ، وبسط هذا له موضع آخر.

وأيضاً، فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما: إنها قديمة، وليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث، وقال الآخر: إنها ليست بكلام الله وأنها مخلوقة بشكلها ونقطها، قد يفهم من هذا أنهما أرادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس في شكلها ونقطها؛ فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة؛ لأنهم إنما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف، وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور، ولو عدت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة؛ فإن المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغير، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه في قلبه، لم ينزله مكتوباً ١٠١/١٢ كالتوراة، وأنزله منجماً مفرقاً ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ الآية [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ الآية [القيامة: ١٧].

وفي الصحيح عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك شفثيه، فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان النبي ﷺ يحركهما، فحرك شفثيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] أي: نبينه بلسانك، فكان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه؛ فهذا لم تكن الصحابة ينقون المصاحف ويشكلونها، وأيضاً كانوا عرباً لا يلحنون؛ فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط، وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل: يعملون وتعملون. فلم يقيدوه بأحدهما ليمنعوه من الأخرى.

ثم إنه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها، وكانوا يعملون ذلك بالحمرة، ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف، والكسرة بنقطة حمراء تحته، والضممة بنقطة حمراء/أمامه، ثم مدوا النقطة وصاروا ١٠٢/١٢ يعملون الشدة بقولك: «شد»، ويعملون المدة بقولك: «مد»، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين؛ لأن الهمزة أخت العين، ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين، وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان ألفاظ العدد وغير ذلك، وكما يختصر المحدثون «أخبرنا وحدثنا»، فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل «أنا» وعلى شكل «ثنا».

وتنازع العلماء، هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها؟ على قولين معروفين، وهما روايتان عن الإمام أحمد، لكن لا نزاع بينهم أن المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط، كما يجب احترام الحرف، ولا تنازع بينهم أن مداد النقطة والشكل مخلوق، كما أن مداد الحرف مخلوق، ولا نزاع بينهم أن الشكل يدل على الإعراب، والنقط يدل على الحروف، وأن الإعراب من تمام الكلام العربي.

ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالاً: حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه، ولا ريب أن النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما، ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه، ويجب الاعتناء بإعرابه، والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق، كذلك يبين الشكل المكتوب للإعراب المنطوق.

/فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاماً ظهر لهم الصواب، وقُلْتُ ١٠٣/١٢
الاهواء والعصبيات، وعرفوا موارد النزاع، فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له، وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم - في صحيحه - عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وقول القائل الآخر: «كلامه كتب بها»: يقتضي أنه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب، كما قال النبي ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، قال الترمذي: حديث

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠/ ٢٠٠) والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠).

صحيح^(١) . فهنا لم يرد النبي ﷺ بالحرف نفس المداد وشكل المداد، وإنما أراد الحرف المنطوق، وفي مراده بالحرف قولان: قيل هذا اللفظ المفرد. وقيل: أراد ﷺ بالحرف الاسم، كما قال: ألف حرف، ولام حرف، وسيم حرف.

١٠٤/١٢ ولفظ «الحرف» و «الكلمة» له في لغة العرب التي كان النبي ﷺ يتكلم بها معنى، وله في اصطلاح النحاة معنى. فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة، الجملة الإسمية أو الفعلية، كما قال النبي ﷺ - في الحديث المتفق على صحته -: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٢)، وقال ﷺ: «إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٣)، وقال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة»^(٤)، وقال لأم المؤمنين: «لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»^(٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقوله: ﴿وَالزَّمِيمَةُ كَلِمَةٌ تَفُوتُ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَنَّوْا أَنْ كَلِمَةً سَلَوَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقول النبي ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٦) ونظائره كثيرة.

١٠٥/١٢ ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ «الكلمة» إلا والمراد به الجملة التامة. فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك، بل يظنون أن اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب، والفاضل منهم يقول:

وكلمة بها كلام قد يؤم

ويقولون: العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد، وهذا

(١) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠) عن ابن مسعود، وقال: «حسن صحيح غريب».

(٢) البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٣١/٢٦٩٤).

(٣) البخاري في الأدب (٦١٤٧) ومسلم في الشعر (٣/٢٢٥٦).

(٤) البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) والترمذي في الزهد (٢٣١٩).

(٥) مسلم في الذكر والدعاء (٧٩/٢٧٢٦) والترمذي في الدعوات (٣٥٥٥).

(٦) البخاري في العلم (١٢٣) ومسلم في الإمامة (١٤٩/١٩٠٤) وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧).

غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة.

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على أن القديم هو ما لا أول لوجوده أو ما لم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم: وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره، سواء كان أزلياً أو لم يكن، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّحُوا بِلُحْيَتِهِمْ فَذُكِّرُوا﴾ [الأحقاف: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦] ، وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحى ، ولا ريب أنه أولى بالقدم في لغة العرب؛ ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بإزاء القديم، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وهذا يقتضى أن الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم. وهذا موافق للغة العرب التي نزل بها القرآن، ونظير هذا لفظ ١٠٦/١٢ «القضاء»، فإنه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادات، وإن كان ذلك في وقتها، ما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ شَأْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ثم اصطلاح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ «القضاء» مختصاً بفعلها في غير وقتها، ولفظ «الاداء» مختصاً بما يفعل في الوقت، وهذا التفريق لا يعرف قط في كلام الرسول ، ثم يقولون: قد يستعمل لفظ القضاء في الاداء ، فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر.

ولهذا يتنازعون في مراد النبي ﷺ: «فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاقضوا»^(١) وفي لفظ: «فأتموا» فيظنون أن بين اللفظين خلافاً وليس الأمر كذلك، بل قوله: «فأتموا» كقوله: «فأتموا» لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت، بل لا يوجد في كلام الشارع أمر بالعبادة في غير وقتها، لكن الوقت وقتان: وقت عام ووقت خاص لأهل الاعذار؛ كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر، فإنما صليا في الوقت الذي أمر الله به؛ فإن هذا ليس وقتاً في حق غيرهما.

ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله، أن ينشأ الرجل/على اصطلاح ١٠٧/١٢ حادث، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحملة على تلك اللغة التي اعتادها.

وما ذكر في مسمى «الكلام» ما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب، فقال: واعلم «أن» في كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاماً قولاً؛ وإلا

(١) البخاري في الأذان (٦٣٦) والترمذي في الصلاة (٣٢٧) وابن ماجه فى المساجد والجماعات (٧٧٥) كلهم عن أبي هريرة.

فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة في كلام العرب، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعاني واسم حروف الهجاء؛ ولهذا سأل الخليل أصحابه: كيف تنطقون بالزاي من زيد؟ فقالوا: زاي، فقال نطقتم بالاسم، وإنما الحرف زه؛ فبين الخليل أن هذه التي تسمى حروف الهجاء هي أسماء.

وكثيراً ما يوجد في كلام المتقدمين هذا «حرف من الغريب» يعبرون بذلك عن الاسم التام، فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فله بكل حرف» مثله بقوله: «ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(١). وعلى نهج ذلك؛ وذلك حرف، والكتاب حرف، ونحو ذلك. وقد قيل: إن ذلك أحرف والكتاب أحرف، وروى ذلك مفسراً في بعض الطرق.

١٠٨/١٢ والنحاة اصطلاحوا اصطلاحاً خاصاً، فجعلوا لفظ «الكلمة» يراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعاني؛ لأن سيبويه قال في أول كتابه: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل. فجعل هذا حرفاً خاصاً، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب، وقد عرف أنهم يسمون الاسم أو الفعل حرفاً، فقيّد كلامه بأن قال: وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى أجزائه لا قسمة الكلى إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بأن القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة، فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء، كذلك الكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم إليها وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه، كما يقال: الاسم ينقسم إلى معرب ومبني.

وجاء الجزولي^(٢) وغيره، فاعترضوا على النحاة في هذا ولم يفهموا كلامهم، فقالوا: كل جنس قسم إلى أنواعه أو أشخاص أنواعه، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص وإلا فليست أقساماً له، وأرادوا بذلك الاعتراض على قول الزجاج: الكلام اسم وفعل وحرف. والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة، وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة، وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار ١٠٩/١٢ والمال، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات - التي لا توجد كليات إلا في الذهن - كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني؛ فإن المقسم هنا هو معنى

(١) سبق تخريجه ص ٤٤٠.

(٢) هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت الجزولي المراكشي، من علماء العربية، ولى خطابة مراكش، من كتبه: «الجزولية» رسالة في النحو، و«شرح قصيدة: بانت سعاد»، ولد سنة ٥٤٠ هـ، وتوفى بمراكش سنة ٦٠٧. [الأعلام ٥/١٠٤].

عقلي كلي لا يكون كلياً إلا في الذهن .

فصل

ولفظ « الحرف » يراد به حروف المعاني التي هي قسيمة الأسماء والأفعال، مثل حروف الجر والجزم، وحرفي التنفيس، والحروف المشبهة للأفعال مثل: «إنَّ وأخواتها»، وهذه الحروف لها أقسام معروفة في كتب العربية، كما يقسمونها بحسب الإعراب إلى ما يختص بالأسماء وإلى ما يختص بالأفعال، ويقولون: ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر، وإنَّ وأخواتها في الأسماء، وكما تعمل النواصب والجوازم في الأفعال، بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس؛ كالسين وسوف فإنهما لا يعملان لأنهما كالجزء من الكلمة، ويقولون: كان القياس في «ما» أنها لا تعمل؛ لأنها تدخل على الجمل الإسمية والفعلية، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لـ «ليس»، وبلغتهم جاء القرآن في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] ﴿مَا هُتَّ أَتْمَنَهُمُ﴾ [المجادلة: ٢].

/ويقسمون الحروف باعتبار معانيها إلى حروف استفهام، وحروف نفي، وحروف ١١٠/١٢ تحضيض وغير ذلك، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائي و ثلاثي ورباعي وخماسي. فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحاة بالتخصيص، وإلا فلفظ الحرف في اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال، وحروف الهجاء تسمى حروفاً وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور؛ لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة.

وتقسم تقسيماً آخر إلى حروف حَلْقِيَّةٍ وَشَفْهِيَّةٍ، والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف، واشتملت من كل صنف على أشرف نصفه: على نصف الحلقيّة، والشفهية، والمطبقة، والمصمتة، وغير ذلك من أجناس الحروف.

فإن لفظ «الحرف» أصله في اللغة هو: الحد والطرف، كما يقال: حروف الرغيف وحرف الجبل. قال الجوهري: حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ [الحج: ١١]، فإن طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقراً؛ فلهذا كان من عِبَدَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ دون الضراء عابداً له على حرف؛ تارة يظهره وتارة ينقلب

/على وجهه، كالواقف على حرف الجبل، فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام ١١١/١٢ وحده ومنتهاه؛ إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم، ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه

ولسانه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨، ٩] فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا.

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سَمُّوا ذلك حروفاً، فيراد بالحرف الشكل المخصوص، ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم، ويراد به المادة، ويراد به مجموعها، وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت بأسمائها؛ إذا كان الإنسان يكتب اللفظ بقلمه؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فيبين - سبحانه - في أول ما أنزله أنه - سبحانه - هو الخالق الهادي الذي خلق فَسَوَى، والذي قَدَّرْ فهدى، كما قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ثم ذكر أنه علم؛ فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات.

١١٢/١٢ والعلم له ثلاث مراتب: علم بالجنان، وعبرة باللسان، وخط/بالبنان؛ ولهذا قيل: إن لكل شيء أربع وجودات: وجود عيني، وعلمي، ولفظي، ورسمي. وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، واللسان، والبنان، لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء، وأما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي في القلوب، والعبرة عن ذلك هو اللساني، وكتابة ذلك هو الرسمي البناني، والتعليم الخط يستلزم تعليم العبرة واللفظ، وذلك يستلزم تعليم العلم فقال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث، وأطلق التعليم، ثم خص، فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وقد تنازع الناس في وجود كل شيء، هل هو عين ماهيته أم لا؟ وقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع، وبين أن الصواب من ذلك أنه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان، وبالماهية ما يتصور في الأذهان، فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت في الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان، لكن الله خلق الموجود الثابت في الأعيان وعلم الماهيات المتصورة في الأذهان، كما أنزل بيان ذلك في أول سورة أنزلها من القرآن، وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما؛ ما هو متحقق في الأعيان، وما هو متحقق في الأذهان، فإذا أريد بهذا وهذا ما هو متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان، فليس هما في الأعيان اثنان، بل هذا هو هذا. وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك ١١٣/١٢ الصورة/هي المثال الذي تصورها، وذلك هو وجودها الذهني الذي تتصوره الأذهان، فهذا فصل الخطاب في هذا الباب.

ومن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقد بسط الكلام على أصول هذه المسائل وتفصيلها في مواضع أخرى؛ فإن الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل: «مسألة الكلام حيرت عقول الأنام». ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير؛ فإنهما سألًا بحسب ما سمعاه واعتقدها وتصورها، فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الالفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والإثبات من غير تفصيل، فلا بد له أن يقابله آخر بمثل إطلاقه.

ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الالفاظ نوعان: نوع جاء به الكتاب والسنة، فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك، فيثبت ما أثبتته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله، فاللفظ الذي أثبتته الله، أو نفاه حق؛ فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والالفاظ/الشرعية لها حرمة. ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما ١١٤/١٢ أثبتته وينفي ما نفاه من المعاني؛ فإنه يجب علينا أن نصدق في كل ما أخبر، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان. وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأما الالفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره.

ثم التعبير عن تلك المعاني، إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها؛ بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي؛ فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة، ومعانٍ مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره، فضلاً عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث.

/ وكثير من الكتب المصنفة في «أصول علوم الدين» وغيرها، تجد الرجل المصنف فيها ١١٥/١٢ في «المسألة العظيمة» كمسألة القرآن والرؤية، والصفات والمعاد، وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة، والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب، بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به، وهذا من أسباب توكيد التفريق

والاختلاف بين الأمة، وهو مما نهيت الأمة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦] قال ابن عباس: تَبْيَضَّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتَسْوَدَّ وجوه أهل البدعة والفرقة.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وقد خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، وهذا يقول: ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول: ألم يقل الله كذا؟ فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فافعلوه، وما نهيتم عنه فاجتنبوه» (١). ومما أمر الناس به : أن يعملوا بمحكم القرآن، ويؤمنوا بمتشابهه.

١١٦/١٢ / قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد كتبت في أصول هذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة ، ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز في قعدة واحدة، والله تعالى يهدينا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه، والحمد لله رب العالمين.

(١) الترمذي في القدر (٢١٣٣) وقال : «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري ، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها » وأبو يعلى (٦٠٤٥) ، كلاهما عن أبي هريرة ، ورواه أبو يعلى (٣١٢١) عن أنس بن مالك ، والهيتمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٥ وقال: « رواه أبو يعلى وفيه يوسف ابن عطية متروك ».

فصل

في بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ. وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُوا وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٣].

فأمره أن يقول: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، فإن الضمير في قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ عائد على ما في قوله: ﴿بِمَا يُزَكِّي﴾ والمراد به القرآن، كما يدل عليه سياق الكلام وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي﴾ فيه إخبار الله بأنه أنزله، لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن ١١٨/١٢ روح القدس نزل به، ولا أنه منزل منه.

ولفظ «الإنزال» في القرآن قد يرد مقيداً بالإنزال منه؛ كنزول القرآن، وقد يرد مقيداً بالإنزال من السماء ويراد به العلو؛ فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الإنزال، بل ربما يتناول الإنزال من رؤوس الجبال، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء وغير ذلك. فقوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، بيان لنزول جبريل به من الله؛ فإن روح القدس هنا هو جبريل؛ بدليل قوله: ﴿مَنْ كَانَتْ عِدْوًا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وهو الروح الأمين كما في قوله: ﴿وَلَنُزِّلُ لِلنَّبِيِّ رَبِّ الْكَلِمَاتِ. نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وفي قوله: ﴿الْأَمِينُ﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص منه؛ فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة، كما قال في صفته في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَبِيرٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴿ [التكوير: ١٩ - ٢١] .

وفي قوله: ﴿مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤] دلالة على أمور.

١١٩/١٢ منها: بطلان قول من يقول: إنه كلام مخلوق خلقه في جسم/من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم؛ فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال: إن القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة جهميًّا؛ فإن جهما أول من ظهرت عنه بدعة نفى الأسماء والصفات، وبالع في نفى ذلك، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك.

فإن الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الإسلام؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر. وقال: يا أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه. ولكن المعتزلة وإن وافقوا جهما في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك؛ كمسائل القدر والإيمان، وبعض مسائل الصفات أيضاً، ولا يبالغون في النفي مبالغته.

وجههم يقول: إن الله - تعالى - لا يتكلم. أو يقول: إنه يتكلم بطريق المجاز، وأما المعتزلة فيقولون: إنه يتكلم حقيقة، لكن قولهم في المعنى هو قول جهم، وجهم ينفي الأسماء أيضاً، كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء.

١٢٠/١٢ والمقصود أن قوله: ﴿مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات؛ ولهذا قال السلف: منه بدأ، أي: هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره، كما قالت الخلقية.

ومنها: أن قوله: ﴿مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة، وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله.

ومنها: أن هذه الآية - أيضاً - تبطل قول من يقول: إن القرآن العربي ليس منزلاً من الله بل مخلوق؛ إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما، كما يقول ذلك الكلائية والأشعرية، الذين يقولون: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى، ثم إما أن يكون خلق في بعض

الاجسام - الهواء أو غيره - أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي، أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي، أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره، فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول ؛ فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا.

/ وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي، وكذلك ١٢١/١٢ التوراة العبرية، ويفارقه من وجهين:

أحدهما: أن أولئك يقولون: إن المخلوق كلام الله ، وهؤلاء يقولون: إنه ليس كلام الله ، لكن يسمى كلام الله مجازاً ، وهذا قول أئمتهم وجمهورهم. وقالت طائفة من متأخريهم: بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي، لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به، وهم مع هذا لا يقولون: إن المخلوق كلام الله حقيقة، كما تقوله المعتزلة مع قولهم: إنه كلامه حقيقة، بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير الله وهو كلام حقيقة، وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية. ومن هذا الوجه ، فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء ، وإنما ينازعونهم في اللفظ.

الثاني: أن هؤلاء يقولون: لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته، والخلقية يقولون: لا يقوم بذاته كلام. ومن هذا الوجه، فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر، لكن جمهور الناس يقولون: إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق؛ فإنهم يقولون: إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر؛ فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية/ كان إنجيلاً. ١٢٢/١٢ ومنهم من قال: هو خمس معان.

وجمهور العقلاء يقولون: إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق؛ كما في الأخبار المتواترة. وأما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمداً، وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة، ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله، ولمحبته لنصر ذلك القول، كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة.

وقال جمهور العقلاء: نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن، بل معاني هذا ليست معاني هذا، ومعاني هذا ليست معاني هذا، وكذلك معنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الاخلاص: ١] ليس هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَايَ إِلَىٰ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] ولا معنى

آية الكرسي هو معنى آية الدين. وقالوا: إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً، فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة، فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي.

١٢/١٢٣ | ثم منهم من قال: الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد، وإما ناف لها، وأما إثباتها واتحادها فخلاف الإجماع. وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما. ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب، كأبي الحسن الأمدى وغيره.

والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول، كما تبين بطلان غيره، فإن قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] يقتضي نزول القرآن من ربه، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه، بدليل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨] وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة. وأيضاً، فضمير المفعول في قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ عائد على ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ﴾ [النحل: ١٠١] فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من الله، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة، ولا نزله من نفسه.

وأيضاً، فإنه قال عقيب هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وهم كانوا يقولون: إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط، بدليل قوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ فإنه - تعالى - أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألدوا إليه، بأن أضافوا إليه هذا القرآن، فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي، والقرآن لسان عربي مبين، وعبر عن هذا المعنى بلفظ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ لما تضمن من معني ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه هذا القرآن، فإن لفظ «الإلحاد» يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء بباطل، فلو كان الكفار قالوا: يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا ردّاً لقولهم؛ فإن الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي، ويعبر عنه هو بعبارة.

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون: هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي. قيل: إنه كان مولى لابن الحضرمي، وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشراً، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين، علم أن روح القدس نزل باللسان العربي المبين، وأن محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس، وإذا كان روح القدس نزل به من الله، علم أنه سمعه منه ولم يؤلفه هو، وهذا بيان من الله أن القرآن الذي هو اللسان العربي المبين، سمعه روح

القدس من الله ونزل به منه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ إلى قوله : ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] ، وكذلك قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [١٢/١٢٥ الأنعام: ١١٤] ، و «الكتاب» اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق ؛ فإن الكلاية أو بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله ، فيقول : كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي ، وهو مخلوق .

و «القرآن» يراد به هذا تارة وهذا تارة ، والله - تعالى - قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً ، فقال تعالى : ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] ، وقال : ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١] ، وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَنْقُومًا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ، ٣٠] فيبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب ، وقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ، ٢٢] ، وقال : ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ ، ٧٨] وقال : ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ، ٣] ، وقال : ﴿وَالْطُّورِ . وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣] وقال : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧] .

ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ وقال : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] .

/والمقصود هنا أن قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ يتناول نزول القرآن ١٢/١٢٦ العربي على كل قول . وقد أخبر : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم ، وقال : إنهم يعلمون ذلك ولم يقل : إنهم يظنونه أو يقولونه ، والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم ، بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل ، فعلم أن القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء ، ولا من اللوح ، ولا من جسم آخر ، ولا من جبريل ، ولا من محمد ولا غيرهما ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان من أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي

لَيْلَةَ الْقَدْرِ ﴿[القدر: ١]﴾ أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك مُتَجَمَّاً مفرقاً بحسب الحوادث، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١١٢٧/١٢ - ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفِرْ فِي أَرْضٍ أَلَكِتَابٍ لَدَيْنَا لَعَلَّكَ تَكْفُرُ﴾ [الزخرف: ٤] / فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة، لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر، فقد كتبه كله قبل أن ينزله.

والله - تعالى - يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وهو - سبحانه - قد قدر مقادير الخلائق، وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها، كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها، فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه، فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف - وهو حق - فإذا كان ما يخلقه باثناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه، فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به.

ومن قال: إن جبريل أخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله، كان هذا باطلاً من وجوه:

منها: أن يقال: إن الله - سبحانه وتعالى - قد كتب التوراة لموسى بيده، فبنو إسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو - سبحانه وتعالى - فيه، فإن كان ١٢٨/١٢ محمد أخذه عن جبريل، وجبريل عن الكتاب/ كان بنو إسرائيل أعلا من محمد بدرجة.

وكذلك من قال: إنه ألقى إلى جبريل المعاني، وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربي، فقله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاماً، وهذا الإلهام يكون لآحاد المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُّوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧] وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل؛ لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء؛ ولهذا زعم ابن عربي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وقال: لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول. فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد، وادعى أن

أخذه عن الله أعلى من أخذ الرسول للقرآن، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر، وأن هذا القول من جنسه .

وأيضاً، فالله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أوحى إليهم، وهذا يدل على أمور: على أن الله يكلم عبده تكلماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص؛ فإن لفظ/التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص، فالتكليم هو المقسوم ١٢٩/١٢ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص، كما في قوله لموسى: ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] وقد يكون قسيم التكليم الخاص، كما في سورة الشورى، وهذا يبطل قول من يقول: الكلام معنى واحد قائم بالذات؛ فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لأحد العباد.

ومثل هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، فإنه فرق بين الإحياء وبين التكليم من وراء الحجاب، وبين إرسال رسول يوحى بأذنه ما يشاء، فدل على أن التكليم من وراء حجاب - كما كلم موسى - أمر غير الإحياء.

وأيضاً فقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ٢] وقوله: ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢] وقوله: ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢] وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره. وكذلك قوله: ﴿يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. فإنه يدل على إثبات أن ما أنزل إليه من ربه، وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك.

|/أيضاً، فهم يقولون: إنه معنى واحد؛ فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع ١٣٠/١٢ جميع كلام الله، وإن سمع بعضه فقد تبعض، وكلاهما ينقض قولهم؛ فإنهم يقولون: إنه معني واحد لا يتعدد ولا يتبعض، فإن كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئاً من كلامه عالماً بجميع أخبار الله وأوامره، وهذا معلوم الفساد بالضرورة. وإن كان الواحد من هؤلاء إنما يسمع بعضه، فقد

تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وأيضاً، فقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُورًا نَفْخَ مِنْ فَاوِجِ الْأَنْبُسِ وَتَلَوْنَ بِكُلِّ صَوْتٍ مَعْلُومٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّهُ يَٰأَبُو هَارُونَ أَنِ اسْمِعْ لِي وَاسْمِعْ لِهَٰذَا النَّاسِ أَنِ اسْمِعُوا لِمَا يُرَىٰ لِلنَّاسِ الْآيَاتِ﴾ [طه: ١١ - ١٣] الآيات، دليل على تكليم سمعه موسى . والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة، ومن قال: إنه يسمع فهو مكابر، ودليل على أنه ناداه، والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً، ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع، لا حقيقة ولا مجازاً .

وأيضاً، فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورًا أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُورًا مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسْمُوعَ إِفْتٍ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ يَٰأَبُو هَارُونَ أَنِ اسْمِعْ لِي وَاسْمِعْ لِهَٰذَا النَّاسِ أَنِ اسْمِعُوا لِمَا يُرَىٰ لِلنَّاسِ الْآيَاتِ﴾ [طه: ١١، ١٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُورًا نَفْخَ مِنْ فَاوِجِ الْأَنْبُسِ وَتَلَوْنَ بِكُلِّ صَوْتٍ مَعْلُومٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي هذا دليل على أنه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك، وكما فيها من معنى الظرف كما في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩]، ومثل هذا قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤] فإنه وقت النداء بظرف محدود، فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره من الظروف، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه .

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وأمثال ذلك، مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين؛ فإن الكلابية - ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة - يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته .

ثم من هؤلاء من قال: إنه معنى واحد؛ لأن الحروف والأصوات متعاقبة، يمتنع أن تكون قديمة. ومنهم من قال: بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان، وأنها مترتبة في ذاتها ١٣٢/١٢ متقاربة في وجودها، لم تزل ولا تزال قائمة بذاته، والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلي، لم يزل ولا يزال. ومنهم من قال: بل الحروف قديمة الأعيان، بخلاف الأصوات، وكل هؤلاء يقولون: إن التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك المخلوق، بحيث

يسمع مالم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته، ولا تكليم، بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سماعه، بمنزلة جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير إحداث شيء منفصل عن الأعمى، فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا أنه حينئذ نودي .

ولهذا يقولون: إنه يسمع كلامه لخلقه يدل عن قول الناس إنه يكلم خلقه، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون: القرآن مخلوق، ويقولون عن أنفسهم: إنهم أهل السنة الموافقون للسلف، الذين قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وليس قولهم قول السلف، لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجهه، وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجهه.

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاماً قائماً بنفس الله، وهذا قول السلف، بخلاف الخلقية الذين يقولون: ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره؛ فإن قول هؤلاء مخالف لقول السلف. وأما كون قول الخلقية أقرب فلأنهم يقولون: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ١٣٣/١٢ وهذا قول السلف، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه، وليس كلامه بمشيئته واختياره، بل كلامه عندهم كحياته، وهم يقولون: الكلام عندنا (١) صفة ذات لا صفة فعل. والخلقية يقولون: صفة فعل لا صفة ذات، ومذهب السلف أنه صفة ذات وصفة فعل معاً، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه.

واختلافهم في كلام الله - تعالى - شبه اختلافهم في أفعاله - تعالى - ورضاه وغضبه، وإرادته وكراهته، وحبه وبغضه، وفرحه وسخطه ونحو ذلك. فإن هؤلاء يقولون: هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجع إلى الثواب والعقاب. والآخرين يقولون: بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاته. ثم منهم من يجعلها كلها تعود إلى إرادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات. ومنهم من يقول: بل هي صفات متعددة الأعيان، لكن يقول: كل واحدة واحدة العين، قديمة قبل وجود مقتضياتها، كما قالوا مثل ذلك في الكلام، والله - تعالى - يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا سَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨] فأخبر أن أفعالهم أسخطته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَفْتَوْا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضبونا. وقال تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ أَسْتَجِبْ لَهُمْ﴾ [غافر: ٦٠] إلى أمثال ذلك، مما يبين أنه سخط على الكفار لما كفروا، ورضى عن المؤمنين لما آمنوا.

/ونظير هذا اختلافهم في أفعاله - تعالى - ومسائل القدر؛ فإن المعتزلة يقولون: إنه ١٣٤/١٢

(١) في المطبوعة: «عبدنا» وهو خطأ.

يفعل لحكمة مقصودة، وإرادة الإحسان إلى العباد، لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه، وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً. فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به، وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا قصداً يتصف به، والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يعود إليه.

وكذلك في «الكلام»: أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به، وهؤلاء يقولون: ما لا يقوم به لا يعود حكمه إليه. والفريقان يمنعون أن يقوم به حكمة مرادة له، كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده، وقول أولئك أقرب إلى قول السلف والفقهاء؛ إذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في أحكامه وأفعاله وأثبتوا كلاماً يتكلم به بقدرته ومشيتته، وقول هؤلاء أقرب إلى قول السلف؛ إذ أثبتوا الصفات، وقالوا: لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به أصلاً، ولا يعود إليه حكم من شيء لم يقم به، فلا يكون متكلاماً بكلام لم يقم به، ولا يكون حكيماً كريماً ورحيماً بحكمة ورحمة لم تقم به، كما لا يكون عليماً بعلم لم يقم به، وقديراً بقدرة لم تقم به، ولا يكون محبباً راضياً غضبانياً بحب ورضى وغضب لم يقم به.

١٣٥/١٢ فكل من المعتزلة والاشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله، بل/وسائر صفاته، وافقوا السلف والأئمة من وجه، وخالفوهم من وجه، وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر، لكن الاشعرية في جنس مسائل الصفات، بل وسائر الصفات والقدر، أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، التكوير: ١٩] وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي. قيل: هذا باطل؛ وذلك لأن الله ذكر هذا في القرآن في موضعين، والرسول في أحد الموضعين محمد، والرسول في الآية الأخرى جبريل. قال تعالى - في سورة الحاقة -: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . نَزَّلَهُ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣] فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فالرسول هنا جبريل، فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين، فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها.

وأيضاً، فإنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، ولفظ ١٣٦/١٢ «الرسول» يستلزم مرسلًا له، فدل ذلك على أن/الرسول مبلغ له عن مرسله؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه، وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول؛ لأنه بلغه وأداه، لا لأنه

أنشأ منه شيئاً وابتداه.

وأيضاً، فإن الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فَكَرَ وَقَدَّرَ . فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدرثر: ١٨ - ٢٥] ومحمد بشر، فمن قال: إنه قول محمد فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: هو قول بشر أو جني أو ملك، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول: إنه قول البشر، فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله، لا أنه قول له من تلقاء نفسه، وهو كلام الله الذي أرسله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالذي بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول.

ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» رواه أبو داود وغيره^(١)، والكلام كلام من/قال مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً، وموسى سمع كلام ١٣٧/١٢ الله من الله بلا واسطة، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

ففرق بين التكليم من وراء حجاب - كما كلم موسى - وبين التكليم بواسطة الرسول - كما كلم الأنبياء بإرسال رسول إليهم - والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم، كما قال ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ امراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه»^(٢)، فالستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه، لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته، والمبلغ بلغ كلام الرسول، لكن بصوت نفسه، وإذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾

(١) أبو داود في السنة (٤٧٣٤) والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥) وابن ماجه في المقدمة (٢٠١) والدارمي في

فضائل القرآن ٢/ ٤٤٠، كلهم عن جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٣٧.

[التوبة: ٦] وقال النبي ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١) ، فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ، وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادى الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فليس علمه مثل علم المخلوقين، ولا قدرته مثل قدرتهم، ولا كلامه مثل كلامهم، ولا نداؤه مثل ندائهم، ولا صوته مثل أصواتهم.

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون: ليس هو كلام الله، أو هو كلام غيره، فهو ملحد مبتدع ضال. ومن قال: إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال، بل هذا القرآن هو كلام الله، وهو مثبت في المصاحف، هو كلام الله مبلغاً عنه مسموعاً من القراء ، ليس هو مسموعاً منه، والإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة، ويراها في ماء أو مرآة ، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة ، وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة، وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين، كما أن المقصود بالرؤية هو المرئي في الموضعين.

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق، والاختلاف والاتفاق ، زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب، فإن طائفة قالت: هذا المسموع كلام الله، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق، فكلام الله مخلوق، وهذا جهل: فإنه ١٣٩/١٢ مسموع من المبلغ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً.

وقالت طائفة: هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، فلا يكون هذا المسموع كلام الله، وهذا جهل؛ فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه.

وطائفة قالت: هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق، فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل؛ فإنه إذا قيل: هذا كلام الله فالشار إليه هو الكلام من حيث هو هو، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه، وإذا قيل للمسموع: إنه كلام الله فهو كلام الله مسموعاً من المبلغ عنه لا مسموعاً منه، فهو مسموع بواسطة صوت العبد، وصوت العبد مخلوق . وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف . وهذه

(١) البخاري في التوحيد تعليقا، الفتح (٥١٨/١٣) وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨) والنسائي في الافتتاح (١٠١٥، ١٠١٦) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٤٢) والدارمي في فضائل القرآن ٤٧٤/٢، وأحمد ٢٨٥/٤ كلهم عن البراء بن عازب.

نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع .

١٤٠/١٢

فصل /

فإن قيل : ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف ؟ قيل : منشؤه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل ، فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيه ما يخالف العقل والسمع ، فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل ، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع ، وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم وإثبات الصانع ، استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك ، بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ثم إن المستدلين بذلك على حدوث الأجسام ، قالوا : إن الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى : فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاجتماع والافتراق وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وهي حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على أن الأجسام لا تخلو عن بعض أنواع الأعراض .

وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه ، ويقولون : القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، ويقولون : إن الأعراض يمتنع بقاؤها ؛ لأن العرض لا يبقى زمانين ، وهذه الطريقة هي التي اختارها الأمدي ، وزيف ما سواها ، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة ، كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي وأمثالهم .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف ، الذين يقولون بحدوث كل جسم ، ويقولون : إن القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا : بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل ، فإنهم يقولون : إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثه ، فإنها لا تخلو عن الحوادث .

والناس متنازعون في «السكون» ، هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ فمن قال : إنه ١٤٢/١٢

وجودي قال: إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي، وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المنتصف بذلك، ومن قال: إنه عديمي لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي، فمن قال: إنه تقوم به الحركة أو الحوادث بعد أن لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث، كما هو قول الكرامية وغيرهم- يقولون: إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي، بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم أنه يفعل بعد أن لم يكن فاعلا، ولا يقولون: إن عدم الفعل أمر وجودي- كذلك الحركة عند هؤلاء، وكان كثير من أهل الكلام يقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث بناءً على أن هذه مقدمة ظاهرة فإن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث.

وهذا الكلام مجمل، فإنه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحادث المعين أو ما لا يسبق الحادث المعين، فهو حق بلا ريب، ولا نزاع فيه، وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ما له أول أو ما كان بعد العدم ونحو ذلك، وأما إذا أريد بالحوادث الأمور التي تكون شيئاً بعد شيء لا إلى أول. وقيل: إنه ما لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيناً، بل هذا المقام حار فيه كثير من الأفهام، وكثر فيه النزاع والخصام؛ ولهذا صار المستدلون بقولهم: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا إذا أثبتوا امتناع حوادث لا أول لها، فذكروا في ذلك طرقاً قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على ثلاثة أقوال:

ف قيل: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً، وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية، ومن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم.

وقيل: بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً، وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجب أن يكون حادثاً، بل يجوز أن يكون قديماً، سواء كان واجباً بنفسه أو بغيره، وربما عبر عنه بالعلة والمعلول، والفاعل والمفعول ونحو ذلك، وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك، كأرسطو وأتباعه مثل ثامسطيوس، والأسكندر الإفريديوسي وبرقلس، والفارابي، وابن سينا وأمثالهم.

١٤٤/١٢ وأما جمهور الفلاسفة المتقدمين على أرسطو، فلم يكونوا يقولون/بقدم الأفلاك. ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون في قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قولين معروفين لهم، وإثبات ذلك قول كثير من الأساطين القدماء، وبعض المتأخرين،

كأبي البركات صاحب المعبر وغيره، كما بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع .

وقيل: بل إن كان المستلزم للحوادث ممكنًا بنفسه، وأنه هو الذي يسمى مفعولا ومعلولا، ومربوبًا ونحو ذلك من العبارات وجب أن يكون حادثًا ، وإن كان واجبًا بنفسه لم يجز أن يكون حادثًا، وهذا قول أئمة أهل الملل وأساطين الفلاسفة ، وهو قول جماهير أهل الحديث، وصاحب هذا القول يقول ما لا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث، أو ما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول أو مبتدع أو مصنوع فهو حادث؛ لأنه إذا كان مفعولا مستلزما للحوادث امتنع أن يكون قديمًا؛ فإن القديم المعلول لا يكون قديمًا إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله، بحيث يكون معه أزليا لا يتأخر عنه ، وهذا ممتنع .

فإن كونه مفعولا ينافي كونه قديمًا، بل قدمه ينافي كونه ممكنًا، فلا يكون ممكنًا إلا ما كان محدثًا عند جماهير العقلاء من الأولين والآخرين، وهذا قول الفلاسفة القدماء قاطبة كأرسطو وأتباعه، وإنما أثبت ممكنًا قديمًا بعض متأخريهم كابن سينا وأتباعه، خالفوا في ذلك الفلاسفة القدماء قاطبة، كما خالفوا في ذلك جماهير العقلاء من سائر الطوائف ؛ ١٢/١٤٥ ولهذا تناقضوا في أحكام الممكن، وورد عليه فيه من الأسئلة ما لا جواب لهم عنه، كما ذكرت ذلك في الرد على الأربعين وغير ذلك من المواضع .

وما يدعى من أن المعلول قد يقارن علته إنما يعقل فيما كان شرطًا فاعلا، كقولهم : حركت يدي فتحرك الخاتم، فإن حركة اليد شرط في تحريك الخاتم، والشرط والمشروط قد يتلازمان، وليست فاعلة مبدعة لها، وكذلك الشعاع مع النار والشمس ونحو ذلك، وأما ما يكون فاعلا فلا يتصور أن يقارنه مفعوله في الزمان، سواء كان فاعلا بالإرادة أو قدر أنه فاعل بغير إرادة، وسواء سمي فاعلا بالذات أو بالطبع، أو ما قدر، لا يتصور أن يكون المفعول مقارنًا لفاعله في الزمان، كما اعترف بذلك جماهير العقلاء من الأولين والآخرين .

وأرسطو وأتباعه لم يقولوا : إن الفلك مفعول للرب ، ولا أنه معلول لعلة فاعلية أبدعت ذاته، بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه، وأن له علة غائية يتشبه بها، نحو حركة المعشوق يجب أن يقتدى به، والفلك عندهم يتحرك للتشبه بتلك العلة؛ ولهذا قالوا: الفلسفة: هي التشبه بالإله بحسب الطاقة ، وقولهم - وإن كان فيه من الكفر والجهل بالله أعظم مما في قول ابن سينا وأتباعه، وفيهم من التناقض في الإلهيات/ ما ليس هذا ١٢/١٤٦ موضع بسطه - فلم يتناقضوا في إثبات ممكن قديم كتناقض متأخريهم .

ولهذا لما كانت هذه القضية مستقرة في فطر العقلاء، وكان مجرد العلم والخبر بأن

السموات مخلوقة أو مصنوعة أو مفعولة موجباً للعلم بأنها حادثة، لا يخطر بالفطر السليمة إمكان كونها مفعولة لفاعل فعلها، مع كونها قديمة لم تزل معه؛ ولهذا لم يدع هذا إلا هذه الشرذمة القليلة من المتفلسفة.

وأيضاً، فإن ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجباً بذاته يستلزم معلوله في الأزل؛ فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء، لا يكون مجموعها في الأزل، ولا يكون شيء منها أزلياً، بل الأزلي هو دوامها واحداً بعد واحد، والموجب بذاته المستلزم لمعلوله في الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة؛ فإن ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء، فيمتنع أن يكون معلولاً مقارناً لعلته في الأزل بخلاف ما إذا قيل: إن المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء، فإنه على هذا التقدير لا يكون في الأزل موجباً بذاته، ولا علة سابقة تامة لشيء من العالم، فلا يكون معه في الأزل من المخلوقات شيء لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شيء، وكل مفعول يوجد عنده وجود كمال فاعليته، إذ المؤثر التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره، إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً، فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر، فليس في الأزل مؤثر تام، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه، والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً، بل كل ما يقدره العقل من الغاية التي ينتهي إليها فالأزل قبل ذلك، كما هو قبل ما قدره، فالأزل لا أول له، كما أن الأبد لا آخر له.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»^(١)، فلو قيل: إنه مؤثر تام في الأزل لشيء من الأشياء لزم أن يكون مقارناً له دائماً، وذلك ينافي كونه مفعولاً له، وإنما يصح مثل هذا في الصفة اللازمة للموصوف، فإنه إذا قيل: الذات مقتضى تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة، ليس المراد بذلك أن الذات مبدعة للصفة؛ فإنه إذا تصور معنى المبدع امتنع في المقارن بصريح المعقول، سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك، وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث؛ لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه، وإن كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك، لكن لا بد من كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر/ وإلا لزم الترجيح بلا مرجح، وتخلف المعلول عن العلة التامة، ووجود الممكن بدون المرجح التام. وكل هذا ممتنع، فامتنع أن يكون مؤثراً لشيء من

(١) مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٦١/٢٧١٣) وأبو داود في الأدب (٥٠٥١) والترمذي في الدعوات (٣٤٨١) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣١، ٣٨٧٣) وأحمد ٣٨١/٢، ٤٠٤، كلهم عن أبي هريرة.

الحوادث في الأزل، وامتنع أن يكون مؤثراً في الأزل فيما يستلزم الحوادث، لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال، فامتنع أن يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً.

وإذا قيل : ذاته مقتضية للحدث الثاني بشرط انقضاء الأول. قيل : فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً، فلا يكون معه قديم من مفعولاته، وقيل - أيضاً - : هذا إنما يكون إذا كانت لذاته أحوال متعاقبة تختلف المفعولات لأجلها ، فأما إذا قدر ألا يقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة، بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة البائدة أعظم من امتناع فعله لحادث معين، فإذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالامتناع، ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم، وامتنع - أيضاً - قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فاعل، والفعل الحادث لا يكون مفعوله إلا حادثاً، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

١٤٩/١٢

فصل

وإذا عرف الأصل الذي منه تفرع نزاع الناس في «مسألة كلام الله» ، فالذين قالوا :
مالا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً، تنازعوا في كلام الله - تعالى .

فقال كثير من هؤلاء : الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته، فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب لا تقوم به الحوادث ، فيكون الكلام مخلوقاً في غيره، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات، ولم يفرقوا بين قال وفعل. وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق ، فلا يتصف بما يخلقه في غيره من الألوان والأصوات، والروائح والحركة، والعلم والقدرة ، والسمع والبصر، فكيف يتصف بما يخلقه في غيره من الكلام ، ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من إنطاق الجمادات كلامه، ومن علم أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه أن يقول : كل كلام في الوجود فهو كلامه، كما قال بعض الاتحادية .

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم؛ فإن هؤلاء يقولون : إنه خالق أفعال ١٥٠/١٢
العباد وكلامهم، مع قولهم : إن كلامه مخلوق ، فيلزمهم هذا.

وأما المعتزلة فلا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد، لكن الحجة توجب القول بذلك .

وقالت طائفة : بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ، ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقاً في.

غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثاً بعد أن لم يكن ؛ لامتناع حوادث لا أول لها . وهذا قول الكرامية وغيرهم . ثم من هؤلاء من يقول : كلامه كله حادث لا محدث . ومنهم من يقول : هو حادث ومحدث . وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً : الكلام لازم لذات الرب ، كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته ، وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة ؛ إذ لو قلنا : إنه بقدرته ومشيئته لازم أن يكون حادثاً ، وحينئذ فيلزم أن يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب ، فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه أو عن ضده . قالوا : وتسلسل الحوادث ممتنع ؛ إذ التفريع على هذا الأصل .

١٥١/١٢ ثم إن هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه ، فقالت طائفة : /القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ؛ لأن الصوت يستحيل بقاءه كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاءه امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأخرى ، فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة ، كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ؛ لأن تلك لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم من (بسم الله) قديمة مع كونها مسبوقة بالسین والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ، ولا يجوز تعدده ؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح ، وإن كان لا يتناهى لزوم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ، وهو معنى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وهذا أصل قول الكلائية والاشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها ، كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة .

ومنهم من قال : بل هو - أيضاً - أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة ، وبين الحروف المكتوبة التي توجد في آن واحد ، كما يفرق بين الأصوات والمداد ؛ فإن الأصوات لا تبقى بخلاف المداد ، فإنه جسم يبقى ، ١٥٢/١٢ وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع أن يكون الصوت المعين قديماً ؛ لأن ما وجب قدمه لازم بقاءه وامتنع عدمه ، والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد ، كالشكل المصنوع في حجر وورق ، فيزالة بعض أجزائه تدل على حدوثه ، وقد يراد بالحروف نفس المداد .

وأما الحروف المنطوقة ، فقد يراد بها - أيضاً - الأصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد

بها حدود الأصوات وأطرافها، كما يراد بالحرف في الجسم حده ومنتهاه، فيقال: حرف الرغيف وحرف الجبل ونحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] ، وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية الباطنة، وهي ما يتشكل في باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به.

وقد تنازع الناس، هل يمكن وجود حروف بدون أصوات في الحي الناطق؟ على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدّم أعيان الحروف، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لا بد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال؟

ثم القائلون بقدّم الأصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القارئ، هل يسمع منه الصوت القديم؟ فقول: المسموع هو الصوت القديم وقيل: بل المسموع هو صوتان: أحدهما: القديم، والآخر: المحدث، فما لا بد منه في وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث.

١٥٣/١٢

/ وقيل: بل الصوت القديم غير المسموع من العبد.

وتنازعوا في القرآن هل يقال: إنه حال في المصحف والصدور أم لا يقال ذلك؟ على قولين. فقول: هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه. وقيل: بل القرآن حال في الصدور والمصاحف ، فهؤلاء الخلقية والحادثية، والاتحادية والافتراضية، أصل قولهم: أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً. ومن قال بهذا الأصل . فإنه يلزمه بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك، فإن من الناس من يجعله حادثاً، يريد أنه كائن بعد أن لم يكن ، ويجعل الحادثان إرادات وتصورات لا حروف وأصوات. والداربي وغيره يميلون إلى هذا القول ؛ فإنه إما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً، وإذا كان حادثاً فإما أن يكون حادثاً في غيره، وإما أن يكون حادثاً في ذاته، وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط، أو اللفظ فقط، أو كلاهما، فإذا كان القديم هو المعنى فقط لزم ألا يكون الكلام المقروء كلام الله - تعالى - ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف.

وأما قدم اللفظ فقط، فهذا لم يقل به أحد ، لكن من الناس من يقول: إن الكلام القديم هو اللفظ، وأما معناه فليس هو داخلاً في مسمى الكلام، بل هو العلم والإرادة وهما قديمان، لكن ليس ذلك داخلاً في مسمى الكلام، فهذا يقول: الكلام القديم هو اللفظ فقط/ إما الحروف المؤلفة وإما الحروف والأصوات، لكنه يقول: إن معناه قديم. ١٥٤/١٢

وأما الفريق الثاني - الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً، وأن القديم الواجب بنفسه يجوز أن تتعقب عليه الحوادث مطلقاً، وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه -

فهؤلاء القائلون بقدوم العالم كما يقولون بقدوم الأفلاك ، وأنها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية، لكن المنتسبون إلى الملل- كابن سينا ونحوه- منهم ، قالوا: إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته، وأما أرسطو وأتباعه فإنهم قالوا: إن لها علة غائبة تتحرك للتشبه بها في تحركها، كما يحرك المعشوق عاشقه، ولم يثبتوا لها مبدعاً موجباً ولا موجباً قائماً بذاته، ولا قالوا إن الفلك ممكن بنفسه واجب بغيره، بل الفلك عندهم واجب بنفسه، لكن قالوا مع ذلك: إن له علة غائية يتحرك للتشبه بها لا قوام له إلا بها، فجعلوا الواجب بنفسه الذي لا فاعل له مفتقراً إلى علة غائية منفصلة عنه، هذه حقيقة قول أرسطو وأتباعه؛ ولهذا لم يثبتوا الأول عالماً بغيره؛ إذ لم يكن الأول عندهم مبدعاً للفلك؛ فإنه إذا كان مبدعاً يجب أن يكون عالماً بمفعوله، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولهذا كانت أقوالهم في الإلهيات من أعظم الأقوال فساداً، بخلاف أقوالهم في ١٢/١٥٥ الطبيعيات؛ ولهذا كان قولهم أشد فساداً في العقل والدين/من قول ابن سينا وأتباعه ، ولم يثبت أرسطو وأتباعه «العلّة الأولى» بطريقة الوجود، ولا قسموا الوجود القديم إلى واجب وممكن، بل الممكن عندهم لا يكون إلا حادثاً، ولا أثبتوا للموجود الواجب الخصائص المميزة للرب عن الأفلاك، بل هذا من تصرف متأخريهم الذين خلطوا فلسفتهم بكلام المعتزلة ونحوهم، وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأتباعه.

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلاً، أما على قول من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلاً لها، فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم؛ فإن هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره؛ لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل ، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد.

فيقال لهم : فقولوا هكذا في حركة الفلك بقدرته وداعيه ؛ فإنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيء بعد شيء ، وإن كان ذلك بواسطة العقل، وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه، وهو باطل أيضاً؛ لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجهه ومقتضاه يمتنع أن يصدر ١٢/١٥٦ عنه/حادث بواسطة أو بلا واسطة، فإن صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية يمتنع لذاته.

وإذا قالوا: الحركة بتوسطه، أي بتوسط حركة الفلك، قيل لهم: فالكلام إنما هو في حدوث الحركة الفلكية؛ فإن الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة تامة أزلية، مستلزمة لمعلولها؛ فإن ذلك جمع بين النقيضين؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته

في الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل، بل
يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتا بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال
المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة، بل يمتنع أن يكون المقتضي لها ذاتا موصوفة لا
يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة، فإن التجدد والتعدد الموجود
في المعلولات يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه، فصار حقيقة قولهم أن
الحوادث العلوية والسفلية لا محدث لها.

وهؤلاء يقولون: كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية، كما أن ملائكة الله
عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية، فلا يثبتون له كلاما خارجا عما في نفوس
البشر، ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم غير «العقول العشرة»، و«النفوس الفلكية
التسعة»، مع أن أكثرهم يقولون: إنها أعراض، وقد بين في غير هذا الموضع أن ما يثبتونه
من المجردات/العقلية التي هي العقول والنفوس والمواد والصور، إنما وجودها في الأذهان ١٥٧/١٢
لا في الأعيان.

وأما الصنف الثالث، الذين فرقوا بين الواجب والممكن، والخالق والمخلوق، والغنى
الذي لا يفتقر إلى غيره، والفقير الذي لا قوام له إلا بالغني، فقالوا: كل ما قارن
الحوادث من الممكنات فهو محدث كائن بعد أن لم يكن، وهو مخلوق مصنوع مربوب،
وأنه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم، فضلا عن أن تقارنه حوادث لا
أول لها؛ ولهذا كانت حركات الفلك دليلا على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك.

وأما الرب - تعالى - إذا قيل: لم يزل متكلمًا إذا شاء، أو لم يزل فاعلا لما يشاء، لم
يكن دوام كونه متكلمًا بمشيئته وقدرته، ودوام كونه فاعلا بمشيئته وقدرته ممتنعًا، بل هذا
هو الواجب؛ لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه، فالرب أحق أن يتصف بالكلام من
كل موصوف بالكلام؛ إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به؛ لأن
القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق؛ ولأن كل كمال
ثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق، وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له؛ فإنه لو لم
يجب له لكان إما ممتنعًا وهو محال بخلاف الفرض، وإما ممكنًا، فيتوقف ثبوته له على
غيره، والرب/لا يحتاج في ثبوت كماله إلى غيره؛ فإن معطى الكمال أحق بالكمال، فيلزم ١٥٨/١٢
أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطيًا له الكمال، وهذا ممتنع؛ بل هو بنفسه المقدسة
مستحق لصفات الكمال، فلا يتوقف ثبوت كونه متكلمًا على غيره، فيجب ثبوت كونه
متكلمًا، وإن ذلك لم يزل ولا يزال، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام
لازمًا له بدون قدرته ومشيئته، والذي لم يزل متكلمًا إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه

بعد أن لم يكن الكلام ممكنًا له .

وحيثئذ ، فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن قيل : إنه ينادى ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين ، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين ، وإن كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم أن تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة ؛ لما علم من الفرق بين النوع والعين ، وهذا الفرق ثابت في الإرادة والكلام ، والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات ، وبه تنحل الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددتها ، وقدمها وحدوثها ، وكذلك تزول به الإشكالات الواردة في أفعال الرب ، وقدمها وحدوثها ، وحدوث العالم .

وإذا قيل : إن حروف المعجم قديمة - بمعنى النوع - كان ذلك ممكنًا ، بخلاف ما إذا قيل : إن عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ، فإن هذا مكابرة للحس . والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها . وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع أو التأليف المعين لذلك الصوت ، فيعلم أن عينه لم تكن موجودة قبله ، والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القول ؛ ولهذا أنكروا على من زعم أن حرفًا من حروف المعجم مخلوق ، وأنكروا على من قال : « لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أوامر » ، مع أن هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي . وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها إلا بيان أن العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع ، فإن كثيرا من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم ، وإن لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ أن من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئًا حتى يؤمر به ، فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهداً لذلك ، مع أن هذه لا إسناد لها ، ولا يثبت بها حكم ، ولكن الإسرائيلية إذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس ، وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة ؛ لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك ، مع أن هذا أمر اصطلاحى ، وخط غير العربي لا يماثل خط العربي ، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة ، مخلوقة بئنة عن الله ، بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم ، والحروف المنطوقة لا يقال فيها : إنها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون : إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية ، فقد قال عنهم ما لم يقولوه .

وأما الإمام أحمد ، فإنه أنكر إطلاق هذا القول ، وما يفهم منه عند الإطلاق ، وهو أن نفس حروف المعجم مخلوقة ، كما نقل عنه أنه قال : ومن زعم أن حرفًا من حروف

المعجم مخلوق، فهذا جهمي يسلك طريقاً إلى البدعة، فإنه إذا قال: إن ذلك مخلوق، فقد قال: إن القرآن مخلوق- أو كما قال. ولا ريب أن من جعل نوع الحروف مخلوقاً بائناً عن الله كائناً بعد أن لم يكن، لزم عنده أن يكون كلام الله العربي والعبري ونحوهما مخلوقاً، وامتنع أن يكون الله متكلماً بكلامه، الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، فلا يكون شيء من ذلك كلامه، فطريقة الإمام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث، الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول.

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه: «الفصول في الأصول»: سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول: سمعت الشيخ أبا حامد الإسفرائيني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي/وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: إنه ١٦١/١٢ مخلوق فهو كافر، والقرآن حملة جبريل- عليه السلام - مسموعاً من الله، والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ، وهو الذي تلوهم نحن مقروءاً بالستنا، وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً، ومحفوظاً ومقروءاً، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق، ومن قال: إنه مخلوق فهو كافر، عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين.

والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع، وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام في سائر الصفات، كالعلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام في تعدد الصفة واتحادها، وقدمها وحدوثها، أو قدم النوع دون الأعيان، أو إثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان، مع تجدد كل معين من الأعيان، أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب، فإن هذه مواضع مشككة، وهي من محارات العقول؛ ولهذا اضطرب فيها طوائف من أذكياء الناس ونظارهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

١٦٢/١٢ / وسئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن قال : اختلاف المسلمين في كلام الله - على ثلاثة أنحاء: فقوم إلى أنه قديم الحرف والصوت وهم الحشوية، وقوم إلى أنه حادث بالصوت والحرف وهم الجهمية ومن تابعهم ، وقوم إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف إلا معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية؟

فأجاب - رضي الله عنه وأرضاه - :

الحمد لله رب العالمين . قول القائل : « إن اختلاف المسلمين في كلام الله على ثلاثة أنحاء » إلخ هو كلام بحسب ما بلغه من ذلك ، وأكثر من تكلم في هذه المسألة من المتأخرين إنما يذكر فيها بعض اختلاف الناس ، فقوم يحكون أربعة أقوال ، كأبي المعالي ونحوه . وقوم يحكون خمسة أو ستة ، كالشهرستاني ونحوه .

١٦٣/١٢ / والاقوال التي قالها المنتسبون إلى القبلية في هذه المسألة تبلغ سبعة أو أكثر .

الأول : قول المتفلسفة ومن وافقهم من متصوف ، ومتكلم ، كابن سينا وابن عربي الطائفي ، وابن سبعين ، وأمثالهم ممن يقول بقول الصابئة ، الذين يقولون : إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد ، بل هو ما يفيض على النفوس من المعاني ؛ إعلاما وطلبا ؛ إما من العقل الفعال كما يقوله كثير من المتفلسفة ، وإما مطلقا كما يقوله بعض متصوفة الفلاسفة ، وهذا قول الصابئة ونحوهم ، وهؤلاء يقولون : الكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجودا إلا في نفسه ، وصاحب «مشكاة الأنوار» وأمثاله في كلامه ما يضاهي كلام هؤلاء أحيانا ، وإن كان أحيانا يكفرهم ، وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول : القرآن مخلوق .

والقول الثاني : قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، الذين يقولون : كلام الله مخلوق ، يخلقه في بعض الأجسام ، فمن ذلك الجسم ابتداء ، لا من الله ، ولا يقوم - عندهم - بالله كلام ولا إرادة ، وأول هؤلاء الجعد بن درهم ، الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري - لما خطب الناس يوم عيد النحر - وقال : ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مَضحٌ بالجعد بن درهم ؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه (١) .

(١) البخاري في خلق أفعال العباد ص ٧ .

وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوته من الخلفاء إلى مقاتلتهم ، حتى امتحن الناس في القرآن بالحنة المشهورة في إمارة المأمون، والمعتصم والواثق ، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة؛ كالإمام أحمد- رحمه الله - وموافقيه، وكشفها الله عن الناس في إمارة المتوكل وظهر في الأمة « مقالة السلف » : أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، أي هو المتكلم به، لم يبتدأ من بعض المخلوقات - كما قالت الجهمية- بل هو منه نزل، كما قال تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الأحقاف: ٢]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ يُرْسَلُونَ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿ حَمْدُ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢٠١] وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

ثم لما شاعت الحنة كثر اضطراب الناس وتنازعهم في ذلك ، حتى صار أهل السنة والجماعة - المتفقون على أن كلام الله منزل غير مخلوق - يقول كل منهم قولاً يخالف به صاحبه، وقد لا يشعر أحدهم بخلاف الأدلة، وصار أتباع الأئمة الأربعة - كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، مع كون الظاهر المشهور عندهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق- بين كل طائفة منهم تنازع في تحقيق ذلك، كما سننبه على ذلك.

/ والقول الثالث: قول أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري ومن اتبعه؛ ١٢٥/١٢ كالقلانسي وأبي الحسن الأشعري وغيرهم، أن كلام الله معنى قائم بذات الله، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً.

والأمر والنهي والخبر ليست أنواعاً له ينقسم الكلام إليها، وإنما كلها صفات له إضافية، كما يوصف الشخص الواحد بأنه ابن لزيد وعم لعمر، وخال لبكر.

والقائلون بهذا القول منهم من يقول: إنه معنى واحد في الأزل، وأنه في الأزل أمر ونهي وخبر، كما يقوله الأشعري.

ومنهم من قال: بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي.

ومنهم من يقول: هو عدة معان، الأمر والنهي، والخبر، والاستخبار.

وقد ألزم الناس أصحاب هذا القول أن يجعلوا العلم والقدرة والإرادة والحياة شيئاً واحداً، فاعترف محققوهم بصحة الإلزام.

/ وجمهور العقلاء - من أهل السنة وأهل البدعة- يقولون: إن فساد هذا القول معلوم ١٢٦/١٢ بالضرورة ، كما يقولون : إن فساد قول من يقول : إن الأصوات المسموعة من العباد

قديمة معلوم بالضرورة كما يقولون إن فساد قول من يقول: إن المتكلم يكون متكلمًا بكلام يقوم بغيره، وأن العالم يكون عالمًا بعلم يقوم بغيره، والقادر يكون قادرًا بقدرة تقوم بغيره، معلوم بالضرورة.

وكما يقول جمهور العقلاء: إن فساد قول من يقول: إن العلم هو القدرة، والقدرة هي الإرادة، وأن العلم هو العالم، والقدرة هي القادر، معلوم بالضرورة.

القول الرابع: قول طوائف من أهل الكلام والحديث من السامية وغيرهم يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم، وهؤلاء يوافقون الأشعرية والكلائية في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو أمرًا منفصلاً عن المستمع.

ثم إن جمهور هؤلاء لا يقولون: إن تلك الأصوات هي المسموعة من القارئ، بل ١٦٧/١٢ يفرقون بين هذا وهذا. ومنهم طائفة وهم أهل... (١) يقولون: إن الصوت القديم يسمع من القارئ. ثم قد يقولون تارة: إن القديم نفس الصوت المسموع من القارئ، وتارة يقولون: إنه يسمع من القارئ صوتين، قديمًا ومحدثًا. وكثير منهم — أو أكثرهم — لا يقولون بحلول القديم في المحدث، بل يقولون ظهر فيه كما يظهر الوجه في المرأة.

ومنهم من يقول بحلول القديم في المحدث، وليس هذا القول ولا الأقوال قبله قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولم يقل ذلك لا الإمام أحمد، ولا أئمة أصحابه، ولا غيره من الأئمة، بل هم متفقون على الإنكار على من قال: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، فكيف بمن قال: صوتي غير مخلوق؟ فكيف بمن قال: صوتي قديم؟!

وأما القول بأن المداد الذي في المصحف قديم، فهذا ما رأيته في كتاب أحد من طوائف الإسلام، ولا نقله أحد عن رجل معروف من العلماء أنه سمعه منه، ولكن طائفة يسكتون عن التكلم في المداد بنفي أو إثبات، ويقولون: لا نقول: إنه قديم، ولكن نسكت سداً للذريعة: إنهم يقولون: إن المداد الذي في المصحف قديم، وأنه لما كان في المحبرة كان محدثًا، فلما صار في الورق صار قديمًا.

١٦٨/١٢ / ورأينا طوائف يكذبون هؤلاء في النقل، وكأن حقيقة الأمر أن أولئك يقولون قول غيرهم بمجرد ما بلغهم من إطلاق قولهم، أو لما ظنوه لازماً لهم، أو لما سمعوه ممن يجازف في النقل ولا يحزره، وربما سمعوه من بعض عوامهم إن كان ذلك قد وقع.

وهذا الباب وقع فيه غلط بهذا السبب، حتى غلط الناس على من يعظمونه؛ وبهذا

(١) يياض بالأصل.

السبب غلط أبا طالب الإمام أحمد فيما نقله عنه، فإنه قرأ عليه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وسأله: هذا مخلوق؟ فقال له أحمد: هذا ليس بمخلوق. فبلغه أن أبا طالب حكى عنه أنه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فغضب عليه أحمد، وقال: أنا قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لا. ولكن قرأت عليك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقلت لك: هذا غير مخلوق، فقلت: نعم. فقال: فلم حكيت عني أنني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لم أحكه عنك، وإنما حكيتك عن نفسي، قال: فلا تقل هذا، فإني لم أسمع عالماً يقول هذا، ولكن قل: القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق.

ولهذا قال البخاري في "كتاب خلق الأفعال": إن «اللفظية» هؤلاء يذكرون قولهم عن أحمد وهم لا يفهمون دقة قوله، وموضع الشبهة أنه إذا قال هذا، فالإشارة تكون إلى الكلام من حيث هو كلام، مع قطع النظر عما بلغ به من حركات العبد وصوته، كما أن الرجل إذا كتب اسم الله - تبارك وتعالى - وسمع قائلاً يذكر الله فقال: هذا ١٦٩/١٢ ربي كان صادقاً، ولو قيل له: أتعبد هذا؟ لقال: نعم - لأن المشار إليه هو المسمى بذلك - ألا تعلم المكتوب؟ والاسم يراد به من الكلام المؤلف المسمى، فإذا قال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] فالمراد أن المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله، ليس المراد أن نفس اللفظ والخط هو رسول الله.

ومن هنا تنازع الناس في «الاسم»، هل هو المسمى أو غيره، وكان الصواب أن يمنع من كلا الإطلاقين، ويقال كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] وكما قال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة» (١). والذين أطلقوا أنه المسمى كان أصل مقصودهم أن المراد به هو المسمى، وأنه إذا ذكر الاسم فالإشارة به إلى مسماه، وإذا قال العبد: حمدت الله، ودعوت الله، وعبدت الله، فهو لا يريد إلا أنه عبد المسمى بهذا الاسم.

والذين نفوا ذلك رأوا أن نفس اللفظ أو الخط ليس هو الأعيان المسماة بذلك، وآخرون فرقوا بين التسمية والاسم، فجعلوا الألفاظ هي التسمية، وجعلوا الاسم هو الأعيان المسماة بالألفاظ، فخرجوا عن موجب اللغة المعروفة التي جاء بها الكتاب والسنة.

وأصل مقصود الطوائف كلها صحيح، إلا من توسل منهم بقوله إلى قول باطل؛ ١٧٠/١٢ مثل قول الجهمية: إن الاسم غير المسمى؛ فإنهم توسلوا بذلك إلى أن يقولوا: أسماء الله غيره. ثم قالوا: وما كان غير الله فهو مخلوق بائن عنه، فلا يكون الله - تعالى - سمي

(١) البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٧/٥، ٦).

نفسه باسم، ولا تكلم باسم من أسمائه، ولا يكون له كلام تكلم به، بل لا يكون كلامه إلا ما كان مخلوقاً بائناً عنه.

فهؤلاء لما علم السلف أن مقصودهم باطل أنكروا إطلاقهم القول بأن كلام الله غير الله، وأن علم الله غير الله وأمثال ذلك؛ لأن لفظ «الغير» مجمل، يحتمل الشيء البائن عن غيره، ويحتمل الشيء الذي ليس هو إياه ولا هو بائن عنه. فمن قال: إنه غيره ليجعله بائناً عنه، كان كلا المعنيين صحيحاً، وإن كان في العبارة تقصير.

وهكذا أنكر الأئمة قول من قال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق. وقالوا: من قال: هو مخلوق، فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وكذلك قالوا في «التلاوة»، والقراءة؛ لأن اللفظ والتلاوة والقراءة يراد بهما المصدر الذي هو فعل العبد، وأفعال العباد مخلوقة، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم وغير ذلك من صفاتهم غير مخلوق فهو مبتدع، ويراد بـ «اللفظ» نفس الملفوظ، كما يراد بالتلاوة والقراءة نفس الكلام، وهو القرآن نفسه. ومن قال: كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ وقرأه المسلمون مخلوق فهو جهمي.

ومن المعلوم أنه إذا سمع الناس كلاماً مُحَدَّثٌ يُحَدَّثُ بحديث النبي ﷺ، كقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) قالوا: هذا كلام النبي ﷺ، أو هذا كلامه بعينه؛ لأنهم قد علموا أن النبي ﷺ تكلم بذلك الكلام، لفظه ومعناه، وتكلم بصوته، ثم المبلغ له عنه بلغه بصوت نفسه، فالكلام كلام النبي ﷺ، هو الذي تكلم بمعانيه وألف حروفه بصوته، والمبلغ له بلغه بفعل نفسه وصوت نفسه.

فإذا قالوا: هذا كلام النبي ﷺ، كانت إشارتهم إلى نفس الكلام الذي هو الكلام حروفه ونظمه ومعانيه، لا إلى ما اختص به المبلغ من حركاته وأصواته؛ بل يضيفون الصوت إلى المبلغ فيقولون: صوت حسن، وما كان في الكلام من فصاحة حروفه ونظمه وبلاغة معانيه فإنما يضاف إلى المتكلم به ابتداءً، لا إلى المبلغ له؛ ولكن يضاف إلى المبلغ حسن الأداء؛ كتجويد الحروف، وتحسين الصوت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

١٧٢/١٢ / وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس، فيقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟»^(٢)، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٣)، وقال: «الله أشد أذناً

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(٢)، (٣) سبق تخريجهما ص ٤١٣.

إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْتَةِ إلى قَيْتِهِ» (١).

فبين الله ورسوله أن القرآن المسموع كلام الله لا كلام أحد من المخلوقين، والناس يقرؤونه بأصواتهم ، فمن قال: إن هذا القرآن المسموع ليس هو كلام الله، أو هو كلام القارئ كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعاً وعقلاً، كما أن من قال: إن هذا الصوت المسموع ليس هو صوت العبد أو هو صوت الله، كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعاً وعقلاً، بل هذا هو كلام الله لا كلام غيره، سمعه جبريل من الله، وسمعه النبي ﷺ من جبريل، وسمعه المسلمون من نبيهم، ثم بلغه بعضهم إلى بعض ، وليس لأحد من الوسائط فيه إلا التبليغ بأفعاله وصوته، لم يحدث منهم أحد شيئاً من حروفه، ولا نظمه، ولا معانيه، بل جميع ذلك كلام الله - تعالى.

القول الخامس: قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم: أن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلاً بكلام، بل ما زال عندهم قادراً على الكلام، وهو عندهم لم يزل متكلاً ؛ بمعنى أنه لم يزل قادراً على الكلام، وإلا فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع، كوجود الأفعال عندهم، وعند من وافقهم من أهل الكلام، كالمعتزلة وأتباعهم. ١٧٣/١٢ وهم يقولون: إنه حروف وأصوات حادثة بذات الرب، بقدرته ومشيئته. ولا يقولون: إن الأصوات المسموعة، والمداد الذي في المصحف قديم، بل يقولون: إن ذلك محدث.

القول السادس: قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم: إن الله - تعالى - لم يزل متكلاً إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت، كما جاءت به الآثار، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية. كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته، ليس ببائن عنه مخلوقاً. ولا يقولون: إنه صار متكلاً بعد أن لم يكن متكلاً، ولا أن كلام الله - تعالى - من حيث هو هو حادث، بل ما زال متكلاً إذا شاء ، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته، فكلامه لا ينفذ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِي رَفِيَ لَنفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتِي رَفِيَ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ويقولون: ما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة، ودلت عليه العقول الزكية الصريحة، فلا ينفون عن الله - تعالى - صفات الكمال - سبحانه وتعالى - فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلم، ولا تسمع ولا تبصر، فلا تكلم عابديها، ولا تهديهم سبيلاً،

(١) ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٤٠) وفي الزوائد: «إسناده حسن»، وأحمد ١٩/٦، ٢٠، كلاهما

عن فضالة بن عبيد.

و«أذناً»: أي استماعاً. انظر: النهاية ٣٣/١.

ولا ترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً.

١٧٤/١٢ / ومن جعل كلام الله لا يقوم إلا بغير الله كان المتصف به هو ذلك الغير، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]؛ ولهذا اشتد تكبير السلف على من قال ذلك، وقالوا: هذا نظير قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَلَعَلَّ﴾ [النازعات: ٢٤] أي: هذا كلام قائم بغير الله؛ ولهذا صرح بحقيقة ذلك الاتحادية - كابن عربي ونحوه - الذين يقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وأهل هذا القول - الموافقون للسلف والأئمة - لا يقولون: إن الرب كان مسلوباً صفات الكمال في الأزل، وأنه كان عاجزاً عن الكلام حتى حدث له قدرة عليه، كالطفل. والذين يقولون: إن القرآن مخلوق يجعلون الكلام لغيره، فيسلبونه صفات الكمال، ويقولون: إنه لا يقدر على الكلام في الأزل، لا على كلام مخلوق ولا غيره. وهم إن لم يصرحوا بالعجز عن الكلام في الأزل فهو لازم لقلوبهم. والكرامية فروا من الأول، وجعلوه متكلماً بكلام يقوم به، لكن لم يجعلوه متكلماً في الأزل، بل ولا قادراً على الكلام في الحقيقة في الأزل.

والكلابية - ومن وافقهم من السالية ونحوهم - وصفوه بالكلام في الأزل، وقالوا: إنه موصوف به أزلاً وأبداً، لكن لم يجعلوه قادراً على الكلام، ولا متكلماً بمشيئته ١٧٥/١٢ واختياره، ولا يقدر أن يحدث شيئاً يكون به مكلماً لغيره، لكن يخلق لغيره إدراكاً بما لم يزل، كما يزيل العمى عن الأعمى الذي لا يرى الشمس التي كانت ظاهرة متجلية، لا أن الشمس في نفسها تجلت وظهرت، وهذا يقوله كثير من هؤلاء في رؤيته: إنها ليست إلا مجرد خلق الإدراك، ليس هناك حجب منفصلة عن الرأي، فلا يكشف، حجاباً، ولا يرفع حجاباً.

والقرآن مع الحديث ومع العقل يرد على هؤلاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية لكان الوحي وإرسال الرسل من وراء حجاب، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي الصحيح: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، وينجيننا من النار؟». قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر»^(١) والآثار في

(١) مسلم في الإيمان (٢٩٧/١٨١).

ذلك كثيرة.

وأيضاً، فقول الكلابية : إن الحقائق المتنوعة شيء واحد، وقول الآخرين: إن الأصوات المتضادة تجتمع في آن واحد، مما يقول أكثر العلماء العقلاء أنه معلوم الفساد بالضرورة ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال في غير هذا الموضع .

/والمقصود هنا: الجواب عن قول هذا القائل: فقوم إلى أنه قديم الصوت والحرف، وهم ١٧٦/١٢ الحشوية، إن أراد بذلك قول من يقول: إن نفس الأصوات مجتمعة في الأزل ، فهذا قول من تقدم من السالمية، وغيرهم من أهل الكلام والحديث .

وأما قول القائل: «حشوية» ، فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا في الشرع، ولا في اللغة، ولا في العرف العام، ولكن يذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد . وقال : كان عبد الله بن عمر حشويًا، وأصل ذلك: أن كل طائفة قالت قولاً تخالف به الجمهور والعامّة ينسب إلى أنه قول الحشوية، أي الذين هم حشو في الناس ليسوا من المتأهلين عندهم، فالمعتزلة تسمى من أثبت القدر حشويًا، والجهمية يسمون مثبتة الصفات حشوية، والقرامطة- كأتباع الحاكم- يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويًا.

وهذا كما أن الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور ، وكذلك الفلاسفة تسمى ذلك قول الجمهور، فقول الجمهور وقول العامة من جنس واحد .

فإن كان قائل ذلك يعتقد أن الخاصة لا تقوله، وإنما تقوله العامة والجمهور، فأضافه إليهم وسماهم حشوية، والطائفة تضاف تارة إلى الرجل الذي هو رأس مقالاتها، كما يقال: الجهمية، والاباضية، والأزارقة، والكلابية، والأشعرية، والكرامية،/ويقال في ١٧٧/١٢ أئمة المذاهب: مالكية، وحنفية، وشافعية، وحنبلية، وتارة تضاف إلى قولها وعملها، كما يقال: الروافض، والخوارج ، والقدرية، والمعتزلة ، ونحو ذلك، ولفظة الحشوية لا ينبني لا عن هذا ولا عن هذا.

وأما قوله : « وقوم ذهبوا إلى أنه حادث بالصوت والحرف- وهم الجهمية » فهو كلام من لا يعرف مقالات الناس؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله لا يتكلم ، وليس له كلام، وإنما خلق شيئاً فعبّر عنه، ومنهم من قال: إنه يتكلم بكلام يخلقه في غيره، وهو قول المعتزلة .

وأما الكرامية فتقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو متكلم به بحرف وصوت. ويقولون مع ذلك: إنه حادث قائم به، وهم ليسوا من الجهمية، بل يردون

عليهم أعظم الرد، وهم أعظم مباينة لهم من الأشعرية. ويقولون مع ذلك : إن القرآن حادث في ذات الله.

ثم من هؤلاء من يقول : إن كلام الله كله حادث ومنهم من لا يقول ذلك، وهذا القول معروف عن أبي معاذ التومني، وزهير البائي، وداود بن علي الأصبهاني، بل والبخاري صاحب الصحيح وغيره، وطوائف كثيرة يذكر عنهم هذا، فليس كل من قال : إنه حادث كان من الجهمية، ولا يقول : إنه مخلوق.

١٧٨/١٢ / وأما قوله: «وقوم نحوا إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف ، إلا معنى قائم بذات الله – وهم الأشعرية» فهذا صحيح، ولكن هذا القول أول من قاله في الإسلام عبد الله بن كلاب؛ فإن السلف والأئمة كانوا يشتون لله – تعالى – ما يقوم به من الصفات، والأفعال، المتعلقة بمشيئته وقدرته. والجهمية تنكر هذا وهذا، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفات القديمة، وأنكر أن يقوم به شيء يتعلق بمشيئته وقدرته.

وجاء أبو الحسن الأشعري بعده – وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي ثم إنه رجع عن مقالة المعتزلة، وبين تناقضهم في مواضع كثيرة، وبالغ في مخالفتهم في مسائل القدر، والإيمان، والوعد والوعيد، حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة، والجبرية والواقفة – وسلك في الصفات طريقة ابن كلاب. وهذا القول في القرآن هو قول ابن كلاب في الأصل، وهو قول من اتبعه كالأشعري وغيره.

وقوله : «فمن قال: إن الحرف والصوت الملفوظ بهما عين الكلام القديم فلاهل الحق فيه رأيان: رأي بتكفيره، ورأي بتبديعه»، إلى قوله: «وليعلم أن الحرف اللساني والحرف البناني كلاهما مقيد بزمام تصرفه».

١٧٩/١٢ / فيقال : أما القول بأن المداد المكتوب قديم فما علمنا قائلًا معروفًا قال به، وما رأينا ذلك في كتاب أحد من المصنفين، لا من أصحاب أبي حنيفة، ولا مالك، ولا الشافعي ولا أحمد، بل رأينا في كتب طائفة من المصنفين من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، إنكار القول بأن المداد قديم، وتكذيب من نقل ذلك، وفي كلام بعضهم ما يدل على أن في المصحف حرفاً قديماً ليس هو المداد.

ثم منهم من يقول: هو ظاهر فيه، ليس بحال، ومنهم من يقول هو حال. وفي كلام بعضهم ما يقتضي أن يكون ذلك هو الشكل؛ شكل الحرف وصورته، لا مادته التي هي مداده، وهذا القول – أيضاً – باطل، كما أن القول بأن شيئاً من أصوات الآدميين قديم هو قول باطل، وهو قول قاله طائفة من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور

هؤلاء ينكرون هذا القول. وكلام الإمام أحمد وجمهور أصحابه في إنكار هذا القول كثير مشهور.

ولا ريب أن من قال: إن أصوات العباد قديمة فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله، كما أن من قال: إن هذا القرآن ليس هو كلام الله فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله.

ومن قال: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، بل بعضه كلام الله وبعضه ليس ١٨٠/١٢ كلام الله فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله. ومن قال: إن معنى آية الكرسي، وآية الدين، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ معنى واحد فهو مفتر مبتدع، له حكم مثله.

وأما التكفير، فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد ﷺ، وقصد الحق، فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه. ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين، فهو كافر. ومن اتبع هواه، وقصر في طلب الحق، وتكلم بلا علم، فهو عاص مذنّب، ثم قد يكون فاسقاً، وقد تكون له حسنات ترجع على سيئاته.

فالتكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص، فليس كل مخطئ ولا مبتدع، ولا جاهل ولا ضال، يكون كافراً، بل ولا فاسقاً، بل ولا عاصياً، لا سيما في مثل «مسألة القرآن»، وقد غلط فيها خلق من أئمة الطوائف، المعروفين عند الناس بالعلم والدين.

وغالبهم يقصد وجهها من الحق فيتبعه، ويعزب عن وجه آخر لا يحققه، فيبقى عارفاً ببعض الحق جاهلاً ببعضه، بل منكراً له.

ومن هاهنا نشأ نزاعهم، فالذين قالوا: إنه مخلوق، رأوا أن الكلام لا يكون إلا ١٨١/١٢ بقدرة المتكلم ومشيتته، وإن كلاماً لازماً لذات المتكلم لا يعقل؛ فإنه إن جعل معنى واحداً كان مكابرة للعقل، وكذلك إن جعل أصواتاً أزلية، ثم ظنوا أن ما كان بقدرة الرب ومشيتته لا يكون إلا منفصلاً عنه، وما انفصل عنه فهو مخلوق، ولهذا أنكروا أن يجيء، أو يأتي، أو ينزل، وغير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة.

وآخرون وافقوهم على هذا الأصل الذي أحدثه أولئك، وهو أنه لا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته، لكن رأوا أن كلاماً لا يقوم بالتكلم لا يكون كلاماً له، فقالوا: إن كلامه قائم به.

ثم رأى فريق أن قدم الأصوات ممتنع، فجعلوا القديم هو المعنى، ثم رأوا أن تعدد المعاني القديمة ممتنع، وأنه يفضي إلى وجود معاني لا نهاية لها، فقالوا: هو معنى واحد.

ورأى فريق آخر أن كون المعاني المتنوعة معنى واحداً ممتنع، وكون الرب لم يتكلم بحروف القرآن، بل خلقها في غيره موافقة لمن جعل الكلام لا يقوم بالتكلم؛ فإن تلك الحروف المنظومة – كالقرآن العربي – إن قالوا: هو كلام الله لزم ألا يكون كلامه قائماً به بل بغيره، وإن قالوا: ليس كلاماً لله لزم أن يكون كلاماً لمن خلقت فيه، فلا يكون الكلام العربي كلاماً لله، بل كلاماً لمن خلق فيه. وهذا هو الذي أنكروه على من قال: القرآن مخلوق. والذي قال إنه مخلوق، لم يقل إلا هذا، فلزمهم أن يوافقوا في الحقيقة قول من يقول: القرآن مخلوق، وإن ضموا إلى ذلك قولاً لا حقيقة له يخالف العقل والنقل، وهو إثبات معنى واحد يكون هو جميع معاني التوراة، والإنجيل، والقرآن، لكنهم إنما قالوا ذلك فراراً من أقوال ظنوها باطلة، فلم يقصدوا إلا الفرار عما رأوه باطلاً، فوقعوا في أقوال لها لوازم تقتضي بطلانها – أيضاً.

فلما رأى هذا الفريق الثاني ما أجاب به هؤلاء، قالوا: إنه حروف وأصوات، قديمة أزلية. فرد عليهم غيرهم. وقالوا: إن الأصوات متضادة في نفسها، والضدان لا يجتمعان، وأقل ما في الأمور القديمة أن تكون مجتمعة، وقالوا لهم: الأصوات مستلزمة للحركات المستلزمة للقدرة والإرادة، فلا تكون الأصوات إلا بقدرة وإرادة، وما كان كذلك لم يكن قديم العين، لكن النزاع في كونه قديم النوع. وقالوا: الأصوات هي في نفسها يمتنع بقاؤها، وما امتنع بقاؤه امتنع قدمه، فامتنع قدم الأصوات.

وقال آخرون: إذا كان الأمر كذلك كان متكلاً بحروف، وأصوات، حادثة بمشيئته وقدرته، قائمة بذاته، لكن يمتنع قدم شيء من ذلك؛ لأن الحوادث لا تكون أزلية، ورأوا أن هذا القول ينجيهم من/سائر ما وقع فيه غيرهم، وليس فيه ما ينكر أولئك عليهم، إلا أن يقوم بذات الرب ما يتعلق بمشيئته وقدرته.

فإن المعتزلة نفت أن يقوم به شيء من المعاني، وعبروا عن ذلك بأنه لا يقوم به شيء من الأعراض والحوادث، فسموا ما يقوم به من العلم، والقدرة، والحياة، أعراضاً. وما يقوم به من الخلق، والإحسان والإتيان، والمجيء، والنزول حوادث. وقالوا – لسلف الأمة وأئمتها وجمهورها –: إن قلت: الكلام المعين لازم له، فقد قلت: إنه تقوم به الأعراض، وإن قلت: يتكلم باختياره وقدرته، فقد قلت: تقوم به الحوادث.

فقال هؤلاء: كلام المعتزلة وقولهم: لا تقوم به هذه الأمور، كلام باطل، مخالف للكتاب والسنة، ولإجماع سلف الأمة، وهو – أيضاً – مخالف لصريح العقل؛ فإن إثبات عالم بلا علم، وقادر بلا قدرة، وحي بلا حياة، ممتنع في صريح العقل، وكذلك إثبات خالق وعادل بلا خلق ولا عدل، وإثبات فاعل لا يقوم به فعل، وإثبات رب لا يقدر على

التصرف بنفسه، بل يكون بمنزلة الجماد سلب لصفات الكمال عنه، كما أن إثبات رب لا يعلم ولا يقدر سلب لصفات الكمال عنه.

/قال هؤلاء : فإذا قلنا : إنه تكلم بالكلام، حروفه ومعانيه، بمشيئته وقدرته، سلمنا ١٨٤/١٢ من هذه المحاذير، ولم يكن منا محذور شرعي ولا عقلي.

فقال لهم الفريق السابع : ولكن جعلتموه عاجزاً عن الكلام في الأزل، مسلوباً للكمال، ولزمكم أن يقال : إذا كان من الأزل إلى الأبد لم يتكلم ثم تكلم، كان ذلك أمراً حادثاً، فيحتاج إلى سبب حادث، والقول في ذلك الحادث كالقول في الأول، فيلزم تسلسل الحوادث، فإن كان ذلك ممتنعاً بطل قولكم، وإن كان جائزاً فقولوا : لم يزل متكلماً إذا شاء، كما قاله أئمة السنة وجماهير أهل الحديث، فإنكم - حيثئذ - تكونون قد وصفتم ربكم بصفات الكمال أزلاً وأبداً.

قالوا : وهذا القول خير من سائر الأقوال، مع موافقته المعقول وصحيح المنقول . فقال لهم أولئك : هذا يستلزم حوادث لا أول لها . وذلك ممتنع ، فقال لهم هؤلاء : هذا كلام مبتدع، وإنما أخذتموه عن المعتزلة لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها، ولا دل عليه العقل ؛ بل العقل يدل على نقيضه .

والذين قالوا هذا القول من المعتزلة ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية، ظنوا أنهم بهذا القول يثبتون حدوث العالم، بناء على أن الأجسام لا تخلو من الأعراض المحدثه، وما لا يخلو من الحوادث فهو/محدث، وهذا القول هو الذي سلط عليهم الفلاسفة ١٨٥/١٢ الدهرية القائلين بقدم العالم ؛ فإن هذا القول الذي قالوه وجعلوه مستلزماً لحدوث العالم هو مناقض لحدوث العالم، بل هو مناقض لإثبات الصانع، فهم قصدوا نصر الإسلام بما ينافي دين الإسلام.

ولهذا كثر ذم السلف لمثل هذا الكلام، وهذا هو أصل الكلام المذموم عند سلف الأمة وأئمتها، وذلك لأن الشيء إذا كان يمكن وجوده ويمكن عدمه فلا يوجد إلا بمقتضى يستلزم وجوده، وإن جاز وجوده بدون ذلك أمكن أن تكون المخلوقات - التي يمكن وجودها وعدمها - وجدت بلا فاعل، فلا بد للممكنات من وجود واجب يحصل به وجودها، ولا تكون مع وجود المقتضى التام محتملة للوجود والعدم، بل يكون وجودها لازماً حتماً؛ فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا شاء الرب شيئاً لم يمكن ألا يكون، بل يجب كونه بمشيئة الرب - تعالى - المستلزمة لقدرته .

قالوا : وإذا كان كذلك، فالحوادث الذي يمكن وجوده ويمكن عدمه إذا حدث بدون

سبب حادث مع استواء نسبته إلى جميع الأوقات، واستواء نسبة جميع الحوادث والأوقات إلى مشيئة الرب وقدرته لزم من ذلك أن يكون قد تخصص بعض الحوادث بالحدوث، ١٨٦/١٢ وبعض/الأزمنة بالحدوث، من غير مخصص يقتضي ذلك، ومن غير سبب حادث يقتضي الحدوث.

وهذا، مع أنه فاسد في صريح العقول، فهو يبطل ما استدلوا به على إثبات الصانع، فلا بد - حينئذ - أن يكون لحدوث الحوادث سبب حادث، وحينئذ فما من حادث إلا وهو مسبوق بحادث، وحينئذ فهذا يقتضي أن الله إذا كان متكلماً بمشيئته وقدرته، أمكن أنه لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته، ولم يجر أن يصير متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً بحال؛ لأن ذلك يقتضي حدوث الحادث بلا سبب حادث وهو ممتنع، ويقتضي أنه تجدد له من صفات الكمال ما أمكن ثبوته في الأزل، وذلك ممتنع؛ وذلك لأن صفات الكمال التي يمكن اتصاف الرب بها لا يجوز أن يتوقف ثبوتها له على غيره؛ لأنه يلزم أن يكون ذلك الغير هو المعطي له صفات الكمال، ومعطي غيره صفات الكمال أولى بأن يكون هو الرب - تعالى - ورب العالمين، الخالق ما سواه، الذي يعطيه صفات الكمال لا يكون غيره ربا له بوجه من الوجوه، سبحانه وتعالى عن ذلك.

وحينئذ فيجب اتصافه بالكلام إذا شاء أزلاً وأبداً.

١٨٧/١٢ قال هؤلاء : وهذا الأصل يبطل حجة الفلاسفة الدهرية، التي/احتجوا بها على قدم العالم، وعجزتم أنتم معاصر المعتزلة وأتباعكم - من المتكلمين القائلين بامتناع دوام الحوادث - عنها، فإنهم ألزمواكم على أصولكم؛ إذ قدرتم ثبوت موجود لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يفعل شيئاً، بل يمتنع منه في الأزل كل شيء يكون منه؛ من كلام أو فعل. فقالوا : إذا قدرنا وجود هذا، وأنه يبقى دائماً أبداً، لا يتكلم ولا يفعل شيئاً، ثم تكلم وفعل، فلا بد من سبب أوجب حدوث هذا الكلام والفعل، إما حدوث قدرة أو إرادة، أو علم أو غير ذلك من الأسباب. فأما إذا قدر حاله فيما لا يزال كحاله فيما لم يزل، امتنع أن يتجدد له كلام، أو فعل، أو غير فعل.

فهذه حجة الفلاسفة عليكم، وأنتم لم تحيئوهم إلا بالمكابرة أو بالإلزام، فالمكابرة : دعواكم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب، بل جعلتم نفس القدرة أو الإرادة القديمة تخصص أحد المتماثلين عن المثل الآخر بلا سبب أصلاً، مع أن نسبتها إلى جميع المتماثلات نسبة واحدة، وهذا مع أنه معلوم البطلان بالضرورة، فهو يسد عليكم طريق «إثبات الصانع»، فإنه مبني على أن الحوادث لا بد لها من محدث، والمخصص لا بد له من مخصص، والترجيح لا بد له من مرجح، إذا كان المخصص أو المرجح من

الممكنات، أو المحدثات.

وأما الإلزام : فقولكم : إن هذا الإشكال لازم للفلاسفة ، كما هو/لازم لنا؛ فإن ١٢/١٨٨ الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علة تامة أزلية- وليس عندكم إلا العلة التامة الأزلية- لزم ألا يكون للحوادث محدث.

وأما نحن إذا سلكننا طريق سلف الأمة وأئمتها، فنقول لهؤلاء الفلاسفة : بل خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، كما أخبرت به الرسل، فحدثت بأسباب حدثت قبل ذلك، وإذا قلنا: إنه لم يزل متكلما إذا شاء - ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] كان ما يحدث حادثاً بما شاء أن يتكلم به من كلامه، لا سيما إذا قيل بنظر ذلك في إرادته - سبحانه وتعالى - وأمكننا أن نجيب الفلاسفة بجواب آخر، مركب عنا وعنكم.

فنقول لهم : وجود حوادث لا أول لها ممكن أو ممتنع؟

فإن قلتم : ممتنع، لزمكم القول بحدوث العالم، وأمكن - حينئذ - صحة قول الكرامية ونحوهم.

وإن قلتم: هو ممكن . قيل : فممكن - حينئذ - أن يكون هذا العالم حدث بسبب حادث قبله. وكذلك السبب الآخر لا إلى غاية، والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة، مشكلة، /بسببها افترت الأمة ١٢/١٨٩ واختلفت، فإذا اجتهد الرجل في متابعة الرسول، والتصديق بما جاء به، وأخطأ في المواضع الدقيقة التي تشبه على إذكاء المؤمنين، غفر الله له خطاياه؛ تحقيقاً لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد ثبت في الصحيح أن الله قال: «قد فعلت»^(١).

وأما قول القائل: «ومن قال: كلام الله منزّه عن سمات الحدوث إذ الصوت والحرف لازمهما الحدوث، فكما لذاته التنزيه عن سمات الخلق كذلك لقوله الحق فيقال له:

لا نزاع بين المسلمين- بل وسائر أهل الملل وغيرهم من العقلاء - أن الخالق منزّه عن سمات الحدوث؛ فإن قدمه ضروري، فيمتنع أن يقوم دليل على حدوثه، و«السمّة» هي العلامة والدليل. ولكن منازعوك في الصوت والحرف جمهور الخلائق؛ إذ لم يوافق

(١) مسلم في الإيمان (١٢٦/ ٢٠٠) عن ابن عباس.

الكلاية على قولهم أحد من الطوائف، لا الجهمية، ولا المعتزلة، ولا الضرارية، ولا النجارية، ولا الكرامية، ولا السالية، ولا جمهور المرجئة والشيعة، ولا جمهور أهل الحديث والفقه والتصوف، ولا الفلاسفة؛ لا الإلهيون، ولا الطبائعون على اختلاف أصنافهم.

وخصومهم منهم من يقول: الحروف محدثة مخلوقة في محل منفصل عن الله، كما ١٩٠/١٢ يقولون هم ذلك، لكن يقولون: هذا كلام الله ليس لله كلام غيره، كما أجمع المسلمون على أن هذا كلام الله، بل أجمعت الأمم على أن الكلام لا يعقل إلا كذلك.

فإن قلت: هذا هو كلام الله، لزمكم أن يكون كلامه مخلوقاً، وإن قلت: ليس ذلك كلام الله، خالفتم المعلوم بالاضطرار من الشرع واللغة، وإن قلت: نسمى هذا كلام الله، وهذا كلام الله، كلاهما حقيقة بطريق الاشتراك اللفظي. قيل لكم: فإذا ثبت أن الكلام المخلوق في غيره هو كلام له حقيقة، بطل أصل حجتكم، التي احتججتم بها، حيث قلت: الكلام لا يكون كلاماً إلا لمن قام به، ولا يكون المتكلم متكلماً بكلام يحل في غيره.

وقالوا لكم - أيضاً - : إثبات المعنى الذي أثبتموه غير هذه الحروف، والأصوات يحتاج إلى إثبات وجوده، ثم إثبات قدمه، ثم إثبات حدوثه، وكل من هذه المقامات أنتم فيها منقطعون، كما هو مبسوط في موضعه، وكما اعترف بذلك فضلاء هذه المقالة.

والفريق الثاني يقول لكم: إنا نسلم لكم أن الحروف والأصوات محدثة، لكن نقول: هي كلام الله القائم بذاته، فإن قلت: هذا يستلزم كونه محلاً للحوادث، قالوا لكم: ونفس هذا من كلام المعتزلة الذي تلقيتموه عنهم، وليس لكم على ذلك حجة، ١٩١/١٢ لا عقلية ولا شرعية، وقد اعترف فضلاؤكم بأن هذا القول يلزم جمهور الطوائف، وقال لكم منازعوكم: قد دل على هذا الأصل الأدلة الشرعية والعقلية.

والفريق الثالث: يقول لكم: هب أنها محدثة، أهي محدثة الأعيان أم نوعها محدث؟ فإن قلت: إن كل فرد من أفرادها محدث لم ينفعكم. وإن قلت: بل النوع محدث لا متنازع حوادث لا تنتهى. قيل لكم: هذا مما ينازعكم فيه جمهور أهل الحديث، مع جمهور الفلاسفة، وينازعكم فيه أئمة الملل وأئمة النحل، وينازعكم فيه الأئمة من أهل التوراة والإنجيل، والقرآن، والأئمة، من الصابئة، والفلاسفة، والمجوس وغيرهم، وإنما ابتدع هذا القول في الإسلام طائفة من أهل الكلام، الذين ذمهم أئمة الدين، وأعلام المسلمين، وهذا القول ليس معلوماً بالكتاب والسنة والإجماع، ولا قاله أحد من السلف والأئمة؛ وإنما هو قول مبتدع، ومبتدعه يزعم أن العقل دل عليه، ويثبت به حدوث العالم، والعلم

بإثبات الصانع .

وهؤلاء يقولون له : العقل يدل على نقيضه ، وأنه مناف مضاد لحدوث العالم ، ولإثبات الصانع ، وهذا مبسوط في موضعه ، وإنما المقصود التنبيه على ما في هذا الكلام من موارد النزاع ، ومواقع الإجماع .

/ وقول القائل : كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق ، فكذلك لقوله الحق . فهذا من ١٩٢/١٢
جنس سجع الكهان ، الذي لا يقيم حقًا ولا يبطل باطلا ، فهل تقول : إن كل ما وصف به الرب من الصفات يتصف به كل ما له من الكلمات ، أو غيرها من الصفات ؟ وإذا قيل : إن الرب تعالى إله قادر ، خالق معبود ، فهل يجب أن يكون شيء من كلماته وصفاته إلهًا قادرًا ، خالقًا ، معبودًا ؟ وهذا القول يضاهي قول النصارى ، الذين قالوا : كما أن أقنوم الوجود إله ، فكذلك أقنوم الكلمة والروح ، فيثبتون للصفات الإلهية ، التي أثبتوها للذات .

والرب — تعالى — له كلام قائم بمحل لا يوجد بغيره ، إذ لا بد للكلام من محل لا يوجد الكلام بدونه ، فهل يجب أن يفتقر الرب إلى محل يقوم به ، كما يفتقر الكلام إلى ذلك ؟ ولكن يجب تنزيه كلامه عن كل نقص وعيب ؛ إذ هو المستحق للكمال في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، ويمتنع أن يخلو عن صفات الكمال من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك من صفات الكمال ، مع أنه يتصف بها بعض مخلوقاته ، فالموصوف الواجب الوجود القديم الأزلي أحق بصفات الكمال من المخلوقات ، وكل كمال ثبت لمخلوق فمن الخالق استفاده ، والخالق أوهبه إياه ، وأعطاه فواهب الكمال ، ومعطيه أحق به وأولى .

وهذا مما يعبر عنه كل قوم باصطلاحهم ، حتى تقول المتفلسفة : / كل كمال ثبت ١٩٣/١٢
للمعلول فهو من كمال العلة . ومعلوم أن المخلوق الذي خلق من قبل ، ولم يك شيئًا ليس له من نفسه شيء أصلا ، بل كل ما له فمن خالقه — سبحانه وتعالى .

وأما قوله : ولتعلم أن الحرف اللساني والحرف البناني كلاهما مقيد بزمان ، يصرفه المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن أن تكتنفه الحدوثان ، فقد عرف منازعة المنازعين له في هذا ، ولم يذكر إلا مجرد الدعوى ، وقد علم أن تصور الدعوى معلوم الفساد بالضرورة عند أكثر العقلاء ، وأن الدليل عليها مقدمات ينازعه فيها جمهور العقلاء ، وآخرها ينتهي إلى مقدمات تلقوها عن شيوخهم المعتزلة ؛ فإن الكلابية والأشعرية إنما أخذوا مقدمات هذا الكلام ، ومادته منهم . وقد عرف حالهم في ذلك .

وقوله : المولى متكلم قبل الزمان ، إن أراد أنه — سبحانه وتعالى — قبل السموات

والأرض ، والليل والنهار، وقبل جميع المخلوقات، فهذا حق ، لكن من أين له أن كل ما كلم به عباده، ويكلمهم به يوم القيامة، يجب أن يكون قبل جميع المخلوقات؟ ومن أين له أنه قبل خلق العالم كان منادياً لموسى، قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

١٩٤/١٢ / وإن أراد أنه - سبحانه وتعالى - قبل ما يوصف بالقبل فهذا ممتنع، فإنه - سبحانه - موصوف بأنه الأول قبل كل شيء، وإن أراد بذلك أن الزمان مقدار الفعل والحركة، وأن ذلك ممتنع في الأزل ، فقد عرف أن أئمة الملل والنحل ينارعونه في هذا، مع اتفاق أهل الملل على أن الله خالق السموات والأرض في ستة أيام، وقوله: إن الحرف والصوت أداتان يعبر بهما عن المعنى القائم بذات الله، كما يعبر الإنسان عما قام به من الطلب؛ تارة بالبنان، وتارة باللسان، وتارة بالرأس عند طلب الرواح، وعند طلب الإتيان - فهذا مذهب الحق، ومركب الصدق .

فيقال له : هذا عليه اعتراضات :

أحدها : أن يقال: ما ذلك المعنى القائم بالذات؟ أهو واحد كما يقوله الأشعري، وهو عنده مدلول التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ومدلول آية الكرسي والدين، ومدلول سورة الإخلاص وسورة الكوثر؟ أم هو معان متعددة؟ فإن قال بالأول، كان فسادة معلوماً بالاضطرار. ثم يقال: التصديق فرع التصور، ونحن لا نتصور هذا ، فبين لنا معناه، ثم تكلم على إثباته، فإن قال: هو نظير المعاني الموجودة فينا كان هذا الكلام بعد النزول عما يحتمله من التشبيه والتمثيل باطلاً؛ لأن الذي فينا معان متعددة متنوعة، وإما معنى واحد هو أمر بكل مأمور به، وخبر عن كل مخبر عنه، فهذا غير متصور.

١٩٥/١٢ / الثاني: أن يقال: هب أنه متصور. فما الدليل على ثبوته؟ وما الدليل على قدمه؟

الثالث: أن يقال: قولك :الصوت والحرف عبارة عنه، أتعني به الأصوات المسموعة من القراء، أو الحروف الموجودة في التلاوة والمصاحف ، وإما حروفاً وأصواتاً غير هذه ؟ فإن قلت بالأول ، كان باطلاً من وجوه:

أحدها : أنه كل من أجاد القراءة عبر عما في نفس الله، من غير أن يكون الله عبر عما في نفسه، فيكون المخلوق أقدر من الخالق.

الثاني: أن كثيراً من القراء - أو أكثرهم- لا يفقهون أكثر معاني القرآن، والتعبير عما في نفس المعبر فرع على معرفته، فمن لم يفهم جميع معاني القرآن- كلام الله- فكيف

يعبر عن تلك المعاني؟!

الثالث: أن الناس لا يفهمون معاني القرآن، إلا بدلالة ألفاظ القرآن على معانيه، فإذا سمعوا ألفاظه وتدبروه كان اللفظ لهم دليلاً على المعاني، والمستدل باللفظ على المعنى الذي أراده المتكلم يمتنع أن يكون هو المعبر باللفظ عن المعنى؛ فإن المعبر باللفظ عن المعنى يعرف المعنى أولاً، ثم يدل غيره عليه بالعبارة، والناس في القرآن على ضد ١٩٦/١٢ هذه الحال، فيمتنع أن يكونوا هم المعبرين به.

الرابع: أن كل واحد منهم يعلم أنه تعلم القرآن العربي من غيره، وأنه ليس له فيه إلا الحفظ، والتبليغ، والأداء، بل يعلم أنه إذا حفظ خطب الخطباء، وشعر الشعراء، لم يكن هو المعبر عما في أنفسهم بذلك الكلام، بل يكون الكلام كلامهم، وهو قد حفظه، وأداه، وبلغه. فكيف بكلام رب العالمين؟!

الخامس: أن كل واحد يعلم بالاضطرار أن نفس القرآن العربي كان موجوداً قبل وجود كل القراء. وأن الناس إنما تلقوه عن محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. و بالجملة، فالدلالة على فساد هذا القول أكثر من أن تحصر.

وإن قلت: بل الحروف والأصوات المعبر بها عن المعاني التي أرادها الله من حروف وأصوات كانت موجودة قبل وجود القراء، ولكن كل من القراء حفظ ذلك النظم العربي، الذي كان موجوداً قبله، قيل لك: فحيث قد كان ثم حروف وأصوات غير هذه الأصوات المسموعة من القراء، وغير المداد المكتوب في المصاحف، وهذا هو الحق الذي ١٩٧/١٢ اتفق عليه جميع الخلق.

فقول القائل: إنه ما ثم إلا المعنى القائم بالذات، أو هذه الحروف والأصوات ليس بحق، ويقال له حيث: فتلك الحروف والأصوات هي من كلام الله الذي تكلم به؟ أم هي مخلوقة خلقها في غيره؟ فإن قلت: هي من كلام الله - تعالى - لزمك ما فررت منه، حيث أقررت أن لله كلاماً هو حروف وأصوات، كما يقوله جمهور المسلمين. وإن قلت: ليست كلاماً لله، فهذه أولى من أن تكون كلاماً لله. وحيث فلا يكون هذا القرآن كلام الله، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام.

وأما قوله: من قال: لفظي عين كلام الله، فقد انسلخ عن رتبة العقل، وغرق في بحر العمية والجهل. فيقال: قول القائل: لفظي عين كلام الله، كلام مجمل؛ فإن «اللفظ» في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً، كما أن «التلاوة» والقراءة» في الأصل مصدر تلا يتلو، وقرأ يقرأ، ويعبر باللفظ والتلاوة، والقراءة عن نفس الكلام الملفوظ

به، المتلو المقروء.

فإن الناس إذا قالوا : اللفظ يدل على المعنى، لم يريدوا باللفظ المصدر، بل يريدون به الملفوظ به، وإذا قالوا لمن سمعوه يتكلم: هذه ألفاظ حسنة، أرادوا به ما يلفظه، كما ١٩٨/١٢ قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] يراد باللفظ نفس الفعل، وقد يراد به نفس القول الذي لفظه اللفظ. وهذا كـ «القرآن» قد يراد به المصدر، وقد يراد به الكلام المقروء، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَآتِجْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] والقرآن هنا مصدر، كما في الآية عن ابن عباس، قال: علينا أن نجمله في صدرك، ثم أن تقرأه بلسانك، فإذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته، ثم إن علينا أن نبينه.

وقد يراد بـ «القرآن» نفس الكلام المقروء، كما قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ونظائره كثيرة.

إذا كان كذلك، فقول القائل: لفظي هو عين كلام الله، إن أراد به المصدر فقد أخطأ؛ فإن نفس حركاته ليست هي كلام الله، وهذا لا يقوله أحد يفهم ما يقول.

وإن أراد الثاني : كان المعنى أن هذا القرآن الذي أتلهوه هو عين كلام الله، وهذا هو الذي يقصده الناس، إذا قالوا: الذي يقرأ/القراء عين كلام الله، وهذا الذي نسمعه من القراء عين كلام الله، وهذا الذي يقرأ في الصلاة عين كلام الله، لا يقصد أحد أن يجعل حركات العباد نفس كلامه.

ثم إذا قال القائل هذا فقد وافق قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، بل قد علم بالاضطرار من دين الاسلام أن هذا الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره، تارة يسمع منه كما سمعه موسى بن عمران، وتارة يسمع من المتلقين عنه كما سمعه الصحابة من الرسول، فهذا الذي نسمعه هو كلام الله، متلقى عنه مسموعاً من المبلغ عنه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِبَلَاغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ أَتَوْا رِسَالَتِي رَيْبَ﴾ [الجن: ٢٨]. والناس يعلمون أن الكلام كلام من قاله أمراً

بأمره، مخبراً بخبره، مبتدئاً به، لا كلام من بلغه عن غيره وأداه.

فالناس يقرؤون القرآن، وليس هو كلامهم، ولكنه كلام يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم، وإذا كان كلام النبي ﷺ وكلام غيره إذا رواه الناس عنه، وبلغوه وقرؤوه، فهو كلام النبي ﷺ، وغيره من المتكلمين بذلك الكلام، والنبي ﷺ/تكلم بلفظه، ونظمه، ومعناه، ٢٠٠/١٢ وتكلم به بحروف وأصوات، مع أن أصوات الرواة ليست صوت النبي ﷺ، فالقرآن إذا قرأه الناس وبلغوه بأصواتهم وأفعالهم، كان أولى بأن يكون كلام الله، وإن كانوا لم يسمعه من الله، بل من الخلق.

ومما ينبغي أن يعلم: أن قول الله ورسوله والمؤمنين: أن هذا كلام الله، بل قول الناس لما بلغ من كلام المخلوقين أن هذا كلام فلان حق، كما اتفق على ذلك الناس، لكن عرضت شبهة لكثير من المتنطعين، فلم يفرقوا بين ما إذا سمع كلام المتكلم به، وبين ما إذا سمع من غيره، فظنوا أنه إذا قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] كان بمنزلة سماع موسى كلام الله.

فقال طائفة: المسموع أصوات العباد، وكلام الله ليس هو أصوات العباد، فلا يكون المسموع كلام الله.

وقالت طائفة: بل هذا كلام الله، وهذا مخلوق، فكلام الله مخلوق.

وقالت طائفة: بل هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فهذا غير مخلوق. ٢٠١/١٢

وهذا إذا أطلقوه «مجملاً» فهو حق، لكن قال بعضهم: هذا لفظي أو تلاوتي أو صوتي؛ فلفظي أو تلاوتي أو صوتي غير مخلوق، فضلوا كما ضل غيرهم، ولو اهتمدوا لعلموا أنا إذا قلنا: هذا كلام الله، فلم نشر إليه بما امتاز قارئ عن قارئ، إذا كان من المعلوم أنه ما يسمع من كل قارئ فهو كلام الله، مع العلم بأن صوت هذا القارئ ليس هو صوت هذا القارئ، فقد اتحد من جهة كونه كلام الله، واختلف من جهة أصوات القراء، وهو كلام الله باعتبار الحقيقة المتحدة، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال القراء.

وهذا لأن الكلام إنما يقصد به لفظه ومعناه، ولفظه هو الحروف المقروءة المنظومة. وإن كانت الحروف أصواتاً مقطعة، أو هي أطراف الأصوات المقطعة، فهي من الكلام باعتبار صورتها الخاصة من التقطيع والتأليف، لا باعتبار المادة الصوتية التي يشترك فيها جميع الصائتين، ولهذا ما كان في الكلام من بلاغة وبيان، وحسن تأليف ونظم، وكمال معان وغير ذلك، فهو للمتكلم بلفظه ومعناه، ليس هو لمجرد صفات الذي بلغه وأداه.

وأما قول القائل: من قال: إن مذهب جهنم بن صفوان هو مذهب الأشعري أو ٢٠٢/١٢ قريب أو سواء معه، فهو جاهل بمذهب الفريقين؛ إذ الجهمية/قائلون بخلق القرآن، وبخلق جميع... (١).

والأشعري يقول بقدم القرآن، وأن كلام الإنسان مخلوق للرحمن، فوضح لليب كل من المذاهب الثلاثة.

فيقال: لا ريب أن قول ابن كُلاب والأشعري - ونحوهما من المثبتة للصفات - ليس هو قول الجهمية، بل ولا المعتزلة، بل هؤلاء لهم مصنفات في الرد على الجهمية والمعتزلة، وبيان تضليل من نفاها، بل هم تارة يكفرون الجهمية والمعتزلة، وتارة يضللونهم، لا سيما والجهنم هو أعظم الناس نفيا للصفات، بل وللأسماء الحسنی. قوله من جنس قول الباطنية القرامطة، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئاً، ولا غير ذلك من الأسماء التي يسمى بها المخلوق؛ لأن ذلك - بزعمه - من التشبيه الممتنع، وهذا قول القرامطة الباطنية.

وحكى عنه أنه لا يسميه إلا «قادرًا فاعلاً»؛ لأن العبد عنده ليس بقادر ولا فاعل؛ إذ كان هو رأس المجبرة، وقوله في الإيمان شر من قول المرجئة؛ فإنه لا يجعل الإيمان إلا مجرد تصديق القلب. وابن كلاب - إمام الأشعرية - أكثر مخالفة لجهنم، وأقرب ٢٠٣/١٢ إلى السلف/من الأشعري نفسه، والأشعري أقرب إلى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني. والقاضي أبو بكر وأمثاله أقرب إلى السلف من أبي المعالي وأتباعه؛ فإن هؤلاء نفوا الصفات؛ كالاستواء، والوجه، واليدين.

ثم اختلفوا، هل تناول أو نفوض؟ على قولين أو طريقين، فأول قولي أبي المعالي هو تأويلها، كما ذكر ذلك في «الإرشاد» وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في «الرسالة النظامية»، واستدل بإجماع السلف على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب.

وأما الأشعري نفسه وأئمة أصحابه، فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية، وفي الرد على من يتأولها، كمن يقول: استوى بمعنى استولى. وهذا مذكور في كتبه كلها، كـ «الموجز الكبير» و «المقالات الصغيرة» والكبيرة، و «الإبانة» وغير ذلك. وهكذا نقل سائر الناس عنه، حتى المتأخرون، كالرازي والآمدي ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية، ولا يحكون عنه في ذلك قولين.

فمن قال: إن الأشعري كان ينفيها، وإن له في تأويلها قولين، فقد افترى عليه، ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه، كأبي المعالي ونحوه؛ فإن هؤلاء أدخلوا في

(١) بياض بالأصل.

مذهبه أشياء من أصول المعتزلة .

/والاشعري ابتلى بطائفتين؛ طائفة تبغضه، و طائفة تحبه، كل منهما يكذب عليه ٢٠٤/١٢ ويقول: إنما صنف هذه الكتب تَقِيَّةً، وإظهاراً لموافقة أهل الحديث والسنة، من الخنبلية وغيرهم. وهذا كذب على الرجل؛ فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل أحد من خواص أصحابه، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته؛ فدعوى المدعى أنه كان يطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعاً وعقلاً، بل من تدبر كلامه في هذا الباب - في مواضع - تبين له قطعاً أنه كان ينصر ما أظهره، ولكن الذين يحبونه ويخالفونه في إثبات الصفات الخبرية يقصدون نفي ذلك عنه، لئلا يقال: إنهم خالفوه، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة، قد اقتدوا فيه بحجته التي على ذكرها يقولون، وعليها يعتمدون.

والفريق الآخر دفعوا عنه؛ لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول، ولكونهم اتهموه بالتقية، وليس كذلك، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة، التي خالفهم فيها المعتزلة؛ كمسألة «الرؤية» و «الكلام» وإثبات «الصفات» ونحو ذلك، لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك.

/والمخالفون له من أهل السنة والحديث، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون: إنه ٢٠٥/١٢ متناقض، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنة، كما أن المعتزلة يتناقضون فيما نصرروا فيه دين الإسلام، فإنهم بنوا كثيراً من الحجج على أصول تناقض كثيراً من دين الإسلام، بل جمهور المخالفين للأشعري من المثبتة والنفاة يقولون: إن ما قاله في «مسألة الرؤية والكلام» معلوم الفساد بضرورة العقل.

ولهذا يقول أتباعه: إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا في «مسألة الرؤية، والكلام» فلما كان في كلامه شوب^(١) من هذا وشوب من هذا، صار يقول من يقول: إن فيه نوعاً من التجهم. وأما من قال: إن قوله قول جهم، فقد قال الباطل. ومن قال: إنه ليس فيه شيء من قول جهم، فقد قال الباطل، والله يحب الكلام بعلم وعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتنزيل الناس منازلهم.

(١) أي: خلط. انظر: المصباح المنير، مادة «شوب».

وقول جهم هو النفي المحض لصفات الله - تعالى - وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية، ومنحرفي المتفلسفة ؛ كالفارابي وابن سينا. وأما مقتصد الفلاسفة كأبي البركات صاحب «المعتبر» ، وابن رشد الحفيد- ففي قولهم من الإثبات ما هو خير من ٢٠٦/١٢ قول جهم؛ فإن المشهور عنهم إثبات الأسماء/الحسنى، وإثبات أحكام الصفات، ففي الجملة قولهم خير من قول جهم، وقول ضرار بن عمرو الكوفي خير من قولهم.

وأما ابن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب، بل هؤلاء معروفون بالصفائية، مشهورون بمذهب الإثبات؛ لكن في أقوالهم شيء من أصول الجهمية، وما يقول الناس : إنه يلزمهم بسببه التناقض، وأنهم جمعوا بين الضدين، وأنهم قالوا ما لا يعقل، ويجعلونهم مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهذا وجه من يجعل قولهم شيئاً من أقوال الجهمية، كما أن الأئمة - كأحمد وغيره - كانوا يقولون: اختلفت الجهمية على ثلاث فرق : فرقة يقولون: القرآن مخلوق. وفرقة تقف ولا تقول : مخلوق ولا غير مخلوق. وفرقة تقول : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة.

ومن المعلوم أنهم إنما أرادوا بذلك افتراقهم في «مسألة القرآن» خاصة، وإلا فكثير من هؤلاء يثبت الصفات والرؤية، والاستواء على العرش. وجعلوه من الجهمية في بعض المسائل ؛ أي أنه وافق الجهمية، فيها ليتبين ضعف قوله، لا أنه مثل الجهمية ولا أن حكمه حكمهم؛ فإن هذا لا يقوله من يعرف ما يقول.

ولهذا عامة كلام أحمد إنما هو بجهنم اللفظية ، لا يكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية، وقد نسب إلى هذا القول غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث؛ كالحسين الكرابيسي، ونعيم بن حماد الخزازي، والبويطي، والحارث المحاسبي، ومن الناس من نسب إليه البخاري.

٢٠٧/١٢ / والقول بأن «اللفظ غير مخلوق» نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي، بل وبعض الناس ينسبه إلى أبي زرعة أيضاً ، ويقول : إنه هو وأبو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي ، والقصة في ذلك مشهورة.

وبعد موت أحمد وقع بين بعض أصحابه وبعضهم، وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب، وكان أهل الثغر مع محمد بن داود، والمصيصي شيخ أبي داود، يقولون بهذا. فلما ولي صالح بن أحمد قضاء الثغر: طلب منه أبو بكر المروزي أن يظهر لأهل الثغر «مسألة أبي طالب» فإنه قد شهدا صالح وعبد الله أبناء أحمد، والمروزي، وفوران، وغيرهم. وصنف المروزي كتاباً في الإنكار على من قال: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، وأرسل في ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة، والكوفة والبصرة، وخراسان وغيرهم؛

فوافقه، وقد ذكر ذلك أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» وبسط القول في ذلك .

ومع هذا فطوائف من المتسبين إلى السنة، وإلى أتباع أحمد، كأبي عبد الله بن منده، وابن نصر السجزي، وأبي إسماعيل الأنصاري/وأبي العلاء الهمداني وغيرهم يقولون: ٢٠٨/١٢ لفظنا بالقرآن غير مخلوق . ويقولون: إن هذا قول أحمد، ويكذبون - أو منهم من يكذب - برواية أبي طالب، ويقولون: إنها مفتعلة عليه، أو يقولون: رجع عن ذلك، كما ذكر ذلك أبو نصر السجزي، في كتابه «الإبانة» المشهور.

وليس الأمر كما قاله هؤلاء؛ فإن أعلم الناس بأحمد وأخص الناس وأصدق الناس في النقل عنه، هم الذين روى ذلك عنه، ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق، الذين هم أخص به. وأعظم ما وقعت فتنة «اللفظ» بخراسان، وتُصَبَّ فيها على البخاري - مع جلالته وإمامته - وإن كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة أجلاء، فالبخاري - رضي الله عنه - من أجل الناس.

وإذا حسن قصدهم، واجتهد هو وهم، أثابه الله وإياهم على حسن القصد والاجتهاد، وإن كان قد وقع منه أو منهم بعض الغلط والخطأ فالله يغفر لهم كلهم، لكن من الجهال من لا يدري كيف وقعت الأمور، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين، يقول: مات البخاري بقرية خرتنك، فأرسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم ألا يصلوا عليه لأجل قوله في «مسألة اللفظ»، وهذا من أبين الكذب على أحمد والبخاري، وكاذبه جاهل بحالهما. فإن البخاري - رضي الله عنه - توفي سنة ست وخمسين، بعد موت أحمد بخمسة عشر سنة، فإن أحمد توفي سنة إحدى وأربعين، وكان أحمد مكرماً ٢٠٩/١٢ للبخاري معظماً، وأما تعظيم البخاري وأمثاله لأحمد فهذا أظهر من أن يذكر.

والبخاري ذكر في كتابه في «خلق الأفعال» أن كلتا الطائفتين لا تفهم كلام أحمد. ومن الطائفة الأخرى المنتسبة إلى السنة، وأتباع أحمد؛ أبو نعيم الأصبهاني، وأبو بكر البيهقي، وغيرهما ممن يقول: إنهم متبعون لأحمد، وأن قولهم في «مسألة اللفظ» موافق لقول أحمد. ووقع بين ابن منده وأبي نعيم بسبب ذلك مشاجرة، حتى صنف أبو نعيم كتابه في «الرد على الحروفية الحلولية»، وصنف أبو عبد الله كتابه في الرد على «اللفظية».

والمنتصرون للسنة - من أهل الكلام والفقه؛ كالأشعري، والقاضي أبي بكر بن الطيب، والقاضي أبي يعلى وغيرهم - يوافقون أحمد على الإنكار على الطائفتين، على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وعلى من يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، ولكن يجعلون سبب الكراهة كون القرآن لا يلفظ؛ لأن اللفظ الطرح والرمي.

ثم هؤلاء منهم من ينكر تكلم الله بالصوت. ومنهم من يقر بذلك، بل منهم من يقول: إن الصوت المسموع هو الصوت القديم، وينكرون مع ذلك على من يقول: لفظي ٢١٠/١٢ بالقرآن غير مخلوق، لظنهم أن الكراهة في ذلك لما فيه من الطرح والرمي، وليس الأمر على ما ظنوه؛ فإن الإمام أحمد وغيره من الأئمة لم ينكروا قول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق لكون اللفظ الطرح؛ فإنه لو كان كذلك لما أنكروا إلا مجرد ما يتصرف من حروف لفظ يلفظ، وليس كذلك، بل أنكروا على من قال: التلاوة والقراءة مخلوقة، وعلى من قال: تلاوتي وقراءتي غير مخلوقة، مع جواز قول المسلمين: قرأت القرآن وتلوته.

وأيضاً، فإنه يجوز أن يقال: لفظت الكلام وتلفظت به، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ولكن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة قالوا: من قال: لفظي بالقرآن وتلاوتي أو قراءتي مخلوقة فهو جهمي. ومن قال: إنه غير مخلوق فهو مبتدع؛ لأن «اللفظ» و«التلاوة» و«القراءة» يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، ومصدر قرأ يقرأ قراءة، وتلا يتلو تلاوة، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته، ليس هو بقديم باتفاق سلف الأمة وأئمتها، حتى القدرية القائلون بأن أفعال العباد غير مخلوقة. يقولون: إن ذلك ليس بقديم. ويقولون: إنه مخلوق لله.

والسلف والأئمة — كحماد بن زيد، والمعتز بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان، ٢١١/١٢ وأحمد بن حنبل وغيرهم — أنكروا على من قال: إن أقوال العباد وأفعالهم غير مخلوقة، وقال يحيى بن سعيد: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة، وقال بعض هؤلاء: من قال إن هذا غير مخلوق فهو بمنزلة من قال: إن سماء الله وأرضه غير مخلوقة.

وقد يراد بالتلاوة والقرآن واللفظ نفس القرآن، الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، الذي هو كلام الله. ومن قال: إن كلام الله الذي أنزله على نبيه مخلوق فهو جهمي؛ ولهذا قال أحمد وغيره من السلف: القرآن كلام الله حيث تصرف غير مخلوق، ولم يقل أحد من السلف والأئمة. إن أصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة أو قديمة، ولا قال — أيضاً — أحد منهم: إن المداد الذي يكتب به القرآن قديم، أو غير مخلوق. فمن قال: إن شيئاً من أصوات العباد، أو أفعالهم أو حركاتهم، أو مدادهم قديم، أو غير مخلوق، فهو مبتدع ضال، مخالف لإجماع السلف والأئمة.

وقد بدع أحمد بن حنبل من هو أحسن حالا من هؤلاء، وأمر بهجرهم إن لم يرجعوا عن بدعتهم.

و«مسألة القرآن» قد كثر فيها اضطراب الناس، حتى قال بعضهم: مسألة الكلام حيرت عقول الأنام، وغالبهم يقصدون وجها من الحق، ويعزب عنهم وجه آخر، وكلام ٢١٢/١٢ الأئمة من أشد الكلام، كأحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة المسلمين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق؛ مثل سعيد بن المسيب، وعلى بن الحسين، وعلقمة، والأسود، والحسن البصري، وابن سيرين، وغيرهم من التابعين، ومثل مالك، والثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وحماد ابن زيد، وحماد بن سلمة، وأبي حنيفة، وابن أبي ليلى، وشريك، وأمثالهم من تابعي التابعين، ومثل الشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وأبي عبيد، وأمثالهم من أتباع تابعي التابعين.

وهم أئمة أهل القرون الثلاثة، الذين دخلوا في ثناء النبي ﷺ؛ حيث قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (١).

ومن تدبر كلام أئمة المسلمين في هذا الباب وغيرهم وجده أشد الكلام المطابق لصريح المعقول، وصحيح المنقول. وهذه الجملة لا تحتمل البسط هنا، فقد بسطت في غير هذا الموضع، وبين أن «الكلام المذموم» الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل، المخالف لصحيح المنقول، وصريح المعقول؛ وأن ما ثبت بالأدلة القطعية لا يتعارض ولا يتناقض أصلاً، فلا يتعارض دليان يقينيان أصلاً، سواء كانا عقليين/أو سمعيين، أو كان ٢١٣/١٢ أحدهما عقلياً والآخر سمعياً، ومن ظن أنهما يتعارضان كان ذلك خطأ منه؛ لاعتقاده في أحدهما أنه يقينياً، ولا يكون كذلك ولا سيما إذا كانا جميعاً غير يقينيين.

واختلاف الناس في هذا الباب وغيره كثير، منه يكون «اختلاف تنوع» مثل أن يقصد هذا حقاً فيما يشبهه، والآخر يقصد حقاً فيما نقضه، وكلاهما صادق. لكن يظنان أن بينهما نزاعاً معنوياً، ولا يكون الأمر كذلك، وكثير من النزاع يعود إلى إطلاقات لفظية، لا إلى معان عقلية، وأحسن الناس طريقة من كان إطلاقه موافقاً للإطلاقات الشرعية، والمعاني التي يقصدها معان صحيحة، تطابق الشرع والعقل... (٢).

وأصل منشأ نزاع المسلمين في هذا الباب: أن المتكلمين - من الجهمية، والمعتزلة، ومن اتبعهم - سلكوا في إثبات حدوث العالم، وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة في الشرع،

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٥١، ٢٦٥٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٣٥/٢١٥).

(٢) بياض بالأصل.

مضطربة في العقل، وأوجبوها، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها، وتلك الطريق فيها مقدمات مجملة ، لها نتائج مجملة ، فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع ، ومقتضى العقل ، فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية ، ولم يحرروا ما اقتضته ٢١٤/١٢ الدلائل العقلية ، وذلك أنهم قالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم ، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام .

قالوا: والطريق إلى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث ما قامت به الأعراض ، فمنهم من استدل بالحركة والسكون فقط ، ومنهم من احتج بالأكوان التي هي عندهم الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً ، ومبني الدليل على أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

فيقول لهم المعارضون - من أهل الملل وغيرهم القائلون بأن السموات والأرض محدثة عن عدم ، والقائلون بأن الأفلاك قديمة أزلية :- حدوث الحوادث بعد أن لم تكن أمر حادث ، فلا بد له من سبب حادث ، وإلا لزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح .

وقال لهم القائلون بحدوث الأفلاك - من أهل الملل وغيرهم : أنتم أثبتتم حدوث العالم بطريق ، وحدوث العالم لا يتم إلا مع نقيض ما أثبتتموه . فما جعلتموه دليلاً على حدوث العالم لا يدل على حدوثه ، بل ولا يستلزم حدوثه . والدليل لا بد أن يكون مستلزماً المدلول؛ بحيث يلزم من تحقق الدليل تحقق المدلول ، بل هو مناف لحدوث العالم ٢١٥/١٢ مناقض له ، وهو يقتضى امتناع حدوث العالم ، بل امتناع حدوث شيء من الأشياء ، وهذا يقتضي بطلانه في نفسه ، وإنه لو صح لم يدل إلا على نقيض المطلوب . ونقيض ما يقوله كل عاقل .

فإن كل عاقل يعلم حدوث الحوادث في الجملة ، سواء قيل بقدوم الأفلاك أم لم يقل بذلك ؛ وذلك أن مبني دليلكم على أن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وأن الإرادة الأزلية - التي نسبتها إلى جميع المرادات على السواء - رجحت مراداً على مراد بلا مرجح ، غير المرجح الذي نسبته إلى جميع المرجحات نسبة واحدة لا يتفاضل .

ومن المعلوم أن القول بترجيح وجود الممكن على عدمه بلا مرجح ، أو ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا سبب ، يقتضى ذلك باطل في بديهة العقل . ولو قيل : إن ذلك صحيح لبطل الدليل الذي استدل به على ثبوت الصانع ، وحدوث العالم ؛ فإن مبني الدليل على أن المحدث لا بد له من محدث ، وذلك يستلزم أن ترجيح الحدوث على العدم لا بد له من مرجح ، ولا بد أن يكون المحدث المرجح قد حدث منه ما يستلزم وجود المحدث ،

الذي جعله موجوداً، وإذا لم يلزم وجوده كان وجوده جائزاً ممكناً، فكان محتملاً للوجود والعدم.

فترجيح الوجود على العدم لا بد له من مرجح محدث له، فكل/ ما أمكن حدوثه إن ٢١٦/١٢ لم يحصل له ما يستلزم حدوثه لم يحصل، فما شاء الله كان لا محالة ووجب وجوده بمشيئة الله، ومالم يشأ لم يكن، بل يمتنع وجوده مع عدم مشيئة الله - تعالى - له، فما شاء الله حدوثه كان لازماً للحدوث، واجب الحدوث بمشيئة الله لا بنفسه، ومالم يشأ حدوثه كان ممتنع الحدوث، لازم العدم. واجب العدم؛ لأنه لم توجد مشيئة الله المستلزمة لحدوثه.

ثم إن الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم قالوا: ما ذكرتموه من الدليل لا يدل على الحدوث، بل يقتضى عدم الحدوث؛ لأن حدوث الحوادث بعد أن لم تكن عن ذات لم تزل معطلة من الفعل باطل، فيكون العالم قديماً، وعبروا عن ذلك بأن جميع الأمور المعبرة في كونه فاعلاً إن وجدت في الأزل لزم وجود الفعل في الأزل، وإلا لزم تخلف المقتضى عن المقتضى التام.

وحينئذ، فإذا وجدت بعد ذلك لزم الترجيح بلا مرجح، وإن لم توجد في الأزل فوجودها بعد ذلك أمر حادث، فيقتضى أمراً حادثاً، وإلا لزم الحدوث بلا محدث، وحينئذ فيلزم تسلسل الحوادث، فإن القول في هذا الحادث كالقول في غيره. وهذا مما تنكره المعتزلة وموافقهم المتكلمون. قالوا: فأنتم بين أمرين: إما إثبات التسلسل في الحوادث، وإما إثبات الترجيح بلا مرجح، وكلاهما ممتنع عندكم.

/ ثم زعم هؤلاء الفلاسفة أن العالم قديم بناء على هذه الحجة، ومن سلك سبيل ٢١٧/١٢ السلف. والأئمة أثبت ما أثبتته الرسل من حدوث العالم بالدليل العقلي، الذي لا يحتمل النقيض، ويبين خطأ المتكلمين من المعتزلة ونحوهم، الذين خالفوا السلف والأئمة بابتداع بدعة مخالفة للشرع والعقل، وبين أن ضلال الفلاسفة - القائلين بقدم العالم، ومخالفتهم العقل، والشرع - أعظم من ضلال أولئك، وبين أن الاستدلال على حدوث العالم لا يحتاج إلى الطريق التي سلكها أولئك المتكلمون، بل يمكن إثبات حدوثه بطرق أخرى عقلية صحيحة، لا يعارضها عقل صريح، ولا نقل صحيح، وثبت بذلك أن ما سوى الله فإنه محدث، كائن بعد أن لم يكن، سواء سمى جسماً أو عقلاً أو نفساً أو غير ذلك.

فإن أولئك المتكلمين من المعتزلة وأتباعهم، لما لم يكن في حجتهم إلا إثبات حدوث أجسام العالم، قالت الفلاسفة ومن وافقهم من المتأخرين - كالشهرستاني، والرازي،

والآمدي وغيرهم — إنكم لم تقيموا دليلاً على نفي ما سوى الأجسام . وحينئذ ،
فإثبات حدوث أجسام العالم لا يقتضي حدوث ما سوى الله ، إن لم تثبتوا أن كل ما
سواه جسم ، وأنتم لم تثبتوا ذلك ؛ ولهذا صار بعض المتأخرين — كالأرموي ومن وافقه
من أهل مصر ، كأبي عبد الله القشيري — إلى أن أجسام العالم محدثة ، وأما العقول
والنفوس فتوقفوا عن حدوثها ، وقالوا بقدمها .

٢١٨/١٢ / وإن كان حقيقة قولهم أنه موجب بالذات لها ، وأنه محدث للأجسام بسبب حدوث
بعض التصورات ، والإرادات ، التي تحدث للنفوس ، فيصير ذلك سبباً لحدوث الأجسام ،
وهذا القول كما أنه معلوم البطلان في الشرع ، فهو — أيضاً — معلوم البطلان في العقل ،
كما سنبينه إن شاء الله — تعالى .

فنقول : الدليل الدال على أن كل ما سوى الله حدث يتناول هذا وهذا .

وأيضاً ، فإذا كان موجبا بالذات كان اختصاص حدوث أجسام العالم بذلك الوقت
دون ما قبله وما بعده يفتقر إلى مخصص ، والموجب بذاته لا يصدر عنه ما يختص بوقت
دون وقت ؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن موجبا بذاته ؛ ولجاز حدوث العالم عنه ؛ ولأن
النفوس التي تثبتها الفلاسفة هي عند جمهورهم عرض قائم بجسم الفلك ؛ فيمتنع
وجودها به بدون الفلك ، وعند ابن سينا وطائفة أنها جوهر قائم بنفسه ، لكنها متعلقة
بالجسم تعلق التدبير والتصريف . وحينئذ ، فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن
نفساً ، بل كانت عقلاً ، فعلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم .

٢١٩/١٢ فإذا قال هؤلاء : إن النفس أزلية دون الأجسام كان هذا القول/باطلاً بصريح العقل ،
مع أنه لم يعرف به قائل من العقلاء قبل هؤلاء . وإنما ألجأ هؤلاء إلى هذا ظنهم صحة
دليل المتكلمين على حدوث الأجسام وصحة قول الفلاسفة بوجود موجود وممكن غير
الأجسام ، وإثبات الموجب بالذات ، فلما بنوا قولهم على الأصل الفاسد لهؤلاء ولهؤلاء
لزم هذا ، مع أنهم متناقضون في الجمع بين هذين ؛ فإن عمدة المتكلمين على إبطال
حوادث لا أول لها .

وعمدة الفلاسفة على أن المؤثرية من لوازم الواجب بنفسه ، فإذا قالوا بقدم نفس لها
تصورات وإرادات لا تنتهى ، لزم جواز حوادث لا تنتهى ، فبطل أصل قول المتكلمين
الذي بنوا عليه حدوث الأجسام ، فكان — حينئذ — موافقتهم المتكلمين بلا حجة عقلية ،
فعلم أنهم جمعوا بين المتناقضين .

وأبو عبد الله بن الخطيب^(١) وأمثاله كانوا أفضل من هؤلاء ، وعرفوا أنه لا يمكن الجمع بين هذا وهذا ، فلم يقولوا هذا القول المتناقض ، ولم يهتدوا إلى مذهب السلف والأئمة ، وإن كانوا يذكرون أصوله في مواضع أخرى ، ويثبتون أن جمهور العقلاء يلتزمون بها ، فلو تفتنوا لما يقوم بذات الله من كلامه وأفعاله المتعلقة بمشيئته وقدرته ودوام اتصافه بصفة الكمال ، خلصوا من هذه المحارات .

/ ونحن ننبه على بعض الطرق العقلية ، التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله — ٢٢٠/١٢
تعالى — فنقول :

من الطرق التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله هي أن يقال : لو كان فيما سوى الله شيء قديم لكان صادرا عن علة تامة ، موجبة بذاتها ، مستلزمة لمعلولها ، سواء ثبت له مشيئة أو اختيار ، أو لم يثبت ؛ فإن القديم الأزلي الممكن الذي لا يوجد بنفسه لا يتصور وجوده إن لم يكن له في الأزل مقتض تام يستلزم ثبوته .

وهذا كما أنه معلوم بضرورة العقل فلا نزاع فيه بين العقلاء ، فلا يقول أحد : إن القديم الأزلي صادر عن مؤثر لا يلزمه أثره ، فلا يقول : إنه صادر عن علة غير تامة مستلزمة لغير معلولها ، ولا يقول : إنه صادر عن موجب بذاته لا يقارنه موجب ومقتضاه ، ولا يقول : إنه صادر عن فاعل بالاختيار يمكن أن يتأخر مفعوله ؛ فإنه إذا أمكن تأخر مفعوله أمكن أن يكون ذلك القديم الأزلي قديماً أزلياً ، فيكون ثبوته في الأزل ممكناً ، وليس في الأزل ما يستلزم ثبوته في الأزل ، فيمتنع ثبوته في الأزل ؛ فإن ثبوت الممكن الأزلي بدون مقتض تام مستلزم له ممتنع بضرورة العقل ؛ إذ قد علم بصريح العقل أن شيئاً من الممكنات لا يكون حتى يحصل المقتضى التام ، المستلزم لثبوته .

/ ومن نازع في هذا من المعتزلة وغيرهم ، وقال : إنه لا ينتهي إلى حد الوجوب ، بل ٢٢١/١٢
يكون العقل بالوجود أولى منه بالعدم ، فإنه لم ينزع في أن القادر المختار يمتنع أن يكون مقدوره المعين أزلياً ، مقارناً له ، بل هذا مما لم ينزع فيه لا هؤلاء ولا غيرهم .

فتبين أنه لو كان شيء مما سوى الله أزلياً ، للزم أن يكون له مؤثر تام ، مستلزم له في الأزل ، سواء سمي علة تامة ، أو موجباً بالذات ، أو قدر أنه فاعل بالإرادة ، وأن مراده المعين يكون أزلياً مقارناً له .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي فخر الدين الرازي ويقال له : « ابن خطيب الري » ، الإمام المفسر ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، مولده في الري وإليها نسبته ، له تصانيف كثيرة ، منها : « مفاتيح الغيب » و « معالم أصول الدين » وغيرهما الكثير . ولد سنة ٥٤٤هـ ، وتوفي سنة ٦٠٦ هـ . [الأعلام ٦/ ٣١٣] .

وإذا كان كذلك فنقول : ثبوت علة تامة أزلية ممتنع ؛ فإن العلة التامة الأزلية تستلزم معلولها ، لا يتخلف عنها شيء من معلولها ؛ فإنه إن تخلف عنها لم تكن علة تامة لمعلولها ، فيمتنع في الشيء الواحد أن يكون موجباً بذاته ، وأن يتخلف عنه موجب أو شيء من موجب ؛ فإن الموجب بالذات لشيء لابد أن يكون ذلك الموجب جميعه مقارناً لذاته ، والعلة التامة هي التي يقارنها معلولها ، ولا يتأخر عنها شيء من معلولها ، فلو تأخر عنها شيء من معلولها لم تكن علة تامة لذلك المستأخر . والفلاسفة يسلمون أن ليس علة تامة في الأزل لجميع الحوادث التي تحدث شيئاً بعد شيء ، فإن ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ يمتنع أن يكون علة تامة أزلية لأمر حادث عنه غير أزلي .

٢٢٢/١٢ / وإن شئت قلت : يمتنع أن يكون موجباً بذاته في الأزل لأمر حادث ليس بأزلي ، سواء كان إيجابه بواسطة أو بغير واسطة ، فإن تلك الواسطة إن كانت أزلية كان اللازم لها أزلياً ، وإن كانت حادثة كان القول فيها كالقول في الحادث بتوسطها ، وهذا الذي سلموه معلوم — أيضاً — بصريح العقل ، فالمقدمة برهانية مسلمة ، لكن يقولون : إنه علة تامة ، لما هو قديم كالأفلاك عندهم ، وليس علة تامة للحوادث ، وهذا أيضاً باطل .

وذلك أن كل ما يقال : إنه قديم كالأفلاك ، إما أن يجب أن يكون مقارناً للحوادث كما يقولون في الفلك ، إنه يجب له لزوم الحركة ، وأنه لم يزل متحركاً ، وإما أنه لا يجب أن يكون مقارناً لشيء من الحوادث ، فإن كان الأول لزم أن يكون علة تامة للحوادث ، وكونه علة تامة للحوادث محال ؛ لأن ما قارنته الحوادث ولم يخل منها بل هي لازمة له امتنع صدوره عن الموجب بدونها ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، وإذا كانت الحركة لازمة للفلك — كما يقولون — فوجود الفلك بدون الحركة محال ، فالموجب بذاته الذي هو علة تامة للفلك ، يجب أن يكون علة تامة موجبة للوازمه ، وعلة تامة في الأزل بحركته ، لكن العلة التامة الأزلية لا يجوز أن تكون علة تامة أزلية للحوادث ، لا ٢٢٣/١٢ الحركة ولا غيرها ؛ لأنه يجب وجود معلولها الذي هو موجبها ومقتضاها/ في الأزل وألا يتأخر عنها شيء من موجبها ، ومقتضاها ، ومعلولها .

والحركة التي توجد شيئاً فشيئاً هي وغيرها من الحوادث التي تحدث شيئاً بعد شيء ليس واحد منها قديماً ، بل كل منها حادث مسبوق بآخر ، فيمتنع أن يكون شيء منها معلولاً للعلة التامة الأزلية ، لا ممتنع أن يكون حادث من الحوادث قديماً ، ويمتنع وجود مجموع الحوادث في الأزل ، ويمتنع وجود المستلزم للحوادث إلا مع حادث من الحوادث ، أو مع مجموع الحوادث ، وإذا كان كلاهما يمتنع أن يكون قديماً امتنع أن يكون شيء مما يستلزم الحوادث قديماً ، فامتنع أن يكون لشيء من الحوادث أو ما يستلزم الحوادث علة تامة قديمة ،

فامتنع صدور الحوادث أو شيء منها، أو من ملزوماتها عن علة تامة قديمة؛ فامتنع أن يكون شيء لا يخلو عن الحوادث صادرًا عن علة تامة أزلية، فامتنع أن يكون الفلك المقارن للحوادث علة تامة أزلية قديمة. ولو كان قديمًا لصدر عن علة تامة قديمة، فإذا لم يكن قديمًا إلا إذا كان المقتضى التام ثابتًا في الأزل، وثبوت المقتضى التام له ممتنع، كما أن قدمه ممتنع.

وأما إن قيل: إن القديم شيء غير مقارن للحوادث، ولا مستلزم لها، مثل أن يقال: القديم أعيان ساكنة، هي المعلول الأول، فيقال: ذلك المعلول إما أن يجوز حدوث حال من الأحوال، إما فيه، أو عنه، أو غير ذلك، وإما ألا يجوز.

/فإن جاز حدوث حال من الأحوال له امتنع حدوث ذلك الحادث عن علة تامة أزلية - ٢٢٤/١٢ وهو الموجب بالذات كما تقدم، وكما هو معلوم ومتفق عليه بين العقلاء - ولا بد من محدث، والمحدث إن كان سوى الله فالقول في حدوثه إن كان محدثًا، أو في حدوث ذلك الإحداث له بعد أن لم يكن، كالقول في حدوث ذلك الحادث، وإن كان هو الله - تعالى - امتنع أن يكون موجبًا بالذات له؛ إذ القديم لا يكون موجبًا بالذات لحادث - كما بين - فامتنع ثبوت العلة القديمة. وإذا لم يكن الصانع موجبًا بالذات - فلا يكون علة تامة - امتنع قدم شيء من العالم؛ لأنه لا يكون قديم إلا عن علة تامة، وإن قيل: إنه لا يجوز حدوث لما فرض قديمًا معلولا للأول، فهذا مع أنه لم يقل به أحد من العقلاء فهو باطل؛ لوجوه:

أحدها: أن واجب الوجود تحدث له النسب والإضافات باتفاق العقلاء؛ فحدث ذلك لغيره أولى.

الثاني: أن الحوادث مشهودة في العالم العلوي والسفلي، وهذه الحوادث صادرة عن الله، إما بوسط أو بغير وسط، فإذا كانت بوسط فتلك الوسائط حدثت عنها أمور بعد أن لم تكن، فلزم حدوث الأحوال للقديم، سواء كان هو الصانع أو كان هو الوسائط للصانع.

/وإن قيل: القديم هو شيء ليس بواسطة في شيء آخر. قيل: لابد أن يكون ذلك ٢٢٥/١٢ قابلاً لحدوث الأحوال؛ فإنه يمكن حدوث النسب والإضافات لله - عز وجل - بالضرورة واتفاق العقلاء، فإمكان ذلك لغيره أولى، وإذا كان قابلاً لها أمكن أن تحدث له الأحوال، كما تحدث لغيره من الممكنات، فإن الله لا يمتنع حدوث الحوادث عنه، إما بوسط وإما بغير وسط؛ فإذا كان ذلك قابلاً، وصدور مثل ذلك عن الصانع ممكن، أمكن حدوث الحوادث عنه أو فيه، بعد أن لم يكن.

وحينئذ ، فالقول في حدوثها كالقول في حدوث سائر ما يحدث عنه ، وذلك محال من العلة التامة المستلزمة لمعلومها ، فقد بين هذا البرهان الباهر أن كون الأول علة تامة لشيء من العالم — محال ، لا فرق في ذلك بين الفلك وغيره سواء قدر ذلك الغير جسمًا أو غير جسم ، وسواء قدر مستلزمًا للحوادث فيه أو عنه ، كما يقوله الفلاسفة الدهرية ؛ كالفارابي ، وابن سينا وأمثالهما ، وسلفهما من اليونان ، فإنهم يقولون : الفلك مستلزم للحوادث القديمة ، والعقول والنفوس مستلزما للحوادث التي تحدث عنها ، فكل منها مقارن للحوادث ، لا يجوز تقدمه عليها مع كون ذلك جميعه معلولا للموجب بذاته ، فإذا تبين أن الموجب بذاته يمتنع أن يصدر عنه في الأزل حادث ، أو مستلزم لحادث ، بطل كون صانع العالم علة تامة في الأزل ، ومتى بطل كونه علة تامة في الأزل ، امتنع أن يكون فيما سواه شيء قديم بعينه ، فهذا بيان أن كل ما سوى الله ٢٢٦/١٢ محدث كائن بعد أن لم يكن ، سواء قيل بجواز دوام الحوادث ، أو قيل بامتناع ذلك .

فإنه إن قيل بامتناع دوام الحوادث ، لزم حدوث كل ما لا يخلو عن الحوادث ، وإن قيل بجواز دوام الحوادث ، فكل منها حادث بعد أن لم يكن مسبوقًا بالعدم ، وكل من العالم مستلزم لحادث بعد أن لم يكن مسبوقًا بالعدم . وكل من العالم وكل ما كان مصنوعًا وهو مستلزم للحوادث ، امتنع أن يكون صانعه علة تامة قديمة موجبة له ، فإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون قديمًا ، فامتنع أن يكون من العالم ما هو قديم بعينه .

وأما كون الرب لم يزل متكلما إذا شاء ، أو لم يزل فاعلا تقوم به الأفعال بمشيئته ونحو ذلك — فهذا هو الذي قاله السلف والأئمة ، فتبين أن الذي قاله السلف والأئمة هو الحق المطابق للمنقول والمعقول .

وأما كون قول الفلاسفة أبطل من قول المعتزلة ، فإنه يقال لهم : أولئك جوزوا حدوث الحوادث عن ذات لم تزل غير فاعلة ، ولا يقوم بها حادث ولا يصدر عنها حادث ، وأنتم قلتم الحوادث الدائمة المختلفة تصدر عن هذه الذات ، وزدتم في نفي الصفات عنها ، فجعلتموها وجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق أو ما يشبه ذلك ، فقولكم في نفي الصفات عنها أعظم من قول المعتزلة .

٢٢٧/١٢ / وقلتم : هو موجب بذاته علة تامة أزلية يقارنها المعلول الأزلي ، فلا يتأخر عنها . ومعلوم أن صدور الحوادث المختلفة عن العلة التامة البسيطة الأزلية ، التي لا يتخلف عنها مقتضاها ومعلولها أشد امتناعا من صدور الحوادث عن قادر مختار بعد أن لم تكن صادرة عنه ، فإن كان حدوث الحوادث عن القديم الذي لم يقم به حادث ممتنعًا ، فقولكم أشد امتناعًا ، وإن كان ممكنًا فقول المعتزلة أقرب ؛ فإن قولهم : إن اقتضى ألا يكون للحوادث

سبب حادث، فقولكم يقتضى ألا يكون للحوادث محدث أصلاً، والحوادث مشهودة والمحدث لابد أن يكون موجوداً عند وجودها، ولابد أن يكون كل ما يعتبر في الإحداث موجوداً عند الإحداث. وذلك يمتنع صدوره عن علة تامة.

فتبين أن المقدمات التي احتج بها الفلاسفة على المعتزلة وأتباعهم على قدم العالم، يحتج بها بعينها على حدوث العالم؛ فإن مبنى دليلهم على أن العلة التامة الأزلية تستلزم معلولها، وأن الباري إن لم يكن علة تامة أزلية لزم الحدوث بلا سبب، وإن كان علة تامة أزلية لزم مقارنة معلوله، فيلزم قدم العالم.

أما كونه علة تامة فممتنع، لأن العلة التامة الأزلية يقارنها معلولها كله، لا يتأخر عنها شيء من معلولها، والعالم لا ينفك من حوادث مقارنة له بالضرورة، واتفاق جماهير العقلاء، وما كان مستلزماً للحوادث امتنع كونه معلول العلة التامة الأزلية، لامتناع كون الحوادث حادثة/عن علة تامة أزلية، فإنه ما من حادث إلا وهو مسبوق بالعدم، فليس هو ٢٢٨/١٢ علة تامة لشيء منها، وما من زمن يقدر إلا وفيه حادث، فليس هو في شيء من الأوقات علة تامة، لا في الماضي ولا المستقبل؛ فامتنع أن يكون علة تامة وهو المطلوب، فيلزم من ذلك كون كل ما سواه محدثاً، سواء قيل بتسلسل الحادثة أو لم يقل.

وأما قولهم: إن لم يكن علة تامة أزلية، لزم الحدوث بلا سبب. فيقال لهم: هذا إنما يلزم إذا لم يكن متكلاً إذا شاء - تقوم به الأفعال الاختيارية بقدرته تعالى - وإلا فعلى هذا التقدير لم يزل ولا يزال قادراً على الفعل متكلاً إذا شاء، وحينئذ فما حصل بمشيئته وقدرته من أقواله وأفعاله يكون هو السبب لما بعده.

وإن قالوا: هذا يستلزم قيام الحوادث به. قيل لهم أولاً: قيام الحوادث بالقديم جائز عندهم، ومن أنكر ذلك من أهل الكلام فإنما أنكره لاعتقاده أن ما قامت به الحوادث فهو حادث، فإن كان هذا الاعتقاد صحيحاً بطل قولكم بقدم الأفلاك، وإن كان باطلاً بطلت حجة من قال: إن القديم لا تقوم به الحوادث، فلا يمكنكم على التقديرين أن تقولوا: إنه لا تقوم به الحوادث، لكن أنتم نفيتم ذلك بناء على نفي الصفات، وقولكم في نفي الصفات في غاية الفساد، ودليلكم عليه قد بين فساده في غير هذا الموضع، وبين بطلان ما ذكرتموه.

/وبالجملة، فإذا كان القول بحدوث العالم مستلزماً لإثبات الصفات وقيام الأفعال ٢٢٩/١٢ بالله، كان ما ذكرناه من دليل حدوثه دليلاً على أن العالم محدث، وأن محدثه موصوف بالصفات القائمة به، فاعل الأفعال الاختيارية القائمة به، كما دلت على ذلك النصوص

الإلهية المتواترة عن الأنبياء من القرآن والتوراة ، والإنجيل ، وذلك ما بين موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، والقضايا العقلية التي هي أصول فطر العقلاء ، ومنتهى عقلهم توافق ذلك ، واعتبر ذلك بما ذكره أبو عبد الله بن الخطيب الرازي ، في كتابه «الأربعين» في ضبط المقدمات التي يمكن الرجوع إليها في إثبات المطالب العقلية .

قال : واعلم أن ههنا مقدمتين ، يفرع المتكلمون والفلاسفة أكثر مباحثهم عليهما .

المقدمة الأولى : مقدمة الكمال والنقصان ، كقولهم : هذه الصفة من صفات الكمال فيجب إثباتها لله ، وهذه الصفة من صفات النقصان فيجب نفيها عن الله ، وأكثر مذاهب المتكلمين مفرعة على هذه المقدمة .

إلى أن قال :

٢٣٠/١٢ أما المقدمة الثانية : وهي مقدمة الوجوب ، والإمكان ، وهذه / المقدمة في غاية الشرف والعلو ، وهي غاية عقول العقلاء . قالوا : الوجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، وكذلك الواجب لا بد أن يكون واجباً في ذاته وصفاته ؛ إذ لو كان ممكناً لافتقر إلى مؤثر آخر .

«أما المقدمة الأولى» وهي أنه واجب لذاته ، فهذا له لازمان ؛ الأول أن يكون منزهاً عن الكثرة في حقيقته ، ثم يلزم في ذاته أمور :

أحدها : ألا يكون متحيزاً ؛ لأن كل متحيز منقسم ، والمنقسم لا يكون فرداً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في جهة .

وثانيها : ألا يكون واجب الوجود أكثر من واحد ، ولو كان أكثر من واحد لاشتركا في الوجوب ، وتباينا في التعيين ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز ، فيلزم كون كل واحد منهما مركباً في نفسه ، وقد فرضناه فرداً هذا خالف اللازم الثاني ؛ لكونه واجب الوجود لذاته ألا يكون حالاً ولا محلاً ، والأفعال الافتقار هي .

قلت : ولقائل أن يقول : هذا هو أصل الفلاسفة في التوحيد ، الذي نفوا به صفاته - تعالي - وهو ضعيف جداً .

٢٣١/١٢ / والأصل الذي بنوا عليه ذلك ضعيف جداً ، وإن كان اشتبه على كثير من المتأخرين .

وقولهم : إن الواجب لا يكون إلا واحداً ، قصدوا به أنه ليس له علم ولا قدرة ، ولا حياة ولا كلام يقوم به ، ولا شيء من الصفات القائمة به ؛ لأنه لو كان كذلك لكان الواجب أكثر من واحد ، كما يقوله المعتزلة : إنه ليس له صفات قديمة قائمة بذاته ؛ لأنه

لو كان كذلك لكان القديم أكثر من واحد .

ولفظ «الواجب، والقديم» يراد به الإله الخالق - سبحانه - الواجب الوجود القديم، فهذا ليس إلا واحداً، ويراد به صفاته الأزلية ، وهي قديمة واجبة بتقدم الموصوف، ووجوبه لم يجب أن تكون ماثلة له، ولا تكون إلهاً، كما أن صفة النبي ليست بنبي، وصفة الإنسان والحيوان ليست بإنسان ولا حيوان، وكما أن صفة المحدث إن كانت محدثة فموافقتها له في الحدوث لا يقتضى مماثلتها له، وما ذكروا من الحجة على ذلك ضعيفة .

فإذا قالوا: لو كان له علم واجب بوجوب العالم لكان الواجب أكثر من واحد. قيل له : ولم قلتم بامتناع كون الواجب أكثر من واحد؛ إذ كانت الذات الواجبة إلهاً واحداً، موصوفاً بصفات الكمال.

/قولهم: لو كان أكثر من واحد لاشتركا في الوجود، وتباينا في التعيين، وما به ٢٣٢/١٢ الاشتراك غير ما به الامتياز ، فيلزم أن يكون كل منهما مركباً في نفسه، وقد فرضناه ، فرد هذا خلق .

يقال له في جوابه: قول القائل: اشتركا في الوجود، وتباينا في التعيين، تريد به أن الوجود الذي يختص كلا منهما شاركة الآخر فيه، أم تريد أنهما اشتركا في الوجود المطلق الكلي؟

والأول باطل لا يريده عاقل . وأما الثاني فيقال: اشتراكهما في المطلق الكلي، كاشتراكهما في التعيين المطلق الكلي؛ فإن هذا له تعيين يخصه، والتعيينان يشتركان في مطلق التعيين . وكذلك هذا له حقيقة تخصه، وهذا له حقيقة تخصه، وهما يشتركان في مطلق الحقيقة، وكذلك لهذا ذات تخصه، ولهذا ذات تخصه، وهما يشتركان في مطلق الذات. وكذلك سائر الأسماء التي تعم بالإطلاق، وتخص بالتقييد ، كاسم الموجود والنفس، والماهية وغير ذلك .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنهما اشتركا في الوجود المطلق، وامتناز كل منهما بوجوبه بتعيين يخصه . وحيثئذ ، فلا فرق بين الوجود والتعيين .

فقول القائل : اشتركا في الوجود المطلق ، وتباينا بالتعيين الخاص، /كقول القائل: ٢٣٣/١٢ اشتركا في التعيين المطلق، وتباينا بالوجود الخاص . ومعلوم أن مثل هذا لا مندوحة عنه، سواء سمى تركيباً أو لم يسم، فلا يمكن موجود يخلو عن مثل هذه المشاركة والمباينة، لا واجب ولا غيره، وما كان من لوازم الوجود كان نفيه عن الوجود الواجب ممتنعاً .

وأيضاً ، فالمشترك المطلق الكلي لا يكون كلياً مشتركاً إلا في الأذهان لا في الأعيان،

وإذا كان كذلك فليس في أحدهما شيء يشاركه الآخر فيه في الخارج ، بل كل ما اتصف به أحدهما لم يتصف الآخر بعينه ، ولم يشاركه فيه ، بل لا يشابهه فيه ، أو يمثاله فيه . وإذا كان الاشتراك ليس إلا في ما في الأذهان لم يكن أحدهما مركباً في مشترك ومميز ، بل يكون كل منهما موصوفاً بصفة تخصه ، لا يشابهه الآخر فيها ، وبصفة يشابهه الآخر فيها ، وهذا لا محذور فيه .

وأيضاً ، فيقال : هذا منقوض بالوجود ، فإن الوجود الواجب والممكن يشتركان في مسمى الوجود ، ويبين أحدهما الآخر بخصوصه ، فيلزم تركيب الوجود الواجب مما به الاشتراك ، ومما به الامتياز ، فما كان الواجب عن هذا كان الواجب عن ذلك .

٢٣٤/١٢ وأيضاً ، فيقال : هب أنكم سميتم هذا تركيباً ، فلم قلت : إن/هذا ممتنع على موجود من الموجودات ، واجباً كان أو ممكناً؟ مع أن المنازع يقول هذا المعنى الذي نفيتموه ، وسميتموه تركيباً ، هو لازم لكل موجود .

قولهم : وقد فرضناه فرداً . قيل : هب أنكم فرضتموه كذلك ، لكن مجرد فرضكم لا يقتضى أن يكون فرداً بالمعنى الذي ادعيتموه إن لم يقم على ذلك دليل .

/وسئل - قدس الله روحه - عن بيان ما يجب على الإنسان أن يعتقده، وبصير ٢٣٥/١٢
به مسلماً، بأوضح عبارة وأبينها، من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم؟ أم
هو عبارة عنه لا نفسه، وأنه حادث أو قديم، وأن كلام الله حرف وصوت؟ أم كلامه
صفة قائمة به لا تفارقه؟ وأن قوله تعالى: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْكَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥] حقيقة
أم لا؟ وأن الإنسان إذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئاً منه، ويقول أو من
به كما أنزل، هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل؟
فأجاب :

الذي يجب على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه كتاب الله، وسنة رسوله
ﷺ، وافق عليه سلف المؤمنين، الذين أثنى الله - تعالى - عليهم وعلى من اتبعهم،
وذم من اتبع غير سبيلهم، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلام الله -
تعالى - وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وأنه قرآن كريم ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ .
لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]، وأنه ﴿قُرْآنٌ نَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [١٢/٢٣٦
[البروج: ٢١، ٢٢]، وأنه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ فِي أُنْزُورٍ أَلِكْتَبٍ لَدَيْنَا لَعَلِّ
حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وأنه في الصدور، كما قال النبي ﷺ: «استذكروا القرآن،
فلهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيلاً مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ فِي عَقْلِهَا» (١)، وقال النبي ﷺ: «الجوف
الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب» (٢)، وأن ما بين لوحِي المصحف الذي
كتبته الصحابة - رضي الله عنهم - كلام الله، كما قال النبي ﷺ: «لا تسافروا
بالقرآن إلى أرض العدو؛ مخافة أن تناله أيديهم» (٣).

فهذه الجملة تكفي المسلم في هذا الباب.

وأما تفصيل ما وقع في ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلا الإطلاقين خطأ، ويكون
الحق في التفصيل، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق، ويكون كل
منهما ينكر حق صاحبه.

(١) البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢٨/٧٩٠).

(٢) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٣) وقال: «حسن صحيح»، والدارمي في فضائل القرآن ٤٢٩/٢، وأحمد
٢٢٣/١، كلهم عن ابن عباس.

(٣) مسلم في الإمارة (١٨٦٩/٩٢ - ٩٤).

وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله - تعالى - ونهى عنه، فقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاٰخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢٣٧/١٢ / فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان. وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً؛ فإن مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

وقد بسطت القول في جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة، الذي اتفق عليه العقل والسمع، وبيان ما يدخل في هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة، ولكن نذكر منها جملة مختصرة بحسب حال السائل.

والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف، فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله.

والتفصيل المختصر أن نقول: من اعتقد أن المداد الذي في المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطئ، مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السابقين الأولين، وسائر علماء الإسلام، ولم يقل أحد قط من علماء المسلمين: إن ذلك قديم، لا من أصحاب الإمام أحمد ولا من غيرهم، ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد ونحوهم فهو مخطئ في هذا النقل، أو متعمد للكذب، بل المنصوص عن الإمام أحمد وعامة أصحابه تبديع من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، كما جهموا من قال: اللفظ بالقرآن مخلوق.

وقد صنف أبو بكر المروزي - أخص أصحاب الإمام أحمد به - في ذلك رسالة كبيرة مبسطة، ونقلها عنه أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» الذي جمع فيه كلام الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في أبواب الاعتقاد، وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق معارضة لمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فبلغ ذلك الإمام

أحمد ، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وبدع من قال ذلك، وأخبر أن أحداً من العلماء لم يقل ذلك، فكيف بمن يزعم أن صوت العبد قديم! وأقبح من ذلك من يحكي عن بعض العلماء أن المداد الذي في المصحف قديم، وجميع أئمة أصحاب الإمام أحمد وغيرهم أنكروا ذلك، وما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهال؛ من الأكراذ ونحوهم.

وقد ميز الله في كتابه بين الكلام والمداد، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَمْتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مِدَادًا﴾ [الكهف: ١٠٩] فهذا ٢٣٩/١٢ خطأ من هذا الجانب، وكذلك من زعم أن القرآن محفوظ في الصدور، كما أن الله معلوم بالقلوب، وأنه متلو بالالسن، كما أن الله مذكور بالالسن، وأنه مكتوب في المصحف، كما أن الله مكتوب.

وجعل ثبوت القرآن في الصدور والالسنه والمصاحف مثل ثبوت ذات الله - تعالى - في هذه المواضع ، فهذا - أيضاً - مخطئ في ذلك، فإن الفرق بين ثبوت الأعيان في المصحف ، وبين ثبوت الكلام فيها بين واضح؛ فإن الموجودات لها أربع مراتب : مرتبة في الأعيان، ومرتبة في الأذهان، ومرتبة في اللسان، ومرتبة في البنان. فالعلم يطابق العين، واللفظ يطابق العلم، والخط يطابق اللفظ.

فإذا قيل: إن العين في كتاب الله كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] فقد علم أن الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم، فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان، وهي اللفظ والخط، وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبة، بل نفس الكلام يجعل في الكتاب، وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر، إلا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره والخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَنزِلَنَّ رَبِّيَ الْغَافِقِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَيَّ قَلِيلٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَنَنزِلَنَّ رَبِّيَ الْأَوَّلِينَ . أَوَّلَ مَا يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧].

فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد ﷺ ، فإن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله ﷺ ، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره، كما فيها ذكر محمد ﷺ وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر، وبين كون الكلام نفسه في الزبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣].

فمن قال: إن المداد قديم فقد أخطأ، ومن قال: ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ، بل القرآن في المصحف كما أن سائر الكلام في الورق، كما أن الأمة مجمعة عليه، وكما هو في فطر المسلمين، فإن كل مرتبة لها حكم يخصها، وليس وجود الكلام في الكتاب كوجود الصفة في الموصوف، مثل وجود العلم والحياة في محلها. حتى يقال: إن صفة الله حلت بغيره، أو فارقت، ولا الوجود فيه كالدليل المحض، مثل وجود العالم الدال على الباري - تعالى - حتى ٢٤١/١٢ يقال: ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله - عز وجل/ - بل هو قسم آخر، ومن لم يعط كل مرتبة مما يستعمل فيها أداة الظرف حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيز وفي المكان، ووجود العرض بالجسم، ووجود الصورة بالمرأة، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة، وبين رؤيته بالقلب يقظة ومناماً، ونحو ذلك. وإلا اضطربت عليه الأمور.

وكذلك سؤال السائل عما في المصحف، هل هو حادث أو قديم؟ سؤال مجمل؛ فإن لفظ القديم أولاً ليس مأثوراً عن السلف، وإنما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تلى، وحيث كتب، وهو قرآن واحد، وكلام واحد، وإن تنوعت الصور التي يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم. فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا كلام من بلغه مؤدياً، فإذا سمعنا محدثاً يحدث بقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(١) قلنا: هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه، مع علمنا أن الصوت صوت المبلغ، لا صوت رسول الله ﷺ، وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر.

ونحن إذا قلنا: هذا كلام الله لما نسمعه من القارئ، ونرى في المصحف، فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو، مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ، ومداد الكاتب.

٢٤٢/١٢ | فمن قال: صوت القارئ ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد أخطأ، وهذا الفرق الذي بينه الإمام أحمد لمن سأل، وقد قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، فقال: هذا كلام الله غير مخلوق، فقال: نعم. فنقل السائل عنه أنه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فدعا به وزيره^(٢) زبراً شديداً، وطلب عقوبته وتعزيره، وقال: أنا قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟! فقال: لا، ولكن قلت لي لما قرأت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: هذا كلام الله غير مخلوق. قال: فَلِمَ تنقل عني ما لم أقله؟!

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(٢) أي: زَجَرَهُ وَنَهَرَهُ. انظر المصباح المنير، مادة «زبر».

فبين الإمام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين: هذا كلام الله، فالإشارة إلى حقيقته التي تكلم الله بها، وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته؛ فإذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله، وقال: هذا غير مخلوق، فقد ضل وأخطأ فالواجب أن يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق. فالقرآن في المصاحف. كما أن سائر الكلام في الصحف، ولا يقال: إن شيئاً من المداد والورق غير مخلوق، بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق، ويقال أيضاً -: القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق، والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق.

ويتبين هذا الجواب بالكلام على المسألة الثانية، وهي قوله: /إن كلام الله هل هو ٢٤٣/١٢ حرف وصوت أم لا؟ فإن إطلاق الجواب في هذه المسألة نفياً وإثباتاً خطأ، وهي من البدع المولدة، الحادثة بعد المائة الثالثة. لما قال قوم من متكلمة الصفاتية: إن كلام الله الذي أنزل على أنبيائه، كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، والذي لم ينزله، والكلمات التي كون بها الكائنات، والكلمات المشتملة على أمره ونهيه وخبره، ليست إلا مجرد معنى واحد، هو صفة واحدة قامت بالله، إن عبر عنها بالعبرانية كانت التوراة، وإن عبر عنها بالعربية كانت القرآن، وأن الأمر والنهي والخبر صفات لها، لا أقسام لها، وأن حروف القرآن مخلوقة، خلقها الله ولم يتكلم بها، وليست من كلامه؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت.

عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا: بل القرآن هو الحروف والأصوات، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد، وبالأصوات أصوات العباد، وهذا لم يقله عالم.

والصواب الذي عليه سلف الأمة - كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح، في «كتاب خلق أفعال العباد» وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم - اتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو /أن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس شيء من ٢٤٤/١٢ ذلك كلاماً لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف، بل لمجموعها، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط؛ ولا المعاني فقط. كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد، بل مجموعهما. وأن الله - تعالى - يتكلم بصوت، كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ ولا غيره. وأن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته، فكذلك لا تشبه كلامه المخلوق، ولا معانيه تشبه معانيه، ولا حروفه تشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته.

وقد كتبت في الجواب المبسوط المستوفى مراتب مذاهب أهل الأرض في ذلك، وأن المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفوس الأنبياء، تفيض عليهم المعاني من العقل الفعال، فيصير في نفوسهم حروفاً، كما أن ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الأنبياء من الصور النورانية، وهذا من جنس قول فيلسوف قریش الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المذثر: ٢٥]، فحقيقة قولهم أن القرآن تصنيف/الرسول الكريم، لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية.

وهؤلاء هم الصابئة، فتقربت منهم الجهمية. فقالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، ولا قام به كلام، وإنما كلامه ما يخلقه في الهواء أو غيره، فأخذ ببعض ذلك قوم من متكلمة الصفاتية، فقالوا: بل نصفه - وهو المعنى - كلام الله، ونصفه - وهو الحروف - ليس هو كلام الله، بل هو خلق من خلقه.

وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق. هل يقال: إنه قديم لم يزل ولا يتعلق بمشيئته؟ أم يقال: يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء؟ على قولين مشهورين في ذلك، وفي السمع والبصر ونحوهما، ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وذكرهما أبو بكر عبدالعزيز عن أهل السنة، من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

وكذلك النزاع بين أهل الحديث والصوفية، وفرق الفقهاء، من المالكية، والشافعية والحنفية، والحنبلية، بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة، في جنس هذا الباب. وليس هذا موضعاً لبسط ذلك. (هذا لفظ الجواب في الفتيا المصرية).

/وقال الإمام العلامة المحقق أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه ٢٤٦/١٢
الله تعالى ورضي عنه - :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا «فصل في نزول القرآن ولفظ «النزول» حيث ذكر في كتاب الله - تعالى - فإن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف ؛ لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فمن الجهمية من يقول : أنزل بمعنى خلق ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ، أو يقول : خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .

/ومن الكلالية من يقول : نزوله بمعنى الإعلام به وإفهامه للملك ، أو نزول الملك بما ٢٤٧/١٢ فهمه . وهذا الذي قالوه باطل في اللغة والشرع والعقل .

والمقصود هنا ذكر النزول ، فنقول وبالله التوفيق :

النزول في كتاب الله - عز وجل - ثلاثة أنواع : نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا .

فالأول لم يرد إلا في القرآن ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿نَزَّلَهُمْ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢] ، [الأحقاف: ٢] ، وفيها قولان :

أحدهما : لا حذف في الكلام ، بل قوله : ﴿تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .

والثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا ﴿تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ﴾ ، وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه ، وكذلك قوله : ﴿حَمَّ﴾ . تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢٤٨/١٢ [الجاثية: ١، ٢ ، الأحقاف: ١، ٢] وكذلك ﴿حَمَّ﴾ . تَنْزِيلُ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فصلت: ١، ٢] ، ﴿حَمَّ﴾ . تَنْزِيلُ أَلْكَتَبِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [غافر: ١، ٢] والتنزيل بمعنى المنزل ، تسمية للمفعول باسم المصدر ، وهو كثير ؛ ولهذا قال السلف : القرآن كلام

كلام الله من الله ليس ببائن منه، أي لم يخلقه في غيره فيكون مبتدأ منزلاً من ذلك المخلوق، بل هو منزل من الله، كما أخبر به، ومن الله بدأ لا من مخلوق، فهو الذي تكلم به لخلقه.

وأما النزول المقيد بالسماء، فقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المؤمنون: ٢٣] والسماء اسم جنس لكل ما علا، فإذا قيد بشيء معين [تقيد به]، فقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو، ثم قد بينه في موضع آخر بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الزَّوْنِ﴾ [الواقعة: ٦٩]، وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣] أي أنه منزل من السحاب. ومما يشبه نزول القرآن قوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره، الذي هو كلامه وكذلك قوله: ﴿نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] يناسب قوله: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤، ٥] فهذا شبيهه بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

٢٤٩/١٢ / وأما المطلق، ففي مواضع، منها: ما ذكره من إنزال السكينة بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] إلى غير ذلك.

ومن ذلك: إنزال الميزان، ذكره مع الكتاب في موضعين، وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل، وعن مجاهد - رحمه الله - هو ما يوزن به، ولا منافاة بين القولين. وكذلك العدل، وما يعرف به العدل، منزل في القلوب، والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين، كقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتِيتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة، وهو السكينة. قال النبي ﷺ: «من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه، ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يُسَدِّدُهُ»^(١) فالله ينزل عليه ملكاً، وذلك الملك يلهمه السداد، وهو ينزل في قلبه.

ومنه حديث حذيفة - رضي الله عنه - الذي في الصحيحين، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»^(٢)، والأمانة هي الإيمان أنزلها في أصل قلوب الرجال، وهو كإنزال الميزان والسكينة، وفي

(١) أبو داود في الأقضية (٣٥٧٨) وأحمد ٣/ ٢٢٠، كلاهما عن أنس بن مالك.

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٩٧) وفي الفتن (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان (١٤٣/ ٢٣٠).

و«جذر»: أي أصل. انظر: النهاية ١/ ٢٥٠.

الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله الحديث إلى آخره، فذكر أربعة: غشيان/الرحمة، وهي أن تغشاهم كما يغشى اللباس ٢٥٠/١٢ لابس، وكما يغشى الرجل المرأة، والليل النهار. ثم قال: « ونزلت عليهم السكينة» وهو إنزالها في قلوبهم ، «وحفَّتْهُم الملائكة» أي : جلست حولهم، « وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) من الملائكة.

وذكر الله الغشيان في مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿يُعْشَىٰ آلِيلَ النَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَفَشَّنَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَالْمُؤْنِفَةُ أَقْوَىٰ فَفَشَّنَا مَا غَشِيَ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥] هذا كله فيه إحاطة من كل وجه.

وذكر - تعالى - إنزال النعاس في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ اللَّيْلِ أَمَنَةً تَعْسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، هذا يوم أحد. وقال في يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الأبخرة التي تدخل في الدماغ، فتتعقد فيحصل منها النعاس.

وطائفة من أهل الكلام - منهم أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد - جعلوا النزول والإتيان والمجيء حدثًا يحدثه منفصلاً عنه، فذاك هو إتيانه واستواؤه على العرش، فقالوا: استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا عليه من غير فعل/يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوه، وقالوا: المعروف أنه لا ٢٥١/١٢ يجيء شيء من الصفات والأعراض إلا بمجيء شيء، فإذا قالوا: جاء البرد أو جاء الحر، فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد، وهو عين قائمة بنفسها، وإذا قالوا: جاءت الحمى، فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال ، فيحدث الحر والبرد بذلك، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل، مثل لون الفاكهة؛ فإنه لا يقال في هذا: جاءت الحمرة والصفرة والخضرة، بل يقال: أحمر وأصفر وأخضر. وإذا كان كذلك فإنزاله - تعالى - العدل والسكينة، والنعاس والأمانة - وهذه صفات تقوم بالعباد - إنما تكون إذا أفضى بها إليهم ، فالأعيان القائمة توصف بالنزول ، كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن، فإذا نزل بها الملائكة قيل: إنها نزلت.

(١) مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٣٨/٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

وكذلك لو نزل غير الملائكة ، كالهواء الذي نزل بالأسباب ، فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس، فكان قد أنزل النعاس -سبحانه- بإنزال ما يحمله .

وقد ذكر - سبحانه - إنزال الحديد، والحديد يخلق في المعادن .

٢٥٢/١٢ وما يذكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن آدم - عليه السلام - نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد؛ السندان والكلبتان والمنقعة، والمطرقة، والإبرة، فهو كذب لا يثبت مثله .

وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض، فأنزل الحديد والماء والنار والملح» حديث موضوع مكذوب، في إسناده سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري - رحمه الله - وهو من الكذابين المعروفين بالكذب .

قال ابن الجوزي : هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، يروي عن الثوري وعاصم الأحول والأعمش، قال أحمد - رحمه الله : هو كذاب يضع الحديث، وقال مرة : ليس بشيء . وقال يحيى : كان كذاباً خبيثاً، وقال مرة : ليس بثقة . وقال أبو داود: كذاب. وقال زكريا الساجي : يضع الحديث. وقال النسائي : ليس بثقة ولا مأمون. وقال الدارقطني : ضعيف متروك .

والناس يشهدون أن هذه الآلات تصنع من حديد المعادن . فإن قيل: إن آدم - عليه السلام - نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للبيان . وإن قيل: بل نزل معه آلة واحدة، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة في هذا لسائر الناس؟! ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات، وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات ٢٥٣/١٢ مع أن المأثور: «إن أول من خطَّ وخاط إدريس - عليه السلام -» وآدم - عليه السلام - لم يخط ثوباً فما يصنع بالإبرة .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه، كالسيف والسنان والنصل وما أشبه ذلك، الذي به ينصر الله ورسوله ﷺ ، وهذه لم تنزل من السماء .

فإن قيل: نزلت الآلة التي يطع بها، قيل: فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة والآلة وحدها لا تكفي، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد، لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قُطْرُب - رحمه الله - : معناه جعله نزلاً، كما يقال: أنزل الأمر على فلان نزلاً حسناً: أي جعله نزلاً . قال: ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ﴾

لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ ﴿[الزمر: ٦] وهذا ضعيف؛ فإن النزول إنما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به، قال الله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَبِيرٍ﴾ [الواقعة: ٩٣]، والضيافة سميت نزلاً؛ لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتي إليه بضيافته فيه، فسميت نزلاً لأجل نزوله، ونزل بنى فلان ضيف؛ ولهذا قال نوح - عليه السلام - : ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]؛ لأنه كان راكباً في السفينة، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون منازل؛ لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاء تبع للركبان، وتسمى المساكن منازل.

/ وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لأنه أخرجه من المعادن وعلمهم صنعته، ٢٥٤/١٢
فإن الحديد إنما يخلق في المعادن، والمعادن إنما تكون في الجبال، فالحديد ينزله الله من معادنه التي في الجبال ليتففع به بنو آدم، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

وهذا مما أشكل أيضاً. فمنهم من قال: جعل، ومنهم من قال: خلق؛ لكونها تخلق من الماء، فإن به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء، وقال قُطْرُبُ: جعلناه نزلاً. ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة؛ فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها، ومن أصلاب آبائها تأتي بطون أمهاتها، ويقال للرجال: قد أنزل الماء، وإذا أنزل وجب عليه الغسل، مع أن الرجل غالب إنزاله وهو على جنب، إما وقت الجماع، وإما بالاحتلام، فكيف بالأنعام التي غالب إنزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الإناث؟!

وما يبين هذا، أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السُّفْلِيَّاتِ، فلم يقل: أنزل النبات، ولا أنزل المرعى، وإنما استعمل فيما يخلق في محل عال، وأنزله الله من ذلك المحل، كالحديد والأنعام.

وقال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]، وفيها قراءتان: إحداهما بالنصب، فيكون لباس التقوى أيضاً/منزلاً، ٢٥٥/١٢
وأما على قراءة الرفع فلا، وكلاهما حق. وقد قيل فيه: خلقناه وقيل: أنزلنا أسبابه. وقيل: ألهمناهم كيفية صنعته، وهذه الأقوال ضعيفة؛ فإن النبات الذي ذكروا لم يجئ فيه لفظ «أنزلنا»، ولم يستعمل في كل ما يصنع أنزلنا، فلم يقل: أنزلنا الدور، وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك، وهو لم يقل: إنا أنزلنا كل لباس ورياش، وقد قيل: إن الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد، مثل اللبس واللباس، وقد قيل: هما المال والخصب والمعاش، وارتاش فلان: حسنت حالته.

والصحيح أن «الريش» هو الأثاث والمتاع ، قال أبو عمر: والعرب تقول: أعطاني فلان ريشه ، أي كسوته وجهازه. وقال غيره: الرياش في كلام العرب: الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها. وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال، والمراد به مال مخصوص، قال ابن زيد: جمالا؛ وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو ما يروش به ويدفع عنه الحر والبرد وجمال الطائر ريشه، وكذلك ما يبيت فيه الإنسان من الفرش وما ييسطه تحته ونحو ذلك، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفي البيوت، كما قال - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ الآية [النحل: ٨٠]، فامتق - سبحانه - عليهم بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث، وهذا - والله أعلم - معنى إنزاله؛ فإنه ينزله/من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش. فقد أنزلها عليهم، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان.

والله - تعالى - ذكر في سورة النحل إنعامه على عباده، فذكر في أول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها، فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ خَلَقَهُمْ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم في أثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التي يسكنونها: مساكن الحاضرة والبادية، ومساكن المسافرين، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ الآية، ثم ذكر إنعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا ظِلًّا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

ولم يذكر هنا ما يقى من البرد؛ لأنه قد ذكره في أول السورة، وذلك في أصول النعم؛ لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش في البلاد الباردة بلا دفء، بخلاف الحر فإنه أذى، لكنه لا يقتل كما يقتل البرد؛ فإن الحر قد يتقي بالظلال واللباس وغيرهما، وأهله - أيضا - لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد، بل أدنى وقاية تكفيهم ٢٥٧/١٢ وهم في الليل وطرفي/النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا، بل لا يحتاجون إليه أحيانا حاجة قوية، فجمع بينهما في قوله: ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]. ولا حذف في اللفظ ولا قصور في المعنى، كما يظنه من لم يحسن حقائق معاني القرآن، بل لفظه أتم لفظ، ومعناه أكمل المعاني، فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون - كما تقدم - فهو منزل من الجهتين؛ فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل.

فقد تبين أنه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف، وهذا هو اللائق بالقرآن؛ فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب نزولا إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى في معنى آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز بما ذكرنا؛ وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة الذي أخبر الله -تعالى- أنه بينه وجعله هدى للناس، وليكن هذا آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

٢٥٨/١٢ /وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فسماه هنا كلام الله، وقال في مكان آخر: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] فما معنى ذلك؟ فإن طائفة ممن يقول بالعبرة يدعون أن هذا حجة لهم، ثم يقولون: أنتم تعتقدون أن موسى - صلوات الله عليه - سمع كلام الله - عز وجل - حقيقة من الله من غير واسطة، وتقولون: إن الذي تسمعونوه كلام الله حقيقة، وتسمعونوه من وسائط بأصوات مختلفة، فما الفرق بين هذا وهذا؟ وتقولون: إن القرآن صفة لله - تعالى - وإن صفات الله - تعالى - قديمة، فإن قلتم: إن هذا نفس كلام الله - تعالى - فقد قلتم بالحلول، وأنتم تكفرون بالحولية والاتحادية، وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا، ونحن نطلب منكم في ذلك جواباً نعتمد عليه إن شاء الله - تعالى .

فأجاب :

٢٥٩/١٢ الحمد لله رب العالمين، هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست/إحدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه، ولا في واحدة منهما حجة لقول باطل، وإن كان كل من الآيتين قد يحتاج بها بعض الناس على قول باطل، وذلك أن قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ، وأن ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله، كما في حديث جابر في السنن: أن النبي ﷺ كان يَعْزُضُ نفسه على الناس في الموقف ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لَا بُلْغَ كَلَامِ رَبِّي؟ فَإِنْ قَرِيشًا مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ (١) كَلَامِ رَبِّي» (٢)، وفي حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم ﴿الَّذِي غَلَبَتْ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١ - ٣] قالوا له: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، ولكنه كلام الله .

وقد قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيْنَ شُهُودًا . وَمَهْدَتْ لَمْ تَهْجِدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا . سَاءَ رُفْقًا صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُلِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ

(١) في المطبوعة: «بلغ» والصواب ما أثبتناه.

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٣ .

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ [المدر: ١١ - ٢٥] فمن قال: إن هذا القرآن قول البشر، كان قوله مضاهياً لقول: «الوحيد» الذي أصلاه الله سقر. ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما ٢٦٠/١٢ لكل امرئ ما نوى»^(١) إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا: هذا حديث رسول الله ﷺ، وهذا كلام رسول الله ﷺ. ولو قال المبلغ: هذا كلامي وقولي لكذب الناس؛ لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً، لا لمن أداه راوياً مبلغاً. فإذا كان مثل هذا معلوماً في تبليغ كلام المخلوق، فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق، الذي هو أولى ألا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا؟!

وقد أخبر - تعالى - بأنه منزل منه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿حَمْدٌ . نَزِيلٌ مِّن رَّبِّكَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١]، [٢]، ﴿حَمْدٌ . نَزِيلٌ الْكِتَابِ مِّنْ أَلَلِّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١، ٢، الأحقاف: ١، ٢] فجبriel رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله ﷺ من البشر والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وكلاهما مبلغ له، كما قال: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿إِلَّا مَن أَرْزَقْنِي مِن رَّسُولٍ فَإِنَّمَا يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٧، ٢٨] وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء، كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك، لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إلى قوله: ٢٦١/١٢ ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا بِآيَةٍ مَّكَاتٍ ءَايَةً وَأَلَّهْ أَصْلَهُ بِمَا يَزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٣].

كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة، إما عبد ابن الحضرمي وإما غيره، كما ذكر المفسرون، فقال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يضيفون إليه التعليم لسان ﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ فكيف يتصور أن يعمل أَعْجَمِيٌّ وهذا الكلام عربي؟ وقد أخبر أنه نزل به روح القدس من ربك بالحق، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه؛ إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

من الرب - سبحانه وتعالى - لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بَلَغَ كلام غيره كمن بَلَغَ كلام النبي ﷺ أو غيره من الناس ، أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشداً قول لبيد :

٢٦٢/١٢ / ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة ، حيث قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشئه ، لفظه ومعناه ، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله ، مع أن هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه ، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول ، وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ ٢٦٣/١٢ المنشئ والشعر شعر المنشئ لا شعر المنشد . والمحدث عن النبي ﷺ إذا روى قوله : « إنما الأعمال بالنيات »^(١) بلغه بحركته وصوته ، مع أن النبي ﷺ تكلم به بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي ﷺ ، ولا حركته كحركته ، والكلام كلام رسول الله ﷺ لا كلام المبلغ له عنه .

فإذا كان هذا معلوماً معقولاً ، فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارئ إذا قرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٢-٤] أن يقال : هذا الكلام كلام البارئ ، وإن كان الصوت صوت القارئ . فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر ، مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول ، قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ، بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه ، كما جهلوا^(٢) من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . وقالوا :

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤ .

(٢) أي : نسبوه إلى طائفة الجهمية أتباع جهم بن صفوان الضال .

القرآن كلام الله غير مخلوق، كيف تصرف ، فكيف من قال: لفظي به قديم أو صوتي به قديم؟ فابتدع هذا وضلاله أوضح . فمن قال: إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئاً من ذلك ، فهو ضال مبتدع.

وهؤلاء قد يحتجون بقوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ويقولون: هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فهذا غير مخلوق، ونحن لا نسمع/إلا صوت القارئ، ٢٦٤/١٢ وهذا جهل منهم ؛ فإن سماع كلام الله، بل وسماع كل كلام، يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

ومن قال: إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران، أو إنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران، فهو من أعظم الناس جهلاً وضلالاً. ولو قال قائل : إنا نسمع كلام النبي ﷺ كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً، فكيف من يقول: أنا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى؟! وإن كان الله كلم موسى تكليماً بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق. وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قُرب، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والأرض صوته كجر السلسلة على الصفا، وأمثال ذلك – مما جاءت به النصوص والآثار – كلها ليس فيها أن صفة المخلوق هي صفة الخالق، بل ولا مثلها، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق، فليس كلامه مثل كلامه، ولا معناه مثل معناه، ولا حرفه مثل حرفه، ولا صوته مثل صوته، كما أنه ليس علمه مثل علمه، ولا قدرته مثل قدرته، ولا سمعه مثل سمعه، ولا بصره مثل بصره؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

/ ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين ٢٦٥/١٢ سماعه من المبلغ عنه، كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الإطناب. وقد بين أئمة السنة والعلم – كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتابه في خلق الأفعال، وغيرهما من أئمة السنة – من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره، ما لا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقل والدين.

فصل

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] فهذا قد ذكره في موضعين، فقال في الحاقة: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢] فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في التكوير: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٣] فالرسول هنا جبريل، فأضافه إلى

الرسول من البشر تارة، وإلى الرسول من الملائكة تارة، باسم الرسول، ولم يقل: إنه ٢٦٦/١٢ لقول ملك ولا نبي؛ لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ/عن غيره لا منشئ له من عنده ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِيثِ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨]، فكان قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ بمنزلة قوله: لتبليغ رسول، أو مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه: أنه أنشأه، أو أحدثه، أو أنشأ شيئاً منه، أو أحدثه رسول كريم؛ إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتدأه، وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً.

وأيضاً، فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه، امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها، فبطل أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه، لجاز أن نقول: إنه قول البشر، وهذا قول «الوحيد» الذي أصلاه الله سَقَر.

فإن قال قائل: فالوحيد جعل الجميع قول البشر، ونحن نقول: إن الكلام العربي قول البشر، وأما معناه فهو كلام الله.

فيقال لهم: هذا نصف قول الوحيد، ثم هذا باطل من وجوه أخرى:

٢٦٧/١٢ وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة، وأنتم تجعلون/ذلك المعنى معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة.

وأيضاً، فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين، وإنما يشتركان في مسمى الكلام، ومسمى كلام الله، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام، كله يشترك في أنه كلام الله، اشتراك الأشخاص في أنواعها، كما أن الإنسان وهذا الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان، وليس في الخارج

شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن، وهو معنى آية الدين وآية الكرسي.

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال: إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية. فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما، وألزم الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

/ وبسبب هاتين البدعتين الحمقاوين ثارت الفتن وعظمت الإحن، وإن كان كل من ٢٦٨/١٢ أصحاب القولين قد يفسرونهما بما قد يلتبس علي كثير من الناس كما فسر من قال: إن الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم: أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه.

وأما «أفعال العباد» فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها، وفسر ذلك بأن الشرع قديم والقدر قديم، وهي مشروعة مقدرة، ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهي عنه، ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته. والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار أن الأمر والخبر نوعان للكلام، لفظه ومعناه، ليس الأمر والخبر صفات لموصوف واحد- فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل، وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم أن الوجود واحد؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين؛ فإن انقسام «الموجود» إلى القديم والمحدث، والواجب والممكن، والخالق والمخلوق، والقائم بنفسه والقائم بغيره، كانقسام «الكلام» إلى الأمر والخبر، أو إلى الإنشاء والإخبار، أو إلى الأمر والنهي والخبر- فمن قال: الكلام معنى واحد هو الأمر والخبر، فهو كمن قال: الوجود واحد هو الخالق والمخلوق، أو الواجب والممكن. وكما أن حقيقة هذا تؤول^(١) إلى تعطيل الخالق فحقيقة هذا تؤول^(٢) إلى تعطيل كلامه ٢٦٩/١٢ وتكليمه.

وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى؛ ولهذا آل الأمر بمحقق هؤلاء إلى تعظيم فرعون، وتولييه وتصديقه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقاق بتكليم الله لموسى، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وأيضاً، فيقال: ما تقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره - كما قد ينقل كلام النبي ﷺ والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين- إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه؟ فإن قال: كلام المبلغ

(١، ٢) في المطبوعة: «تؤل» والصواب ما أثبتناه.

لزم أن يكون القرآن كلاماً لكل من سمع منه، فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارئ لا كلام الله - تعالى - وأن يكون قوله: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١) ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول، وحينئذ فلا فضيلة للقرآن في ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، التكويد: ١٩] فإنه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه، والقرآن يقرؤه المؤمن والمنافق، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأثَرِجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرِّيحَانَةِ ريحها طيب وطعمها مُرٌّ» ٢٧٠/١٢، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن/مثل الحَنْظَلَةِ طعمها مر ولا ريح لها»^(٢) وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد، بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك. وفساد هذا في العقل والدين واضح.

وإن قال: كلام المبلغ عنه، علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال: إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم، لا تبليغ شيطان رجيم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكويد: ١٩-٢٥] وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون، وما هو على الغيب بمتهم. وذكره باسم «الصاحب» لما في ذلك من النعمة به علينا، إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عن صحبته وكان من جنسنا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُوكَ﴾ [الأنعام: ٩]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي، أنهما مبلغان، فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله.

فلما كان الرسول البشري يقال: إنه مجنون أو مفتر، نزهه عن هذا وهذا، وكذلك في السورة الأخرى قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَحِثُّ عَلَيْهِمْ فِي أَهْلِهِمْ هَاهُنَا دُونِ الْبُلَدِ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣] وهذا مما يبين أنه أضافه إليه، لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه، فإنه قال: ﴿وَلِئَلَّا لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] فجمع بين قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِئَلَّا لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والضميران عائدان إلى واحد، فلو كان الرسول

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(٢) البخاري في الأطعمة (٥٤٢٧) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٣/٧٩٧).

أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلاً من رب العالمين، بل كان يكون تنزيلاً من الرسول.

ومن جعل الضمير في هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر، مع أنه ليس في الكلام ما يقتضى اختلاف الضميرين، ومن قال: إن هذا عبارة عن كلام الله - فقل له: هذا الذي تقرأه هو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحيثُذ فيبقى النزاع لفظياً؛ فإنه متى قال: إن محمداً سمعه من جبريل جميعه، وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق . وبعد هذا فقلوه: عبارة ، لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه، كما سنبينه.

وإن قلت: ليس هذا عبارة عن تلك العبارة، بل هو نفس تلك العبارة، فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ/عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة ٢٧٢/١٢ جبريل، فحيثُذ هذا يبطل أصل قولك.

واعلم أن أصل القول بالعبارة: أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب هو أول من قال في الإسلام: إن معنى القرآن كلام الله، وحروفه ليست كلام الله. فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة، وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله - تعالى - وخالف المعتزلة في ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات، وقرر ذلك تقريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده. وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره، هل يقال له حكاية عنه أم لا؟ وأكثر المعتزلة قالوا: هو حكاية عنه، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حكاية عن كلام الله ، ليس بكلام الله.

فجاء بعده أبو الحسن الأشعري ، فسلك مسلكه في إثبات أكثر الصفات، وفي مسألة القرآن أيضاً، واستدرك عليه قوله: إن هذا حكاية، وقال: الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة، وإنما يناسب قولنا أن نقول : هو عبارة عن كلام الله؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة، فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور:

/أحدها: قولهم : إن المعنى كلام الله، وإن القرآن العربي ليس كلام الله، وكانت ٢٧٣/١٢ المعتزلة تقول: هو كلام الله وهو مخلوق ، فقال هؤلاء: هو مخلوق وليس بكلام الله؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به، كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم

(١) أي : زَجَرَهُ وَنَهَرَهُ . انظر: المصباح المنير، مادة «زبر».

القادر، وكذلك الحركة . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم: إن كلام الله مخلوق، خلقه في بعض الأجسام ، قالوا لهم: لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه، فكانت الشجرة هي القائلة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفصص: ٣٠]، فقال أئمة الكلابية: إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله، فقال طائفة من متأخريهم: بل نقول: الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة، فقال لهم المحققون: فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة، فإنكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره، أمكن المعتزلة أن يقولوا: ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره.

الثاني: قولهم: إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر، وهو معنى التوراة، والإنجيل والقرآن، وقال أكثر العقلاء: هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل.

٢٧٤/١٢ / الثالث: أن ما أنزل به جبريل من المعنى واللفظ، وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ، ليس هو كلام الله.

ومسألة القرآن لها طرفان: أحدهما: تكلم الله به وهو أعظم الطرفين. و الثاني: تنزيله إلى خلقه. والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول. وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع، وبيننا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل، وما دخل في ذلك من الاشتباه، ومأخذ كل طائفة، ومعنى قول السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول: إن الله لم يقم بذاته كلام؛ ولهذا قال الأئمة: كلام الله من الله ليس ببائن عنه، وذكرنا اختلاف المنتسبين إلى السنة، هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا؟ وقول من قال من أئمة السنة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، وأن قول السلف: منه بدأ، لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل في غيره؛ فإن كلام المخلوق، بل وسائر صفاته، لا تفارقه وتنتقل إلى غيره، فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته؟! بل قالوا: منه بدأ، أي: هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم، الذين قالوا: بدأ من المخلوق الذي خلق فيه. وقولهم: إليه يعود، أي يسري عليه، فلا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في الصدور منه آية.

٢٧٥/١٢ / والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل.

فصل

وأما قول القائل: أنتم تعتقدون أن موسي سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة، وتقولون: إن الذي تسمعون كلام الله حقيقة، وتسمعون منه وسائط بأصوات مختلفة، فما الفرق بين ذلك؟

فيقال له: بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق. فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي ﷺ منه بغير واسطة - كسماع الصحابة منه - وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس. وكل من السامعين سمع كلام النبي ﷺ حقيقة، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة، وإن كان المبلغ يروي به بحركة نفسه وأصوات نفسه.

/ فإذا كان هذا الفرق معقولا في كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء ٢٧٦/١٢ وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه، فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله؟ وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب، فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم، فهذا لا يقوله ذو حس سليم، بل ما بين لوحى المصحف كلام الله، وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره، فمن قال: إن الذي في المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره، فهو ملحد مارق.

ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب في المصاحف، أو أن المداد قديم أزلي - فهو أيضاً ملحد مارق، بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله - تعالى!؟.

والشبهة تنشأ في مثل هذا من جهة: أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد. مثال ذلك: أن الإنسان يقول: رأيت الشمس والقمر والهلال، إذا رآه بغير واسطة، وهذه «الرؤية المطلقة». وقد يراه في ماء أو مرآة، فهذه «رؤية مقيدة»، فإذا أطلق قوله: رأيته، أو ما رأيته، حمل على مفهوم اللفظ المطلق، وإذا قال: لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة، فهو كلام صحيح مع التقيد، واللفظ يختلف معناه بالإطلاق والتقييد، فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات ٢٧٧/١٢ المتصلة كقوله: ﴿أَلَفَ سَكَّ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] كان هذا المجموع دالا على

تسمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال : إن هذا مجاز فقد غلط؛ فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقتزن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعية هي من تمام الكلام؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين، ولا يجوز نفي مفهومهما، بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع، مع أن قول القائل: هذا اللفظ حقيقة، وهذا مجاز، نزاع لفظي، وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة أو في القرآن، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة، ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الإمام أحمد، فإنه قال فيما كتبه من «الرد على الزنادقة والجهمية» هذا من مجاز القرآن. وأول من قال ذلك مطلقاً أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه الذي صنفه في «مجاز القرآن»، ثم إن هذا كان معناه عند الأولين مما يَجُوز في اللغة وَيَسُوغ، فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء : عقد لازم وجائز، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز، ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتي يصير حقيقة.

٢٧٨/١٢ / والمقصود أن القائل إذا قال: رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرأة، فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة، وإذا قال قائل: ما رأى ذلك، بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعاً لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرأة، وهذه الرؤية في الماء أو المرأة حقيقة مقيدة، وكذلك قول النبي ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي »^(١)، هو كما قال ﷺ رآه في المنام حقاً، فمن قال: ما رآه في المنام حقاً فقد أخطأ، ومن قال : إن رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك.

وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام، وليس هذا كالسماع منه في اليقظة، وقد يرى الرائي في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك، وإنما رأى مثالهم، ولكن يقال: رآهم في المنام حقيقة، فيحترز بذلك عن الرؤيا التي هي حديث النفس.

فإن الرؤيا ثلاثة أقسام: رؤيا بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام. وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن ٢٧٩/١٢ النبي ﷺ، ولكن الرؤيا يظهر لكل أحد من الفرق بينها وبين اليقظة ما لا يظهر في غيرها،

(١) البخاري في الرؤيا (٦٩٩٣) ومسلم في الرؤيا (٢٢٦٦/١٠، ١١) كلاهما عن أبي هريرة.

فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرأة والماء أو غير ذلك، حتى إن المرئي يختلف باختلاف المرأة، فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك، وإن كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك، فكذا في «السماع» يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ، ففي الموضعين المقصود سماع كلامه، كما أن هناك في الموضعين يقصد رؤية نفس النبي، لكن إذا كان بواسطة اختلاف الوسطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين، كما يختلف المرئي باختلاف المرايا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فجعل التكليم ثلاثة أنواع: الوحي المجرد، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى - عليه السلام -، والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد ﷺ. والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به في القرآن، ونهاهم عما نهاهم عنه في القرآن، وأخبرهم بما أخبرهم به في القرآن، فأمره ونهيه وإخباره بواسطة الرسول، فهذا تكليم مقيد بالإرسال، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه، وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤداً عنه، وموسى سمع كلامه مسموعاً منه لا مبلغاً عنه ولا مؤداً عنه، وإذا ٢٨٠/١٢ عرف هذا المعنى زاحت الشبهة.

والنبي ﷺ يروي عن ربه، ويخبر عن ربه، ويحكي عن ربه، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راوياً حاكياً عنه. فلو قال من قال: إن القرآن «حكاية»: أن محمداً حكاه عن الله، كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله، لكان قد قصد معنى صحيحاً، لكن يقصدون - ما يقصده القائل بقوله: فلانا يحكي فلانا أي يفعل مثل فعله وهو - أنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة، لا بالوسائل المطلوبة لغيرها، فلما كان مقصود الرائي أن يرى الوجه مثلاً فرآه في المرأة حصل مقصوده وقال: رأيت الوجه، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرأة - وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود، وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف باختلاف الصائتين. والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود، كما في «الاسم والمسمى» فإن القائل إذا قال: جاء زيد، وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الإخبار

٢٨١/١٢ بالمجئ عن «المسمى»، ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك.

فمن ظن أن الموصوف بالمجئ والإتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلاً، فكذلك إذا قال القائل : هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته، فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلاً؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الإمام أحمد - رضي الله عنه - : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص] وسأله هل هذا كلام الله، وهل هو مخلوق؟ فأجابه بأنه كلام الله، وأنه غير مخلوق، فنقل عنه أبو طالب - خطأ منه - أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه، وقال : أنا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ قال : لا، ولكن قرأت عليك : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقلت لك : هذا غير مخلوق، فقلت : نعم، قال : فلم تحكي عني ما لم أقل؟ لا تقل هذا؛ فإن هذا لم يقله عالم- وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروزي وفوران، وبسطها الخلال في كتاب «السنة» وصنف المروزي في «مسألة اللفظ» مصنفًا ذكر فيه أقوال الأئمة.

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه؛ فإن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى ٢٨٢/١٢ إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به، لا إلى/ ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم. فإذا قيل : لفظي، جعل نفس الوسائط غير مخلوقة، وهذا باطل، كما أن من رأى وجهًا في مرآة فقال : أكرم الله هذا الوجه وحياء، أو قبحه، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع المنعكس فيها، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم يبدر، فإنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله، وكذلك من سمعه يذكر رجلاً فقال : هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم، لا نفس الصوت المسموع من الناطق . فلو قال : هذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى .

وكان بعضهم يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فرأى في منامه ضارب يضربه وعليه فروة، فأوجعه بالضرب، فقال له : لا تضربني، فقال : أنا ما أضربك، وإنما أضرب الفروة، فقال : إنما يقع الضرب علي، فقال : هكذا إذا قلت : لفظي بالقرآن مخلوق، فالخلق إنما يقع على القرآن. يقول: كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة، فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة، فإذا قلت : مخلوق، وقع ذلك على المقصود، كما إذا سمعت قائلاً يذكر رجلاً فقلت : أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا، انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت الذاكر؛ ولهذا قال الأئمة : القرآن كلام

الله غير مخلوق كيفما تصرف، بخلاف أفعال العباد وأصواتهم ، فإنه من نفى عنها الخلق ٢٨٣/١٢ كان مبتدعاً ضالاً .

فصل

وأما قول القائل: تقولون: إن القرآن صفة الله وإن صفات الله غير مخلوقة، فإن قلتم: إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون بالحلولية والاتحادية ، وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله؛ فإن منشأ الشبهة أن قول القائل : هذا كلام الله، يجعل أحكامه واحدة، سواء كان كلامه مسموعاً منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

طائفة قالت: هذا كلام الله، وهذا حروف وأصوات مخلوقة، فكلام الله مخلوق .

وطائفة قالت: هذا مخلوق، وكلام الله ليس بمخلوق، فهذا ليس كلام الله .

وطائفة قالت: هذا كلام الله، وكلام الله ليس بمخلوق، وهذا ألفاظنا وتلاوتنا ، فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

/ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق في المشار إليه في هذا فأنت تقول: هذا الكلام ٢٨٤/١٢ الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب، وهو كلام حكيم، وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول: هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم، فالمشار إليه في الموضعين واحد، وتقول - أيضاً - : أن هذا صوت حسن، وهذا كلام من وسط القلب، ثم إذا سمعته من الناقل تقول: هذا صوت حسن، أو كلام من وسط القلب ، فالمشار إليه هنا ليس هو المشار إليه هناك، بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه، وإلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه، وإذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالمشار إليه واحد، ثم تقول : هذا خط حسن وهذا قلم النسخ أو الثلث، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار إليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فإذا ميز الإنسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق، وعلم أن من قال: هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق، أن المشار إليه الكلام من حيث هو ، مع قطع

النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم، ومن قال: هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته، لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق، من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل.

٢٨٥/١٢ /ويقال لهذا: هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجوداً قبل أن يخلق هذا القارئ، فهب أن القارئ لم تخلق نفسه ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله لعدم بعده ويحدث بحدوثه؟ فإشارته بالخلق إن كانت إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته، فالقرآن غني عن هذا القارئ وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه، وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد، وبلغه محمد لأمته، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع أن يكون مخلوقاً، فإنه لو كان مخلوقاً لكان كلاماً لمحلله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله؛ ولأنه لو كان — سبحانه — إذا خلق كلاماً كان كلامه كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود، بل كل كلام في الوجود وهذا قول الحلولية الذين يقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومن قال: القرآن مخلوق فهو بين أمرين: إما أن يجعل كل كلام في الوجود كلامه، وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلاً، فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات، كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، ٢٨٦/١٢ فيكون قد فرّ عن إثبات صفات الكمال له حذراً في زعمه من التشبيه، فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات.

وكذلك قول القائل: هذا نفس كلام الله، وعين كلام الله، وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله، ونفس كلام الله، وأمثال هذه العبارات. هذه مفهومها عند الإطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فإن من ينقل كلام غيره ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص، كما جرت عادة الناس في كثير من مكاتبات الملوك وغيرها فإذا جاء كتاب السلطان فقيل: هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص؛ يعني: لم يزد فيه الكاتب ولا نقص. وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة من تصنيفه قيل: هذا الكلام كلام فلان بعينه؛ يعني لم يزد فيه ولم ينقص، كما قال النبي ﷺ: «نَصَّرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه» (١).

(١) سبق تخريجه ص ٤٣٧.

فقوله: « فبلغه كما سمعه » لم يرد به أنه يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه بها، ولكن أراد أنه يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص، فيكون قد بلغه كما سمعه. فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله ﷺ، ويكون قد سمع كلام رسول الله ﷺ كما قاله. وذلك معنى قولهم: هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه. / لا يريدون أن هذا هو ٢٨٧/١٢ صوته وحركاته، وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجئ أصحابه إلى القرمطة في السمعيات، والسفسطة في العقلیات.

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة، فإذا رأى الناس كلاماً صحيحاً، فإن من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه في كتاب لا يقول عاقل: إن نفس ما قام بالمتكلم من المعاني التي في قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقت، وانتقلت عنه إلى المستمع والمبلغ عنه، ولا فارقت وحلت في الورق، بل ولا يقول: إن نفس ما قام به من المعاني والألفاظ هو نفس المداد الذي في الورق، بل ولا يقول: إن نفس ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه، فهذه الأمور كلها ظاهرة، لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب في كتاب، فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه - سبحانه - كما كتب التوراة لموسى، وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ، وكما كتبه المسلمون في مصاحفهم.

وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه، بل شعر مخلوق، كما يبلغ شعر حسان وابن رواحه وليد وأمثالهم من الشعراء، ويقول الناس: هذا شعر حسان بعينه، وهذا هو نفس شعر حسان، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله:

٢٨٨/١٢

/ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين، فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته، وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري حلت فيه؟! وهم لا يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثّلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوءاً^(١)، كما يقال: إن الهوى ينقلب ناراً بجواره الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التي في المصباح، والمقرئ والمعلم يقرئ القرآن ويعلم العلم ولم

(١) في المطبوعة: « ضوءاً » وهو خطأ.

ينقص مما عنده شيء ، بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وأمثال ذلك ، كما يقال : نقلت ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثاني ، بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس ٢٨٩/١٢ نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني/ مثل ما في الأول ، فيبقى المقصود بالأول منقولاً منسوخاً وإن كان لم يتغير الأول ، بخلاف نقل الأجسام وتوابعها ؛ فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول .

وذلك لأن الأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها في العلم ، ثم في اللفظ المطابق للعلم ، ثم في الخط . وهذا الذي يقال : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان ؛ وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] ، فذكر الخلق عمومًا وخصوصًا ، ثم ذكر التعليم عمومًا وخصوصًا ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط ، فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق ، فظن أن قوله : ﴿ إِنَّمَا لَقَرْنَاكُمْ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٧ ، ٧٨] كقوله : ﴿ الَّذِي يَحْدُوهُمْ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف ، وهذا غلط ؛ إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال ، أو كإثبات ٢٩٠/١٢ القرآن في/زبر الأولين ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦] فثبتت الأعمال في الزبر وثبت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ؛ ولهذا قيد - سبحانه - هذا بلفظ « الزبر » و « الكتب » زبر . يقال : زبرت الكتاب : إذا كتبه ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكن ذكره ، كما أن محمدًا نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبتت الرسول في كتبهم كثبت القرآن في كتبهم ، بخلاف ثبت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمقصود هنا أن نفس الموجودات وصفاتها إذا انتقلت من محل إلى محل حلت في ذلك المحل الثاني، وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقاءه في الأول، وإن كان الذي عند الثاني هونظير ذلك ومثله، لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه، ولم يكن للناس غرض في تعدد التابع، كما في الاسم مع المسمى؛ فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون: إنه اسم واحد لمسمى واحد، فإذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله،/أشهد أن محمداً رسول الله، وقال ذلك هذا ٢٩١/١٢ المؤذن وهذا المؤذن، وقاله غير المؤذن، فالناس يقولون: إن هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله، كما أن المسمى هو الله ورسوله.

وإذا قال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وقال: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر، فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره، والأمر الواحد بالأمور به من الأمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه، هذا في المركب نظير هذا في المفرد، وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم.

وأما قول القائل: إن قلتم: إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد. مثاله مثال رجل ادعى أن النبي ﷺ يحل بذاته في بدن الذي يقرأ حديثه، فأنكر الناس ذلك عليه، وقالوا: إن النبي ﷺ لا يحل في بدن غيره، فقال: أنتم تقولون: إن المحدث يقرأ كلامه، وأن ما يقرؤه هو كلام النبي ﷺ، فإذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد.

/والناس متفقون على إطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه ٢٩٢/١٢ كلام زيد، ولا يستجيز العاقل إطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم، أو في هذا الورق. وقد نطقت النصوص بأن القرآن في صدور الرجال من النعم في عَقْلَهَا^(١)، وقوله: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٢) وأمثال ذلك، وليس هذا عند عاقل مثل أن يقال: الله في صدورنا وأجوافنا؛ ولهذا لما ابتدع شخص - يقال له: الصوري - بأن من قال: القرآن في صدورنا، فقد قال بقول النصارى، ف قيل لأحمد: قد جاءت جهمية رابعة - أي: جهمية الخلقية، واللفظية، والواقفية، وهذه الرابعة - اشتد نكيره لذلك، وقال: هذا

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٥٠٧.

أعظم من الجهمية . وهو كما قال .

فإن الجهمية ليس فيهم من ينكر أن يقال: القرآن في الصدور، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلل إلا من هو في غاية الضلالة والجهالة؛ فإن النصارى يقولون: الأب والابن وروح القدس إله واحد، وأن الكلمة التي هي اللاهوت تدرعت (١) الناسوت، وهو عندهم إله يخلق ويرزق؛ ولهذا كانوا يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، ويقولون: المسيح ابن الله؛ ولهذا كانوا متناقضين، فإن الذي تدرع المسيح إن كان هو ترزق وليست إلهًا، والمسيح عندهم إله، ولو قال النصارى: إن كلام الله في صدر المسيح كما هو في صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر.

فاللولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية أنه بذاته في كل مكان، وهو - سبحانه - ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها، أو قال: وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك.

فأما قول القائل: إن كلام الله في قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين، وإن الرسل بلغت كلام الله، والذي بلغته هو كلام الله، وإن الكلام في الصحيفة ونحو ذلك، فهذا لا يسمى حلولاً، ومن سماه حلولاً لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق. وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها إلى غيره، فكيف صفة الخالق - تبارك وتعالى - ؟!

ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه، هل يقال: إن كلام الله حال في المصحف أو حال في الصدور؟ وهل يقال: كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك؟ فمنهم طائفة نفت ٢٩٤/١٢ الحلل كالقاضي/أبي يعلى وأمثاله وقالوا: ظهر كلام الله في ذلك ولا نقول: حل، لأن حلول صفة الخالق في المخلوق، أو حلول القديم في المحدث ممتنع. وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي - الملقب بشيخ الإسلام - وغيره وقالوا: ليس هذا هو الحلل المحذور الذي نفينا، بل نطلق القول بأن الكلام في

(١) أي: دخلت في الناسوت. انظر: القاموس، مادة «درع».

الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الإنسان، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال في ذلك دون حلول ذاته، وطائفة ثالثة كأبي علي بن أبي موسى وغيره قالوا: لا نطلق الحلول نفياً ولا إثباتاً لأن إثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب إلى المخلوقات ونفى ذلك يوهم نفي نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونسك عما في إطلاقه محذور لما في ذلك من الإجمال.

وأما قول القائل: إن قلت: إن هذا نفس كلام الله فقد قلت بالحلول، وإن قلت غير ذلك، قلت بمقالتنا، فجواب ذلك: أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور، فإذا زالت لم يبق منكراً:

أحدها: من يقول: إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد، والله خلقه في غيره.

الثاني: قول من يقول: إن كلام الله ليس إلا معنى واحداً هو/الامر والنهي والخبر، ٢٩٥/١٢ وإن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحداً، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي، كمن يقول: إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد، فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد، فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته.

الثالث: قول من يقول: إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله، وإن القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين. فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها.

وأما قول من قال: إن القرآن العربي كلام الله، بلغه عنه رسول الله ﷺ، وأنه تارة يسمع من الله، وتارة من رسله مبلغين عنه، وهو كلام الله حيث تصرف، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره، ولا يكون كلام الله مخلوقاً، ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه. وقال مع ذلك: إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه، وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنقل إلى غيره فقد أصاب في هذا المعنى، لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربي كلام الله - تعالى - وليس هو ولا شيء منه كلاماً لغيره، ولكن بلغته عنه رسله، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه، ومع العلم بأن شيئاً من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا في كلام الخالق أولى وأظهر. والله أعلم.

فصل

قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، وهو منزل من الله ، كما قال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام : ١١٤] . فأخبر - سبحانه - أنهم يعلمون ذلك ، والعلم لا يكون إلا حقاً .

وقال تعالى : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر : ١ ، الجاثية : ٢ ، الأحقاف : ٢] ، ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر : ١ ، ٢] ، ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت : ١ ، ٢] ، وقال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَاَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه : ١٢٩] ونحو ذلك ، وقال تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل : ١٠٢] . فأخبر - سبحانه - أنه منزل من الله ، ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله الا كلامه ؛ بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك .

ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فإن من قال : إنه مخلوق يقول : إنه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها ، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله ، فأخبار الله - تعالى - أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ؛ ولهذا فسر الإمام أحمد قوله : «منه بدأ» أي : هو المتكلم به . وقال أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن عنه .

وأيضاً ، فلو كان مخلوقاً في غيره لم يكن كلامه ، بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبة والمشيئة والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور ، لو كان مخلوقاً في غيره لم يكن الرب - تعالى - متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ؛ فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره ، فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره ؛ لأن ذلك فطري ، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر

لم يقم به، وهذا مبسوط في مواضع آخر.

/ولم يقل السلف: إن النبي سمعه من الله - تعالى - كما يقول ذلك بعض ٢٩٨/١٢ المتأخرين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي القرآن». قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: حَسْبُكَ، فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء^(١).

والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله - تعالى - كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢] فأخبر - سبحانه - أنه نزله روح القدس - وهو الروح الأمين، وهو جبريل - من الله بالحق، ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين.

/وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأَهُ قَاتِلٌ قَاتِلٌ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ٢٩٩/١٢ [القيامة: ١٧ - ١٩] هو كقوله تعالى: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]، وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته؛ فإن لفظ نحن هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه، فالرب - تعالى - خلق الملائكة وغيرها، تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه، فهو - سبحانه - أحق باسم «نحن» و«فعلنا» ونحو ذلك من كل ما يستعمل.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يُعَالِجُ^(٢) من التنزيل شدة وكان

(١) البخاري في التفسير (٤٥٨٢) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٥، ٥٠٥٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٧/٨٠٠، ٢٤٨) وأبو داود في العلم (٣٦٦٨) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٢٥) والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٠٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٩٤).

وقوله: «تذرفان»: أي تدمعان. انظر: النهاية ١٥٩/٢.

(٢) أي: يحصل له ألم. انظر: القاموس، مادة «علاج».

يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧] قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] فإذا قرأه رسولنا، وفي لفظ: فإذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] أي نقرؤه. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه (١).

٣٠٠/١٢ / وقد بين الله - تعالى - أنواع تكليمه لعباده في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] بين - سبحانه - أن التكليم تارة يكون وحياً، وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى، وتارة يرسل رسولا فيوحى الرسول بإذن الله ما يشاء، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فإذا أرسل الله - تعالى - رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوهم عليهم وينبئهم به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَنَى اللَّهُ مِنَ آبَائِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (٢)، وقال ﷺ - لما خطب المسلمين - «لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» (٣)، وقال ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَيَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ» (٤)، وفي السنن عن جابر قال: كان النبي ﷺ يَغْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْسَمِ فيقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لَأَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنْ قَرِشًا مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي» (٥).

وكما لم يقل أحد من السلف: إنه مخلوق، فلم يقل أحد منهم: إنه قديم، لم

(١) البخاري في بدء الوحي (٥) ومسلم في الصلاة (١٤٨/٤٤٨).

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في العلم (٢٦٦٩).

(٣) البخاري في العلم (٦٧) ومسلم في القسامة (٢٩/١٦٧٩).

(٤) سبق تخريجه ص ٤١٣.

(٥) سبق تخريجه ص ٤٣٧.

يقول واحداً من القولين أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا من بعدهم من «الأئمة الأربعة» ولا غيرهم، بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله. ولما ظهر من قال: إنه مخلوق، قالوا ردّاً لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا (١) بذلك أنه مفترى، كما ظنه بعض الناس، فإن أحداً من المسلمين لم يقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم، وإنما قالوا: إنه مخلوق، خلقه الله في غيره، فرد السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنف في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: منه بدأ وإليه يعود.

وأول من عرف أنه قال: مخلوق: الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عرف أنه قال: هو قديم: عبد الله بن سعيد بن كلاب، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول.

فمنهم من قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرب، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره. وقال جمهور العقلاء: ٣٠٢/١٢ هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار. فإنه من المعلوم بصريح العقل أن معنى «آية الكرسي» ليس معنى «آية الدين» ولا معنى «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» [الإخلاص: ١] معنى «تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبِّ» [المسد: ١]، فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة، وخطابه لملائكته، وحسابه لعباده يوم القيامة، وغير ذلك من كلامه؟!

ومنهم من قال: هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته، لم يزل ولا يزال موصوفاً بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله - تعالى - لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يانوح، يا إبراهيم، يأبها المزل، يأبها المدثر، كما قد بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين. ولم يقل أحد من السلف: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلاً عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرؤونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مخلوق.

(١) في المطبوعة: «يريدو» وهو خطأ.

٣٠٣/١٢ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو» (١)، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري، والصوت الذي يقرأه به العبد صوت القارئ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (٢)، فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله؛ ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة: يحسنه الإنسان بصوته، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحببته لك تحبيراً (٣).

فكان ما قاله أحمد وغيره من أئمة السنة من أن الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولٍ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفْيِ﴾ [الحجرات: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ففرق - سبحانه - بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، فالأبحر إذا قدرت مداداً تنفذ، وكلمات الله لا تنفذ؛ ولهذا قال أئمة السنة: لم يزل الله متكلماً كيف شاء وبما شاء، كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما.

هذا وقد أخبر - سبحانه - عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوءُ ثَمِّهَا وَطُفُوًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، [٧٤]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وذكر - سبحانه - نداءه لموسى - عليه السلام - في سورة «طه» و«مريم» و«الطس الثلاث» وفي سورة «والنازعات» وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٧. (٢) سبق تخريجه ص ٤١٣.

(٣) الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦٢/٩، ٣٦٣) وقال: «رواه الطبراني ورجاله على شرط الصحيح غير خالِد

ابن نافع الأشعري وثقة ابن حبان وضعفه جماعة».

الْأَيْمَنَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِئَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي اللَّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [القصص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

واستفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه

— سبحانه — ينادي بصوت ، نادى موسى،/وينادى عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم ٣٠٥/١٢ بالوحي بصوت، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم : إن الصوت الذي سمعه موسى قديم، ولا أن ذلك النداء قديم، ولا قال أحد منهم : إن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله به، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين أصوات العباد.

وكان أئمة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية، كما قال الإمام أحمد لما سئل عن قال: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: هؤلاء جهمية، إنما يدورون على التعطيل. وذكر بعض الآثار المروية في أنه — سبحانه — يتكلم بصوت . وقد ذكر من صنف في السنة ... (١) من ذلك قطعة، وعلى ذلك ترجم عليه البخاري في صحيحه بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبا: ٢٣] (٢) وقد ذكر البخاري في كتاب «خلق الأفعال» مما يبين به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة. وكانت محنة البخاري مع أصحابه محمد بن يحيى الذهلي وغيره بعد موت أحمد بسنين، ولم يتكلم أحمد في البخاري إلا بالثناء عليه، ومن نقل عن أحمد أنه تكلم في البخاري بسوء فقد افترى عليه.

/وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه ٣٠٦/١٢: «الفصول في الأصول» قال : سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت أبا حامد الأسفرائيني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله، والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ وهو الذي نزلوه نحن بالسنتنا، وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا ؛ مسموعاً، ومكتوباً ، ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر، عليه لعائن الله والناس أجمعين.

(١) بياض بالأصل .

(٢) البخاري معلقاً، الفتح ٥٣٧/٨ .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين إلى السنة تنازعوا في اللفظ بالقرآن، هل يقال: إنه مخلوق؟ ولما حدث الكلام في ذلك أنكرت أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق، وقالوا: من قال: إنه مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق، فهو مبتدع. وأما صوت العبد فلم يتنازعوا أنه مخلوق؛ فإن المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام إنما بلغ غيره، كما يقال: روى الحديث بلفظه، وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام.

٣٠٧/١٢ و «اللفظ» في الأصل: مصدر لفظ يلفظ لفظاً، وكذلك «التلاوة/القراءة» مصدران، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو، وهو المراد باللفظ في إطلاقهم، فإذا قيل: لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق، أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: لفظي غير مخلوق أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق، وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق، و «التلاوة» قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد، وقد يراد بها مجموعهما. فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام، فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره.

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد، وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري - تعالى - بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله، تكلم الله به بحروفه ومعانيه، ليس شيء منه كلاماً لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما، بل قد كفر الله من جعله قول البشر، مع أنه - سبحانه - أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]، فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسْنَى . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . فَإِنَّ تَذَهَبُونَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٧]. فالرسول هنا جبريل.

وأضافه - سبحانه - إلى كل منهما باسم رسول؛ لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن رسولاً فيما أحدثه، بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه، وهو - سبحانه - يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران؛

فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له . وقد كفر الله - تعالى - من قال : إنه قول البشر ، فمن قال : إن القرآن أو شيئاً منه قول بشر أو ملك ، فقد كذب ، ومن قال : إنه قول رسول من البشر ومن الملائكة ، بلغه عن مرسله ليس قولاً أنشأه ، فقد صدق ، ولم يقل أحد من السلف : إن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً ﷺ ، ولا أن الله - تعالى - خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ، بل هذه الأقوال هي من أقوال بعض المتأخرين .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا في الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول السلف وهو الذي يدل عليه النقل ٣٠٩/١٢ الصحيح والعقل الصريح ، وإن كان عامة هؤلاء المختلفين في الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ، بل ولا سمعوه ، ولا وجوده في كتاب من الكتب التي يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معاني الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ؛ ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالاً مبتدعة ؛ إما قولين ، وإما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره ؛ لأنه لا يعرفه ؛ ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقرباً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين ؛ لأنه لم يجد فيما قالوه قولاً صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الأقوال «الجهمية المحضة النفاة» الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : إن الله - تعالى - لا يتكلم ، بل خلق كلاماً في غيره ، وجعل غيره يعبر عنه ، وأن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء : ١٠] وقول النبي ﷺ : «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقى ثلث الليل ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» (١) معناه : أن ملكاً يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان ، أي أمر منادياً ينادي عنه ، فإذا تلا عليهم ما أخبر الله - تعالى - به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم . قالوا : هذا مجاز ؛ كقول العربي :

٣١٠/١٢ / امتلاً الحوض وقال : قطني

وقالت (٢) : اتساع بطنه ، ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته ، وأنه مضاهٍ لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون : إن الله - تعالى - لم يتكلم ، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ،

(١) البخارى فى التهجد (١١٤٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (١٦٨/٧٥٨) .

(٢) هكذا بالأصل .

ومما قالوا لهم: إن المنادي عن غيره - كمنادي السلطان - يقول: أمر السلطان بكذا ،
خرج مرسومه بكذا، لا يقول: إني آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، والله - تعالى - يقول
في تكليمه لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]
ويقول تعالى - إذا نزل ثلث الليل الغابر:- « من يدعوني فأستجيب له، من يسألني
فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟ » (١)، وإذا كان القائل ملكا قال - كما في الحديث
الذي في الصحيحين :- « إذا أحب الله العبد نادى في السماء : يا جبريل ، إني أحب
فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، وينادي في السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل
السماء، ويوضع له القبول في الأرض » (٢)، فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى : «إن
الله يحب فلانا فأحبوه»، وفي نداء الرب يقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني
فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟».

٣١١/١٢ / فإن قيل: فقد روى أنه يأمر مناديا فينادي ، قيل : هذا ليس في الصحيح، فإن صح
أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادي هو ويأمر مناديا ينادي، أما أن يعارض بهذا النقل
النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول، مع
أنه صريح في أن الله تعالى هو الذي يقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني
فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟» فلا يجوز.

وكذلك جهّم كان ينكر أسماء الله - تعالى - فلا يسميه شيئا ولا حيا ولا غير ذلك
إلا على سبيل المجاز، قال: لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً، وكان
جهم «مجبراً» يقول: إن العبد لا يفعل شيئا ؛ فلهذا نقل عنه أنه سمي الله قادراً؛ لأن
العبد عنده ليس بقادر.

ثم إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في
مذهب جهم، فأثبتوا أسماء الله - تعالى - ولم يثبتوا صفاته، وقالوا: نقول: إن الله
متكلم حقيقة، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة؛ لثلا يضاف
إليهم أنهم يقولون: إنه غير متكلم، لكن معنى كونه - سبحانه - متكلماً عندهم: أنه
خلق الكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء، لكن هؤلاء يقولون:
هو متكلم حقيقة، وأولئك ينفون أن يكون متكلماً حقيقة. وحقيقة قول الطائفتين أنه غير
٣١٢/١٢ / متكلم، فإنه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام، ولا يريد إلا من قامت به الإرادة، ولا
محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الإرادة والمحبة والرضى والبغض
والرحمة، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من

(١) سبق تخريجه ص ٥٤٧.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٤٠) ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧/١٥٧).

المعتزلة. وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة ، لا في نفي الصفات، ولا في القدر، ولا المنزلة بين المنزلتين ، ولا إنفاذ الوعيد.

ثم تنازع المعتزلة والكلابية في حقيقة « المتكلم » ، فقالت المعتزلة : المتكلم من فعل الكلام ولو أنه أحدثه في غيره، ليقولوا : إن الله يخلق الكلام في غيره وهو متكلم به. وقالت الكلّابية : المتكلم من قام به الكلام وإن لم يكن متكلماً بمشيئته وقدرته، ولا فعل فعلاً أصلاً، بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة، وإن لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله.

وأما السلف وأتباعهم وجمهور العقلاء فالتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام، وتكلم بمشيئته وقدرته. لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم؛ المعتزلة أخذوا أنه فاعل، والكلابية أخذوا أنه محل الكلام، ثم زعمت المعتزلة أنه يكون فاعلاً للكلام في غيره ، وزعموا هم ومن وافقهم من أتباع الكلّابية كأبي الحسن / وغيره أن ٣١٣/١٢ الفاعل لا يقوم به الفعل، وكان هذا مما أنكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا: لا يكون الفاعل إلا من قام به الفعل ، وأنه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » إجماع العلماء على ذلك.

والذين قالوا: إن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وقالوا مع ذلك : إن الله فاعل أفعال العباد كأبي الحسن وغيره، وأن العبد لم يفعل شيئاً وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات أفعال، مع أن الأفعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه، فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبح مع قولهم: إنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ما هو من أصول أهل السنة ، وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم، نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعاقل، فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد.

وأما السلف والأئمة فأصلهم مطرد ، ومما احتجوا به على أن القرآن غير مخلوق ما احتج به الإمام أحمد وغيره من قول النبي ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات » (١). قالوا: والمخلوق لا يستعاض به، فعورضوا بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك/منك» (٢)، فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا: معافاته: فعله القائم ٣١٤/١٢ به، وأما العافية الموجودة في الناس فهي مفعوله.

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٨/٢٧٠٥، ٥٥) وأبو داود في الطب (٣٨٩٨).

(٢) مسلم في الصلاة (٤٨٦/٢٢٢) وأبو داود في الصلاة (٨٧٩).

وكذلك قالوا: إن الله خالق أفعال العباد، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله، وهي نفس فعل العبد، وكان حقيقة قول أولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد، فستلظت عليهم المعتزلة في «مسألة الكلام والقدر» تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة.

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة، فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها، بخلاف الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقد وافق الكلاية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف، ومن أهل الفقه ٣١٥/١٢ المنتسبين إلى الأئمة الأربعة، وليس من الأئمة الأربعة/وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم.

وحدث مع الكلاية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا: إنه - سبحانه - متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلاية، لكن قالوا: إنه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم، بل صار الكلام ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث، لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم. وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة؛ فإن هؤلاء كلهم يقولون: إنه لم يكن الكلام ممكناً له في الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه، لكن الجهمية والمعتزلة يقولون: إنه خلق كلاماً في غيره من غير أن يقوم به كلام؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث، قالوا: ولا تقوم به الحوادث. قالت الجهمية والمعتزلة: لأن الحوادث هي من جملة الصفات التي يسمونها الأعراض، وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات، قالوا: لأن الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

٣١٦/١٢ /وقالت الكلاية: بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث، ونحن لا نسمى الصفات أعراضاً؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين، وصفات الله - تعالى - باقية.

وقالوا: وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين: أما قول أولئك: أنه لا تقوم به الصفات؛ لأنها أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث، وكذلك تسمية ما يشار إليه جسماً اصطلاح حادث أيضاً، و«الجسم» في لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة، منهم الأصمعي وأبو عمرو، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف. والعرب تقول: هذا جسيم، وهذا أجسم من هذا، أي أغلظ منه، قال تعالى: ﴿وَرَادُّهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة، ويراد به الغليظ الكثيف.

وكذلك النُّظَّار يريدون بلفظ «الجسم» تارة المقدار، وقد يسمونه الجسم التعليمي، وتارة يريدون به الشيء المقدر، وهو الجسمي الطبيعي، والمقدار المجرد عن المقدر كالعَدَد المجرد عن المَعْدُود، وذلك لا يوجد إلا/في الأذهان دون الأعيان. وكذلك السطح والخط ٣١٧/١٢ والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن. قالوا: وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب، فهو أخص من المشار إليه؛ فإن الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسماً، بل يقولون: خرجت روحه من جسمه، ويقولون: إنه جسم وروح، ولا يسمون الروح جسماً، ولا النفس الخارج من الإنسان جسماً، لكن أهل الكلام اصطَلَحُوا على أن كل ما يشار إليه يسمى جسماً، كما اصطَلَحُوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهرًا، ثم تنازعوا في أن كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا، على أقوال ثلاثة، قد بسطت في غير هذا الموضع؛ ولهذا كان كثير منهم يقولون: الجسم عندنا هو القائم بنفسه، أو هو الموجود لا المركب.

قال أهل العلم والسنة: فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات: إن الصفات لا تقوم إلا بجسم، والله — تعالى — ليس بجسم، قيل لهم: إن أردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم «المقدمة الأولى»، وهي قولكم: إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك، قيل لكم: إن الرب — تعالى — قائم بنفسه، والعباد يرفعون أيديهم إليه في الدعاء، ويقصدونه بقلوبهم، وهو العلي الأعلى — سبحانه — ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عياناً، كما يرون القمر ليلة/البدر، فإن ٣١٨/١٢ قلتم: إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث، كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع

والعقل، وإن قلتم : نحن نسمى ما هو كذلك جسمًا ونقول : إنه مركب ، قيل : تسميتكم التي ابتدعتموها هي من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها بأسماء منكرا لينفر الناس عنها، قيل له : النزاع في المعاني لا في الألفاظ، ولو كانت الألفاظ موافقة للغة، فكيف إذا كانت من ابتداعهم؟ ومعلوم أن المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل.

وأما قولهم : إن كل ما كان تقوم به الصفات ، وترفع الأيدي إليه، ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم، فإنه لا بد أن يكون مركبًا من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة فهذا ممنوع؛ بل هو باطل عند جمهور العقلاء؛ من النظار والفقهاء وغيرهم، كما قد بسط في موضعه.

قال الجمهور : وأما تفريق الكلاية بين المعاني التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته، والمعاني التي تتعلق بمشيئته وقدرته - التي تسمى الحوادث، ومنهم من يسمى الصفات أعراضًا؛ لأن العرض لا يبقى زمانين - فيقال : قول القائل : إن العَرَض - الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك - لا يبقى زمانين قول محدث في الإسلام، لم يقله أحد من السلف والأئمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع الطوائف ، بل من الناس من يقول : إنه معلوم الفساد بالاضطرار، كما قد بسط في موضع آخر.

وأما تسمية المسمى للصفات أعراضًا، فهذا أمر اصطلاحى لمن قاله من أهل الكلام، ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيه اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية، والنزاعات اللفظية أصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه.

وأما قول الكلاية : ما يقبل الحوادث لا يخلو منها ، و ما لم يخل من الحوادث فهو حادث - فقد نازعهم جمهور العقلاء في كلا المقدمتين، حتى أصحابهم المتأخرون نازعوه في ذلك ، واعترفوا ببطلان الأدلة العقلية التي ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وحدث طائفة أخرى من السالية وغيرهم - ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث ٣٢٠/١٢ والتصوف، ومنهم كثير ممن هو ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وكثر هذا

في بعض المتأخرين المنتسبين إلى أحمد بن حنبل - فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلائية ، وافقوا هؤلاء في قولهم : إنه قديم ، ووافقوا أولئك في قولهم : إنه حروف وأصوات ، وأحدثوا قولاً مبتدعاً - كما أحدث غيرهم - فقالوا : القرآن قديم ، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله - تعالى - أزلاً وأبداً .

واحتجوا على أنه قديم بحجج الكلائية ، وعلى أنه حروف وأصوات بحجج المعتزلة . فلما قيل لهم : الحروف مسبوقة بعضها ببعض ، فالباء قبل السين والسين قبل الميم ، والقديم لا يسبق بغيره ، والصوت لا يتصور بقاؤه فضلاً عن قدمه ، قالوا : الكلام له وجود وماهية ، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم . قالوا : والكلام له ترتيب في وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده وهي مقارنة لها في ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان ، وإن كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض ؛ فإن الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ، ومع هذا فإذا كتبه كان أوله متقدماً بالمرتبة على آخره .

فقال لهم جمهور العقلاء : هذا مما يعلم فسادُه بالاضطرار ؛ فإن الصوت لا يتصور بقاؤه ، ودعوى وجود ماهية غير الوجود في الخارج دعوى/فاسدة ، كما قد بسط في ٣٢١/١٢ موضع آخر ، والترتيب الذي في المصحف هو ترتيب للحروف المدادية ، والمداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والإنسان ، وهذا أمر يوجد الجزء الأول منه مع الثاني ، بخلاف الصوت فإنه لا يوجد الجزء الثاني منه حتى يعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم من يقول : يعني بالقديم أنه بدأ من الله ، وأنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح ، لكن الذين نازعوا : هل هو قديم أو ليس بقديم ، لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم : إنه قديم وأراد هذا المعنى ، قد أراد معنًى صحيحاً ، لكنه جاهل بمقاصد الناس ، مضل لمن خاطبه بهذا الكلام ، مبتدع في الشرع واللغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : إن الحروف القديمة والأصوات ليست هي الأصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي في المصحف ، ومنهم من يقول : بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول : بل يسمع من القارئ شيئان : الصوت القديم ، وهو ما لا بد منه في وجود الكلام ، والصوت المحدث ، وهو ما زاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون : المداد الذي في المصحف مخلوق ، لكن الحروف القديمة ليست هي المداد ، بل الأشكال والمقادير التي تظهر بالمداد ، وقد تنقش في حجر ، وقد تحرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال في المداد : إنه قديم أو/مخلوق ، وقد يقول : لا ٣٢٢/١٢

أمنع عن ذلك بل أعلم أنه مخلوق، لكن أسد باب الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر من يتكلم بالحق، ومن يبين الصواب الموافق للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، مع موافقته لصريح العقول ، ومع دفعه للشناعات التي يشنع بها بعضهم على بعض .

وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير، قد بسطناه في مواضع ، وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الأقوال السديدة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة في مسألة الكلام، التي حيرت عقول الأنام، والله تعالى أعلم .

/ سئل شيخ الإسلام مفتي الأنام تقي الدين أبو العباس أحمد بن ٣٢٣/١٢
تيمية عن قوم يقولون: كلام الناس وغيرهم قديم - سواء كان صدقاً أو كذباً، فحشاً
أو غير فحش، نظماً أو نثراً - ولا فرق بين كلام الله وكلامهم في القدم إلا من جهة
الثواب. وقال قوم منهم - بل أكثرهم - : أصوات الحمير والكلاب كذلك، ولما قرئ
عليهم ما نقل عن الإمام أحمد ردّاً على قولهم تأولوا ذلك، وقالوا بأن أحمد إنما قال
ذلك خوفاً من الناس .

فهل هؤلاء مصيبون أو مخطئون ؟ وهل على ولي الأمر - وفقه الله تعالى -
زجرهم عن ذلك أم لا ؟ وهل يكفرون بالإصرار على ذلك أم لا ؟ وهل الذي نقل عن
أحمد حق كما زعموا أم لا ؟
فأجاب - رضي الله عنه - :

الحمد لله، بل هؤلاء مخطئون في ذلك خطأ محرماً بإجماع المسلمين، وقد قالوا
منكراً من القول وزوراً، بل كفراً محالاً يجب نهيهم عنه، ويجب على ولاية الأمور عقوبة
من لم ينته منهم عن ذلك، جزاءً بما/كسبوا نكالاً من الله؛ فإن هذا القول مخالف للعقل ٣٢٤/١٢
والدين مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين، وهي بدعة شنيعة، لم يقلها أحد قط
من علماء المسلمين؛ لا علماء السنة ولا علماء البدعة، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول،
ولكن عرض لمن قالها شبهة، ونحن نبينها إن شاء الله - تعالى .

ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداية العقول أن يحتج له بنقل عن
إمام من الأئمة إلا من جهة بيان أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة، وأن قائله مخالف
للأمة مبتدع في الدين؛ ولتزلزل بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من
السلف، ويعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم المعظمين؛ وليبين أن نقيض
قولهم منصوص عن الأئمة المتبعين في السنة، وليس ذلك مما سكتوا عنه نفيًا وإثباتًا.

وأنه لا ريب أن الإمام أحمد بن حنبل، ومن قبله وبعده من الأئمة، نصوا على أن
كلام الآدميين مخلوق - نصاً مطلقاً - بل نص أحمد وكثير من الأئمة على «أفعال العباد»
عموماً وعلى «كلام الآدميين» خصوصاً، ولم يمتنعوا عن هذا الإطلاق لأجل الشبهة التي
عرضت لهؤلاء المبتدعة المخالفين، حتى لا يقول قائل منهم أو من غيرهم: إنه لا يقال:

مخلوق ولا غير مخلوق لأجل شبهتهم، أو لكون الكلام في/ذلك بدعة، بل القول بأن ٣٢٥/١٢

كلام الآدميين مخلوق غير قديم، منصوص عن الأئمة المتفق على إمامتهم في الدين والسنة.

فمنهم من نص عليه لما تكلم في «مسائل القدر» و«خلق أفعال العباد»، ومنهم من نص عليه لما تكلم في «مسألة تلاوة العباد للقرآن واللفظ به».

ومنهم من نص عليه محتجاً به على الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. فروى أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال - وهو الذي جمع نصوص أحمد في أصول الدين وأصول الفقه، وفي أبواب الفقه كلها، وفي الآداب والأخلاق والزهد والرقائق، وفي علل الحديث، وفي التاريخ وغير ذلك من علوم الإسلام - روى في «كتاب السنة» في الكلام على اللفظية عن أبي بكر بن زنجويه، قال:

سمعت أحمد بن حنبل يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع، لا يكلم.

قال الخلال: وأخبرنا أبو داود السجستاني قال: سمعت أبا عبد الله يتكلم في «اللفظية»، وينكر عليهم كلامهم، وسمعت إسحاق بن راهويه ذكر «اللفظية» وبدعهم. وقال الخلال: سمعت ابن صدقة قال: سمعت يحيى بن حبيب بن عربي قال: ٣٢٦/١٢ سمعت رجلاً سأل معتمر بن سليمان: إن لنا/إماماً قديراً أصلى خلفه؟ قال: من زعم أن لفظه غير مخلوق بمنزلة من زعم أن سماء الله غير مخلوقة.

قال الخلال: وأخبرني أبو بكر المروزي، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثني مُسَدَّد قال: كنت عند يحيى القطان وجاء يحيى بن إسحاق بن توبة العنبري، فقال له يحيى: حدث هذا - يعني مسدداً - كيف قال حماد بن زيد فيها - أي «مسألتنا»؟ فقال: سألت حماد بن زيد عن قال: كلام الناس ليس بمخلوق، فقال: هذا كلام أهل الكفر، وقال يحيى بن إسحاق: سألت معتمر بن سليمان عن قال: كلام الناس ليس بمخلوق، فقال: هذا كفر.

فهذه الآثار ونحوها مما اعتمد عليها المشهورون بالسنة كالمروزي والخلال وغيرهما، وكذلك الإمام أبو عبد الله بن بطة يعتمد في كتابه «الإبانة الكبير» على هذه الآثار ونحوها.

قلت: حماد بن زيد أحد الأئمة الأعلام في السنة، في طبقة مالك والثوري والأوزاعي وحماد بن سلمة والليث بن سعد في الزمان والإمامة، بل هو عند علماء السنة أقعد بالسنة من الثوري، وإن كان الثوري أكثر علماً منه وزهداً، وعند علماء الحديث أحفظ للحديث

من حماد بن سلمة، وإن كان حماد أشهر بالزهد وأكثر دعاء إلى السنة، وهو إمام البصرة في ذلك الزمان، الذي كانت البصرة فيه مجمع علم الإسلام، وكان علماء الأمة وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في ذلك العصر/الذي هو عصر تابعي التابعين، هؤلاء ٣٢٧/١٢ المسلمين ونحوهم وهم من القرن الثالث المدوح.

والمعتمر بن سليمان أحد الأئمة الأعلام - أيضاً - وهو دون حماد بن زيد، وقد أدركه الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهما، وهو أحد شيوخ الإمام أحمد، وأما حماد بن زيد ففات الإمام أحمد فقال: فاتني حماد بن زيد فعوضني الله بإسماعيل بن عُلَيْة، وفاتني مالك بن أنس فعوضني الله سفيان بن عيينة.

وأما يحيى بن سعيد القطان فهو أحد علماء السنة وهو إمام أهل الحديث في معرفة صحته وعلمه ورجاله وضبطه، حتى قال أحمد: ما رأيت بعيني مثله، يعني في ذلك الفن، وعنه أخذ ذلك علي بن المديني، وعن علي أخذ ذلك البخاري صاحب الصحيح، وقد ذكر الترمذي أنه لم ير في معرفة علل الحديث مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

وهؤلاء العلماء الأئمة أنكروا على من قال: كلام الآدميين ولفظهم غير مخلوق، لما نبغت «القدرية» المبتدعة، وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله؛ لا أقوالهم ولا سائر أعمالهم؛ لا خيرها ولا شرها، بل يقولون: هي محدثة، أحدثها العبد، وليست مخلوقة لأحد، أو يقولون: العبد خلقها، كما أنه أحدثها؛ فإنهم قد يتنازعون في إثبات/خلق لغير الله، ومع هذا فلم يكن بين الأمة نزاع في أنها محدثة كائنة بعد أن لم ٣٢٨/١٢ تكن، ولم يقل أحد: إنها قديمة، ولكن «القدرية» من المعتزلة وغيرهم اعتقدوا أن الأفعال الاختيارية وما يتولد عنها من أفعال الملائكة والجن والإنس - الطاعات والمعاصي - لم يخلقها الله، قالوا: لأنه لو خلقها للزم أن يكون العبد مجبوراً، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد والثواب والعقاب؛ ولأن العبد يعلم أنه هو الذي يحدث أفعاله علماً ضرورياً، وعللوا ذلك بأدلة نظرية.

فلما ابتدعوا هذه «المقالة» أنكروا أئمة السنة، كما أنكر الصحابة - رضوان الله عليهم - أول هذه البدعة لما نبغت القدرية في أواخر عصر الصحابة، فرد عليهم ابن عمر، وابن عباس، ووائل بن الأسقع وغيرهم من الصحابة.

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات - كأفعال العباد وغيرها - ليس مخلوقاً لله، فهو مثل من أنكر خلق الله لغير ذلك من المحدثات كالسما والأرض؛ فإن الله رب العالمين، ومالك الملك، وخالق كل شيء، فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته، ولا

شيء من الملك خارجاً عن ملكه ، ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه ، قال تعالى ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣] ، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ﴾ [الأنعام: ١٠١ - ١٠٣] ، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَن تَتُفَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٦٢] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا﴾ [الفرقان: ٢] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٧ - ٢١] .

ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم المتبعين لكتاب الله ، المعتقدين لموجب هذه النصوص ، حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبيعية أو إرادية أو قسرية ، فإن الله خالق كل ذلك جميعه وربّه ومالكة ومليكه ووكيل عليه ، وأنه — سبحانه — على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، ٣٣٠/١٢ فآمنوا بعلمه المحيط ، وقدرته الكاملة ، ومشيتته الشاملة ، وربوبيته التامة ؛ ولهذا قال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

وأما صفة الله - تعالى - فهي داخلية في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة فإذا قلت : عبدت الله ، ودعوت الله ، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفاته ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(١) ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك »^(٢) ، وقد ثبت عنه الحلف بعزة الله ، والحلف بقوله : « لعمر الله » ، فعلم أن ذلك ليس حلفاً بغير الله ، فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها في اتباع عمومها الذي قد صرحت به ، في أن الله خالق كل شيء ؛ إذ قد علم أن الله ليس هو داخلاً في المخلوق ، وعلم أن صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه .

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم فى الإيمان (٣/١٦٤٦) .

(٢) أحمد ٣٤/٢ والترمذى فى النذور (١٥٣٥) وقال : « حديث حسن » .

وأما المعتزلة ، الذين جمعوا التجهم والقدر فأخرجوا عنها ما يتناوله الاسم يقيناً من أفعال الملائكة والجن والإنس والبهائم؛ طاعاتها وغير طاعاتها، وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته، بل هي من محاسن ملكه وأعظم آياته ومخلوقاته، وأدخلوا في ذلك كلامه لكونه يسمى «شيئاً» في مثل قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: ٩١]، ولم ينظروا في أن ذلك مثل تسمية علمه «شيئاً» في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ «البقرة: ٢٥٥» وتسمية ٣٣١/١٢ نفسه «شيئاً» في قوله: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وأن قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يعم بحسب ما اتصل به من الكلام.

فإن الاسم تتنوع دلالاته بحسب قيوده. ففي قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ دخل في ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم، وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً، وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود، وقد يقال: دخل في ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى «م شيئاً» ، فإن «الشيء» في الاصل مقدر وهو بمعنى المشي، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير، وإن شئت قلت: قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه، والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء. وفي قوله: ﴿اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق، وأنه لا يتناوله الاسم، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق؛ وهي الحادثات جميعها.

هذا مع أن أهل السنة يقولون: إن العبد له مشيئة وقدرة وإرادة، وهو فاعل لفعله حقيقة، وينهون عن إطلاق «الجبر»؛ فإن لفظ «الجبر» يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد، كما تجبر المرأة على النكاح ؛ وليس كذلك، بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيئته ورضاه ومحبه، ليس مجبوراً عديم الإرادة ، والله خالق هذا/كله ؛ فإن ٣٣٢/١٢ هذه الأمور من المحدثات الممكنات، فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحدثات، وليس هذا موضع الكلام على هذا، فإن ذلك له موضع آخر.

وإنما الغرض هنا أن الأئمة ردوا على من جعل أقوال العباد وأفعالهم خارجة عن خلق الله، وجعلوا ذلك بمنزلة من جعل السماء والأرض ليس مخلوقة لله. هذا مع أن أولئك المبتدعين كانوا يقولون: إنها محدثة ليست قديمة، فكيف إذا قيل : إنها قديمة؟! فإن ذلك يصير ضلالين بل ثلاث ضلالات:

أحدها : جعل المحدث المصنوع صفة لله قديمة، مضاهاة للنصارى ونحوهم.

والثاني: إخراج مخلوق الله ومقدوره عن خلقه وقدرته، كما قالته القدرية، مضاهاة

للمجوس ونحوهم.

والثالث: إخراج فعل العبد ومقدوره، وكسبه عن أن يكون مقدوراً له وكسباً وفعلاً، مضاهاة للجبرية القدريّة المشركية، فهذا كان وجه كلام أولئك الأئمة في هذا.

٣٣٣/١٢ ثم لما حدثت بدعة «اللفظية» احتج أئمة ذلك العصر في جملة/ما احتجوا به بكلام أولئك السلف مثل البخاري الإمام صاحب الصحيح، ومثل أبي بكر المروزي الإمام صاحب الإمام أحمد بن حنبل، وخلق كثير في زمنه، ومثل أبي بكر الخلال ونحوه، فاستدل هؤلاء الأئمة وغيرهم على بطلان قول من يقول: إن فعل العبد أو صفاته المتعلقة بصفات الله غير مخلوقة بما دل على أن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة، فروى البخاري عن أبي قدامة عن يحيى بن سعيد القطان قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة. وروى المروزي صاحب الإمام أحمد والخلال ما تقدم ذكره من كلام الأئمة من النص على خلق كلام الأدميين وأفعالهم.

وسياتي إن شاء الله نصوص الإمام أحمد في ذلك، فإن القصد هنا التنبيه على الأصل الذي تشعب منه تفرق الأمة في هذا الموضع وهو «مسألة اللفظ».

فصل

و«مسألة اللفظ بالقرآن» قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل، وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة، حتى قال ابن قتيبة كلاماً ٣٣٤/١٢ معناه: لم يختلف أهل الحديث في شيء من/مذهبهم إلا في «مسألة اللفظ». و بين أن سبب ذلك لما وقع فيها من الغموض، والنزاع بينهم في كثير من المواضع لفظي، ولم يكن بين الناس نزاع في أن كلام العباد الذي لم ينزله الله - تعالى - أنه محدث مخلوق، وإن كان الكلام في «حروف الهجاء» وفي «أسماء المحدثات» فيه نزاع، هو الذي أوقع هؤلاء الجهال فيما ارتكبهوه من المحال، كما سننبه عليه - إن شاء الله تعالى.

ولا يتسع هذا الجواب لشرح «مسألة اللفظ» مبسوطاً، ولكن ننبه عليه مختصراً فنقول: إن الله - تعالى - أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم أن يبلغوا إلى الناس ما أنزل الله عليهم من وحيه وكلامه، فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله وأطاعهم فيما أمروا به. وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان، وهم أهل الجنة والسعادة، كما قال تعالى: ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ

هَادُوا وَالصَّخْرَى وَالصَّخْرَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٦٢﴾.

ومن الناس من كفر بهم وكذب، مثل الأمم الذين قص الله علينا أخبارهم من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون/ومشركي العرب، وكل من لم ٣٣٥/١٢ يؤمن بأصل الرسالة من الهند والبراهمة وغيرهم، والترك والسودان، وغيرهم من الأمم الأمين الذين لا كتاب لهم - سواء كانوا مكذبين للرسل أو معرضين عن اتباعهم ؛ فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفراً، وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل، والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء.

ولهذا يقول - سبحانه - : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ؛ لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة، وقد قال تعالى - لما أهبط أباهم آدم - : ﴿قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه، وهو ما أنزله على رسله من الذكر، فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه شقى وعمى؛/ولهذا قال في أوائل البقرة في ٣٣٦/١٢ نعت المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، كما قال هنا: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ؛ فإن الهدى ضد الضلال، والفلاح ضد الشقاء، وقال تعالى: ﴿يَبْقَى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَنَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض ، واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى، أو موسى والمسيح معه دون محمد ﷺ ؛ ولهذا يخاطب الله في القرآن الأمين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل، كما في قوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَتِيقِينَ ءَاسَلَمْتُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وفي قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ﴾ [البينة: ١].

وكمّن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض، من الصابئين الفلاسفة ونحوهم؛ الذين قد يقرون بأصل الرسالة، لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل، الذي قد وضع قانوناً لقومه، أو يقولون: إن الرسالة للعامة دون الخاصة، أو في الأمور العملية دون العلمية، أو في الأمور التي يشترك فيها الناس دون الخصائص التي يمتاز بها ٣٣٧/١٢ الكُمَل،/ ويقرون برسالة محمد ﷺ من حيث الجملة، ويعظمونه، ويقولون: اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد إلى الأرض ناموس أعظم من ناموسه، لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به؛ مثل أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية، وقد يسوغون الشرك أيضاً للعامة أو للخاصة؛ مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها والسجود لها، وقد يكذبون في الباطن بأشياء مما أخبر بها، ويزعمون أن ما أخبر به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضرورية لتفهيم العامة ما لا يجوز إظهاره وإبانه حقيقته، وذلك أنهم يجوزون كذبه لمصلحة العامة بزعمهم.

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول، وأن من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه، ونحو ذلك من المقالات، وهذا الضرب ما زال موجوداً، لا سيما مع القرامطة الباطنية، من الإسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية، الذين كانوا يدعون الخلافة، ومع الحرمية، والمزدكية، وأمثالهم من الطوائف، وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى، ومن الغالية الذين يقولون بإلهية على ونحوه من البشر أو نبوته، وهم منافقون زنادقة، لكن في كثير من أتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسول لما لبسوا عليه أصل قولهم، أو وافقهم في قول بعضهم دون بعض، ٣٣٨/١٢ وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة، ومنهم/ من ينتسب إلى التصوف، ومنهم من ينتسب إلى الكلام، ومنهم من يدخل مع الفقهاء في مذاهبيهم.

وهذا الضرب يكثر في الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الإسلام والتزامه، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيدين ونحوهم، وكما يكثرون في دولة الجاهل من الترك ونحوهم من الجاهل الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول؛ لأن الجاهل من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم؛ فإن هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض، لكنهم قد يرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب، أو يتبعون بعض ما جاء به، أو لا يتبعونه بحال، وهم في ذلك مقرون له ولا تبعاء.

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر - أيضاً - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًّا . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقْرِفُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿
[النساء: ١٥٠ - ١٥٢]، وقال تعالى - يخاطب أهل الكتاب - : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُوكَ
أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَقَالَهُوْنَ عَلَيْهِمْ بِآلَانِهِمُ وَالْعُدُولِ وَإِن يَأْتُواكُم مَّسْكِرًا
تَسُدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن
يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن
يُقْلَبَهُمْ صُلًى لَّا يَعْبُدَا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ
عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ، ٦١]، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ
اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَن يَحْدِلْ لَمْ يَنْصُرْ﴾ [النساء: ٥١ ، ٥٢] .

فَذَمُّ الَّذِينَ أَوْتُوا قِسْطًا مِنَ الْكِتَابِ، لَمَّا آمَنُوا بِمَا خَرَجَ عَنِ الرِّسَالَةِ، وَفَضَّلُوا الْخَارِجِينَ عَنِ الرِّسَالَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، كَمَا يَفْضَلُ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ يَفْضَلُ الصَّابِئَةَ مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ وَالِدُولِ الْجَاهِلِيَّةِ - جَاهِلِيَّةِ التَّرْكِ وَالِدَيْلَمِ وَالْعَرَبِ وَالْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ - عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَكَمَا ذَمُّ الْمُدْعِينَ الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ كُلِّهَا، وَهُمْ يَتْرَكُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَحَاكُمُونَ إِلَى بَعْضِ الطَّوَاغِيتِ الْعَظِمَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا يَصِيبُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدْعِي الْإِسْلَامَ، وَيَتَنَحَّلُهُ فِي تَحَاكُمِهِمْ إِلَى مَقَالَتِ الصَّابِئَةِ الْفَلَّاسِفَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ، أَوْ إِلَى سِيَاسَةِ بَعْضِ الْمُلُوكِ الْخَارِجِينَ عَنِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مُلُوكِ التَّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِذَا قِيلَ ٣٤٠/١٢ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا، وَإِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فِي عَقُولِهِمْ وَدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ بِالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، أَوْ فِي نَفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ عَقُوبَةً عَلَى نِفَاقِهِمْ قَالُوا: إِنَّمَا أَرَدْنَا أَنْ نَحْسِنَ بِتَحْقِيقِ الْعِلْمِ بِالذَّوْقِ، وَنُوفِقَ بَيْنَ «الدَّلَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ» وَ«الْقَوَاطِعِ الْعَقْلِيَّةِ» الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ ظُنُونٌ وَشُبُهَاتٌ، أَوْ «الذَّوْقِيَّةِ» الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْهَامٌ وَخَيَالَاتٌ ﴿أَوَّلَتْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ٦٣ - ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَتْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُتْعِضُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا [النور: ٤٧ - ٥١]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

وقد ذم الله - سبحانه - أهل التفرق والاختلاف في الكتاب، الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّاتَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦]، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، وقال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ جُنَدٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَفِيمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة، وأن يعدل بين الناس كلهم، فيعطي كل ذي حق حقه، ويمنع كل مبطل عن باطله؛ فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به، وهو المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إلخ السورة [البقرة: ٢٨٥].

وهاتان الآيتان قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أعطيهما من كنز تحت العرش ، وأنه لم يقرأ بشيء منهما إلا أعطيه (١) ، وقد ثبت في الصحيح أنه من قرأهما في ليلة كفتاه (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُ لَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ، ١٣٧] .

فصل /

٣٤٣/١٢

فلما كان في الأمم كفار ومناقفون ، يكفرون ببعض الرسالة دون بعض ، إما في القدر وإما في الوصف ، كما أن فيهم كفاراً ومناقفين (٣) يكفرون بأصل الرسالة ، وكان في الكفار بأصل الرسالة من قال : إن الرسول شاعر ، وساحر ، وكاهن ، ومعلم ، ومجنون ، ومفتري ، كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور في قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّكَ كَأَنَّ لَإِلَيْنَا لَعِندًا . سَأَذِقُكَ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٥] .

فإنه صنع صنع الفيلسوف المخالف للرسول في تفكيره أولاً ؛ الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفي القضية إلى المبادئ الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ، ثم قدر ثانياً ، والتقدير هو «القياس» وهو الانتقال من المبادئ إلى المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي ؛ ولعمري / إنه لصواب إذا صحت مقدماته ، وإن كانت النتيجة في الأغلب أموراً كلية ذهنية ، ٣٤٤/١٢ ثبوتها في الأذهان لا في الأعيان ، كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير ؛ فإن العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد في الذهن ، لكن أنى وأكثر مقدماته في الإلهيات دعاوي يدعي فيها بعموم ؟ وأن القضية من المسلمات بلا حجة ، ومتى لم يكن في القياس قضية كلية معلومة لم تفد المطلوب ، وهم يلبسون المهملات التي

(١) مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٤/٨٠٦) ، والنسائي في الافتتاح (٩١٢) كلاهما عن ابن عباس .

(٢) البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٨ ، ٥٠٠٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٥٦/٨٠٨) ، وأحمد ١٢٢/٤ ، ١٢١/٤ كلهم عن أبي مسعود الأنصاري .

(٣) في المطبوعة : « كفار ومناقفون » وهو خطأ .

هي في معنى الجزئيات بالكمالات العامة المسلمات، أو يدعي فيها العموم بنوع من قياس التمثيل.

ومعلوم أنه لابد في كل قياس من قضية كلية، وعامة القضايا الكلية التي لهم فيها الطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيه الله بخلقه، كما يقولون: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع، كطبيعة الماء والنار، مع أن الواحد الذي يثبتونه في الإلهيات، وفي المنطق – أيضاً – الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو «الجنس» و«الفصل» لا حقيقة لها، ولا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع.

٣٤٥/١٢ وبيننا أن ما يثبتونه من العقلية التي هي «الجواهر العقلية» المجردة/عن المادة، وهي العقل والنفس، والمادة والصورة التي ليست بجسم ولا عرض، لا حقيقة لها في الخارج، وإنما تقدر في الأذهان، لا في الأعيان، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود، ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه، إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان؛ و«القياس العقلي» الذي يحتجون به لابد فيه من قضية كلية.

والقياس نوعان: قياس الشمول وقياس التمثيل.

والناس متنازعون في مسمى «القياس»، فقليل: هو حقيقة في التمثيل مجاز في الشمول، كما ذكر ذلك أبو حامد، وأبو محمد المقدسي وغيرهما. وقيل: هو حقيقة في عكس ذلك، كما قاله ابن حزم وغيره من نفاة قياس التمثيل، وقيل: بل اسم القياس يتناولهما، وهذا قول جمهور الناس.

واسم «القياس العقلي» يدخل فيه هذا وهذا، لكن من الناس من ظن أن «قياس التمثيل» لا يفيد اليقين، ولا يستعمل في العقلية، كما ذهب إليه أبو المعالي، وأبو حامد، والرازي، وأبو محمد، والآمدي، وآخرون من أهل المنطق.

وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء، وهذا هو الصواب: فإن مآل القياسين إلى شيء واحد، وإنما يختلف بترتيب الدليل؛ فإن القائل إذا قال: النبذ المتنازع فيه حرام؛ لأنه مسكر، فكان حراماً قياساً على خمر العنب، فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم، وهو الذي يسمى في قياس التمثيل «مناطاً» و«علة» و«أمانة» و«مشاركاً» و«وضعاً» ونحو ذلك.

ولابد في القياس الصحيح من أن يقيم دليلاً على أن السكر مناط التحريم، بحيث إذا

وجد السكر وجد التحريم، فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول، فإن النبذ مسكر وكل مسكر حرام، فالسكر في هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر، وهو العلة في قياس التمثيل، ولا بد له في هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى، وهي قوله: كل مسكر حرام، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما.

وإذا قال القائل: إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس، وهو جواب « سؤال المطالبة » وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم، وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية.

قيل له: وإثبات عموم القضية الكبرى في قياس الشمول هو عمدة القياس؛ فإن الصغرى في الغالب تكون معلومة، كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوماً، وإذا كان ثبوت الوصف في الفرع قد يحتاج إلى دليل، كما قيل: تحتاج المقدمة الصغرى إلى ٣٤٧/١٢ دليل، وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية، ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلاً، واستعمال كلا القياسين في الأمور الإلهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأخرى.

وبهذه « الطريقة » جاء القرآن، وهي طريقة سلف الأمة وأئمتها؛ فإن الله — سبحانه — لا يماثل شيئاً من الموجودات في « قياس التمثيل »، ولا أن يدخل في « قياس شمول » تماثل أفرادها، بل ما ثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتزويه منه، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَشْرَوْا فِيهِ سَوَاءٌ تَحَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبيننا أن ما يستفاد بـ « القياس الشمولي » في عامة الأمور قد يستفاد بدون ذلك، فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية، كما إذا قيل: الكل أعظم من الجزء، والضدان لا يجتمعان، فما من كل معين وضدين معينين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا، وأن هذا ضد هذا، علم أن هذا أعظم من هذا، وأن هذا/لا يجتمع هذا، بدون أن يخطر بالبال قضية كلية ٣٤٨/١٢ أن كل ضدين لا يجتمعان، وأن كل كل فهو أعظم من جزء، وكذلك إذا قيل: النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، بدون أن يستحضر أن كل نقيضين لا يجتمعان، ولا يرتفعان.

فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى الذي لابد فيه من قضية كلية، والأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلي، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك، وبيننا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة، وبيننا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس، وأن الأدلة أكمل وأنفع، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال، والقرآن جاء بهذه وهذه، ومعرفة الإلهيات، و النبوات وغيرها، فتلك الطريقة أكمل وأتم.

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس الذي لابد فيه من قضية كلية، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً، لا تفيد معرفة شيء معين، وكل موجود فهو معين، فكيف يقول عاقل مع هذا : إنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق؟! ثم إنهم في ضلالهم يظنون أن علم الأنبياء، بل وعلم الرب - سبحانه - إنما حصل بواسطة القياس المنطقي، وأن النبي له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم، فيكون أكمل من غيره، فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوماً^(١) طبيعية أو حسابية ونحو ذلك، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعى مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة، والبديهيات المعتادة، والمتواترات، والمجربات المعتادة، والحدسيات المعتادة، والحس الباطن، والظاهر، والتجربة، ونحو ذلك لا يعلم بمجرد إلا أمر معين جزئي، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل، وإما بعلم ضروري يحدثه الله في القلب ابتداءً، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فإحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل، فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل، فلا يكون في قياسهم إلا زيادة تطويل وتهويل وتضليل.

وقد بسطنا الكلام على «المنطق اليوناني» بما فيه من حق وباطل، ونافع وضار، في غير هذا الموضع، ونفي العلم إلا بهذا القياس، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية ٣٥٠/١٢ أن يستعمل في العلوم الإلهية «قياس الأولى» كما قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]؛ إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوى أفرادها، ولا يتمثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال - لا نقص فيه بوجه - ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه،

(١) في المطبوعة: «علوم» وهو خطأ.

وأمثال هذه « الأقيسة العقلية » التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن، ولله المثل الأعلى، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع .

فلما كان الكفار بالرسالة على ما ذكر ، جاء في الكفار ببعضها من شاركهم في بعض ذلك؛ فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض، وأنكروا سائر صفاته التي جاءت بها الرسل ، فأنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله، وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله .

وأول من أظهر ذلك في الإسلام - وإن كان ذلك موجوداً قبل الإسلام في أمم أخرى - الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، وكان - على ما قيل - من أهل حرّان، وكان فيهم أئمة الفلاسفة ، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابي كثيراً مما تعلم من الفلسفة على ما ذكره عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، فضحى بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسطة على عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين، وهم بقايا التابعين في وقته؛ مثل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه على ما فعل ، وشكروا ذلك فقال: أيها الناس، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم؛ فإني مٌضحٌ بالجعد/بن درهم ؛ إنه ٣٥١/١٢ زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً- تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً- ثم نزل فذبحه .

وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصابئين ، المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل ، الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الإضافية أو المركبة منهما، وهم في هذا التعطيل موافقون في الحقيقة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية ؛ فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته؛ ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه لموسى بأن ربه فوق السموات، حيث قال: ﴿يَهْمَكُنْ إِنِّي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كُذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، بخلاف محمد ﷺ الذي صدق موسى لما عرج به إلى ربه، وأخبر أنه وجد موسى هناك وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى ، فمحمد ﷺ صدق موسى في أن ربه فوق السموات، وفرعون كذبه في ذلك . والناس إما محمدي موسوي، وإما فرعوني ؛ إذ فرعون كذب موسى في أن الله فوق ، وكذبه في أن الله كلمه، كما أنكر وجود الصانع، ومحمد صدق موسى في هذا كله .

وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون: إن الله ليس له كلام في الحقيقة، لكن كلامه - عند من أظهر الإقرار بالرسول منهم - ما يفيض على نفوس الأنبياء، وهو أنه محدث في نفوسهم من غير أن يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام، وهكذا ٣٥٢/١٢ كان الجهم يقول أولاً: إن الله لا كلام له، ثم احتاج أن يطلق أن له كلاماً لأجل المسلمين

فيقول : هو مجاز ؛ ولهذا كان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم ، وأن غرضهم التعطيل ، وأنهم زنادقة ، والزنديق المنافق .

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة ، كما صنف الإمام أحمد « الرد على الزنادقة والجهمية » ، وكما ترجم البخاري آخر كتاب الصحيح بـ « كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » ، وكان عبد الله بن المبارك يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية .

وتقول الصابئة المحضة – الذين آمنوا في الظاهر وآمنوا في الباطن ببعض الكتاب – : كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من «العقل الفعال» أو غيره، و «ملائكة الله» اسم لما يتشكل في نفسه من الصور النورانية. وقد يقولون: إن جبريل هو «العقل الفعال» أو هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم؛ ولهذا يقول هؤلاء: إن خاصة النبي التخييل، وأن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه لمصلحة العامة، ولم يفيدوا بكلامهم علماً، لكن تخيلاً ينتفع به العامة، ويجعلون هذا من أفضل الأمور، ٣٥٣/١٢ ويمدحون الأنبياء بذلك، ويعظمونهم،/وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع آخر.

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين ، وزعموا أنهم مؤمنون، وقالوا: إنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة، كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهما من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الإسماعيلية ونحوهم، الذين أخذوا معاني المتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها في قالب التشيع والرفض، والإمامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار .

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية ، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، وأن شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، وعمرو بن عثمان الشبلي، والجنيدي بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي عبد الله محمد ابن خفيف الشيرازي ونحوهم - رضي الله عنهم - كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء؛ فإن قول هؤلاء الزنادقة - وإن كان فيه إيمان من وجه آخر- فهوؤلاء موافقون في الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدر: ٢٥]، لكن ذاك كفر به كله ظاهراً وباطناً، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته؛ من أنه مطاع عظيم، وأنه رئيس النوع الإنساني، وأن هذا الكلام الذي جاء به كلام عظيم القدر، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل، لها ثلاث خصائص تنفرد بها عن غيرها: خصيصة قوة الحدس والعلم، وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه، وخصيصة

قوة التخيل المطابق للحقائق، بحيث يسمع في نفسه الأصوات، ويرى من الصور ما يكون خيالاً للحقائق، وأنه يجوز إضافة كلامه إلى الله، وتسميته كلام الله، حيث هو أمر به أمراً خيالياً.

وفي الحقيقة عندهم ما يفيض على سائر النفوس الصافية من العلوم والكلمات هي — أيضاً — كلام الله مثل ما أنه كلام الله، لكن هو أشرف وخطابه دل على أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته، التي أخبرت بها الرسل لكن يطلقون عليه أنه متكلم ؛ ولهذا يقولون: إن النبوة مكتسبة، فطمع غير واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهووردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين.

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع، مثل كلامنا على إبطال قولهم: إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية.

وأما المعتزلة ونحوهم، فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم في الحقيقة التي يعلم الناس أن صاحبها يتكلم، بل كلامه منفصل عنه، ويزعمون أن ذلك حقيقة، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهواء أو غيره/أصواتاً يسمعها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من ٣٥٥/١٢ غير أن يقوم بنفسه كلام لا معنى ولا حروف، وهم يتنازعون في ذلك المخلوق : هل هو جسم أو عَرَض ، أو لا يوصف بواحد منهما؟

ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابيعهم في تكفيرهم والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف، واطلع الأئمة الخذاق من العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم لا يفهمون ذلك، كما اطلعوا على أن حقيقة قول القرامطة والإسماعيلية هو التعطيل والزندقة، وإن كان عوامهم إنما يدينون بالرفض ، وجرت فتنة الجهمية ، كما امتحنت الأئمة، وأقام الإمام أحمد — إمام السنة ، وصديق الأمة في وقته ، وخليفة المرسلين ، ووارث النبيين — فثبت الله به الإسلام والقرآن، وحفظ به على الأمة العلم والإيمان، ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان، الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

فاستقر أهل السنة وجماهير الأمة وأهل الجماعة وأعلام الملة — في شرقها وغربها — على الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله، وجاء به خاتم النبيين مصدقاً لما بين يديه من الكتاب و مهيمناً عليه، وهو أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله، وأن كلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه؛ فإن هذا جحد لكلامه الذي/هو رسالته ، ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أممهم، وإلحاد في ٣٥٦/١٢ أسماء الله وآياته، وتمثيل له بالمعدوم والموات؛ فإن الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو

ذلك صفات كمال، والرب - تعالى - أحق بكل كمال، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به، كما يمتنع أن ينتزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه، كيف وهو خالق الكمال للكاملين.

وأيضاً، فمن لم يتصف بصفات الكمال؛ من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك، فإما أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك ولم يتصف به، أو غير قابل للاتصاف به. فإن قبله ولم يتصف به كان موصوفاً بصفات النقص؛ كالموت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء؛ فإنهم متفقون على أن القابل لهذا ولهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر. وإن قيل: إنه لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها، فالحيوان الذي يكون تارة سمياً وتارة أصم، وتارة بصيراً وتارة أعمى، وتارة متكلماً وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا.

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص، أو يكون أنقص من ٣٥٧/١٢ ممن وصف بهذه النقائص؛ وذلك أن المتفلسفة/اصطلحوا على تقسيم المتقابلين بالنفي والإثبات إلى النقيضين، وإلى ما يسمونه: العدم والملكة، فالعدم عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والأخرس؛ فإنه عدم البصر، والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً، فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا.

وشبهتهم ليست على طائفة من أهل النظر، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام، لم يلزم أن يتصف بصفات النقص؛ لأنهما متقابلان تقابل العدم والملكة لا تقابل النقيضين.

فيقال لهم: هذا - أولاً - اصطلاح لكم، وإلا فغيركم يسمى الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك، كما في مثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوتُوا غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

ويقال لهم ثانياً: النظر في المعاني العقلية، ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها.

ويقال لهم ثالثاً: إذا قلتم لا يتصف بواحد منهما لكونه لا يقبل ذلك، فهذا النقص أعظم من نقص العمى والصمم والبكم؛ فإن ما لا يقبل/الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها؛ فإنه منه بدأ؛ كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية: أنه ابتداء من نفس النبي أو من «العقل الفعال» أو من «الهواء» بل هو

تنزيل من حكيم حميد، وأنه إليه يعود إذا أسرى به من المصاحف والصدور.

وصار الإمام أحمد علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع الطوائف ، كلهم يوافقه في جمل أقواله ، وأصول مذهبهم ؛ لأنه حفظ على الأمة الإيمان الموروث ، والأصول النبوية – ممن أراد أن يحرفها ويبدلها – ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به ، والذي قاله هو الذي يقوله سائر الأئمة الأعيان ، حتى إن أعيان أقواله منصوبة عن أعيانهم ، لكن جمع متفرقها ، وجاهد مخالفها ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة عليها ، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده في الجهمية كثيرة مشهورة.

والجهمية هم نفاة صفات الله ، المتبعون للصابئة الضالة . وصارت فروع التجهيم تجول في نفوس كثير من الناس ، فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث : ولا نقول مخلوق ، ولا غير مخلوق بل نقف ، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية ، ولكن كان المؤمنون أشد رهبة في صدورهم من الله .

/وطائفة أخرى قالت : نقول : كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق ، وأما القرآن ٣٥٩/١٢ الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق ، وهؤلاء هم «اللفظية» . فصارت الأمة تفرع إلى إمامها إذ ذاك ، فيقول لهم أحمد : افرقت الجهمية على ثلاث فرق : فرقة تقول : القرآن مخلوق ؛ وفرقة تقول : كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة . فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله ﷺ هو قرآن مخلوق ، لم يتكلم الله به ، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة ، ونحن إنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا ، وربما قال بعضهم : ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا ، وما في الأرض قرآن إلا هذا ، وهذا مخلوق .

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة ، وردوا باطلاً بباطل ، وقابلوا الفاسد بالفاسد ، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة ؛ لأن هذا هو القرآن ، والقرآن غير مخلوق ، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة ، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً ، وحاله إذا كان مقروناً مقيداً . فأنكر الإمام أحمد – أيضاً – على من قال : إن تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة ، وأمر بهجران هؤلاء ، كما جهّم الأولين وبدّعهم . والنقل عنه/بذلك من رواية ٣٦٠/١٢ ابنه عبد الله وصالح المروزي وفوران وأبي طالب وأبي بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه .

وقد قام أخص أتباعه – أبو بكر المروزي – بعد مماته في ذلك ، وجمع كلامه وكلام

الأئمة من أصحابه وغيرهم؛ مثل عبد الوهاب الوراق^(١)، والأثرم، وأبي داود السجستاني، والفضل بن زياد^(٢)، ومثنى بن جامع الأنباري، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، ومحمد بن سهل بن عسكر^(٣)، وغير هؤلاء من علماء الإسلام. وبين بدعة هؤلاء الذين يقولون: إن تلاوة العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة.

وقد ذكر ذلك الخلال في كتاب «السنة» وبسط القول في ذلك. قال الخلال: أخبرني أبو بكر المروزي، قال: بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نصيبين: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال أبو بكر: فجاءنا صالح بن أحمد، فقال: قوموا إلى أبي، فجئنا فدخلنا على أبي عبد الله، فإذا هو غضبان شديد الغضب، قد تبين الغضب في وجهه، فقال: اذهب فجئني بأبي طالب، فجئت به، فقع بين يدي أبي عبد الله، وهو يرعد، فقال: كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أنني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟! فقال: إنما حكيت عن نفسي، قال: فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي، فما سمعت عالماً قال هذا. قال أبو عبد الله: القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف، ٣٦١/١٢ فقل لأبي طالب: اخرج وأخبر/أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق. فخرج أبو طالب فلقى جماعة من المحدثين فأخبرهم: أن أبا عبد الله نهى أن يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق.

ومع هذا فكل واحدة من الطائفتين الذين يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، والذين يقولون: لفظنا وتلاوتنا مخلوقة – ينتحل أبا عبد الله وتحكى قولها عنه، وتزعم أنه كان على مقالتها؛ لأنه إمام مقبول عند الجميع؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد، والباطل الذي تنكره كل طائفة على الأخرى يرده أحمد، فمحمد بن داود المصيصي – أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود – وجماعة في زمانه كأبي حاتم الرازي وغيره يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، وتبعهم طائفة على ذلك، كأبي عبد الله بن حامد، وأبي نصر السجزي، وأبي عبد الله بن منده، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري، وأبي العلاء الهمداني، وأبي الفرج المقدسي، وغير هؤلاء يقولون: إن ألفاظنا

(١) هو أبو الحسن عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع الوراق البغدادي، صدوق، نسائي الأصل، وثقه النسائي والدارقطني وابن حبان والخطيب، مات سنة ٢٥٠هـ. [تهذيب التهذيب ٦/٤٤٨].

(٢) هو أبو العباس الفضل بن زياد البغدادي، الذي يقال له: الطستي يروى عن إسماعيل بن عياش وأهل العراق، كان ثقة. [الثقات لابن حبان ٦/٩، وتاريخ بغداد ١٢/٣٦٠].

(٣) هو أبو بكر محمد بن سهل بن عسكر بن عمارة بن دويد، ويقال: ابن عسكر بن مستور بدل عمارة التميمي، الحافظ الجوال. وثقه النسائي وابن عدي، سكن بغداد، ومات بها في شعبان سنة ٢٥١هـ [تهذيب التهذيب ٩/٢٠٧].

بالقرآن غير مخلوقة، و يروون ذلك عن أحمد، وأنه رجع إلى ذلك ، كما ذكره أبو نصر في كتابه «الإبانة»، وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه، وأهل بيته، والعلماء الثقات، لا سيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه، حتى رده أحمد عن ذلك، وغضب عليه غضباً شديداً.

/وقد رأيت بعض هؤلاء طعن في تلك النقول الثابتة عنه. ومنهم من حرفها لفظاً، ٣٦٢/١٢
وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف ، فأما الذين ثبتوا النقل عنه ووافقوه على إنكاره
الأمريين، وهم جمهور أهل السنة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبي الحسن الأشعري
وأمثاله، فإنه ذكر في «مقالات أهل السنة والحديث» أنهم ينكرون على من قال: لفظي
بالقرآن مخلوق، ومن قال: لفظي به غير مخلوق، وأنه يقول بذلك .

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمد وغيره في ذلك بأنه منع أن يقال: إن القرآن يلفظ
به، وهذا قاله الأشعري وابن الباقلاني والقاضي أبو يعلي وأتباعه ، كأبي الحسن بن
الزاغوني وأمثاله .

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على
من قال: لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الأشعري وأتباعه. ومنهم من قال: بل
المعنى الذي أنكره أحمد على من قال: لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القاضي وابن
الزاغوني وأمثالهما؛ فإن أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله
مخلوقاً، حروفه أو معانيه، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن ، وأن كلام الله إذا
عبر عنه بالعربية يكون قرآنًا، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة، وينكرون أن يكون
القرآن المنزل ليس هو كلام الله، أو أن يطلق القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق، ٣٦٣/١٢
وأحمد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو أصواتهم غير مخلوق؛
فضلاً عن أن يكون قديماً! وكلام أحمد في «مسألة التلاوة والإيمان والقرآن» من غلط
واحد ، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما
هو مخلوق، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما في ذلك
من البدعة والضلال .

ولما كان أحمد قد صار هو إمام السنة، كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنة ينتحله
إماماً، كما ذكر ذلك الأشعري، في «كتاب الإبانة» وغيره، فقال: إن قال قائل : قد أنكرتم
قول «الجهمية» و «المعتزلة» و «الخوارج» و «الروافض» و «المرجئة» فعرفونا قولكم الذي
به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا،

وما روى عن الصحابة والتابعين، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولما خالفه مجانبون، فإنه الإمام الكامل، والرئيس الفاضل، الذي أبان الله به الحق، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين. وذكر جملاً من المقالات.

٣٦٤/١٢ / فلها صار من بعده متنازعين في هذا الباب . فالطائفة الذين يقولون: لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه، ويزعمون أن هذا آخر قوله، أو يطعنون فيما يناقض ذلك عنه، أو يتأولون كلامه بما لم يرد.

والطائفة الذين يقولون: إن التلاوة مخلوقة، والقرآن المنزل الذي نزل به جبريل مخلوق، وإن الله لم يتكلم بحروف القرآن، يقولون: إن هذا قول أحمد، وأنهم موافقوه، كما فعل ذلك أبو الحسن الأشعري، فيما ذكره عن أحمد، وفسر به كلامه، وذكر أنه موافقه، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في تنزيه أصحابه من مخالفة السنة وأئمتها كالإمام أحمد، وكما فعله أبو نعيم الأصبهاني في كتابه المعروف في ذلك، وكما فعله أبو ذر الهروي، والقاضي عبد الوهاب المالكي، وكما فعله أبو بكر البيهقي في الاعتقاد في مناقب الإمام أحمد. وروي عنه أن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وتأول ما استفاض عنه من الإنكار على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق.

وكذلك - أيضاً - افترى بعض الناس على البخاري الإمام صاحب «الصحیح»، أنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وجعلوه من «اللفظية»، حتى وقع بينه وبين أصحابه، ٣٦٥/١٢ مثل محمد بن يحيى الذهلي، وأبي زرعة، وأبي حاتم، وغيرهم بسبب ذلك، وكان في القضية أهواء وظنون، حتى صنف «كتاب خلق الأفعال»، وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة، عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة. وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه «الصحیح» من أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يتكلم بصوت، وينادي بصوت، وساق في ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد، وأن الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارئ، وبين دلائل ذلك، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والله - تعالى - بفعله وكلامه غير مخلوق.

وقال في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ﴾ [الأنبياء: ٢]، إن حدثه ليس كحدث المخلوقين، وذكر قول النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما شاء، وإن مما أحدث

ألا تَكَلَّمُوا في الصلاة»^(١) وذكر عن علماء السلف: أن خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق، بل فعله القائم به غير مخلوق، وذكر عن نعيم بن حماد الخزاعي: أن الفعل من لوازم الحياة، وأن الحي لا يكون إلا فعالاً، إلى غير ذلك من المعاني التي تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول.

وذكر أن كل واحدة من طائفتي «اللفظية المثبتة والنافية» تتحلل أبا عبد الله، وأن ٣٦٦/١٢ أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب، وأنهم لم يفهموا بعض كلامه لدقته وغموضه، وأن الذي قاله وقاله الإمام أحمد هو قول الأئمة والعلماء، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة.

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى - رحمه الله - على ظهر «كتاب العدة» بخطه، قال: نقلت من آخر «كتاب الرسالة» للبخاري في أن القراءة غير المقروء، وقال: وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجهاً كلها يخالف بعضها بعضاً، والصحيح عندي أنه قال: ما سمعت عالماً يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. قال: وافترق أصحاب أحمد ابن حنبل على نحو من خمسين. قال أبو عبد الله البخاري: قال ابن حنبل: «اللفظي» الذي يقول: القرآن بألفاظنا مخلوق.

وكان - أيضاً - قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله من الكلاية ونحوهم - أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهو من متكلمة الصفاتية، وطريقته يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث والسنة، لكن فيها نوع من البدعة؛ لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام الأمور الاختيارية بذاته، ولكن له في الرد على الجهمية - نفاة الصفات والعلو - من الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله في هذا الباب، وإفساده لمذاهب نفاة ٣٦٧/١٢ الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب، وصار ما ذكره معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم لكثير من أولى الألباب، حتى صار قدوة وإماماً لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا الصفات، وناقضوا نفاتها، وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهم الفاسدة، التي أوجبت فساد بعض ما قالوه من جهة المعقول، ومخالفته لسنة الرسول.

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي، وأبو العباس القلانسي، ثم أبو الحسن الأشعري، وأبو الحسن بن مهدي الطبري، وأبو العباس الضبي، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو

(١) البخاري في التوحيد معلقاً (الفتح ٤٩٦/١٣)، وأبو داود في الصلاة (٩٢٤)، والنسائي في السهو (١٢٢١)، وأحمد ٣٧٧/١، ٤٠٩ كلهم عن عبد الله بن مسعود.

حاتم البستي، وغير هؤلاء، المثبتين للصفات المنتسبين إلى السنة والحديث، المتلقين بنظر أهل الحديث.

وسلك طريقة ابن كُلاب — في الفرق بين «الصفات اللازمة» كالحياة و «الصفات الاختيارية» وأن الرب يقوم، به الأول دون الثاني كثير— من المتأخرين ، من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد ، كالتميمين أبي الحسن التميمي، وابنه أبي الفضل التميمي، وابن ابنه رزق الله التميمي، وعلى عقيدة الفضل — التي ذكر أنها عقيدة أحمد— اعتمد أبو بكر البيهقي فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد.

٣٦٨/١٢ وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم وأتباعه/«السالمية» ، والقاضي أبو يعلى وأتباعه، كابن عقيل، وأبي الحسن بن الزاغوني ، وهي طريقة أبي المعالي الجويني، وأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، لكنهم اختلفوا في القرآن، وفي بعض المسائل على قولين — بعد اشتراكهم في الفرق الذي قرره ابن كلاب — كما قد بسط كلام هؤلاء في مواضع آخر.

والإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب، ويحذرون عن أصحابه، وهذا هو سبب تحذير الإمام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلابية.

ولما ظهر هؤلاء ظهر حيثئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول: إن الله لم يتكلم بصوت، فأنكر أحمد ذلك، وجهم من يقوله، وقال: هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل ، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت ، وكذلك أنكر على من يقول: إن الحروف مخلوقة، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «السنة» : قلت لأبي : إن ههنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: يابني ، هؤلاء جهمية زنادقة ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر الآثار في خلاف قولهم.

٣٦٩/١٢ وكذلك البخاري صاحب «الصحيح» وسائر الأئمة، أنكروا ذلك أيضاً، وروى البخاري في آخر «الصحيح» ، وفي كتاب «خلق الأفعال» ما جاء في ذلك من الآثار ، وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن؛ موافقة منه للإمام أحمد وغيره من الأئمة، حيث بين أن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، وأن ذلك ليس صوت العبد بالقراءة، بل ذلك هو صوت العبد، كما قد نص على ذلك كله في مواضع، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الإثبات والتفريق، لا يوافقون قول من يزعم أن الكلام ليس فيه حرف ولا صوت، ولا يوافقون قول من يزعم أن الصوت المسموع من القراءة وألفاظهم قديمة، ولا يقولون : إن القرآن ليس إلا الحروف

وقد كتبت كلام الإمام أحمد ونصوصه، وكلام الأئمة قبله وبعده في غير هذا الموضوع، فإن جواب هذه «المسألة» لا يحتمل البسط الكثير، ولم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أن الصوت الذي تكلم الله به قديم، بل يقولون: لم يزل الله متكلمًا، وقد يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء بما شاء، كما يقول ذلك الإمام أحمد، وابن المبارك، وغيرهما.

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده - من أصحابهم وغيرهم - في معنى كون القرآن غير مخلوق، هل المراد به أن نفس الكلام قديم/أزلي كالعلم؟ أو أن الله لم يزل ٣٧٠/١٢ موصوفًا بأنه متكلم يتكلم إذا شاء؟ على قولين. ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وأبو بكر عبد العزيز في «كتاب الشافي» عن أصحاب الإمام أحمد، وذكرهما أبو عبد الله بن حامد في كتابه «أصول الدين». والنزاع في ذلك بين سائر طوائف السنة والحديث، هذا مبني على أصل «الصفات الفعلية الاختيارية»، والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقه والتصوف ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق، حتى بين الفلاسفة أيضًا، وقد حققت ذلك في غير هذا الموضوع.

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فإن هؤلاء تنازعوا في أن الرب هل يتكلم بمشيئته وقدرته؟ على قولين. فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه لازم لذاته كحياته، ثم من هؤلاء من عرف أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول: القديم هو الحروف والأصوات؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة، والصوت لا يبقى زمانين، فضلا عن أن يكون قديمًا، فقال: القديم هو معنى واحد، لا متنازع معاني لا نهاية لها، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد. فقالوا: هو معنى واحد، وقالوا: إن الله لا يتكلم بالكلام العربي والعبري، وقالوا: إن معنى التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد، /ومعنى آية الكرسي وآية الدين معنى واحد. إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور ٣٧١/١٢ العقلاء: إنها معلومة الفساد بضرورة العقل. ومن هؤلاء من عرف أن الله تكلم بالقرآن العربي والتوراة العبرية، وأنه نادى موسى بصوت وينادي عباده بصوت، وأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه؛ لكن اعتقدوا مع ذلك أنه قديم العين، وأن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته. فالتزموا أنه حروف وأصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال، وقالوا: إن الباء لم تسبق السين، والسين لم تسبق الميم، وإن جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقترانًا قديمًا

أزليًا لم يزل ولا يزال، وقالوا: هي مرتبة في حقيقتها وماهيتها غير مرتبة في وجودها. وقال كثير منهم: إنها مع ذلك شيء واحد، إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء: إنها معلومة الفساد بضرورة العقل.

ومن هؤلاء من يقول: هو قديم، ولا يفهم معنى القديم. فإذا سئل عن ذلك قال: هي قديمة في العلم، ولا يعلم أن المخلوقات كالسما والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة، ومنهم من يقول: قديم بمعنى أنه متقدم على غيره، ولا يعرف أن الذين قالوا: إنه مخلوق لا ينازعون في أنه قديم بهذا المعنى، ومنهم من يقول: إن مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق، ولا يفهم أنه مع ذلك يكون أزليًا لم يزل، وهؤلاء سمعوا/من يوافقهم على أنه غير مخلوق، قالوا: هو قديم، فوافقوا على أنه قديم، ولم يتصوروا ما يقولونه.

كما أن من الناس من قال: هو غير مخلوق، وأراد بذلك أنه غير مكذوب، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس، كما لم يتنازعوا في أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره

والقول الثاني: قول من يقول: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق. وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر، وأئمة السنة والحديث، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم في الأزل بمشيئته، كما لم يكن يمكنه عندهم أن يفعل في الأزل شيئًا، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلمًا، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلا، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة.

وأما السلف والأئمة فقالوا: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كان مع ذلك قديم النوع - بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء؛ فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلمًا بمشيئته وقدرته، ومن لا يزال متكلمًا بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنًا له بعد أن يكون ممتنعًا منه، أو ٣٧٣/١٢ قدر أن ذلك ممكن، فكيف إذا كان ممتنعًا؟ لامتناع أن يصير الرب قادرًا بعد أن لم يكن، وأن يكون التكلم والفعل ممكنًا بعد أن كان غير ممكن؟ كما قد بسط هذا في مواضع آخر.

وكانت «اللفظية الخلقية» من أهل الحديث يقولون: نقول: أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وإن التلاوة غير المتلو. والقراءة غير المقروء. و «اللفظية المثبتة» يقولون: نقول: إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، والتلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء.

وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد، وأعيان أصحابه، وسائر أئمة السنة والحديث، فلا يقولون: مخلوقة ولا غير مخلوقة، ولا يقولون: التلاوة هي المتلو مطلقًا، ولا غير المتلو مطلقًا كما لا يقولون: الاسم هو المسمى، ولا غير المسمى.

وذلك أن «التلاوة والقراءة» كاللفظ قد يراد به مصدر تلى يتلو تلاوة، وقرأ يقرأ قراءة، ولفظ يلفظ لفظاً، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة. واللفظ مخلوق، وليس ذلك هو القول المسموع الذي هو المتلو. وقد يراد باللفظ الملفوظ، وبالتلاوة المتلو، وبالقراءة المقروء، وهو القول المسموع، وذلك هو المتلو، ومعلوم أن القرآن المتلو الذي يتلوه العبد، ويلفظ / به غير مخلوق، وقد يراد ٣٧٤/١٢ بذلك مجموع الأمرين ، فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع.

وصار ابن كلاب يريد بالتلاوة القرآن العربي، وبالمتلو المعنى القائم بالذات، وهؤلاء إذا قالوا: التلاوة غير المتلو ، وهي مخلوقة ، كان مرادهم أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، بل عندهم أن القرآن العربي مخلوق. وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث. ويظن هؤلاء أنهم يوافقون البخاري أو غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو، وليس الأمر كذلك.

ومن الآخرين من يقول: «التلاوة» هي المتلو ، ويريد بذلك أن نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من القراءة، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب، وهؤلاء يقولون: نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق، وهؤلاء «اتحادية، حلولية في الصفات» يشبهون النصارى من بعض الوجوه، وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة.

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد وإسحاق وغيرهما، ممن ينكر على «اللفظية» ، وليس الأمر كذلك ؛ فلماذا كان المنصوص عن الإمام أحمد وأئمة السنة والحديث أنه لا يقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ولا غير/مخلوقة، ولا أن التلاوة هي المتلو مطلقاً، ولا ٣٧٥/١٢ غير المتلو مطلقاً ؛ فإن اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا؛ ولهذا يجعل الكلام قسماً للعمل ليس قسماً منه في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقد يجعل قسماً منه كما في قوله: ﴿قَوْلَ رَبِّكَ لَسَنَأَنَّهُمْ آجِمِينَ . عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ، ٩٣]، قال طائفة من السلف: عني قول لا إله إلا الله، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فقال رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل...» (١)؛ ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف: لا يعمل اليوم عملاً، هل يحث بالكلام؟ على قولين. ذكرهما القاضي أبو يعلى وغيره.

(١) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٦٦/٨١٥) (٢٦٧) .

ولم تكن « اللفظية الخلقية » ينكرون كون القرآن كلام الله ، حروفه ومعانيه ، وأن الله يتكلم بصوت ، بل قد يقولون : القرآن كله كلام الله ، حروفه ومعانيه ؛ فإن الله يتكلم بصوت ، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة ، وكما جاءت به الآثار ، ولكن يقولون : المنزل إلى الأرض من الحروف والمعاني ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق ، بل ربما سموها حكاية عن كلام الله ، كما يقوله ابن كلاب ، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري ، وربما سموها كلام الله ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم .

٣٧٦/١٢ / ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولاً - هم واضعوها ؛ من امتناع تكلمه تعالى بالحروف ، وامتناع قيام « الصفات الاختيارية » بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك ؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث ، فهو حادث - اضطره ذلك إلى أن يقول : ليس كلام الله إلا مجرد المعنى ، وأن الحروف ليست من كلام الله ، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري ؛ وإن تنازعا في أن الرب كان في الأزل أمراً ناهياً ، أو صار أمراً ناهياً بعد أن لم يكن ، وفي أن « الكلام » هل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري ، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب .

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين :

أحدهما : أن نصف القرآن من كلام الله ، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم ، بل خلقه الله في الهواء ، أو في اللوح المحفوظ ، أو أحدثه جبريل ، أو محمد ﷺ . وهؤلاء في كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقهم ، لكن هؤلاء يقولون : إن هذا النصف المخلوق كلام الله ، وأولئك يقولون : هو مخلوق منفصل عن الله ، وهو كلامه ، لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلاً به قائماً بنفسه ، ولا معاني ولا حروفاً . وهؤلاء يقولون : لله كلام قائم به / متصل به هو معنى . فصار أولئك أشد بدعة في نفهم حقيقة الكلام عن الله ، وفي جعلهم كلام الله مخلوقاً . وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون من كلام الله ، وصاروا في هذا موافقين الوحيد (١) في بعض قوله لا في كله ، وهو قولهم : إن نصف القرآن ليس قول الله ، بل قول البشر .

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ، ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل ، وتارة إلى رسول هو محمد ، بقوله في الآية الأولى : ﴿ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ ﴾

(١) هو الوليد بن المغيرة ، المقصود في قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ .

[التكوير: ١٩، ٢١]، فهذا جبريل، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢] وهذا محمد، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتداء حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما؛ لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه؛ ولأنه قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً، فلو كان الرسول ابتداءً لكان القرآن من عنده لا من عند الله، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، بل جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير، والكلام كلام لمن اتصف به ٣٧٨/١٢ مبتدأ منشأ، لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس فكيف بكلام الله؟! وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر القرآن: أن الرسول في أحد الموضعين محمد ﷺ، وفي الآخر جبريل - عليه السلام.

وأما على قول طائفة جعلته في الموضعين جبريل، فيكون الجواب هو الثاني، والإثبات في الحقيقة حجة لمن يقول: إنما يتكلم بكلام الله ويقول قوله؛ لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله به، والمعنى يراد من هذا قطعاً، كما أريد منه اللفظ أيضاً.

وأيضاً، فإن هؤلاء جعلوا الكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وأنه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان هو الإنجيل، وهذا مما أجمع جمهور العقلاء على أن فساده معلوم بالضرورة.

والمعنى الثاني - الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة - قولهم: إن القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معانيه، بل هو مخلوق عندهم. ويقولون: هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس؛ لأن العبارة لا تشبه المعبر عنه، بخلاف الحكاية والمحكي، ٣٧٩/١٢ وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول «اللفظية» من أهل الحديث، الذين أنكر عليهم أئمة السنة وقالوا: هم جهمية؛ إذ جعلوا الحروف من إحداث الرسول، وليست مما تكلم الله به بحال، وقالوا: إنه ليس لله في الأرض كلام، ولم يكن - أيضاً - في «اللفظية» القدماء، الذين يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، من يقول: إن صوت العبد غير مخلوق، أو أن الصوت القديم يسمع من العبد، أو أن هذا الصوت صوت الله، أو يسمع معه صوت الله، وإنما أحدث هذا - أيضاً - المتطرفون منهم، كما أحدث المتطرفون من أولئك أن حروف القرآن ليست كلام الله، فإن هاتين البدعتين الشيعيتين لم تكونا بعدُ ظهوراً في أولئك المنحرفين، الذين أنكر الإمام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين، وأن

القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس ، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والإنجيل والقرآن .

والأخرى قد رأت حروف القرآن من كلام الله ، وأن القرآن كلام الله ، حروفه ومعانيه ، وأن المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وأنه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن واحداً ، وعلموا أنا إذا ترجمنا التوراة ٣٨٠/١٢ بالعربية لم يصير معناها معنى القرآن ، وأن هذه الأقوال معلومة الفساد/بالضرورة ، عارضها بعضها ، لأن القرآن حرف وصوت ، واعتقد بعضهم أنه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات ، وأولئك يقولون: ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس .

وكلا هذين السليبين الجحودين الحادئين خلاف ما كان عليه الأئمة ، كالإمام أحمد وغيره من الأئمة ، وأعيان العلماء من سائر الطوائف . فإن الكلام عندهم اسم للحروف والمعاني جميعاً ، كما أن «الإنسان» الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً ، ومن قال: إن الإنسان ليس إلا هذه الجملة المشاهدة فهو بمنزلة من قال: ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة ، ومن قال: إن الإنسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد ، فهو بمنزلة من قال: إن الكلام ليس إلا معنى وراء هذه الحروف والأصوات ، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الأسماء ، وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله .

فصل

ثم إن فروخ «اللفظية النافية» ، الذين يقولون بأن حروف القرآن ليست من كلام الله ، تروي عن منازعيها أنهم يقولون : القرآن ليس هو إلا الأصوات المسموعة من ٣٨١/١٢ العبد ، وإلا المداد المكتوب في الورق،/ وأن هذه الأصوات وهذا المداد قديمان ، وهذا القول ما قاله أحد ممن يقول: إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات ، بل أنكروا ذلك وردوه ، وكذبوا من نقل عنهم أن المداد قديم ، ولكن هذا القول قد يقوله الجاهل المتطرفون ، كما يحكى عن أعيانهم — مثل سكان بعض الجبال- أن الورق والجلد والوتد وما أحاط به من الحائط كلام الله ، أو ما يشبه هذا اللغو من القول الذي لا يقوله مسلم ولا عاقل .

وفروخ «اللفظية» المثبتة الذين يقولون: إن القرآن ليس إلا الحروف والصوت ، تحكي عن منازعيها : أن القرآن ليس محفوظاً في القلوب . ولا متلوّاً باللسن ، ولا مكتوباً في المصاحف ، وهذا - أيضاً - ليس قولاً لأولئك ، بل هم متفقون على أن القرآن محفوظ في القلوب متلو باللسنة ، مكتوب في المصاحف ، لكن جهالهم وغاليتهم إذا تدبروا حقيقة

قول مقتصديهم — أن القرآن العربي لم يتكلم الله به ، وأنه ليس إلا معنى واحد قائم بالذات ، وأصوات العباد ومداد المصحف يدل على ذلك المعنى ، وأنه ليس لله في الأرض كلام في الحقيقة ، وليس في الأرض إلا ما هو دال على كلام الله ، ولم يقل إلا ما هو دال على كلام الله ، وكلام الله إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وهو معنى واحد لا يتعدد ، ولا يتبعض ، ولا يتكلم الرب بمشيئته وقدرته ، إلى/ أمثال ذلك من حقائق قول المقتصدين — ٣٨٢/١٢ أسقطوا حرمة المصحف ، وربما داسوه ووطؤوه ، وربما كتبوه بالعدرة أو غيرها .

وهؤلاء أشد كفراً ونفاقاً ممن يقول الجلد والورق كلام الله ؛ فإن أولئك آمنوا بالحق وبزيادة من الباطل ، وهؤلاء كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، فسوف يعلمون ؛ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون .

وأما أهل العلم بالمقالة وأهل الإيمان بالشرعية ، فيعظمون المصحف ويعرفون حرمة ، ويوجبون له ما أوجبه الشريعة من الأحكام ؛ فإنه كان في قولهم نوع من الخطأ والبدعة ، وفي مذهبهم من التجهم والضلال ما أنكروا به بعض صفات الله وبعض صفات كلامه ورسله ، وجحدوا بعض ما أنزل الله على رسله ، وصاروا مخانين للجهمية المذكور المنكرين لجميع الصفات ، لكنهم مع ذلك متأولون قاصدون الحق .

وهم مع تجهمهم هذا يقولون : إن القرآن مكتوب في المصحف مثل ما أن الله مكتوب في المصحف ، وأنه متلو باللسن مثل ما أن الله مذكور باللسن ، ومحفوظ في القلوب مثل ما أن الله معلوم بالقلوب ، وهذا القول فيه نوع من الضلال والنفاق والجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله ما فيه ، وهو الذي أوقع الجهال في الاستخفاف بحرمة آيات الله وأسمائه حتى ألدوا في أسمائه وآياته .

٣٨٣/١٢

كما أن إطلاق الأولين : أنه ليس للقرآن حقيقة إلا الحروف والأصوات ، ولا يفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت القارئ وأن القرآن قديم — أوقع الجهال منهم والكاذبين عليهم في نقلهم عنهم : أن أصوات العباد والمداد الذي في المصحف قديم ، وأن الحروف التي هي كلام الله هي المداد ، وإن كانوا لم يقولوا ذلك ، بل أنكروه ؛ كما فرق الله بين الكلمات والمداد في قوله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي ﴾ [الكهف: ١٠٩] ، فإن هؤلاء غلطوا غلطين : غلطاً في مذهبهم ، وغلطاً في الشريعة .

أما الغلط في تصوير مذهبهم ، فكان الواجب أن يقولوا : إن القرآن في المصحف

مثل ما أن العلم والمعاني في الورق، فكما يقال: العلم في هذا الكتاب يقال: الكلام في هذا الكتاب؛ لأن الكلام عندهم هو المعنى القائم بالذات فيصور له المثل بالعلم القائم بالذات لا بالذات نفسها.

وأما الغلط في الشريعة، فيقال لهم: إن القرآن في المصاحف مثل ما أن اسم الله في المصاحف؛ فإن القرآن كلام؛ فهو محفوظ بالقلوب كما يحفظ الكلام بالقلوب، ٣٨٤/١٢ وهو مذكور بالألسنة كما يذكر/الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما أن الكلام يكتب في المصاحف والأوراق، والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة. فمن قال: إن القرآن محفوظ كما أن الله معلوم، وهو متلو كما أن الله مذكور، ومكتوب كما أن الرسول مكتوب - فقد أخطأ القياس والتمثيل بدرجتين:

فإنه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ فإن القرآن لم ينزل على أحد قبل محمد؛ لا لفظه، ولا جميع معانيه، ولكن أنزل الله ذكره والخبر عنه، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه، فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد في زبر الأولين، وهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل. فالله ورسوله معلوم بالقلوب، مذكور بالألسن، مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لمن قبلنا، مذكور لهم، مكتوب عندهم، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه، وأما نحن فنفس القرآن أنزل إلينا، ونفس القرآن مكتوب في مصاحفنا، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون وهو في الصحف المطهرة.

٣٨٥/١٢ ولهذا يجب الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وبين قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ . فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [الطور: ٢، ٣]، فإن الأعمال في الزبر كالرسول والقرآن في زبر الأولين، وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور، فهو كما يكتب الكلام نفسه والصحيفة، فأين هذا من هذا؟

وذلك أن كل شيء فله أربع مراتب في الوجود: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البنان: وجود عيني، وعلمي، ولفظي، ورسمي؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذكر فيها أنه - سبحانه - معطي الوجودين فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، فهذا الوجود العيني، ثم قال: ﴿اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿ [العلق: ٣-٥] ، فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني ، وذكر التعليم بالقلم؛ لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى، فدل بذكره آخر المراتب على أولها؛ لأنه لو ذكر أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق .

وإذا كان كذلك فالقرآن كلام ، والكلام له المرتبة الثالثة ، ليس بينه وبين الورق مرتبة أخرى متوسطة، بل نفس الكلام يثبت في الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . ٣٨٦/١٢﴾ في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿ [البروج: ٢١، ٢٢] وقال: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٤]، وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧] .

وقد يقال: إنه مكتوب فيها، كما يطلق القول أنه فيها، كما قال تعالى: ﴿وَالطُّورِ . وَكُنْتُمْ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣]، وأما الرب - سبحانه - أو رسوله أو غير ذلك من الأعيان فإنما في الصحف اسمه، وهو من الكلام؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وإنما في التوراة كتابته وذكره وصفته واسمه وهي المرتبة الرابعة منه، فكيف يجوز تشبيه كون القرآن أو الكلام في الصحف أو الورق بكون الله أو رسوله أو السماء أو الأرض في الصحف أو الورق؟!

ولو قال قائل: الله أو رسوله في الصحف أو الورق لا تكرر ذلك، إلا مع قرائن تبين المراد، كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَفِي زُبُرٍ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، فإن المراد بذلك ذكره وكتابته. و«الزبر» جمع زبور، الزبور فعول بمعنى مفعول، أي: مزبور، أي: مكتوب، فلفظ الزبور يدل على الكتابة، وهذا مثل ما في الحديث المعروف عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبياً- وفي رواية: متى كتبت نبياً-؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» رواه ٣٨٧/١٢ أحمد^(١) . فهذا الكون هو كتابته وتقديره وهو المرتبة الرابعة، كما تقدم.

فإن هذه المرتبة تتقدم وجود المخلوقات عند الله، وعند من شاء من خلقه، وإن كانت قد تتأخر -أيضاً- فإن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ^(٢)؛ ولهذا قال ابن

(١) أحمد ٥٩/٥، ورواه الترمذي في المناقب (٣٦٠٩) عن أبي هريرة وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) مسلم في القدر (١٦/٢٦٥٣).

عباس في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجن: ٢٩]: إن الله يأمر الملائكة بأن تنسخ من اللوح المحفوظ ما كتبه من القدر ويأمر الحفظة أن تكتب أعمال بني آدم، فتقابل بين النسختين فتكونان سواء. ثم يقول ابن عباس: ألستم قومًا عربًا؟ وهل تكون النسخة إلا من أصل؟

والتقدير والكتابة تكون تفصيلاً بعد جملة. فالله — تعالى — لما قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة لم يظهر ذلك التقدير للملائكة. ولما خلق آدم قبل أن ينفخ فيه الروح أظهر لهم ما قدره، كما يظهر لهم ذلك من كل مولود، كما في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بطن أمه أربعين يوماً نُطْفَةً، ثم يكون عِلْقَةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد» وفي طريق آخر وفي رواية: «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» (١).

فأخبر ﷺ — في هذا الحديث الصحيح — أن الملك يؤمر بكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، بعد خلق جسد ابن آدم وقبل نفخ الروح فيه. فكان ما كتبه الله من نبوة محمد ﷺ — الذي هو سيد ولد آدم — بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه من هذا الجنس، كما في الحديث الآخر الذي في المسند وغيره عن العرياض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لَمُنْجِدٌ في طيئته» (٢) وهذا وأمثاله من وجد الأعيان في الصحف.

وأما وجود الكلام في الصحف فنوع آخر؛ ولهذا حكى ابن قتيبة من مذهب أهل الحديث والسنة: أن القرآن في المصحف حقيقة لا مجازاً، كما يقوله بعض المتكلمة، وإحدى «الجهميات» التي أنكرها أحمد، وأعظمها قول من زعم أن القرآن ليس في الصدور ولا في المصاحف، وأن من قال ذلك فقد قال بقول النصاري، كما حكى له ٣٨٩/١٢ ذلك عن موسى/ابن عقبة الصوري — أحد كتبة الحديث إذ ذاك؛ ليس هو صاحب المغازي؛ فإن ذلك قديم من أصحاب التابعين — فأعظم ذلك أحمد، وذكر النصوص والآثار الواردة وذلك مثل قوله ﷺ: «استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيصاً من صدور الرجال من النعم من عقْلها» (٣)، ومثل قوله: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب» (٤) وغير ذلك.

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في القدر (١/٢٦٤٣).

(٢) أحمد ١٢٧/٤ والطبراني في الكبير (٢٥٢/١٨).

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص ٥٠٧.

وليس الغرض هنا إلا التنبيه اللطيف .

ومن قال: إن هذا شبه قول النصارى، فلم يعرف قول النصارى، ولا قول المسلمين، أو علم وجحد، وذلك أن النصارى تقول: إن الكلمة - وهي جوهر إله عندهم ورب معبود - تدرع^(١) الناسوت واتحد به كاتحاد الماء واللبن، أو حل فيه حلول الماء في الظرف، أو اختلط به اختلاط النار والحديد، والمسلمون لا يقولون: إن القرآن جوهر قائم بنفسه معبود، وإنما هو كلام الله الذي تكلم به، ولا يقولون: اتحد بالبشر.

وأما إطلاق حلوله في المصاحف والصدور، فكثير من المنتسبين إلى السنة الخراسانيين وغيرهم يطلق ذلك، ومنهم من العراقيين وغيرهم من ينفي ذلك ويقول: هو فيه على وجه الظهور لا على وجه الحلول، ومنهم من لا يثبت ولا ينفيه، بل يقول: ٣٩٠/١٢ القرآن في القلوب والمصاحف، لا يقال: هو حال ولا غير حال؛ لما في النفي والإثبات من إيها معنى فاسد، وكما يقول ذلك طوائف من الشاميين وغيرهم، ولا نزاع بينهم أن كلام الله لا يفارق ذات الله، وأنه لا يباينه كلامه ولا شيء من صفاته، بل ليس شيء من صفة موصوف تباين موصوفها وتنتقل إلى غيره، فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه ويتنقل إلى غير؟

ولهذا قال الإمام أحمد: كلام الله من الله، ليس ببائن منه، وقد جاء في الأحاديث والآثار: «أنه منه بدأ، ومنه خرج» ومعنى ذلك: أنه هو المتكلم به لم يخرج من غيره، ولا يقتضى ذلك أنه باينه وانتقل عنه. فقد قال- سبحانه- في حق المخلوقين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله وقد علم الناس جميعهم أن نقل الكلام وتحويله هو معنى تبليغه، كما قال: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُمْ﴾ [الاحزاب: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وقال النبي ﷺ: «نَضَرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فَرُبَّ حَامِلٍ فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٢)، وقال: «بَلِّغُوا عني ولو آية»^(٣).

والكلام في الورق ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف/والعرَض بالجوهر، بحيث ٣٩١/١٢

(١) أي: دخل في الناسوت.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٣٧.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٤٢.

تصير صفة له ، ولا هو فيه كما يكون الجسم في الحيز الذي انتقل إليه من حيز آخر ، ولا هو فيه كمجرد الدليل المحض بمنزلة العالم الذي هو دليل على الصانع ، بل هو قسم آخر معقول بنفسه ، ولا يجب أن يكون لكل موجود نظير يطابقه من كل وجه ، بل الناس بفطرهم يفهمون معنى كلام المتكلم في الصحيفة ، ويعلمون أن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل في غيره ، ويعلمون أن ما في الصحيفة ليس مجرد دليل على معنى في نفسه ابتداء ، بل ما في الصحيفة (١) مطابق للفظه ، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق للخارج ، وقد يعلم ما في نفسه بأدلة طبيعية ، وبحركات إرادية لم يقصد بها الدلالة ، ولا يقول أحد : إن ذلك الكلام للمتكلم مثل كلامه المسموع منه ، فلو كان الكلام إنما سمي بذلك لمجرد الدلالة لشاركه كل دليل . وستتكمّل إن شاء (٢) الله - تعالى - على ذلك .

ولو كان ما في المصحف وجب احترامه لمجرد الدلالة ، وجب احترام كل دليل ، بل الدال على الصانع وصفاته أعظم من الدال على كلامه ، وليست له حرمة كحرمة المصحف ، والدال على المعنى القائم بنفس الإنسان قد يعلم تارة بغير اختياره ، وقد يعلم بأصوات طبيعية ، كالبناء ، وقد يعلم بحركات لم يقصد بها الدلالة ، وقد يعلم بحركات يقصد بها الدلالة كالإشارة ، وقد يعلم باللفظ الذي تقصد به الدلالة .

فصل /

٣٩٢/١٢

وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب «اللفظية» زادوا فيه شرّاً كثيراً؛ إذ قالوا: «القراءة» غير المقروء، و«التلاوة» غير المتلو، و«الكتابة» غير المكتوب ، إنما يعنون بالقراءة أصوات القارئين و بالكتابة مداد الكاتبين ، ويعنون أن هذا غير المعنى القائم بالذات الذي هو كلام الله ، وإنما هو دلالة عليه ، وعبرة عنه ، وليس عندهم إلا قراءة ومقروء ، فلم يبق إلا صوت ، ومداد ، ومعنى قائم بالذات ، ليس ثمّ قرآن غير ذلك .

وأسقطوا حروف كلام الله التي تكلم بها ، وحقيقة معاني القرآن التي في نفس الله - تعالى - وأسقطوا أيضاً معاني القرآن التي في نفوس القارئين والمستمعين؛ فإنه لا ريب أن القرآن الذي نقرؤه فيه حروف ومعاني حروف منطوقة ومسطورة؛ فإذا لم يكن عندهم إلا صوت العبد وحبر المصحف فأين المعاني؟ وأين حروف القرآن التي أنزلها الله؟ وإن كانت

(١) في المطبوعة : «الصحيفة» وهو خطأ .

(٢) في المطبوعة : «إنشاء» وهو خطأ .

عندهم مخلوقة، وكيف يتصور ألا يكون لجميع ما أنزل الله - تعالى - من الكتب إلا معنى واحد، يكون أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً، وتكون هذه أوصافه لا أقسامه؟ فإن هؤلاء ٣٩٣/١٢ يقولون: إن معاني جميع كلام الله معنى واحد، فمعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] هو معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] معنى التوراة هو معنى القرآن والإنجيل. ثم قد يجعلون معاني الكلام كلها الخبر، وقد يجعلون معنى الخبر العلم، ويجعلون العلم بهذا غير العلم بهذا.

ولهذا كان أكثر العقلاء يقولون: فساد هذا معلوم بالاضطرار، ويقولون: الأمر والنهي والخبر صفات إضافية للكلام، وليست هي أنواع الكلام وأقسامه، وكلام الله شأنه أعظم من شأن كلام المخلوقين، والكلام الذي في المصحف هو من هذا القسم الأخير دون الأقسام المتقدمة، فكيف إذا كان لذلك اللفظ من الخصائص ما قيل فيه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

لكن من الأشياء ما يدل على غيره بقصد منه، ومنها ما يدل على غيره بغيره قصد منه للدلالة كالجامدات، فإن فيها مقاصد غير دلالتها على الخالق، ومن الأشياء ما لا يقصد به إلا الدلالة، بحيث إذا ذكر ما يقصد بذكره ذكر مدلوله كالاسم مع مسماه، فالمقصود من الاسم هو المسمى؛ فلهذا إذا ذكر الاسم كان المقصود به المسمى، وكذلك «اللفظ» مع المعنى الذي هو مدلوله، وكذلك «الخط» مع اللفظ، فالمقصود من الخط إنما هو اللفظ ٣٩٤/١٢ والمقصود من الحروف المرسومة هو الحروف المنطوقة؛ ولهذا كان لفظ الحرف مقولاً عليهما جميعاً. فإذا قيل: الكلام من الكتاب عرف أن المقصود مما في الكتاب هو الكلام دون غيره؛ ولهذا كان لهذا من الاختصاص بالحرمة ما ليس لما يقصد منه الدلالة وغير الدلالة، والله أعلم.

فصل

وصار أولئك الذين غلطوا مذهب «اللفظية المثبتة»، الذين^(١) يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، ويقولون: «التلاوة» هي المتلو، و«الكتابة» هي المكتوب، وما عندهم من القرآن إلا ما توهموا من الحروف والأصوات، يلتزم أحدهم: أن الصوت القديم يسمع من القارئ، ويوهمون المخالف لهم أن عين الصوت المسموع من العبد هو عين الصوت الذي تكلم الله به، وينكرون معاني حقائق القرآن أن تكون من كلام الله، ولا يجعلون

(١) في المطبوعة: «الذي» والصواب ما أثبتناه.

المعنى من كلام الله، وكان السلف يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، والقرآن حيث تصرف فهو كلام الله غير مخلوق.

٣٩٥/١٢ واللفظية المبتدعة المثبتة، الذين أنكر عليهم الإمام أحمد وغيره، إنما قالوا: لفظنا به غير مخلوق، ولم يقولوا: قديم. فجاءت المغلطة لمذهبهم، فقالوا: لفظنا به قديم، ولفظنا به أصواتنا، فأصواتنا به قديمة، والإمام أحمد وسائر الأئمة من أصحابه، الذين صحبوه وغيرهم ومن بعدهم من الأئمة، ينكرون هذه المراتب الأربع؛ فإنهم ينكرون أن يقال: لفظي به غير مخلوق، فكيف لفظي به قديم؟ فكيف صوتي به غير مخلوق؟ فكيف صوتي به قديم؟ أو بعض الصوت المسموع قديم؟ ونحو ذلك.

فصل

ومن تأمل نصوص الإمام أحمد في هذا الباب، وجدها من أسد الكلام وأتم البيان، ووجد كل طائفة منتسبة إلى السنة قد تمكست منها بما تمسكت، ثم قد يخفى عليها من السنة في موضع آخر ما ظهر لبعضها فتكره.

ومنشأ النزاع بين أهل الأرض، والاضطراب العظيم الذي لا يكاد ينضبط في هذا الباب، يعود إلى أصليين: مسألة تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه، ومسألة تكلم العباد بكلام الله.

٣٩٦/١٢ / وسبب ذلك أن التكلم والتكليم له مراتب ودرجات، وكذلك تبليغ المبلغ لكلام غيره له وجوه وصفات، ومن الناس من يدرك من هذه الدرجات والصفات بعضها، وربما لم يدرك إلا أدهاها، ثم يكذب بأعلاها، فيصيرون مؤمنين ببعض الرسالة، كافرين ببعضها، ويصير كل من الطائفتين مصدقة بما أدركته، مكذبة بما مع الآخرين من الحق.

وقد بين الله في كتابه وسنة رسوله ذلك، فقال: تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ففي هذه الآية خص بالتكليم بعضهم ، وقد صرح في الآية الأخرى بأنه كلم موسى تكليماً ، واستفاضت الآثار بتخصيص موسى بالتكليم ، فهذا التكليم الذي خص به موسى على نوح وعيسى ونحوهما ، ليس هو/ التكليم العام الذي قال فيه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] ، فإن هذه الآية قد جمع فيها جميع درجات التكليم ، كما ذكر ذلك السلف.

فروينا في كتاب «الإبانة» لأبي نصر السجزي ، وكتاب البيهقي ، وغيرهما عن عقبة ، قال : سئل ابن شهاب عن هذه الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ ، قال ابن شهاب : نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر ، فكلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب ، والوحي ما يوحى الله إلى النبي من أنبيائه - عليهم السلام - ليثبت الله - عز وجل - ما أراد من وحيه في قلب النبي ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأمرهم بكتابتها ، ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً ، ويبينونه لهم ؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ، ويبلغوهم إياه ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحياً في قلب من يشاء من رسله .

قلت : فالأول : الوحي ، وهو الإعلام السريع الخفي ؛ إما في اليقظة/ وإما في المنام ؛ ٣٩٨/١٢ فإن رؤيا الأنبياء وحي ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في الصحاح^(١) ، وقال عبادة بن الصامت - ويروي مرفوعاً - : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام^(٢) .

وكذلك في «اليقظة» ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم مُحَدِّثُونَ ، فإن يكن في أمتي فَعَمْرُ » ، وفي رواية في الصحيح : «مكلمون»^(٣) ، وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِثِ أَنْ آمِنُوا بِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١] ، وقال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧] ، بل قد قال تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] ، وقال تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ

(١) البخاري في الوضوء (١٣٨) وفي التعبير (٦٩٨٣) .

(٢) ابن أبي عاصم في السنة ٢١٣/١ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٧/٧ وقال : «رواه الطبراني ، وفيه من لم أعرفه» .

(٣) البخاري في الأنبياء (٣٤٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٨/٢٣) .

الْقَلْبُ ﴿[النحل: ٦٨]﴾.

فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء، ويكون يقظة، ومناماً، وقد يكون بصوت هاتف، يكون الصوت في نفس الإنسان، ليس خارجاً عن نفسه يقظة ومناماً، كما قد يكون النور الذي يراه أيضاً في نفسه.

فهذه الدرجة من الوحي - التي تكون في نفسه من غير أن يسمع صوت ملك - في أدنى المراتب وآخرها، وهي أولها باعتبار السالك، وهي التي أدركتها عقول الإلهيين من فلاسفة الإسلام الذين فيهم إسلام وصبوء^(١)، فأمنوا ببعض صفات الأنبياء والرسول - ٣٩٩/١٢ وهو قدر مشترك بينهم وبين غيرهم - ولكن كفروا ببعض، فتجد بعض هؤلاء يزعم أن النبوة مكتسبة، أو أنه قد استغنى عن الرسول، أو أن غير الرسول قد يكون أفضل منه، وقد يزعمون: أن كلام الله لموسى كان من هذا النمط، وأنه إنما كلمه من سماء عقله، وأن الصوت الذي سمعه كان في نفسه، أو أنه سمع المعنى فائضاً من العقل الفعال، أو أن أحدهم قد يصل إلى مقام موسى.

ومنهم من يزعم أنه يرتفع فوق موسى، ويقولون: إن موسى سمع الكلام بواسطة ما في نفسه من الأصوات، ونحن نسمعه مجرداً عن ذلك. ومن هؤلاء من يزعم أن جبريل الذي نزل على محمد ﷺ هو الخيال النوراني، الذي يتمثل في نفسه، كما يتمثل في نفس النائم، ويزعمون أن القرآن أخذه محمد عن هذا الخيال المسمى بجبريل عندهم؛ ولهذا قال ابن عربي - صاحب «الفصوص» و«الفتوحات المكية»: إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول. وزعم أن مقام النبوة دون الولاية، وفوق الرسالة، فإن محمداً - بزعمهم الكاذب - يأخذ عن هذا الخيال النفساني - الذي سماه ملكاً - وهو يأخذ عن العقل المجرد الذي أخذ منه هذا الخيال.

ثم هؤلاء لا يثبتون لله كلاماً اتصف به في الحقيقة، ولا يثبتون أنه قصد إفهام أحد ١٠/١٢ بعينه، بل قد يقولون: لا يعلم أحداً بعينه، إذ علمه وقصده عندهم إذا أثبتوه لم يثبتوه إلا كلياً لا يعين أحداً، بناء على أنه يعلم الكلليات ولا يعلم الجزئيات إلا على وجه كلي، وقد يقرب أو يقرب من مذهبهم من قال باسترسال علمه على أعيان الأعراض، وهذا الكلام - مع أنه كفر باتفاق المسلمين - فقد وقع في كثير منه من له فضل في الكلام والتصوف ونحو ذلك، ولولا أنني أكره التعيين في هذا الجواب لعينت أكابر من المتأخرين.

وقد يكون الصوت الذي يسمعه خارجاً عن نفسه من جهة الحق - تعالى - على لسان

(١) أي: خروج من الدين. انظر: القاموس، مادة «صبأ».

ملك من ملائكته أو غير ملك، وهو الذي أدركته الجهمية من المعتزلة ونحوهم، واعتقدوا أنه ليس لله تكليم إلا ذلك، وهو لا يخرج عن قسم الوحي الذي هو أحد أقسام التكليم، لو قسم التكليم بالرسول، وهو القسم الثاني، حيث قال تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] فهذا إحياء الرسول، وهو غير الوحي الأول من الله الذي هو أحد أقسام التكليم العام.

وإحياء الرسول - أيضاً - أنواع ؛ ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - : أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ قال : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» . قالت عائشة - رضي الله عنها - : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(١). ٤٠١/١٢

فأخبر ﷺ أن نزول الملك عليه تارة يكون في الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس، وتارة يكون متمثلاً بصورة رجل يكلمه، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي، كما تمثل لمريم بشراً سوياً، وكما جاءت الملائكة لإبراهيم وللوط في صورة الآدميين، كما أخبر الله بذلك في غير موضع، وقد سمى الله كلا النوعين إلقاء الملك، وخطابه وحياً؛ لما في ذلك من الخفاء؛ فإنه إذا رآه يحتاج أن يعلم أنه ملك، وإذا جاء في مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما في الصوت.

و القسم الثالث: التكليم من وراء حجاب، كما كلم موسى عليه السلام؛ ولهذا سمى الله هذا «نداء» و«نجا» فقال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾ [مريم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ رَبُّكَ فَلَخَّعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْرِئِ طَوًى. وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١١ - ١٣]. وهذا التكليم مختص ببعض الرسل، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَلَّتِنَا وَلَكَّمْهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال بعد ذكر إحيائه إلى الأنبياء: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤] فمن جعل هذا من جنس الوحي الأول - كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة / ومن تكلم في ٤٠٢/١٢ التصوف على طريقهم كما في «مشكاة الأنوار» وكما في كتاب «خلع النعلين» وكما في كلام الاتحادية كصاحب «الفصوص» وأمثاله - فضلاله ومخالفته للكتاب والسنة والإجماع بل وصريح المعقول ، من أبين الأمور.

(١) البخاري في بدء الوحي (٢) ، ومسلم في الفضائل (٨٧/٢٣٣٣)، وأحمد ٦/١٥٨ ، ١٦٣ .

وقوله : « يفصم » : أي يقلع . انظر : النهاية ٣/ ٤٥٢ . و« ليتفصد » : أي يسيل . انظر : النهاية ٣/ ٤٥٠ .

وكذلك من زعم أن تكليم الله لموسى إنما هو من جنس الإلهام والوحي، وأن الواحد منا قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى - كما يوجد مثل ذلك في كلام طائفة من فروخ الجهمية الكلابية ونحوهم - فهذا أيضاً من أعظم الناس ضلالاً.

وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام في كتاب الله فيهما عموم وخصوص، فإذا كان أحدهما عاماً اندرج فيه الآخر، كما اندرج الوحي في التكليم العام في هذه الآية، واندرج التكليم في الوحي العام، حيث ذل تعالى: ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] وأما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي، الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل، كما قال تعالى لزكريا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ أَنَسَ ثَلَاثًا لَّيْسَ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: ١١]. فالإيحاء ليس بتكليم، ولا يناقض الكلام، وقوله تعالى - في الآية الأخرى - : ﴿أَلَا تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] إن جعل/معنى الاستثناء منقطعاً اتفق معنى التكليم في الآيتين، وإن جعل متصلاً كان التكليم مثل التكليم في سورة الشورى، وهو التكليم العام، وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليماً خاصاً كاملاً بقوله: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم، وكلمهم التكليم العام، وبأنه فرق بين تكليمه وبين الإيحاء إلى النبيين، وكذا التكليم بالمصدر، وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسمًا غير إيحاؤه، وبما تواتر عن النبي ﷺ وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه، وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى، كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وغلطت هنا الطائفة الثالثة - الكلابية - فاعتقدت أنه إنما أوحى إلى موسى - عليه السلام - معنى مجرداً عن صوت.

واختلفت، هل يسمع ذلك؟ فقال بعضهم: يسمع ذلك المعنى بلطفة خلقها فيه، قالوا: إن السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس معان تتعلق بكل موجود، كما قال ذلك الأشعري، وطائفة. وقال بعضهم: لم يسمع موسى كلام الله، فإنه عنده معنى، والمعنى لا يسمع، كما قال ذلك القاضي أبو بكر وطائفة.

٤٠٤/١٢ وهذا الذي أثبتوه في جنس الوحي العام الذي فرق الله - عز وجل - بينه وبين تكليمه لموسى - عليه السلام - حيث قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، وفرق بين إيحاؤه وبين تكليمه من وراء حجاب حيث قال: ﴿إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]،

وحيث فرق بين الرسول المكلم وغيره بقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].
 لكن هؤلاء يثبتون أن لله كلاماً هو معنى قائم بنفسه هو متكلم به، وبهذا صاروا
 خيراً ممن لا يثبت له كلاماً إلا ما أوحى في نفس النبي من المعنى، أو سمعه من
 الصوت المحدث، ولكن لفرط ردهم على هؤلاء زعموا أنه لا يكون كلاماً لله بحال إلا
 ما قام به؛ فإنه لا يقوم إلا المعنى. فأنكروا أن تكون الحروف كلام الله، وأن يكون
 القرآن العربي كلام الله.

وجاءت الطائفة الرابعة فردوا على هؤلاء دعواهم: أن يكون الكلام مجرد المعنى،
 فزعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف أو الصوت فقط، وأن المعاني المجردة لا تسمى
 كلاماً أصلاً، وليس كذلك، بل الكلام المطلق اسم للمعاني والحروف جميعاً، وقد يسمى
 أحدهما كلاماً مع التقييد كما يقول النحاة: الكلام: اسم، وفعل، وحرف.
 فالمقسوم هنا اللفظ، وكما قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على
 التفكير، وبالتفكير على التدبر، ويناطقون القلوب حتى نطقت. وكما قال/الجنيد: ٤٠٥/١٢
 التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب. فجعلوا للقلب نطقاً، وقوة، كما جعل
 النبي ﷺ للنفس حديثاً في قوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها» ثم
 قال:- ما لم تتكلم به، أو تعمل به» (١).

فعلم أن «الكلام المطلق» هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى، وإن كان مع التقييد
 قد يقع بغير ذلك، حتى إنهم قد يسمون كل إفهام ودلالة يقصدها الدال قولاً، سواء
 كانت باللفظ أو الإشارة، أو العقد - عقد الأصابع - وقد يسمون أيضاً الدلالة قولاً،
 وإن لم تكن بقصد من الدال مثل دلالة الجامدات كما يقولون: قالت: «أوسع بطنه».

وامتلأت الحوض وقال قطني قطني رويداً قد ملأت بطني

وقالت له العينان سمعا وطاعة

ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم: سل الأرض من فجر أنهارك،
 وسقى ثمارك، وغرس أشجارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً، ومنه قولهم:

تخبرني العينان ما القلب كاتم ولا خير في الحيا والنظر الشزر (٢)

(١) البخارى فى الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم فى الإيمان (٢٠١/١٢٧، ٢٠٢).

(٢) النظر الشزر: نظر شزر: فيه إعراض كنظر المعادي المبغض، وقيل: هو نظر على غير استواء بمؤخر العين،
 وقيل: هو النظر عن يمين وشمال. انظر: لسان العرب، مادة «شزر».

سألت الدار تخبرني / عن الأحباب ما فعلوا

فقلت لي أناخ القوم أياما وقد رحلوا

وقد يسمى شهادة ، وقد زعم طائفة أن ما ذكر في القرآن من تسييح المخلوقات هو من هذا الباب، وهو دلالتها على الخالق تعالى ، ولكن الصواب أن ثمّ تسييحاً آخر زائداً على ما فيها من الدلالة ، كما قد سبق في موضع آخر، لكن هذا كله يكون مع التقييد والقرينة؛ ولهذا يصح سلب الكلام والقول عن هذه الأشياء كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] وقال الخليل - عليه السلام - : ﴿فَتَشَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَفِقُونَ . وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ فِعْزُهُمْ﴾ [المرسلات: ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمِعُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وهذا معلوم بالضرورة والتواتر، وهو سلب القول والكلام عن الحي الساكت والعاجز، فكيف عن الموت؟! .

وقد علم أن الله - تعالى - موصوف بغاية صفات الكمال، وأن الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام في غاية الكمال، فمن لم يجعل كلامه إلا مجرد معنى ، أو مجرد حروف، أو مجرد حروف وأصوات، فما قدر الله حق قدره، ومن لم يجعل كلامه ٤٠٧/١٢ إلا ما يقوم/بغيره فقد سلبه الكمال، وشبهه بالموت، وكذلك من لم يجعله يتكلم بمشيئته، أو جعله يتكلم بمشيئته وقدرته ولكن جعل الكلام من جملة المخلوقات وجعله يوصف بمخلوقاته، أو جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلماً، فكل من هذه الأقوال، وإن كان فيه إثبات بعض الحق، ففيه رد لبعض الحق ونقص لما يستحقه الله من الكمال.

فصل

وكل من هؤلاء أدرك من درجات الكلام وأنواعه بعض الحق .

وكذلك الأصل الثاني - وهو تكلمنا بكلام الله - فإن الكتاب والسنة والإجماع دل على أن هذا الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله لا كلام غيره، ولو قال أحد : إن حرفاً منه، أو معنى ليس هو من كلام الله، أو أنه كلام غير الله وسمع ذلك منه النبي ﷺ، أو أحد من أصحابه لعلم بالاضطرار أنهم كانوا يقابلونه بما يقابلون أهل الجحود والضلال، بل قد أجمع الخلائق على نحو ذلك في كل كلام، فجميع الخلق الذين يعلمون أن قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

/ من شعر ليبيد، يعلمون أن هذا كلام ليبيد وأن قوله :

٤٠٨/١٢

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

هو من كلام امرئ القيس ، مع علمهم أنهم إنما سمعوها من غيره بصوت ذلك الغير، فجاء المؤمنون ببعض الحق دون بعض فقالوا: ليس هذا ، أو لا نسمع إلا صوت العبد ولفظه، ثم قال النفاة: ولفظ العبد محدث، وليس هو كلام الله، فهذا المسموع محدث، وليس هو كلام الله. وقالت المثبتة : بل هذا كلام الله وليس إلا لفظه أو صوته، فيكون لفظه أو صوته كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، أو قديم ، فيكون لفظه أو صوته غير مخلوق أو قديم.

وكل من الفريقين قد علم الناس بالضرورة من دين الأمة، بل وبالعقل أنه مخطئ في بعض ما قاله ، مبتدع فيه؛ ولهذا أنكر الأئمة ذلك، وإذا رجع أحدهم إلى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع فيقال: هذا كلام زيد، وبين أن يقول : هذا صوت زيد، ويجد فطرته تصدق بالأول وتكذب بالثاني، قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ : «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١).

وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة، من أن الكلام/كلام الباري، والصوت ٤٠٩/١٢ صوت القارئ؛ ولهذا قال : الإمام أحمد لأبي طالب لما قرأ عليه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [سورة الإخلاص]، وقال له : هذا غير مخلوق، فحكى عنه أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال له : أنا قلت لك : لفظي غير مخلوق؟ قال : لا . ولكن قرأت عليك :

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣ .

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقلت: هذا غير مخلوق.

فبين أحمد الفرق بين أن يقول: هذا الكلام غير مخلوق، أو يقول: لفظ هذا المتكلم غير مخلوق؛ لأن قوله: لفظي، مجمل، يدخل فيه فعله، ويدخل فيه صوته. فإذا قيل: لفظي، أو تلاوتي، أو قراءتي غير مخلوقة، أو هي المتلو أشعر ذلك أن فعل العبد وصوته قديم، وأن ما قام به من المعنى والصوت هو عين ما قام بالله من المعنى والصوت، وإذا قال: لفظي بالقرآن، أو تلاوتي للقرآن، أو لفظ القرآن، أو تلاوته مخلوقة، أو التلاوة غير المتلو، أو القراءة غير المقروء أفهم ذلك أن حروف القرآن ليست من كلام الله بحال، وأن نصف القرآن كلام الله ونصفه كلام غيره، وأفهم ذلك أن قراءة الله للقرآن مباينة لمقروئه، وتلاوته للقرآن مباينة لمتلوه، وأن قراءة العبد للقرآن مباينة لمقروء العبد، وتلاوته له مباينة لمتلوه، وأفهم ذلك أن ما نزل إلينا ليس هو كلام الله؛ لأن المقروء والمتلو هو كلام الله، والمغايرة عند هؤلاء تقتضى المباينة، فما باين كلامه لم يكن كلاماً له، فلا يكون هذا الذي أنزله كلامه.

١٢/١٠ / ولما كان الكلام إنما يكون بحركة وفعل تنشأ عنه حروف ومعان، صار الكلام يدخل في اسم الفعل والعمل، تارة باعتبار الحركة والفعل، ويخرج عنه تارة باعتبار الحروف والمعاني؛ ولهذا يجيء في الكتاب والسنة قسماً منه تارة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [المجادلة: ٧] وقسماً له أخرى كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

ولهذا تنازع العلماء فيما إذا حلف لا يعمل عملاً في هذا المكان، ولم يكن له نية ولا سبب يفيد، هل يحنث بالكلام؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره، وذكرهما روايتين عن أحمد؛ ولهذا قال أبو محمد بن قتيبة في كتابه الذي ألفه في بيان «اللفظ»: أن القراءة قرآن وعمل لا يتميز أحدهما عن الآخر، فمن قال: إنهما قرآن فهو صادق، ومن حلف أنها عمل فهو بار، وخطأ من أطلق أن القراءة مخلوقة، وخطأ من زعم أنها غير مخلوقة، ونسبهما جميعاً إلى قلة العلم، وقصور الفهم؛ فإن هذه المسألة خفيت على الطائفتين لغموضها؛ فإن إحدى الطائفتين وجدت القراءة تسمى قرآناً فنفت الخلق عنها، والأخرى وجدت القراءة فعلاً يثاب صاحبه عليه فأثبتت حدثه.

١٢/١١ / قلت: والخطأ في هذا الأصل في طرفين، كما أنه في الأصل الأول في طرفين. ففي الأصل الأول من قال: إنه ليس له كلام قائم به ومن قال: ليس كلامه إلا معنى مجرد أو صوت مجرد. وفي هذا الأصل من قال: كلامه لا يقوله غيره. أو لا يسمع من غيره،

ومن قال كلامه إذا أبلغه غيره وأداه فحاله كحاله إذا سمعه منه وتلاه، بل كلامه يقوله رسله وعباده، ويتكلمون به، ويتلونه، ويقرؤونه، فهو كلامه حيث تصرف، وحيث تلى، وحيث كتب، وكلامه ليس بمخلوق حيث تصرف، وهو مع هذا فليس حاله إذا قرأه العباد وكتبوه كحاله إذا قرأه الله وسمعه منه، ولا من يسمعه من القارئ بمنزلة موسى بن عمران الذي سمع كلام رب العالمين منه، كما جاء في الحديث: «إذا سمع الخلائق القرآن يوم القيامة من الله فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك»، بل ولا تلاوة الرسول وسمعه منه كتلاوة غيره وسمعه منه، بل ولا تلاوة بعض الناس والسماع منه كتلاوة بعض الناس والسماع منه، وهو كلام الله - تعالى - الذي ليس بمخلوق في جميع أحواله، وإن اختلفت أحواله.

وبما يجب أن يعرف أن قول الله ورسوله والمؤمنين لما أنزله الله، هذا كلام الله، بل وقول الناس لما يسمعون من كلام الناس، هذا كلام فلان، كقولهم لمثل قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) هذا كلام رسول الله ﷺ، و لمثل قوله: ٤١٢/١٢

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هذا شعر لبيد.

فليس قولهم: هذا هو هذا؛ لأنه مساو له في النوع، كما يقال: هذا السواد هو هذا السواد؛ فإن هذا يقولونه لما اتفق من الكلامين، والعلمين؛ والقدرتين، والشخصين. ويقولون في مثل ذلك: وَقَعَ الخاطر على الخاطر، كوقع الحافر على الحافر. وفي الحقيقة فهو إنما هو مثله، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وهم يقولون: هذا هو هذا مع اتفاقهما في الصفات، وقد يكون مع اختلافهما اختلافاً غير مقصود، كما أنهم يقولون للعين الواحدة إذا اختلفت صفتها: هذه عين هذه، ولا هو أيضاً بمنزلة من تمثل بكلام لغيره، سواء كان نظماً أو نثراً مثل أن يتمثل الرجل بقول لغيره فيصير متكلماً به متشبهاً بالمتكلم به أولاً، وهذا مثل أن نقول قولاً قاله غيرنا موافقين لذلك القائل في صحة القول.

ولهذا قال الفقهاء: إن من قال ما يوافق لفظ القرآن على وجه الذكر والدعاء، مثل ٤١٣/١٢ أن يقول عند ابتداء الفعل: بسم الله، وعند الأكل: الحمد لله، ونحو ذلك لم يكن قارئاً، وجاز له ذلك مع الجنابة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه مسلم^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢٠.

فجعلها أفضل الكلام بعد القرآن، وأخبر أنها من القرآن فهي من القرآن. وإذا قالها على وجه الذكر لم يكن قارئاً.

لكن هذا الوجه قد يضاف فيه الكلام إلى الأول، وإن لم يقصد الثاني تبليغ كلامه؛ لأنه هو الذي أنشأ الحقيقة ابتداءً، والثاني قالها احتذاءً، فإذا تمثل الرجل بقول الشاعر وإن لم يقصد تبليغ شعره:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قليل له : هذا كلام لبيد، لكن الثاني قد لا يقصد إلا أن يتكلم به ابتداءً؛ لاعتقاده صحة معناه.

ومن هنا تنازع أهل العلم في «حروف الهجاء» وفي «الأسماء» المنزلة في القرآن وفي «كلمات» في القرآن، إذا تمثل الرجل بها ولم يقصد بها القراءة، هل يقال: ليست مخلوقة لأنها من القرآن؟ أو يقال: إذا لم يقصد بها القرآن وكلام الله فليست من كلام ١٤/١٢ الله، فتكون/مخلوقة، على قولين لأهل السنة.

وأما الإنسان إذا قال ما هو كلام لغيره يقصد تبليغه وتأديته، أو التكلم به معتقداً أنه إنما قصد التكلم بكلام غيره، الذي هو الأمر بأمره، المخبر بخبره، المتكلم ابتداءً بحروفه ومعانيه - فهنا الكلام كلام الأول قطعاً، ليس كلاماً للثاني بوجه من الوجوه، وإنما وصل إلى الناس بواسطة الثاني.

وليس للكلام نظير من كل وجه فيشتبه به، وإنما هو أمر معقول بنفسه؛ فإن كلام زيد المخلوق وإن كان قد عدم مثلاً، وعدم أيضاً ما قام به من الصفة، فإذا رواه عنه راوٍ آخر، وقلنا: هذا كلام زيد، فإنما نشير إلى الحقيقة التي ابتدأ بها زيد واتصف بها، وهذه هي تلك بعينها؛ أعني الحقيقة الصورية؛ لا المادة؛ فإن الصوت المطلق بالنسبة إلى الحروف الصوتية المقطعة بمنزلة المادة والصورة، وهو لم يكن كلاماً للمتكلم الأول؛ لأجل الصوت المطلق الذي يشترك فيه صوت الآدميين والبهائم والعجم والجمادات، وإنما هو لأجل الصورة التي ألفها زيد مع تأليفه لمعانيها.

وجود هذه الصورة في المادتين ليس بمنزلة وجود الأنواع والأشخاص في الأعيان، ١٥/١٢ ولا بمنزلة وجود الأعراض في الجواهر، ولا هو/بمنزلة سائر الصور في موادها الجوهرية، بل هو حقيقة قائمة بنفسها، وليس لكل حقيقة نظير مطابق من كل وجه.

وإذا قالوا: هذا شعر لبيد، فإنما يشيرون إلى اللفظ والمعنى جميعاً. ثم مع هذا لو قال القائل: أنا أنشأت لفظ هذا الشعر، أو هذا اللفظ من إنشائي، أو لفظي بهذا الشعر من

إنشائي، لكذبه الناس كلهم، وقالوا له : بل أنت رويته، وأنشدته. أما أن تكون أحدثت لفظه، أو هو محدث البارحة بلفظك، أو لفظك به محدث البارحة فكذب؛ لأن لفظ هذا الشعر موجود من دهر طويل، وإن كنت أنت أديته بحركتك وصوتك، فالحركة والصوت أمر طبيعي يشركك فيه الحيوان، ناطقه وأعجمه، فليس لك فيه حظ من حيث هو كلام، ولا من حيث هو كلام ذلك الشاعر؛ إذ كونه كلاماً، أو كلاماً لمتكلم هو مما يختص به المتكلم، إنما أديته بآلة يشركك فيها العجماءات، والجماادات، لكن الحمد لله الذي جعل لك من العقل والتمييز ما تهتدي به ويسير به لسانك ولم يجعل ذلك للعجماءات، فجعل فعلك وصفتك تعينك على عقل الكلام والتكلم به، ولم يجعل فعل العجم وصفتها كذلك.

فإذا كان هذا في مخلوق بَلَّغَ كلام مخلوق مثله، فكيف الظن بكلام الخالق- جل جلاله- الذي فَضَّلَهُ على سائر الكلام كفضل الله على خلقه؟!

/ فإن له شأنًا آخر يختص به لا يشبه بتبليغ سائر الكلام، كما أنه في نفسه لا يشبه ٤١٦/١٢ سائر الكلام، وليس له مثل يقدر عليه أحد من الخلق؛ بخلاف سائر ما يبلغ من كلام البشر؛ فإن مثله مقدور، فلا يجوز إضافة هذا الكلام المسموع الذي هو القرآن إلى غير الله بوجه من الوجوه؛ إلا على سبيل التبليغ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، والله - سبحانه قد خاطبنا به بواسطة الرسول، كما تقدم.

وقد بسطت الكلام في هذه المواضع، التي هي محارات العقول، التي اضطربت فيها الخلائق في الموضوع الذي يليق به؛ فإن هذا جواب قتيلا يليق به إلا التنبيه على جمل الأمور، وإثبات وجوب نسبة الكلام إلى من بدأ منه لفظه ومعناه دون من بلغه عنه وأداه، وأنه كلام المتصف به مبتدئاً حقيقة، سواء سمع منه أو ممن بلغه وأداه بفعله وصوته، مع العلم بأن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة، وأن قول الله ورسوله والمؤمنين: هذا كلام الله، وما بين اللوحين كلام الله حقيقة لا ريب فيه، وأن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه ويحفظونه هو كلام الله - تعالى - وكلام الله حيث تصرف غير مخلوق. وأما ما اقترن بتبليغه وقراءته من أفعال العباد، وصفاتهم فإنه مخلوق.

لكن هذا الموضوع فيه اشتباه وإشكال لا تحتل تحريره وبسطه هذه الفتوى؛ لأن صاحبها مستوفز عجلان يريد أخذها؛ ولأن في ذلك من الدقة والغموض ما يحتاج إلى ٤١٧/١٢ ذكر النصوص، وبيان معانيها، وضرب الأمثال التي توضح حقيقة الأمر، وليس هذا موضعه.

بل الذي يعلم من حيث الجملة ، أن الإمام أحمد والأئمة الكبار الذين لهم في الأمة لسان صدق عام، لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب، بل كان بعضهم أعظم علماً به وقياماً بواجبه من بعض. وقد غلط في بعض ذلك من أكابر الناس جماعات. وقد رد الإمام أحمد عامة البدع في هذا الباب هو والأئمة.

فأول ما ابتدع الجهمية القول بخلق القرآن و نفي الصفات، فأنكرها من كان في ذلك الوقت من التابعين ثم تابعي التابعين ومن بعدهم من الأئمة وكَفَرُوا قائلها. ثم ابتدع بعض أهل الحديث والكلام- الذين ناظروا الجهمية - القول بأن القرآن المنزل مخلوق، أو أنه ليس بكلام الله، أو أنه ليس في المصاحف ولا في الصدور، وأنكر بعضهم أن تكون حروف القرآن كلام الله، أو أن يكون الله تكلم بالصوت، وأنكر الإمام أحمد وأئمة وقته ذلك.

وقابلهم قوم من أهل الكلام والحديث، فزعموا أن ألفاظ العباد وأصوات العباد غير مخلوقة، أو ادعوا أن بعض أفعال العباد أو صفاتهم غير مخلوقة، أو أن ما يسمع من الناس من القرآن هو مثل ما يسمع/من الله-تعالى - من كل وجه، ونحو ذلك. فأنكر الإمام أحمد وعامة أئمة وقته وأصحابه وغيرهم من العلماء ذلك.

وإنكار جميع هذه البدع وردها موجود عن الإمام أحمد وغيره من الأئمة في الكتب الثابتة، مثل كتاب «السنة» للخلال، و«الإبانة» لابن بطة، و كتب «المحنة» التي رواها حنبل وصالح، وكتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد، و«السنة» للالكائي، و «السنة» لابن أبي حاتم وما شاء الله من الكتب.

فأما الرد على الجهمية القائلين بنفي الصفات وخلق القرآن، ففي كلام التابعين وتابعيهم والأئمة المشاهير من ذلك شيء كثير، وفي «مسألة القرآن» من ذلك آثار كثيرة جداً. مثل ما روى ابن أبي حاتم وابن شاهين واللالكائي وغيرهم من غير وجه عن علي ابن أبي طالب- رضي الله عنه - أنه قيل له يوم صفين: حكمت رجلين ، فقال: ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن . وعن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن اغفر له، فوثب إليه ابن عباس فقال له : مه! القرآن منه. وفي رواية : القرآن كلام الله، وليس بمربوب، منه خرج، وإليه يعود. وعن عبد الله بن مسعود قال: من حلف بالقرآن فعلية بكل آية كفارة، فمن كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع.

٤١٩/١٢ / ومن المستفيض عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار - وربما وقفه بعضهم على

سفيان والأول هو المشهور- قال: أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ، وإليه يعود، ومشايخ عمرو من لقي عمرو من الصحابة والتابعين. وعن علي بن الحسين زين العابدين، وابنه جعفر بن محمد: ليس القرآن بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله.

ومثل هذا مأثور عن الحسن البصري، وأيوب السخيتاني، وحماد بن أبي سليمان، وابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، وابن أبي ذئب، وابن الماجشون، والأوزاعي ، والشافعي، وأبي بكر بن عياش، وهُشَيْمٌ، وعلي بن عاصم ، وعبد الله بن المبارك، وأبي إسحاق الفزاري، ووَكَيْع بن الجراح ، والوليد بن مسلم، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد القَطَّان^(١)، ومعاذ بن معاذ، وأبي يوسف ، ومحمد، والإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبشر بن الحارث^(٢)، ومعروف الكرخي، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي ثور، والبخاري ، ومسلم، وأبي زرعة ، وأبي حاتم، ومن لا يحصى كثرة.

قال أبو القاسم اللالكائي - وقد سمي علماء القرون الفاضلة ومن يليهم، الذين نقل عنهم في كتابه «أن القرآن كلام الله غير مخلوق»:- فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً من التابعين، وأتباع التابعين، والأئمة/المرضىين - سوى الصحابة - على اختلاف الأعصار ٤٢٠/١٢ ومضي السنين والأعوام، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتمذهبوا بمذاهبهم، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماؤهم ألوفاً كثيرة، فنقلت عن هؤلاء عصرًا بعد عصر لا ينكر عليهم المنكر، ومن أنكر قولهم استتابوه، أو أمروا بقتله، أو نفيه، أو صلبه. قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال : القرآن مخلوق، الجعد بن درهم ، ثم الجهم بن صفوان ، وكلاهما قتله المسلمون، ومن أفتى بقتل هؤلاء: مالك بن أنس، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وسفيان بن عيينة، وأبو جعفر المنصور الخليفة، ومعتز بن سليمان^(٣)، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، ومعاذ بن معاذ، ووَكَيْع بن الجراح ، وأبوه، وعبد الله بن داود الحَرِّيبي، وبشر بن

(١) هو أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي الأحول الحافظ، وثقه ابن حبان والعجلي وأبو زرعة والنسائي . قال عنه ابن سعد: «كان ثقة مأمونا رفيعا حجة». ولد سنة ١٢٠هـ ومات سنة ١٩٨هـ . (تهذيب التهذيب ٢١٦/١١-٢١٩).

(٢) هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال المروزي الزاهد المعروف بالشافعي، قال عنه أبو حاتم: «ثقة رضي» ، وثقه الدارقطني ومسلمة ، مات ببغداد سنة ٢٢٧هـ وهو ابن ست وسبعين سنة . (تهذيب التهذيب ٤٤٤/١، ٤٤٥).

(٣) هو أبو محمد معتز بن سليمان بن طرخان التيمي ، البصري ، قيل : إنه كان يلقب بالطفيل، وثقه ابن معين وأبو حاتم وابن سعد والعجلي وذكره ابن حبان في الثقات ، ولد سنة ١٠٦هـ ومات سنة ١٨٧هـ . (تهذيب التهذيب ٢٢٧/١٠، ٢٢٨، والثقات لابن حبان ٥٢١/٧).

الوليد - صاحب أبي يوسف - وأبو مصعب الزهري، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل، وغير هؤلاء من الأئمة.

وكذلك ذم «الواقفة» وتضليلهم - الذين لا يقولون: مخلوق، ولا غير مخلوق- ماثور عن جمهور هؤلاء الأئمة مثل ابن الماجشون وأبي مصعب، ووکیع بن الجراح ، وأبي الوليد ، وأبي الوليد الجارودي - صاحب الشافعي- والإمام أحمد بن حنبل، ٢١/١٢ وأبي ثور، وإسحاق بن راهويه،/ومن لا يحصي عدده إلا الله .

وأما البدعة الثانية ، المتعلقة بالقرآن المنزل تلاوة العباد له، وهي «مسألة اللفظية» فقد أنكر بدعة اللفظية - اللذين يقولون: إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق- أئمة زمانهم. جعلوهم من الجهمية ، وبينوا أن قولهم يقتضي القول بخلق القرآن، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم.

وكذلك من يقول: إن هذا القرآن ليس هو كلام الله، وإنما هو حكاية عنه، أو عبارة عنه، أو أنه ليس في المصحف والصدور إلا كما أن الله ورسوله في المصاحف والصدور، ونحو ذلك، وهذا محفوظ عن الإمام أحمد ، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي مصعب الزهري وأبي ثور، وأبي الوليد الجارودي، ومحمد بن بشار، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن يحيى بن أبي عمرو العدني، ومحمد بن يحيى الذهلي ، ومحمد بن أسلم الطوسي، وعدد كثير لا يحصيهم إلا الله من أئمة الإسلام وهداته.

وكذلك أنكر بدعة «اللفظية المثبتة» - الذين يقولون: إن لفظ العباد، أو صوت العباد به غير مخلوق، أو يقولون: إن التلاوة التي هي فعل العبد وصوته غير مخلوق- ٢٢/١٢ الأئمة الذين بلغتهم هذه/البدعة: مثل الإمام أحمد بن حنبل، وأبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح، وأبي بكر المروزي ، أخص أصحاب الإمام أحمد بن حنبل به، وأخذ في ذلك أجوبة علماء الإسلام إذ ذاك ببغداد، والبصرة، والكوفة ، والحرمين ، والشام، وخراسان، وغيرهم؛ مثل عبد الوهاب الوراق، وأبي بكر الأثرم، ومحمد بن بشار بُندار، وأبي الحسين علي بن مسلم الطوسي، ويعقوب الدورقي، ومحمد بن سهل بن عسكر، ومحمد بن عبد الله المخرمي الحافظ ، ومحمد بن إسحاق الصاغانى، والعباس بن محمد الدوري، وعلي بن داود القنطري، ومثنى بن جامع الأنباري، وإسحاق بن إبراهيم ابن حبيب بن الشهيد ، ومحمد بن يحيى الأزدي، والحسن بن عبد العزيز الجروي، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي، وأبي موسى بن أبي علقمة النفروني، وغيره من علماء المدينة ومحمد بن عبد الرحمن المقرئ، وأبي الوليد بن أبي الجارود، وأحمد بن محمد بن القاسم بن أبي مرة ، وغيرهم من أهل مكة، وأحمد بن سنان الواسطي، وعلي بن

حرب الموصلي، ومن شاء الله - تعالى - من أئمة أهل السنة وأهل الحديث من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن أو صوته به أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك أبو بكر الخلال في «كتاب السنة».

/ومن المشهور في «كتاب صريح السنة» لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه، لما ذكر ٤٢٣/١٢ الكلام في أبواب السنة، قال: وأما القول في «ألفاظ العباد بالقرآن» فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفا، إلا عمن في قوله الشفاء والعفاء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى؛ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: اللفظية جهمية، يقول الله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ممن يسمع؟ قال ابن جرير: وسمعت جماعة من أصحابنا - لا أحفظ أسماءهم - يحكون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع. قال ابن جرير: ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله، إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع.

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل، في «كتاب المحنة»: تناهى إلى أن أبا طالب حكى عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فأخبرت أبي بذلك، فقال: من أخبرك؟ فقلت: فلان، فقال: ابعث إلى أبي طالب، فوجهت إليه، فجاء، وجاء فوراً، فقال له أبي: أنا قلتُ لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب، /وجعل ٤٢٤/١٢ يرتعد، فقال له: قرأتُ عليك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فقلت لي: هذا ليس بمخلوق، قال له: فلم حكيت عني أنني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني: أنك وضعت ذلك في كتابك، وكتبت به إلى قوم، فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم: أنني لم أقل هذا. وغضب، وأقبل عليه، فقال: تحكى عني ما لم أقل لك؟ فجعل فوران يعتذر له، وانصرف من عنده وهو مرعوب، فعاد أبو طالب، فذكر أنه حك ذلك من كتابه، وأنه كتب إلى القوم يخبرهم: أنه وهَمَ على أبي عبد الله في الحكاية. قال الفضل بن زياد: كنت أنا والبستي عند أبي طالب، قال: فأخرج إلينا كتابه وقد ضرب على المسألة، وقال: كان الخطأ من قبلي، وأنا أستغفر الله، وإنما قرأت على أبي عبد الله القرآن، فقال: هذا غير مخلوق، كان الوهم من قبلي يا أبا العباس!

وقال الخلال في «السنة»: حدثنا المروزي، قال لي أبو عبد الله: قد غيض قلبي

على بن شداد ، قلت : أي شيء حكى عنك؟ قال : حكى عني في اللفظ ، فبلغ ابن شداد أن أبا عبد الله قد أنكر عليه ، فجاءنا حمدون بن شداد بالرقعة فيها مسائل ، فأدخلتها على أبي عبد الله ، فنظر فرأى فيها : إن لفظي بالقرآن غير مخلوق - مع مسائل فيها - فقال أبو عبد الله : فيها كلام ما تكلمت به ، فقام من الدهليز فدخل ، فأخرج المحبرة والقلم ، وضرب أبو عبد الله على موضع : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وكتب أبو عبد الله بخطه بين السطرين : القرآن حيث تصرف غير مخلوق . وقال : ما سمعت أحداً تكلم في هذا بشيء وأنكر على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق .

وقال الخلال في كتاب «السنة» : أخبرني زكريا بن الفرج الوراق ، قال حدثنا أبو محمد فوران ، قال جاءني صالح - وأبو بكر المروزي عندي - فدعاني إلى أبي عبد الله ، وقال : إنه قد بلغ أبي أن أبا طالب قد حكى عنه أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فقلت إليه ، فتبعتني صالح ، فدار صالح من بابي ، فدخلنا على أبي عبد الله ، فإذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب ، بين الغضب في وجهه!! فقال لأبي بكر : اذهب فجتني بأبي طالب ، فجاء أبو طالب ، وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبي طالب ، وأقول : له حرمة ، فقم بين يديه - وهو متغير اللون - فقال له أبو عبد الله : حكيت عني أنني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : إنما حكيت عن نفسي ، فقال : لا تحك هذا عنك ولا عني ، فما سمعت عالماً يقول هذا - أو العلماء ، شك فوران - وقال له : القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف ، فقلت لأبي طالب - وأبو عبد الله يسمع - : إن كنت حكيتَ هذا لأحد فاذهب حتى تخبره أن أبا عبد الله نهى عن/هذا ؟ فخرج أبو طالب فأخبر غير واحد بنهي أبي عبد الله ، منهم أبو بكر بن زنجويه ، والفضل بن زياد القطان ، وحمدان بن علي الوراق ، وأبو عبيد ، وأبو عامر ، وكتب أبو طالب بخطه إلى أهل نصيبين - بعد موت أبي عبد الله - يخبرهم أن أبا عبد الله نهى أن يقال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وجاءني أبو طالب بكتابه وقد ضرب على المسألة من كتابه ، قال زكريا بن الفرج : فمضيت إلى عبد الوهاب الوراق ، فأخذ الرقعة فقرأها ، فقال لي : من أخبرك بهذا عن أحمد ، فقلت له : فوران بن محمد ، فقال : الثقة المأمون على أحمد ، قال زكريا : وكان قبل ذلك قد أخبر أبو بكر المروزي لعبد الوهاب ، فصار عند عبد الوهاب شاهدان . قال زكريا : وسمعت عبد الوهاب قال : من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق يهجر ولا يكلم ويحذر عنه ، وكان قبل ذلك قال : هو مبتدع .

وروى الخلال عن أبي الحارث قال : سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله : يا أبا عبد الله ، أليس نقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق بمعنى من المعاني ، وعلى كل حال

وجهة؟ فقال أبو عبد الله : نعم .

واستيعاب هذا يطول .

وكذلك في كلام الإمام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم ، من إضافة صوت/العبد ٤٢٧/١٢ بالقرآن إليه ما يطول ، كما جاء الحديث النبوي بذلك : مثل قول النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »^(١) ، وقوله : « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »^(٢) ، فذكر الخلال في كتاب « القرآن » عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : قال لي أبو عبد الله يوما - وكنت سألته عنه - : تدري ما معنى « من لم يتغن بالقرآن ؟ » قلت : لا . قال : هو الرجل يرفع صوته ، فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به .

وعن منصور بن صالح أنه قال لأبيه : يرفع صوته بالقرآن بالليل؟ قال : نعم ، إن شاء رفعه . ثم ذكر حديث أم هانئ : كنت أسمع قراءة النبي ﷺ ، وأنا على عريش من الليل^(٣) . وعن صالح بن أحمد أنه قال لأبيه : « زينوا القرآن بأصواتكم » فقال : التزين : أن تحسنه . وعن الفضل بن زياد ، قال : سمعت أبا عبد الله يسأل عن القراءة : فقال يحسنه بصوته من غير تكلف . وقال أبو بكر الأثرم : سألت أبا عبد الله عن القراءة بالالخان؟ فقال : كل شيء محدث؛ فإنه لا يعجبني ، إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه ، قال القاضي أبو يعلى - فيما علقه بخطه على « جامع الخلال » - : هذا يدل من كلامه على أن صوت القارئ ليس هو الصوت القديم؛ لأنه أضافه إلى القارئ الذي هو طبعه من غير أن يتعلم الالخان .

/وأما ما في كلام أحمد والأئمة من إنكارهم على من يقول : إن هذا القرآن مخلوق، ٤٢٨/١٢ وأن القراءة مخلوقة ، وتعظيمهم لقول من يقول : إنه ليس في الصدور قرآن ، ولا في المصاحف قرآن ، وزعم من زعم أن من قال ذلك فقد قال بقول النصارى والحلولية - فإنكار أحمد وغيره هذه المقالات كثير شائع موجود في كتب كثيرة ، ولم تكن هذه الفتيا محتاجة إلى تقرير هذا الأصل ، فلم يحتج إلى تفصيل الكلام فيه ، بخلاف الأصل الآخر ، وقد ذكرنا من ذلك ما يسره الله في غير هذا الموضع ولو ذكرت ما في كلام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم - من الرد على من يقول : لفظ العبد أو صوته غير مخلوق ، أو يقول : إن الصوت المسموع من القارئ قديم - لطال .

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧٥ .

(٣) النسائي في الافتتاح (١٠١٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٩) وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وأحمد ٣٤٢/٦ ، ٤٢٤ .

وهذا أبو نصر السجزي قد صنف «الإبانة» المشهورة ، وهو من أعظم القائلين بأن التلاوة هي المتلو، واللفظ بالقرآن هو القرآن وهو غير مخلوق، وأنكر ما سوى ذلك عن أحمد، ومع هذا فقد قال: فإن اعترض خصومنا فقالوا : أنتم وإن قلتم: القراءة قرآن وكلام الله، فلا تطلقون أن الصوت المسموع من القارئ صوت الله، بل تنسبونه إلى القارئ، وإذا لم يمكنكم إطلاق ذلك دل على أنه غير القرآن؟!

٤٢٩/١٢ قال أبو نصر : فالجواب : أن اعتصامنا في هذا الباب بظاهر الشرع،/وقولنا في القراءة والصوت غير مختلف، وإذا قرأ القارئ القرآن لا يقول: إن هذه قراءة الله، ولا يجيز ذلك بوجه، بل ينسب القراءة إلى القارئ توسعاً لوجود التحويل منه، وإنما يقول: إن قراءة القارئ قرآن، وقد ثبت ذلك في الشرع باتفاق الكل ؛ فإن الأشعري مع مخالفته لنا يقول: المسموع من القارئ قرآن، وقد بينا أن التمييز بين القراءة والقرآن في هذا الموضع الذي اختلفنا فيه غير ممكن، وكذلك يقول : إن الصوت المسموع من قارئ القرآن قراءة وقرآن، والشرع يوجب ما قلناه، لا أعلم خلافا بين المسلمين في ذلك.

فصل

وأما نصوص الإمام أحمد على « خلق كلام الآدميين » و «خلق أفعال العباد» فموجودة في مواضع كثيرة، كما نص على ذلك سائر الأئمة. وليس بين أهل السنة في ذلك اختلاف؛ ولهذا قال يحيى بن سعيد القطان- شيخ الإمام أحمد - : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: أفعال العباد مخلوقة، وقد سئل الإمام أحمد عن أفاعيل العباد: مخلوقة هي ؟ فقال : نعم . و نص على كلام الآدميين في رواية أحمد بن الحسن الترمذي- كما سيأتي - وفيما خرجته على الزنادقة والجهمية ، وهو/مروي من طريق ابنه عبد الله وحاده^(١). وقد ذكره الخلال - أيضاً - في كتاب «السنة» ونقل منه القاضي أبو يعلى وغيره، وقد حكى إجماع الخلق على ذلك غير واحد منهم أبو نصر السجزي في «الإبانة»، وهو من أشد الناس إنكاراً على من يقول: إن ألفاظ العباد بالقرآن مخلوقة، أو يقول : إن المسموع من القارئ ليس هو القرآن .

قال أبو نصر : وأما نسبة الأصوات إلى القراء - فيما ذكرنا في هذا الباب وفي غيره من كتابنا هذا - ونسبة القراءة إليهم، وإن فرح بها الزانغون، فلا حجة لهم فيها؛ وذلك أنا لم نختلف في إضافة الصوت إلى الإنسان، وأنه إذا صاح، أو تكلم بكلام الناس، أو

(١) كذا بالأصل.

نادى إنساناً فصوته مخلوق. قال: وهذا لا يشبهه ، وإنما وقع الاختلاف في أن المستمع من قارئ القرآن ماذا يستمع؟ وساق الكلام إلى آخره. وذكر في موضع آخر الإجماع - أيضاً- على ذلك .

فصل

وإنما نهبت على أصل مقالة الإمام أحمد وسائر أئمة السنة وأهل الحديث في مسألة تلاوتنا للقرآن ؛ لأنها أصل ما وقع من الاضطراب/والتنازع في هذا الباب ، مثل «مسألة ١٢/٣١» الإيمان هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ و«مسألة نور الإيمان» و«الهدى» ونحو ذلك من المسائل التي يكثر تنازع أهل الحديث والسنة فيها، ويتمسك كل فريق ببعض من الحق ، فيصيرون بمنزلة الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، مختلفين في الكتاب، كل منهم بمنزلة الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وهم عامتهم في جهل وظلم، جهل بحقيقة الإيمان والحق، وظلم الخلق ، ويقع بسببها بين الأمة من التكفير والتلاعن ما يفرح به الشيطان ، ويغضب له الرحمن، ويدخل به من فعل ذلك فيما نهى الله عنه من التفرق والاختلاف، ويخرج عما أمر الله به من الاجتماع والاتلاف .

وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله - تعالى - من القرآن والإيمان الذي هو من صفاته، وبين أفعال العباد وصفاتهم، فلعسر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي ؛ ولهذا كان مذهب الإمام أحمد والأئمة الكبار النهي عن الإثبات العام، والنفي العام، بل إما الإمساك عنهما - وهو الأصلح للعموم وهو جمل الاعتقاد - وإما التفصيل المحقق فهو لذي العلم من أهل الإيمان، كما أن الأول لعموم أهل الإيمان.

وهذه المسألة لها أصلان:

/أحدهما: أن أفعال العباد مخلوقة، وقد نص عليها الأئمة أحمد وغيره، وسائر أئمة ١٢/٣٢ أهل السنة والجماعة المخالفين للقدرية ، واتفقت الأمة على أن أفعال العباد محدثة .

والأصل الثاني : مسألة تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به، هل يقال: إنه مخلوق أو غير مخلوق؟ والإمام أحمد قد نص على رد المقالتين هو وسائر أئمة السنة من المتقدمين والمتأخرين، لكن كان رده على «اللفظية النافية» أكثر وأشهر وأغلظ لوجهين:

أحدهما: أن قولهم يفضي إلى زيادة التعطيل والنفي، وجانب النفي - أبداً - شر من جانب الإثبات ؛ فإن الرسل جاؤوا بالإثبات المفصل في صفات الله، وبالنفي المجمل؛

فوصفوه بالعلم، والرحمة، والقدرة والحكمة، والكلام، والعلو، وغير ذلك من الصفات وفي النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. وأما الخارجون عن حقيقة الرسالة؛ من الصابئة، والفلاسفة، والمشركون، وغيرهم، ومن تجههم من أتباع الأنبياء، فطريقتهم النفي المفصل، ليس كذا ليس كذا، وفي الإثبات أمر مجمل؛ ولهذا يقال: المعطل أعمى، والمشبّه أعشى، فأهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل.

٤٣٣/١٢ الوجه الثاني: أن أحمد إنما ابتلى بالجهمية المعطلة فهم خصومهم، فكان همه منصرفاً إلى رد مقالاتهم، دون أهل الإثبات؛ فإنه لم يكن في ذلك الوقت والمكان من هو داع إلى زيادة في الإثبات؛ كما ظهر من كان يدعو إلى زيادة في النفي. والإنكار يقع بحسب الحاجة. والبخاري لما ابتلى باللفظية المثبتة، ظهر إنكاره عليهم، كما في تراجم آخر كتاب «الصحيح»، وكما في كتاب «خلق الأفعال»، مع أنه كذب من نقل عنه أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، من جميع أهل الأمصار، وأظنه حلف على ذلك، وهو الصادق البار.

فصل

وقد نص أحمد على نفس هذه «المسألة» في غير موضع، فروى أبو القاسم اللالكائي في «أصول السنة» قال: أخبرنا الحسن بن عثمان قال: حدثنا عمرو بن جعفر قال: حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال: قلت لأحمد بن حنبل: إن الناس قد وقعوا في القرآن، فكيف أقول؟ فقال: أليس أنت مخلوقاً؟ قلت: نعم. قال: فكلامك منك مخلوق؟ قلت: نعم. قال: أفليس القرآن من كلام الله؟ قلت: نعم. قال: وكلام الله من الله؟ قلت: نعم. قال: فيكون من الله شيء مخلوق؟!.

٤٣٤/١٢ /بين أحمد للسائل: أن الكلام من المتكلم وقائم به، لا يجوز أن يكون الكلام غير متصل بالمتكلم، ولا قائم به؛ بدليل أن كلامك أيها المخلوق منك، لا من غيرك، فإذا كنت أنت مخلوقاً وجب أن يكون كلامك - أيضاً - مخلوقاً، وإذا كان الله - تعالى - غير مخلوق امتنع أن يكون ما هو منه وبه مخلوقاً.

وقصده بذلك الرد على «الجهمية» الذين يزعمون أن كلام الله ليس من الله ولا متصل به، فيبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلماً، ولا هو حقيقة ذلك، ولا هو مراد الرسل والمؤمنين، من الإخبار عن أن الله قال، ويقول، وتكلم بالقرآن، ونادى، وناجى، ودعا، ونحو ذلك مما أخبرت به عن الله رسله، واتفق عليه المؤمنون به

من جميع الأمم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْكَ لَنْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وقال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال: هذا مثل قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجن: ١٣]، وإنما هو صفة كالعلم، والقدرة، والرحمة، والغضب، والإرادة، والنظر، والسمع ونحو ذلك، وذلك لا يقوم إلا بموصوف، وكل معنى له اسم/وهو قائم بمحل، وجب أن يشتق لمحلله منه اسم، ٤٣٥/١٢ وألا يشتق لغير محلله منه اسم.

فكما أن الحياة، والعلم، والقدرة إذا قام بموصوف، وجب أن يشتق له منه اسم الحي، والعالم، والقادر، ولا يشتق الحي، والعالم، والقادر لغير من قام به العلم، والقدرة، فكذلك القول: والكلام، والحب، والبغض، والرضا، والرحمة، والغضب، والإرادة، والمشئة إذا قام بمحل، وجب أن يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل، فيقال: هو الصادق، والشهيد، والحكيم، والودود، والرحيم، والأمر، ولا يشتق لغيره منه اسم.

فلو لم يكن الله - سبحانه وتعالى - هو القائل بنفسه: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤]، بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الأمر بهذه الأمور، ولا المخبر بهذا الخبر، ولكان ذلك المحل هو الأمر بهذا الأمر، المخبر بهذا الخبر، وذلك المحل؛ إما الهواء، وإما غيره، فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾؛ ولهذا كان السلف يقولون في هذه الآية وأمثالها: من قال: إنه مخلوق فقد كفر. ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها، يعظم عليهم أن تقوم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله - تعالى.

ولهذا كان مذهب جماهير أهل السنة والمعرفة - وهو المشهور عند أصحاب الإمام أحمد، وأبي حنيفة، وغيرهم، من المالكية، والشافعية، والصوفية، وأهل الحديث، ٤٣٦/١٢ وطوائف من أهل الكلام، من الكرامية وغيرهم - أن كون الله - سبحانه وتعالى - خالقاً، ورازقاً، ومحياً، ومميتاً، وباعثاً، ووارثاً، وغير ذلك من صفات فعله، وهو من صفات ذاته، ليس من يخلق كمن لا يخلق.

ومذهب الجمهور أن الخلق غير المخلوق، فالخلق فعل الله القائم به، والمخلوق هو

المخلوقات المنفصلة عنه .

وذهب طوائف من أهل الكلام - من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم، من الفقهاء الحنبلية، والشافعية، والمالكية، وغيرهم - إلى أنه ليس لله صفة ذاتية من أفعاله، وإنما الخلق هو المخلوق، أو مجرد نسبة وإضافة وهذا اختيار ابن عقيل، وأول قولي القاضي أبي يعلى، وهؤلاء عندهم حال الذات التي تخلق وترزق أو لا تخلق ولا ترزق سواء .

وبهذا نقضت المعتزلة على من ناظرها من الصفاتية الأشعرية ونحوهم، لما استدلت الصفاتية بما تقدم من « القاعدة الشريفة » فقالوا: ينتقض عليكم بالخالق، والرازق وغير ذلك من أسماء الأفعال؛ فإن الخلق والرزق قائم بغيره، وقد اشتق له منه اسم الخالق والرازق، ولم يقم به صفة فعل أصلاً، فكذلك الصادق، والحكيم، والمتكلم، والرحيم، والودود .

وهذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة والجماعة؛ فإن الباب عندهم واحد، وليس هذا قولاً بقدم مخلوقاته أو مفعولاته، سواء قيل: إن نفس فعله القائم به ٣٧/١٢ قديم فقط، كما يقوله كثير من هؤلاء - الحنفية والمالكية، والشافعية، والحنبلية، وأهل الحديث، والكلام، والصوفية - أو يقولون: له عند إحداث المخلوقات أحوال ونسب، كما يقوله كثير من هؤلاء - الفقهاء، وأهل الحديث، والصوفية، وأهل الكلام من الطوائف كلها .

وذلك لأن القول في ذلك كالقول في مشيئته وإرادته؛ فإنه وإن كان مذهب أهل السنة وسائر الصفاتية أنها قديمة، فليست مرادته قديمة، وكذلك صفة الخلق والتكوين، وذلك لأن الشرع والعقل يدل على أن حال الخالق، والرازق، الفاطر، المحيي، المميت، الهادي، النصير، ليس حاله في نفسه كحال لو لم يبدع هذه الأمور؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَنَنْخَلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] . فالفرق بين الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر .

والمخالف يقول: إنما هو موصوف بالقدرة التي تتناول ما يخلقه وما لا يخلقه، سواء في نفسه كان خالقاً أو لم يكن خالقاً، ليس له من كونه خالقاً صفة ثبوتية، لا صفة كمال، ولا صفة وجود مطلق، كما له بكونه قادراً . ونصوص الكتاب والسنة توجب أن تكون أسماء أفعاله من أسمائه الحسنى التي تقتضي أن يكون بها محموداً مثني عليه مجداً، وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال .

٣٨/١٢ وليس الغرض هنا ذكر هذه المسألة، وإنما هي طرد حجة الإمام أحمد وغيره من أئمة

السلف الثقات ، وسائر الصفاتية؛ ولهذا قال الإمام أحمد في رواية حنبل في «كتاب المحنة» : لم يزل الله عالماً متكلماً غفوراً . فبين اتصافه بالعلم - وهو صفة ذاتية محضة- وبالمغفرة - وهي من «الصفات الفعلية» والكلام الذي يشبه هذا وهذا، وذكر أنه لم يزل متصفا بهذه الصفات والأسماء، وقال الإمام أحمد فيما خرج في «الرد على الزنادقة والجهمية» لما ذكر قول جهم: أنه يتكلم؛ ولكن كلامه مخلوق. قال أحمد قلنا له : وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق ففي مذهبكم كان الله في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق الكلام، وكذلك بنو آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً، فقد جمعتم بين كفر وتشبيه، وكذلك ذكروا في «المحنة» فيما استدل به الإمام أحمد في المناظرة واستدل بقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، قال: فإن يكن القول من غير الله فهو مخلوق.

فصل

وأما قول القائل : إن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس، فبطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغة شيء من أخبار أحمد، وقائل هذا إلى العقوبة البليغة التي يفترى بها على الأئمة أحوج منه إلى جوابه؛ فإن الإمام أحمد صار مثلاً سائراً يضرب به المثل في المحنة ٤٣٩/١٢ والصبر على الحق، وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صار اسم الإمام مقروناً باسمه في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد، هذا مذهب الإمام أحمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ^(١) أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَأْمُرُ الْمَاصِرُونَ وَكَأَنَّهُمْ يَنْتَابِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فإنه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الإمامة في الدين.

وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلمون، من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة، والوزراء، والسعاة والأمراء، والولاة من لا يحصيهم إلا الله. فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله، وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض، حتى أصحابه العلماء، والصالحون والأبرار، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية، بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره، ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه، وإخوانه المتقدمين والمتأخرين؛ ولهذا قال بعض شيوخ الشام: لم يظهر أحد ما جاء به الرسول ﷺ كما أظهره أحمد بن حنبل، فكيف يظن به أنه كان

(١) في المطبوعة : «وجعلناهم»، والصواب ما أثبتناه.

يخاف في هذه الكلمة التي لا قدر لها؟!.

٤٤٠/١٢ | وأيضاً، فمن أصوله أنه لا يقول في الدين قولاً مبتدعاً، وقد جعلوا يطالبونه بما ابتدعوه، فيقول لهم: كيف أقول ما لم يقل؟! فكيف يكتنم كلمة ما قالها أحد قبله من خلق الله.

وأيضاً، فإن أحمد بن الحسن الترمذي من خواص أصحابه وأعيانهم، فما الموجب لأن يستعمل التقية معه.

وأيضاً، فلم يكن به حاجة إلي أن يقول: كلام الآدمي مخلوق، وإنما هو ذكر ذلك مستدلاً به ضارباً به المثل، فكيف يبتدئ بكلام هو عنده باطل لم يسأله عنه أحد؟!.

وأيضاً، فقد كان يسعه أن يسكت عن هذا؛ فإن الإنسان إذا خاف من إظهار قول كتبه. أما إظهاره لقول لم يطلب منه، وهو باطل عنده، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وعلماً وديناً.

فمن يسب الإمام أحمد الذي موقفه من الإسلام وأهله فوق ما يصفه الواصف، ويعرفه العارف، فقد استوجب من غليظ العقوبة ما يكون نكالا لكل مفتر كاذب راجم بالظن قاذف، قائل على الله ورسوله والمؤمنين وأئمتهم ما لا يقوله العدو المنافق.

٤٤١/١٢ وأيضاً، فقد ذكر ذلك فيما صنفه من «الرد على الزنادقة/والجهمية» وهو في الحبس، وكتبه بخطه، ولم يكن ذلك مما أظهره لأعدائه: الذين يحتاج غيره إلى أن يستعمل معهم التقية.

وهذا القول أقبح من قول الروافض فيما ثبت عن أمير المؤمنين على - رضي الله عنه - أنه قاله وفعله على وجه التقية؛ فإن الإمام أحمد صنف الرد عليهم وبين أنهم زنادقة، فأبي تقية تكون لهم مع هذا وهو يجاهدكم ببيانه وبنانه، وقلمه ولسانه؟.

فصل

شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا في «حروف المعجم» و «أسماء المخلوقات». فإن المنتسبين إلى السنة تكلموا في حروف المعجم في غير القرآن والكتب الإلهية، وقال طوائف منهم، كابن حامد، وأبي نصر السجزي، والقاضي في أشهر قولي، وابن عقيل وغيرهم-: إنها مخلوقة، وقالوا: الحروف حرفان. وقال طوائف - وهم كثير من أهل الشام، والعراق، وخراسان؛ كالقاضي يعقوب البرزيني (١) والشريف

(١) في المطبوعة: «البرزيني» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه كما في اللباب: ١/١٣٧.

أبي الفضائل الزيدي الحراني، و يروي ذلك عن الشيخ أبي الحسين بن سمعون، وهو قول القاضي أبي الحسين، و حكاه عن أبيه في آخر قوله، وهو قول الشيخ أبي الفرج الأنصاري، والشيخ عبد القادر، وابن الزاغوني وغيرهم - : الحرف حرف واحد، ٤٤٢/١٢ وحروف المعجم غير مخلوقة حيث تصرفت ؛ لأنها من كلام الله، وحقيقة الحرف واحدة لا تختلف.

وقد نقل عن الإمام أحمد - رضي الله عنه - الإنكار على من قال بخلق الحروف، وأنه لما حكى له أن بعض الناس قال: لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقال الإمام أحمد: هذا كفر . وروى إنكار ذلك عن غيره من الأئمة.

والأولون لا ينازعون في هذا؛ فإنهم ينكرون على من يقول: إن الحروف مخلوقة ؛ فإنه إذا قال ذلك دخل فيه حروف كلام الله - تعالى - من القرآن وغيره، وهم يخصون الكلام في الحروف الموجودة في كلام المخلوق، دون الحروف الموجودة في كلام الله، ويقولون: حقيقة الحروف والاسم وإن كانت واحدة فذلك بمنزلة كلمات موجودة في القرآن، وقد تكلم بها بعض المخلوقين. فالتكلم تارة يقصد أن يتكلم بكلام غيره، وإن وافقه في لفظه بالنسبة إلينا، وهذا لا يتأتى إلا في الشيء اليسير، وهو ما دون السورة القصيرة؛ فإن الله قد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله، وأخبر أنهم لن يفعلوا.

قال الأولون: فموافقة لفظ الكلام للفظ الكلام لا يوجب أن يكون لأحدهما حكم ٤٤٣/١٢ الآخر في النسبة إلى المتكلم المخلوق، بحيث ينسب أحدهما إلى من ينسب إليه الآخر، فكيف بالنسبة إلى الخالق؟ بل لما كتب مسيلمة إلى النبي ﷺ : من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، رد عليه النبي ﷺ : «من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب» (١) كان اللفظ برسول الله من المتكلمين سواء من أحدهما صدق - ومن أعظم الصدق - ومن الآخر كذب - ومن أقبح الكذب.

وقد ذكر الله عن الكفار مقالات سوء في كتابه مثل قولهم: ﴿أَنكُذَّ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥]، وقولهم: ﴿عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وغير ذلك من الأقوال الباطلة وقد حكاها الله عنهم، فإذا تكلمنا بما حكاه الله عنهم كنا متكلمين بكلام الله، ولو حكيناها عنهم ابتداءً لكننا قد حكينا كلامهم الكذب المذموم.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢٤٣/٤، والبيهقي في دلائل النبوة ٣٣١/٥.

ولهذا قال الفقهاء: من ذكر الله أو دعاه جاز له ذلك مع الجنابة، وإن وافق لفظ القرآن، إذا لم يقصد القراءة. وقالوا: لو تكلم بلفظ القرآن في الصلاة يقصد مجرد خطاب آدمي بطلت صلاته؛ لأن ذلك من كلام الآدميين، والصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين، وإن قصد مع تنبيه الغير القراءة صحت صلاته عند الجمهور، كما ٤٤٤/١٢ لو لم يقصد إلا القراءة، وعند بعضهم تبطل، كقول أبي حنيفة. ومن هذا الباب مسألة الفتح علي الإمام وتنبيه الداخل بآية من القرآن وغير ذلك.

وسبب ذلك أن معنى الكلام داخل في مسماه، ليس هو اسماً لمجرد اللفظ والمعنى هو إنشاء وإخبار، والإنشاء فيه الأمر والنهي، ومعلوم أن أمر زيد ليس هو أمر عمرو، ولا حكمه حكمه، وإن اتفق اللفظ، وكذلك اختيار زيد ليس هو اختيار عمرو ولا حكمه حكمه، وإن اتفق اللفظ. فالأمر المطاع الحكيم إذا أمر بأمر كان له حكم خلاف ما إذا أمر به الجاهل العاجز وإن اتفق لفظهما، وكذلك الشاهد العالم الصادق إذا أخبر بخبر كان حكمه خلاف ما إذا أخبر به الجاهل الكاذب وإن اتفق لفظهما.

وإذا كان كذلك فمن أدخل في كلام له بعض لفظ أدخله غيره في كلامه لم يوجب ذلك أن يكون هذا اللفظ من كلام ذلك المتكلم، وإن كان أحد اللفظين شبيهاً بالآخر، وهو بمنزلة من كتب حروفاً تشبه حروف المصحف، كتبها كلاماً آخر لم يكن ذلك مما يوجب أن يكون من حروف المصحف.

٤٤٥/١٢ وقال الآخرون: مجرد الموافقة في اللفظ لا يوجب أن يجعل حكم/أحد اللفظين حكم الآخر، لكن إذا كان أحدهما أصلاً سابقاً إلى ذلك الكلام، والآخر إنما احتذى فيه حذوه ومثاله، كان اللفظ والكلام منسوباً إلى الأول، بمنزلة من تمثل بقول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو بقوله:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أو بمثل من الأمثال السائرة كقوله: «عسى الغويرُ أبؤساً» (١) و«يداك أوكتا، وفوك

(١) في المطبوعة: «الغويري بؤساً» وهو خطأ. والغوير: تصغير غار. والأبؤس: جمع بؤس، وهو الشدة.

وأصل هذا المثل من قول الزبأ بنت عمرو حين قالت لقومها عند رجوع «قصير» من العراق ومعه الرجال، وبات بالغوير على طريقه. والمعنى: لعل الشر يأتيكم من قبل الغار. وهو يضرب للرجل يقال له: لعل الشر جاء من قبلك، انظر: مجمع الأمثال ١/٦٤٠، وأعلام النساء لكحالة ٦/٢-١٥.

نفخ» (١) و «كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْقَرَا» (٢) ونحو ذلك . فهذا الكلام هو تكلم به في المعنى الذي أراده، لا على سبيل التبليغ عن غيره، ومع هذا فهو منسوب إلى قائله الأول، فهكذا الحروف الموجودة في كلام الله وإن أدخلها الناس في كلامهم الذي هو كلامهم فأصلها مأخوذ من كلام الله - تعالى .

قال الأولون: هنا مقامان:

أحدهما: أن كل من أنطقه الله بهذه الحروف فإنما كان ذلك بطريق الاستفادة من كلام الله، أو ممن استفادها من كلام الله . وهذه الدعوى العامة تحتاج إلى دليل؛ فإن تعليم الله لآدم الأسماء أو إنزاله كتبه بهذه الحروف لا يوجب أن يكون لم ينطق غير آدم ممن لم يسمع/الكتب المنزلة بهذه الحروف، كما كانت العرب تنطق بهذه الحروف ١٢/٤٤٦ والأسماء قبل نزول القرآن، والله - تعالى - أنزله بلسانهم الذي كانوا يتكلمون به قبل نزول القرآن .

المقام الثاني: أنه لو لم يكن أحد نطق بها إلا مستفيداً لها من كلام الله، لكن إذا أنشأ بها كلاماً لنفسه ولم يقصد بها قراءة كلام الله لم تكن في هذه الحال من كلام الله، كما لو فعل ذلك في بعض الجمل المركبة وأولى . ويدل على ذلك الأحكام الشرعية .

قال الآخرون - القائلون بأن حروف المعجم غير مخلوقة مطلقاً-: لنا في الأسماء الموجودة في غير القرآن قولان . منهم من يقول بأن جميع الأسماء غير مخلوقة، كما يقول ذلك في الحروف . ومنهم من لا يقول ذلك . وقد حكى القولين ابن حامد وغيره عمن ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد وغيره من القائلين بأن حروف المعجم غير مخلوقة، فمن عمم ذلك استدلل بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] . وهذه الحجة مبنية على مقدمتين:

إحداهما: أن مبدأ اللغات توقيفية، وأن المراد بالتوقيف خطاب الله بها، لا تعريفه بعلم ضروري، وهذا الموضع قد تنازع فيه الناس من أصحاب الإمام أحمد وسائر الفقهاء،

(١) الوكاء: رباط القرية الذي يشد به رأسها .

وأصل هذا المثل: أن رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يعبر على زق قد نفخ فيه، حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له: «يداك...» . وهو يضرب لمن يجنى على نفسه . انظر: لسان العرب، مادة «وكي»، ومجمع الأمثال ٢/٤٩١ .

(٢) في المطبوعة: «الفراء» وهو خطأ . والفراء: الحمار الوحشي، وجمعه فراء .
وأصل المثل: أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنباً، والآخر ظبياً، والثالث حماراً، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالاه، وتطاولا عليه . فقال الثالث: «كل الصيد...» أي: هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما؛ وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي . وهو يضرب لمن يفضل على أقرانه . انظر: مجمع الأمثال ٢/١٠٩ ، ١١٠ .

٤٤٧/١٢ وأهل الحديث والأصول. / فقال قوم: إنها توقيفية، وهو قول أبي بكر عبد العزيز، والشيخ أبي محمد المقدسي، وطوائف من أصحاب الإمام أحمد، وهو قول الأشعري، وابن فورك، وغيرهما. وقال قوم: بعضها توقيفي، وبعضها اصطلاحى. وهذا قول طوائف: منهم ابن عقيل، وغيره. وقال قوم: يجوز فيها هذا وهذا، ولا نحزم بشيء، وهذا قول القاضي أبي يعلى، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني، وغيرهما. ولم يقل: إنها كلها اصطلاحية إلا طوائف من المعتزلة ومن اتبعهم - ورأس هذه المقالة أبو هاشم بن الجبائي (١).

والذين قالوا: إنها توقيفية، تنازعوا: هل التوقيف بالخطاب، أو بتعريف ضروري، أو كليهما؟ فمن قال: إنها توقيفية، وإن التوقيف بالخطاب؛ فإنه يبنى على ذلك أن يقال: إنها غير مخلوقة؛ لأنها كلها من كلام الله - تعالى - لكن نحن نعلم قطعاً أن في أسماء الأعلام ما هو مرتجل وضعه الناس ابتداء فيكون التردد في أسماء الأجناس.

و أيضاً، فإن تعليم الله لآدم بالخطاب لا يوجب بقاء تلك الأسماء بألفاظها في ذريته، بل المأثور أن أهل سفينة نوح لما خرجوا من السفينة أعطي كل قوم لغة، وتبلبلت ألسنتهم. وهذه المسألة فيها تجاذب، والنزاع فيها بين أصحابنا وسائر أهل السنة يعود إلى ٤٤٨/١٢ نزاع/لفظي فيما يتحقق فيه النزاع، وليس بينهم -والحمد لله - خلاف محقق معنوي.

وذلك أن الذي قال: الحرف حرف واحد، وأن حروف المعجم ليست مخلوقة، إنما مقصوده بذلك أنها داخلة في كلام الله، وأنها منتزعة من كلام الله، وأنها مادة لفظ كلام الله، وذلك غير مخلوق، وهذا لانزاع فيه. فأما حرف مجرد فلا يوجد لا في القرآن ولا في غيره، ولا ينطق بالحرف إلا في ضمن ما يتألف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني، وأما الحروف التي ينطق بها مفردة مثل: ألف، لام، ميم، ونحو ذلك فهذه في الحقيقة أسماء الحروف، وإنما سميت حروفاً باسم مسماهها، كما يسمى «ضرب» فعل ماض باعتبار مسماه؛ ولهذا لما سأل الخليل أصحابه كيف تنطقون بالزاء من زيد؟ قالوا: نقول: «زا» قال: جئتم بالاسم؛ وإنما يقال: «زه».

وليس في القرآن من حروف الهجاء - التي هي أسماء الحروف - إلا نصفها، وهي أربعة

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي، من أبناء أبان مولى عثمان، عالم بالكلام، من كبار المعتزلة، له آراء انفرد بها. وتبعته فرقة سميت «البهشية» نسبة إلى كنيته «أبي هاشم» له مصنفات في أصول الفقه منها: «تذكرة العالم، والعدة»، ولد سنة ٢٤٧هـ ومات سنة ٣٢١هـ. (ميزان الاعتدال ٢/٦١٨، وتاريخ بغداد ٥٥/١١، والأعلام ٧/٤).

عشر حرفاً، وهي نصف أجناس الحروف: نصف المجهورة ، والمهموسة، والمستعلية، والمطبقة، والشديدة، والرخوة، وغير ذلك من أجناس الحروف . وهو أشرف النصفين . والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء، أو الأفعال ، أو حروف المعاني- التي ليست باسم ولا فعل . فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن، لكن نفس حروف المعجم التي/هي أبعاض الكلام موجودة ٤٤٩/١٢ في القرآن، بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران، و الثانية في سورة الفتح: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ آيَةً﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]، ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩].

وإذا كان كذلك، فمن تكلم بكلام آخر مؤلف من حروف الهجاء فلم ينطق بنفس الحروف التي في لفظ القرآن، وإنما نطق بمثلها، وذلك الذي نطق به قد يكون هو أخذه وإذا ابتدأ من لفظ كلام الله- تعالى - وقد لا يكون حقيقة، قيل : الحرف من حيث هو هو شيء واحد، له الحقيقة المطلقة التي لا تأليف فيها لا توجد لا في كلام الله - تعالى - ولا في كلام عباده، وإنما الموجود الحرف الذي هو جزء من اللفظ أو اسمه إذا لم يوجد إلا حرف، ولكن هذا المطلق ، بل الأعيان الموجودة في الخارج قائمة بأنفسها، كالإنسان لا يوجد مجرداً عن الأعيان في الأعيان، لا يوجد مجرداً عن الأعيان إلا في الذهن، لا في الخارج ، فكيف بالحرف الذي لا يوجد في الخارج إلا مؤلفاً؟! فلو قدر أنه يوجد في الخارج غير مؤلف متعدد الأعيان كما يوجد الإنسان، لم تكن حقيقته المطلقة من حيث هي هي موجودة إلا في الأذهان لا في الأعيان.

فتبين أن الحروف تختلف أحكامها باختلاف معانيها واختلاف المتكلم/بها، وهذا ٤٥٠/١٢ أوجب تعظيم حروف القرآن المنطوقة والمسطورة، وكان لها من الأحكام الشرعية ما امتازت به عما سواها، واختلاف الأحكام إنما كان لاختلاف صفاتها وأحوالها.

فتبين أن الواجب أن يقال ما قاله الأئمة كأحمد وغيره: إن كلام الإنسان كله مخلوق حروفه ومعانيه، والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « يقول الله : أنا الرحمن، خلقت الرَّحْمَ، وشَقَقْتُ لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَّهْ »^(١)، وروى الربيع بن أنس عن المسيح أنه قال: «عجباً لهم كيف يكفرون به و هم يتقلبون في نعمائه، ويتكلمون بأسمائه!؟».

وذكر في معظم حروف المعجم أنها مباني أسماء الله الحسنى، وكتبه المنزلة من السماء، وهذا مما يحتج به من قال: ليست مخلوقة، وليس بحجة؛ فإن أسماء الله من كلامه،

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٩٤) والترمذي في البر والصلة (١٩٠٧) .

وكلامه غير مخلوق ، وما اشتقه هو من أسمائه فتكلم به فكلامه به غير مخلوق ، وأما إذا اشتقوا اسما أحدثوه فذلك الاسم هم أحدثوه ، ولا يلزم إذا كان المشتق منه غير مخلوق ، أن يكون المشتق كذلك ، وما يروى عن المسيح فلا يعرف ثبوته عنه ، وبتقدير ٥١/١٢ ثبوته فإذا كان قد ألهم عباده أن يتكلموا بالحروف/التي هي مباني أسمائه التي تكلم بها لم يلزم أن يكون ما أحدثوه هم غير مخلوق .

وبالجمله ، فمن نظر إلى أن حقيقة الحرف التي لا تختلف موجودة في كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، قال : إنها مخلوقة إشارة إلى نفس حقيقة الحرف ، لا إلى عين جزء اللفظ الذي به ينطق الكفار والمشركون ؛ فإن ذلك الحرف الذي هو صوت لمقدر أو تقدير صوت قائم بالكافر والمشرك لا يقول عاقل : إنه غير مخلوق ، مع أنه ليس مضافا إلى الله بوجه من الوجوه ، وإنما يضاف إلى الله ما شاركه في اسمه مما كان متعلقا بالمعنى المضاف إلى الله .

وهذا بخلاف الحروف التي في كلام الله ؛ فإن تلك كلام الله كيفما تصرفت ، ونحن لما يسر الله كلامه بألسنتنا أمكننا أن نتكلم بكلامه ، لكن بأدواتنا وأصواتنا ، وليس تكلمنا به وسمعه منا كتكلم الله به وسمعه منه ، كما تقدمت الإشارة إلى هذا ، كما أن الله ليس كمثله شيء فكذلك سائر ما يضاف إليه ، ولكن لما أنطقنا الله بأدواتنا وحركاتنا وأصواتنا صار بين بعض لفظنا به ولفظنا بغيره نوع من الشبه ، فإذا تكلمنا بكلام آخر فهو يشبه من بعض الوجوه لفظنا ، وصوتنا بالقرآن لا يشبه تكلم الله به وقراءته إياه فإذا كان وجود هذه الحروف في كلام الآدميين ليس بمنزلة تكلم الله بالقرآن ، وإنما يشبه من بعض الوجوه ، تكلمنا به /من جهة ما يضاف إلينا لا من جهة ما يضاف إلى الله ، امتنع حينئذ أن يقال : عين الحرف الذي هو جزء لفظه من الاسم الذي ينطق به الناس هو عين الحرف الذي هو جزء لفظ من كلام الله - تعالى - وإنما يشبهه ويقاربه ، فهو هو باعتبار النوع ، وليس هو إياه باعتبار العين والشخص ، خلاف حروف كلام الله القرآن ؛ فإنها كلام الله حيث تصرفت ، وفيها دقة وشبهة أشرنا إليها في هذا الجواب ، وشرحناها في موضعها .

فمن قال : إن الحروف حرفان أراد به أنهما عينان وشخصان وهذا حق ، ومن قال : الحرف حرفاً واحداً أراد به : أن الحقيقة النوعية واحدة في الموضعين ، وهذا حق . ومن قال : إن حروف الهجاء من كلام الآدميين غير مخلوقة فقد صدق باعتبار الحقيقة النوعية . ومن قال : إنها مخلوقة باعتبار العين الشخصية فقد صدق .

ونظير هذا كثير يوجد في كلام أهل العلم وأهل السنة من النفي والإثبات ، ويكون النزاع في معنيين متنوعين نزاعاً لفظياً اعتبارياً ، وقد قال بعض الفضلاء : أكثر اختلاف

العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، لكن وقوع الاشتراك والإجمال يضل به كثير من الخلق، كما يهتدي به كثير من الخلق، وهو سبب ضلال هؤلاء الجهال المسؤول عنهم؛ فإن حجتهم: أن الله علم آدم الأسماء كلها، وعلمه البيان، وهو مبنى علي/ أن «اللغات ١٢/٥٣» توقيفية» كقول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم- كأبي بكر عبد العزيز، وأبي محمد المقدسي، وهو قول الأشعري، وابن فورك وغيرهما.

لكن التوقيف، هل المراد به التكليم، أو التعريف، أو كلاهما؟. هذا فيه نزاع أيضاً، كما تقدم. فالذين قالوا: إنها غير مخلوقة، يقولون: إنها توقيفية، وإن التعليم هو بالخطاب، فيكون الله قد تكلم بالأسماء كلها، وكلام الله غير مخلوق. قال هؤلاء الجهال الضالون: وكلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الحروف والأسماء وتلك غير مخلوقة، فهذا أيضاً غير مخلوق.

فبنوا قولهم على أن حروف المعجم غير مخلوقة، وأن الأسماء المؤلفة من الحروف غير مخلوقة، واعتقدوا مع ذلك أن كلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الأسماء والحروف وتلك غير مخلوقة، فقالوا: كلام الآدميين غير مخلوق؛ لأن مفرداته غير مخلوقة. وإذا ضوبقوا. فقد يقولون: النظم والتأليف مخلوق، وأما نفس المنظوم المؤلف فهو قديم، ثم يحسبون أن المواد المنظومة المؤلفة هي أدخل في الكلام من نفس التأليف والنظم، كما أن أجزاء البيت هي أدخل في مسماه من تأليفه وإن كان البيت اسماً للأجزاء ولتأليفها.

/وربما طرد بعضهم هذه «المقالة» في سائر أصوات الآدميين. ولما ألزمهم من خاطبهم ١٢/٥٤ بأصوات العباد، التي ليست بكلام طرد بعضهم ذلك في الأصوات، ثم طرد ذلك في أصوات البهائم، من الحمير وغيرها، ويلزمهم طرد ذلك في جميع الأصوات، حتى أصوات العيdan والمزامير؛ إذ لا فرق بينها وبين أصوات البهائم.

واعلم أن الجهالة إذا انتهت إلى هذا الحد صارت بمنزلة من يقول: إن الود، والحائط، والعجل الذي يعمل منه الجلد كلام الله، أو يقول: إن يزيد بن معاوية كان من الأنبياء الكبار، أو يقول: إن الله ينزل عشيّة عرفة على جمل أورك يعانق المشاة ويصافح الركبان، أو يقول: إن أبا بكر وعمر ليسا مدفونين بالحجرة، أو أنهما فرعون وهامان، وأنهما كانا كافرين عدوين للنبي ﷺ، مثل أبي جهل وأبي لهب، أو يقول: إن علي بن أبي طالب هو العلي الأعلى رب السموات والأرض، أو يقول: إن الذي صفعته اليهود وصلبته ووضعت الشوك على رأسه هو الذي خلق السموات والأرض، وإن اليدين المسمرتين هما اللتان خلقتا السموات والأرض، أو يقول: إن الله قعد في بيت المقدس يبكي وينوح حتى جاء بعض مشايخ اليهود فبرك عليه، أو أنه بكى حتى رمدت عيناه

وعاداته الملائكة، وأنه ندم على الطوفان، وعض يديه من الندم حتى جري الدم، أو ٤٥٥/١٢ يقول: إن/الشيخ فلان والشيخ فلان يخلق ويرزق، وكل رزق لا يرزقنيه ما أريده، أو يقول: إن عليا هو الذي كان يعلم القرآن للنبي ﷺ ، أو يقول: إن صانع العالم لما صنعه غلبت عليه الطبيعة حتى أهلك نفسه، أو يقول: إن وجوده ووجود هذا وهذا هو عين وجود الحق، وإن الله هو عين السموات والأرض والنبات والحيوان، وإن كل صوت ونطق في العالم فهو صوته وكلامه، وكل حركة في العالم وسكون فهو حركته وسكونه، وإن الحق المنزه هو الخلق المشبه، وأنه لو زالت السموات والأرض لزال حقيقته الله، وأنه من حيث ذاته لا اسم له ولا صفة، وأنه لا وجود له إلا في الأعيان الممكنات، وأنه الوجود المطلق الساري في المخلوقات ، الذي لا يتميز ولا ينفصل عن المخلوقات. إلى أمثال هذه المقالات التي يقولها الغلاة من المشركين والكتابين، ومن أشبههم من غالبية هذه الأمة.

فإن المنتسبين إلى السنة والحديث- وإن كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم، فالسنة في الإسلام كالإسلام في الملل ، كما أنه يوجد في المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد في غيرهم، وإن كان كل خير في غير المسلمين فهو في المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر، فكذلك المنتسبة إلى السنة - قد يوجد فيهم ما يوجد في غيرهم ٤٥٦/١٢، وإن كان كل خير في غير أهل السنة فهو فيهم أكثر، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر ؛ إذ قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « لتبعن سنن من كان قبلكم، حدو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: اليهود والنصارى ؟ قال : «فمن؟» (١) وقال: «لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم: شبرا بشبر، وذراعاً بذراع»، قالوا: فارس والروم ؟ قال : «ومن الناس إلا هؤلاء؟!» (٢)

وإزالة شبهة هؤلاء تحتاج إلى الكلام في الحروف والأسماء ، هل هي مخلوقة أم غير مخلوقة؟ وإن كنا قد أشرنا إلى ذلك، بل نتكلم على تقدير أنها غير مخلوقة ، ونقول مع هذا : يجب القطع بأن كلام الأدميين مخلوق، ويطلق القول بذلك إطلاقاً لا يحتاج إلى تفصيل ، بأن يقال: نظمه وتأليفه مخلوق، وحروفه وأسماءه غير مخلوقة أو تركيبه مخلوق ومفرداته غير مخلوقة ، فإن هذا التفصيل لا يحتاج إليه.

وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه ، كما قدمناه، ليس الكلام اسماً لمجرد الألفاظ، ولا لمجرد المعاني.

(١) سبق تخريجه ص ٣٩٩.

(٢) أحمد ٨٩/٣ وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة، وكلام السلف والأئمة، بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام، والقول، وهذا كلام فلان، أو كلام فلان، فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً/لشموله لهما، ليس حقيقة في اللفظ فقط، كما يقوله قوم، ٤٥٧/١٢ ولا في المعنى فقط، كما يقوله قوم، ولا مشترك بينهما، كما يقوله قوم، ولا مشترك في كلام الأدمين وحقيقة في المعنى في كلام الله، كما يقوله قوم.

ومنه قول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به» (١)، وقول معاذ له: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!» (٢)، وقوله: «كلمتان ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» (٣)، وقوله: «إن أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل» (٤)

وقوله: «إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً» (٥)، «فمن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة» (٦)، وما في القرآن: مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ونحو ذلك من أسماء القول والكلام جميعاً ونحوهما، فإنه يدخل فيه اللفظ والمعنى جميعاً عند الإطلاق.

/ وإذا كان كذلك، فالتكلم بالكلام المبتدئ له، سواء كان نظماً أو نثراً، لا ريب أنه ٤٥٨/١٢ هو الذي ألف معانيه وألف ألفاظه، وأما مفردات «الأسماء والحروف» فلا ريب أنه تعلمها من غيره، سواء كانت مخلوقة أو غير مخلوقة؛ فإن اللغات سابقة لكلام عامة المتكلمين، ونطق الناطقين من البشر، وهم تلقوا الأسماء، وحروف الأسماء الموجودة في لغاتهم عن قبلهم إلى أن ينتهي الأمر إلى أول متكلم بتلك الأسماء المفردة.

ثم إنه مما علم بالاضطرار واتفق عليه أهل الأرض جميعهم: أن الكلام هو كلام من ألف معانيه وألفاظه، وإن كان جميع ما فيه من الأسماء والحروف إنما تعلمها من غيره، فالناس مطبقون على أن هذه القصائد كلام منشئها، مثل شعر امرئ القيس، والنابغة

(١) سبق تخريجه ص ٥٩٧.

(٢) ابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) والترمذي في الايمان (٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح».

(٣، ٤) سبق تخريجهما ص ٤٤٠.

(٥) ابن ماجه في الأدب (٣٧٩٥) وفي الزوائد «اختلف على الشعبي» فقل: عنه، هكذا، وقيل: عنه عن أبي

طلحة عن أبيه. وقيل: عنه عن يحيى عن طلحة، وقيل: عنه عن طلحة، مرسل.

(٦) أبو داود في الجنائز (٣١١٦) وأحمد ٢٣٣/٥، ٢٤٧.

الذبياني، كقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فجميع الأمم يعلمون ويقولون: إن هذا شعر امرئ القيس وكلامه، وإن كانت الأسماء المفردة فيه إنما تعلمها من غيره؛ فإن العرب نطقت قبله بلفظ «قفا» ولفظ «نبك» ولفظ «من ذكرى» «حبيب» «ومنزل».

٥٩/١٢ وجميع المسلمين إذا سمعوا قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) أو «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار»^(٢)، وقوله: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣)، قالوا: هذا كلام رسول الله ﷺ، وهذا حديثه، وهذا قوله، مع علمهم أن جميع مفردات هذا الكلام قد كانت موجودة في كلام العرب قبله، مثل لفظ «إنما» ولفظ «الأعمال» ولفظ «النية»، «النيات» ولفظ «كل امرئ» ولفظ «ما نوى» وغير ذلك.

وهكذا كلام الصحابة والتابعين وكلام مصنفى الكتب والرسائل والخطب، كلهم يقول: هذه الرسالة كلام فلان، وهذه الخطبة كلام فلان، وهذه المسألة من كلام فلان، مع علمهم بأنه مسبوق بمفردات الكلام، أسمائه، وحروف هجائه، وذلك لأن الكلام لم يكن كلاماً باعتبار الألفاظ المفردة، ولا باعتبار أجزائها - وهي حروف الهجاء - ولا كان المقصود بوضع اللفظ للمعنى الدلالة على المعاني المفردة؛ فإن المعاني المفردة لا يعلم وضع اللفظ لها إلا بعد العلم بها، فلو كان العلم بها لا يستفاد إلا من اللفظ لزم الدور.

٤٦٠/١٢ ولهذا يقول أهل العربية - وهم أخير بمشبهات الألفاظ من/غيرهم- : إن اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالمركبة من اسمين ، أو اسم وفعل . وقد ذكر ذلك - سيبويه - حكيم لسان العرب في (باب الحكاية بالقول)، حيث ذكر أن القول يحكى به ما كان كلاماً، ولا يحكى به ما كان قولاً، والقول إنما تحكى به الجملة المفيدة، فعلم أنها هي الكلام في لغة العرب.

وحيث أطلق الفقهاء اسم «الكلام» على حرفين فصاعداً في (باب الصلاة)، فإنما غرضهم ما يبطل الصلاة ، سواء كان مفيداً أو غير مفيد، وموضوعاً ، أو مهملاً، حتى لو صوت تصويئاً طويلاً، ولحن لحن الغناء أبطل الصلاة، وإن لم يكن ذلك في اللغة كلاماً. وهم فيما إذا حلف لا يتكلم أو ليتكلمن، لا يعلقون البر والحنث إلا بما هو في

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤ .

(٢) البخارى فى الإيمان (١٦) ومسلم فى الإيمان (٤٣/٦٧، ٦٨) .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٤٢ .

عرف الخالف كلام، وإن كان أخص من الكلام الذي يبطل الصلاة، ولهذا لو حلف لا يتكلم، وأطلق يمينه حث بكلام المخلوقين، وهل يحث بتكلمه بالقرآن؟ من العلماء من قال: لا يحث بحال. ومنهم من قال: لا يحث بتلاوته في الصلاة. ومنهم من توقف؛ لأن اليمين مرجعها إلى عرف الخالف، فعموم اسم الكلام وخصوصه عندهم بحسب الأحكام المتعلقة به.

والسلف إذا ذموا أهل الكلام وقالوا: علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح - فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير ٤٦١/١٢ طريقة المرسلين.

والخائضون في «أصول الفقه» وإن قالوا: إن الكلام: ما تألف من حرفين فصاعداً، أو ما انتظم من «الحروف» وهي الأصوات المقطعة المتواضع عليها، وتنازعوا في الحرف الواحد المؤلف مع غيره، هل يسمى كلاماً؟ على قولين؛ كما قال أكثر متكلميهم: إن الجسم هو المؤلف، وأقل التركيب من جوهرين وتنازعوا في الجوهر الواحد المؤلف، هل يسمى جسمًا؟ على قولين؛ فهذا اصطلاح خاص لهم.

كما اصطلاح (النحاة) على أن (المفرد) مثل الاسم وحرف المعنى يسمى كلمة، وإن كانت الكلمة في لغة العرب العرباء لا توجد إلا اسماً للجملة التامة إلا أن يكون شيئاً لا يحضرني الآن.

وإذا كان الناس متفقين على أن الكلام هو كلام من ألف ألفاظه ومعانيه، وإن كان قد تعلم أسماء من غيره زالت كل شبهة في المسألة، ووجب إطلاق القول بأن كلام الآدميين مخلوق، كما يطلق القول بأن هذا الشعر من كلام فلان وهذا الكلام كلام فلان، لا كلام الذين تكلموا قبلهم بتلك الأسماء وحروفها؛ فإن كلام الآدميين هو كلام^(١) الذين أنشؤوه وابتدؤوه فألفوا ألفاظه ومعانيه، وإن كان بعضهم قد تعلم أسماء وحروفه من بعض، ولو كانت أسماءه قد سمعوها من الله - تعالى.

/ واعلم أن هنا أمراً عجيباً، وهو أن هؤلاء القوم ضد الذين يجعلون القرآن الذي ٤٦٢/١٢ يقرؤونه كلام الآدميين، لا كلام الله، فإن أولئك عمدوا إلى كلام الله - الذي يتلونه ويبلغونه ويؤدونه - فجعلوه كلام أنفسهم، وهؤلاء عمدوا إلى كلامهم - المتضمن الكفر والفسوق والعصيان والكذب والبطلان - فجعلوه كلام الله الذي ليس بمخلوق، فأولئك لم ينظروا إلا إلى من سمع منه الكلام، وهؤلاء لم ينظروا إلا إلى من اعتقدوا أنه تكلم أولاً بمفردات الكلام.

(١) في المطبوعة: «الكلام» والصواب ما أثبتناه.

وأما «الأمة الوسط» الباقون على الفطرة ، وجميع بني آدم ، فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداه ، ولما قرأه من كلام غيره وتلاه: هذا كلام ذاك ، وإنما بلغته بقواك ، كما قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لما خرج على قريش فقرأ عليهم: ﴿الَّذِي غَلَبَتْ أَلْوَمُ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣] ، فقالوا: هذا كلامك ، أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكن كلام الله .

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿فَأَجِزْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، وفي سنن أبي داود عن جابر ، عن النبي ﷺ ؛ أنه كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فيقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١) ١٢/٦٣ ، فينزل ﷺ أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته ، كما قال: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢) وقال: «لله أشدُّ أذُنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القِنَّة إلى قينته»^(٣) .

والأهم متفقون على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة من «شعر» مثل «قفا نبك» ، «وهل غادر الشعراء» أو «خطبة» مثل خطب علي ، وزباد ، أو «رسالة» كرسالة عبد الحميد ونحوه ، أو سجعا من سجع الكهان ، أو قرآنا مفترى كقرآن مسيلمة الكذاب قالوا: هذا شعر امرئ القيس ، وكلام علي ، وكلام عبد الحميد ، وقرآن مسيلمة ، وهو كلامه ، ولم يجعلوه كلاما للمبلغ المؤدي بالواسطة ، وإن كان بلغه بفعله وصوته ، وإذا أنشأ رجل قصيدة ، أو خطبة ، أو رسالة ، أو سجعا ، أو تكلم بكلام منشور؛ أمرا أو مخبرا قالوا: هذا كلام فلان ، وقوله ، وإن كان قد تعلم مفرداته من غيره ، وتلقنها من أحد .

فمن قال: إن الكلام هو كلام لمن تعلم منه المفردات ، فهو أبعد عن العقل والدين من قال: إن الكلام لمن بلغه وأداه ، وإنما الكلام كلام من اتصل به ، واتصف به ، وألفه ، وأنشأه ، وكان مخبرا بخبره ، وأمرا بأمره ، وناهيا عن نهيه .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٤١٣ .

(٣) سبق تخريجه ص ٤٧٥ .

وأما سؤال السائل: هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم؟ فنعم، يجب ذلك في هؤلاء، وفي كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة؛ فإن ذلك من «المنكر» الذي أمر الله بالنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وهو من «الإثم» الذي قال الله فيه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَعْلَاهُمْ أَسْحَتُ﴾ [المائدة: ٦٣].

وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفي عن الله ما أثبت لنفسه من المعطلة والممثلة، فإنه قال على الله غير الحق، وذلك مما زجر الله عنه بقوله للنصارى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وبقوله: ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ يَفْعِلُ الْحَقُّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَكُمْ بِهِ بَيِّنَاتٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فإن من قال غير الحق، فقد قال على الله ما لا يعلم؛ فإن الباطل لا يعلم إلا إذا علم بطلانه، فأما اعتقاد أنه الحق فهو جهل لا علم، فمن قاله، فقد قال ما لا يعلم، وكذلك من تبع في هذه الأبواب وغيرها من أبواب الدين آباءه وأسلافه من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والإجماع، فإنه ممن ذمه الله في كتابه؛ مثل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُّنَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وكذلك من اتبع الظنون والأهواء معتقداً أنها «عقليات» و«ذوقيات»، فهو ممن قال الله فيه: ﴿إِنْ يَكْفُرُوا إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، وإنما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزل من السماء، والرسول المؤيد بالأنباء، كما قال تعالى: ﴿أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ٤٦٦/١٢

يَا لِحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿البقرة: ٢١٣﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، بل على الناس أن يلتزموا الأصول الجامعة الكلية التي اتفق عليها سلف الأمة وأئمتها؛ فيؤمنون بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين – وإن أخطأ وغلط – حتي تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة.

فصل

وأما تكفير قائل هذا القول، فهو مبني على أصل لا بد من التنبيه عليه؛ فإنه بسبب عدم ضبطه اضطربت الأمة اضطراباً كثيراً في تكفير أهل البدع والأهواء، كما اضطربوا قديماً وحديثاً في سلب الإيمان عن أهل الفجور والكبائر، وصار كثير من أهل البدع- مثل الخوارج، والروافض، والقدرية، والجهمية، والمثلية- يعتقدون اعتقاداً هو ضلال ١٢/٤٦٧/يرونه هو الحق، ويرون كفر من خالفهم في ذلك، فيصير فيهم شوب^(١) قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق، ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفر بالمقالة التي لا تفهم حقيقتها، ولا تعرف حجتها.

وبإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة، كما يجب، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونهم، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم، بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذمّاً مطلقاً، لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وما يقوله أهل البدعة والفرقة، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة، كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة، وبعض المتفقهة، والمتصوفة، والمتفلسفة، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة.

(١) أي: خلط. انظر: لسان العرب، مادة «شوب».

وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله، والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء، فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل، ويؤمن به، ويبلغه، ويدعو إليه، ويجاهد عليه، ويزن جميع ما خاض الناس فيه ٤٦٨/١٢ من أقوال وأعمال في الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله، غير متبعين لهوى، من عادة، أو مذهب، أو طريقة، أو رئاسة، أو سلف، ولا متبعين لظن؛ من حديث ضعيف، أو قياس فاسد — سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل — أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله، فإن الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوي الأنفس، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى.

فصل

إذا تبين ذلك، فاعلم أن «مسائل التكفير، والتفسيق» هي من مسائل «الأسماء والأحكام» التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا؛ فإن الله — سبحانه — أوجب الجنة للمؤمنين، وحرم الجنة على الكافرين، وهذا من الأحكام الكلية في كل وقت ومكان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال تعالى — لما ذكر قول اليهود والنصارى —: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. فأمر أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام، وما فيه من الإثبات الباطل، ثم قال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

فأخبر — سبحانه — عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين، وعن المؤمنين بعد مبعث محمد ﷺ، أنه من جمع «الخصال الثلاث» التي هي جماع الصلاح، وهي الإيمان بالخلق، والبعث بالمبدأ والمعاد، والإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، وهو أداء المأمور به، وترك المنهي عنه، فإن له حصول الثواب وهو أجره عند ربه واندفاع العقاب فلا خوف عليه مما أمامه ولا يحزن على ما وراءه؛ ولذلك قال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إخلاص الدين لله، وهو عبادته وحده لا شريك له، وهو حقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهو محسن.

فالأول: وهو إسلام الوجه هو النية، وهذا الثاني - وهو الإحسان - هو العمل.
وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الإيمان العام، والإسلام العام، الذي أوجبه الله على جميع عباده، من الأولين والآخرين.

٤٧٠/١٢ /وهو «دين الله العام» الذي لا يقبل من أحد سواه، وبه بعث جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى - لبني آدم جميعاً - : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

فكان من أول البدع والتفرق الذي وقع في هذه الأمة، بدعة الخوارج المكفرة بالذنب؛ فإنهم تكلموا في الفاسق الملي^(١)، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة، ومنهم من قال: والصغيرة لا تجامع الإيمان أبداً، بل تنافيه وتفسده، كما يفسد الأكل والشرب الصيام، قالوا: لأن الإيمان هو فعل المأمور، وترك المحظور، فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات.

٤٧١/١٢ /ثم قالت الخوارج: فيكون العاصي كافراً؛ لأنه ليس إلا مؤمن وكافر، ثم اعتقدوا أن عثمان وعلياً وغيرهما عصوا، ومن عصى فقد كفر، فكفروا هذين الخليفتين وجمهور الأمة. وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين، أنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر.

وقابلتهم المرجئة، والجهمية، ومن اتبعهم من الأشعرية والكرامية. فقالوا: ليس من الإيمان فعل الأعمال الواجبة، ولا ترك المحظورات البدنية، والإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع المؤمنين، من الملائكة، والنبين، والمقرين، والمقتصدين، والظالمين.

ثم قال فقهاء المرجئة: هو التصديق بالقلب واللسان، وقال أكثر متكلميهم:

(١) نسبة إلى أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى.

هو التصديق بالقلب. وقال بعضهم : التصديق باللسان. قالوا: لأنه لو دخلت فيه الواجبات العملية لخرج منه من لم يأت بها كما قالت الخوارج، ونكتة هؤلاء جميعهم: توهمهم أن من ترك بعض الإيمان فقد تركه كله.

وأما أهل السنة والجماعة- من الصحابة جميعهم والتابعين، وأئمة أهل السنة وأهل الحديث، وجماهير الفقهاء والصوفية، مثل مالك والثوري، والأوزاعي، وحمام بن زيد، والشافعي، وأحمد بن حنبل/وغيرهم، ومحققي أهل الكلام- فاتفقوا على أن ٤٧٢/١٢ الإيمان والدين قول وعمل. هذا لفظ السلف من الصحابة وغيرهم، وإن كان قد يعني بالإيمان في بعض المواضع ما يغير العمل، لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل - أيضاً - في مسمى الدين، والإيمان، و يدخل في القول قول القلب واللسان، وفي العمل عمل القلب والجوارح.

وقال المفسرون لمذهبهم: إن له أصولاً وفروعاً، وهو مشتمل على أركان وواجبات - ليست بأركان - ومستحبات، بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرهما من العبادات؛ فإن اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل وترك، مثل الإحرام وترك محظوراته، والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى والطواف ببيت الله الحرام، وبين الجبلين المكتفين به، وهما الصفا والمروة.

ثم الحج مع هذا مشتمل على أركان، متى تركت لم يصح الحج، كالوقوف بعرفة، وعلى ترك محظور متى فعله فسد الحج، وهو الوطء. ومشتمل على واجبات، من فعل وترك، يَأْثُم بتركها عمداً، ويجب مع تركها- لعذر أو غيره- الجبران بدم، كالإحرام من المواقيت المكانية والجمع بين الليل والنهار بعرفة، وكرمي الجمار ونحو ذلك، وكترك اللباس المعتاد، والتطيب والصيد وغير ذلك. ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها، فلا يَأْثُم بتركها، ولا يجب دم، مثل رفع الصوت بالإلهال والإكثار منه، وسوق الهدى، وذكر الله، ودعائه في الطواف، والوقوف وغيرهما، وقلة الكلام ٤٧٣/١٢ إلا في أمر بمعروف، ونهي عن منكر، أو ذكر الله - تعالى - فمن فعل الواجب، وترك المحظور، فقد أتم الحج والعمرة لله، وهو مقتصد من أصحاب اليمين في هذا العمل.

لكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم منه حجاً، وهو سابق مقرب، ومن ترك المأمور، وفعل المحظور، لكنه أتى بركنه، وترك مفسده فهو حاج حجا ناقصاً، يثاب على ما فعله من الحج، ويعاقب على ما تركه، وقد سقط عنه أصل الفرض بذلك، مع عقوبته على ما تركه، ومن أخل بركن الحج أو فعل يُفسدُه فحجه فاسد لا يسقط به فرض، بل عليه إعادته، مع أنه قد يتنازع في إثابته على ما فعله، وإن لم يسقط به الفرض، والأشبه

أنه يثاب عليه .

فصار الحج ثلاثة أقسام : كاملاً بالمستحبات ، وتاماً بالواجبات فقط ، وناقصاً عن الواجب .

والفقهاء يقسمون الوضوء والغسل إلى كامل ومجزئ، لكن يريدون بالكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه، وبالمجزئ ما اقتصر علي واجبه، فهذا في «الأعمال المشروعة» . وكذلك في «الأعيان المشهوده»، فإن الشجرة — مثلاً — اسم لمجموع الجذع والورق ١٢/٧٤ والأغصان، وهي بعد ذهاب الورق/شجرة، وبعد ذهاب الأغصان شجرة؛ لكن كاملة وناقصة، فليفعل مثل ذلك في مسمى الإيمان والدِّين، أن الإيمان ثلاث درجات: إيمان السابقين المقربين، وهو ما أتى فيه بالواجبات والمستحبات، من فعل وترك . وإيمان المقتصدین أصحاب اليمين، وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك ، وإيمان الظالمين، وهو ما يترك فيه بعض الواجبات، أو يفعل فيه بعض المحظورات .

ولهذا قال علماء السنة في وصفهم « اعتقاد أهل السنة والجماعة»: إنهم لا يُكفُّرون أحداً من أهل القبلة بذنب، إشارة إلى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوب، فأما أصل الإيمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقاً به وانقياداً له، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن؛ ولهذا تواتر في الأحاديث: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(١) «مثقال حبة من إيمان»، وفي رواية الصحيح أيضاً: «مثقال حبة من خير» «مثقال ذرة من خير»^(٢) وقال ﷺ — في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة —: «الإيمان بضع وستون — أو بضع وسبعون — شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٣)، فعلم أن الإيمان يقبل التبعض والتجزئة، وأن قليله يخرج الله به من النار من دخلها، ليس هو ١٢/٧٥ كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة: أنه لا يقبل التبعض والتجزئة، بل هو شيء واحد، إما أن يحصل كله، أو لا يحصل منه شيء .

ومما يتصل به أن يعرف أن الإيمان هو من الأسماء الكتابية، القرآنية، النبوية، الدينية، الشرعية، فيتنوع مسماها قدرًا ووصفًا بتنوع الكتب الإلهية ؛ فمنه ما هو متفق عليه بين جميع المؤمنين، من الأولين والآخرين ، وجميع الكتب الإلهية، مثل الإقرار بالله، واليوم الآخر، وعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل .

واعلم أن عامة السور المكية — التي أنزلها الله بمكة — هي في هذا الإيمان العام المشترك

(١) البخارى فى الإيمان (٢٢) ومسلم فى الإيمان (١٨٤/٣٠٤) .

(٢) البخارى فى الإيمان (٩) ومسلم فى الإيمان (٥٧/٣٥، ٥٨) .

(٣) مسلم فى الإيمان (١٨٣/٣٠٢) .

بين الأنبياء جميعهم، والمؤمنين جميعهم. وهذا القدر المشترك هو في بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً؛ فإن ما جاء به محمد ﷺ من أسماء الله وصفاته، ووصف اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء.

ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج، كالقبلة والمنسك، ومقادير العبادات، وأوقاتها وصفاتها، والسنن والأحكام وغير ذلك، فمسمى الإيمان والدين في أول الإسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة، بل مسماه في الآخر أكمل، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال في السورة: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾، [المائدة: ٥]؛ ولهذا قال الإمام أحمد: كان بدء الإيمان في أول الإسلام ناقصاً، فجعل يتم، وهكذا مسمى الإيمان والدين، قد شرع في حق الأشخاص بحسب ما أمر الله به ٤٧٦/١٢ كلا منهم، وبحسب ما فعله مما أمر الله به.

ولهذا كان المؤمنون من الأولين والآخرين، من الذين هادوا، والنصارى، والصابئين، والمؤمنين من أمة محمد ﷺ، مشتركين في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، كما دل عليه القرآن.

مع أن اليهود كان يجب عليهم الإقرار بما لا يجب علينا الإقرار به، مثل إقرارهم بواجبات التوراة، وبمحرماتها، مثل السبت، وشحم الثرب^(١) والكليتين. ولا يجب عليهم التصديق المفصل بما لم ينزل عليهم من أسماء الله وصفاته، وصفات اليوم الآخر. ونحن يجب علينا من الإيمان بذلك ما لم يجب عليهم، ويجب علينا من الإقرار بالصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وحج البيت، وغير ذلك مما هو داخل في إيماننا وليس داخلاً في إيمانهم؛ فإن الإقرار بهذه الأشياء داخل في الإيمان باتفاق الأمة. وكذلك الإقرار بأعيان الأنبياء كان الإقرار بأعيانهم داخلاً في إيمان من قبلنا، ونحن إنما ندخل في إيماننا الإقرار بهم من حيث الجملة.

والمنازعون لأهل السنة منهم من يقول: الإيمان في الشرع مبقى على ما كان عليه في اللغة، وهو التصديق، ومنهم من يقول: هو / منقول إلى معنى آخر، وهو أداء ٤٧٧/١٢ الواجبات.

وأما أهل السنة فقد يقول بعضهم: هو منقول كالأسماء الشرعية، من الصلاة، والزكاة، وقد يقول بعضهم: بل هو متروك على ما كان، وزادت عليه الشريعة أشياء. ومنهم من يقول: بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه؛ فإن الأعمال داخلة في التصديق، فالؤمن يصدق قوله بعمله، كما قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتَّمَنَّى ولا بالتَّحَلَّى؛ ولكن ما وَقَرَّ في القلب، وصَدَّقَ العمل. ومنه قول

(١) أي: الحرش والأمعاء. انظر: القاموس، مادة «ثرب».

النبي ﷺ : « والفرَجُ يُصدِّقُ ذلكَ أوْ يُكذِّبُه » (١) . ومنهم من يقول : ليس الإيمان في اللغة هو التصديق ، بل هو الإقرار ، وهو في الشرع الإقرار أيضاً ، والإقرار يتناول القول والعمل . وليس هذا موضع بسط ذلك ، فقد بسطته في غير هذا الموضع .

وليس هذا موضع بسط ذلك ، فقد بسطته في غير هذا الموضع .

وإذا عرف مسمى الإيمان ، فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار ، وذم من ترك بعضه ونحو ذلك - يراد به الإيمان الواجب ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ الآية [الأنفال : ٢] ؛ وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ [النور : ٦٢] . وقوله في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وقوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٢) ، فنفى عنه الإيمان الواجب الذي يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الإيمان ، وسائر أجزائه وشعبه ، وهذا معنى قولهم : نفي كمال الإيمان لا حقيقته ، أي الكمال الواجب ، ليس هو الكمال المستحب ، المذكور في قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزئ .

ومن هذا الباب : قوله ﷺ : « من غَشَّنَا فليس منا » (٣) ، ليس المراد به أنه كافر ، كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا ، كما تأولته المرجئة ، ولكن المضمّر يطابق المظهر ، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاشُّ ليس منا لأنه متعرض لسخط الله وعذابه .

وإذا تبين هذا ، فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه ، إما لعدم تمكنه من العلم ، مثل ألا تبلغه الرسالة ، أو لعدم تمكنه من العمل - لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الإيمان/والدين الواجب في حقه ، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل ، بمنزلة صلاة المريض ، والخائف ، والمستحاضة ، وسائر أهل الأعذار ، الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ؛ فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه ، وبه أمروا إذ ذاك ، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل ، كما قال النبي ﷺ : « المؤمن

(١) البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣) ومسلم فى القدر (٢٦٥٧ / ٢٠ ، ٢١) .

(٢) البخارى فى المظالم (٢٤٧٥) ومسلم فى الإيمان (٥٧ / ١٠٠ ، ١٠١) . (٣) مسلم فى الإيمان (١٦٤ / ١٠١) .

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» رواه مسلم عن أبي هريرة في حديث حسن السياق^(١)، وقوله: « صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم، وصلاة القائم على النصف من صلاة القاعد»^(٢)، ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الإيمان به، علماً واعتقاداً دون العمل.

فصل

فهذا أصل مختصر في « مسألة الأسماء » ، وأما «مسألة الأحكام» وحكمه في الدار الآخرة، فالذي عليه الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، وسائر أهل السنة والجماعة ، أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان، بل يخرج منها من معه مثقال حبة، أو مثقال ذرة من إيمان.

وأما الخوارج- ومن وافقهم من المعتزلة - فيوجبون خلود من|دخل النار ، وعندهم: ٤٨٠/١٢ من دخلها خلد فيها، ولا يجتمع في حق الشخص الواحد العذاب والثواب، وأهل السنة والجماعة، وسائر من اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين، في حق خلق كثير، كما جاءت به السنن المتواترة عن النبي ﷺ.

وأيضاً ، فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب في حق كل من أتى كبيرة، ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها ، بل يجوز عندهم أن صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب إما لحسنات تمحو كبيرته منه أو من غيره، وإما لمصائب كفرتها عنه، وإما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه، وإما لغير ذلك.

والوعيدية - من الخوارج والمعتزلة- يوجبون العذاب في حق أهل الكبائر ؛ لشمول نصوص الوعيد لهم، مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِنَا ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد «الأصول الخمسة» التي يكفرون من خالفها، ويخالفون أهل السنة والجماعة في وجوب نفوذ الوعيد فيهم ، وفي تخليدهم؛ ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لبنينا ﷺ شفاعة في أهل الكبائر في إخراج أهل الكبائر من النار، وهذا مردود بما تواتر عنه من السنن في ذلك،

(١) مسلم في القدر (٣٤/٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (٧٩) .

(٢) أبو داود في الصلاة (٩٥١) ، والترمذي في أبواب الصلاة (٣٧١) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائي في قيام الليل (١٦٦٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٣١) ، وأحمد ٤/٤٣٣ ، ٤٣٥ ، كلهم عن عمران بن حصين .

٤٨١/١٢ كقوله ﷺ: /«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١) وأحاديثه في إخراجهم من النار من قد دخلها.

وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول ، وإنما الغرض التنبيه عليها ، وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فأروها عامة ، فقالوا: يجب أن يدخل فيها كل من شملته ، وهو خير ، وخبر الله صدق ، فلو أخلف وعيده كان كإخلاف وعده ، والكذب على الله محال ، فعارضهم غالبية المرجئة بنصوص الوعد ، فإنها قد تتناول كثيراً من أهل الكبائر ، فعاد كل فريق إلى أصله الفاسد.

فقال الأولون: نصوص الوعد لا تتناول إلا مؤمناً ، وهؤلاء ليسوا مؤمنين . وقال الآخرون : نصوص الوعيد لا تتناول إلا كافراً ، وكل من القولين خطأ؛ فإن النصوص - مثل قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] - لم يشترط فيها الكفر ، بل هي في حق المتدين بالإسلام . وقوله: « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله ، دخل الجنة »^(٢) لم يشترط فيه فعل الواجبات ، بل قد ثبت في الصحاح : « وإن زنى ، وإن سرق ، وإن شرب الخمر »^(٣).

فهنا اضطرب الناس ، فأنكر قوم من المرجئة العموم ، وقالوا: ليس في اللغة عموم ، ٤٨٢/١٢ وهم الواقفية في العموم من المرجئة ، وبعض الأشعرية والشيعة ، وإنما التزموا ذلك لئلا يدخل جميع المؤمنين في نصوص الوعيد.

وقالت المقتصدة : بل العموم صحيح ، والصيغ صيغ عموم ؛ لكن العام يقبل التخصيص ، وهذا مذهب جميع الخلائق ، من الأولين والآخرين ، إلا هذه الشريعة . قالوا: فمن عفى عنه كان مستثنى من العموم . وقال قوم آخرون: بل إخلاف الوعيد ليس بكذب ، وأن العرب لا تعد عاراً أو شئراً^(٤) أن يوعد الرجل شراً ثم لا ينجزه ، كما تعد عاراً أو شئراً أن يعد خيراً ثم لا ينجزه ، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي ﷺ .

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

قالوا: فهذا وعيد خاص ، وقد رجا فيه العفو ، مخاطباً للنبي ﷺ ؛ فعلم أن العفو عن المتوعد جائز ، وإن لم يكن من باب تخصيص العام.

(١) أبو داود في السنة (٤٧٣٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٥) وقال : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، وأحمد ٢١٣/٣ . (٢) سبق تخريجه ص ٦٢٥ .

(٣) البخاري في الجنائز (١٢٣٧) ومسلم في الإيمان (٩٤/١٥٣ ، ١٥٤) .

(٤) هو أقبح العيب ، والعار ، والأمر المشهور بالشئمة . انظر : القاموس ، مادة « شمر » .

والتحقيق أن يقال: الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد/والوعيد، كما ذلك ٤٨٣/١٢ مشتمل على نصوص الأمر والنهي، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط؛ لأن القرآن قد دل علي أن من ارتد فقد حبط عمله، فكذلك نصوص الوعد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، وهذا متفق عليه بين المسلمين، فكذلك في موارد النزاع.

فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب، وأنه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل الكباير، وأنه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما بين أن الصدقة يطلها المن والأذى، وأن الربا يبطل العمل، وأنه إنما يتقبل الله من المتقين؛ أي في ذلك العمل ونحو ذلك.

فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة.

وبهذا تبين أننا نشهد بأن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَنِي ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَهُمْ لَا يَلْعَلُونَ﴾ [النساء: ١٠]، على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار؛ لأننا لا نعلم حقوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه، وفائدة الوعيد: بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه، وانتفاء مانعه.

يبين هذا: أنه قد ثبت: أن النبي ﷺ لعن الخمر، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها وساقياها، وبائعها، ومبتاعها، وأكل ثمنها (١). وثبت عنه في صحيح البخاري عن عمر: أن رجلاً كان يكثر شرب الخمر، فلعنه رجل، فقال النبي ﷺ: «لا تلعه؛ فإنه يحب الله ورسوله» (٢)، فنهى عن لعن هذا المعين، وهو مُدْمِن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله، وقد لعن شارب الخمر على العموم.

(١) أبو داود في الأشربة (٣٦٧٤) والترمذي في البيوع (١٢٩٥) وقال: «حديث غريب من حديث أنس».

(٢) البخاري في الحدود (٦٧٨٠).

فصل

إذا ظهرت هذه المقدمات في اسم المؤمن والكافر، والفاسق المَلِيّ (١) وفي حكم الوعد ٨٥/١٢ والوعيد، والفرق بين المطلق والمعين، وما وقع في/ذلك من الاضطراب، ف «مسألة تكفير أهل البدع والأهواء» متفرعة على هذا الأصل.

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة. فنقول:

المشهور من مذهب الإمام أحمد، وعامة أئمة السنة، تكفير الجهمية، وهم المعطلة لصفات الرحمن؛ فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب، وحقيقة قولهم جحود الصانع، ففيه جحود الرب، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله، ولهذا قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وقال غير واحد من الأئمة: إنهم أكفر من اليهود والنصارى؛ يعنون من هذه الجهة؛ ولهذا كفروا من يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يرى في الآخرة، وإن الله ليس على العرش، وإن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا رحمة، ولا غضب، ونحو ذلك من صفاته.

وأما المرجئة، فلا تختلف نصوصه أنه لا يكفرهم؛ فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء؛ ولهذا يسمى الكلام في مسائلهم «باب الأسماء»، وهذا من نزاع الفقهاء، لكن يتعلق ٨٦/١٢ بأصل الدين، فكان المنازع فيه مبتدعاً.

وكذلك الشيعة - المفضلون لعليٍّ على أبي بكر - لا يختلف قوله أنهم لا يكفرون؛ فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً، وإن كانوا يبدعون.

وأما القدريّة - المقرون بالعلم - والروافض - الذين ليسوا من الغالية، والجهمية، والخوارج - فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان، هذا حقيقة قوله المطلق، مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدريّة المقرين بالعلم، والخوارج، مع قوله: ما أعلم قوماً شراً من الخوارج.

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين، حتى يجعلوا المرجئة داخلين في ذلك، وليس الأمر كذلك، وعنه في تكفير من لا يكفر روايتان، أصحابهما: لا يكفر. وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لا يكفر مطلقاً، وهو

(١) تقدم معناها.

خطأ محض، والجهمية - عند كثير من السلف ، مثل عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم - ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة، التي اختلفت عليها هذه الأمة، بل أصول هذه عند هؤلاء : هم الخوارج والشيعة، والمرجئة والقدرية، وهذا المأثور/عن أحمد، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة، والحديث أنهم كانوا ٤٨٧/١٢ يقولون: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ونحو ذلك.

ثم حكى أبو نصر السجزي عنهم في هذا قولين: أحدهما: أنه كفر ينقل عن الملة. قال: وهو قول الأكثرين، والثاني: أنه كفر لا ينقل؛ ولذلك قال الخطابي: إن هذا قالوه على سبيل التغليظ، وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا في تخليد المكفر من هؤلاء، فأطلق أكثرهم عليه التخليد، كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث، كأبي حاتم، وأبي زرعة وغيرهم، وامتنع بعضهم من القول بالتخليد.

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة؛ فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم، ثم إنهم يرون من الأعيان، الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافراً، فيتعارض عندهم الدليلان.

وحقيقة الأمر: أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع، كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط ٤٨٨/١٢ وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة - الذين أطلقوا هذه العمومات - لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد - مثلاً - قد باشر «الجهمية» الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفى الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات - الذين لم يوافقوهم على التجهم - بالضرب والحبس، والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق، ورد الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولى الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم، يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكونه من عدو، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فتياً، ولا رواية، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة، والافتكاك من الأسر وغير ذلك. فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل

الإيمان ، ومن كان داعياً إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه .

٤٨٩/١٢ ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم؛ فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب.

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه ، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وإن الله لا يرى في الآخرة، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قومًا معينين، فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان، ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفصيل . فيقال: من كفر بعينه؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه ، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتفكير على سبيل العموم.

والدليل على هذا الأصل: الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والاعتبار.

أما الكتاب، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ^(١) عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤٩٠/١٢ / وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ؛ أن الله - تعالى - قال: «قد فعلتُ»^(٢) لما دعا النبي ﷺ والمؤمنون بهذا الدعاء . وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال : « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش »^(٣) ، و« إنه لم يقرأ بحرف منها إلا أعطيه »^(٤) .

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان ، فهذا عام عموماً محفوظاً ، وليس في الدلالة الشرعية ما يوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه ، وإن عذب المخطئ من غير هذه الأمة .

(١) في المطبوعة : « ولا » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) مسلم في الإيمان (١٢٦ / ٢٠٠) عن ابن عباس ، وروى الحديث بمعناه عن أبي هريرة في مسلم في الإيمان (١٩٩ / ١٢٥) .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٦٥ .

(٤) مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٦ / ٢٥٤) ، والنسائي في الافتتاح (٩١٢) .

وأيضاً ، قد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال: « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط فقال لأهله: إذا مات فأحرقوه، ثم أذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، فإذا هو قائم بين يديه، ثم قال : لم فعلتَ هذا ؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فغفر الله له»^(١).

/ وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ، رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي ٤٩١/١٢ سعيد، وحذيفة وعقبة بن عمرو، وغيرهم عن النبي ﷺ من وجوه متعددة ، يعلم أهل الحديث أنها تفيدهم العلم اليقيني، وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ممن لم يشركهم في أسباب العلم، فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله - تعالى - على إعادة ابن آدم، بعد ما أحرق وذري ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله -تعالى- وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير .

والثاني : متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحاً - وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه- غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر والعمل الصالح .

وأيضاً ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : «أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان»^(٢) / وفي رواية : « مثقال دينار من خير ، ثم يخرج من النار من ٤٩٢/١٢ كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(٣) ، وفي رواية: « من خير» «ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان - أو خير»^(٤) وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ ، يدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلاً، وأن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ . ومعلوم - قطعاً - أن كثيراً من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله؛ إذ الكلام فيمن يكون كذلك .

وأيضاً ، فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك ، مثلما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحى، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل

(١) البخارى فى الاثنياء (٣٤٨١) ومسلم فى التوبة (٢٧٥٦/٢٤).

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٩) ومسلم فى الإيمان (٣٠٢/١٨٣). (٣، ٤) سبق تخريجهما ص ٦٣٤ .

كلام معروف، وكذلك لبعضهم في قتال بعض، ولعن بعض، وإطلاق تكفير بعض، أقوال معروفة.

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ [الصافات: ١٢]، ويقول: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النَّحْبِي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله إفقه منه، فكان يقول: «بل عجبت» فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف ٤٩٣/١٢ القرآن، مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: إنما هي: أو لم يتبين الذين آمنوا، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: إنما هي: ووصى ربك. وبعضهم كان حذف المعوذتين، وآخر يكتب سورة القنوت. وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

وأيضاً، فإن الكتاب والسنة قد دلا على أن الله لا يعذب أحداً، إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿يَمْعَسَرُ الْغَيْنُ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعْزِزْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقولهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، وقوله: ﴿كُلَّمَا أَتَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة.

فمن كان قد^(١) آمن بالله ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن

(١) في المطبوعة: «قدم» وهو خطأ.

به تفصيلاً؛ إما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به- فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفتها.

وأيضاً ، فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفة، بل ولا يفسق ، بل ولا يآثم ، مثل الخطأ في الفروع العملية، وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب، فهذان القولان شاذان، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع/فيها بالنصوص والإجماع القديم ٤٩٥/١٢، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر، واستحلال آخرين للقتال في الفتنة.

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير، كالصحابية المعروفين، وغيرهم من أهل الجمل وصفيين من الجانبين، لا يفسق أحد منهم، فضلاً عن أن يكفر، حتى عدى ذلك من عداة من الفقهاء إلى سائر أهل البغي، فإنهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل ، كما يقول هؤلاء الأئمة : إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولاً لا يجلد ولا يفسق، وقد قال تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ رَزَقْتُمْهَا فَآيَمَةً عَلَىٰ أَصُولِهَا فَأَيُّ الْفِرَاقِ شَرٌّ﴾ [الحشر : ٥] .

وثبت في الصحاح - من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة- عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» (١) . وثبت في الصحيح عن بُريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ قال : « إذا حاصرت أهل حصن فسألك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك؛ فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم» (٢) ، وأدلة هذا الأصل كثيرة لها موضع ٤٩٦/١٢ آخر.

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد، لظهور أدلة الرسالة ، وإعلام النبوة؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي، فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والواجبات تنقسم إلى

(١) البخارى فى الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم فى الأفضية (١٧١٦ / ١٥) .

(٢) مسلم فى الجهاد والسير (٣/١٧٣١)، وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٢) ، والترمذى فى السير (١٦١٧) وقال : « حسن صحيح » وأحمد ٥ / ٣٥٨ .

أركان وواجبات ليست أركاناً ، فكذلك الخطأ ينقسم إلى: مغفور وغير مغفور ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذه بالخطأ لهذه الأمة ، وإذا كان كذلك فالمخطئ في بعض هذه المسائل ، إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب ، مع مبايئته لهم في عامة أصول الإيمان ، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم ، مع أنها - أيضاً - من أصول الإيمان .

فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة ، هو من أعظم أصول الإيمان ، وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق ، مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه .

وإذا كان لا بد من إلحاقه بأحد الصنفين ، فمعلوم أن المخطئين من المؤمنين بالله ٤٩٧/١٢ ورسوله ، أشد شبهاً منه بالمشركين وأهل الكتاب ، فوجب أن يلحق بهم ، وعلى هذا مضى عمل الأمة قديماً وحديثاً ، في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام التي تجري على غيرهم ، هذا مع العلم بأن كثيراً من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر ، وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار ، فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون ، بل أصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ، ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، فهؤلاء كفار في الباطن ، ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر - أيضاً .

وأصل ضلال هؤلاء الإعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة ، وابتغاء الهدى في خلاف ذلك ، فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه ، مثل من يرى أن الرسالة للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، وغالية المتكلمة والمتصوفة ، أو يرى أنه رسول إلى بعض الناس دون بعض ، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى .

فهذا الكلام يمهّد أصليين عظيمين :

أحدهما: أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة ، أو أنه على العرش ، ٤٩٨/١٢ أو أن القرآن كلامه ، أو أنه كلم موسى ، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلاً كفر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث .

والأصل الثاني: أن التفكير العام - كالوعيد العام - يجب القول بإطلاقه وعمومه .

وأما الحكم على المعين بأنه كافر ، أو مشهود له بالنار ، فهذا يقف على الدليل المعين ؛

فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه ، وانتفاء موانعه .

ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا، إما بقتل أو جلد أو غير ذلك، ويكون في الآخرة غير معذب، مثل قاتل البغاة والمتأولين، مع بقائهم على العدالة، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة، فإننا نقيم الحد عليه مع ذلك، كما أقامه النبي ﷺ على ماعز بن مالك، وعلى الغامدية، مع قوله: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» (١)، ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولاً، مع العلم بأنه باق على العدالة.

بخلاف من لا تأويل له، فإنه لما شرب الخمر بعض الصحابة/ واعتقدوا أنها نحل للخاصة ٤٩٩/١٢ تأول قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة: ٩٣]، اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب وغيرهما، على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على الاستحلال قتلوا.

وكذلك نعلم أن خلقاً لا يعاقبون في الدنيا مع أنهم كفار في الآخرة، مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم، ومثل المنافقين المظهرين الإسلام، فإنهم تجري عليهم أحكام الإسلام، وهم في الآخرة كافرون، كما دل عليه القرآن في آيات متعددة، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ الآية [النساء: ١٤٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تَوَكُّمٍ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحديد: ١٣ - ١٥].

وهذا لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة، التي هي دار الثواب والعقاب، وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع/ به الظلم والعدوان، كما قال ٥٠٠/١٢ تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ^(٢) لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَالْقَاتِلِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، هو إقامة القسط، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

(١) مسلم في الحدود (٢٣/١٦٩٥) وأبو داود في الحدود (٤٤٤٢).

(٢) في المطبوعة: «الدين كله»، والصواب ما أثبتناه.

يَا قَيْسُطَ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥].

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة، ولا بالعكس، ولهذا أكثر السلف يأمرون بقتل الداعى إلى البدعة، الذي يضل الناس لأجل إفساده في الدين، سواء قالوا: هو كافر، أو ليس بكافر.

وإذا عرف هذا، فتكفير «المعين» من هؤلاء الجهال وأمثالهم - بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار - لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية، التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسول، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر.

٥١/١٢ وهكذا الكلام في تكفير جميع «المعينين»، مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة.

ومن ثبت إيمانه ييقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة.

وهذا الجواب لا يحتمل أكثر من هذا، والله المسؤول أن يوفقنا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه، والله سبحانه أعلم.

/وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله - في رجل قال: إن الله لم يكلم موسى ٥٢/١٢
تكليماً، وإنما خلق الكلام والصوت في الشجرة، وموسى - عليه السلام - سمع من
الشجرة لا من الله، وإن الله - عز وجل - لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه من اللوح
المحفوظ، فهل هو على الصواب أم لا ؟
فأجاب :

الحمد لله، ليس هذا على الصواب ، بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الأمة
وأئمتها، بل هو كافر يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل ، وإذا قال: لا أكذب بلفظ
القرآن - وهو قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، - بل أقرب بأن هذا اللفظ
حق، لكن أنفى معناه وحقيقته؛ فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على
أنهم من شر أهل الأهواء والبدع، حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين
فرقة.

وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له : الجعد بن درهم، /فضَّحِي به ٥٣/١٢
خالد بن عبد الله القسري يوم أضحي؛ فإنه خطب الناس فقال في خطبته: ضَحُّوا أيها
الناس، تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضِحٌّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ
إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل
فدبحه. وكان ذلك في زمن التابعين فشكروا ذلك، وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن
صفوان، وقتله بخراسان سلمة بن أحوز ، وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى «مقالة
الجهمية»، وهي نفي صفات الله - تعالى - فإنهم يقولون: إن الله لا يرى في الآخرة،
ولا يكلم عباده، وأنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات،
ويقولون: القرآن مخلوق.

ورافق الجهم على ذلك المعتزلة - أصحاب عمرو بن عبيد - وضموا إليها بدعا أخرى
في القَدَر وغيره، لكن المعتزلة يقولون: إن الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة، لكن
حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاماً في غيره، إما في شجرة وإما في هواء، وإما في غير
ذلك، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم، ولا قدرة ولا رحمة، ولا مشيئة
ولا حياة ، ولا شيء من الصفات.

والجهمية تارة ييوحون بحقيقة القول، فيقولون: إن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولا

يتكلم ، وتارة لا يظهرون هذا اللفظ ؛ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود ٥٠٤/١٢ والنصارى ، فيقرون باللفظ /، ولكن يقرنونه بأنه خلق في غيره كلاما .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة ، من أن الله كلم موسى تكليما ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، كما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ ، وأن لله علما وقدره ونحو ذلك .

ونصوص الأئمة في ذلك مشهورة متواترة ، حتى إن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه في « شرح أصول السنة » مقالات السلف والأئمة في الأصول ، ذكر من قال : القرآن كلام الله غير مخلوق . وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الأعصار ومضى السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم ، وتدينوا بمذاهبهم . ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوقاً ، لكنني اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصرًا بعد عصر ، لا ينكر عليهم منكر ، ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه . قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال : القرآن مخلوق جعد بن درهم ، في سني نيف وعشرين ومائة ، ثم جهم بن صفوان ، فأما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري ، وأما جهم فقتل بمرور في خلافة هشام بن عبد الملك .

٥٠٥/١٢ | وروى بإسناده عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين : حكمت رجلين؟ فقال : ما حكمت مخلوقاً ما حكمت إلا القرآن . وعن عكرمة قال : كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت في لحده قام رجل وقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال : مه؟! القرآن منه . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين ، وهذا ثابت عن ابن مسعود . وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول : أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود ، وفي لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال حرب الكرمانى (١) : ثنا إسحاق بن إبراهيم - يعني ابن راهويه - عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة ، أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فإنه كلام الله ، منه خرج وإليه يعود .

(١) حرب بن إسماعيل الكرمانى ، أبو محمد ، الفقيه ، تلميذ أحمد بن حنبل ، رحل وطلب العلم ، قال الخلال : « كان رجلاً جليلاً » ، وقال الذهبي : « ما علمت به بأساً » ، توفي سنة ٢٨٠ هـ عن عمر يقارب التسعين . (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٤٤) .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة إسحاق ، وإسحاق إما أن يكون سمعه منه أو من بعض أصحابه عنه، وعن جعفر بن محمد الصادق — وهو مشهور عنه — أنهم سألوه عن القرآن: أخالق هو أم مخلوق؟ فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله.

وهكذا روى عن الحسن البصري، وأيوب السخيتاني، وسليمان التيمي، وخلق من ٥٠٦/١٢ التابعين . وعن مالك بن أنس، والليث بن سعد وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه، وأمثال هؤلاء من الأئمة . وكلام هؤلاء الأئمة واتباعهم في ذلك كثير مشهور، بل اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال: القرآن مخلوق، وأنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره.

ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد — وكان من أصحاب ضرار بن عمرو ممن يقول: القرآن مخلوق، فلما ناظر الشافعي ، وقال له : القرآن مخلوق — قال له الشافعي: كفرت بالله العظيم، ذكره ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية، قال: كان في كتابي عن الربيع بن سليمان قال: حضرت الشافعي ، أو حدثني أبو شعيب ، إلا أنني أعلم أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم، ويوسف بن عمرو بن يزيد ، فسأل حفص عبد الله قال: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه، وكلاهما أشار إلى الشافعي، فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة ، فقام الشافعي بالحجة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكفر حفصاً الفرد ، قال الربيع : فلقيت حفصاً في المسجد بعد هذا فقال: أراد الشافعي قتلى.

وأما مالك بن أنس، فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول: القرآن مخلوق، واستتابته، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه.

/وأما أبو حنيفة وأصحابه، فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في ٥٠٧/١٢ أوله: « ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة » — أبي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد ابن الحسن الشيباني — قال فيه: « وإن القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على نبيه وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده، حيث قال: ﴿سَأْصِلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدر: ٢٦]، فلما أوعده الله سقر لمن قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدر: ٢٥]، علمنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر».

وأما أحمد بن حنبل، فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية؛ فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله - تعالى - وحقائق أسمائه، وأن القرآن مخلوق، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق - سبحانه وتعالى - ودعوا الناس إلى ذلك، وعاقبوا من لم يجبههم، إما بالقتل، وإما بقطع الرزق، وإما بالعزل عن الولاية، وإما بالحبس أو بالضرب، وكفروا من خالفهم، فثبت الله - تعالى - الإمام أحمد حتى أحمده الله به باطلهم، ونصر أهل الإيمان والسنة عليهم، وأذلهم بعد العز، ٥٠٨/١٢ وأخملهم بعد الشهرة، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام/الله غير مخلوق، وإطلاق القول أن من قال: إنه مخلوق، فقد كفر.

وأما إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى، فهذه مناقضة لنص القرآن، فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق، وهذا بلا ريب يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإنه أنكر نص القرآن، وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله، والذي يقول: القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له، فلذلك كفره السلف.

قال البخاري في كتاب «خلق الأفعال»: قال سفيان الثوري: من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر. قال: وقال عبدالله بن المبارك: من قال: ﴿إِنِّي^(١) أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] مخلوق، فهو كافر، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك، قال: وقال ابن المبارك: لا نقول كما قالت الجهمية: إنه في الأرض ههنا، بل على العرش استوى. وقيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه.

وقال: من قال: «لا إله إلا الله» مخلوق، فهو كافر، وإنا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية. قال: وقال علي بن عاصم: ما الذين قالوا: إن لله ولدًا أكفر من الذين قالوا: إن الله لا يتكلم.

٥٠٩/١٢ قال البخاري: وكان إسماعيل بن أبي إدريس يسميهم زنادقة العراق. /وقيل له: سمعت: أحدًا يقول: القرآن مخلوق فقال: هؤلاء الزنادقة. قال: وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد - وذكر له أن قومًا يقولون: القرآن مخلوق - فقال: كيف يصنعون بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] كيف يصنعون بقوله: ﴿إِنِّي^(٢) أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؟ قال: وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قومًا أضل في كفرهم منهم، وإني لاستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم. قال: وقال سليمان بن داود الهاشمي: من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر،

(١، ٢) في المطبوعة: «إني» وهو خطأ.

وإن كان القرآن مخلوقاً- كما زعموا - فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؟ وزعموا أن هذا مخلوق، والذي قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] هذا - أيضاً - قد ادعى ما ادعى فرعون، فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار من هذا؟ وكلاهما عنده مخلوق، فأخبر بذلك أبو عبيد، فاستحسنه وأعجبه.

ومعنى كلام هؤلاء السلف - رضي الله عنهم -: أن من قال: إن كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها - كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول عنه - كان حقيقة قوله: إن الشجرة هي التي قالت لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾ ومن قال: هذا مخلوق، قال ذلك. فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وكلاهما مخلوق، وكلاهما قال ذلك. فإن كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء - أيضاً - كفر.

/ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون، وإن كانوا لا يفهمون ذلك؛ فإن ٥١٠/١٢ فرعون كذب موسى فيما أخبر به؛ من أن ربه هو الأعلى، وأنه كلمه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنْ آتِيَنِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتَلُغُ الْأَسْبَابَ . أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] وهو قد كذب موسى في أن الله كلمه. ولكن هؤلاء يقولون: إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به، وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الله - سبحانه - أنطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجاً عن المعتاد، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِمَ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقد ثبت أن الحصى كان يسبح في يد النبي ﷺ، وأن الحجر كان يسلم عليه، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات، فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلم به، كان هذا كله كلام الله - تعالى - ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران، بل قد ثبت أن الله خالق/أفعال العباد. فكل ناطق فالله خالق نطقه ٥١١/١٢

وكلامه، فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم. وهذا تقوله غلاة الجهمية كإبن عربي وأمثاله يقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون: إن كلام الآدميين غير مخلوق، فإن كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق، فأولئك يجعلون الجميع مخلوقاً، وأن الجميع كلام الله، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق؛ ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية.

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين^(١) الإسلام، سلط الله أعداء الدين، فإن الله يقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته؟ وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته؟.

٥١٢/١٢ الوجه الثاني: أن يُقال لهؤلاء الضالين: ما خلقه الله في غيره/من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعماً أو لوناً أو ريحاً، كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاماً، كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المرید المتكلم، فإذا خلق كلاماً في الشجرة أو في غيرها من الأجسام، كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً، ولا يكون الله هو المتكلم به، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصرأ، كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والمسيح به والبصير به. فكما أنه - سبحانه - لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات، ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام.

الوجه الثالث: أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه، ٥١٣/١٢ والناس/متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام،

(١) في المطبوعة: «الدين» وهو خطأ.

فلا يكون مريد إلا بإرادة ، وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة ،وبالمتحرك من قامت به الحركة ، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة ، فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة، والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته، وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة فكذلك في الأفعال: مثل تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء قيل: إن الفعل المشتق من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر. فإذا قيل: كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ، ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم، فإذا قيل: تكلم فلان أو كلم فلان فلاناً، ففلان هو المتكلم والمكلم، فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ٥١٤/١٢ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يقتضى أن الله هو المكلم ، فكما يمتنع أن يقال: هو متكلم بكلام قائم بغيره، يمتنع أن يقال: كلم بكلام قائم بغيره. فهذه خمسة أوجه:

أحدها: أنه يلزم للجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلاماً له؛ إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه، وكل من فعل كلاماً ولو في غيره كان متكلماً به عندهم، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب - تعالى - لو كان مدلول «قائماً» يدل لكونه خلق صوتاً في محل والدليل يجب طرده، فيجب أن يكون كل صوت يخلقه له كذلك، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله - تعالى - على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام.

الثاني: أن الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمها إلى ذلك المحل ولا يعود حكمها إلى غيره .

الثالث: أن يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به/ ونحو ذلك ولا يشتق ٥١٥/١٢ ذلك لغيره، وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة أن من قال: إن الله

خلق كلامًا في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائدًا إلى ذلك المحل لا إلى الله .

الرابع: أن الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال: ﴿تَكْلِمًا﴾ . قال غير واحد من العلماء: التوكيد بالمصدر ينفي المجاز، لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولا أو كتب إليه كتابًا، بل كلمه منه إليه .

والخامس: أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الآية [الشورى: ٥١]، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب، وقال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّينِينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة. وموسى إنما عرفه بواسطة؛ ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين.

٥١٦/١٢ / ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء، وأنه يقتضي تعطيل الرسالة، فإن الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله، بل يقتضي تعطيل التوحيد، فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض؛ إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها في الذهن لا في الخارج، كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص.

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول: «المتفلسفة الدهرية»، الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق لا صفة له. وقد علم أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الذهن. وهؤلاء الدهرية ينكرون: أيضاً - حقيقة تكليمه لموسى ويقولون: إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء، وحقيقة قولهم: إن القرآن قول البشر، لكنه صدر عن نفس صافية شريفة. وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء، وقد كفر السلف من يقول بقولهم، فكيف هؤلاء؟! .

وكلام السلف والأئمة في مثل هؤلاء لا يحصى . قال حرب بن إسماعيل الكرماني: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، وكيف يكون شيء من الرب - عز ذكره - مخلوقاً، ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا: علم الله وقدرته ومشيتته مخلوقة، فإن قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا: كان الله - تبارك اسمه - ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة، وهو الكفر المحض الواضح، لم يزل الله

عالمًا متكلمًا له المشيئة والقدرة في خلقه، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر.

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئًا من الله مخلوق . فقيل له : من أين قلت هذا؟ قال : لأن الله يقول : ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] ، ولا يكون من الله شيء مخلوق . وهذا القول قاله غير واحد من السلف .

وقال أحمد بن حنبل: كلام الله من الله ليس ببائن منه، وهذا معنى قول السلف: القرآن كلام الله، منه بدأ، ومنه خرج، وإليه يعود كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه» يعني: القرآن، وقد روى أيضًا عن أبي أمامة مرفوعاً^(١). وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلمة الكذاب- لما سمع قرآن مسيلمة-: ويحكم ! أين يذهب بعقولكم؟ إن هذا كلامًا لم يخرج من إل. أي: من رب.

وليس معنى قول السلف والأئمة: إنه منه خرج ومنه بدأ: أنه فارق ذاته وحل بغيره، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته/ويحل بغيره، فكيف يكون كلام ٥١٨/١٢ الله؟ قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم.

وأيضًا، فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق، والناس إذا سمعوا كلام النبي ﷺ ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله ﷺ وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم. فالقرآن أولى بذلك، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٢).

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية؛ فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله في غيره، فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله، كما يقولون: كلامه لموسي خرج من الشجرة، فبين السلف والأئمة أن القرآن من الله بدأ وخرج، وذكروا قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] فأخبر أن القول منه لا من غيره من

(١) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٢) وأحمد في الزهد ٦٨/١، كلاهما عن جبير بن نفير، والحاكم في المستدرک ٤٤١/٢ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والسيوطي في الدر المنثور ٣٦٦/٥، كلاهما عن عقبة بن عامر الجهني.

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٣.

٥١٩/١٢ «من» هي لابتداء الغاية ، فإن كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم يكن صفة لله ، كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] ، وقوله في المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] ، وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله : ﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلِهِ فَمِنْ أَلَلَةٍ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة الله ، كقوله : ﴿ وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي ﴾ [السجدة : ١٣] ، وكذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن أن القرآن نزل منه ، وأنه نزل به جبريل منه ، رداً على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول : إنه لم ينزل منه ، قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنَتَنَّهُمْ الَّكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وروح القدس هو جبريل ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] ، وقال : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٩٧] ، وقال هنا : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، فبين أن جبريل نزل من الله ، لا من هواء ، ولا من لوح ، ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : ﴿ نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر : ١] ، وقوله : ﴿ حَمِّ . نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْغَلِيمِ ﴾ [غافر : ٢ ، ١] ، وقوله : ﴿ حَمِّ . نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة : ٢ ، ١] ، وقوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

٥٢٠/١٢ / فقد بين - في غير موضع - أنه منزل من الله ، فمن قال : إنه منزل من بعض المخلوقات - كاللوح والهواء - فهو مفتر على الله ، مكذب لكتاب الله ، متبع لغير سبيل المؤمنين . ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالطير بأن قال : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الرعد : ١٧] ؟ فذكر المطر في غير موضع ، وأخبر أنه نزل من السماء ، والقرآن أخبر أنه منزل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ [الحديد : ٢٥] لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان ؛ فإن الذكر ينزل الماء في الإناث ، فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد ؛ لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح : أن الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة ، فيكون بنو إسرائيل قد قرؤوا

الألواح التي كتبها الله، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ، ومحمد أخذه عن جبريل، وجبريل عن اللوح، فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل، وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية، والله - سبحانه - جعل من فضائل أمة محمد ﷺ: أنه أنزل عليهم كتاباً لا يغسله الماء، وأنه أنزل عليهم تلاوة لا كتابة، وفرقه عليهم لأجل ذلك. فقال: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لِنُقَرِّمَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا^(١) لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

/ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوباً، كانت العبارة عبارة ٥٢١/١٢ جبريل، وكان القرآن كلام جبريل، ترجم به عن الله، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين.

وإن احتج محتج بقوله: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، قيل له: فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]، فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ، والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران. فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل: ملك ولا نبي، ولا ريب أن الرسول بلغه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الْأَرْسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي؟»^(٢)، ولما أنزل الله: ﴿الْعَدُوَّةَ غُلِبَتْ الْرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]، خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس، فقالوا: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، ولكنه كلام الله.

وإن احتج بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قيل له: هذه الآية ٥٢٢/١٢ حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمه، وما أكل إلا طعاماً حلالاً ونحو ذلك، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديداً؛ فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرًا، وكل ما

(١) في المطبوعة: «وقالوا»، والصواب ما أثبتناه.

(٢) سبق تخريجه ص ٤١٣.

تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَأَلَمْ جُؤِنِ الْفَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩]، وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّ قُلُوبُهُمْ هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦]، وكذلك قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] لم يقل: جعلناه فقط، حتى يظن أنه بمعنى خلقناه، ولكن قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: صيرناه عربياً؛ لأنه قد كان قادراً على أن ينزله عجمياً، فلما أنزله عربياً كان قد جعله عربياً دون عجمي. وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع، والله أعلم.

/وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله - عن قال:

إن الله لم يكلم موسى تكليماً، فقال له آخر: بل كلمه تكليماً، فقال: إن قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، والحرف والصوت محدث، ومن قال: إن الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر، فهل هو كما قال أو لا؟

فأجاب:

الحمد لله، أما من قال: إن الله لم يكلم موسى تكليماً، فهذا إن كان لم يسمع القرار فإنه يُعرَّف أن هذا نص القرآن، فإن أنكره بعد ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل، ولا يقبل منه إن كان كلامه بعد أن يجحد نص القرآن، بل لو قال: إن معنى كلامي: أنه خلق صوتاً في الهواء فأسمعه موسى كان كلامه - أيضاً - كفراً، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف وقالوا: يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، لكن من كان مؤمناً بالله ورسوله مطلقاً ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب، فإنه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر؛ إذ كثير من الناس/يخطئ فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد ٥٢٤/١٢ من معاني الكتاب والسنة، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة، والكفر لا يكون إلا بعد البيان.

والأئمة الذين أمروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة ويقولون: القرآن مخلوق ونحو ذلك، قيل: إنهم أمروا بقتلهم لكفرهم، وقيل: لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس، فقتلوا لأجل الفساد في الأرض، وحفظا لدين الناس أن يضلواهم.

وبالجملة، فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الجهمية من شر طوائف أهل البدع، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة.

ومن الجهمية: المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون: إن كلام الله مخلوق، وإن الله إنما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء، وإنه لا يرى في الآخرة. وإنه ليس مبيناً لخلقه، وأمثال هذه المقالات التي تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه.

وأما قول الجهمي: إن قلت كلمه، فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، والحرف والصوت محدث، ومن قال: إن الله كلم موسى بحرف وصوت، فهو كافر. فيقال لهذا

١٢/٥٢٥ الملحد: أنت تقول: إنه كلمه بحرف وصوت/ لكن تقول بحرف وصوت خلقه في الهواء
وتقول: إنه لا يجوز أن تقوم به الحروف والأصوات لأنها لا تقوم إلا بمتحيز، والبارئ
ليس بمتحيز، ومن قال: إنه متحيز، فقد كفر. ومن المعلوم أن من جحد ما نطق به الكتاب
والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة.

وإن قال الجاحد لنص الكتاب والسنة: إن العقل معه، قال له الموافق للنصوص: بل
العقل معي، وهو موافق للكتاب والسنة، فهذا يقول: إن معه السمع والعقل، وذلك إنما
يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذي يبين منازعه فساد، ولو قدر أن العقل معه.

والكفر هو من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون
كافراً، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً في
الشريعة.

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به، فهو كافر بلا نزاع، وذلك أنه ليس في
الكتاب والسنة ولا في قول أحد من سلف الأمة وأئمتها، الإخبار عن الله بأنه متحيز، أو
أنه ليس بمتحيز، ولا في الكتاب والسنة أن من قال هذا وهذا يكفر. وهذا اللفظ مبتدع،
والكفر لا يتعلق بمجرد أسماء مبتدعة لا أصل لها في الكتاب والسنة، بل يستفسر هذا
١٢/٥٢٦ القائل إذا قال: إن الله متحيز أو ليس بمتحيز؛ فإن قال: أعني بقولي: إنه متحيز: أنه
دخل في المخلوقات، وأن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل. وإن قال: أعني به
أنه منحاز عن المخلوقات مباين لها، فهذا حق.

وكذلك قوله: ليس بمتحيز. إن أراد أن المخلوق لا يحوز الخالق، فقد أصاب. وإن
قال: إن الخالق لا يباين المخلوق ويفصل عنه، فقد أخطأ.

وإذا عرف ذلك، فالناس في الجواب عن حجته الداحضة - وهي قوله: «لو قلت:
إنه كلمه بالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث» - ثلاثة أصناف:
صنف منعه المقدمة الأولى، وصنف منعه المقدمة الثانية، وصنف لم يمنعه المقدمة،
بل استفسره، و بينوا أن ذلك لا يمنع أن يكون الله كلم موسى تكليماً.

فالصنف الأول: أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، وأبو الحسن علي بن
إسماعيل الأشعري، ومن اتبعهما، قالوا: لا نسلم أن الكلام لا يكون إلا بحرف
وصوت، بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم، والحروف والأصوات عبارة عنه، وذلك
المعنى القائم بذات الله - تعالى - يتضمن الأمر بكل ما أمر به، والخبر عن كل ما أخبر
عنه، إن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وقالوا: إنه اسم الكلام حقيقة، فيكون اسم
الكلام مشتركاً أو مجازاً في كلام الخالق، وحقيقة في كلام المخلوق.

والصنف الثاني: سلموا لهم أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، ومنعوه ٥٢٧/١٢ المقدمة الثانية، وهو أن الحرف والصوت لا يكون إلا محدثًا.

وصنف قالوا: إن المحدث كالحادث، سواء كان قائمًا بنفسه أو بغيره، وهو يتكلم بكلام لا يكون قديمًا، وهو بحرف وصوت، وهذا قول من يقول: القرآن قديم، وهو بحرف وصوت، كأبي الحسن بن سالم وأتباعه السالية وطوائف ممن اتبعه، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم في المعاني.

وقالوا: كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل، ومعنى يكون أمرًا ونهيًا وخبرًا ممتنع في صريح العقل، ومن ادعى أن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد، وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه - فقلوه معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعًا، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات، وإن جاز أن يقال: إن الحروف والأصوات المخلوقة في غير كلام الله حقيقة، أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق في غيره.

وقالوا لإخوانهم الأولين: إذا قلتم: إن الكلام هو مجرد المعنى، وقد خلق عبارة ٥٢٨/١٢ بيان... (١) فإن قلتم: إن تلك العبارة كلامه حقيقة، بطلت حجتكم على المعتزلة؛ فإن أعظم حجتكم عليهم قولكم: إنه يمتنع أن يكون متكلمًا بكلام يخلقه في غيره، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره، وأن يقدر بقدره قائمة بغيره، وأن يريد بإرادة قائمة بغيره، وإن قلتم: هي كلام مجازًا، لزم أن يكون الكلام حقيقة في المعنى مجازًا في اللفظ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات.

والصنف الثالث: الذين لم يمنعوا المقدمتين، ولكن استفسروهم وبينوا أن هذا لا يستلزم صحة قولكم، بل قالوا: إن قلتم: إن الحرف والصوت محدث بمعنى أنه يجب أن يكون مخلوقًا منه منفصلًا عنه، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه، وهذا قول ممنوع، وإن قلتم: بمعنى أنه لا يكون قديمًا، فهو مُسَلَّم، لكن هذه التسمية محدثة.

وهؤلاء صنفان: صنف قالوا: إن المحدث هو المخلوق المنفصل عنه، فإذا قلنا: الحرف والصوت لا يكون إلا محدثًا، كان بمنزلة قولنا: لا يكون إلا مخلوقًا، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله/بقوله، حيث زعم أنه يتكلم بحرف وصوت مخلوق، ثم ٥٢٩/١٢ استدل على ذلك بما يقتضى أنه يتكلم، لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تلبيس.

ونحن لا نقول: كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق، بل هو - سبحانه -

(١) بياض بالأصل.

يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما أنه — سبحانه وتعالى — خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأنه — سبحانه — استوى إلى السماء وهي دخان ، وأنه — سبحانه — يأتي في ظلل من الغمام والملائكة ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] ، وقال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثير .

يبين الله — سبحانه — أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره . والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يكون الرب محلاً للمخلوقات ، بل هو — سبحانه — يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله ، وليس من ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائناً عنه ، وكلام الله من ٥٣٠/١٢ الله ليس بيبائن منه ؛ ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ / وإليه يعود . فقالوا : منه بدأ ، أي : هو المتكلم به ، لا أنه خلقه في بعض الأجسام المخلوقة .

وهذا الجواب هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم ، من الهشامية ، والكرامية ، وغيرهم .

وأتباع الأئمة الأربعة — أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد — منهم من يختار جواب الصنف الأول ، وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب في القرآن ، وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة . ومنهم من يختار جواب الصنف الثاني ، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون : إن القرآن قديم ، كالسلمية ، وطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة . ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلايين والسلمية .

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية — والكرامية ينتسبون إلى أبي حنيفة — ومنهم من لا يختار قول الكرامية — أيضاً — لما فيه من تناقض آخر ، بل يقول بقول أئمة الحديث ، كالبخاري ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومن قبلهم ٥٣١/١٢ من السلف / كأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومحمد بن كعب القرظي ، والزهري ، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين . وفي ذلك آثار كثيرة معروفة في كتب السنن والآثار تضييق

عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليها في مواضع وبيننا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب في صريح المعقول وصحيح المنقول ، لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول : إن كلام الله مخلوق . والأمة متفقة على أن من قال : إن كلام الله مخلوق ، لم يكلم موسى تكليمًا ، يستتاب ، فإن تاب وإلا يقتل .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

٥٣٢/١٢ /وُسئِلَ أَيْضاً - رحمه الله - عمن قال: كلم الله موسى تكليماً، وسمعتة أذناه، ووعاه قلبه، وإن الله كتب التوراة بيده، وناوله إياه من يده إلى يده، وقال آخر: لم يكلمه إلا بواسطة.

فأجاب :

القائل الذي قال: إن الله كلم موسى تكليماً - كما أخبر في كتابه - مصيب ، وأما الذي قال: كلم الله موسى بواسطة فهذا ضال مخطئ، بل قد نص الأئمة على أن من قال ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ فإن هذا الكلام إنكار لما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام، ولما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ الآية [الشورى: ٥١]، ففرق بين تكليمه من وراء حجاب - كما كلم موسى - وبين تكليمه بواسطة رسول - كما أوحى إلى غير موسى - قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣] ، [١٦٤].

٥٣٣/١٢ /والاحاديث بذلك كثيرة في الصحيحين والسنن، وفي الحديث المحفوظ عن النبي ﷺ حديث: «التقى آدم وموسى، قال آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً، لم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه» (١).

وسلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية ، الذين قالوا: إن الله خلق كلاماً في بعض الأجسام، سمعه موسى، وفسر التكليم بذلك. وأما قوله: «إن الله كتب التوراة بيده» فهذا قد روى في الصحيحين (٢) فمن أنكر ذلك فهو مخطئ ضال، وإذا أنكره بعد معرفة الحديث الصحيح يستحق العقوبة، وأما قوله: «ناولها بيده إلى يده» فهذا مأثور عن طائفة من التابعين، وهو هكذا عند أهل الكتاب، لكن لا أعلم غير هذا اللفظ مأثوراً عن النبي ﷺ ، فالمتكلم به إن أراد ما يخالف ذلك فقد أخطأ ، والله أعلم.

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٠٩) ومسلم في القدر (١٣/٢٦٥٢) بنحوه .

(٢) البخاري في القدر (٦٦١٤)، ومسلم في القدر (١٣/٢٦٥٢) كلاهما عن أبي هريرة بلفظ: «... اصطفاك الله

بكلامه وخط لك بيده...»، ومسلم في القدر (١٥/٢٦٥٢) عن أبي هريرة بلفظ: «فبكم وجدت الله كتب

التوراة قبل أن أخلق...».

/ ما تقول السادة الأعلام أئمة الدين - رضي الله عنهم أجمعين - : ٥٣٤/١٢

هل هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا ؟ وإذا كان كلامه، فهل إذا تلوناه وقام بنا يطلق عليه كلام الله وصفته؟ أم يطلق عليه كلام الله دون صفته؟ أم في ذلك تفصيل يجب بيانه؟ وهل إذا قام بنا كان منتقلا عن الله بعد أن قام به ؟ أم يكون قائمًا بنا وبه معًا؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله، أو حكاية عنه، ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازًا؟ وهل يكون صفة لنا محدثة قامت بمحدث؛ إذ القديم لا يقوم بمحدث، والمحدث لا يكون قديمًا، وهل «التلاوة» هي نفس المتلو أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - :

الحمد لله رب العالمين ، هذه المسألة جوابها يحتمل البسط ، ويمكن فيه الاختصار ، ثم بسط الجواب بعض البسط ، فأما الجواب المختصر فإنه يقال :

جواب/ هذه المسألة مبني على «مقدمة» ، وهي أن يعرف الإنسان معنى قول القائل لما ٥٣٥/١٢ بلغه عن غيره: هذا كلام ذلك الغير؛ فإن المحدث إذا حدث عن النبي ﷺ بقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١)، أو قوله: «الحلال بين ، والحرام بين، وبين ذلك أمور مشبهة لا يعلمها كثير من الناس»^(٢)، أو قوله: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣) ونحو ذلك .

فإنه من المعلوم أن هذا كلام النبي ﷺ ، تكلم به بلفظه ومعناه، فهو الذي أخبر بمعناه، وهو الذي ألف حروفه وتكلم بها بصوته. ثم المبلغ بذلك عنه بلغ كلامه، كما قال ﷺ: «نَصَّرَ الله امرأ سمع منا حديثًا، فبلغه كما سمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٤)، فدعى بالنضرة لمن سمع منه حديثًا فبلغه كما سمعه. فبين أن الحديث المسموع منه هو الحديث المبلغ عنه، مع العلم بأن المبلغ عنه بلغه بأفعاله وأصواته، وأن الصوت المسموع منه هو صوته لا صوت النبي ﷺ ، وإن كان النبي ﷺ تكلم بذلك الحديث بصوته المختص به ، فالمبلغ عنه هو حديثه الذي سمع منه، وليس الصوت المسموع صوته .

فإذا قال القائل : هل هذا الحديث الذي قرأه المحدث القائم به/ حين القراءة هو كلام ٥٣٦/١٢

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤ .

(٢) البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩/١٠٧) .

(٣) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (١٨/١٧١٨) .

(٤) سبق تخريجه ص ٤٣٧ .

النبي ﷺ ، الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا؟ قيل له: إن كنت تريد: أن نفس الحديث من حيث هو هو كلام النبي ﷺ ، الذي قام به حين تكلم به كان صفة له، فنعم. هذا الحديث من حيث هو هو كلام النبي ﷺ ، وإن كنت تريد: أن ما اختص بالقارئ من حركاته وأصواته هو القائم بالرسول ، فليس كذلك.

وكذلك إن أردت: أن نفس ما اختص به الرسول من حركاته وأصواته، والصفات القائمة بنفسه هي بعينها انتقلت عن الرسول. وقامت بالقارئ ، فليس كذلك.

وقول القائل: هذا هو هذا وليس هو إياه، وهذا هو عين هذا وليس هو عينه، لفظ فيه إجمال؛ فإن من نقل لفظ غيره، كما سمعه وكتبه في كتاب، فإنه يقول: هذا كلام فلان بعينه، وهذا نفس كلامه، وهذا عين كلامه. ومراده أن نفس ما قاله هو الذي بلغه عنه، وهو المكتوب في الكتاب، لم يزد فيه ولم ينقص منه.

فإذا قال القائل لما سمع من القارئ: هذا عين كلام الله، أو هذا كلام الله بعينه، أو هذا نفس كلام الله، أو قال لما بين لוחي المصحف: هذا كلام الله بعينه، وهذا عين كلام الله - كان صادقاً، ومن أنكر ذلك بهذا الاعتبار كان مقتضى قوله: أن القرآن زيد فيه ونقص؛ ولهذا كان الناس مطبقين على أن ما بين اللوحين كلام الله، والإنكار على من نفى ذلك.

وقد يقال لكلام المتكلم المسموع منه: هذا كلام زيد بعينه، وهذا عين كلام زيد، وهذا نفس كلام زيد، بمعنى أنه مسموع منه بلا واسطة، بحيث يسمع صفة ذلك المتكلم المختص به بذلك، كما قال أيوب السخيتاني: كان الحسن يتكلم بكلام فيأتي مثل الدر، فتكلم به بعده قوم فجاء مثل البعر. والمتكلم بالكلام من البشر له صوت يخصه، ونغمة تخصه، كما له سجية تخصه، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوُتُكُكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]. وله أيضاً - إن كان أمراً أو نهياً أو خبراً - من الحال والصفة والكيفية ما يختص به، فإذا سمع كلامه بالصفة المختصة به، وقيل: هذا كلامه بعينه، وهذا عين كلامه، ونفس كلامه، وأدخلت الصفة المختصة به في مسمى العين والنفس، لم يصدق هذا عليه، إذا كان مروياً.

لكن لما كان الناس في زماننا يعلمون أن أحداً لا يسمع كلام النبي ﷺ ، لم يسبق هذا المعنى إلى ذهن أحد، بل كل أحد يعلم أننا إذا قلنا: سمعنا كلام النبي ﷺ ، وهذا كلام النبي ﷺ بعينه، وهذا عين كلامه، فإنما المراد به المعنى الأول، وهو كونه مسموعاً من المبلغ عنه، لا أنه مسموع منه، ولا أن تكلمه الذي يختص بالكلام وجد.

وإذا كان هذا في كلام النبي ﷺ ، فكلام الله - سبحانه - أولي بذلك ، فإن الناس يعلمون أن أحداً منهم لم يسمعه من الله ، كما سمع موسى كلام الله من الله ، بل يعلمون أن كلام الله إنما سمع من المبلغين له ، كما قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] ، وقال نوح : ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَبْلِغْكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦١ ، ٦٢]

وفي سنن أبي داود عن جابر : أن النبي ﷺ كان يقول بالموقف : «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قریشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي» (١).

فلما كان هذا مستقراً في قلوب المستمعين علموا أن قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، إنما هو سماعه من المبلغين له ، لا سماعه منه ، وأن هذا السماع ليس كسماع موسى كلام الله من الله ؛ فإن موسى سمعه منه بلا واسطة ، ونحن إذا سمعنا كلام النبي ﷺ من الصحابة لم يكن كسماع الصحابة من النبي ﷺ ، مع أنهم يبلغون حديثه كما سمعوه ، مع العلم بأنهم لم ٥٣٩/١٢ يحكوا صوت النبي ﷺ ، فلا هي أصواتهم صوته ، ولا مثل صوته ، مع أنهم بلغوا حديثه كما سمعوه . فالقرآن أولى أن يكون جبريل بلغه كما سمعه ، والرسول بلغه كما سمعه ، والأمة بلغته كما سمعته ، وأن يكون ما بلغته هو ما سمعته ، وهو كلام الله - عز وجل - في الحالين ، مع أن الرسول بشر من جنس البشر ، والله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والتفاوت الذي بين صفات الخالق والمخلوق أعظم من التفاوت بين أدنى المخلوقات وأعلاها ، فإذا كان سَمِعَ التابعين لكلام النبي ﷺ من الصحابة ليس كسماع الصحابة من النبي ﷺ ، فسماع كلام الله من الله أبعد من مماثلة سماع شيء لشيء من المخلوقات .

والقائل إذا قال لما سمعه من المبلغ عن الرسول : هذا كلام الرسول أو هذا كلام صواب ، أو حق أو صحيح ، أو هذا حديث رسول الله آداه كما سمعه ، أو هذا نفس كلام الرسول أو عينه فإنما قصد إلى مجرد الكلام ، وهو ما يوجد حال سماعه من المبلغ ، والمبلغ عنه لم يشر إلى ما يختص بأحدهما ، فلم يشر إلى مجرد صوت المبلغ ، ولا مجرد صوت المبلغ عنه ، ولا إلى حركة أحد منهما ، بل هناك أمر يتحد في الحالين ، وهذا ٥٤٠/١٢ أمر يتعدد يختص كل منهما منه بما يخصه .

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣ .

فإذا قيل: هذا هو كلامه، كانت الإشارة إلى المتحد المتفق عليه بينهما. وإذا قيل: هذا صوته كانت الإشارة إلى المختص المتعدد، فيقال: هذا صوت غليظ، أو رقيق، أو حسن، أو ليس حسناً، كما في الحديث الذي في سنن ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَلَّهِ أَشَدُّ أَدْنًا إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»^(١)، وفي الحديث المشهور: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢). قال أحمد: يحسنه بصوته ما استطاع. فبين الإمام أحمد أن الصوت صوت القارئ، مع أن الكلام كلام البارئ. وهذا كما أنه معلوم من تبليغ كلام الله ورسوله، فكذلك في تبليغ كلام كل أحد، فإذا سمع الناس منشداً ينشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قالوا: هذا شعر ليبد، لفظه ومعناه، وهذا كلام ليبد، كما قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة ليبد ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٣).

ولو قال المنشد: هذا شعري أو كلامي لكذبه الناس، كما يكذبونه لو قال: هذا ٥٤١/١٢ صوت ليبد، وإذا قال: هذا لفظ ليبد بالمعنى المعروف — وهو أن هذا الكلام الملفوظ هو كلامه بنظمه وتأليفه — لصدقه الناس. وإن قال: هذا لفظه بمعنى أن هذا بلفظه، كذبه الناس؛ فإن «اللفظ» يراد به المصدر، ويراد به الملفوظ، وكذلك «التلاوة» و «القراءة» يراد بذلك المصدر، ويراد به الكلام نفسه الذي يقرأ ويتلى.

وأصل هذا: أن تعلم الجامع والفارق بين سماع الكلام من المتكلم به، ومن المبلغ له عن المتكلم به، وأنه كلامه في الحالين، لكن هو في أحدهما مسموع منه سماعاً مطلقاً بغير واسطة، وفي الأخرى مسموع منه سماعاً مقيداً بواسطة التبليغ، كما أنك تارة ترى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة، فلا تحتاج في ذلك إلى واسطة، وتارة تراها في ماء أو مرآة ونحو ذلك، تراها بواسطة ذلك الجسم الشفاف، فهي المقصودة بالرؤية في الموضعين، لكن في إحدى الحالتين رأيتهما نفسها بالمباشرة رؤية مطلقة، وفي الأخرى رأيتهما رؤية مقيدة بواسطة.

وإذا قلت: المرئي مثالها أو خيالها أو نحو ذلك. قيل: أنت تجد الفرق بين رؤيتك خيال الشيء الذي هو ظله وتمثاله الذي هو صورته المصورة، وبين رؤيته في الماء والمرآة، إذا كان المرئي هنا، وإن كان لابد فيه من توسط خيال، فالمقصود بالرؤية هو الحقيقة، ٥٤٢/١٢ ولكن تختلف باختلاف المرآة، فيرى كبيراً إن كانت المرآة كبيرة، وصغيراً إن كانت المرآة

(١) سبق تخريجه ص ٤٧٥. (٢) سبق تخريجه ص ٤١٣. (٣) سبق تخريجه ص ٤٤٠.

صغيرة، ومستطيلاً إن كانت المرأة مستطيلاً. وهذا الكلام المروي عن الغير المقصود منه هو نفس كلام ذلك الغير، وإن كان لابد من توسط صوت هذا المبلغ؛ ولهذا يختلف باختلاف صوت المبلغ؛ فتارة يكون رقيقاً، وتارة غليظاً، وتارة مجهوراً به، وتارة مخافتاً به.

فإن قلت: فهذا المسموع مثل كلام المروي عنه، أو حكاية كلام المروي عنه، كما أطلق ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، كان إطلاق هذا خطأ، كما أنك إذا قلت لما تراه في الماء والمرأة: هذا مثل الشمس، أو هذا يحكى الشمس، كان إطلاق ذلك خطأ، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]، فقد بين عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته، فعلم أن هذا المسموع لا يقال: إنه مثل كلام الله، كما سماه كلامه، لكنه كلامه بواسطة المبلغ لا بطريق المباشرة.

والله - سبحانه - قد فرق بين التكليمين، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] ففرق بين تكليمه من وراء حجاب - كما كلمه موسى - وبين تكليمه بإرساله رسولا يوحى بأذنه، ذاك تكليم بلا/واسطة، وهذا تكليمه بواسطة.

٥٤٣/١٢

وإن قلت لما يبلغه المبلغ عن غيره: هذا حكاية كلام ذلك، كان الإطلاق خطأ؛ فإن لفظ «الحكاية» إذا أطلق يراد به أنه أتى بكلام يشبه كلامه، كما يقال: هذا يحاكي هذا، وهذا قد حكى هذا، لكن قد يقال: فلان قد حكى هذا الكلام عن فلان، كما يقال: رواه عنه، وبلغه عنه، ونقله عنه، وحدث به عنه؛ ولهذا يجيء في الحديث عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه. فكل ما بلغه النبي ﷺ عن الله فقد حكاه عنه، ورواه عنه.

فالقائل إذا قال للقارئ: هذا يحكي كلام الله، أو يحكي القرآن، فقد يفهم منه أنه يأتي بكلام يحاكي به كلام الله، وهذا كفر. وإن أراد أنه بلغه وتلاه فالمعنى صحيح، لكن ينبغي تعبيره بما لا يدل على معنى باطل، فيقول: قرأه وتلاه، وبلغه وأداه؛ ولهذا إذا قيل: يحكي القراءات السبع، ويرويها، وينقلها، لم ينكر ذلك؛ لأنه لا يفهم منه إلا تبليغها، لا أنه يأتي بمثلها.

فصل

إذا تبين ذلك، فيقال: هذا القرآن الذي نقرأه ونبلغه ونسمعه هو كلام الله الذي تكلم به، ونزل به منه روح القدس، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ. وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيْثٌ مُّثِيْثٌ ﴿النحل: ٩٨ - ١٠٣﴾، فهذا الكلام في القرآن الذي قالوا: إنما يعلمه إياه بشر، وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيْثٌ مُّثِيْثٌ﴾ فدل على أن المراد به نفس القرآن العربي، الذي يمتنع أن يعلمه إياه ذلك الأعجمي الذي الحدوا إليه. قد قيل: إنه رجل بمكة مولى لابن الحضرمي. والمعاني المجردة لا يمتنع تعلمها من الأعجمي، بخلاف هذا القرآن العربي، فدل أن هذا القرآن نزله روح القدس من الله - تبارك وتعالى.

٥٤٥/١٢ /ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وهذا الكلام صفة الله - تعالى - وأما ما اختص قيامه بنا، من حركاتنا وأصواتنا، وفهمنا وغير ذلك من صفاتنا، فلم يقم منه شيء بذات الله - سبحانه - كما أن ما اختص الرب - تعالى - بقيامه به لم ينتقل عنه، ولم يقم بغيره لا هو ولا مثله؛ فإن المخلوق إذا سمع من المخلوق كلامه وبلغه عنه كان ما بلغه هو كلامه، كما تقدم قول النبي ﷺ: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنْا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ»^(١)، مع أن ما قام بالنبي ﷺ - بباطنه من العلم والإرادة وغيرهما، وبظاهره من الحركة والصوت وغيرهما - لم ينتقل عنه، ولم يقم بغيره، بل جميع صفات المخلوقين لا تفارق ذاتهم وانتقل عنهم، فكيف يجوز أن يقال: إن صفة الخالق فارقت ذاته فانتقلت عنه؟

والمتعلم إذا أخذ علم المعلم ونقله عنه لم يفارق ذات الأول، وينتقل عنها إلى الثاني، بل نفس الحقيقة العلمية حصلت له مثل ما حصلت لمعلمه، أو ليس مثله بل يشبهه؛ ولهذا يشبه العلم بضوء السراج، كل أحد يقتبس منه وهو لم ينقص. ومن المعلوم أن من

(١) سبق تخريجه ص ٤٣٧.

أوقد من مصباح غيره فإنه لم ينتقل إلى سراجهِ شيء من جرم تلك النار ، ولا شيء من صفاتها القائمة بها ، بل جعل الله بسبب ملاصقة النار ذلك ناراً مثل تلك، /الحقيقة ٥٤٦/١٢
النارية موجودة ، وإن كانت هذه العين ليست تلك ، لكن النار والعلم ليس هو مثل الكلام الذي يبلغ عن الغير، بل هو مثل أن يسمع بعض الناس كلام غيره، وشعر غيره، فيقول من جنس ما قال، ويقول كما قال غيره مثله، كما يقال: وَقَعَ الخاطر على الخاطر كوقع الحافر على الحافر، وليس هذا من التبليغ والرواية في شيء ، فإن قول القائل:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هو كلام لبيد كيف ما أنشده الناس وكتبوه، فهذا الشعر الذي ينشده هو شعر لبيد بعينه. فإذا قيل: الشعر الذي قام بنا هو الذي قام بلبيد. قيل: إن أريد بذلك أن الشعر من حيث هو هو، إن أريد: أن نفس ما قام بذاته فارق ذاته وانتقل إلينا، فليس كذلك، وكذلك إن أريد: أن عين الصفة المختصة بذلك الشخص كحركته وصوته هي عين الصفة المختصة بنا، كحركتنا وصوتنا فليس كذلك.

فقولك: هذا هو هذا، لفظ فيه إجمال يبينه السياق. فإذا قلت: هذا الكلام هو ذاك، أو هذا الشعر هو ذاك، كنت صادقاً. وإذا قلت: هذا الصوت هو ذاك، كان كذبا.

والناس لا يقصدون، إذا قالوا: هذا شعر لبيد، إلا القدر المتحد،/وهي الحقيقة من ٥٤٧/١٢ حيث هي، مع قصر النظر عما اختص به أحدهما.

فإن قيل: القدر المتحد كلي مطلق، والكليات إنما توجد في الأذهان لا في الأعيان. قيل: ذكر هذا هنا غلط، فإن هذا إنما يقال لو كان رجل قد قال شعر لبيد من غير أن يعلم بشعره. فنقول: هذان شيئان اشتراكا في النوع الكلي، وامتاز أحدهما عن الآخر بما يخصه، والكلي إنما يوجد كلياً في الذهن لا في الخارج، وأما هنا فنفس شعره كان له وجود في الخارج، والمقصود من الحقيقة الكلامية - مع قطع النظر عن صوت زيد وصوت عمرو- موجود لما تكلم به لبيد، وموجود إذا أنشده غير لبيد، وتلك الحقيقة المتحدة موجودة هنا وهنا، ليست مثل وجود الإنسانية في زيد وعمرو وخالد؛ فإن إنسانية زيد ليست إنسانية عمرو بل مثلها، والمشارك بينهما لا يوجد في الخارج، وهنا نفس الكلام الذي تكلم به لبيد تكلم به المنشد عنه، ولا يقال: إنه أنشأ مثله، ولا أنشد مثله، بل يقال: أنشد شعره بعينه.

لكن الشعر عَرَض ، والعرض لا يقوم إلا بغيره، فلا بد أن يقوم إما بلبيد وإما بغيره،

والقائم به وإن كان ليس مثل القائم بغيره، لكن المقصود بهما واحد . فالتماثل والتغاير في الوسيلة ، والاتحاد في الحقيقة المقصودة، وتلك الحقيقة هي إنشاء لبيد لا ٥٤٨/١٢ إنشاء غيره، والعقلاء يعلمون أنه ليس نفس الصوت المسموع من لبيد هو نفس الصوت المسموع من المنشد، لكن نفس المقصود بالصوت هو الكلام، فإن الصوت واسطة في تبليغه؛ ولهذا ما كان في الصوت من مدح وذم كان للمبلغ، وما كان في الكلام من مدح وذم كان للمتكلم المبلغ عنه في لفظه ونظمه ومعناه .

وإذا عرف هذا ، فقول القائل : هذا القرآن الذي نتلوه، القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به، وكان صفة له أم لا؟ قيل له : أما الكلام فهو كلام الله لا كلامنا ولا غيرنا، وهو مسموع من المبلغ لا من الله — كما تقدم — وهو مسموع بواسطة سماعا مقيداً، لا سماعاً من الله مطلقاً — كما تقدم — وليس شيء مما قام بذاته فارقه وانتقل إلينا، ولا شيء مما يختص بذواتنا — كحركاتنا وأصواتنا فهو منا — قائماً به .

وأما قوله : هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله، الذي قام به حين تكلم به ؟ فلفظ «القيام» فيه إجمال ؛ فإن أراد : أن نفس صفة الرب تكون صفة لغيره، أو صفة العبد تكون صفة للرب، فليس كذلك. وإن أراد : أن نفس ما ليس بمخلوق صار مخلوقاً، أو ما هو مخلوق صار غير مخلوق، فليس الأمر كذلك. وإن ٥٤٩/١٢ أراد : أن ما اختص الرب بقيامه به شاركه فيه غيره. فليس الأمر كذلك. وإن/أراد : أن نفس الكلام كلامه لا كلام غيره في الحالين — كما تقدم تقريره — فالأمر كذلك .

وقد علم أن الحال إذا سمع من الله ليس كالحال إذا سمع من خلقه، وذلك فرق بين الحالين، وإن كان الكلام واحداً. فإذا كان هذا الفرق ثابتاً في كلام المخلوق مسموعاً ومبلغاً عنه، فثبوته في كلام الله أولى وأحرى؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يمكن أن يكون تكلمه به وسماعه مما يعرف له نظير ولا مثال، ولا يقاس ذلك بتكلم النبي ﷺ ، وسماع الكلام منه ؛ فإن النبي ﷺ بشر، يمكننا أن نعرف صفاته ، والرب — تعالى — لا مثال له، وهو أبعد عن مماثلة المخلوقات أعظم من بعد مماثلة المخلوقات عن مماثلة أديانها .

وقول السائل : إذا تلوناه، وقام بنا، يطلق عليه كلام الله وصفته أم يطلق عليه كلام الله دون صفته؟ أم في ذلك تفصيل يجب بيانه ؟

فيقال: هو كلام الله وصفته ، مسموعاً من المبلغ عنه لا منه؛ فالنفي والإثبات بدون هذا التفصيل يوهم : إما أنه كلام الله مسموعاً منه، أو أنه ليس كلام الله، بل كلام المبلغ عنه. وكلا القولين خطأ وقع في كلام طائفتين من الناس؛ طائفة جعلت هذا كلام المبلغ عنه، لا كلام/الله.. وطائفة قالت: هذا كلام الله مسموعاً من الله، ولم تفرق بين ٥٥٠/١٢ الحالين، حتى ادعى بعضها أن الصوت المسموع قديم، وتلك لم تجعله كلام الله، بل كلام الناس، فهؤلاء يقولون: ليس هذا كلام الله، وأولئك يقولون: هذا الصوت المسموع قديم. وكلا القولين خطأ وضلال ، لكن هو كلامه مقيداً بواسطة المبلغ القارئ، ليس هو كلامه وصفته مطلقاً عن التقييد مسموعاً منه، وكلام المتكلم يضاف إليه مطلقاً إذا سمع منه، ومقيداً إذا سمع من المبلغ عنه، كما أن رؤيته تقال: مطلقة، إذا رؤى مباشرة. وتقال : مقيدة ، إذا رؤى في ماء أو مرآة.

وأما قوله: إذا قام بنا ، هل كان منتقلاً عن الله بعد أن قام به أم يكون قائماً بنا وبه معاً؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه؟ ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً؟

فيقال : إن صفة المخلوق لا تفارق ذاته، وتنتقل عنه وتقوم بغيره، فكيف يجوز أن يقال: إن صفة الرب - سبحانه - فارقت ذاته، وانتقلت عنه وقامت بغيره. وقد بينا أن المتكلم منا إذا أرسل غيره بكلام فإنه ما قام به، بل لم يفارق ذاته وينتقل إلى غيره، فكلام الله أولى وأحرى، بل كلامه - سبحانه - قائم به، كما يقوم به لو تكلم به ولم يرسل به رسولا، فأرساله رسولا به يفيد إبلاغه إلى الخلق، وإنزاله إليهم/لا يوجب نقصاً في حق ٥٥١/١٢ الرب، ولا زوال اتصافه به، ولا خروجه عن أن يكون كلامه، بل نعلم أن الرب كما أنه قد يتكلم به، ولا يرسل به رسولا قد يتكلم به ويرسل به رسولا، فهو - سبحانه - في الحالين كلامه، بل إرسال الرسول به نفع الخلق، وهداهم ، ولم يجب به نقصان صفة مولاهم.

وقوله: أم يكون قائماً بنا وبه ؟ فيقال: معنى «القائم» لفظ مجمل؛ فإن أريد أن نفس الكلام من حيث هو هو تكلم هو به، وتكلمنا به مبلغين له عنه، فذلك هو . وإن أريد: أن ما اختص به يقوم بنا، أو ما اختص بنا يقوم به، فهذا ممتنع. وإن أريد بالقيام : أنا بلغنا كلامه، أو قرأنا كلامه، أو تلونا كلامه، فهذا صحيح، فذلك إن أريد: أن هذا الكلام كلامه مسموعاً من المبلغ لا منه. وإن أريد بالقيام: أن الشيء الذي اختص به هو بعينه قام بغيره مختصاً به، فهذا ممتنع . وإن قيل : الصفة الواحدة تقوم بموضعين. قيل :

هذا - أيضاً - مجمل؛ فإن أريد أن الشيء المختص بمحل يقوم بمحل آخر فهذا ممتنع، وإن أريد : أن الكلام الذي يسمى صفة واحدة يقوم بالمتكلم به ويبلغه عنه غيره، كان هذا صحيحاً.

فهذه المواضع يجب أن تفسر الألفاظ المجملة بالألفاظ المفسرة المبينة، وكل لفظ ٥٥٢/١٢ يحتمل حقاً وباطلاً فلا يطلق إلا مبيّناً به المراد الحق دون الباطل ، فقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء. وكثير من نزاع الناس في هذا الباب هو من جهة الألفاظ المجملة، التي يفهم منها هذا معنى يثبت، ويفهم منها الآخر معنى ينفيه. ثم النفاة يجمعون بين حق وباطل، والمثبتة يجمعون بين حق وباطل.

وأما قوله : أم الذي يقوم بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه، ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً؟ فيقال: العبارة عن كلام الغيب يقال لمن في نفسه معنى ثم يعبر عنه غيره. كما يعبر عما في نفس الأخرس من فهم مراده، والذين قالوا: «القرآن عبارة عن كلام الله» قصدوا هذا ، وهذا باطل ، بل القرآن العربي تكلم الله به ، وجبريل بلغه عنه.

وأما «الحكاية» فيراد بها ما يماثل الشيء ، كما يقال: هذا يحاكي فلاناً: إذا كان يأتي بمثل قوله أو عمله، وهذا ممتنع في القرآن، فإن الله - تعالى - يقول: ﴿قُلْ لِّينْ أَجْتَمَعَتِ آلِإِسْ وَالْحِنْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]. وقد يقال: فلان حكى فلان عنه، أي بلغه عنه، ونقله عنه، ويجيء في الحديث : أن النبي ﷺ قال فيما يحكي عن ربه، ويقال: إن النبي ﷺ روى عن ربه . وحكى عن ربه . فإذا قيل: إنه حكى عن الله، بمعنى أنه بلغ عن الله، فهذا صحيح.

٥٥٣/١٢ / وأما قول القائل : هل يكون كلام الله مجازاً ؟ فيقال: علامة المجاز صحة نفيه، ونحن نعلم بالاضطرار أن فلاناً لو قال بحضرة الرسول: ليس هذا كلام الله، لكان عنده لم يكن متكلماً بالحقيقة اللغوية .

وأيضاً، فهذا موجود في كل من بلغ كلام غيره، أنه يقال: هذا كلام المبلغ عنه، لا كلام المبلغ، والله أعلم.

/ ما تقول السادة أئمة الدين في رجلين قال أحدهما: القرآن المسموع كلام ٥٥٤/١٢
الله. وقال الآخر: هو كلام جبرائيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فهل أصاب أم أخطأ؟ وما الجواب عما احتج به؟ وهل هذا القول قاله أحد من الشيوخ والأئمة أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - :

الحمد لله رب العالمين، بل القرآن كلام الله - تعالى - وليس كلام جبرائيل، ولا كلام محمد ﷺ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين وأصحابهم، الذين يفتى بقولهم في الإسلام كآبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم.

وجبريل سمعه من الله، وسمعه محمد من جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. وروح القدس هو جبريل، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكَنْتَبُ يَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿نَزِيلُ أَلَكَنْتَبِ مِنْ أَلَلِّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿حَمِّ . نَزِيلُ أَلَكَنْتَبِ مِنْ أَلَلِّ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢]، فهو منزل من الله، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ ٥٥٥/١٢ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

وأما قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فإنه أضافه إليه؛ لأنه بلغه وأذاه لا لكونه أحدث منه شيئاً وابتداه؛ فإنه - سبحانه - قال في إحدى الآيتين: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]، فالرسول هنا محمد ﷺ. وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]. فالرسول هنا جبريل، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فلو كانت إضافته إلى أحدهما لكونه ألف النظم العربي، وأحدث منه شيئاً غير ذلك تناقض الكلام؛ فإنه إن كان نظم أحدهما لم يكن نظم الآخر.

وأيضاً، إنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، ولفظ «الرسول»

يشعر بأنه مبلغ له عن مرسله، لا أنه أنشأ من عنده شيئاً.

٥٥٦/١٢ وأيضاً، فقلوه: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ضمير يعود إلى القرآن، والقرآن يتناول معانيه ولفظه، ومجموع هذا ليس قولاً لغير الله بإجماع المسلمين، وإطلاق القول بأن القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين، كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين، بل عظم الله الإنكار على من يقول: إنه قول البشر، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُ وَقَدَّرَ . فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدَبَرَّ وَأَسْتَكْبَرَّ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَمْعٌ يُوَثِّرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدرثر: ١١ - ٢٧]. فمن قال: إن القرآن قول البشر، فقد كفر، وكذلك من قال: إنه قول ملك.

ولمّا يقول: إنه قول جبريل أحد رجلين:

إما رجل من الملاحدة والفلاسفة، الذين يقولون: إنه فيض فاض على نفس النبي من العقل الفعال، ويقولون: إنه جبريل. ويقولون: إن جبريل هو الخيال الذي يتمثل في نفس النبي ﷺ، يقولون: إنه تلقاه معان مجردة، ثم إنه تشكل في نفسه حروفاً كما يتشكل في نفس النائم، كما يقول ذلك ابن عربي صاحب «الفصوص» وغيره من الملاحدة؛ ولهذا يدعى أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول، فإن «المعدن» عنده هو العقل، و«الملك» هو الخيال الذي في نفسه، والنبي ﷺ عندهم يأخذ من هذا الخيال. وهذا الكلام من أظهر الكفر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى، وهو مما يعلم فساده بالاضطرار من دين المسلمين.

أو رجل ينتسب إلى مذهب الأشعري، ويظن أن هذا قول الأشعري؛ بناء على أن الكلام العربي لم يتكلم الله به عنده، وإنما كلامه معنى واحد قائم بذات الرب، هو الأمر والخبر، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا، وهذا القول، وإن كان قول ابن كلاب والقلاسي، والأشعري ونحوهم، فلم يقولوا: إن الكلام العربي كلام جبريل، ومن حكي هذا عن الأشعري نفسه فهو مجازف، وإنما قال طائفة من المنتسبين إليه - كما قالت طائفة أخرى - : إنه نظم محمد ﷺ، ولكن المشهور عنه: أن الكلام العربي مخلوق، ولا يطلق عليه القول بأنه كلام الله، لكن إذا كان مخلوقًا، فقد يكون خلقه في الهواء، أو في جسم، لكن القول إذا كان ضعيفًا ظهر الفساد في لوازمه.

وهذا القول - أيضاً - لم يقله أحد من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين

وأصحابهم، الذين يفتى بقولهم، بل كان الشيخ أبو حامد الأسفرائيني يقول: مذهبي، ومذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وسائر علماء الأمصار في القرآن مخالف لهذا القول، وكذلك أبو محمد الجويني - والد أبي المعالي - قال: مذهب الشافعي وأصحابه ٥٥٨/١١ في الكلام ليس هو قول الأشعري، وعامة العقلاء يقولون: إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار، فإننا نعلم أن التوراة إذا عربت لم تكن هي القرآن، ونعلم أن آية الكرسي ليست هي معنى آية الدين.

والله - تعالى - قد فرق في كتابه بين تكليمه لموسى وإيجائه إلى غيره، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، ففرق بين التكليم الذي حصل لموسى، وبين الإيحاء المشترك، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٣، ١٤].

والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعاً سماعاً مقيداً بواسطة المبلغ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق، بخلاف سماع موسى ﷺ، وإن كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه، فليس ذلك كالسماع منه، فأمر الله - تعالى - أعظم.

ولهذا اتفق سلف الامة وأئمتها على أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله - ٥٥٩/١٢ - تعالى - ولم يقل أحد منهم: إن أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديم، مع اتفاقهم على أن المثبت بين لוחي المصحف كلام الله، وقد قال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١)، فالكلام الذي يقرؤه المسلمون كلام الله، والأصوات التي يقرؤون بها أصواتهم. والله أعلم.

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣

٥٦٠/١٢ | وسئل - رحمه الله :-

ما تقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين - رضي الله عنهم أجمعين - فيمن يقول: الكلام غير المتكلم، والقول غير القائل، والقرآن والمقروء والقارئ كل واحد منها له معنى؟ بينوا لنا ذلك بياناً شافياً؛ ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد، أثابكم الله بمه؟.

فأجاب - رضي الله عنه :-

الحمد لله، من قال: إن الكلام غير المتكلم، والقول غير القائل، وأراد أنه مبين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال، وهو قول من يقول: إن القرآن مخلوق؛ فإنهم يزعمون أن الله لا يقوم به صفة من الصفات، لا القرآن ولا غيره، ويوهمون الناس بقولهم: العلم غير العالم والقدرة غير القادر، والكلام غير المتكلم، ثم يقولون: وما كان غير الله فهو مخلوق، وهذا تلييس منهم.

فإن لفظ «الغير» يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقه له، وعلى هذا فلا يجوز أن يقال: علم الله غيره، ولا يقال: إن الواحد/من العشرة غيرها، وأمثال ذلك، وقد يراد بلفظ «الغير» ما ليس هو الآخر، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف، لكن على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقاً؛ لأن صفاته ليست هي الذات، لكن قائمة بالذات، والله - سبحانه وتعالى - هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها، بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها.

والصواب في مثل هذا أن يقال: الكلام صفة المتكلم، والقول صفة القائل، وكلام الله ليس بائناً منه، بل أسمع لجبريل، ونزل به على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ولا يجوز أن يقال: إن كلام الله فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، بل يقال كما قال السلف: إنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. فقولهم: «منه بدأ» رد على من قال: إنه مخلوق في بعض الأجسام، ومن ذلك المخلوق ابتداءً. فبينوا أن الله هو المتكلم به «منه بدأ» لا من بعض المخلوقات «وإليه يعود» أي: فلا يبقى في الصدور منه آية، ولا في المصاحف حرف، وأما القرآن فهو كلام الله.

فمن قال: إن القرآن الذي هو كلام الله غير الله فخطؤه وتلييسه كخطأ من قال: إن

الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن كلام / الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به ٥٦٢/١٢
فخطؤه ظاهر، وكذلك من قال : إن القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه
المسلمون، فقد أخطأ.

وإن أراد بـ «القرآن» مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، وقال: أردت أن القراءة غير
المقروء، ، فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن، وقد يراد بالقراءة المصدر، فمن
جعل «القراءة» التي هي المصدر غير المقروء ، كما يجعل التكلم الذي هو فعله غير
الكلام الذي هو يقوله، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه، فقد صدق ، فإن الكلام الذي
يتكلم به الإنسان يتضمن فعلا كالحركة، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف
والمعاني؛ ولهذا يجعل القول قسيماً للفعل تارة، وقسماً منه أخرى.

فالأول كما يقول: الإيمان قول وعمل، ومنه قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمي ما
حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ
مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١]، وأمثال ذلك مما يفرق بين القول والعمل .
وأما دخول القول في العمل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ، ٩٣] . وقد فسروه بقول: لا إله إلا الله، ولما سئل ٥٦٣/١٢
ﷺ: أي الأعمال أفضل ؟ قال: «الإيمان بالله»^(٢) مع قوله: «الإيمان بضع وسبعون
شعبة، أعلاها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(٣) ونظائر ذلك
متعددة.

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً، إذا قال قولاً كالقراءة ونحوها، هل يحنث؟
على قولين في مذهب أحمد وغيره، بناء على هذا.

فهذه الالفاظ التي فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها، وإلا وقع فيها نزاع
واضطراب، والله- سبحانه وتعالى- أعلم.

(١) سبق تخريجه ص ٥٩٧ .

(٢) البخاري في الإيمان (٢٦) ومسلم في الإيمان (٨٣/ ١٣٥) .

(٣) سبق تخريجه ص ٦٣٤ .

هل نفس المصحف هو نفس القرآن، أم كتابته ؟ وما في صدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه؟

فأجاب :

الواجب أن يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة، كقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢]، وقوله : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة : ٧٧ - ٧٩]، وقوله : ﴿وَالطُّورِ . وَكُنْتَ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور : ١ - ٣]، وقوله : ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة : ٢ ، ٣]، وقوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ . لِمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١١ - ١٦] .

وكذلك قول النبي ﷺ : «لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو»^(١)، وقوله : «استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصيًّا من صدور الرجال من النعم في عقلها»^(٢) وكلاهما في الصحيحين، وقوله : «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحَرْب» قال الترمذي : حديث صحيح^(٣) .

٥٦٥/١٢ / فمن قال : القرآن في المصاحف والصدور، فقد صدق . ومن قال : فيها حفظه وكتابته، فقد صدق . ومن قال : القرآن مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور، فقد صدق . ومن قال : إن المداد أو الورق، أو صفة العبد أو فعله، أو حفظه وصوته قديم، أو غير مخلوق، فهو مخطئ ضال . ومن قال : إنما في المصحف ليس هو كلام الله، أو ما في صدور القراء ليس هو كلام الله، أو قال : إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله، ولكن هو مخلوق، أو صنفه جبريل أو محمد، وقال : إن القرآن في المصاحف ، كما أن محمداً في التوراة والإنجيل، فهو أيضاً مخطئ ضال .

فإن القرآن كلام، والكلام نفسه يكتب في المصحف، بخلاف الأعيان ؛ فإنه إنما يكتب اسمها وذكرها، فالرسول مكتوب في التوراة والإنجيل ذكره ونعته، كما أن القرآن في زبر الأولين، وكما أن أعمالنا في الزبر، قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٦] ،

(١-٣) سبق تخريجها ص ٥٠٧ .

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، ومحمد مكتوب في التوراة والإنجيل، كما أن القرآن في تلك الكتب، وكما أن أعمالنا في الكتب، وأما القرآن فهو نفسه مكتوب في المصاحف، ليس المكتوب ذكره والخبر عنه، كما يكتب اسم الله في الورق، ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام، وكتابة المسميات والأعيان — كما جرى لطائفة من الناس — فقد غلط غلطاً شديداً في بين الحقائق المختلفة، كما قد يجعل ٥٦٦/١٢ مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئاً واحداً، كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحداً.

وكلام المتكلم يسمع تارة منه، وتارة من المبلغ، فالنبي ﷺ لما قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» (١) — فهذا الكلام قاله رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه؛ فلفظه لفظ الرسول ﷺ، ومعناه معنى الرسول، فإذا بلغه المبلغ عنه بلغ كلام الرسول بلفظه ومعناه؛ ولكن صوت الصحابي المبلغ ليس هو صوت رسول الله ﷺ.

فالقرآن كلام الله، لفظه ومعناه، سمعه منه جبريل، وبلغه عن الله إلى محمد، ومحمد سمعه من جبريل وبلغه إلى أمته، فهو كلام الله حيث سمع وكتب وقرئ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُومًا﴾ [التوبة: ٦].

وكلام الله تكلم الله به بنفسه، تكلم به باختياره وقدرته، ليس مخلوقاً بائناً عنه، بل هو قائم بذاته، مع أنه تكلم به بقدرته ومشيتته، ليس قائماً بدون قدرته ومشيتته.

/والسلف قالوا: لم يزل الله — تعالى — متكلماً إذا شاء. فإذا قيل: كلام الله قديم، ٥٦٧/١٢ بمعنى أنه لم يصير متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً، ولا كلامه مخلوق، ولا معنى واحد قديم قائم بذاته، بل لم يزل متكلماً إذا شاء — فهذا كلام صحيح.

ولم يقل أحد من السلف: إن نفس الكلام المعين قديماً، وكانوا يقولون: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، ولم يقل أحد منهم: إن القرآن قديم، ولا قالوا: إن كلامه معنى واحد قائم بذاته، ولا قالوا: إن حروف القرآن أو حروفه وأصواته قديمة أزلية قائمة بذات الله، وإن كان جنس الحروف لم يزل الله متكلماً بها إذا شاء، بل قالوا: إن حروف القرآن غير مخلوقة، وأنكروا على من قال: إن الله خلق الحروف.

وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

مخلوق. يقولون: من قال: هو مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع؛ فإن «اللفظ» يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، ويراد باللفظ المملووظ به، وهو نفس الحروف المنطوقة، وأما أصوات العباد ومداد المصاحف فلم يتوقف أحد من السلف في أن ذلك مخلوق، وقد نص أحمد وغيره على أن صوت القارئ صوت العبد، وكذلك غير ٥٦٨/١٢ أحمد من الأئمة. وقال أحمد: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق - يريد به القرآن - فهو جهمي؛ فالإنسان وجميع صفاته مخلوق، حركاته وأفعاله وأصواته مخلوقة، وجميع صفاته مخلوقة، فمن قال عن شيء من صفات العبد: إنها غير مخلوقة أو قديمة، فهو مخطئ ضال، ومن قال عن شيء من كلام الله أو صفاته: إنه مخلوق، فهو مخطئ ضال.

وأما أصوات العباد بالقرآن، والمداد الذي في المصحف، فلم يكن أحد من السلف يتوقف في ذلك، بل كلهم متفقون أن أصوات العباد مخلوقة، والمداد كله مخلوق، وكلام الله الذي يكتب بالمداد غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهذه المسائل قد بسط الكلام عليها، وذكر أقوال الناس واضطرابهم فيها في مواضع أخر.

فصل

والقرآن الذي بين لوجي المصحف متواتر؛ فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة، ونقلوها قرآنا عن النبي ﷺ وهي متواترة من عهد الصحابة، نعلم علماً ضرورياً أنها ما غيرت، والقراءة المعروفة عن السلف الموافقة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر ويعقوب، وخلف، وبين قراءة حمزة والكسائي، وأبي عمرو ونعيم، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها: إن القراءة مختصة بالقراء السبعة.

فإن هؤلاء، إنما جمع قراءاتهم أبو بكر بن مجاهد بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة، واتبعه الناس على ذلك، وقصد أن ينتخب قراءة سبعة من قراء الأمصار، ولم يقل هو ولا أحد من الأئمة: إن ما خرج عن هذه السبعة فهو باطل، ولا أن قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١) أريد به قراءة هؤلاء السبعة، ولكن/هذه السبعة ٥٧٠/١٢ اشتهرت في أمصار لا يعرفون غيرها، كأرض المغرب، فأولئك لا يقرؤون بغيرها؛ لعدم معرفتهم باشتهار غيرها.

فأما من اشتهرت عندهم هذه، كما اشتهر غيرها؛ مثل أرض العراق وغيرها، فلهم أن يقرؤوا بهذا وهذا، والقراءة الشاذة مثلما خرج عن مصحف عثمان، كقراءة من قرأ: «الحي القيوم» و «صراط من أنعمت عليهم» و «إن كانت إلا زقية واحدة» والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. والذكر والأنثى. وأمثال ذلك.

فهذه إذا قرئ بها في الصلاة، ففيها قولان مشهوران للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد:

أحدهما: تصح الصلاة بها؛ لأن الصحابة الذين قرؤوا بها كانوا يقرؤونها في الصلاة، ولا ينكر عليهم.

والثاني: لا؛ لأنها لم تتواتر إلينا، وعلى هذا القول فهل يقال: إنها كانت قرآناً فنسخ، ولم يعرف من قرأ إلا بالناسخ؟ أو لم تنسخ، ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن

(١) البخاري في الخصومات (٢٤١٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٨ / ٢٧٠).

ثبتت عنده دون من لم تثبت، أو لغير ذلك، هذا فيه نزاع مبسوط في غير هذا الموضع.
وأما من قرأ بقراءة أبي جعفر ويعقوب ونحوهما، فلا تبطل الصلاة بها باتفاق الأئمة،
ولكن بعض المتأخرين من المغاربة ذكر في ذلك كلاماً وافقه عليه بعض من لم يعرف
أصل هذه المسألة.

وأما «الحروف» هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟ فالخلاف في ذلك بين الخلف مشهور، فأما السلف فلم ينقل عن أحد منهم أن حروف القرآن وألفاظه وتلاوته مخلوقة، ولا ما يدل على ذلك، بل قد ثبت عن غير واحد منهم الرد على من قال: إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة. وقالوا: هو جهمي. ومنهم من كفره، وفي لفظ بعضهم تلاوة القرآن، ولفظ بعضهم الحروف.

وعن ثبت ذلك عنه أحمد بن حنبل، وأبو الوليد الجارودي صاحب الشافعي، وأسحاق بن راهويه، والحميدي، ومحمد بن أسلم الطوسي، وهشام بن عمار، وأحمد ابن صالح المصري. ومن أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليطالع الكتب المصنفة في السُّنة، مثل «الرد على الجهمية» للإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم، وكتاب «الشريعة» للأجري و«الإبانة» لابن بطة، و«السُّنة» للالكائي، و«السُّنة» للطبراني، وغير ذلك من ٥٧٢/١٢ الكتب الكثيرة، ولم ينسب أحد منهم إلى خلاف ذلك، إلا بعض أهل الغرض نسب البخاري إلى أنه قال ذلك. وقد ثبت عنه بالإسناد المرضي أنه قال: من قال عني أي قلتُ: لفظي بالقرآن مخلوق، فقد كذب. وتراجعه في آخر صحيحه تبين ذلك.

وهنا ثلاثة أشياء:

أحدها: حروف القرآن، التي هي لفظه قبل أن ينزل بها جبريل، وبعد ما نزل بها، فمن قال: إن هذه مخلوقة فقد خالف إجماع السلف، فإنه لم يكن في زمانهم، من يقول هذا، إلا الذين قالوا: إن القرآن مخلوق؛ فإن أولئك قالوا بالخلق للألفاظ، ألفاظ القرآن، وأما ما سوى ذلك فهم لا يقرون بشبوته، لا مخلوقاً ولا غير مخلوق، وقد اعترف غير واحد من فحول أهل الكلام بهذا، منهم عبد الكريم الشهرستاني مع خبرته بالملل والنحل؛ فإنه ذكر أن السلف مطلقاً ذهبوا إلى أن حروف القرآن غير مخلوقة، وقال: ظهور القول بحدوث القرآن محدث، وقرر مذهب السلف في كتابه المسمى بـ«نهاية الكلام».

الثاني: أفعال العباد، وهي حركاتهم التي تظهر عليها التلاوة، فلا خلاف بين السلف أن أفعال العباد مخلوقة؛ ولهذا قيل: إنه بدع/أكثرهم من قال: لفظي بالقرآن ٥٧٣/١٢ مخلوق؛ لأن ذلك قد يدخل فيه فعلة.

الثالث: التلاوة الظاهرة من العبد عقيب حركة الآية، فهذه منهم من يصفها بالخلق، وأول من قال ذلك - فيما بلغنا - حسين الكرايسي، وتلميذه داود الأصبهاني، وطائفة، فأنكر ذلك عليهم علماء السنة في ذلك الوقت، وقالوا فيهم كلاماً غليظاً، وجمهورهم - وهم اللفظية عند السلف - الذين يقولون: لفظنا بالقرآن مخلوق، أو القرآن بالفاظنا مخلوق، ونحو ذلك.

وعارضهم طائفة من أهل الحديث والسنة كثيرون، فقالوا: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، والذي استقرت عليه نصوص الإمام أحمد وطبقته من أهل العلم: أن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع، هذا هو الصواب عند جماهير أهل السنة، ألا يطلق واحد منهما، كما عليه الإمام أحمد وجمهور السلف؛ لأن كل واحد من الإطلاقين يقتضي إيهاماً لخطأ؛ فإن أصوات العباد محدثة بلا شك، وإن كان بعض من نصر السنة ينفي الخلق عن الصوت المسموع من العبد بالقرآن، وهو مقدار ما يكون من القرآن المبلغ.

٥٧٤/١٢ فإن جمهور أهل السنة أنكروا ذلك وعابوه، جرياً على منهاج أحمد / وغيره من أئمة الهدى، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» (١).

وأما التلاوة في نفسها، التي هي حروف القرآن والفاظه، فهي غير مخلوقة، والعبد إنما يقرأ كلام الله بصوته، كما أنه إذا قال: قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» (٢) فهذا الكلام لفظه ومعناه إنما هو كلام رسول الله ﷺ، وهو قد بلغه بحركته وصوته، كذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله - تعالى - ليس للمخلوق فيه إلا تبليغه وتأديته وصوته، وما يخفى على لبيب الفرق بين التلاوة في نفسها، قبل أن يتكلم بها الخلق، وبعد أن يتكلموا بها، وبين ما للبدن في تلاوة القرآن من عمل وكسب، وإنما غلط بعض الموافقين والمخالفين، فجعلوا البابين باباً واحداً، وأرادوا أن يستدلوا على نفس حدوث حروف القرآن بما دل على حدوث أفعال العباد وما تولد عنها، وهذا من أقبح الغلط، وليس في الحجج العقلية، ولا السمعية، ما يدل على حدوث نفس حروف القرآن، إلا من جنس ما يحتاج به على حدوث معانيه. والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه لمن استهدى الله فهداه.

وأما ما ذكره من آيات الصفات وأحاديثها، فمذهب سلف الأمة - من الصحابة

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣.

والتابعين ، وسائر الأئمة المتبوعين - الإقرار والإقرار. قال أبو/سليمان الخطابي (١)، ١٢/٥٧٥ وأبو بكر الخطيب : مذهب السلف في آيات الصفات، وأحاديث الصفات، إجراؤها على ظاهرها مع نفي الكيفية، والتشبيه عنها. وقالوا في ذلك : إن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه، ويتبع فيه مثله، فإذا كان إثبات ذاته إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذاك إثبات صفاته إثبات وجود لا إثبات كيفية، فلا نقول : إن معنى اليد القدرة، ولا إن معنى السمع العلم، هذا كلامهما.

وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي: كيف ينزل إلى سماء الدنيا؟ فقل له : كيف هو في نفسه؟ فإن قال: نحن لا نعلم كيفية ذاته. فقل: ونحن لا نعلم كيفية صفاته، وكيف نعلم كيفية صفة، ولا نعلم كيفية موصوفها.

ومن فهم من صفات الله تعالى ما هو مستلزم للحدوث، مجانس لصفات المخلوقين، ثم أراد أن ينفي ذلك عن الله فقد شبه وعطل؛ بل الواجب أن لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا نتجاوز القرآن والحديث. وإن نعلم مع ذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في نفسه ، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، وإن الخلق لا تطيق عقولهم كنه معرفته، ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢]، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، فقيه محدث، من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) له مصنفات كثيرة منها: «معالم السنن» في شرح سنن أبي داود، و«بيان إعجاز القرآن»، توفي سنة ٣٨٨هـ. [الأعلام: ٢/٢٧٣].

٥٧٦/١٢ | وسئل - رحمه الله - عن يقول: إن الشكل ، والنقط من كلام الله تبارك وتعالى، وهل ذلك حق أم باطل؟ وما الحكم في الأحرف ؟ هل هي كلام الله أم لا؟ بينوا لنا ذلك مثابين مأجورين؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . المصاحف التي كتبها الصحابة لم يشكلوا حروفاً، ولم ينقطوها؛ فإنهم كانوا عرباً لا يلحنون، ثم بعد ذلك في أواخر عصر الصحابة لما نشأ اللحن صاروا ينقطون المصاحف ويشكلونها وذلك جائز عند أكثر العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وكرهه بعضهم، والصحيح أنه لا يكره؛ لأن الحاجة داعية إلى ذلك، ولا نزاع بين العلماء أن الحكم الشكل والنقط حكم الحروف المكتوبة ، فإن النقط تميز بين الحروف، والشكل يبين الإعراب؛ لأنه كلام من تمام الكلام، ويروي عن أبي بكر وعمر أنهما قالاً: « إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه » فإذا قرأ القارئ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] كانت الضمة والفتحة والكسرة من تمام لفظ القرآن .

٥٧٧/١٢ وإذا كان كذلك فالمداد الذي يكتب به الشكل والنقط كالمداد الذي يكتب به الحروف، والمداد كله مخلوق، ليس منه شيء غير مخلوق. والصوت الذي يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد؛ لكن الكلام كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» (١) فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القارئ، وهذا ليس هو الصوت الذي ينادي الله به عباده، ويسمعه موسى وغيره، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها، وهو أيضاً يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم، لم يزل متكلماً إذا شاء فهو قديم النوع، وأما نفس «النداء» الذي نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذ ناداه به، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسٌ﴾ [طه: ١١]، وكذلك نظائره، فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وكلام الله وما يدخل في كلامه من نداءه. وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه، بل هو منه، والقرآن سمعه جبريل من الله، ونزل به إلى محمد ﷺ، قال تعالى:

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣ .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ بِالْحَقِّ﴾ [النعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] ونحو ذلك.

/والنبي ﷺ بلغه إلى الأمة، والمسلمون يسمعه بعضهم من بعض، وليس ذلك كسماع ٥٧٨/١٢ موسى كلام الله، فإنه سمعه بلا واسطة والذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره وهم يقرؤونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم في ورقهم وأفعالهم، وأصواتهم، ومدادهم، مخلوق.

والقرآن الذي يقرؤونه ويكتبونه هو كلام الله تعالى غير مخلوق، سواء قرؤوا قراءة يثابون عليها أو لا يثابون عليها، وسواء كتبوه مشكولاً منقوطاً أو كتبوه غير مشكول ولا منقوط؛ فإن ذلك لا يخرجهم عن أن يكون المكتوب هو القرآن، وهو كلام الله الذي أنزله على محمد ﷺ، وما بين اللوحين كلام الله، سواء كان مشكولاً منقوطاً، أو كان غير مشكول ولا منقوط، وكلام الله منزل غير مخلوق، وأصوات العباد والمداد مخلوقان، والقرآن العربي كلام الله تكلم به ليس بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، وليس لجبريل ولا لمحمد منه إلا التبليغ، لم يحدث واحد منهما شيئاً من حروفه، بل الجميع كلام الله تبارك وتعالى.

وهذه «المسائل» مبسوبة في غير هذا الجواب؛ ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة والله أعلم.

٥٧٩/١٢ | وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - :

فصل

الكلام في «القرآن» و«الكلام» هل هو حرف وصوت، أم ليس بحرف وصوت محدث، حدث في حدود المائة الثالثة، وانتشر في المائة الرابعة؛ فإن أبا سعيد بن كلاب ثم أبا الحسن الأشعري ونحوهما، لما ناظروا المعتزلة في إثبات الصفات، وأن القرآن ليس بمخلوق ورأوا أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن قديماً، وأنه لا يمكن أن يكون قديماً إلا أن يكون معنى قائماً بنفس الله كعلمه، وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت، ولا لغة، لا قديم ولا غير قديم، لما رأوه من امتناع قيام أمر حادث به، وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين من أهل الحديث، والفقه، والكلام والتصوف، وإن تنوعت مأخذهم فإن الآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت.

ولهذا جهم الإمام أحمد وغيره من أنكر ذلك. قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: ٥٨٠/١٢ إن أقواماً يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت. فقال: هؤلاء جهمية؛ إنما يدورون على التعطيل، وذكر حديث ابن مسعود، وكذلك رواه غير واحد عن أحمد، وكذلك البخاري ترجم في صحيحه باباً في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] (١) بين فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت. وكذلك المصنفون في السنة من أئمة الحديث وهم كثير، وكذلك أئمة الصوفية، كالحارث المحاسبي، وأبي الحسن بن سالم وغيرهما، وكذلك الفقهاء من جميع الطوائف: المالكية، والشافعية والحنفية، والحنبلية، والمصنفون في أصول الفقه، يقررون أن الأمر والنهي، والخبر، والعموم له صيغ موضوعة في اللغة تدل بمجردا على أنها أمر ونهي، وخبر، وعموم، ويذكرون خلاف الأشعرية في أن الأمر لا صيغة له.

ثم المثبتون للصوت منهم المعتزلة، الذين يقولون: القرآن مخلوق يقولون كلامه صوت قائم بغيره، ومنهم الكرامية، وطوائف من أهل الحديث من الحنابلة، وغيرهم، يقولون: يتكلم بصوت قائم به، لكن ليس الصوت بقديم.

ومنهم طائفة من متكلمة أهل السنة من الحنبلية وغيرهم يقولون: يتكلم بصوت قديم قائم به.

٥٨١/١٢ ومنهم طائفة من الفقهاء من الحنفية وغيرهم، يقولون: يخاطب/بصوت قائم بغيره، والمعنى قديم قائم به.

(١) البخاري معلقاً في الفتح ٨ / ٥٣٧ .

فلما أظهرت الأشعرية - كالقاضي أبي بكر بن الباقلاني وغيره في أواخر المائة الرابعة - أن الكلام ليس بحرف، ولا صوت، ولا لغة، وقد تبعهم قوم من الفقهاء من أصحاب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وقليل من أصحاب أحمد رأى أهل الحديث، وجمهور أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث ما في ذلك من البدعة؛ فأظهروا خلاف ذلك، وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت... (١).

(١) بياض بالأصل.

٥٨٢/١٢ / سئل - رحمه الله - عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التي في المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب في ذلك ؟ فأجاب - رضي الله عنه - :

الحمد لله رب العالمين . هذه «المسألة» يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون فيها الحق بالباطل ، فالذي قال : إن القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وأن جبريل سمعه من الله والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبي ﷺ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] فقد أصاب في ذلك ؛ فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع .

٥٨٣/١٢ / ومن قال : إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبريل أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فإن هؤلاء يقولون : إنه معنى واحد قائم بالذات ، وأن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وأنه لا يتعدد ولا يتبعض ، وأنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا ، وبالعبرانية كان توراة ، وبالسريانية كان إنجيلا ، فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ تَبَّتْ يَدَايَ لِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، والتوراة والإنجيل وغيرهما معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والشرع ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وإن أراد القائل بالحرف والصوت أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي ، أخطأ وابتدع ، وقال ما يخالف العقل والشرع ؛ فإن النبي ﷺ قال : « زينا القرآن بأصواتكم »^(١) فبين أن الصوت صوت القارئ ، والكلام كلام البارئ ،

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣ .

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]
 فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك، وفي السنن عن
 جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: «ألا رجل ٥٨٤/١٢
 يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١)، وقالوا
 لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَارَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَحْسَنِ عَشْرٍ﴾ [الروم: ١، ٢] أهذا كلامك أم
 كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي؛ ولكنه كلام الله - تعالى.

والناس إذا بلغوا كلام النبي ﷺ كقوله: «إنما الأعمال بالنيات»^(٢) فإن الحديث الذي
 يسمونه حديث النبي ﷺ، تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه، والمحدث بلغه عنه بصوت
 نفسه لا بصوت النبي ﷺ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه،
 وقرأته الناس بأصواتهم.

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه، ونادى موسى بصوت نفسه؛ كما
 ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل
 صوته؛ فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وقد نص أئمة الإسلام - أحمد ومن قبله من الأئمة - على ما نطق به الكتاب والسنة
 من أن الله ينادي بصوت، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ليس منه شيء
 كلاماً لغيره، لا جبريل ولا غيره، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم،
 فالصوت المسموع من العبد/صوت القارئ والكلام كلام الباري. ٥٨٥/١٢

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب؛ بل
 يجعل هذا هو هذا فينفيهما جميعاً أو يشبههما جميعاً، فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن
 يكون القرآن العربي كلام الله، وأن يكون منادياً لعباده بصوته، وأن يكون القرآن الذي
 يقرؤه المسلمون هو كلام الله، كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله - عز وجل -
 ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث، هو مصيب في هذا
 الفرق دون ذاك الثاني الذي فيه نوع من الإلحاد والتعطيل، حيث جعل الكلام المتنوع
 شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق.

وإذا أثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد، أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله: إن
 الحروف متعاقبة في الوجود مقترنة في الذات قديمة أزلية الأعيان، فجعل عين صفة الرب
 تحل في العبد أو تتحد بصفته، فقال بنوع من الحلول والاتحاد، يفضي إلى نوع من

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢٤.

(١) سبق تخريجه ص ٤١٣.

التعطيل .

وقد علم أن عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها ؛ بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد، ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ بحروفه ومعانيه/ وأنه ينادي عباده بصوته، ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراءة أصوات العباد، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديماً، بل القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين مقروء بالسنتهم محفوظ بقلوبهم وهو كله كلام الله، والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط؛ لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها، فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ، ولم يكره في أظهر قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

وحكم «النقط والشكل» حكم الحروف، فإن الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقط الحروف. والمداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق، وكلام الله العربي الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق، وحكم الإعراب حكم الحروف ، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه بل هو تابع للحروف المرسومة؛ فلهذا لا يحتاج لتجريدتهما وإفرادهما بالكلام ، بل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله: معانيه وحروفه، وإعرابه، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد ﷺ والناس يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم. والمكتوب في مصاحف المسلمين هو كلام الله، وهو القرآن العربي الذي أنزل على نبيه: سواء كتب/بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط، والمداد الذي كتب به القرآن ليس بقديم، بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين؛ لأن كلام الله مكتوب فيها، واحترام النقط والشكل إذا كتب المصحف مشكلاً منقوطاً كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين. ولهذا قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه، فجميعه كلام الله، فلا يقال : بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله، وهو - سبحانه - نادى موسى بصوت سمعه موسى، فإنه قد أخبر أنه نادى موسى في غير موضع من القرآن كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّثْنِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا

إِلَىٰ إِذْ هَمَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٣ ، ١٦٤] فقد فرق الله بين إيجائه إلى النبيين وبين
تكليمه لموسى، /فمن قال: إن موسى لم يسمع صوتاً؛ بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى ٥٨٨/١٢
وغيره، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] فقد فرق بين الإيجاء والتكلم من وراء
حجاب كما كلم الله موسى، فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالاً.

وقد قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - وغيره من الأئمة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء،
وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، يتكلم بشيء بعد شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُوحُودُ
يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ١١]، فناده حين أتاه ولم يناده قبل ذلك، وقال تعالى: ﴿فَأَكْثَرًا مِنْهَا
فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا
أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فهو
سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك، وكذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ
ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] بعد أن خلق آدم وصوره،
ولم يأمرهم قبل ذلك، وكذا قوله: ﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَلِّ آدَمَ خَلَقُوكُم مِّنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فأخبر أنه قال له: كن فيكون، بعد أن خلقه
من تراب، ومثل هذا الخبر في القرآن كثير: يخبر أنه تكلم في وقت معين، ونادى في
وقت معين، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله ٥٨٩/١٢
تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»^(١) فأخبر
أن الله بدأ بالصفا قبل المروة.

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. فظن بعض
الناس أن مرادهم: أنه قديم العين، ثم قالت طائفة: هو معنى واحد، هو الأمر بكل
مأمور، والنهي عن كل منهي، والخبر بكل مخبر، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن
عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً. وهذا القول مخالف
للشرع والعقل.

(١) مسلم في الحج (١٤٧/١٢١٨)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، والترمذي في الحج (٨٦٢) وقال: «حديث
حسن صحيح»، والنسائي في الحج (٢٩٦١)، كلهم عن جابر بن عبد الله. ولم يرو البخاري هذا الحديث.

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله لم تنزل لازمة لذاته ، وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلاً وأبدًا ، لم تنزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه في الأزل كان متكلماً بالنداء الذي سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس ، بل ناداه قبل ذلك بما لا ينتهي ، ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : ٥٩٠/١٢ إن القرآن/مخلوق في أصل قولهم ؛ فإن أصل قولهم : إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية ، فلا يقوم به كلام ، ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا : هذه حوادث ، والرب لا تقوم به الحوادث . فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول ، واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم ، وأخطؤوا في ذلك ، فلا للإسلام نصرؤا ، ولا للفلاسفة كسروا ، وادعوا أن الرب لم يكن قادراً في الأزل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعل ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، أو يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ، لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكناً له بعد أن صار ممتنعاً عليه من غير تجدد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الأزل على ما يمكن فيما لا يزال ، لا على ما لا يمكن في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين ، حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم ، ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه ، كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه ، فضلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ فإن الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم ، بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن ؛ إذ هو فاعل ٥٩١/١٢ بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل/القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ، بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة فكيف بالفاعل بالإرادة .

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته ، وإنما يصح فيما كان من العلل يجري مجرى الشروط ، فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على الشروط ، بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلاً سواء سمي علة ، أو لم يسم علة ، فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين ، والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلزمه مفعول معين . وقول القائل : حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لامن

باب الفاعل ، ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته في الأزل ولم يتأخر عنه
موجبه ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث ، وهذا خلاف المشاهدة .

وإن كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل ، بل لم يزل متكلماً إذا شاء
فاعلاً لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام ، والعالم
فيه من الأحكام والإتقان ما دل على علم الرب ، وفيه من الاختصاص ما دل على مشيئته
وفيه من الإحسان ما دل على رحمته ، وفيه من العواقب الحميدة ما دل على حكمته ، وفيه من ٥٩٢/١٢
الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى ، مع أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته ؛ فإنه
مستحق لكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيه ، منزّه عن كل نقص ، وهو سبحانه ليس له
كفو في شيء من أموره ، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزّه فيها عن
التشبيه والتمثيل ، ومنزّه عن النقائص مطلقاً ؛ فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل ، وكمال
من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره ، بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء وما
جعله فيهم من صفات الأحياء ، وخالق صفات الكمال أحقّ بها ، ولا كفو له فيها .

وأصل اضطراب الناس في «مسألة كلام الله» : أن الجهمية والمعتزلة لما ناظرت
الفلاسفة في «مسألة حدوث العالم» اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة
لا يكون إلا حادثاً ، بناء على أن مالا يتناهى لا يمكن وجوده ، والتزموا أن الرب كان
في الأزل غير قادر على الفعل والكلام ، بل كان ذلك ممتنعاً عليه ، وكان معطلاً عن
ذلك ، وقد يعبرون عن ذلك بأنه كان قادراً في الأزل على الفعل فيما لا يزال مع امتناع
الفعل عليه في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقدرة في حال امتناع
المقدور لذاته ، إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول والأزل لا أول له والجمع بين
إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين .

/ ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول ٥٩٣/١٢
المعين ، وبين مالا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ، بل هذا يكون دائماً ، وإن كان كل
من آحاده حادثاً ، كما يكون دائماً في المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانياً ، بخلاف
خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً ، فإن هذا هو الباطل في صريح العقل وصحيح النقل ؛
ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع فيه إلا شردمة من المتفلسفة كابن سينا
وأمثاله ، الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالقوا في
ذلك جماهير العقلاء ، مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه ؛ فإنهم لم يكونوا يقولون
ذلك ، وإن قالوا بقديم الأفلاك ، وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين ، بناء
على إثبات علة غائبة لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلاً مبدعاً ،

ولم يشبوا ممكنًا قديمًا واجبًا بغيره، وهم وإن كانوا أجهل بالله وأكفر من متأخريهم، فهم يسلمون لجمهور العقلاء أن ما كان ممكنًا بذاته فلا يكون إلا محدثًا مسبوقًا بالعدم، فاحتجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له، لكن قالوا تقوم به الأمور الاختيارية، فقالوا : إنه في الأزل لم يكن، متكلمًا بل ولا كان الكلام مقدورًا له، ثم صار متكلمًا بلا حدوث حادث بكلام يقوم به ، وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم .

٥٩٤/١٢ /وطائفة قالت: إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون إلا قديم العين لازمًا لذات الرب، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته، ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن والتوراة والإنجيل، وكل كلام يتكلم الله به، معنى واحدًا لا يتعدد ولا يتبعض، ومنهم من قال: إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات.

وهؤلاء أيضًا وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم أنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشئته وقدرته، وأنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض، ولا يأتي يوم القيامة، ولم يناد موسى حين ناداه، ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا في قوله : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وجدت، بل إما أنه لم يزل رائيًا لها، وإما أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم، إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل .

والذي ألجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه - سبحانه - لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام، وخالفوا السلف والأئمة في قولهم: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء ثم افترقوا أحزابًا أربعة - كما تقدم - الخلقية والحدوثية، والاتحادية ، والاقترانية .

٥٩٥/١٢ /وأشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون: إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته، لا قديم النوع، ولا قديم العين، ولا حادث، ولا مخلوق، بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله، وقد يقولون : إنه - تعالى - يعلم الكلليات دون الجزئيات؛ فإنه إنما يعلمها على وجه كلي، ويقولون مع ذلك: إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم: يعلم نفسه ومفعولاته حق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤]، لكن قولهم مع ذلك: إنه لا يعلم الأعيان المعينة، جهل وتناقض؛ فإن نفسه المقدسة معينة، والأفلاك معينة، وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات لم

يعلم شيئاً من الموجودات؛ إذ الكليات إنما تكون كليات في الازدهان لا في الأعيان، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وهم إنما ألبأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال - للباري تعالى - مع أن هؤلاء يقولون إن الحوادث تقوم بالقديم، وإن الحوادث لا أول لها، لكن نفوا ذلك عن الباري؛ لاعتقادهم أنه لا صفة له، بل هو وجود مطلق، وقالوا: إن العلم نفس عين العالم، والقدرة نفس عين القادر، والعلم والعالم شيء واحد، والمريد والإرادة شيء ٥٩٦/١٢ واحد، فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى، وجعلوا الصفات هي الموصوف.

ومنهم من يقول بل العلم كل العلوم، كما يقوله الطوسي صاحب «شرح الإشارات»، فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه، وابن سينا أقرب إلى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الأخرى.

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والإلحاد ممن يقول معاني الكلام شيء واحد لكنهم ألزموا قولهم لأولئك، فقالوا: إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً جاز أن يكون العلم هو القدرة، والقدرة هي الإرادة. فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه.

ثم قالوا: وإذا جاز أن تكون هي الصفة هي الأخرى جاز أن تكون الصفة هي الموصوف، فجاء ابن عربي وابن سبعين، والقونوي ونحوهم من الملاحدة فقالوا: إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف، جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق، فقالوا: إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق، وقالوا: الوجود واحد، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام الواحد بالنوع ٥٩٧/١٢.

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد، الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات، كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه، قالوا هو يتكلم بحرف وصوت قديم، قالوا أولاً: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا تسبق الباء السين بل لما نادى موسى فقال ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات في الأزل يقارن بعضها بعضاً، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله تعالى.

ثم قال فريق منهم: إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء. وقال بعضهم: بل المسموع صوتان قديم ومحدث، وقال بعضهم: أشكال المداد قديمة أزلية. وقال بعضهم: محل المداد قديم أزلي. وحكي عن بعضهم أنه قال: المداد قديم أزلي، وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه بل منهم من يظن أن معناه أنه قديم في علمه، ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق، ومنهم من لا يميز بين ما يقول، فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات، ٥٩٨/١٢ ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في/الذات والصفات، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل.

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه - سبحانه - لم يزل متكلماً إذا شاء، وإنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كلماته لا نهاية لها، وإنه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك، وإن صوت الرب لا يماثل اصوات العباد كما أن علمه لا يماثل علمهم، وقدرته لا تماثل قدرتهم، وإنه - سبحانه - بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وإن أقوال أهل التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات أو الصفات باطلة، وهذه الأمور مبسوبة في غير هذا الموضع وقد بسطناها في الواجب الكبير، والله أعلم بالصواب.

/وسئل - رحمه الله - عن المصحف العتيق إذا تمزق ما يصنع به؟ ومن كتب ٥٩٩/١٢ شيئاً من القرآن ثم محاه بماء أو حرقه فهل له حرمة أم لا؟

فأجاب:

الحمد لله . أما المصحف العتيق والذي تخرق ، وصار بحيث لا ينتفع به بالقراءة فيه ، فإنه يدفن في مكان يسان فيه ، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه في موضع يسان فيه ، وإذا كتب شيء من القرآن أو الذكر في إناء أو لوح ومحي بالماء وغيره ، وشرب ذلك فلا بأس به ، نص عليه أحمد وغيره ، ونقلوا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان يكتب كلمات من القرآن والذكر ، ويأمر بأن تسقى لمن به داء ، وهذا يقتضي أن لذلك بركة .

والماء الذي توضع به النبي ﷺ هو -أيضاً- ماء مبارك صب منه على جابر وهو مريض . وكان الصحابة يتبركون به ، ومع هذا فكان يتوضأ على التراب وغيره ، فما بلغني أن مثل هذا الماء ينهي عن صبه في التراب ونحوه ، ولا أعلم في ذلك نهياً ؛ فإن أثر الكتابة لم يبق بعد المحو كتابة ، ولا يحرم على الجنب مسه ، ومعلوم أنه ليس له حرمة كحرمة ما ٦٠٠/١٢ دام القرآن والذكر مكتوبان ، كما أنه لو صيغ فضة أو ذهب أو نحاس على صورة كتابة القرآن والذكر ، أو نقش حجر على ذلك على تلك الصورة ، ثم غيرت تلك الصياغة وتغير الحجر لم يجب لتلك المادة من الحرمة ما كان لها حين الكتابة .

وقد كان العباس بن عبد المطلب يقول في ماء زمزم : لا أحله لمغتسل ، ولكن لشارب حل وبلى . وروى عنه أنه قال : لشارب ومتوضئ ولهذا اختلف العلماء هل يكره الغسل والوضوء من ماء زمزم ، وذكروا فيه روايتين عن أحمد . والشافعي احتج بحديث العباس ، والمرخص احتج بحديث فيه أن النبي ﷺ توضأ من ماء زمزم^(١) ، والصحابة توضؤوا من الماء الذي نبع من بين أصابعه مع بركته لكن هذا وقت الحاجة .

والصحيح : أن النهي من العباس إنما جاء عن الغسل فقط لا عن الوضوء ، والتفريق بين الغسل والوضوء هو لهذا الوجه ؛ فإن الغسل يشبه إزالة النجاسة لهذا يجب أن يغسل في الجنابة ما يجب أن يغسل من النجاسة ؛ وحيث فصوص هذه المياه المباركة من النجاسات متوجه ، بخلاف صونها من التراب ونحوه من الطاهرات ، والله أعلم .

آخر المجلد الثاني عشر

(١) أحمد ٧٦/١ ، وصححه الشيخ شاكر برقم (٥٦٤) عن علي بن أبي طالب .

فهرس المجلد السادس

الصفحة

الموضوع

الصوفية والفقراء

- * سئل عن الصوفية والفقراء، وأنهم أقسام، فما صفة كل قسم؟ ٧
- متى اشتهر لفظ الصوفية؟ وسبب التسمية بذلك ٧
- أحوال الصوفية عند سماع القرآن، وأقوال الناس في ذلك ٨
- أحوال الصحابة عند سماع القرآن ٩
- مراتب الناس عند السماع ٩
- أفضل الطرق إلى الله ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ١٢
- حد التصوف وسيرة الصوفي وأخلاقه ١٣
- تنازع الناس في طريقة الصوفية، والصواب فيها ١٣
- أنواع الصوفية ١٤
- الفقير في الكتاب والسنة ١٥
- أيهما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ ١٥
- أيهما أفضل: الفقير أو الصوفي؟ ١٦

مسألة في الفقر والتصوف

- * سئل عن رجل يقول: إن الفقر لم نتعبد به، ولم نؤمر به، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه إلخ ١٨
- يجب أن نتبع ما دلت عليه الألفاظ في الكتاب والسنة ١٨
- المراد بلفظ « الفقر » في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين ١٩
- الزهد المشروع ٢٠
- الناس في طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليهم أربعة أقسام ٢١
- * سئل عن أهل الصفة، كم كانوا؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة؟ إلخ ٢٤
- * فصل: في بيان حال أهل الصفة وغيرهم من فقراء المسلمين ٢٨
- لم يكن في الصحابة - أهل الصفة وغيرهم - من يتخذ مسألة الناس ٢٩

- * فصل: في حكم من قال: إن أحداً من الصحابة - أهل الصفة وغيرهم - قاتل مع الكفار أو قاتلوا النبي ﷺ وأصحابه ٣٠
- التوحيد الواجب ٣١
- الإيمان بالرسول هو الأصل الثاني من أصلي الإسلام ٣٢
- بيان صحة القول: إن أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج ٣٣
- * فصل: في أن تفضيل أهل الصفة على العشرة وغيرهم خطأ وضلال ٣٤
- * فصل: في أن سماع المكاء والتصدية لم يفعله أحد من الصحابة ولا من التابعين ٣٥
- * فصل: في أن الآية: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ عامة ٣٦
- * فصل: في أن الحديث: «ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله» من الأكاذيب ٣٦
- * فصل: في أن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ٣٧
- * فصل: في أن الفقراء في كتاب الله صنفان ٤٠
- سبب سبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة ٤١
- * سئل عن قوم يقولون: إن النبي ﷺ جاء إلى باب أهل الصفة فاستأذن، فقالوا: من أنت؟ قال: «أنا محمد» ٤٣
- * سئل عن قوم يروون أحاديث لا سند لها ٤٤
- هل قول النبي ﷺ لعلي: «أنت مني وأنا منك» يدل على الحلول والاتحاد؟ ٤٤
- الأحوال الصحيحة مثل ما في حديث: «من عادى لي ولياً...» ٤٥
- ما ذكر من تخلف أهل الصفة عن الجهاد قول باطل ٤٨
- القول بأن أهل الصفة عرفوا ما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج قول باطل ٤٨
- * سئل عن الفتوة المصطلح عليها ٤٩
- * سئل عن جماعة يجتمعون في مجلس، ويلبسون شخصاً منهم لباس «الفتوة» ويديرون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء يشربونها، ويزعمون أن هذا من الدين إلخ ٥١
- * فصل: في بيان الشروط التي تشترطها شيوخ الفتوة ٥٣
- * فصل: في معنى لفظ «الفتى» في اللغة ٥٤
- لفظ الزعيم مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين ٥٤
- حكم التسمية برأس الحزب ٥٥
- * فصل: النبي ﷺ خلق مما يُخلق منه البشر، ولم يُخلق أحد من البشر من نور ٥٦
- سبب الغلو في النبي ﷺ ٥٧
- * فصل: في أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار لما قدم المدينة ٥٨
- هل توارث الصحابة - بحكم المؤاخاة - محكم أو منسوخ؟ ٥٩
- حكم عقد الأخوة بين الناس اليوم ٥٩

- ٦٠ الشروط التي يلتزمها الناس في السماع
- * فصل: في الشيخ عدي بن مسافر، نسبه ولبسه الخرقه ٦١
- * سئل: هل تخلل أبو بكر بالعباءة؟ وتخللت الملائكة لأجله بالعباءة؟ ٦٢
- * سئل عن معنى قول من يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فهل هذا من جهة المعاصي؟
أو من جهة جمع المال؟ ٦٣
- * سئل عما يذكر من قولهم: اتخذوا مع الفقراء أيادي، فإن لهم دولة وأي دولة، وما معنى
قول عمر: إن النبي ﷺ كان يتحدث مع أبي بكر، وكنت بينهما كالزنجي؟ ٦٥
- بيان بطلان ما نُسب إلى عمر رضي الله عنه ٦٥
- حديث: «اتخذوا مع الفقراء أيادي...» كذب ٦٦
- قول القائل: «لهم في الآخرة دولة وأي دولة» كذب ٦٦
- * فصل: في بيان صحة قول القائل: نحن في بركة فلان، أو من وقت حلوله عندنا حلت
البركة ٦٧
- * سئل عن رجل متصوف قال لإنسان: فقراء الأسواق إلخ ٦٩
- حديث: «من رأي آمن بي» كذب ٦٩
- حديث: «الفقر فخري وبه أفتخر» كذب ٦٩
- * سئل عن قال: إن الفقير والغني لا يفضل أحدهما صاحبه إلا بالتقوى إلخ ٧١
- تنازع العلماء في الغني الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل؟ ٧١
- * فصل: في بيان تنازع الناس في أيهما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ ٧٣
- الناس في الغنى والفقر ثلاثة أصناف ٧٤
- نصوص الكتاب والسنة تؤكد أن التفاضل بالتقوى ٧٤
- * سئل عن حقيقة الحمد والشكر، وعلى أي شيء يكون كل من الحمد والشكر؟ ٧٩
- تلخيص مناظرة في الحمد والشكر جرت بين ابن تيمية وابن المرحل ٨٠
- الحمد والشكر بينهما عموم وخصوص ٨٥

الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

- من هم أولياء الله؟ ومن هم أولياء الشيطان؟ ٩٠
- * فصل: في أنه يجب أن يفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان ٩١
- أفضل أولياء الله ٩٢
- أفضل أولى العزم ٩٣
- لماذا كان يدعي مشركو العرب أنهم أهل الله؟ ٩٤

- جهل من قال: إن أهل الصفة كانوا مستغنين عن النبي ﷺ، وإن الله أوحى إليهم في الباطن ٩٥
- وجوب الإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله ٩٧
- حكماء اليونان مشركون يعبدون الأصنام والكواكب ٩٨
- * فصل: ومن الناس من يكون فيه إيمان وفيه شعبة من نفاق ٩٩
- * فصل: في أن أولياء الله على طبقتين: سابقون، وأصحاب يمين ١٠٠
- عمل السابقين وأصحاب اليمين ١٠٢
- انقسام الأنبياء إلى: عبد رسول، ونبى ملك ١٠٢
- * فصل: في أن الله قد ذكر أوليائه المقتصدين والسابقين في سورة فاطر ١٠٣
- دخول كثير من أهل الكبائر النار والخروج منها بالشفاعة ١٠٤
- * فصل: إذا كان أولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك ١٠٥
- * فصل: ومن الناس من يؤمن بالرسول إيماناً مجملاً، وأما الإيمان المفصل إلخ ١٠٦
- الجنة درجات متفاضلة ١٠٦
- * فصل: في بيان أنه إذا كان العبد لا يكون ولياً إلا إذا كان مؤمناً تقياً، فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله عز وجل ١٠٨
- * فصل: وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ١٠٩
- كان السلف يسمون أهل العلم والدين القراء ١١٠
- الجهاد أفضل ما تطوع به إنسان ١١١
- * فصل: في أنه ليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ ١١٤
- الناس في اتباع الأولياء فيما يقولون ويفعلون ثلاثة أصناف ١١٥
- أفضل المحدثين عمر؛ بيان ذلك ١١٥
- أفضلية أبي بكر الصديق ١١٦
- الأنبياء تجب طاعتهم بخلاف الأولياء ١١٧
- حال من يتبع الولي وإن خالف الكتاب والسنة ١١٨
- بم يعرف الولي؟ ١٢٠
- * فصل: في أن الحقيقة حقيقة الدين وهي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شريعة ومنهاج ١٢٣
- بيان معنى الشريعة والمناهج ١٢٣
- * فصل: في أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ١٢٤
- مراتب السعداء وأفضلية القرن الأول من أمة محمد ﷺ ١٢٤

- أفضل أولياء الله ١٢٥
- مقولة ابن عربي بأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ١٢٥
- صفة الولي ١٢٦
- مذهب الفلاسفة في الله وصفاته والملائكة والنبوات والجن ١٢٧
- مزاعم الفلاسفة بأن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي ١٢٨
- بيان كذب الحديث المذكور في العقل: «أول ما خلق الله تعالى العقل . . .» ١٢٩
- مقولة الصوفية - أهل الوحدة - في الملائكة، وبيان مخالفتهم للكتاب والسنة ١٣٠
- حقيقة الصوفية - أهل الوحدة - إنكار أصول الإيمان ١٣١
- ما عليه أهل اوحدة إنما أحوال شيطانية ١٣٢
- مناقضة كلام ابن عربي للرسول ١٣٣
- قول بعض أهل الوحدة: أنا كافر برب يعصي، وزعمه أن المعصية مخالفة للإرادة التي هي المشيئة ١٣٦
- أقسام المعية وكلام السلف في ذلك ١٣٨
- * فصل: في أن كثيراً من الناس تشبه عليهم الحقائق الدينية بالحقائق الكونية ١٣٩
- لا حجة في القدر لأهل الذنوب ١٤٢
- حديث «احتج آدم وموسى» ضل فيه فريقان ١٤٣
- * فصل: في الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحريم والبعث والإرسال والكلام والجعل - بين الكوني منها والشرعي ١٤٧
- حصول الكرامات للأولياء وسببه ١٥٢
- كرامات حصلت للصحابه والتابعين والصالحين ١٥٣
- أمثلة لأهل الأحوال الشيطانية ١٥٧
- الفروق بين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية ١٥٩
- أقسام الناس في خوارق العادات ١٦٣
- * فصل: في أنه يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الإنس والجن، وأنه يجب عليهما اتباعه، ومن قامت عليه الحجة منهما برسالته فلم يؤمن به فهو كافر ١٦٧
- سماع الجن للقرآن وإيمانهم به ١٦٧
- الجن مع الإنس على أحوال ١٦٩

قاعدة في المعجزات والكرامات

- حقيقة المعجزة، والفرق بينها وبين الكرامة ١٧٢

- جمع الله لنبيتنا جميع أنواع المعجزات والخوارق ١٧٤
- * فصل: في بيان أنواع الخارق، وبيان المحمود منه في الدين والمذموم والمباح ١٧٥
- * فصل: في بيان كلمات الله الكونية وكلماته الدينية ١٧٧
- هل عدم الخوارق ينقص من قدر المسلم عند الله؟ ١٧٧
- أقسام الخوارق من حيث تعلقها بالعلم والقدرة والدين والكون، وبيان أفضلها ١٧٨
- * فصل: في طرق العلم بالكائنات وكشفها ١٨٤
- طرق الأحكام الشرعية، وبيان المتفق عليها والمختلف فيها ١٨٥
- القول الجامع في المصالح ١٨٨
- اختلاف الناس في الحسن والقبح العقلي ١٩٠
- متى يكون العمل باطلاً؟ ١٩١
- هل ما حسن من المخلوق حسن من الله؟ وما قبح من المخلوق قبح منه؟ بيان هذه الإشكالات بمقدمات ١٩٣
- * فصل: في كلام الصوفية في «خاتم الأولياء» وتعظيم أمره ١٩٩
- من هو خاتم الأولياء؟ وهل هو أفضل من النبي ١٩٩
- حكم التسمية بخاتم الأولياء، وبيان أفضل الأولياء في هذه الأمة ٢٠٠
- بيان معنى الأحاديث: «له أجر خمسين منكم»، «أمتي كالغيث لا يدري أوله خير أم آخره»، «أعجب الناس إيماناً قوم يؤمنون بالورق المعلق» ٢٠٣
- * فصل: في بيان ما غلا فيه الحكيم الترمذي في كتاب «ختم الولاية» ٢٠٤
- * فصل: في أن مثبتي النبوات حصل لهم المعرفة بالله تعالى بثبوت النبوة من غير نظر واستدلال في دلائل العقول ٢٠٦
- * سئل: أيمن أولى: معالجة الحسد والحقد والغل وغيرها أو الاشتغال بالصلاة والصيام وأنواع القربات؟ ٢٠٨
- * سئل: هل قال النبي ﷺ: «زدني فيك تحيراً»؟ وقال بعض العارفين: أول المعرفة الحيرة، وآخرها الحيرة إلخ ٢٠٩
- ذم الحيرة، وذكر من مدحها ٢١٠
- مراد من قال: أول المعرفة الحيرة وآخرها الحيرة ٢١١
- حكيم من يشأن يصل إلى معرفة الله وتوحيده، وماذا عليه؟ ٢١٣
- المراد بقول الجنيد: انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة ٢١٣
- * سئل عن رجل يحب رجلاً عالماً، فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشى من أجل الفراق إلخ ٢١٥
- * سئل: ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر وما أشبهه، يفتح عليهم من المكشوفات

- والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه؟ إلخ ٢١٦
- درجة أهل العلم والإيمان أفضل ممن أوتوا الإيمان فقط ٢١٦
- بيان أنواع العلم ٢١٧
- ليس كل علم أورث كرامة أفضل مما لو يورث ٢١٨
- تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً وقد يكون مقيداً - مثال ذلك ٢١٨
- * سئل عن قوم داوموا على الرياضة مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وأن الأوامر والنواهي رسوم العوام إلخ ٢٢٠
- بيان أن هؤلاء أكفر أهل الأرض ٢٢٠
- قصة الصحابة الذين شربوا الخمر وتأولوا الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ وموقف الصحابة منهم ٢٢١
- حكم من جحد بعض الواجبات الظاهرة المتواترة أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة ٢٢٢
- لا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة ٢٢٢
- حكم من أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة ثم علم، هل يقضي ما تركه في حال الجهل؟ ٢٢٢
- هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه؟ ٢٢٣
- لا يكفر الإنسان بجهله بالأحكام كأن يكون بيادية بعيدة عن أهل العلم أو كان حديث عهد بالإسلام أو لم يبلغه من العلم ما تقوم به الحجة ٢٢٣
- بيان قولهم: إنهم قد تجوهروا، ولا نبالي الآن ما عملنا ٢٢٦
- بيان قولهم: حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة ٢٢٧
- بيان قولهم: المراد بالنبوة ضبط العوام ولسنا منهم ٢٢٧
- سقوط احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ٢٢٨
- ضلال من احتج بقصة موسى والخضر على جواز الخروج عن الشريعة ٢٣٠
- لفظ الشرع يطلق على ثلاثة معان ٢٣٥
- * سئل عن الحديث المروي في الأبدال، هو صحيح أم مقطوع؟ إلخ ٢٣٧
- الأسماء (الغوث، الأوتاد الأربعة، الأقطاب السبعة، الأبدال الأربعين، النجباء الثلاثمائة) ليست موجودة في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ٢٣٧
- لفظ «الغوث والغياث» لا يستحقه إلا الله ٢٣٩
- ما يراد بلفظ «الأوتاد»، والقطب، والبذل في كلام البعض ٢٤٠
- كذب من قال: إن في أولياء الله المتقين من هو غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس ٢٤٢
- لفظ «خاتم الأولياء» باطل ٢٤٢

مناظرة ابن تيمية لدجاجة البطائحية

- سبب كتابة هذه المناظرة ٢٤٤
- حقيقة حال البطائحية وطريقتهم وطريق أحمد الرفاعي وحاله ٢٤٤
- متى تكون المباحات مباحة؟ ٢٤٦
- * فصل: فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، لكن مع إصرارهم على الابتداع في الدين ٢٤٧
- كيف جرت المناظرة؟ وكيف جرت على يد الأمير؟ ٢٤٨
- زعمهم بأن لهم أحوالاً يدخلون بها النار ٢٥١
- الأحوال الشيطانية لا تدل على الولاية ٢٥٥
- ذم المبتدعة ٢٥٧
- * سئل: عن «المرشدة»: كيف كان أصلها وتأليفها؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟ ٢٦٠
- محنة الإمام أحمد وأئمة السُّنة ٢٦١
- مذهب أهل السُّنة في صفات الله عز وجل ٢٦١
- الفلاسفة وأشباههم يصفون الله عز وجل بالصفات السلبية ٢٦٤
- مذهب صاحب «المرشدة» في الصفات ٢٦٤
- * سئل عن رجل تخاطب هو وإنسان على من قرأ «المرشدة» ٢٦٨
- * سئل عن قوم متتبعين إلى المشائخ يتوبونهم عن قطع الطريق وقتل النفس والسرقة وألزمهم بالصلاة على عادة البادية، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا؟ إلخ ٢٦٩
- حكم كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات ٢٦٩
- * فصل: فيما ذكر في الغلو في الشيوخ ٢٧١
- لا يستغاث إلا بالله ٢٧٢
- * فصل: في فساد الأولاد، بحيث يعلمهم الشحاذاة ويمنعهم من الكسب الحلال .. ٢٧٤
- * فصل: في حكم النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم ٢٧٥
- * فصل: في حكم مؤاخاة الرجال النساء الأجانب، وخلوهم بهن، ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن ٢٧٥
- * فصل: في حكم الحلف بغير الله ٢٧٦
- * فصل: في بيان قول القائل لمن أنكر عليه: أنت شرعي ٢٧٦
- الحقيقة الكونية والبدعية والدينية ٢٧٧

- * فصل: في أن الأمر بالمعروف هو الحق الذي بعثت به الرسل، وكذلك النهي عن المنكر ٢٧٨
- * فصل: في لباس الخرقه التي يلبسها بعض المشايخ المريدين ٢٧٨
- * فصل: في قول القائل: أنت للشيخ فلان، وهو شيخك في الدنيا والآخرة ٢٧٩
- قول القائل: لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به - من كلام أهل الشرك ٢٧٩
- * فصل: في بيان قول القائل: إن الله يرضى لرضا المشايخ ويغضب لغضبهم ٢٨٠
- * فصل: في قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» ٢٨٢
- من أحب الرجل لما ظهر له من الخير أثابه الله ولو خالف باطنه، بخلاف من أحبه لهواه ٢٨٣
- الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ٢٨٣
- مما يبين الحب لله والحب لغير الله ٢٨٦
- بيان قول القائل: إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه، فهكذا يتوصل إليه بالشيخ ٢٨٧
- * سئل عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة في الفساد إلخ ٢٨٩
- حكم السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدقوف المصلصات ٢٨٩
- السماع الذي شرعه الله ٢٩٠
- * سئل عمن يؤاخي النسوان، ويظهر شيئاً من جنس الشعبذة ٢٩٢
- * سئل عن جماعة اجتمعوا على أمور من الفساد، ومنهم من يقول: إن غاية التحقيق ترك التكليف إلخ ٢٩٣
- قول أحدهم إذا ألزم بالصلاة: خرجنا من الحضرة إلى الباب ٢٩٣
- * سئل عما أحدثه الفقراء المجردون من صحبة الشباب ومؤاخاة النسوان إلخ ٢٩٥
- حكم صحبة المردان والخلوة بهم ومبيتهم مع الرجال ٢٩٥
- حكم التلذذ بقبلة الأُمرد ولمسه والنظر إليه ٢٩٦
- ضلال من جعلوا عشق الجميلة من جملة الطريق التي تزكى بها النفوس ٢٩٦
- حكم مؤاخاة المرأة الأجنبية، وبيان أمر الماجريات ٢٩٧
- أولياء الله على صنفين ٢٩٨
- فيما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يسوسون الناس، وماذا صار بعدهم؟ ٣٠٠
- ماذا لو كان ولاية الحرب عاجزين عن تقويم المتسيين إلى الطريق؟ ٣٠٠
- إخراج الثائب من ماله صدقة للتطهر من ذنبه حسن مشروع ٣٠٠
- الشكر بإخراج شيء من المال ٣٠١
- حكم لبس الصوف ٣٠٢
- * سئل عن صفة سماع الصالحين وسماع القصائد الملحنة ٣٠٣

- ٣٠٣ السماع الذي شرعه الله لعباده
- ٣٠٤ سماع الصحابة وكيفيته
- ٣٠٥ الآثار المحمودة من السماع الشرعي
- ٣٠٥ السماع غير المشروع
- من نسب إلى النبي ﷺ أنه سمع سماع المشركين أو أنه قد تواجد حتى سقط برده فقد كذب
- ٣٠٦ كذب من قال: لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا وخرقوا ثيابهم ... ٣٠٦
- عدم شرعية الاجتماع على استماع الأبيات الملحنة مع الضرب بالكف وغيره ٣٠٧
- إنكار الأئمة الاجتماع على مثل سماع المكاء والتصدية ٣٠٩
- ممن دعا إلى السماع غير الشرعي ابن الراوندي والفارابي وابن سينا ٣١٠
- ما يترتب على سماع المكاء والتصدية من الضرر والمفاسد ٣١٢
- المعازف وكلام العلماء فيها ٣١٣
- حكم الغناء المجرد عن آلات اللهو ٣١٤
- اشتمال ما كتبه أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن طاهر في الزهد على الغث والسمين ٣١٤
- أفضل من ألف في الزهد ٣١٥
- جماع القول في السماع ٣١٦
- * سئل عن السماع ٣١٩
- السماع المشروع، ودم المعرضين عنه، ودلالة ذلك من القرآن ٣١٩
- أفضل السماع في الصلوات ٣٢٠
- آثار السماع الشرعي على الإنسان ٣٢١
- السماع المحدث ٣٢١
- حضور بعض المشائخ السماع المحدث ورجوعهم عنه ٣٢٢
- مفسد السماع المحرم ٣٢٢
- حكم من اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة ٣٢٣
- غلط من توهم حضور النبي ﷺ والصحابة سماع المكاء والتصدية ٣٢٤
- حكم الرقص في الطابق ٣٢٥
- بيان قول القائل: السماع شبكة يصاد بها العوام ٣٢٥
- * سئل عن قال: إن السماع على الناس حرام وعليّ حلال، هل يفسق في ذلك أم لا؟ ٣٢٦
- * سئل عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع، ما حكم هذا؟ ٣٢٧

- * سئل عن رجل يحب السماع والرقص فأشار عليه رجل فقال هذه الآيات:
- أنكروا رقصاً وقالوا حرام فعليهم من أجل ذلك سلام إلخ ٣٢٨
- * سئل عن الذين يعملون النار والإشارات ٣٢٩
- * سئل عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته، وفي البلد شيخ أعطاه إجازة، وبقي يأكل الثعابين والعقارب، ونزل عن فلاحته ويطلب رزقه، فهل تجوز الصدقة عليه أم لا؟ ٣٣٠
- * سئل عن رجل منقطع في بيته، ويصلي فيه ولا يشهد الجماعة، وإذا خرج إلى الجمعة خرج مغطى الرأس، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب، وتجتمع عنده الرجال والنساء، فهل يسلم له حاله أو يجب الإنكار عليه؟ ٣٣٢
- حكم صلاة الجماعة ٣٣٤
- بم يكون تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ ٣٣٥
- * سئل عن جماعة يجتمعون على قصد الكبائر، ثم إن أحد المشايخ أراد منعهم فلم يستطع إلا بجمعهم على السماع بدف بلا صلاصل وغناء بشعر مباح وأنه لما فعل تاب منهم جماعة، فهل يباح فعل هذا؟ ٣٣٧
- بيان خطأ طريقة هذا الشيخ ٣٣٩
- السماع المشروع كما ذكر القرآن ٣٤٠
- أحوال أهل السماع الشرعي ٣٤١
- التغبير، وحكمه ٣٤١
- القول: هل السماع حلال أو حرام؟ لفظ مجمل يحتاج إلى بيان ٣٤٢
- ضلال من جعل السماع طريقاً إلى الله تعالى ٣٤٤
- * فصل: في أن السماع والمخاطبات والمحادثات ثلاثة أقسام في الباطن والظاهر ٣٤٦
- * فصل: في الكون بقظة ومناماً ٣٤٧
- * سئل عمن يقول: إن بعض المشائخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب وتنزل الملائكة ترقص معهم، وفيهم من يعتقد أن النبي يحضر معهم ٣٤٩
- * سئل عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار، لا يرين الجنة، وقد روي في الحديث: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة» ٣٥٢
- * سئل عن الذنوب والكبائر في القرآن والسنة، هل لها حد تُعرف به؟ ٣٥٤
- ضابط الكبيرة، وأي التعريفات أولى ولماذا؟ ٣٥٤
- * سئل عن شرب الخمر وفعل الفاحشة: أيهما أعظم إثماً عند الله؟ وما هي الكبائر التي قال الله عنها: ﴿إِنْ تَجَتَّبِوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية ٣٥٨
- تعريف الكبيرة، وما أكبر الكبائر؟ ٣٥٨
- * سئل عن رجل مدمن على المحرمات وهو مواظب على الصلوات الخمس والصلاة على النبي والذكر، فهل يُكفر ذلك بالصلاة والاستغفار؟ ٣٦٠

- * فصل: في قبول توبة العبد من أي ذنب كان غير الشرك ٣٦٢
- الفرق بين كرامات الأولياء والأحوال الشيطانية ٣٦٣
- * فصل: في أن التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات ٣٦٦
- هل يكون الفعل كالظلم والكذب قبيحاً قبل مجيء الرسل ونهيهم عنه؟ ٣٦٩
- * فصل: في أن الله تعالى أخبر عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول ٣٧٠
- * فصل: في أن الله تعالى أمر الناس أن يتوبوا مما فعلوا من السيئات وأن ذلك عندهم قبيح ٣٧١
- القرآن بين قبح ما كان عليه المشركون من الشرك وغيره ٣٧٢
- لماذا كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؟ ٣٧٣
- تنازع الناس في الوجوب والتحريم، هل يتحقق بدون العقاب على الترك؟ ٣٧٤
- توبة الإنسان من حسناته على أوجه ٣٧٥
- * فصل: في أنه مما يستغفر ويتاب منه ما في النفوس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عذب ٣٧٧
- قال: الاستغفار يخرج العبد من المكروه إلى الفعل المحبوب إلخ ٣٨٠
- * سئل عن قوله ﷺ: «ما أصر من استغفر...» ٣٨٢
- المراد بالاستغفار ٣٨٢
- * سئل عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم، هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام؟ ٣٨٤
- معنى قوله ﷺ: «من أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» ٣٨٤
- * قاعدة عامة: في القرآن وكلام الله ٣٨٧
- الاختلاف نوعان: في التأويل والتنزيل ٣٨٧
- أهل الإيمان وتقرير القرآن لذلك ٣٨٨
- حكمة ذكر الرسل السابقين وتثنية قصة موسى مع فرعون ٣٨٩
- * فصل: في أن الإيمان بالرسول يجب أن يكون عاماً لا يفرق بين أحد منهم ٣٩٠
- * فصل: في أن التفريق يكون من القدر أو الوصف أو الكم أو الكيف ٣٩١
- * فصل: فيما وقع فيه البعض من الكفر ببعض ما أنزل الله كما وقع الأولون ٣٩٢
- ما أيد الله به رسوله ﷺ من المعجزات أعظم مما أيد به غيره ٣٩٣
- * فصل: في اشتقاق البدع من الكفر ٣٩٤
- حال المتفلسفة بالنسبة للنبوة ٣٩٦
- القرآن يوضح حال من لم يقدروا الله قدره ٣٩٧
- * فصل: الجهمية سبب ظهور التعطيل ٣٩٩
- * فصل: الصفاتية ومخالفتهم للمبتدعة المعطلة الصابئة ٤٠١

- موافقة بعض أهل الحديث والتصوف والفقه لهم وعلة ذلك ٤٠٢
- الجمهور من جميع الطوائف والرأي في الكلام، قول أهل السُّنة في كلام الله وفي القرآن ٤٠٣
- * سئل عن الأحرف التي أنزلها الله على آدم ٤٠٥
- مذهب السلف والأئمة في القرآن وكلام الله ٤٠٥
- الخلاف في كلام الله وافتراق الأمة ست فرق ٤٠٧
- الفلاسفة والنبوات ٤٠٩
- القول بأن الله لم يقم به صفة وإنما خلق كلاماً في غيره ٤١٠
- قول الكلائية في الكلام ومن سار سيرهم ٤١١
- قول السلف في الكلام ٤١٢
- * فصل: في الاختلاف في الحرف التي يتكلم بها الآدميون وسببه ٤١٣
- * فصل: في التنازع في الأحرف التي أنزلها الله على آدم ٤١٥
- أبا جاد وتفسيرها والكلام حول صحة الأحاديث التي رويت فيها ٤١٦
- أبجد هوز ليست أسماء لمسميات ٤١٨
- كلام العباد مخلوق ٤١٩
- اعتبارات الصفات ٤٢٠
- اختلاف الناس في مسمى الكلام، وكذا الإنسان ٤٢٠
- بدء الخط العربي ٤٢٢
- الحرف هل مخلوق أو غير مخلوق؟ ٤٢٢
- القائلين بالحلول يجعلون الكلام كله قديماً ٤٢٧
- العقل لا يناقض ما قاله الرسول ﷺ ٤٢٨
- الكلام في الحروف ٤٢٩
- إنكار الإمام أحمد القول بخلق الحروف، وكذا السلف ٤٣٠
- رأي ابن عقيل ٤٣٣
- كلام الله وسائر صفاته ليست ككلام وصفات المخلوقين ٤٣٥
- الكلام كلام الله والصوت صوت القارئ ٤٣٦
- يجب تحري أصلين في مسألة الكلام: تكلم الله بالقرآن وغيره، تبليغ ذلك عن الله ٤٣٨
- خلاف العلماء في تشكيل المصاحف وتنقيطها ٤٣٩
- الحرف والكلمة في لغة العرب، وفي اصطلاح المتكلمين ٤٤١
- المراد بالكلمة عند النحاة ٤٤٢
- * فصل: في المراد بلفظ الحرف وتقسيم الحرف ٤٤٣

- ٤٤٤ - مراتب العلم
- ٤٤٥ - افتراق الحروف من حيث مجيئها في الكتاب والسنة وعدمه
- ٤٤٧ * فصل: في بيان أن القرآن كلام الله، وليس فيه كلام لغيره
- ٤٤٧ - معنى لفظ الإنزال
- ٤٤٨ - بطلان قول الجهمية في خلق كلام الله
- ٤٤٩ - تشابه بين القول بخلق القرآن وبين ما عليه التوراة العبرية
- ٤٥١ - معنى الكتاب
- ٤٥٢ - بطلان زعم من قال: إن القرآن بصياغة جبريل
- ٤٥٤ - قدم الأصوات وحدوثها
- ٤٥٦ - المعتزلة والأشعرية وافقوا أهل السنة في كلام الله في وجهه وخالفوه في وجه آخر
- ٤٥٩ * فصل: في منشأ الخلاف في كلام الله
- ٤٦٠ - اختلاف الناس على ثلاثة أقوال في حدوث الأجسام والأفلاك
- ٤٦٣ * فصل: الاختلاف في كلام الله بناء على الاختلاف السابق
- ٤٦٥ - هل يوجد حرف بلا صوت؟
- ٤٦٦ - الرد على القائلين بقدم العالم
- ٤٦٧ - الذين فرقوا بين الواجب والممكن والخالق والمخلوق
- ٤٧٠ * مثل عن اختلاف الناس في كلام الله على ثلاثة أنحاء
- ٤٧٠ - مجمل الأقوال يبلغ سبعة
- ٤٧٠ - الفلاسفة والجهمية
- ٤٧١ - الكلالية والأشعرية
- ٤٧٣ - التنازع في الاسم هل هو المسمى أو غيره؟
- ٤٧٥ - الهشامية والكرامية
- ٤٧٥ - رأي الجمهور وأهل الحديث
- - من قال: إن القرآن ليس كلام الله بل بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، فهو مبتدع
- ٤٧٩ - بطلان قول المعتزلة في أن المعاني لا تقوم به تعالى
- ٤٨٠ - الرد على المعطلة بحجة أن كلام الله منزّه عن الحدوث
- ٤٨٣ - الرد على القائل: كما لذاته التنزيه عن مساع الخلق فكذلك لقوله الحق
- ٤٨٥ - قول القائل: لفظي عن كلام الله باطل
- ٤٨٧ - توضيح الإمام لرأي الإمام الأشعري
- ٤٩٠ - جهنم ومن على شاكلته
- ٤٩٢ -

- ٤٩٥ مسألة القرآن واضطراب الناس فيها
- ٤٩٨ تناقض الفلاسفة في القول بقدم النفس وحدث الأبدان
- ٤٩٩ بعض الطرق الفعلية التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله
- ٥٠٢ قول الفلاسفة يبطل قول المعتزلة
- ٥٠٤ ما ذكره الرازي في التوافق بين الأدلة العقلية والنقل الصحيح
- ٥٠٧ * سئل عن بيان ما يجب على الإنسان أن يعتقد من أن ما في المصاحف هو كلام الله القديم
- ٥٠٨ الواجب في أمر العامة الإيمان بالثابت بالنص والإجماع وعدم الخوض في التفصيل
- ٥١٠ من قال: صوت القارئ ومداد الكاتب ليس بمخلوق فهو مخطئ
- ٥١١ الصواب اتباع النصوص الثابتة
- ٥١٣ * فصل: في نزول القرآن ولفظ النزول
- ٥١٣ لفظ النزول ثلاثة أنواع
- ٥١٦ نزول الحديد
- ٥٢٠ * سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾
- ٥٢١ القرآن منزل من عند الله
- ٥٢٢ بلاغ القرآن عن الله وكذا السُّنة عن الرسول ﷺ
- ٥٢٤ * فصل: في معنى قوله: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾
- ٥٢٥ الرد على قديم أفعال العباد
- ٥٢٧ الكلاية وتفريقهم بين معنى القرآن وحروفه
- ٥٢٩ * فصل: في تكليم الله موسى ﷺ
- ٥٣٠ غلط من قال: إنه مجاز
- ٥٣١ التكليم ثلاثة أنواع
- ٥٣٣ * فصل: في اختلاف الناس في خلق القرآن وأنه صفة الله
- ٥٣٦ غلط من قال: إن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق
- ٥٣٧ فساد قياس الجهمية في القول بأن القرآن كلام الله
- ٥٤٠ * فصل: في قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، وآيات أخرى فيها لفظ التنزيل
- ٥٤١ قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُمْ وَقَرَأْنَاهُ . فَلِذَا قَرَأْنَاهُ﴾
- ٥٤٣ اختلاف الكلاية على رأي السلف
- ٥٤٤ الأصوات أصواتنا والكلام لله
- ٥٤٥ الآثار تدل على أن الله ينادي بصوت
- ٥٤٦ اللفظ، والتلاوة، والقراءة
- ٥٤٧ الجهمية أول المبتدعين في الصفات والأسماء

- ٥٤٩ رأي السلف في معنى المتكلم
- ٥٥٠ الكرامية وافقوا الكلاية في رأيهم في الكلام
- ٥٥١ الجسم في اللغة وعند النظر وأهل الكلام
- ٥٥٥ * سئل عمن يقول بقدم كلام كل المخلوقات، وواجب ولي الأمر نحوهم
- ٥٥٨ صفات الله داخلة في مسمى أسمائه
- ٥٦٠ * فصل: في مسألة اللفظ بالقرآن والخلاف فيها
- ٥٦٢ - بطلان قول: إن حقيقة العلم تؤخذ من غير ما جاء به الرسول ﷺ
- ٥٦٤ - ذم أهل التفرق والاختلاف في الكتاب
- ٥٦٥ * فصل: في أن المخالفين يرتبون النتائج على مقدمات
- ٥٦٦ - القياس نوعان
- ٥٦٨ - قياس الأولى يستعمل عند أهل السلف وكذا الأقيسة العقلية
- ٥٧٠ - الصوفية يكفرون ابن سبعين
- ٥٧١ - الإيمان بالصفات مذهب أهل السنة
- ٥٧٣ - بطلان من قالوا: كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق، أما القرآن فهو مخلوق
- ٥٧٦ - الإمام البخاري ورأيه في الكلام
- ٥٧٨ - الكلاية يفرقون بين الصفات اللازمة والصفات الاختيارية
- ٥٨٠ - رأي السلف في الكلام
- ٥٨٢ - مخالفة الكلاية لأهل السنة
- ٥٨٤ * فصل: في فروخ اللفظية النافية والقول بأن حروف القرآن ليست من كلام الله ...
- ٥٨٦ - مراتب الوجود
- ٥٨٨ - التقدير والكتابة تكون جملة ثم تفصيلاً
- ٥٨٩ - كلام الله ليس بباطن منه
- ٥٩٠ * فصل: فيمن غلطوا اللفظية ثم زادوا شراً أكبر
- ٥٩١ * فصل: فيمن قالوا: لفظنا بالقرآن مخلوق، والتلاوة غير المتلو والكتابة غير المكتوب ..
- ٥٩٢ * فصل: نصوص الإمام أحمد أسد ما كتب في هذا الباب
- ٥٩٣ - معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾
- ٥٩٧ - تعريف الكلام المطلق
- ٥٩٩ * فصل: في تكلمنا بكلام الله
- ٦٠٢ - تنازع أهل العلم في حروف الهجاء والأسماء المنزلة في القرآن
- ٦٠٤ - الرد على الجهمية
- ٦٠٧ - محاجة الإمام أحمد لابن مكي

- * فصل: في نصوص الإمام أحمد في خلق كلام الآدميين وخلق أفعال العباد ٦١٠
- * فصل: سبب التنبيه على أصل مقالة الإمام أحمد ٦١١
- * فصل: في حرص الإمام أحمد وتكراره للمسألة، ورده على الجهمية ٦١٢
- * فصل: محنة الإمام أحمد، والرد على من قال إنه قال ذلك خوفاً من الناس ٦١٥
- * فصل: الشبهة هو أنهم وجدوا الناس قد تكلموا في حروف المعجم ٦١٦
- الإمام أحمد ينكر على من قال بخلق الحروف ٦١٧
- الحروف تختلف أحكامها باختلاف معانيها واختلاف المتكلم بها ٦٢١
- الحروف في كتاب الله من كلام الله ٦٢٢
- الكلام ينسب إلى من ألف معانيه ٦٢٥
- * فصل: هل يجب أجر من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة؟ ٦٢٩
- * فصل: هل يكفر القائل بما يخالف الكتاب والسنة؟ ٦٣٠
- * فصل: في مسائل التكفير والتفسيق وما يتعلق بذلك من الموالة والمعاداة والقتل والعصمة ٦٣١
- اليهود وجب عليهم الإقرار بما لا يجب علينا ٦٣٥
- عند ذم من ترك بعض الإيمان، يعرف أنه الإيمان الواجب ٦٣٦
- * فصل: في مسألة الأحكام ٦٣٧
- الخوارج والمعتزلة يوجبون النار بالكبائر ٦٣٧
- * فصل: في تكفير أهل البدع والأهوار بناء على ما قالوه ٦٤٠
- تكفير الجهمية ٦٤٠
- عدم تكفير المرجئة ٦٤٠
- عدم تكفير من يفضلون علياً ٦٤٠
- هناك أخطاء في الدين لا يكفر بها ولا يؤثم بها ٦٤٥
- أصلين: القول بخلاف ما جاء به الرسول ﷺ كفر، والتكفير العام كالوعيد العام .. ٦٤٦
- * سئل عن رجل قال: إن الله لم يكلم موسى وإنما خلق الكلام في الشجرة وموسى سمع منها، وأن الله لم يكلم جبريل بالقرآن ٦٤٩
- الجعد بن درهم أول من قال بهذا ٦٤٩
- الشافعي يكفر من قال بخلق القرآن، وسائر الأئمة يردون ٦٥١
- بطلان قول من قال: إن الله إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به ٦٥٣
- إجماع السلف والأئمة على أن القرآن غير مخلوق ٦٥٦
- * سئل عن رجلين تنازعا في تكليم الله موسى - عليه السلام ٦٦١
- الناس في الكلام بحرف وصوت ثلاثة أقسام ٦٦٢

- * سئل عن قال : إن الله كلم موسى ، وسمعتة أذناه ، وعن آخر قال : إن الله كلمه بواسطة ٦٦٦
- * سئل عن القرآن الذي نتلوه ، القائم بنا حين التلاوة ، هل هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ، وكان صفة له أم لا ؟ ٦٦٧
- الكلام المبلغ هو كلام المبلغ ٦٦٧
- * فصل : القرآن كلام الله الذي تكلم به ٦٧٢
- * سئل عن رجلين قال أحدهما : انقرآن المتلو كلام الله ، وقال الآخر : هو كلام جبريل ٦٧٧
- حكم من قال : إن القرآن كلام جبريل ٦٧٨
- * سئل عن يقول : الكلام غير المتكلم والقول غير القائل إلخ ٦٨٠
- الصواب في الكلام ٦٨٠
- * سئل : هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته ؟ ٦٨٢
- * فصل : في تواتر القرآن ٦٨٥
- * قال في الخلاف في الحروف : هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ ٦٨٧
- * سئل عن يقول : الشكل والنقط من كلام الله ٦٩٠
- * فصل : في القرآن والكلام ، هل هو حرف وصوت أم ليس بحرف وبصوت ؟ ٦٩١
- * سئل عن رجلين يرى أحدهما أن القرآن حرف وصوت ، ويرى الآخر أنه ليس بحرف ولا صوت ٦٩٤
- الله تكلم في القرآن بحروفه ومعانيه ٦٩٦
- النقط والشكل بيان للإعراب ٦٩٦
- أصل الاضطراب في مسألة كلام الله ٦٩٩
- منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام إلى التعطيل والكفر ٧٠١
- * سئل عن المصحف العتيق إذا تمزق ، ما يصنع به ؟ ٧٠٣